

كل التاريخ

ISSN: 2090 - 0449

<https://kan.journals.ekb.eg>



تأسست غرة جادى الأول 1429هـ
صدر العدد الأول سبتمبر 2008م
أول دورية عربية رقمية لحكمة ربع سنوية
متخصصة في البحوث والدراسات التاريخية
تصدر عن مؤسسة كان للدراسات والترجمة والنشر

مؤسسة كان للدراسات والترجمة والنشر
Kan Foundation for Studies,
Translation and Publishing

عدد خاص السنة الثامنة عشرة العدد الثالث والسبعون

معتمدة في الفهارس الدولية والإقليمية، من بينها
معامل التأثير العالمي، والعربي، وأرسيف،
ومسجلة في دليل أولريخ الدولي للدوريات،
ومعتمدة من المؤشر العربي لقياس جودة
المجلات العلمية، وحاصلة على المركز الأول في
الجائزة العربية للتميز العلمي والتكنولوجي.

نوفمبر ٢٠٢٠ - جمادى الأولى ١٤٤٧

f historicalkan

X kanhistorique



دورية كان التاريخية- س ١٨، ع ٧٣ (نوفمبر ٢٠٢٥ / جمادى الأول ١٤٤٧)

Dawriyyat Kān al-Tārīḥiyyat
Iliktrūniyyat, muḥakkamat, rub' sanawiyyat
Vol. 18, no. 73 [Nov. 2025]
Cairo – Arab Republic of Egypt.
Egyptian Knowledge Bank.
Information on this issue: <https://kan.journals.ekb.eg>

دورية كان التاريخية

إصدار مؤسسة كان للدراسات والترجمة والنشر- س ١، ع ١٦ (سبتمبر ٢٠٠٨). القاهرة: المؤسسة،
٢٠٠٨ – ٢٠٢٥ .

دورية إلكترونية مُحَكَّمَة ربع سنوية

متخصصة في البحوث والدراسات التاريخية

ردم ٢٠٩٠ – ٤٤٩

٢- الآثار

١- تاريخ

٤- التراث

٣- التراجم

ديوي ٩٠٥

Historical Kan Periodical

Published by Historical Kan Organization.- Vol.1, no.1 [September 2008].- Cairo:
Organization, 2008 – 2025.
Peer-reviewed, open-access journal.
Indexed and abstracted in several international databases.
ISSN: 2090 – 0449 (Online)
Keywords: History, Heritage, Archaeology, Biographies.

© ٢٠٢٥ دورية كان التاريخية – جميع الحقوق محفوظة

Copyright © 2025 Historical Kan Periodical

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, microfilming, recording or otherwise, without written permission from the publisher.

- النتائج والتفسيرات والاستنتاجات الواردة في هذه الدورية هي للمؤلفين، ولا تمثل بالضرورة المشرف العام أو رئيس التحرير أو أعضاء هيئة التحرير أو أعضاء الهيئة العلمية، أو أعضاء الهيئة الاستشارية، ولا يترتب عليها أي مسؤولية.
- ليس في التسميات المستخدمة في هذه الدورية، ولا في طريقة عرض مادتها، ما يتضمن التعبير عن أي رأي كان من جانب المشرف العام أو رئيس التحرير أو أعضاء هيئة التحرير أو أعضاء الهيئة العلمية، أو أعضاء الهيئة الاستشارية، بشأن المركز القانوني لأي بلد أو إقليم أو مدينة أو منطقة أو سلطات أي منها، أو بشأن تعيين حدودها أو تخومها، كما أن الخرائط الواردة في المقالات والدراسات لا تعتبر مرجعاً للحدود الدولية.
- الهدف من الروابط الإلكترونية الموجودة في هذه الدورية تسهيل وصول القارئ إلى المعلومات، وهي صحيحة في وقت استخدامها، ولا تتحمل الدورية أي مسؤولية عن دقة هذه المعلومات مع مرور الوقت، أو عن مضمون أي من المواقع الإلكترونية الخارجية المشار إليها.
- لا يعني ذكر أسماء جهات أكاديمية، أو مؤسسات علمية، أو شركات تجارية أن دورية كان التاريخية تدعمها.

أول دورية عربية إلكترونية محكمة ربع سنوية
متخصصة في الدراسات التاريخية
تأسست غرة جمادى الأول 1429هـ
صدر العدد الأول منها في سبتمبر 2008م



ISSN: 2090 – 0449 Online

مسجلة ومفهرسة في قواعد البيانات الببليوجرافية العالمية

- Academic Journals Database
- Access to Mideast and Islamic Resources, AMIR
- CORE: Open Access repositories
- Directory of Abstract Indexing for Journals, DAIJ
- Directory of Open Access Scholarly Resources, ROAD
- Directory of Research Journals Indexing, DRJI
- Eurasian Scientific Journal Index
- Google Scholar
- Host Online Research Databases, EBSCO
- Journal Database – Zurich Open Repository and Archive
- JOURNAL FACTOR – forum for promoting research work
- Journal Guide- Research Square
- ROOT INDEXING – Journal abstracting and indexing
- The researchBib Journal database
- Ulrichsweb
- WorldCat

مدرجة في الأداة الرقمية لمكتبات الجامعات والمراكز البحثية العالمية

- Birmingham Public Library
- Max Planck Institute for the Physics of Complex Systems
- National Cheng Kung University Library
- National Taiwan Normal University Library
- NYPL (New York Public Library)
- OALib - Open Access Library
- OREGON Health & Science University
- San Francisco Public Library
- SAN JOSÉ STATE UNIVERSITY
- Stanford University Libraries & Academic Information Resources
- State Library of New South Wales
- State Library of Queensland (Australia)
- The J. Paul Getty Trust
- The University of Texas at El Paso Library
- Toronto Public Library
- UCDAVIS University Library
- University of California
- University of Michigan
- University of Rochester
- University of South Australia
- Villanova University

دراسات ومقالات الدورية مفهرسة وذات خلاصات

<https://kan.journals.ekb.eg>

أعداد الدورية متوفرة للقراءة عبر:

دار ناشري للنشر الإلكتروني

أول دار نشر إلكترونية عربية مجانية تأسست يوليو ٢٠٠٣ - الكويت

www.nashiri.net



أعداد الدورية متوفرة للقراءة عبر:

أرشيف الإنترنت الرقمي العالمي

منظمة غير ربحية - سان فرانسيسكو - الولايات المتحدة

www.archive.org



مقالات الدورية مفهرسة في:

قاعدة معلومات اللغة والأدب والعلوم الإنسانية

دار المنظومة "الرواد في قواعد المعلومات العربية" - السعودية

www.mandumah.com



مقالات الدورية مفهرسة في:

قاعدة بيانات المنهل

أول قاعدة بيانات عربية تأسست ٢٠١٠ - الإمارات

www.almanhal.com



مقالات الدورية مفهرسة في:

قاعدة البيانات العربية الرقمية "معرفة"

شركة عالم المعرفة للمحتوى الرقمي تأسست ٢٠٠٤ - الأردن

www.e-marefa.net



دورية كان التاريخية مدرجة في:

دليل الدوريات العربية المجانية

الدوريات العلمية الفخمة الصادرة في الوطن العربي والمتاحة على شبكة الإنترنت مجاناً

www.dfaj.net



موقع دورية كان التاريخية مسجل لدى:

هيئة الإنترنت للأسماء والأرقام المخصصة

الايكان منظمة غير ربحية تأسست ١٩٩٨ - كاليفورنيا

www.icann.org



معتمدة من مركز مؤثر - برلين:

المؤشر العربي لقياس جودة المجلات العلمية

عن الالتزام بشروط النشر العلمي المعتمدة عالمياً.

<https://indexpolls.de>



المنتترف العام

تعتبر الدوريات شريانًا رئيسًا من شرايين المعلومات في المكتبات ومراكز المعلومات وخاصةً المكتبات الأكاديمية التي تولي اهتمامًا خاصًا للدوريات العلمية في مختلف مجالات المعرفة. ولقد ظلت الدوريات المطبوعة هي السائدة في مقتنيات المكتبات الأكاديمية حتى قبيل نهايات القرن العشرين وقبل التحول الجذري في وسائل نقل المعلومات إلى الوسيط الرقمي الذي يزداد يومًا بعد يوم.

أ.د. عبد العزيز غوردو

أستاذ التاريخ والحضارة

المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين

وجدة - المملكة المغربية

الهيئة الاستشارية

أ.د. خالد بلعربي	جامعة الجيلالي اليابس	الجزائر
أ.د. خليف مصطفى غرابية	جامعة البلقاء التطبيقية	الأردن
أ.د. الطاهر جبلي	جامعة أبي بكر بلقايد	الجزائر
أ.د. عارف محمد عبد الله الرعوي	جامعة إب	اليمن
أ.د. عائشة محمود عبد العال	جامعة عين شمس	مصر
أ.د. عبد الرحمن محمد الحسن	جامعة بخت الرضا	السودان
أ.د. عبد الناصر محمد حسن بس	جامعة سوهاج	مصر
أ.د. محمد الأمين ولد أن	جامعة نواكشوط	موريتانيا
أ.د. محمد عبد الرحمن يونس	جامعة ابن رشد	هولندا
أ.د. محمود أحمد درويش	جامعة المنيا	مصر
أ.د. ناظم رشم معتوق الأمارة	جامعة البصرة	العراق
أ.د. نهلة أنيس مصطفى	جامعة الأزهر	مصر

الهيئة العلمية

أ.د. أنور محمود زناتي	جامعة عين شمس	مصر
أ.د. عبد الحميد جمال الفراني	جامعة الأقصى	فلسطين
أ.د. غسان محمود وشاح	الجامعة الإسلامية	فلسطين
أ.د. ماجدة مولود رمضان الشرع	جامعة طرابلس	ليبيا

هيئة التحرير

د. إبراهيم برمّة أحمد	جامعة الملك فيصل	تشاد
د. زينب عبد التواب رياض	جامعة أسوان	مصر
د. غلا الطوخي إسماعيل	جامعة بنها	مصر
د. فهد عباس سليمان	جامعة كركوك	العراق
د. مأموؤو كان	جامعة العلوم الإسلامية	موريتانيا
د. محمد الصافي	جامعة الحسن الثاني	المغرب

” حسب الترتيب الأبجدي

تحددت مهام أعضاء الهيئة الاستشارية وفق مذكرة تأسيس دورية كان التاريخية في غرة جمادى الأول ١٤٢٩ هجرية، حيث تتكون الهيئة الاستشارية من خبراء ومتخصصين بهدف التعاون مع طاقم عمل الدورية لخدمة البحث العلمي، وتقديم الدعم الفني من خلال تبادل الآراء والمقترحات. والتواصل مع المؤسسات الأكاديمية العربية والأساتذة والباحثين بما يعزز مكانة الدورية في الأوساط العلمية. وتقديم المشورة والنصح في الموضوعات المطروحة من قبل هيئة التحرير. والتعريف بأهداف الدورية، وتشجيع الباحثين على النشر العلمي الرقمي. وتولي مهمة التوصية فيما يتعلق بتطوير الدورية من حيث الشكل والمضمون.

عملت هيئة التحرير ومنذ اليوم الأول على بناء الأرضية الثقافية الرقمية من أجل المساعدة في استحداث وعي ثقافي تاريخي عند الجيل العربي الشاب، وخصوصًا فيما يتعلق بأهمية التاريخ والتراث وارتباطهما المباشر بالهوية العربية والإنتاج الإبداعي الثقافي المستدام



"كان التاريخية" أول مبادرة عربية مستقلة متخصصة، تدعم مبدأ "المعبر المفتوح" في تداول المعرفة على شبكة الإنترنت بتشجيع النشر الرقمي للدراسات التاريخية، "كان التاريخية" غير هادفة للربح وتتيح نصوصها كاملة على شبكة الإنترنت، وتسعى إلى استيعاب روافد كل الأفكار والثقافات ذات البعد التاريخي.



كان التاريخية

حاصلة على "معامل التأثير العالمي" (UIF) للمجلات العالمية والعلمية.

حاصلة على "معامل التأثير العربي" (AIF) للدوريات العلمية العربية المَحَكَّمة.

مسجلة في دليل أولريخ الدولي للدوريات (UlrichsWeb) تحت رقم ٦٨٨١٤.

مصنفة ضمن تخصص التاريخ الفئة الوسطى المرتفعة (Q2) في معامل التأثير أرسيف.

عضو في الجمعية الدولية للمجلات العلمية الناشرة باللغة العربية.

رئيس التحرير

أ. د. أشرف صالح محمد سيد

أستاذ تاريخ وتراث العصور الوسطى

كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة ابن رشد



Magazine Cover

غلاف المجلة – تصميم خاص

المراسلات

توجه المراسلات والموضوعات المطلوبة للنشر باسم

رئيس تحرير دورية كان التاريخية على البريد الإلكتروني:

mr.ashraf.salih@gmail.com



historickan



groups/kanhistorique



kanhistorique



kanhistorique.blogspot.com



goodreads.com/kanhistorique



www.kan.nashiri.net



<https://kan.journals.ekb.eg>



كان التاريخية علمية، عالمية، محكمة. ربع سنوية

السنة الثامنة عشرة – العدد الثالث والسبعون – نوفمبر ٢٠٢٥

الإستعار القانوني

دورية كان التاريخية غير مدعومة من أية جهة داخلية أو خارجية أو حزب أو تيار سياسي، إنما هي منبر علمي ثقافي يعتمد على جهود المخلصين من أصحاب الفكر ومحبي الثقافة الذين يؤمنون بأهمية الدراسات التاريخية.

موضوعات الدورية

الدورية متخصصة في المقالات والدراسات العلمية والأكاديمية البحتة التي تخص أساتذة وطلاب الجامعات العربية، وأصحاب الدراسات العليا، والباحثين في الدراسات التاريخية، والمهتمين بالقراءات التاريخية، وتعتبر الموضوعات المنشورة في الدورية عن وجهة نظر كاتبها، ولا تعبر بالضرورة عن جهة نظر دورية كان التاريخية أو هيئة التحرير.

حقوق الملكية الفكرية

لا تتحمل دورية كان التاريخية أية مسؤولية عن الموضوعات التي يتم نشرها في الدورية. ويتحمل الكاتب بالتالي كامل المسؤولية عن كتاباتهم التي تخالف القوانين أو تنتهك حقوق الملكية أو حقوق الآخرين أو أي طرف آخر.

حقوق الطبع والنشر والترجمة

جميع حقوق الطبع والنشر الورقي والرقمي والترجمة محفوظة لدورية كان التاريخية، وبموجب الاعتماد والتسجيل الممنوح للدورية يحق لرئيس التحرير اتخاذ الإجراءات القانونية تجاه أي فرد أو مؤسسة أو موقع على شبكة الإنترنت يعيد استخدام محتويات الدورية بدون اتفاقية قانونية.

رخصة التشارك الإبداعي

دورية كان التاريخية مسجلة تحت التراخيص العامة غير التجارية لدى منظمة التشارك الإبداعي في سان فرانسيسكو استنادًا إلى موقعها الإلكتروني. "كان التاريخية" غير تجارية ولا تفرض رسوم على المراجعة والتحكيم والنشر.

إدارة المعرفة

كان التاريخية تعمل بنظام منظمات المعرفة، تدعم قيم التبادل المعرفي، يتعاون فيها الجميع بصفة تطوعية ولغايات غير ربحية، من أجل المحافظة على الهوية الثقافية العربية والإسلامية وخصوصًا اللغة العربية كونها الوسيط الرئيس للتواصل وتبادل الأبحاث التاريخية بين البلدان العربية.

علاقات تعاون

ترتبط دورية كان التاريخية بعلاقات تعاون مع عدة مؤسسات عربية ودولية بهدف تعزيز العمل العلمي في المجالات ذات الاختصاص المشترك، وتعظيم الفائدة من البحوث والدراسات التي تنشرها الدورية، وتوسيع حجم المشاركة لتشمل الفائدة كل أنحاء الوطن العربي.



الرجاء مراعاة البيئة قبل الطباعة، لا تطبع صفحات الدورية إلا إذا كنت في حاجة إليها بصورة ورقية.

دَّورِيَّةُ كَانِ التَّارِيخِيَّةِ

علمية. عالمية. مُحَكَّمَةٌ. ربع سنوية

أَخْلَاقِيَّاتُ النَّشْرِ وَالنَّزَاهَةُ الْعِلْمِيَّةُ

يستند بيان أخلاقيات النشر وسوء الممارسة الخاص بدورية كان التاريخية على مدونة قواعد السلوك والمبادئ التوجيهية لأفضل الممارسات التي تهّم محرري المجلات العلمية والتي أصدرتها (COPE) لجنة أخلاقيات النشر (Committee on Publication Ethics) وتتخذ هيئة التحرير جميع الإجراءات اللازمة ضد أي نوع من الممارسات الخاطئة في مجال النشر، وذلك بحفاظها على مراقبة جميع المراحل والإجراءات المتضمنة في عملية النشر العلمي. وبناءً على هذا يعتبر منع سوء الممارسة في النشر مثل الانتحال أو إعادة الطبع غير المصرح به، أحد المسؤوليات الملزمة لفريق عمل الدورية، الذي لا يتسامح بدوره مع أي نوع من السلوك الذي لا يلتزم بأخلاقيات النشر، وهو مدرك تمامًا مسؤولياته والتزاماته الأخلاقية.

عملية التحكيم

تتم مراجعة المقالات في البداية من طرف رئيس التحرير. وقد يرفض رئيس التحرير المقال المقدم قبل إخضاعه لعملية مراجعة الأقران، إما لأنه لا يتّصل بنطاق وموضوعات الدورية أو لأنه ذو جودة متدنية تجعله لا يرتقي للتحكيم على الإطلاق. وينبغي على رئيس التحرير تقييم المقالات بغض النظر عن انتماءات المؤلفين العرقية أو جنسهم أو معتقداتهم الدينية أو جنسيتهم أو مواقفهم الفكرية. وينبغي أن يستند قرار رئيس التحرير بقبول أو رفض المقال المقدم للنشر إلى أهمية العمل وأصالته ووضوحه وصلته بأهداف ومجال تخصص الدورية. يتم إرسال المقالات التي اعتبرت مؤهلة للمراجعة إلى محكمين اثنين على الأقل ممن لديهم خبرة في مجال المادة المقدمة. ويجب أن يكون المحكمون للمقال غير معروفين لبعضهم البعض. كما يطلب منهم أن يقرروا ما إذا كان المقال قابلاً للنشر كما هو، أم أنه قابل للنشر مع تغييرات طفيفة، أو تغييرات جذرية، أو لا يمكن نشره على الإطلاق. وينبغي على رئيس التحرير عدم النظر في إعطاء المؤلفين إمكانية ترشيح محكمين أو طلبهم ألا يقوم محكمون معينون بمراجعة أوراقتهم.

النزاهة الأكاديمية وتضارب المصالح

يجب على رئيس التحرير وأعضاء هيئة التحرير عدم استخدام المواد غير المنشورة التي تم الكشف عنها في الورقة المقدمة لأغراضهم البحثية. ويجب الحفاظ على سرية الأفكار المبتكرة أو البيانات المكتسبة في عملية مراجعة الأقران بكل حزم ويجب عدم استخدامها للمصلحة الشخصية. ويجب على رئيس التحرير أن يطلب من المحكمين الكشف عن أي تضارب مصالح عند قبولهم تحكيم عمل ما وعند إرسال تقارير التحكيم. كما يجب على رئيس التحرير أن يطلب من المحكمين رفض المشاركة في التحكيم إذا كانوا في وضع لا يسمح لهم بالقيام بمراجعة غير متحيّزة.

مسؤولية رئيس التحرير

يتكون فريق عمل دورية كان التاريخية من متخصصين معترف بهم في مجال الدراسات التاريخية والأثرية والتراثية. ويتولّى رئيس تحرير الدورية نشر أسماء أعضاء الهيئة الاستشارية وهيئة التحرير وانتماءاتهم ومعلومات الاتصال بهم على موقع الدورية الرسمي عبر شبكة الإنترنت.

قرار النشر

يتحمل رئيس التحرير مسؤولية التصرف النهائي في جميع عمليات التقديم للنشر والمراجعات الرئيسية أو الجزئية أو القبول أو الرفض. ويستند قرار النشر أو عدم النشر إلى تقارير المحكمين وملاحظاتهم والقيمة العلمية للبحث وأصالته ووضوحه وجدواه وصلته بمجال تخصص الدورية. وقد يحتاج رئيس التحرير إلى استشارة المحررين الآخرين أو المحكمين المتخصصين في اتخاذ القرارات حول البحوث المقدمة. ويأخذ رئيس التحرير أيضًا بعين الاعتبار المسوّغات القانونية المتعلقة بالتشهير وانتهاك حقوق الطبع والنشر والسرقة الأدبية.

السرية

رئيس التحرير وأعضاء هيئة التحرير ليسوا ملزمين بالكشف عن أي معلومات حول البحث المقدم لأي شخص آخر غير المؤلف والمحكمين والمراجعين المحتملين ومستشاري التحرير الآخرين والناشر حسب الاقتضاء. إن عملية المراجعة العلمية سرية للغاية، والدورية ملتزمة التزامًا تامًا بسياسة مراجعة الأقران المزدوجة التعمية.

كان التاريخية هي أول دورية عربية مُحَكَّمَةٌ ربع سنوية متخصصة في الدراسات التاريخية تصدر في شكل إلكتروني، تأسست غرة جمادى الأولى ١٤٢٩ هجرية، وصدر العدد الأول منها في أيلول ٢٠٠٨. كان التاريخية تعمل بنظام منظمات المعرفة، تدعم قيم التبادل المعرفي، يتعاون فيها الجميع بصفة تطوعية ولغايات غير ربحية، من أجل المحافظة على الهوية الثقافية العربية والإسلامية وخصوصًا اللغة العربية كونها الوسيط الرئيس للتواصل وتبادل الأبحاث التاريخية بين البلدان العربية.

مسؤولية المؤلف (الكاتب)

يلتزم المؤلفون بمبادئ ومعايير أخلاقيات البحث والنشر العلمي، وتخضع جميع الأوراق العلمية لكشف السرقة الأدبية، وتُرفض كل ورقة بحثية لا تلتزم بسياسات وقواعد النشر المحددة من قبل دورية كان التاريخية. ويجب على المؤلف عند تقديم البحث تجنب الموضوعات غير الأخلاقية، والعرقية، والمذهبية، والمعلومات المزيفة، مع إدراج تفاصيل المصادر والمراجع ضمن الورقة البحثية.



الأمانة وسلوك التأليف المسؤول

يجب على المؤلفين الابتعاد عن جميع أنواع السلوك غير الأخلاقي مثل الانتحال والافتعال والتزوير. وتجنب السلوك غير الأخلاقي بتقديم البحث نفسه إلى أكثر من مجلة واحدة في الوقت نفسه. كما يجب على المؤلفين تقديم أعمال أصلية خالصة، ويجب ذكر مساهمة الآخرين فيها بشكل صحيح، مع الاستشهاد بالأبحاث التي كان لها أثر في تحديد طبيعة البحث المقدم. وإذا اكتشف المؤلف خطأ فادحاً في عمله المنشور يجب عليه إبلاغ رئيس التحرير أو الناشر بحذف الخطأ أو تصويبه.

حقوق النشر

يحتفظ المؤلفون بحقوق الطبع والنشر لعمالهم، وبمجرد قبول الورقة للنشر فإن حقوق الطبع والنشر والترجمة لورقته العلمية تنقل إلى دورية كان التاريخية، وتوزع بموجب ترخيص (CC BY-NC 4.0) والذي يسمح بالاستخدام غير المقيّد والتوزيع والاستنساخ في أي وسيط بشرط ذكر كل ورقة علمية وتوثيقها توثيقاً صحيحاً وعزوها إلى مصدرها.

تضارب المصالح

إذا كان هناك أي تضارب مصالح محتمل أثناء أو بعد عملية مراجعة الأقران يجب على المؤلفين الإفصاح عنه لرئيس التحرير أو الناشر على الفور. ومن أجل تأمين عدم تضارب المصالح يتم اختيار مراجع ليس له علاقة أو مصلحة مع المؤلف، أو أحد المؤلفين، أو المؤسسات الجامعية أو الهيئة العلمية التي ينتمي إليها المؤلف، وفي كل الأحوال تُعتمد المراجعة المزدوجة للأبحاث المقدمة للنشر.

مسؤولية المحكم (المراجع)

تتبنى دورية كان التاريخية أسلوب مراجعة الأقران المزدوجة التعمية. ويساعد المحكمون رئيس التحرير على اتخاذ القرارات التحريرية، كما يمكن أن يساعدوا المؤلف على تحسين الورقة البحثية من خلال تقاريرهم العلمية.

سلوك التحكيم المسؤول

لا يفترض أن يقوم المحكمون بفحص البحوث التي تقع خارج مجال تخصص دورية كان التاريخية. ويجب على أي محكم خارجي غير مؤهل أو غير مستعد لمراجعة البحث المقدم أن يعلم رئيس التحرير وينسحب من عملية التحكيم. وعلى المحكم المبادرة والسرعة في القيام بتقييم البحث الموجه إليه في الآجال المحددة، ويجب ألا يستخدم المحكمون أي معلومات أو بيانات تم الحصول عليها من البحث التي تم تحكيمه لمصلحتهم الشخصية. ويجب ألا يقبل المحكمون بتحكيم البحوث التي يكون لهم فيها تضارب مصالح نتيجة لعلاقات تنافسية أو تعاونية أو غيرها مع المؤلف (المؤلفين). كما يجب على المحكمين أن يعلموا رئيس التحرير بأي تشابه أو تداخل كبير بين البحث الذي تم تحكيمه وأي أعمال أخرى منشورة يعرفونها.

السرية والموضوعية

يجب على جميع المحكمين الذين يقومون بمراجعة الأوراق العلمية أن يفهموا ويتقيدوا بمعايير السرية، ومعاملة البحوث التي تم استلامها للتحكيم كوثائق سرية. ويجب عليهم عدم الكشف عنها أو مناقشتها مع الآخرين باستثناء ما يأذن به رئيس التحرير. وينبغي على المحكمين إجراء عملية التحكيم بشكل موضوعي ويجب ألا يوجهوا أي نقد شخصي للمؤلف. ويجب على المحكمين التعبير عن وجهات نظرهم بنزاهة ووضوح مع ذكر الأدلة والحجج الداعمة.

دورية كان التاريخية هي دورية علمية عالمية مُحكمة تعتمد سياسة المراجعة المزدوجة وتصدرها مؤسسة كان للدراسات والترجمة والنشر. إن الهدف الرئيس من الدورية هو دعم الدراسات التاريخية المتخصصة وتوفير منصة فكرية للباحثين من كافة أنحاء العالم. تصدر الدورية أربعة أعداد في السنة وتقبل الأوراق البحثية المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية. كما تنشر الدورية مقالات أصلية وعالية الجودة في مجالات العلوم المساعدة ذات العلاقة، ويشمل ذلك كل العلوم نظراً لطبيعة التاريخ كعلم يتناول النشاط الإنساني كافة. ويشمل ذلك مجموعة واسعة من مواضيع ومناهج ورؤى متخصصة تستجيب لطيف كبير من القراء ذوي التخصصات المتعددة.

تشرح العملية التحكيمية

- هيئة التحرير تدير عملية التحكيم السري للمقالات والدراسات المقدمة لتحديد صلاحيتها للنشر، ويلتزم الباحث بالأخذ بملاحظات المحكمين.
- يتم تقييم وفحص جميع الأوراق المقدمة للنشر مبدئيًا من قبل المحرر للتأكد من ملاءمتها للمجلة.
- يتم إرسال المقالات والدراسات التي تعتبر مناسبة عادةً إلى ما لا يقل عن اثنين من الخبراء المستقلين المراجعين لتقييم الجودة العلمية للورقة.
- مدة التحكيم ثلاثة أسابيع ويبلغ المحكم بذلك، وبعدها يجب أن يرد المحكم أما (قبولاً) وهو قبول البحث للنشر، أو (قبولاً بشرط التعديل)، وهو قبول البحث للنشر بشروط إجراء بعض التعديلات عليه، أو (رفضاً) وهو التوصية بالاعتذار عن نشر البحث.
- المحرر مسؤول عن القرار النهائي بشأن قبول المقالات أو رفضها.
- لا يشارك المحررون في القرارات المتعلقة بالأوراق التي كتبوها بأنفسهم أو التي كتبها الزملاء. ويخضع أي إرسال من هذا القبيل لجميع الإجراءات المعتادة للمجلة، مع التعامل مع التحكيم (مراجعة الأقران) بشكل مستقل عن المحرر المعني ومجموعات البحث الخاصة بهم.

التسليم

- ترسل الأوراق العلمية مع مرفقاتها بالبريد الإلكتروني إلى الدورية.
- يقدم المؤلف نسخة من البحث مكتوبة على برنامج Microsoft Word.
- يرفق الباحث سيرته العلمية وبيانات التواصل معه.
- يتلقى المؤلف إشعارًا بالاستلام من مديرية التحرير.

الفحص الأولي

- تقوم هيئة التحرير بفحص الورقة العلمية للنظر إذا ما كانت مطابقة لقواعد النشر الشكلية المعلن عنها ومؤهلة للتحكيم العلمي.
- يعتمد في الفحص الأولي على ملاءمة الموضوع للدورية، ونوع المادة العلمية (مقال / دراسة / ترجمة / تقرير / عرض كتاب / عرض أطروحة)، وسلامة اللغة، ودقة التوثيق والإسناد بناءً على نظام التوثيق المعتمد في الدورية، بالإضافة إلى عدم خرق أخلاقيات النشر العلمي.
- يجري إبلاغ المؤلف باستلام الورقة البحثية وبنتيجة الفحص الأولي.
- في هذه المرحلة إذا وجدت هيئة التحرير أن الورقة البحثية بحاجة إلى تحسينات ما قبل التحكيم، فتقدم للمؤلف إرشادات أو توصيات ترشده إلى سبل التحسين مما يساعد على تأهيل الورقة البحثية لمرحلة التحكيم.

التحكيم

- تخضع كل دراسة للمراجعة المزدوجة من أعضاء لجنة المراجعة والتحكيم العلمي.
- يُبلغ المؤلف بتقرير من هيئة التحرير يبين قرار المراجعة العلمية، وخلاصة الملاحظات والتعديلات المطلوبة إن وجدت، ويرفق معه تقارير المراجعين أو خلاصات عنها.
- تبقى أسماء المراجعين مغفلة في التقرير الذي يُرسل إلى المؤلف.

دورية كان التاريخية مجهزة وتم اعتماد محتوياتها ضمن عدد وافر من قواعد البيانات العلمية العربية والعالمية التي تتيح مجال الاستفادة منها والرجوع إليها باستمرار. وهي ضمن المجلات العلمية المعتمدة من اتحاد الجامعات العربية منذ نوفمبر ٢٠١٩. وحاصلة على معامل التأثير العالمي منذ (٢٠١٥) ومعامل التأثير العربي منذ (٢٠١٦)، ومعتمدة من المؤشر العربي لقياس جودة المجلات العلمية (٢٠١٨)، ومسجلة في دليل أولريخ الدولي للدوريات تحت رقم (٦٨٨٨١٤). وحاصلة على الجائزة العربية للتميز العلمي والتكنولوجي (٢٠١٩).

إجراء التعديلات

- يقوم المؤلف بإجراء التعديلات اللازمة على الدراسة استنادًا إلى نتائج التحكيم.
- يعيد المؤلف إرسال المقال / الدراسة إلى الدورية بعد استيفاء طلبات المراجعين.

القبول والرفض

- تحتفظ الدورية بحق القبول والرفض استنادًا إلى التزام المؤلف بقواعد النشر وتوجيهات هيئة التحرير.
- يرسل إلى المؤلف خطاب قبول النشر، ويأخذ المقال دوره في جدول النشر حسب أسبقية الوصول، وترسل نسخة من الدورية إلى البريد الإلكتروني للمؤلف فور النشر.

أجور المحكمين

- لا تعتمد دورية كان التاريخية أية رسوم مقابل المراجعة العلمية والتحكيم والمراجعة اللغوية والتنسيق والنشر والأرشيف وفهرسة المقالات والدراسات.
- يتعاون مع دورية كان التاريخية بصفة تطوعية هيئة من المراجعين والمحكمين من ذوي الخبرة البحثية والمكانة العلمية المتميزة. ولا تدفع الدورية أية مكافآت مالية مقابل عملية المراجعة والتحكيم وتقييم المقالات والدراسات المقدمة للنشر.



أعضاء هيئة التحكيم

تتميز دورية كان التاريخية بهيئة تحكيم متخصصة ذات كفاءة من أساتذة الجامعات العربية والخبراء ممن عُرفوا بطول الباع في مجال الدورية والمجالات ذات العلاقة، وممن أصدروا كتباً أو أبحاثاً علمية متميزة في تخصص الدورية. وتعتمد هيئة التحكيم مبدأ الحياد والموضوعية في تحكيم المواد العلمية المرشحة للنشر مع الحرص على خلو الأعمال من التطرف الفكري أو مساسها بمبادئ الأشخاص أو الأنظمة.

المقيّمون والمحكمون

أ.د. إبراهيم القادري بوتشيش	جامعة مولاي إسماعيل	المغرب	•	تاريخ الحروب الصليبية.
أ.د. إبراهيم خليل العلاف	جامعة الموصل	العراق	•	تاريخ العصور الوسطى.
أ.د. أحمد السري	جامعة صنعاء	اليمن	•	تاريخ الأزمات والأوبئة.
أ.د. أحمد عبد الله الخسّو	مركز الحسو للدراسات الكمية والتراثية	بريطانيا	•	تاريخ الأدب العربي.
أ.د. أسامة عبد المجيد العاني	كلية الفارابي الجامعة	العراق	•	تاريخ العالم القديم.
أ.د. إمام الشافعي محمد حمودي	جامعة الأزهر	مصر	•	تراجم والنساب.
أ.د. أمين محمد علي الجير	جامعة زمار	اليمن	•	التاريخ المقارن.
أ.د. أيمن وزيري	جامعة الفيوم	مصر	•	•
أ.د. بوحسون العربي	جامعة تلمسان	الجزائر	•	•
أ.د. حبيب البدوي	الجامعة اللبنانية	لبنان	•	•
أ.د. الحسن تاوشينخت	المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث	المغرب	•	•
أ.د. حسين صالح حسين العنسي	جامعة زمار	اليمن	•	•
أ.د. حنفي هلايلي	جامعة جيلالي ليايس	الجزائر	•	•
أ.د. خالد حسين محمود	جامعة عين شمس	مصر	•	•
أ.د. ذاكر محي الدين عبد الله العراقي	جامعة الموصل	العراق	•	•
أ.د. رضوان شافو	جامعة الوادي	الجزائر	•	•
أ.د. سعاد يمينية شبوط	جامعة أبي بكر بلقايد	الجزائر	•	•
أ.د. سعيد بن محمد الهاشمي	جامعة السلطان قابوس	سلطنة عمان	•	•
أ.د. شعيب مقنونيف	جامعة "أبوبكر بلقايد" تلمسان	الجزائر	•	•
أ.د. صالح محمد زكي اللهبي	جامعة الجزيرة	الإمارات	•	•
أ.د. عادل بن يوسف	جامعة صفاقس	تونس	•	•
أ.د. عبد الرحيم مرشدة	جامعة جدارا	الأردن	•	•
أ.د. عبد العزيز رمضان	جامعة الملك خالد	السعودية	•	•
أ.د. عبد القادر سلامي	جامعة تلمسان	الجزائر	•	•
أ.د. عبد الله علي نوح	جامعة بنغازي	ليبيا	•	•
أ.د. العربي عقون	جامعة قسنطينة (٢)	الجزائر	•	•
أ.د. عطاء الله أحمد فشار	جامعة زيان عاشور	الجزائر	•	•
أ.د. عماد جاسم حسن الموسوي	جامعة ذي قار	العراق	•	•
أ.د. فاروق إسماعيل	جامعة حلب (سابقا)	سوريا	•	•
أ.د. كرفان محمد أحمد	جامعة دهوك	العراق	•	•
أ.د. كمال السيد أبو مصطفى	جامعة الإسكندرية	مصر	•	•
أ.د. لمياء بوقريوة	جامعة الحاج لخضر باتنة	الجزائر	•	•
أ.د. مبارك لمين بن الحسن	جامعة ابن زهر	المغرب	•	•
أ.د. محمد دوکوري	الجامعة الإسلامية	النيجر	•	•
أ.د. مصطفى غطيس	جامعة عبد الملك السعدي	المغرب	•	•
أ.د. وجدان فريق عناد	جامعة بغداد	العراق	•	•

”حسب الترتيب الأبجدي

يتم تحديث القائمة حسب مساهمات الأساتذة للمرة الأولى في نشر أبحاثهم على صفحات الدورية، وبعد الاطلاع على السيرة العلمية، ومراعاة الخبرات الأكاديمية، والإنتاج الفكري، والإشراف على الأطاريح الجامعية، ومدى الاستعداد للانضمام إلى فريق عمل الدورية بصفة تطوعية.

ترحب دَّورِيَّةُ كَانِ التَّارِيخِيَّةِ بنشر البحوث الجيدة والجديدة المبتكرة في أي من حقول الدراسات التاريخية، أو العلوم المساعدة ذات العلاقة، ويشمل ذلك كل العلوم نظراً لطبيعة التَّارِيخِ كعلم يتناول النشاط الإنساني كافة. مع مراعاة عدم تعارض الأعمال العلمية المقدمة للنشر مع العقائد السماوية، وألا تتخذ أية صفة سياسية، وألا تتعارض مع الأعراف والأخلاق الحميدة، وأن تتسم بالجِدَّة والأصالة والموضوعية، وتكتب بلغة عربية سليمة، وأسلوب واضح.

سياسات النشر

تسعى دَّورِيَّةُ كَانِ التَّارِيخِيَّةِ إلى استيعاب روافد كل الأفكار والثقافات ذات البعد التاريخي، ويسعدها أن تستقبل مساهمات أصحاب القلم من الأساتذة الأكاديميين والباحثين والكتَّاب المثقفين الأفاضل، ضمن أقسام الدورية: البحوث والدراسات، عروض الكتب، عروض الأطاريح الجامعية، تقارير اللقاءات العلمية.

رسوم النشر

تلتزم دورية كان التاريخية بمجانية النشر، وتُعفي الباحثين والمؤلفين من جميع رسوم النشر والمراجعة والتحكيم.

هيئة التحرير:

- تُعطى الأولوية في النشر للبحوث والعروض والتقارير حسب الأسبقية الزمنية للورود إلى هيئة تحرير الدورية، وذلك بعد إجازتها من هيئة التحكيم، ووفقاً للاعتبارات العلمية والفنية التي تراها هيئة التحرير.
- تقوم هيئة التحرير بالقراءة الأولية للبحوث العلمية المقدمة للنشر بالدورية للتأكد من توافر مقومات البحث العلمي، وتخضع البحوث والدراسات والمقالات بعد ذلك للتحكيم العلمي والمراجعة اللغوية.
- يكتفي بالإجازة من قبل اثنين من أعضاء هيئة التحرير لنشر مراجعات الكتب، والأطاريح الجامعية، وتقارير اللقاءات العلمية.
- يحق لهيئة التحرير إجراء التعديلات الشكلية على المادة المقدمة للنشر لتكن وفق المعيار (IEEE) تنسيق النص في عمودين، مع مراعاة توافق حجم ونوع الخط مع نسخة المقال المعياري.
- تقوم هيئة التحرير باختيار ما تراه مناسباً للنشر من الجرائد والمجلات المطبوعة والإلكترونية مع عدم الإخلال بحقوق الدوريات والمواقع وذكر مصدر المادة المنشورة.

هيئة التحكيم:

- يعتمد قرار قبول البحوث المقدمة للنشر على توصية هيئة التحرير والمحكمين؛ حيث يتم تحكيم البحوث تحكيمياً سرياً بإرسال العمل العلمي إلى المحكمين بدون ذكر اسم الباحث أو ما يدل على شخصيته، ويرفق مع العمل العلمي المراد تحكيمه استمارة تقويم تضم قائمة بالمعايير التي على ضوءها يتم تقويم العمل العلمي.
- يستند المحكمون في قراراتهم في تحكيم البحث إلى مدى ارتباط البحث بحقل المعرفة، والقيمة العلمية لنتائجه، ومدى أصالة أفكار البحث وموضوعه، ودقة الأدبيات المرتبطة بموضوع البحث وشمولها، بالإضافة إلى سلامة المنهج العلمي المستخدم في الدراسة، ومدى ملاءمة البيانات والنتائج النهائية لفرضيات البحث، وسلامة تنظيم أسلوب العرض من حيث صياغة الأفكار، ولغة البحث، وجودة الجداول والأشكال والصور ووضوحها.
- البحوث والدراسات التي يقترح المحكمون إجراء تعديلات جذرية عليها تعاد إلى أصحابها لإجرائها في موعد أقصاه أسبوعين من تاريخ إرسال التعديلات المقترحة إلى المؤلف، أما إذا كانت التعديلات طفيفة فتقوم هيئة التحرير بإجرائها.
- تبذل هيئة التحرير الجهد اللازم لإتمام عملية التحكيم، من متابعة إجراءات التعديل، والتحقق من استيفاء التصويبات والتعديلات المطلوبة، حتى التوصل إلى قرار بشأن كل بحث مقدم قبل النشر، بحيث يتم اختصار الوقت اللازم لذلك إلى أدنى حد ممكن.
- في حالة عدم مناسبة البحث للنشر، تقوم الدورية بإخطار الباحث بذلك، أما بالنسبة للبحوث المقبولة والتي اجتازت التحكيم وفق الضوابط العلمية المتعارف عليها، واستوفت قواعد وشروط النشر بالدورية، فيُمنح كل باحث إفادة بقبول بحثه للنشر.
- تقوم الدورية بالتدقيق اللغوي للأبحاث المقبولة للنشر، وتقوم هيئة التحرير بعد ذلك بمهمة تنسيق البحث ليخرج في الشكل النهائي المتعارف عليه لإصدارات الدورية.

إرشادات المؤلفين [الاشتراطات الشكلية والمنهجية]

ينبغي ألا يزيد حجم البحث على ثلاثين (٣٠) صفحة، مع الالتزام بالقواعد المتعارف عليها عالميًا بشكل البحوث، بحيث يكون المحتوى حسب التسلسل: ملخص، مقدمة، موضوع البحث، خاتمة، ملاحق: (الأشكال / الجداول)، الهوامش، المراجع.

البحوث والدراسات العلمية

تقبل الأعمال العلمية المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية التي لم يسبق نشرها أو تقديمها للنشر في مجلة إلكترونية أو مطبوعة أخرى.

تقبل البحوث والدراسات المنشورة من قبل في صورة ورقية، ولا تقبل الأعمال التي سبق نشرها في صورة رقمية: مدونات / منتديات / مواقع / مجلات إلكترونية، ويستثنى من ذلك المواضيع القيمة حسب تقييم رئيس التحرير.

يجب أن يتسم البحث العلمي بالجودة والأصالة في موضوعه ومنهجه وعرضه، متوافقًا مع عنوانه.

التزام الكاتب بالأمانة العلمية في نقل المعلومات واقتباس الأفكار وعزوها لأصحابها، وتوثيقها بالطرق العلمية المتعارف عليها.

اعتماد الأصول العلمية في إعداد وكتابة البحث من توثيق وهوامش ومصادر ومراجع، مع الالتزام بعلامات الترقيم المتنوعة.

عنوان البحث:

يجب ألا يتجاوز عنوان البحث عشرين (٢٠) كلمة، وأن يتناسب مع مضمون البحث، ويدل عليه، أو يتضمن الاستنتاج الرئيس.

نبذة عن المؤلف (المؤلفين):

يقدم مع البحث نبذة عن كل مؤلف في حدود (٥٠) كلمة تبين آخر درجة علمية حصل عليها، واسم الجامعة (القسم / الكلية) التي حصل منها على الدرجة العلمية والسنة. والوظيفية الحالية، والمؤسسة أو الجهة أو الجامعة التي يعمل لديها، والمجالات الرئيسة لاهتماماته البحثية. مع توضيح عنوان المراسلة (العنوان البريدي)، وأرقام (التليفون - الموبايل / الجوال - الفاكس).

صورة شخصية:

ترسل صورة واضحة لشخص الكاتب لنشرها مع البحث، كما تستخدم بغرض إنشاء صفحة للكاتب في موقع الدورية على شبكة الإنترنت.

ملخص البحث:

يجب تقديم ملخص للبحوث والدراسات باللغة العربية في حدود (٣٥٠ - ٣٠٠) كلمة. البحوث والدراسات باللغة الإنجليزية، يرفق معها ملخص باللغة العربية في حدود (١٥٠ - ٢٠٠) كلمة.

الكلمات المفتاحية:

الكلمات التي تستخدم للفهرسة لا تتجاوز عشرة كلمات، يختارها الباحث بما يتواءم مع مضمون البحث، وفي حالة عدم ذكرها، تقوم هيئة التحرير باختيارها عند فهرسة المقال وإدراجه في قواعد البيانات بغرض ظهور البحث أثناء عملية البحث والاسترجاع على شبكة الإنترنت.

مجال البحث:

الإشارة إلى مجال تخصص البحث المرسل "العام والدقيق".

المقدمة:

تتضمن المقدمة بوضوح دواعي إجراء البحث (الهدف)، وتسائلات وفرضيات البحث، مع ذكر الدراسات السابقة ذات العلاقة، وحدود البحث الزمانية والمكانية.

موضوع البحث:

يراعي أن تتم كتابة البحث بلغة عربية سليمة واضحة مركزة وبأسلوب علمي حيادي. وينبغي أن تكون الطرق البحثية والمنهجية المستخدمة واضحة، وملائمة لتحقيق الهدف، وتتوفر فيها الدقة العلمية. مع مراعاة المناقشة والتحليل الموضوعي الهادف في ضوء المعلومات المتوفرة بعيدًا عن الحشو (تكرار السرد).

الجدول والأشكال:

ينبغي ترقيم كل جدول (شكل) مع ذكر عنوان يدل على فحواه، والإشارة إليه في متن البحث على أن يدرج في الملاحق. ويمكن وضع الجداول والأشكال في متن البحث إذا دعت الضرورة إلى ذلك.

الصور التوضيحية:

في حالة وجود صور تدعم البحث، يجب إرسال الصور على البريد الإلكتروني في «ملف منفصل» على هيئة (JPEG)، حيث أن وضع الصور في ملف الكتابة (Word) يقلل من درجة وضوحها (Resolution).

خاتمة (خلاصة):

تحتوي على عرض موضوعي للنتائج والتوصيات الناتجة عن محتوى البحث، على أن تكون موجزة بشكل واضح، ولا تأتي مكررة لما سبق أن تناوله الباحث في أجزاء سابقة من موضوع البحث.

الهوامش:

يجب إدراج الهوامش في شكل أرقام متسلسلة في نهاية البحث، مع مراعاة أن يذكر اسم المصدر أو المرجع كاملاً عند الإشارة إليه لأول مرة، فإذا تكرر يستخدم الاسم المختصر، وعلى ذلك فسوف يتم فقط إدراج المستخدم فعلاً من المصادر والمراجع في الهوامش. يمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق الحواشي (الهوامش) بشرط التوحيد في مجمل الدراسة، وإمكان الباحث استخدام نمط "APA" American Psychological Association الشائع في توثيق الأبحاث العلمية والتطبيقية، حيث يُشار إلى المرجع في المتن بعد فقرة الاقتباس مباشرةً وفق الترتيب التالي: (اسم عائلة المؤلف، سنة النشر، رقم الصفحة)، على أن تدون الإحالات المرجعية كاملة في نهاية البحث.

المراجع:

يجب أن تكون ذات علاقة فعلية بموضوع البحث، وتوضع في نهاية البحث، وتتضمن قائمة المراجع الأعمال التي تم الإشارة إليها فقط في الهوامش، أي يجب ألا تحتوي قائمة المراجع على أي مرجع لم تتم الإشارة إليه ضمن البحث. وترتب المراجع طبقاً للترتيب الهجائي، وتصنف في قائمة واحدة في نهاية البحث مهما كان نوعها: كتب، دوريات، مجلات، وثائق رسمية... إلخ، ويمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق المراجع والمصادر بشرط التوحيد في مجمل الدراسة.

حقوق المؤلف

- المؤلف مسئول مسؤولية كاملة عما يقدمه للنشر بالدورية، وعن توافر الأمانة العلمية به، سواء لموضوعه أو لمحتواه ولكل ما يرد بنصه وفي الإشارة إلى المراجع ومصادر المعلومات.
- جميع الآراء والأفكار والمعلومات الواردة بالبحث تعبر عن رأي كاتبها وعلى مسؤوليته هو وحده ولا تعبر عن رأي أحد غيره، وليس للدورية أو هيئة التحرير أية مسؤولية في ذلك.
- ترسل الدورية لكل صاحب بحث أُجيز للنشر، نسخة من العدد المنشور به البحث، ومستلة من البحث على البريد الإلكتروني.
- يحق للكاتب إعادة نشر البحث بصورة ورقية، أو إلكترونياً بعد نشره في الدورية دون الرجوع لهيئة التحرير، ويحق للدورية إعادة نشر المقالات والبحوث بصورة ورقية لغايات غير ربحية دون الرجوع للكاتب.
- يحق للدورية إعادة نشر البحث المقبول منفصلاً أو ضمن مجموعة من المساهمات العلمية الأخرى بلغتها الأصلية أو مترجمة إلى أية لغة أخرى، وذلك بصورة إلكترونية أو ورقية لغايات غير ربحية.
- لا تدفع المجلة أية مكافآت مالية عمّا تقبله للنشر فيها، ويعتبر ما ينشر فيها إسهاماً معنوياً من الكاتب في إثراء المحتوى الرقمي العربي.

قواعد عامة

تُرسل كافة الأعمال المطلوبة للنشر بصيغة برنامج مايكروسوفت وورد Word ولا يلتفت إلى أي صيغ أخرى.

المساهمون للمرة الأولى من أعضاء هيئة التدريس بالجامعات يرسلون أعمالهم مصحوبة بسيرهم الذاتية العلمية "أحدث نموذج" مع صورة شخصية واضحة (High Resolution).

ترتب الأبحاث عند نشرها في الدورية وفق اعتبارات فنية لا علاقة لها بمكانة الباحث أو قيمة البحث.

مكافآت الباحثين

لا تدفع دورية كان التاريخية أية مكافآت مالية عمّا تقبله للنشر فيها، ويعتبر ما يُنشر في الدورية إسهاماً معنوياً من الكاتب في إثراء المحتوى الرقمي العربي عامة ومجال الدراسات التاريخية بصفة خاصة.

عروض الكتب

- تنشر الدورية المراجعات التقييمية للكتب "العربية والأجنبية" حديثة النشر. أما مراجعات الكتب القديمة فتكون حسب قيمة الكتاب وأهميته.
- يجب أن يعالج الكتاب إحدى القضايا أو المجالات التاريخية المتعددة، ويشتمل على إضافة علمية جديدة.
- يعرض الكاتب ملخصاً وافياً لمحتويات الكتاب، مع بيان أهم أوجه التميز وأوجه القصور، وإبراز بيانات الكتاب كاملة في أول العرض: (اسم المؤلف / المحقق / المترجم، الطبعة، الناشر، مكان النشر، سنة النشر، السلسلة، عدد الصفحات).
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٢) صفحة.

عروض الأطاريح الجامعية

- تنشر الدورية عروض الأطاريح الجامعية (رسائل الدكتوراه والماجستير) التي تم إجازتها بالفعل، ويُراعى في الأطاريح (الرسائل) موضوع العرض أن تكون حديثة، وتمثل إضافة علمية جديدة في أحد حقول الدراسات التاريخية والعلوم ذات العلاقة.
- إبراز بيانات الأطروحة كاملة في أول العرض (اسم الباحث، اسم المشرف، الكلية، الجامعة، الدولة، سنة الإجازة).
- أن يشتمل العرض على مقدمة لبيان أهمية موضوع البحث، مع ملخص لمشكلة (موضوع) البحث وكيفية تحديدها.
- ملخص لمنهج البحث وفروضه وعينته وأدواته، وخاتمة لأهم ما توصل إليه الباحث من نتائج.
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٥) صفحة.

تقارير اللقاءات العلمية

- ترحب الدورية بنشر التقارير العلمية عن الندوات، والمؤتمرات، والحلقات النقاشية (سيمنار) الحديثة الانعقاد في دول الوطن العربي، والتي تتصل موضوعاتها بالدراسات التاريخية، بالإضافة إلى التقارير عن المدن والمواقع الأثرية، والمشروعات التراثية.
- يشترط أن يغطي التقرير فعاليات اللقاء (ندوة / مؤتمر / ورشة عمل / سيمينار) مركزاً على الأبحاث العلمية، وأوراق العمل المقدمة، ونتائجها، وأهم التوصيات التي يتوصل إليها اللقاء.
- ألا تزيد عدد صفحات التقرير عن (١٠) صفحات.

الإصدارات والتوزيع

- تصدر دورية كان التاريخية أربع مرات في السنة: (مارس - يونيو - سبتمبر - ديسمبر).
- الدورية متاحة للقراءة والتحميل عبر موقعها الإلكتروني على شبكة الإنترنت.
- ترسل الأعداد الجديدة إلى كُتّاب الدورية على بريدهم الإلكتروني الخاص.
- يتم الإعلان عن صدور الدورية عبر المواقع المتخصصة، والمجموعات البريدية، وشبكات التواصل الاجتماعي.

المراسلات

- تُرسل الاستفسارات والاقتراحات إلى صفحة الدورية <https://www.facebook.com/historicalkan>
- تُرسل الأعمال المطلوبة للنشر عبر النظام الإلكتروني على موقع الدورية أو مباشرة إلى رئيس التحرير: <https://kan.journals.ekb.eg> mr.ashraf.salih@gmail.com

المغرب	رشيد دوناس وزارة التربية الوطنية	١٤	ملاحظات يهود المغرب: سياقات التأسيس ودلالات الأسوار ماديًا ورمزيًا
المغرب	لبنى بنساسي جامعة القاضي عياض	٢٤	جوانب من الخصائص الطبيعية والاقتصادية والاجتماعية بالجبل من خلال كتاب رحلة الوافد
المغرب	سليم الملوغ جامعة شعيب الدكالي	٣٥	الرحلة والتاريخ، علاقات الأدب بالعلوم الإنسانية: التكامل وتبادل الأدوار لفهم الوقائع التاريخية
المغرب	حميد الكتاني جامعة ابن طفيل	٤٤	الرحلة وكتابة التاريخ: نحو قراءة جديدة للرحلة الأندلسية الموريسكية: رحلة أحمد بن قاسم أفوقاي نموذجًا
الجزائر	صالح الزرويل المعهد العالي للعلوم الإنسانية والتطبيقية	٥٦	ميناء وهران التجاري عهد الرستميين (١٦٠ - ٢٩٦هـ / ٧٧٧ - ٩٠٩م)
العراق	قاسم عبد سعدون الحسيني جامعة ذي قار	٦٨	صيد الأسماك في الأندلس دراسة في الأبعاد الاقتصادية والاجتماعية
المغرب	موحسين بعاللي جامعة السلطان المولى سليمان	٧٩	معركة لهري من خلال مصدري المنصوري وكنون: دراسة مقارنة
المغرب	حسن أمزوز جامعة السلطان مولاي سليمان	٩١	ملامح التحول في التنظيمات الاجتماعية لقبيلة "أَيْتْ عُبْدِي وَعَلِي" بين العرف والتدخل الاستعماري من "تَعْقِيْت" إلى "الْقَايْد"
السعودية	محمد بن حسين الحارثي الشريف باحث تاريخي وناظر وقف	١٠٠	العناية بتوثيق الأوقاف في القرن (الثالث عشر الهجري التاسع عشر الميلادي) حجة شرعية لوقف الشريف محمد أبي نَمِي الثاني أُنموذجًا: دراسة تاريخية وثائقية
تونس	محمد صلاح حقي باحث في تاريخ العرب الحديث والمعاصر	١١٥	الجزائر العثمانية: دراسة في الأوضاع السياسية والعسكرية وتطور نظام الحكم
المغرب	عبد السلام بحاج الأكاديمية الجهوية لمهن التربية والتكوين الرباط	١٣٣	قبيلة حودران بين الارتحال والاستقرار علاقة القبيلة بالمخزن (١٨٥٠ - ١٩٥٦م)
سلطنة عُمان	أحلام بنت حمود الجهورية هيئة الوثائق والمحفوظات الوطنية	١٥٠	العلاقة بين سلطنة زنجبار وألمانيا في عهد السلطان خليفة بن سعيد (١٨٨٨ - ١٨٩٠م): دراسة وثائقية
المغرب	محمد عطوش وزارة التربية الوطنية والتعليم	١٧٢	حلف أيت يافلمان والمقاومة المسلحة للاستعمار الفرنسي في الجنوب الشرقي المغربي (١٩٠٨ - ١٩٣٦م) مقارنة تاريخية وسوسيولوجية
العراق	عماد جاسم حسن جامعة ذي قار	١٨٩	الأوضاع الصحية في البحرين ١٩٣٩ - ١٩٧٠
الجزائر	مامي محمد جامعة البليدة (٢)	٢٠٩	ترجمات: ملاحظات حول المجموع الإباضي الوهبي: سِيرَ الْمَشَايخ: عودة إلى نسبته
المغرب	شرف أزناك جامعة القاضي عياض	٢١٥	عرض كتاب: نصف قرن في السياسة قراءة في مذكرات عبد الهادي بوطالب



سياقات التأسيس ودلالات الأسوار مادياً ورمزياً

د. رشید دوناس

أكاديمية جهة الشرق

المديرية الاقليمية الناظور

وزارة التربية الوطنية - المملكة المغربية



مُلَخَّصٌ

يسعى المقال الراهن إلى تبين السياق التاريخي الذي أدى إلى تأسيس بعض أشهر ملاحات اليهود بالمغرب، وعرض أبرز الروايات المفسرة للخلفيات التي تحيط بأصلها، والتي يرى أصحابها أنها تحكم في وضع السلاطين المغاربة للتخطيط العمراني الذي مكن اليهود من أحياء خاصة بهم حتى أصبح تعريف "اليهودي" مقرونا بالملاح. كما يلامس المقال، من جهة أخرى، كيف أدى تأسيس تلك الملاحات إلى نوع من العزل الذي لم يكن خالياً من الفوائد بالنسبة لأفراد الجماعة اليهودية على المستوى الثقافي. قبل أن ينتهي المقال إلى استنتاج مفاده أن الأسوار المادية للملاح تطورت دلالتها لتصير مع مرور الزمن أسواراً رمزية تعبر عن خصوصية ثقافية خاصة بيهود المغرب، أتاحت لقاطني الملاحات فرصة لازدهار حياتهم الدينية والاجتماعية دون قيود؛ حيث ترك لهم المجال لتنظيم أنفسهم داخل نطاق ثقافي محدد أصبح مخصصاً لهم؛ إذ أصبح الحي اليهودي، سواء أكان محاطاً بأسوار أم لا، يرمز، بغض النظر عن كون العزلة طوعية أو مفروضة، إلى فضاء مادي وحالة نفسية اجتماعية تجسد خصوصية يهودية في العادات والتقاليد وأنماط التفكير وأساليب العيش.

بيانات المقال:

٢٠٢٥ ٢٩ يونيو تاريخ استلام المقال:

٢٠٢٥ ٠٤ يوليو تاريخ قبول النشر:

كلمات مفتاحية:

الملاح؛ اليهود؛ الأسوار؛ السلطة الرمزية؛ التتخية اليهودية



معرف الوثيقة الرقمي: 10.21608/kan.2025.398301.1241

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

رتبيد دوناس. "ملاحات يهود المغرب: سياقات التأسيس ودلالات الأسوار ماديًا ورمزيًا".- دورية كان التاريخية.- السنة الثامنة عشرة- العدد الثالث والسبعون؛ نوفمبر ٢٠٢٥. ص١٤ - ٢٣.



X, formerly **Twitter**: <http://X.com/kanhistorique>

Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>

Facebook Group: <https://www.facebook.com/groups/kanhistorique>

 Corresponding author: rachid.dounass@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

اليهود بيئة مواتية، لوجود أوجه التقارب بين الديانتين في معتقدات وعادات كثيرة، على نحو الإيمان بوحدانية الله ورفض التجسيم وممارسة طقس الختان وتطبيق قانون التحريم على بعض أنواع الأطعمة^(٥)

غير أنه وفقاً لرواية أخرى يعرضها "أرموند ليفي" (Armand Lévy)، والتزاماً بتقليد قديم، لم يكن لليهود الذين عاشوا في المغرب الحق، لفترة طويلة، في الإقامة داخل المدن التي كانت تُنشأ آنذاك؛ إذ كان يُسمح لهم بالولوج إلى داخل المدينة خلال النهار لقضاء شؤونهم ومزاولة أنشطتهم التجارية، ولكن عند حلول الليل كان عليهم مغادرتها والتوجه إلى خارج أسوارها، حيث كانوا يعيشون مع عائلاتهم^(٦). وبالرغم من اختلاف وجهتي النظر بخصوص مخالطة اليهود للمسلمين من عدمه داخل نفس المجال السكني^(٧)، إلا أن كليهما يتفقان على أنه لم يكن لليهود حي خاص بهم قبل هذه المرحلة. وهي نفس المصادر والمراجع التي تُجمع على أن أول حي اقتصر السكن فيه على اليهود داخل أسوار المدينة المغربية العتيقة، وسمي بالملاح^(٨)، كان بمدينة فاس سنة ١٤٢٨ حين قرر السلطان وضع يهود المدينة تحت حمايته^(٩)، تلاه ملاح مراكش سنة ١٥٦٧، ثم ملاح مكناس سنة ١٦٨٢^(١٠).

وبناءً عليه، فقد شرع، كما أوضحنا، في بناء الملاحات بالمغرب ابتداء من القرن الخامس عشر. ولم تكن وظيفتها منذ البداية تقتصر على الحاجة للسكن فقط، بقدر ما وُظفت أيضاً لـ "احتواء" الجماعة اليهودية في حيز مجالي لم يكن من السهل دائماً العيش خارج أسواره. وتجدر الإشارة إلى أن التمدد الأفقي للملاحات لم يكن مسموحاً به إلا بقرار من السلطة، مما أدى مع مرور الزمن إلى تفاقم ظاهرة الاكتظاظ بسبب تزايد الكثافة السكانية. الأمر الذي، سبب معاناة حقيقية لأفراد الجماعة نتيجة مضاعفات السكن غير اللائق. وهو ما عبرت عنه الباحثة "باسكال سيسسي" (Pascale Saisset) في كتابها "ساعات يهودية في المغرب" بالقول: "هناك دائرة مفقودة في جحيم دانتي لأنه لم يزر ملاح مدينة مراكش. ما الذنب الذي اقترفه هذا المكان ليصير إلى ما صارت إليه سدوم وعمورة من انحطاط؟"^(١١). وحول ظروف السكن بهذا الملاح تورد وثيقة غير منشورة

يحيل مصطلح الملاح، في السياق المغربي، إلى الحي الذي عاش فيه جل يهود البلاد بعدد من المدن والبلدات والمدامر المغربية ابتداء من القرن الخامس عشر، وهي تسمية مغربية بحتة بصرف النظر عن السجل الذي دار حولها من طرف العديد من الباحثين؛ إذ يجب الإقرار بأن مصطلح الملاح قد صار مع مرور الزمن مرتبطاً بيهود المغرب حصرياً، ويحيل إلى الأحياء السكنية الخاصة بهم. وتعود أول إشارة إلى تسمية حي اليهود بمدينة فاس باسم الملاح إلى رسالة مكتوبة باللغة العبرية العربية مؤرخة بسنة ١٥٤١^(١٢).

وقد تعددت الروايات حول الأسباب الدقيقة التي دفعت سلاطين المغرب إلى تأسيس العديد من الملاحات تباعاً ابتداءً من سنة ١٤٢٨^(١٣)، بسبب غياب مصادر تاريخية متينة قادرة على الجزم في هذا الموضوع. وهو ما يزيكه محمد اللحية؛ إذ يشير إلى أن المصادر لا تؤرخ لمسألة بناء الملاحات إلا بإشارات ضئيلة ومفصولة عن واقعها الاجتماعي والاقتصادي والسياسي المفترض، وبذلك تظل الدوافع الفعلية لظهورها ملفتة بالغموض^(١٤)، وإن حملت في طياتها بعضاً من الدقة أو بالأحرى اقتصرت على تقديم أنصاف أجوبة لا يمكن تجاهلها. وبغض النظر عن سياقات تأسيس الملاحات ودلالات الاسم، فإن يهود المغرب شأنهم في ذلك شأن جميع الأقليات، لم يستطيعوا التخلص من سطوة الجماعة حتى قبل ظهور الملاحات؛ إذ احتموا داخل نسقهم الديني، لكن بعد ظهور الملاحات وجدوا فيها ما يسوغ ويستجيب لخصوصيات هويتهم داخل مجتمع الملة الإسلامية.

أولاً: سياق بناء ملاحات اليهود في المغرب

من خلال ما اطلعنا عليه في العديد من المصادر والمراجع التاريخية المختلفة، لم نثر على ما يفيد ارتباط استقرار المغاربة اليهود، منذ تواجدهم بالبلاد، طردياً بالسكن داخل حي خاص بهم؛ إذ قبل تأسيس أول ملاح بالمغرب سنة ١٤٢٨، ظلوا يقطنون جنباً إلى جنب مع المسلمين^(١٥)، يجاورونهم ويخالطونهم في الحياة اليومية، ذلك "أن مدن المسلمين بدت للسكان بها من

وعند الفجر، انسحبوا من ذلك المكان، وبقي هناك أحد اليهود ثملاً هاجعاً. وجاء المسلمون، وأخرجوه من هناك، وقتلوا كل اليهود الذكور الذين وجدوا. ولم ينج حتى [الذين بدلوا عقيدتهم]. وقتل [المسلمون] الصبية والنساء، ومنذ هذه المذبحة الثانية قرر اليهود أن يلبسوا جميعاً رداء من ألياف^(١٧). سكب هؤلاء الخمر في خزانات فانوس الإنارة بمسجد القرويين، أدى إلى اندلاع اضطرابات دفعت المخزن إلى تطويق اليهود في حي خاص بهم، على بعد مسافة قريبة من القصر السلطاني^(١٨).

بينما ذهب آخرون إلى أن تأسيس أول ملاح بالمغرب، تحكمت فيه عدة عوامل توزعت بين ما هو ديني^(*)، وبين ما هو اقتصادي وعمراني^(١٩). وهو الحي اليهودي الذي برع في وصفه وصفاً دقيقاً "روجي لوطورنو" في كتابه فاس قبل الحماية، حيث ورد: "إن من خرج من باب السمارين وعبر باب الحي اليهودي (باب الملاح)، غادر أزقة ضيقة ملتوية مظلمة محاطة بدور ذات طبقات عديدة، فتحت فيها نوافذ كثيرة مطلية باللون الأصفر أو الأزرق وأبواب مصبوعة بالأحمر القاني، فيتهم أنه في عالم آخر، ولكنه لم يسر أكثر من مئة متر"^(٢٠).

وبالنسبة لبناء ملاح مدينة مراكش، فإن السبب لا يعود فقط إلى ارتفاع عدد اليهود وانتشارهم بفناء المدينة، بل تقرر بناء حي خاص بهم ما بين ١٥٥٣ و١٥٧٣ في إطار "جهود السعديين الرامية إلى تأكيد سيطرتهم على العاصمة الجنوبية؛ أي أن بناء حي يهودي محاط بالسور بمراكش شبيه بما هو موجود بفاس، كان من شأنه المساعدة على إضفاء الشرعية على مطالبة الأسرة الجديدة بحقوقها في الحكم؛ إذ تعتبر حماية الذميين من بين أهم الالتزامات الواجب على الحاكم المسلم الحرص على الوفاء بها"^(٢١).

أما فيما يتعلق بالسياق التاريخي الذي تم فيه تشييد ملاح مدينة مكناس، فالراجح أنه ارتبط بالازدهار الذي عرفته هذه الأخيرة بعدما اتخذها السلطان المولى إسماعيل عاصمة للبلاد، مما ساهم في استقرار عدد من اليهود المحليين بها^(٢٢) بالإضافة إلى اليهود المطرودين من الأندلس^(٢٣)، لذلك قرر السلطان تخصيص مكان معين داخل المدينة يُقام فيه ثالث ملاح

عن ملاح مراكش في نهاية القرن التاسع عشر، بأنه كانت "تعيش أسرة من عشرة أفراد في نفس الغرفة مقابل كراء سومته خمس فرنكات للشهر (...)"، إذ يوضع حصير على الأرض فيصبح هو الفراش الذي ينام فوقه كل أفراد الأسرة مختلطين اختلاطاً يبعث على الأسف^(٢٤). وهو ما زكاه الأخوان "طارو" (Tharaud) في كتابهما "مراكش أو سادة الأطلس" بالقول: "عندما يتجول المرء في هذه المدينة الإسلامية التي تتضح بالإنسانية الجميلة، والتي تفوح منها رائحة الجبال و«البلاد»^(*)، كم هو مثير للاشمئزاز أن يلج بعدها الملاح"^(٢٥).

وإلى حدود مطلع القرن التاسع عشر لم تُبن ملاحات جديدة خاصة باليهود، حيث تم الاقتصار، إلى حدود هذه الفترة، على مدن فاس ومراكش ومكناس، وهي المدن الوحيدة التي طُلب فيها اليهود بالعيش داخل الأسوار في كنف الملاح، "هذا في حين، لم يكن في مدينة الصويرة «ملاح» حقيقي وواضح المعالم"^(*) سبق وأن طُلب اليهود بالعيش فيه قبل سنة ١٨٠٧، وذلك على الرغم من استخدام المصطلح نفسه، للإشارة إلى «الأقوام اليهود بالمدينة»^(٢٦). إلا أنه ابتداء من سنة ١٨٠٧ قرر السلطان المولى سليمان بناء عدد من الملاحات بعدة مدن^(٢٧).

ومهما يكن من أمر، لقد انفردت كل جماعة يهودية برواية محلية حول سبب حصرها، من طرف المخزن، على العيش داخل الملاحات^(٢٨)، وهي المسألة التي لا يمكن الجزم فيها بالتأكيد أو النفي، إذ يظل هذا الموضوع قابلاً للسجال. ففيما يتعلق بيهود فاس، هناك رواية تُرجع سبب إقدام المخزن على تمكين اليهود من حي خاص بهم خلال القرن الخامس عشر إلى إقدام هؤلاء على فعل شنيع أثار حفيظة المسلمين، تمثلت تفاصيله فيما رُوي في كتاب التواريخ، من تأليف أحبار من عائلة ابن دنان الغرناطية الفاسية، حيث جاء فيه: "... كانت هناك بفاس، أيضاً، مقتلة عظيمة يسمونها بمذبحة "الخصه" [النافورة]. ومفادها أن اليهود اجتمعوا وصاروا حتى دخلوا الجامع الكبير، وسدوا نبع الماء بالجامع. وملأوا مجاري الرخام الذي تجري فيها المياه بالخمر، و[أمضوا] الليل [يشربون الخمر حتى ثملوا].

غير أن محمد اللحية لا يرجح صحة هذه الروايات كلها، حيث انتهى إلى أن بناء ملاح المدينة جاء في سياق سياسة عمرانية شمولية أمر بها السلطان الجديد المولى اسماعيل، اقتضت منه تغيير المشهد العمراني للعاصمة الجديدة بما يليق بالحكم والحاكم، وتطلب الأمر تحطيم كل الأحياء الواقعة بين البلاط الجديد والمدينة الوسيطة، ويتعلق الأمر بأحياء القورجة وشطر من حي عقبة الزياي وصدراته في الشمال الشرقي للمدينة، وأحياء درب الغولة ودرب الكزارين وزواغة ودرب ليهود، الواقعة بجنوبها وجنوبها الشرقي، وفي نفس الوقت بناء أحياء جديدة من أجل إعادة إسكان سكان الأحياء المهذمة المذكورة، والعناصر الوافدة أو التي وقع ترحيلها إلى العاصمة من مناطق أخرى خلال مدة حكمه، وهي أحياء جناح لآمان وقاع وردة وتيزمي وبريمة والملاح^(٣٠). ولعل ما يرجح هذه الرواية هو أن إسكان أهل تافيلالت المشار إليهم فيما سبق -إن صحت هذه الرواية- بدور اليهود بعد إخلائها كان مؤقتا بالنظر إلى أن كلا الحيين اليهوديين بباب عيسى وبمقابر الذميين، كانا ضمن الأحياء التي هدمت ما بين سنتي ١٦٨٢ و١٦٨٤^(٣١).

أما فيما يتعلق بالسياق الذي بني فيه ملاح مدينة سلا، فإن الرواية التاريخية تحكي أن الذي دفع بالسلطان المولى سليمان إلى بناء حي خاص باليهود هو تصديقه لاتهام كاذب، مفاده أن اليهود تعمدوا كسر قتيعة من الخمر أمام مسجد كان يقع بالقرب من مساكنهم، والواضح أن هذه الرواية تكاد تطابق نظيرتها المتعلقة بتبرير خلفيات بناء ملاح مدينة فاس^(٣٢). وحول ملاح سلا يقول "الضعيف": "وفي متم جمادى من عام ١٢٢٢هـ طلع المعلم السوداني وفصل لهم الملاح بحومة وقاصة، وصارت اليهود تبني الديار والأفران والطواحين والحوانيت"^(٣٣).

وفيما يتعلق بملاح مدينة الرباط تحكي الرواية اليهودية المحلية قصة امرأة مسلمة وقعت في غرام شاب يهودي وسيم، غير أنها وجهت له اتهامات كاذبة بعد رفضه لحبها، فتسبب ذلك في إثارة الاضطرابات ضد إخوانه في الدين، ونتيجة لذلك أمر السلطان ببناء الملاح لحماية يهود المدينة من ردود فعل المسلمين^(٣٤). أما بخصوص ملاح مدينة تطوان الجديد، فقد أسهب عمر

بالمغرب بعد فاس ومراكش. لقد تعددت الروايات حول ظروف بناء ملاح مدينة مكناس، إحداها تحكي أن قرار السلطان القاضي ببناء حي خاص باليهود فوق أرض قرر منحهم إياها قد تم بفضل تمكن طبيب يهودي من علاج إحدى الأميرات^(٣٥)، وهي رواية يصعب التسليم بصحتها. وهناك رواية ثالثة تحكي بأن هذا الحي قد بني بطلب من اليهود للاحتماء من هجمات المسلمين^(٣٥). يبدو أن تضارب الروايات هذا يعود إلى شح المعطيات داخل المصادر التاريخية، إذا استثنينا بعض الإشارات المقتضبة والمعزولة عن سياقها السياسي والاقتصادي والاجتماعي، الأمر الذي فسح المجال أمام بعض الباحثين لترجيح أطروحات سلبية بشأن ظروف بناء الملاحات بشكل عام، ومن بينها الميل إلى اعتبارها بمثابة "غيتوهات" أعدت للعزل والحجز^(٣٦)، كما ذهب إلى ذلك العديد من المؤرخين الأشكنازيين كـ"جاكوب كاتس" (Jacob Katz)^(٣٧).

غير أن هناك رواية أخرى تتوفر فيها بعض شروط الموضوعية، أوردها عبد الرحمان بن زيدان بخصوص تشييد ملاح مدينة مكناس؛ إذ يرى بأنه قد تحكمت فيه عوامل سياسية، ذلك أن السلطان المولى اسماعيل أمر بإخراج اليهود من دورهم التي كانت وسط المسلمين بالمدينة حيث أسكنها أهل تافيلالت قصد مراقبتهم عن كثب وصرف اهتمامهم عن الأمور السياسية، وفي هذا الصدد يقول: "وأحدث بها الآن - يقصد الملاح- محلا لسكن اليهود لضيق حارتهم... أسسها عام ثلاثة وتسعين وألف... وأمر بإخراج أهل الذمة من المدينة وإسكانهم بالمحل المؤسس لأجلهم، فسكنوه وأخلت دورهم التي كانت وسط دور المسلمين"^(٣٨). هذا الاحتمال الأخير رجحه أيضا عبد العزيز الخليلشي، انطلاقاً من فهمه بأن المقصود بـ"أهل تافيلالت" في النص السالف الذكر، هم الشرفاء العلويون، وقد علل إسكانهم من قبل السلطان في محلات اليهود بالخلفية السياسية للمولى اسماعيل الذي سعى من وراء ذلك التقرب من هذه الفئة عبر منحها امتيازات عقارية وغيرها، من أجل صرف أنظارهم عن أمور السياسة ووضعهم تحت مراقبته القريبة^(٣٩).

الحاكم في البلاد الإسلامية الوفاء بواجب حماية أهل الذمة، باعتبارهم الأكثر عرضة للمهاجمة خلال فترات العصيان بالبلاد^(٤٠). هذا التفسير يتبناه أيضا عبد الله لغمايد، حيث يوضح قائلاً: "إن نشوء العديد من الملاحظات خلال القرن التاسع عشر كان نتيجة الظروف الجديدة التي أحدثها المد الأجنبي منذ بداية غزو الاقتصاد الرأسمالي لأسواق المغرب وما صاحب ذلك من انتشار الحماية القنصلية، فكان لابد من التدخل المباشر لحماية اليهود داخل أسوار عالية من غضب السكان المسلمين الذين يؤاخذون عليهم أنهم مرابون، ويتعاطون أكثر من غيرهم للحمايات والتعامل مع الأوروبيين، كما أن مسألة اعتماد اليهود على التجارة البعيدة واضطرارهم إلى ترك عيالهم وسط المسلمين قد يكون من الدوافع التي كانت وراء عزلهم بالملاح لتوفير الحماية لهم"^(٤١). وهو ما "استحسنه اليهود، مما دفعهم إلى تعظيم المولى سليمان، وإنشاء قصائد مديح وترانيم باسمه، إلى درجة منحهم له لقب «مليخ حسيد»، وهو لفظ عبري يقابله بالعربية «الملك الورع»"^(٤٢).

وهي نفس السياسة العمرانية التي تبناها السلطان المولى الحسن عندما قرر بناء آخر ملاح بالمغرب بمدينة دمناات سنة ١٨٩٤^(٤٣). هذه السياسة التعميرية الجديدة ستحدث تحولاً نوعياً في حياة اليهود المقيمين في أحياء تلك المدن ونمط استقرارهم من الاختلاط بالمسلمين سكنياً إلى الانعزال عنهم، حيث بات نطاق وجودهم العمراني محصوراً في مجال محدد لا يتجاوز الأسوار المحيطة بالملاحات^(٤٤).

ثانياً: السلطة الرمزية لأسوار الملاح

على الرغم من استمرار استقرار يهود المغرب خارج حي خاص بهم إلى حدود سنة ١٤٣٨، تاريخ تأسيس أول ملاح بمدينة فاس الجديد^(٤٥)، فقد ظلوا حريصين على تقاليدهم وخصوصياتهم، في إطار من العزلة التي سعوا إلى تكريسها من خلال الالتزام بما تمليه عليهم ديانتهم اليهودية، باعتبارها تقاليد "قومية" أيضاً حالت دون ذوبان اليهود داخل المجتمعات التي عاشوا فيها^(٤٦).

لمغيبشي باستفاضة في عرض ومناقشة مختلف الفرضيات المفسرة للظروف المحيطة ببنائه^(٤٥)، وانتهى إلى أنه لا يمكن ترجيح سبب دون آخر في هذا الموضوع، مما حدا به استناداً إلى ما تراكم لديه من معطيات تاريخية غزيرة إلى إرجاع أسباب توطين الجماعة اليهودية بالملاح الجديد إلى الأسباب التالية: "أولاً: أخرجها من المجال الضيق إلى جهة مفتوحة تمتد مساحتها على خمس مساحة المدينة آنذاك. ثانياً: لأم وضعها الديموغرافي والاجتماعي والاقتصادي والديني، خاصة مع اكتظاظ «الملاح البالي» وتزايد أعداد اليهود. ثالثاً: جعل تلك الساكنة قريبة من مزارعها المنتشرة خارج السور، وجعلها بجانب الباب الذي يفضي إلى مرفأ مارتيل حيث توجد المصالح التجارية لكثير من أفرادها. رابعاً: عمل على المساهمة في الحفاظ على الهوية اليهودية، وتحقيق الحكم الذاتي، لما شكله الملاح من استقلال «دولة داخل دولة»"^(٤٦).

وفيما يتعلق بملاح مدينة الصويرة حسب ما تؤكد الرواية اليهودية، فإن تشييده جاء بناء على طلب تلقاه السلطان من اليهود الذين كانوا يعيشون بين أحضان المسلمين حتى يستطيعوا العيش في مأمن من الاضطرابات التي كانت سائدة خلال تلك الفترة^(٤٧). واتصالاً بالخلفيات التي تحكممت في دفع السلطان المولى سليمان إلى اتخاذ قرار يقضي ببناء ملاحات تطوان وسلا والرباط والصويرة، "تجدر الإشارة إلى وجود أفكار متضاربة في الإسلام، عن حصر الذميين في أحياء خاصة. وذهب بعض علماء الشريعة إلى القول بإرغام اليهود والنصارى، الذين اشتروا منازل لهم في الأحياء الإسلامية، على بيعها للمسلمين. وأيد بعض الفقهاء عزلهم عن المسلمين، بينما اعتبر البعض الآخر، بأن تكثيف التواصل معهم، ربما يكون مفيداً، لأن الاحتكاك من شأنه المساهمة في تقريب اليهود من سماحة الدين الإسلامي وحقيقته"^(٤٨).

وعلى ما يبدو هناك روايات مختلفة، بشأن قرار المولى سليمان المتعلق ببناء عدد من الملاحات الجديدة دفعة واحدة ابتداء من سنة ١٨٠٧^(٤٩)، ومن المحتمل أن يكون ذلك راجعاً إلى حرص هذا السلطان على تنزيهه الصارم للشريعة التي تقتضي من بين ما تقتضيه من

وحالة نفسية اجتماعية تعبر عن خصوصية يهودية في الأعراف، والتقاليد، ونمطي التفكير والعيش. "وبهذا فإن لفظة «ملاح» هنا لا تفيد ضمنا الحيز المادي للمجال، بقدر ما تعني الفضاء الطائفي لليهود"^(٥٣)، خصوصاً وأنهم كانوا دوماً ميالين إلى التمرکز في أحياء معينة^(٥٤). وفي هذا الصدد يمكن قراءة جواب الربّي الحبيب بن يوسف طوليدانو، أحد كبار أبحار اليهود خلال القرن الثامن عشر، عن استفسار طرح عليه في شأن المغزی من أسوار الملاح، فجاء رده كالتالي: "إنها الحد بين المقدس والمدنس"^(٥٥)، ذلك "أن الملاح لم يكن تجمعاً اقتصادياً أو حياً سكنياً أو مركزاً للتعبّد فحسب، بل تجاوز ذلك للإشارة إلى تصور ذهني جماعي يعبر عن خصوصيات اليهود في رقعة جغرافية مشتركة مع المسلمين"^(٥٦).

لقد تطور حي الملاح ليصير فضاء محصناً محاطاً بأسواره العالية المادية والرمزية، تُغلق أبوابها ليلاً. وكان الملاح يُعطي انطباعاً عن كونه مدينة صغيرة داخل المدينة الكبيرة، بشبكة أزقته المتعرجة التي كانت غالباً تأخذ شكل متاهة، بصفوف منازل منخفضة تتخللها محلات للخياطين والإسكافيين، والحدادين، والفرّاشين، وصانعي المجوهرات، والنقاشين، وصانعي الأثاث، ومتاجر التجار الصغار. وكانت تهيمن على هذا المشهد البيعة التي لم تكن فقط مكاناً للصلاة، بل أيضاً فضاء للاجتماعات وتبادل الأفكار بين أفراد الجماعة اليهودية^(٥٧).

وهكذا أصبح تعريف "اليهودي" مقروناً بالملاح؛ بوصفه الفضاء الذي صار يحيل على هوية مزدوجة، مادية باعتباره حياً فقيراً وغير صحي للعيش، ومن الناحية الاجتماعية أصبح الملاح، بسبب مؤسساته الدينية والفكرية الرقابية، فضاء للطمأنينة^(٥٨). ساعدتهم في الحفاظ على عقلية الجماعة وعاداتها وتقاليدها الناتجة عن "الانطواء" و"الانكماش" و"العزلة" التاريخية التي عاشها اليهود خلال قرون طويلة. وبالتالي أتاح لهم العيش داخله القدرة على إعادة إنتاج أعرافهم وعاداتهم، وكذا مراقبة القواعد الأخلاقية لبعضهم البعض بسهولة أكبر، ككيفية تربية الأطفال وطقوس الذبح والصلاة الجماعية، وكيفية الاحتفال

ولعل نصوص العهد القديم واضحة في هذا الأمر، إذ أن "عزرا" الكاهن اليهودي جامع توراتهم، كان حريصاً منذ رجوعه من السبي البابلي إلى أورشليم، على إلزام إخوانه في الدين الذين كانوا قد تخلفوا عن السبي واختلطوا بالفلسطينيين وتزوجوا من نساءهم، بضرورة التفريق بينهم وبين زوجاتهم وأولادهم تنفيذاً للأوامر التوراتية التي تقول: "ثم قام عزرا من أمام بيت الله وذهب إلى مخدع يهوحنان بن الياشيب. فانطلق إلى هناك وهو لم يأكل خبزاً ولم يشرب ماءً لأنه كان ينوح بسبب خيانة أهل السبي. وأطلقوا نداءً في يهوذا وأورشليم إلى جميع بني السبي لكي يجتمعوا إلى أورشليم. وكل من لا يأتي في ثلاثة أيام حسب مشورة الرؤساء والشيوخ يحرم كل ماله وهو يفرز من جماعة أهل السبي. فاجتمع كل رجال يهوذا وبنيامين إلى أورشليم في الثلاثة الأيام أي في الشهر التاسع في العشرين من الشهر وجلس جميع الشعب في ساحة بيت الله مرتعدين من الأمر ومن الأمطار. فقام عزرا الكاهن وقال لهم: إنكم قد خنتم واتخذتم نساء غريبة لتزيدوا على إثم إسرائيل. فاعترفوا الآن للرب إله آبائكم واعملوا مرضاته وانفصلوا عن شعوب الأرض وعن النساء الغريبة. فأجاب كل الجماعة وقالوا بصوت عظيم كما كلمتنا كذلك نعمل. إلا أن الشعب كثير والوقت وقت أمطار. ولا طاقة لنا على الوقوف في الخارج والعمل ليس ليوم واحد أو لاثنتين لأننا قد أكثرنا الذنب في هذا الأمر..."^(٥٩).

وبناءً عليه، فقد صارت هذه العزلة مكوناً نفسياً في الشخصية اليهودية، حتى قبل ظهور الملاح بزمان طويل، بوصفه حياً سكنياً خاصاً بهم بالمغرب، وهو الرأي الذي يزيكه محمد عابد الجابري بقوله: "لقد شكل اليهود في العالم أجمع جماعات دينية عرقية منغلقة، وطنها هو ماضيها الخاص، ومستقبلها هو أحلام ماضيها"^(٦٠).

وإذا كان قرار تأسيس أول ملاح بفاس وما تلاه قد تم بإيعاز من السلطة الحاكمة بذرائع متعددة^(٦١)، يلفها الغموض^(*)، أو برغبة منهم في كثير من البوادي وبعض المدن الأخرى^(٦٢)، فقد صار الحي اليهودي سواء كان محاطاً بالأسوار^(٦٣) أو بدونها^(٦٤)، يشير بغض النظر عما إذا كانت العزلة "طوعية" أو "مفروضة"، إلى مكان مادي

خاتمة

حريّ بنا القول، بناءً على كل ما سبق، إن الديانة اليهودية إلى جانب الملاح، لاحقاً، قد ساهما معاً في دفع المغاربة اليهود إلى الانغلاق على أنفسهم، وذلك بدافع الحرص على نمط عيش أسلافهم طبقاً لما يتوافق وهويتهم العقدية والثقافية عموماً؛ وتبعاً لهذا الانغلاق كانت أسوار الملاح "النفسية" تزداد ارتفاعاً كلما تم تكريس المزيد من الالتزامات الدينية والأخلاقية تحت الرعاية الرسمية والصارمة لسلطة الأعيان والحاخامات.

لكن ذلك لا يعني، بأية حال، أن هذا الانغلاق "الهوياتي"، داخل سياج الملاح وخارجه، قد كان سبباً لإحداث قطيعة "مطلقة" مع باقي المغاربة من غير اليهود؛ ذلك أن الشواهد التاريخية لم يفتها النقاط محطات أساسية من العيش المشترك بين الطرفين تحت سقف وطن واحد، انطلاقاً مما كانت تمليه عليهما حاجات الحياة وضرورات الجوار ومتطلبات التعاون والزمات واقع التبادل، وما كانت تنتهي إليه فصول التفاعل الإنساني الجاري بينهما من قواعد عرفية تسهم في تدبير الخلافات الناشئة في معترك الحياة الاجتماعية.

ثابت أن الملاح قد شكل حصناً لحماية الذات الجماعية، وملاذا لحفظ الخصوصية الثقافية، لكنه ظل يسمح، على الدوام، بمقدار نفاذية، مادية ومعنوية، تجري في الاتجاهين معاً، كان لها، ولا شك، فضل الإسهام في إدامة الوجود اليهودي بالمغرب، وبالنتيجة، تزكية الأطروحة السوسيوثقافية التي تسجل للمغرب فرادته في صنع مصير أقليته، وحكمة أهله في تدبير تشابكات نسيجهم المجتمعي.

بالأعياد والمناسبات الاجتماعية والدينية المتنوعة على مدار السنة. أي أن الملاح صار مجتمعاً يحيل على العديد من الرموز والمعاني الثقافية، ويعكس تراثاً وتقاليد ومشاعر مشتركة، وأداة للرقابة الاجتماعية وحراسة التقاليد، من خلال مجلس الجماعة والمحكمة والحاخامية والكنيس الذي تدور في فلكه كل جوانب الحياة اليهودية؛ إذ أن أكبر إهانة قد توجه لأي يهودي لم يحترم الأعراف هي أن ينعت بكون "وجهه مغسول بالبول" في حال تجاوز آداب اللياقة التي تستوجبها التقاليد الدينية، وهو ما من شأنه أن يجعل جميع الأبواب مغلقة في وجهه^(٥٩).

هذه الخصوصية اليهودية التي تبلورت داخل الملاح وخارجه، هي التي دفعتهم إلى الحرص ما أمكن على إبعاد المسلمين عن التدخل في شؤونهم الداخلية، مشكلين بذلك داخل الوسط الذي احتواهم مدينة صغيرة داخل مدينة كبيرة^(٦٠)، وهي وضعية وعمران مستوحيان من عقد الذمة، وهو طرح لاهوتي انعكس على القوانين المؤطرة للعلاقة بين المسلمين وغيرهم من أهل الكتاب بعد سنوات قليلة من ظهور الإسلام فيما يعرف بميثاق عمر أو بالعهد العمرية^(٦١).

وبناءً عليه، يمكن اعتبار عقد الذمة وما ترتب عنه في مجال السكن ترتيباً بين مجموعتين متباينتين من السكان، حيث "وافقت" إحداها على إخضاع نفسها للآخرى بثمن الحفاظ على الخصوصية. وهو وضع استفاد منه اليهود للانعزال قدر الامكان عن جيرانهم المسلمين والسلطة الحاكمة، إذ سمح لهم ذلك بإرساء الحكم الذاتي داخل الملاح^(٦٢)، وعيش بعضهم مع بعض للحفاظ على تقاليدهم المختلفة، والتي يستوجب إحيائها عيشهم متكئين؛ إذ أن اليهودي التقليدي يفضل الاحتماء بالمجموعة والخضوع لأعراف وتقاليد الجماعة التي ينتمي إليها. ومن ثمة، يمكن القول إن ظهور الملاح بالمغرب ابتداءً من القرن الخامس عشر قد ساهم في تكريس انغلاق يهود المغرب حول هويتهم الثقافية، حيث وفرت لهم أسواره المادية والرمزية المناخ الملائم للعيش وفق خصوصياتهم التي تملئها عليهم معتقداتهم الدينية وعاداتهم وتقاليدهم الاجتماعية داخل فضاء الملاح وخارجه.

الإحالات المرجعية:

يعمم منذ ذلك الحين ليشمل كل حي يهودي مسور ومعزول ومحدث بمقتضى قرار سلطاني، كان على الأرجح اسم موضع بفاس الجديد يجمع فيه الملح ويخزن تمهيدا لتوزيعه على أسواق المدينة". انظر: نفسه، ص. ٢٦٧. نقلاً عن:

Simon Lévy, "Hāra et Mallah: les mots, l'histoire et l'institution (toponyme et histoire)," in Histoire et linguistique, Actes de la table ronde déroulée à Marrakech du 25 au 26 Mai 1990, Abdelahad Sebt, éd. Publications de la Faculté des Lettres et Sciences Humaines de Rabat, 1992, p.p. 41-50.

(9) Armand Lévy, op. cit, p. 43.

(١٠) أحمد شحلان، **اليهود المغاربة من منبت الأصول إلى رياح الفرقة، قراءة في الموروث والأحداث**، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، الرباط، ٢٠٠٩، ص. ١٤٠.

(11) Pascale Saisset, Heures juives au Maroc, Ed Rieder, Paris, 1930, p. 146.

(١٢) خالد بن الصغير، "وثيقة غير منشورة عن ملاح مراكش في نهاية القرن التاسع عشر"، **هسبريس-تمودا**، العدد ٣٥، ج ٢، ١٩٩٧، ص.ص. ٢٥-٣١.

(*) وردت هذه الكلمة في النص الفرنسي بصيغة: le bled. وارتأينا ترجمتها بكلمة: البلاد، لتتلائم مع التعبير العربي الفصيح.

(13) Jérôme et Jean Tharaud, Marrakech ou les seigneurs de l'Atlas, Ed Plon-Nourrit, Paris, 1920, p. 127.

(*) للاطلاع على التفاصيل المتعلقة بملاح يهود الصويرة، انظر:

(1760- Mina El Mghari, "Présence juive à Mogador Essaouira 1873)", Hespéris -Tamuda, Vol. LI-Fascicule 2, Numéro (spécial-Partie I, 2016, 371-397.

(١٤) دانييل شروتر، **يهودي السلطان، المغرب وعالم اليهود السفرد**، ترجمة خالد بن الصغير، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سلسلة نصوص وأعمال مترجمة رقم ١٥، الطبعة الأولى، الرباط، ٢٠١١، ص. ٢٤٩.

(١٥) نفسه.

(١٦) تحت مسمى "الملاح"، نجد عدة أنواع من هذه الأحياء: هناك ملاح المدن الكبيرة، والتي تختلف عن ملاحات المناطق الجبلية حيث نجد، بالإضافة إلى الأنشطة الحرفية، يهوداً يعملون في الزراعة وتربية الماشية، مما منح ملاحات هذه المناطق، كمنطقة سوس، طابعاً أكثر تميزاً وأصالة).

Armand Lévy, op. cit, p. 41.

(١٧) **أفراد من عائلة ابن دنان الغرناطية الفاسية، كتاب التواريخ أو تاريخ فاس**، ترجمه عن اللغة العبرانية، د. عبد العزيز شهبر، جمعية تطاون أسمير، مطابع الشويخ-تطوان، ٢٠٠٢، ص. ٨.

(١٨) دانييل شروتر، مرجع سابق، ص. ٢٥١.

انظر أيضًا:

Y. D, Sémach, op. cit.

(*) "إن الحرس على الفصل بين الديانتين والمجتمعين لم يكن الدافع الوحيد الذي وجه السلاطين إلى بناء أحياء الملاح. فلا يمكن إنكار حالة انعدام الأمن التي كانت تسود المدن والقرى، حيث كان ممثلو المخزن يجدون أنفسهم في مواجهة اللصوص وقطاع الطرق، بل وكانوا أحياناً

(1) Victor Malka, La Mémoire brisée des juifs du Maroc, Ed Entente, Paris, 1978, p.116.

(2) Y. D, Sémach, "Une chronique juive de Fès : le "Yahas Fès" de Ribbi Abner Hassarfaty", Hespéris, XIX, 1934. p. 91.

(٣) محمد اللحية، "حول ظروف تشييد ملاح مدينة مكناس في عهد المولى إسماعيل (١٦٧٢-١٧٢٧)"، **هسبريس-تامودا**، جامعة محمد الخامس بالرباط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، المجلد ٢، العدد ١١، ص. ٣٤٢.

(4) Armand Lévy, Il était une fois les juifs Marocain, Ed l'Harmattan, Paris, 1959, p.p. ٤٦-47.

(5) Jehel Georges et Racinet Philippe, La ville médiévale de l'Occident chrétien à l'Orient musulman Ve -XVe siècle, Ed Armand Colin, Paris, 1996, p. 424.

نقلاً عن: هشام الركيك، "من حومة فندق اليهودي إلى ملاح فاس الجديد تجليات الحضور اليهودي في المشهد العمراني لمدينة فاس" **هسبريس-تامودا**، جامعة محمد الخامس بالرباط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، المجلد ٢، العدد ١١، ص. ٢٧٥.

(6) Armand Lévy, op. cit, p. 43.

(٧) بخصوص الرواية التي ترجح مجاورة اليهود للمسلمين داخل نفس الحيز السكني بمدينة فاس قبل ظهور حي الملاح يوضح هشام الركيك قائلاً: "الواقع أن المنع لم يطل إقامة اليهود خارج الحيز المخصص لهم، إذ توجد قرائن عديدة تثبت عيشهم جنباً إلى جنب مع المسلمين دونما تمييز. ومن أولها ما تتضمنه أسطورة أرخت بظلالها على نشأة المدينة، فحواها أن رجلاً من اليهود كان يحتفر أساس بيته في موضع بالقرب من قنطرة عزيلة، فوجد تمثالا من رخام على صورة جارية منقوش على صدرها عبارة: «هذا موضع حمام عمر ألف سنة ثم خرب، فأقيم موضعه بيعة للعبادة». وعلى الرغم من أننا لا نود تحميل الأسطورة أكثر مما يمكن أن تحتمل ما دامت أحداثها لا تصمد أمام النقد الحديث، فإن في متنها اعتراف ضمني بحضور العنصر اليهودي بالمشهد العمراني لمدينة فاس منذ أيام التأسيس الأولى، وإقرار مبطن بعراقلة استقراره في نطاق أسوارها. أما بعض ما جاء فيها فيحتوي على تفصيل يشد الانتباه، إذ أنها تتقبل دون اعتراض فكرة بناء يهودي لمسكنه خارج محيط أعلن الذي أقطعه إدريس الثاني للمسلمين. وبغض النظر عن درجة قرب أحداث الأسطورة من الواقع التاريخي، فهي تبقى إبداعاً يجسد كيف يستحضر الفاسيون ويتصورون بدايات مدينتهم وتركيباتها السكانية الأولى". انظر: هشام الركيك، مرجع سابق، ص. ٢٧١.

(٨) حول ارتباط اسم الملاح بالحي السكني لليهود، يوضح هشام الركيك نقلاً عن دراسة لشمعون ليفي حملت عنوان: "الحارة والملاح: الكلمات، التاريخ والمؤسسة" ما يلي: "لقد أوضح الباحث كيف أزاح الملاح وأبعد عن التداول طوبونيمات قديمة، لطالما زخرت بها المصادر التاريخية الوسيطة، من قبيل حارة اليهود ودرب اليهود وشاره اليهود وسوق اليهود، وكيف أن لا صلة للفظ باليهود، وأن لا مصداقية للتفسيرات الغرائبية، والطريقة أحياناً، التي تحيط بأصله. فقبل أن يعني الحي الذي جرى فيه إسكان يهود فاس على عهد بني مرين، وقبل أن

du sayh Muhammad b. 'Abd al-Karim al-Magili," in Etudes d'orientalisme dédiées à la mémoire de Lévi-Provençal, vol. 2, G.-P. Maisonneuve et Larose, Paris, 1962, p. 208.

(٣٩) لمزيد من التفاصيل انظر: هشام الركيك مرجع سابق، ص. ٢٨٤-٢٨٣.

(٤٠) دانييل شروتير، مرجع سابق، ص. ٢٥١.

(٤١) عبد الله لغمايد، **يهود منطقة سوس ١٨٦٠-١٩٦٠، دراسة في تاريخ المغرب الاجتماعي**، الطبعة الأولى، منشورات دار أبي رقرق، الرباط، ٢٠١٦، ص. ٧١.

(٤٢) عمر لمغيبشي، **يهود تطوان ١٤٩٢-١٩٠٠ دراسة في التاريخ والتحول**، الجزء الثاني، مرجع سابق، ص. ٣١١.

(43) Joseph Tolédano, L'esprit du Mellah: humour et folklore des Juifs du Maroc, Ed Ramtol, Jérusalem, 1986, p. 5.

(٤٤) هشام الركيك، مرجع سابق، ص. ٢٨٨.

(45) Victor Malka, La Mémoire brisée des juifs du Maroc, Ed Entente, Paris, 1978, p. 116.

(٤٦) شلومو ساند، **اختراع الشعب اليهودي**، ترجمة سعيد عياش، تدقيق المراجعة، أسعد زغبى، مراجعة وتقديم، أنطوان شلحت، الأهلية للنشر والتوزيع، المملكة الأردنية الهاشمية، ٢٠١١، ص. ١١٥.

(٤٧) **العهد القديم، سفر عزرا**، الإصحاح العاشر: ٧-٩-١١-١٢-١٣-١٤.

(٤٨) محمد عابد الجابري، **مواقف**، العدد ٣٩، دار النشر المغربية أديما، الطبعة الأولى، المغرب، ٢٠٠٥، ص. ٨٠.

(٤٩) هشام الركيك، مرجع سابق، ص. ٢٨٤-٢٨٣.

(*) "[...] ولعل أنه من بين قضايا كثيرة لا تزال في حاجة إلى البحث بخصوص الملاحظات التي شيدها السلاطين، نذكر العوامل والأسباب التاريخية الفعلية المفسرة لإنشائها. إذ على الرغم مما يكتسبه ظهورها من أهمية اجتماعية، فالمصادر لا تؤرخ لها سوى بإشارات مقتضبة ومعزولة عن واقعها السياسي والاقتصادي والاجتماعي المفترض، حيث تكاد تحصر أسباب إنشائها في حرص الحكام على توفير الأمن والطمأنينة لليهود، أو في حرصهم على تجنب الاحتكاكات والمصادمات بين هؤلاء والمسلمين لأسباب دينية أو اخلاقية. وبذلك تظل الدوافع والأسباب الحقيقية لظهورها ملتفة بالغموض، مما يفسح المجال أمام بعض الباحثين لتقديم تأويلات سلبية بشأن الملاحظات المذكورة، ومنها الميل إلى اعتبارها بمثابة "كيتوهات" أعدت للعزل والحجز". انظر: محمد اللحية، مرجع سابق، ص. ٣٤٢.

(٥٠) نفسه.

(٥١) "[...] يمكن تفسير إحاطة الملاحظات بالنسوار بضرورات أمنية، وبرغبة اليهود أنفسهم في تأمين استقلالهم الديني والاجتماعي، حسب بعض الدراسات المتفائلة، أو بهدف الإقصاء والحجز من منظور نظيرتها المتشائمة. [...] نفسه، ص. ٣٥٨. نقلاً عن: شمعون ليفي، "الطائفة اليهودية في إطار تاريخ المغرب من القرن السابع عشر إلى الربع الأخير من القرن العشرين"، ضمن كتاب: **التاريخ الحديث والمعاصر ليهود المغرب**، تعريب علي تزيلكاظ، دار الستوكي للنشر، الرباط، ١٩٨٢، ص. ٣٧.

(٥٢) "الملاح البالي بمدينة تطوان كان من دون أسوار"، انظر: عمر لمغيبشي، **يهود تطوان ١٤٩٢-١٩٠٠ دراسة في التاريخ والتحول**،

يتصرفون كقطاع طرق بأنفسهم. لذلك، تم التفكير في عزل اليهود بهدف توفير حماية أفضل لهم".

(١٩) انظر: هشام الركيك، مرجع سابق، ص. ٢٦٧-٣١١.

(٢٠) روجي لوطورانو، **فاس قبل الحماية**، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٦، ص. ١٥٧.

(٢١) دانييل شروتير، مرجع سابق، ص. ٦٦-٦٧.

(٢٢) روبري أصراف روبري أصراف، **محمد الخامس واليهود المغربية**، ترجمة علي الصقلي، ومحمد كليزم، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٩٧، ص. ٤٨.

(23) «Le Talmud Torah de Meknès», in Bulletin de l'Enseignement Public au Maroc, N° 138, Mars, 1935, p. 101.

(24) Mohamed Métalsi, Cécile Tréal, Jean Ruiz, Les Villes impériales du Maroc, Ed Terrail, Paris, 2001, p. 53.

(25) AIU, **BII12-92**, lettre de Almaleh Bension Instituteur à l'école de l'AIU de Meknès, au président de l'AIU à Paris, Meknès, 28/11/1932.

(٢٦) محمد اللحية، مرجع سابق، ص. ٣٤٢.

(27) Jacob Katz, Exclusiveness and Tolerance: Studies in Jewish-Gentile Relations in Medieval and Modern Times, Oxford University Press, London, 1961, p. 22.

(٢٨) مولاي عبد الرحمان ابن زيدان، **إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار مكناس**، الطبعة الثانية، مطابع إيديال، الدار البيضاء، ١٩٩٠، الجزء الأول، ص. ١٥٧.

(٢٩) عبد العزيز الخليلشي، "حول مسألة بناء الملاحظات بالمدن المغربية"، **دار النيابة ٤**، (١٩٨٧)، ص. ٢٣-٢٤.

(٣٠) محمد اللحية، مرجع سابق، ص. ٣٥٢-٣٥٣.

(٣١) نفسه، ص. ٣٥٦.

(٣٢) دانييل شروتير، مرجع سابق، ص. ٢٥١.

(٣٣) محمد الضعيف الرباطي، **تاريخ الضعيف: (تاريخ الدولة السعيدة)**، تحقيق أحمد العماري، دار المأثورات، الرباط، ١٩٨٦، ص. ٣٤٤.

(٣٤) قرار ترحيل يهود مدينة الرباط إلى حي جديد خاص بهم أحدث صدمة في نفوس سواد اليهود، الذين أجبروا على الرحيل. ويخبرنا دانييل بأن اليهود غادروا حي الملاح القديم في الرباط إلى الملاح الجديد، بعد أن اكتمل بناؤه بتاريخ ١٦ أكتوبر من سنة ١٨٠٨، "بالبكاء والصياح والعيول"، وإثر تواني حزانهم في المغادرة، ضربه أحد موظفي المخزن ورمى به في السجن، بل وفضل بعض اليهود من الرباط وسلا، اعتناق الإسلام بدلا عن الرحيل". دانييل شروتير، مرجع سابق، ص. ٢٥٢.

(٣٥) عمر لمغيبشي، **يهود تطوان ١٤٩٢-١٩٠٠ دراسة في التاريخ والتحول**، منشورات باب الحكمة، الطبعة الأولى، تطوان، ٢٠١٩، الجزء الثاني، ص. ٣١١-٣٣٨.

(٣٦) نفسه، ص. ٣٣٨-٣٣٩.

(٣٧) دانييل شروتير، مرجع سابق، ص. ٢٥٢.

(٣٨) نفسه، ص. ٢٥٠. نقلاً عن:

Antoine Fattal, Le Statut légal des non-musulman en pays d'Islam, Impr. Catholique, Beirut 1958, p. 93; George Vajda, "Un traité maghrébin 'adversus jadaeos': 'Ahkam ahl al-dhima

منشورات باب الحكمة، الطبعة الأولى، تطوان، ٢٠١٩، الجزء الثاني، ص. ٣٠٧.

(٥٣) دانييل شروتر، مرجع سابق، ص. ٢٤٩.

(٥٤) نفسه.

(55) Joseph Tolédano, op. cit. p. 4.

(٥٦) ربيع رشيد، "يهود منطقة سوس، ١٨٦٠-١٩٦٠، دراسة في تاريخ المغرب الاجتماعي، عبد الله لغمايد"، هيسبريس تامودا، المجلد ٣، العدد ١١، جامعة محمد الخامس بالرباط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ٢٠١٦، ص. ٣٨٩.

(57) Armand Lévy, op.cit. p. 46.

(٥٨) "أتاح هذا العزل لليهود فرصة ازدهار حياتهم الدينية والثقافية دون قيود، حيث سمح لهم بتنظيم أنفسهم داخل نطاق محدد خول لهم: حرية العبادة في الكنيس، والالتزام بقواعد الكشروت في إعداد وطهي الطعام. ومع ذلك، لم تكن هذه الاستقلالية التي تمتع بها اليهود خالية من التحديات. فقد كان يحدث أحياناً أن تتعرض هذه الاستقلالية للتهديد، كما يحدث عندما كان السلطان يُقرر مصادرة المنازل أو الممتلكات التي تعود لهم، إذا كانت تعيق تنفيذ مشاريع بناء أو إعادة تخطيط أحياء كانوا يسكنونها أو يمارسون فيها أنشطتهم التجارية".

Armand Lévy, op.cit. p. 44.

(59) Joseph Tolédano, op. cit. p. 43.

(٦٠) عمر لمغيبشي، **يهود تطوان ١٤٩٢-١٩٠٠ دراسة في التاريخ**

والتحولات، منشورات باب الحكمة، الطبعة الأولى، تطوان، ٢٠١٩، الجزء الأول، ص ٢٠١.

(٦١) روضان اسحاق الزيات، "روايات العهدة العمرية - دراسة توثيقية"،

مجلة الجامعة الإسلامية، (سلسلة الدراسات الإسلامية)، المجلد

الرابع عشر، العدد الثاني، يونيو ٢٠٠٦، ص. ١٦٩-٢٠٣.

(٦٢) عمر لمغيبشي، **يهود تطوان ١٤٩٢-١٩٠٠ دراسة في التاريخ**

والتحولات، الجزء الأول، مرجع سابق، ص. ٢٠٥.

جوانب من الخصائص الطبيعية والاقتصادية والاجتماعية بالجبل من خلال كتاب رحلة الوافد

لبنى بنساسبي

أستاذة التعليم الثانوي التأهيلي

باحثة دكتوراه وعضو بمختبر المغرب والمجال المتوسطي
جامعة القاضي عياض - المملكة المغربية



ملخص

يتناول المقال الراحل كتاب "رحلة الوافد" لـ التاسافتي بوصفه وثيقة تاريخية مركزية لرصد ملامح الحياة الطبيعية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية في المجال الجبلي للمغرب خلال القرن الثامن عشر، ولا سيما بمنطقة وادي نفيس والأطلس الكبير الغربي. تكشف الرحلة عن طبيعة العلاقة المتوترة بين الزاوية والمخزن، وعن تفصيلات الصراع التي اتسمت بالتداخل بين العوامل الشخصية والسياسية، وبالدينامية المستمرة بين ثنائية "السيبة والمخزن". كما تقدم نصوص الرحلة وصفاً دقيقاً لخصائص المجال الجبلي، من وعورة المسالك وامتداد الشبكات والفجاج، إلى الثروات الطبيعية التي شكلت ركيزة للأنشطة الاقتصادية مثل الزراعة والرعي واستغلال المعادن. وتبرز الدراسة مختلف أشكال التنقل القسري والاختياري داخل المجال، وما رافقها من استراتيجيات للفرار والاحتماء، مسلطة الضوء على أنماط العيش، وتماسك البنى القبلية، وأدوار الزوايا في التعبئة الاجتماعية والروحية. كما تكشف الرحلة عن ثراء العمران الجبلي ودور التحصينات المحلية، إلى جانب حضور الممارسات الطقوسية والمقدس الشعبي في الوعي الجمعي للسكان. وتخلص الدراسة إلى أن رحلة الوافد تمثل مصدراً فريداً لفهم تعقيدات المجال الجبلي المغربي، وفاعلية مجتمعاته، وعمق تفاعلاتها مع السلطة المخزنية.

كلمات مفتاحية:

الرحلة؛ المجال الجبلي؛ الكتابات العربية؛ زاوية تاسفت؛ العمران البشري

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٢٨ يونيو ٢٠٢٥
تاريخ قبول النشر: ٣١ يوليو ٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.466743

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

لبنى بنساسبي. "جوانب من الخصائص الطبيعية والاقتصادية والاجتماعية بالجبل من خلال كتاب رحلة الوافد". - دورية كان التاريخية. - السنة الثامنة عشرة - العدد الثالث والسبعون، نوفمبر ٢٠٢٥. ص ٢٤ - ٣٤.



X, formerly Twitter: <http://X.com/kanhistorique>
Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>
Facebook Group: <https://www.facebook.com/groups/kanhistorique>

Corresponding author: l.bensasy.ced@uca.ac.ma
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في دورية كان تحت ترخيص Creative Commons Attribution 4.0 International License (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

الاقتصادية والاجتماعية التي كانت تزخر بها هذه المسالك؟ وما هي مظاهر حضور المقدس والطقوس الدينية بمغرب القرن الثامن عشر الميلادي؟ وما علاقته بالمخزن خلال هذه الفترة؟

أولاً: المجال الجغرافي الجبلي برحلة الوافد وخصائصه

تتجلى أهمية كتاب التسافتي في كونه وصف لنا مرحلة من تاريخ مجال الأطلس الكبير الغربي في علاقته بالمخزن، مترجماً بذلك طبيعة العلاقة التي تميزت بنوع من المد والجزر، والمخزن في طبيعة تعامله مع هذا المجال الجبلي معروف دائماً بصرامته الغير المفهومة أحيان حتى من طرف مؤلف الرحلة، بحيث اتسم الصراع بحضور الحسابات الشخصية، ونوع من الذاتية في التعامل مع الجبل، فباشا مراكش اعتبر الصراع شخصياً وأصر على ضرورة إخضاع هذا المجال مصرحاً "لئن مكنتني الله من أرض هذا القوم حتى أشعف بهم وامثل لمن بعدي من الولاة بفضيحتهم"^(٥)، ليعتبر الصراع شخصياً أكثر منه صراع مبني على أسس واقعية وهو ما يطرح إشكال حول طبيعة العلاقة بين المخزن والقبائل المغربية؟ بحيث يحتمل تحريك جيوش ضخمة لأسباب شخصية أكثر منها أسباب منطقية وواقعية تتطلب إخضاع هذه القبائل، وهو ما يضع كذلك ثنائية "السيبة والمخزن" على المحك ومحط نقاش، هل فعلاً هذه الثنائية واقعية؟ ألا يمكن اعتبار السجال بمثابة صراعات شخصية تحرك من أجلها جيوش توصف من طرف التسافتي على أنها بمثابة الجراد المنتشر؟

من حيث مرجعية النص الطويل للتسافتي فهو بمثابة شهادة حية من طرف شاهد عيان معاش للوضع بمختلف تفاصيله، وبأسلوب سلس يطرح نوع من الصعوبة لامتزاجه باللغة الأمازيغية، وخاصةً على مستوى وصف المسالك بالاعتماد على طريقة المد والجزر، والتدارك بعد مرور فقرات طويلة، وهو ما يفرض على القارئ ضرورة الوقوف عند فقرات بعينها، بل وإعادة قراءتها أكثر من مرة لفهم تفاصيلها كلما دعت الضرورة لذلك.

تحتل رحلة الوافد مكانة متميزة في تاريخ المغرب، لكونها تتحدث عن عالم ليست فيه للتاريخ وللذين يصنعونه أية صفة خارقة للعادة، أناس يصنعون التاريخ لأنهم يمارسون الحياة، أناس لا يشعرون بأنهم يملكون أية سلطة ذات صبغة إلهية. والتاريخ الذي ينجز، لأنه ضروري، ليس إلا صفحة قد انطوت من حياتهم اليومية، إنه تاريخ متواضع، ولكنه حقيقي. تاريخ بسيط في الظاهر، لكنه عميق، لأنه مرتبط بحياة الناس^(١) فقد مكنت هذه الرحلة الباحثين من الرجوع إليها كوثيقة تاريخية، حينما يدرسون المؤسسات الاجتماعية والسياسية للجبل^(٢).

من المصادفات الحسنة أن الرحلة كشفت لنا عن مظاهر جد مفيدة من الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية...، إذ نجد معلومات غير معروفة عن تحالفات اللف اتحدت في كتلة واحدة لتواجه الجيوش المحاصرة... ومن جهة أخرى تشير الرحلة إلى الدور الذي يلعبه الشيوخ في تحريك الحياة السياسية لمجتمعات منطقة معينة^(٣) وبالتالي يمكن استغلال أحداث ووقائع الرحلة لبناء صورة تقريبية حول أنماط عيش سكان الجبل خلال فترة القرن الثامن عشر الميلادي، ف "الرحلة تختزن معنى الحياة والدور الذي تلعبه الزاوية في الأطلس الكبير"^(٤).

ما أثرتنا في هذه الدراسة أن المعلومات حول هذه الرحلة لا توجد حولها سوى كتابات المرحوم صدقي أزايكو، فمخطوط هذه الرحلة قد حقق من طرفه، بالإضافة إلى أن التعليق حولها كذلك من طرف المؤلف أزايكو، لذلك فالمعلومات حولها هي ضعيفة جداً، لذلك حولنا جاهدين دراستها والتعليق على نصوصها.

تتضمن الرحلة إيماءات للأنشطة الاجتماعية والاقتصادية المعتمدة بالجبل خلال هذه الفترة، إلى جانب كونها تزخر بمظاهر دينية وطقوس متعددة تثير الباحث في الموضوع للوقوف عند بعض التمثيلات الذهنية لسكانة الجبل المغربي خلال هذه الفترة. فأين تتجلى أوجه هذه المؤشرات؟ وما هي السمات المميزة للمسالك الجبلية خلال هذه الفترة؟ وماهي الأنشطة

التتبع بأن هناك نوع من القطيعة في بعض هذه المسارات، كما أنه ليست هناك استمرارية في تتبعها، بحيث إن الباحث يتتبع مسلك إلى مراحل متقدمة منه، ثم يتعرض لنوع من التموه غير المقصود من طرف صاحب الرحلة الذي يعتمد كثيراً على أسلوب الاستدراك حيناً والتدراك في أحياناً أخرى، كما أن غياب التسلسل الموضوعاتي والزمني للأحداث يحول دون ضبط هذه المسارات ولكن رغم ذلك حاولنا جاهدين الإدلاء بدلونا في هذا السياق، وذلك من خلال إبراز أهمية هذه المسالك وأدوارها سواء في العلاقة بين المخزن والزاوية أو في علاقة هذه الأخيرة بالقبائل المجاورة لها.

تقع "زاوية تاسافت" وسط مرتفعات الأطلس الكبير الغربي، وتعتبر حسب مؤلف رحلة الوافد بأنها بمثابة "مأوى المساكين والضعيف والقوي لا مدخل لها ولأربابها الذي أحدثه أهل الوادي من الخلف وعصيان قبائلهم".^(٩) على المخزن، وقد وصفها في موضع آخر بأنها فقط "دار المساكن ودار الله".^(١٠) وترتبط بالعالم الخارجي بواسطة مسالك متعددة اتخذت كمسارات للكر والفر من المخزن، وكانت الطبيعة المميزة لها تتسم بنوع من المد الجزر في اعتمادها، وعلى العموم، كانت هذه المسالك بمثابة نوافذ لتاسافت على العالم الخارجي، وكانت بمثابة وسائل للفرار والتمويه والحماية، حتى إن طبيعة صعوبة هذه المسالك والمسارات تحفز ساكنة الجبل على اتخاذ قرارات جريئة في ردود أفعالها اتجاه المخزن، بل ويحدث أن "اجتمع رأيهم على الخلاف وقتال الجيش وحصره ودفعه، لأن بلادهم ضيقة المسالك"^(١١)

ونظراً لتحركات المخزن بها فقد تراوح دورها بين الحيادة والدخول في معمة الصراع معه، وقد كان هذا الحيادة نابع حسب أزاىكو "من عدم الثقة بوعود الباشا وعدم استعداد الأعيان للمغامرة بمصالحهم في الجبل بقبول التعامل مع المخزن خصوصاً وهم يعرفون أكثر من غيرهم رفض السكان للوجود المخزني في بلادهم لكونهم لا يطبقون جامعا آخر للضرائب والعطايا"^(١٢)

لكن رغم ذلك فقد كانت هذه المعارضة تتخللها أحياناً مراحل من الاعتراف بالمخزن، والانتماء الاسمي له. فقد حدث أن «اجتمع عليه من أعيانهم الجم الغفير،

فيما يتعلق بالمجال الجغرافي لرحلة تاسافت الذي يتناول هذا النص تفاصيله فيقع في جبال كنفيصة بجبال درن الغربي من جهة السفح الشمالي والجنوبي، ويلخص "علي صدقي أزاىكو" في مقدمة تحقيقه لرحلة الوافد مجال ومضمون الرحلة قائلاً: "نعني بمجال الرحلة، الإطار الجغرافي والمجتمعي الذي تعطينا عنه أكثر ما يمكن من المعلومات. وهذا المجال الجغرافي يضم أساساً وادي نفيس، وخاصة حوضه الذي توجد فيه تينمل، بالإضافة إلى روافده العليا: أكنضيس وأوكدمت وأغبار، وأخيراً بلاد إيداوساطوك. أما المجال المجتمعي فيتكون من مختلف المجموعات البشرية المستقرة بوادي نفيس وروافده مضافة إليها مجموعة إيداوساطوك وإمسكالن وإيمدلاون وإيسكساوان وإيكدميون"^(١٣) ليتضح ي بأن مجال الرحلة يتسم بكونه مجال شاسع متعدد المشارب ومتنوع المكونات القبلية المشكلة له، وهو ما نصادف بعض آثاره الإيجابية التي تتجلى في التوافق مع القبائل المهدة من طرف المخزن، بل وتشكل مجالا لإيواء المعارضين له فمثلا "قبيلة مسطوكة أفضل من غيرها بلاد الأمان لم يصل إليها المخزن من كل ناحية ولا يدخلها من غير إذن أهلها"^(١٤) من جهة ثانية كانت لهذا السيفساء القبلي آثاره السلبية خاصة في تكالب بعض هذه القبائل على زاوية تاسافت، بل والوشاية بتحركات أفرادها كلما سنحت الفرصة بذلك، وهو ما لعب عليه المخزن. هذا الأخير استطاع أن يكرس التفرقة بين ذوي القربى وأهالي المنطقة وهو ما ترك آثاره في نفسية مؤلف الرحلة الذي تأثر سلباً بطريقة انفضاض ذوي القربى عنه مشيراً إلى أنه "ولم يكن معنا من الأحباب وأهل الكساكس والخبز ذلك اليوم. كل واحد يقول نفسي نفسي إلى أين المفر".^(١٥)

١/١- طبيعة المسالك والمسارات الجبلية

المؤدية لزاوية تاسافت وأهميتها المجالية

حظيت المسالك والمسارات بدور كبير في تحديد معالم الأحداث وتطوراتها في نص التسافتي، وإن كان تتبع هذه المسارات يطرح صعوبات بالنسبة للباحث في هذا المجال المتشعب، وهذه الصعوبات تتجلى كذلك في عدم الإلمام الميداني بهذه الطرق. ويتضح جلياً من خلال

نجد أن المؤلف في الكثير من المواضع يشير إلى مميزات بعض القبائل الجبلية من الناحية الطبيعية فنجدته يتحدث عن بلاد زداغة قائلا "ولما أشرفنا على بلاد زداغة قنطنا ورأيناها مخالفة لبلادنا أرضا وشجرا وهواء، كثيرة الأوعار بعيدة المزار بحيث لا ترى بها إلا من قصدك" (٢٠) "... ومياه بلاد زداغة وسكساوة. فهي ميزان مياه جبال كنفيصة كلها. كالقلد الذي به يقسم الماء" (٢١) وفي وصفه لبلاد وكه "... وكه، وهي بلدة جيدة ذات مياه عذب وأشجار مختلفة النوع، من زيتون ونخيل وعنب وتين ورمان وغير ذلك" (٢٢) في وصفه لبلاد أخرى "وهي بلدة حسنة ذات مياه وعين معين وأجنة فاضلة وأشجارها يانعة الثمار من كل نوع منوع، وزيتون ورمان وسواني ممتلئة بماء، وفضاء أجنحتها متسع، كأنها قطعة من نوع بلاد توز في بلاد الجريد" (٢٣) "من كثرة الفواكه اليانعة من عنب وتين وجوز ولوز وخوخ ورمان" (٢٤)

ما يمكن استخلاصه أن المجال الجبلي يتميز بخصائص طبيعية تجعل منه مجال غني يتميز بـ "الجبال الشوامخ" (٢٥) ووعورة مسالكه "ونظر البلاد وأوعارها وطرقها" (٢٦) و"من شدة أوعار الجبال" (٢٧) ومما لا شك فيه أن هذه المسارات تميزت بالحيوية وكانت مفعمة بالنشاط على مختلف الأصعدة، ومن لم يطالع على تفاصيل "رحلة التسافتي" سيخال في البداية بأن هذه المسالك عبارة عن قفر لا اقتصاد ولا حياة وعلاقات فيها، ولكن العكس هو الذي يتضح في ثنايا هذا النص. وتناول مظاهر هذه الحيوية يتطلب منهجية رصينة تفاديا للإطناب، وذلك لن يتأتى فعلا إلا بتقسيم هذه المظاهر حسب نوعيتها.

٢/١- تجاذب المسارات: التواصل مع

المحيط باختلاف تلاوينه

وعلى مستوى المسارات والتواصل مع المحيط باختلافه تلاوينه وطبيعته يحظى كتاب "رحلة الوافد" المعروف برحلة التسافتي بأهمية كبرى في كونه أمانة اللثام عن بعض تفاصيل المسالك السلطانية خلال القرن الثامن عشر، بالتطرق لجوانب عدة توفر لنا إشارات كثيرة لأهمية هذه المسالك التي كانت مفعمة بالحياة رغم صعوبتها، وهذه الأهمية تتجلى في احتضانه لزاوية

وقرأ عليهم كتابه، فاتفق رأيهم على السمع والطاعة للخليفة، رجاء انطلاق السبل على المساكين وأراملهم، عسى أن تكون العاقبة خيرا، وأتى رسلهم لمشورة الوالد بذلك كيف يكون الأمر. وأذن لهم في المدارة والإعلام بأنهم على الطاعة لله وخليفته في أرضه. (١٣)

كانت ساكنة تأسفت على دراية تامة بأهمية هذه المسارات وبدورها الكبير في الاحتماء من المخزن، ولذلك فالنص الذي أمامنا يتضمن مجموعة من الثيات (جمع ثنية، وتعني تيزي بالأمازيغية) المتعددة والفجج المتنوعة أبرزها يتجلى في: "تيزي ن تيشكا"، "تيزي ن تاست"، "تيزي ن ويشدان" جنوبا، و"تيزي ن تكرامت" و"تيزي نيميري" شمالا، واحتضن المجال ممرات ومسالك متعددة كلها اتخذت طابعا وأسماء محلية مثل "شعبة العوينة، شعبة أبي زيد، بلدة أمزري، ثنية تكتافت" (١٤)، فجة إمري (١٥) ثنية وشدان، أمزري (١٦)، شعبة أبي زيد. (١٧)

وعلى العموم فهذه المسارات ترتبط بمجرى وادي نفيس الذي يعتبر بمثابة مسار أساسي تدور في فلكه معظم الأحداث والوقائع الرئيسية التي عرفها "جبل درن" في القرن الثامن عشر الميلادي في علاقته بالدير، وهو يمتد على شكل شريط من شمال شرق منطقة تأسفت إلى جنوبها الغربي المرتبط بسوس.

كان هذا الوادي بمثابة متنفس للساكنة في شقه الشمالي الشرقي على اعتبار وعورته، بل وزرع في نفسية القبائل نوعا من الثقة بالنفس حيث أن "كل أمير أو وزير من وزرائه أو قائد من قياده أو جيش من جيوشه أراد أن يصل عليكم وعلى بلادكم بدخوله من فم وادي نفيس، لا يهولنكم ولا يشوشنكم ولا تخافوا دخول الولاية القاصدين حضرتكم منه إن شاء الله" (١٨) هذه العناصر تدل على الإلمام بطبيعة المسالك الجبلية ومعرفة تفاصيلها، حيث تتراوح بين المسالك الوعرة التي تشكل حاجزا من المخزن، وبين أخرى التي تشكل نقطة ضعف تدل عليه بعض تفاصيل الشهادة المستقاة من نص "التسافتي" حيث وردت الإشارة إلى أننا "نخاف على وادي نفيس من سوس، وأما فم الوادي لا يخافون منه، فهو مضمون، والولي لا ينطق عن الهوى كما قد علمت" (١٩)

- قبيلة أنكال- زاوية تاسفت
- زاوية تاسفت- غرتيتة وادأكدمت
- سياق الخبر عن هجرة أهل زاوية تاسفت نحو
- ملجئهم القسري وتضم الانتقال عبر المحطات التالية:
- الزاوية في اتجاه فجة تاكنفت
- من وادي نفيس إلى أكدمت
- تغكموت
- تويالين
- بلاد زداغة
- سياق الخبر عن زيارات جملة من الأضرحة، وتهم
- الانتقال نحو كل من:
- سكساوة
- تينمل
- سوس
- تافيلالت

يمكن رصد المؤشرات المتعلقة بالزمن في الرحلة بالتميز بين أوقات يخصها المؤلف بانطلاق عملية الانتقال وأخرى ترتبط بالإراحة أو الاستراحة وأخرى تفيد الوصول إلى محطة ما قبل الانتقال عنها. وهي عموماً تعابير تفيد فيوضع بعض التصورات حول طبيعة المسالك التي مر منها المؤلف، وكذا منحنا تصوراً عن طبيعة الأوضاع الأمنية به ثم خصائص التنقل في المناطق الجبلي

تعددت دوافع تنقل المؤلف من خلال ما تردد في إشارات الرحلة من حديث المؤلف ذاته، يمكن التمييز بين تنقلات مؤقتة لغرض معين كإنجاز مهمة أو زيارة ضريح ولي صالح أو حتى لغرض علمي، ثم تنقلات دائمة تهدف إلى الاستقرار والتي يبرز الدافع القسري لها في فضاء المؤلف ليشكل الحدث الأبرز والذي ظل أثره حاضراً في ذاكرة المؤلف. أما شكل التنقل، فقد تباين بين الحديث عن تنقل فردي في الفترة التي كان فيها النقل محلياً لمحيط زاوية تاسفت، فيما أن روح الجماعة والتنقل برفقة ظلت تطبع مختلف تنقلات المؤلف الأخرى، وهذا ما يمنحنا صورة عن طبيعة التنقل إبان فترة الرحلة وما قبلها.

تردد في متن الرحلة كثيراً إشارة إلى أوقات الصلاة كمواعد للانطلاق أو الوصول ومن ذلك ما كتبه المؤلف

تاسافت التي كانت تؤرق المخزن خلال هذه الفترة، وبالتالي عمل كل ما بوسعه لإخضاعها بغية استتباب التواجد المخزني في هذا المجال الذي يحظى بأهمية كبرى لكونه جاء في قلب المسالك التي تربط بين وادي نفيس ومنطقة سوس في الضفة الجنوبية منه، وهذه الأهمية تتجلى فيما أشار إليه التسافتي في خروج باشا مراکش عبد الكريم بمنصور " في زي عظيم متوجها لثنية الأكلوي (تيزي ن تيشكا/ أكلاوو)، ونزل في سيدي رحال وحرك معه كل من لقيه من القبائل، حتى كان عليه الجم الغفير من الجيش في العدد الذي ذكرنا وزيادة..ولما طلع تلك الناحية فرق أصحابه إلى هسكورة وورزازات قريبة من درعة"^(٢٨) وذلك لغزو منطقة الفايجة، وكان لهذه المسالك دور فعال في الربط بين مراکش وهذه الأخيرة. نفس المسالك لعبت دوراً كبيراً في غزو منطقة سجلماسة التي كانت تحظى بموقع استراتيجي حيث ورد أنه "في العاشر من رمضان المذكور، خرج الباشا عبد الكريم بمنصور التكني، خليفة عنتره مولانا اسماعيل بن الشريف من ملوك فيلاللة المشهورين بسجلماسة، بأرض الفايجة قريبة من وادي درعة"^(٢٩)، ليتضح بالتالي أن هذه المسالك السلطانية لعبت دوراً كبيراً في الربط بين المجالات التي يهيمن عليها المخزن وبين المجالات الأخرى المراد السيطرة عليها لتوسيع رقعة سيطرة المخزن.

ثانياً: النقل والتنقل من خلال رحلة الوافد

تعددت الأسباب والدوافع وراء فعل التنقل وبسببها يمكن الحديث عن أنواع التنقل، تتباين بين التنقل الاضطراري والتنقل الاختياري، ومن خلال الرحلة نقف على خبر من النوعين معاً، في سياق الخبر عن تنقل المؤلف بين أماكن مختلفة لأغراض متنوعة، وبين تنقل/ هجرة أهل زاوية تاسفت نحو مناهم القصري، لقد حكم هذين السياقين من الحديث متن الرحلة فكان الخبر عن التنقل داخل الرحلة يتجزأ إلى سياقات متعددة نضعها في ثلاثة محاور:

سياق المهام التي يعهد بها والد المؤلف ابنه ما قبل حدث هجرة أهل الزاوية، وتضم الانتقال من وإلى كل من:

مصيرهم وإلى حدود انتهاء محنتهم، إذ لم يكن على ما يبدو في مقصدهم غاية يعتقدون الأمان فيها، ولذلك ترددت العديد من المحطات التي لم يتأت لهم المقام في أي منها تارة لعدم ترحيب أهلها بهم، كما حدث لهم بعد وصولهما لأيت الزياي بتويلن حيث استضافتهم زوجة الطالب سعيد الجناتي بينما كانت الرجال هرب منهم فكتب المؤلف: "تعجبت من تلك المرأة وبرها ورجلتها. هيأ فضل من زوجها. وفعلت معنا الخير ونزلنا بدار لهم قرب المسجد هناك" (٣٣)

وفي بعض الأحيان يكفي الوصف الذي يورده المؤلف لمعرفة السبب في عدم الاستقرار ذلك أنه علاوة على ما كان من مشاهد التخريب التي لحقت ببعض القرى التي يبدو أنها كانت من ضمن أهداف الحملة، فإن المؤلف ينقلنا في مشهد يعبر عن درجة بلغ إليها التنقل في صفوف قبائل واد نفيس، ذلك أنه قال صاحب الرحلة: "نزلنا بلاد آيت سوس بوادي أغبار. ووجدنا فيه جميع أهل واد نفيس بأنفسهم وأولادهم وأموالهم مجتمعين كيوم الحشر هناك وبتنا بموضع يقال له فم الثنية" (٣٤). فحالة التنقل الجماعي لقبائل مجال الحملة المخزنية إذن زاد من أزمة الإيواء التي يمكن للقبائل المتعاطفة معهم تحملها فكان الانتشار بحثاً عن القبائل التي تقدر على تقديم يد المساعدة هدفاً غير معلن من المؤلف.

مع وصولهم إلى بلاد زداغة تكون هجرة أهل زاوية تاسفت تقترب من الانتهاء ومعها مأساتهم، وهذا ما أفرج عن خبره المؤلف، ذلك أنه بعدما وصلوا إلى أمكرنيس أرسلوا كتاب لقبيلة مسكالة يعلمهم بنزولهم في قبيلتهم. فاجتمعت كافة قبيلة مسطوكة ومن معهم من قبائل زداغة ومسكالة ورحبوا بهم "فمرحبا بكم وسهلاً. فبلادنا بلاد الأمان والهناء والعافية حتى يمكن لكم الله رجوع إلى زاويتكم الشهيرة في قريب إن شاء الله" (٣٥). ومع حصولهم على هذا الجواب من قبائل زداغة يكتب المؤلف "حمدنا الله تعالى. أرسلنا لباقي عائلتنا بأغبار فطلعوا في هناء وعافية لوادي مسطوكة لسابع عيد الفطر من عام سبع وعشرين" (٣٦)

يختفي تقدير المسافات داخل فضاء أخبار هذه الهجرة، وهو أمر طبيعي بالنظر إلى الظروف المحيطة بها، وبالتالي تمنحنا هذه الهجرة القسرية صورة عن

في معرض حديثه عن انتقاله بطلب من والده نحو قبيلة أنكال لجمع زرع الزاوية، والبعث في أمره للرجوع بعد نزول القائد علي بن يدير قريب من بلدة إسكف، ف "لما صليت العصر طلعت مع ثنية إمري وجبلها عال وهو أشد ما يكون في الصعوبة. وصليت المغرب قرب مناهل غنم الزاوية بأغراس، في جبل تينمل المهدية" (٣٧). السياق هنا خبر تنقل في الماضي أي ليس ضمن زمن الرحلة ذاته، لكنه يبرز طبيعة التنقلات المجالية بمحيط الزاوية وكيف كانت تتم، حيث يبدو أن الزمن محدد بأوقات الصلاة، والممرات محكومة بالنقاط التي تيسر العبور (الثنيات) في ظل تكوينات جبلية شديدة الصعوبة (التعبير في نص الإشارة السابق "وجبلها عال وهو أشد ما يكون في الصعوبة")

بعد اضطرار أهل زاوية تاسفت على الرحيل عنها تسمح لنا إشارات المؤلف إلى تصور الوضع الذي قمت فيه عملية الإخلاء، وهذا ما نورد بعضاً منه لإبراز شكل الاضطراب للهجرة قسراً فبعد أن سمع والد المؤلف "طبلاً لباشا والبارود أمرهم بالخروج من الزاوية" فأخرجوا سريعاً فإن المخزن طلع وشدان... (ثم يضيف) وأمراني الوالد بخروج من في الزاوية من باب المنهل لناحية فجّة تاكننت... وأردف إلينا الوالد فوراً أخانا محمد الكبير أنا رجعوا ذات اليمين نحو الجبل، لناحية طريق تاسواكت إنكم مدركون" (٣٨)

يكشف مضمون النص أنه لم يكن التنقل وحده خلال هذا المشهد هو هم المتنقلين، بل التوفيق لسلوك الطريق الآمنة، وظل هذا الهاجس حاضراً في بالهم طوال الطريق، إذ حينما بلغوا جبل العوينة، يكتب المؤلف "لحق بنا بشعبة أبي زيد من وراء الزاوية. وطلع بنا على طريق منكب الوزع لا على شعبة العوينة. ثم رأيت العم رحمه الله الحاج عبد الله المذكور، نازلين من ثنية تاكننت غائرين. وظننت أنهم من أهل المحلة الطالعة من سوس. ولما وصلونا حمدنا الله على جمع الشمل، وطلعنا والوالد رحمه الله من ورائنا حتى طلعنا فوق جبل العوينة حيث بنفذ البصر جميع تاسفت، سهلها ووعرها وفحصها إلى بين الويدان تحت بلاد تكوت" (٣٩)

وظلت مشاهد الخراب والدمار التي صادفها أهل تاسفت في هجرتهم هذه تشكل قلقاً بالنسبة لهم حول

تتجلى أساساً في اعتماد (البغال) والتي تدل عليه إشارات متنوعة أبرزها أن أحد الأعيان كان "على بغلته راكب من شدة الوعر"^(٤٠) كما كانت تعتبر كمؤشر إيجابي وذو قيمة في الجبل بحيث يعطى بالأساس في الهدايا حيث رفضوا دفع "البغال لرسله في الحين على مقتضى ما في كتابه إليهم".^(٤١)

رابعاً: جوانب من الأنشطة الاقتصادية وأنماط الإنتاج في الجبل

فعلى مستوى الأنشطة نميز بين أنماط متعددة من الانتاج في الجبل خلال القرن الثامن عشر، وعلى العموم فقد اتسمت المرحلة التي تناولتها الرحلة بالخصب والفيض الذي كانت له نتائج إيجابية على المستوى المعيشي والاقتصادي للسكان "وكانت هذه السنة رخيصة الأسعار كلها بسوس ومراكش والغرب وحاحه، وكثرت الفواكه في الجبال".^(٤٢) ولهذا المعطى المناخي الجيد مؤشرات أخرى متعددة، وفي مواضيع متنوعة حيث يسجل كما تمت الإشارة إلى ذلك بأنه "كانت السنة من فضل الله رخيصة الأسعار ولله الحمد".^(٤٣) وهو ما كانت له نتائج جيدة فقد كان "هناك بأولادهم وأموالهم من بقر وغنم التي لا يحصي عددها إلا الله".^(٤٤) ولعل من بين المؤشرات الدالة كذلك على كثرة التساقطات هو ما تعرض له موكب الرحلة الفار من بطش "باشا مراكش" حيث يشير إلى أنه "طلعنا لذروة الجبل وسط النهار وقطعنا مسافته لناحية فجّة تد لوقت العصر، من أجل مطر أصابنا هناك".^(٤٥) ولكن رغم ذلك يسجل بأن الموارد المائية تحظى بأهمية كبرى في هذا المجال، بل وتلعب دوراً مهماً يعول عليه في الصراع مع المخزن والمناورة معه بحيث إن "هناك ماء قليل في عوينة في أعلى خندق تتسملال لم يعرفه إلا أرباب البلاد".^(٤٦) وهو ما أعطى أهمية قصوى للمسالك السلطانية والتي تتجلى في كونها ذات بعد اقتصادي تزخر بإنتاج فلاحى مهم يجعل المخزن المغربي تواقاً إلى إخضاعها لنفوذه "واسهموا من زرعهم وفاكهته سهما وافراً".^(٤٧) ويشير صاحب الرحلة في موضع إلى الوضعية الاقتصادية بالمجال الجبلي قال: "واشتد الغلاء بالناس غاية وبلغ سعر الزرع أربعة مثاقيل

الصعوبات التي يضيفها تضاعف الهاجس الأمني لعملية التنقل داخل الفضاء الجبلي، إذ يصبح هم المتنقل الأول ضمان سلامته الجسدية، واختيار المسالك التي تضمن ذلك، وبالتالي تصبح أحياناً المسالك المعتادة للتنقل مناطق خطر شديد ينبغي تفاديها وهو ما عنته إشارات المؤلف المتكررة لتوجيهات والده لتغيير الطريق. وهذا ما يدفع إلى التساؤل حول آليات التنقل المستعملة؟

ثالثاً: الوسائل المعتمدة في التنقل والتواصل

وقد اعتمدت في التواصل مع هذا المحيط آليات ووسائل نقل وتنقل على ظهور الدواب ففي سياق المواجهة مع المخزن "استعد لهذا الخروج (المخزن) من كل نوع من آلة الحرب والمال والخيول والبغال والحمير، وتجار أهل الذمة والفاسيين، وخزانة البارود"^(٣٧)، كما يبدو بأن هذه الصراعات بين المخزن وساكنة الجبل فيها منطق الربح والخسارة، فإذا كانت ساكنة الجبل وجيوش المخزن نفسها مهددة، فقد كانت فئات أخرى مستفيدة من هذا الوضع وتتجلى أساساً في أهل الذمة والفاسيين.

وعلى مستوى الصراع دائماً يتضح بأن موازين القوة لم تكن متكافئة أبداً بين الطرفين، حيث يبدو نوع من النقص والخصائص لدى ساكنة الجبل حيث "أن الشيخ يحي وكريم ومن معه من الجيش لما توجهت إليهم المحلة رتب الناس ميمنة وميسرة للحرب والقتال، فلم يكن غير قليل إلا والخيول والرماة لحقتهم".^(٣٨) الذي يهمنها هنا إلى جانب القدرة على المخاطلة في الحرب، وعدم الاستكانة للجيش فقط لأنه قوي، هو قلة الرماة والخيول.

كما أن الخيول في نفسية ساكن الجبل كانت مقرونة بالخوف كذلك، على اعتبار أنها تشكل مظهراً للترف ولا يتوفر عليها إلا المخزن والمحظوظين من أبناء الجبل، ومن مظاهر الخوف هذه ما تطرف إليه صاحب الرحلة في كونهم "يلتفتون وراءهم من شدة خوف ما رأوا، وأذن لي الوالد حينئذ بالطلوع على كدية هناك قرب ثنية الحجر، لأنظر الطريق النافذة من بلد هرغة لئلا تحدث بها الخيل".^(٣٩) كانت ساكنة الجبل على دراية تامة بأن وعر المسالك الجبلية تتطلب نوعاً من وسائل التنقل والتي

الصراع ما بين المخزن وأهل الزاوية وعلى سبيل المثال " ولما قطع عن الجبل الملح والزرع وخروج الناس بأسواق الفحص"^(٥٥) "واشتغل فيها بالبنيان ويرعى السوق والبرابر"^(٥٦) " وملتقاهم عند السوق قرب إجكاك في محفل عظيم"^(٥٧)

خامساً: جوانب من الحياة الاجتماعية

١/٥- العمران البشري والعمارة الجبلية

قد يخال المرء بأن المسالك الجبلية والجبال عموماً لا تزخر بكثافة سكانية مهمة، لكن رحلة الوافد تدحض هذه المعطيات. هناك دلالات متعددة لأهمية العمارة والعمران البشري بالجبل ولعل أبر مثال ذلك وصف جحافل المخزن بأنها بمثابة "جيوش كأنها جراد منتشر"^(٥٨)، هذه الكثرة تفسر ليس فقط بالجنود القادمين من الوطاء، بل إن باشا مراكش "عبد الكريم بن منصور" استعان بساكنة الجبل في قتال بعضهم البعض حيث يشير صاحب الرحلة كذلك إلى أنه "رأينا وادي أكدمت نزلت القوم الكثيرة معه هداياهم"^(٥٩)

ومعطى الهدايا هنا كان بفعل الضغوط التي يمارسها المخزن، ورغبة في التودد إليه وكسب عطفه ورضاه، وإن كنا سنقف بشكل مفصل عند المعطى في شق آخر مرتبط بالموضوع، المهم في هذا المستوى هو أن العمران البشري حظي بأهمية كبرى في وصفه، وهو ما يوفر لنا قاعدة معلوماتية جيدة لجرد مظاهر التواجد السكاني والعوامل المفسرة لكثرتة بهذا المجال بالضبط خلال هذه الفترة ولعل من المؤشرات الدالة كذلك على ذلك ذكره لنزوله "بلاد آيت سوس بوادي أغبار، ووجدنا فيه جميع أهل وادي نفيس بأنفسهم وأولادهم مجتمعين كيوم المحشر هناك"^(٦٠).

هذه الوفرة في الثروات المائية وخصوبة الأرض رغم وعورة تضاريسه أثرت بشكل أو بآخر في العمران وأنماطه وطرق بنائه، وإن كانت تفاصيل هذه المعطيات تظهر نادراً فيما تم التوصل إليه من قراءة رحلة التسافتي، إلا أنها ذات دلالة كبيرة في مؤشراتنا، وتعتبر طريقة البناء في الزاوية من أبرز النماذج الدالة على ذلك حيث أنه حدث في يوم الهجوم على تسافت أن "طلع مولاي الشريف ودخلها (الزاوية) بنفسه حتى نظرها

فضة إلى خمسة لغرارة الجبل... والفاكهة كذلك غالية"^(٤٨)

نجد أن المجال الجبلي يتميز بسيادة معادن بعدة قبائل داخل وادي نفيس وقد أشار لذلك المؤلف في عدة مواضع ما يجعل من هذه المادة الحيوية محركاً أساسياً لعجلة الاقتصاد، فقد كان من بين أسباب النزاع بين المخزن والقبائل الجبلية هو استغلال المعدن الذي ظهر بورت قال المؤلف في ذلك "... ومن الاجتهاد في جمع الحركة لوادي نفيس وللمعدن الذي ظهر بورت قريب من موضع يقال له تتسكت مشهور هناك في بلد صنهاجة وهو معدن الفضة العجيبة، حجره ثقيل أبيض يميل إلى الزرقعة مخلوط بالرصاص لا غير، أسهل في الذوبان. ومن حضر منه صاعاً كبيراً من ترابه يخرج له منه خمسة عشر مثقالاً فضة اسماعيلية دون الرصاص. فمن وجد ترابه فقد ظفر بحاجته"^(٤٩) كذلك نجد سيادة معدن آخر وهو معدن الملح "... معدن الملح بمريغة"^(٥٠). كذلك أشار أصحاب الرحلة إلى العديد من المعادن المنتشرة داخل المجال الجغرافي للرحلة "ثم إن بلدة أغبار وبلاد مسطوكة لا فرق بينهما في الصفة، والأوعار واللباس والأشجار. إلا أن بلدة أغبار فيها كثرة المعادن من حديد وغيره، والذي شهر فيها الآن معدن الحديد بموضع يقال له إغرمين... ثم معدن آخر بتويلين مشهور بها، ثم آخر بناحية إمليل وهو أفصحهم. ثم آخر بوادي مسور. وكانوا لا يذوبونه إلا بالفاخر من أعواد البلوط. وفيه مشقة كبيرة لا يقدر عليها إلا أهلها"^(٥١) "وقد رأيت موضعاً بضم أغبار فيه عرمة كبيرة قديمة من خبث الحديد"^(٥٢)، ما يمكن الإشارة إليه أن هذه المعادن كانت تستغل من طرف أهل الجبل في البناء والصناعة وهذا ما أشار له المؤلف قال "كانوا يبنون فيها من كل نوع من ذهب وفضة وأسلحة"^(٥٣) على مستوى الصناعي فقد كان يتم استغلال هذه المعادن في الصناعات وهذا ما أشار له صاحب رحلة الوافد قال: "وقد شاهدنا مثل ما ذكر من آلات الصياغين من خيوط سلوك النحاس الأصفر والحديد ورماد كوانينهم وأثر بناء بيوت الأسواق"^(٥٤)

أشار صاحب رحلة الوافد إلى بعض الأسواق التي كانت تقام في المجال الجغرافي للرحلة والتي لعبت دوراً حيوياً في تنشيط الاقتصاد وكذلك استغلالها في مرحلة

أسباب هذه الإشكاليات المطروحة تتجلى معالمها في التمازج الصارخ بين ما هو ديني وما هو طقوسي محض، وبين ما هو عرفي وما هو شرعي صرف، إلى جانب التداخل بين الزوايا والأضرحة. فساكنة هذا المجال في أحلك مراحل مواجهتها للمخزن كانت تؤمن بأنه "لم ينجنا وإياكم إلا الله والنبي وبركة الأسلاف والجدود والأشياخ وصاحب هذا القبر المبارك".^(٦٤) لنسجل بالتالي تداخل بين ما هو ديني حقيقي مرتبط بالله، وبين ما هو دخيل فيه نوع من الدجل والشرك، والذي يتجلى في تقديس القبور والأجداد وبركة الأسلاف. ومن بين المؤشرات كذلك على حضور زيارة الأضرحة والإيمان بها إفادة أوردها صاحب رحلة الوافد عن أبيه الذي أغلق "جميع أبواب الزاوية ونزل للروضة حتى زار قبر الشيخ والجدود".^(٦٥)

(٢/٥) ٢- طقوس التنبؤ (٦٦) في الجبل

وفي موضع آخر، وبفعل إكراهات المخزن دائماً تم الاهتداء إلى التنبؤات الفلكية ومواقع النجوم، وإن كان هذا يدخل ضمن إطار ما يصطلح عليه "بالجبال العالمة"، حيث تم المزج بين قدرة الله وعلمه بالغيب وبين الفلك "وهو سبحانه لم يطلع على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول. وهذا ما دلت عليه الدلائل الفلكية وزحل حينئذ في آخر العذراء يرمي شرره للميزان".^(٦٧) ومن بين المؤشرات الدالة كذلك على حدوث التداخل بين الديني والدجل كون "رحلة التسافتي" تبرز لنا بأن قراءة اللطيف لم تكون مرتبطة بالحركة الوطنية في ثلاثينيات القرن العشرين، بقدر ما كانت لها جذور تاريخية عميقة تعود إلى القرن الثامن عشر، حيث أشار صاحب رحلة الوافد إلى أن والده يجمع كل من الزاوية "من الطلبة في أوقات مخصوصة بالإجابة على قراءة اللطيف.. قالاً من قرأ هذا الاسم هذا العدد المذكور، قضيت حاجته كائنه من كانت".^(٦٨) كما أن الزاوية اتخذت كقاعدة خلفية مقرا للثبات والوقوف في وجه المخزن دون الفرار منه كما قام بذلك البعض من ساكنة القبائل حيث كان "رحمه الله تعالى في غاية ما يكون من الثبات، وقد رأيت صناديد البلاد وأكابر أعيانها ذلك اليوم هربوا عن محارمهم وأولادهم، فارين بنفوسهم".^(٦٩)

ونظر بنيانها ومسجدها وشغل اتقانها مسجدها وخرج. وأمرهم بإضرام النار في الزاوية وسقوفها.^(٦١) ولعل من أبرز المعطيات التي يمكن استقاؤها من وراء قراءة هذه الشهادة، هو ليس الهجوم الفعلي للمخزن على الزاوية، وليس تخريب معالمها، بقدر ما تهمنا المؤشرات الدالة على طريقة البنيان وشدة إتقانه التي تحيل على أن العمران في الجبل كان في أبهى حلله.

والأذكى من ذلك هو أن ممثلي المخزن بجلالة قهرهم وقوة شوكتهم عملوا على رفع "دفوف أبواب المسجد للمحلة إلى الوطاء، لأن صنعة تلك الدفوف في غاية الاتقان".^(٦٢) وكلها شهادات ذات الوقع الكبير على أن العمران شهد طفرة متقدمة، جعلت ممثلي المخزن من ساكني فحص مراكش المدينة التي كانت فيها كل مظاهر الحضارة متيسرة، ينقلون أبواب الزاوية لأهميتها ولكونها منمقة واستعملت فيها تقنيات مهمة إلى أن كانت في أبهى حللها.

ولم يقتصر البناء والعمران في الجبل فقط على الجوانب الدينية المرتبطة بالزاوية، وإنما تم الاهتمام كذلك ببناء التحصينات العسكرية التي تهدف إلى صد هجمات المخزن. ولعل أبرز مثال على ذلك ما أشار إليه مؤلف "رحلة الوافد" بأنه رأى "سوراً بحجر قطع عرضه، وسألت من حضر معنا من أهل أنان عن هذا البناء فقالوا سور عمله بنو خالد وبنو عثمان تجاه محلة الباشا عبد الكريم".^(٦٣)

٢/٥- المجال الجبلي والمقدس

(٢/٥) ١- سمات الدجل في التوجهات

الدينية للزاوية

في الجوانب المرتبطة بالمقدس في المسارات الجبلية، يتضح أن هذا المجال يشكل غنى لتداخل معطيات هذا الموضوع، فرغم أن الأسس مبينة على الدين الذي تمثله الزاوية في أبهى حلله إلا أن الموضوع يتطلب أكثر من وقفة، في علاقة الإسلام بهذا المجال، هل كانت الزاوية فعلاً يؤرقها الجانب الديني؟ أم أنه اتخذ فقط مطية لتحقيق الخطوة الاقتصادية والاجتماعية؟

خاتمة

لعبت الرحلة دوراً طلائعياً في رصد تطور صيرورة الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في مجتمعات المجال المغربي عامة والمناطق الجبلية خاصة، فقد شكلت رحلة الوافد أنموذجاً يحتذى به لدراسة مختلف جوانب الحياة. ما يمكن استخلاصه من خلال دراسة الرحلة أن المناطق الجبلية زاخرة بالحياة رغم وعورة الطرق والمسالك التي ميزتها، وهذا ما يستشفه القارئ. فقد رصد صاحب الرحلة أحداث ووقائع أهل الجبل بصفة عامة وزاوية تاسافت بصفة خاصة مع المخزن، هذه العلاقة المتوترة التي أترث في المجال وأفضت إلى تغييره وتبدله. أهم ما تم استخلاصه أن المجال الجبلي، أولاً هو مجال غني يتميز بسيادة غطاء نباتي كثيف، ثانياً كان للمجال الجبلي علاقة مع السهل رغم وعورة مسالكه وطرقه، فالمجال الجبلي لم يكن هامشياً كما تصفه بعض الدراسات، بل على العكس من ذلك فقد كانت العلاقة سائدة بين المدينة وأحوازها.

الإحالات المرجعية:

(١) علي صدقي أزيكو، **مساهمة في التعريف بمخطوط "رحلة الوافد..."**، ضمن كتاب "تاريخ المغرب أو التأويلات الممكنة"، مركز طارق بن زياد، الطبعة الأولى، أكتوبر ٢٠٠٢، ص، ٢٥٧.

(2) Henri Terasse, «A propos de la Rihla du Marabout de Tasaft», Revue Africaine, Publiée par la société Historique Algérienne, Alger, Année 1942, volume, P P 56-51

(٣) التساسفتي، **رحلة الوافد**، ص ١١-١٢

(4) Terasse, «A propos de la Rihla du Marabout de Tasaft», op.cit,P 65

(٥) علي صدقي أزيكو، **مساهمة في التعريف بمخطوط "رحلة الوافد..."**، ضمن كتاب "تاريخ المغرب أو التأويلات الممكنة"، مركز طارق بن زياد، الطبعة الأولى، أكتوبر ٢٠٠٢، ص، ٩٧

(٦) التساسفتي، **رحلة الوافد**، ص ١١

(٧) التساسفتي، **نفسه**، ص ١١٩

(٨) نفسه، ص ١٠٦

(٩) نفسه، ص ١١٧

(١٠) نفسه، ص ٩٢

(١١) نفسه، ص ٧٢

(١٢) نفسه، ص ٧٧

انظر:

Sadki Ali, «La Zawiya de Tasaft», Hespéris-Tamud, Vol. XXVI-XXVII. Fascicul unique, 1988-1989, p68

(١٣) التساسفتي، **رحلة الوافد**، ص ٩٢

(١٤) التساسفتي، **نفسه**، ص ١٠٤

(١٥) نفسه، ص ١٠٣

(١٦) نفسه، ص ١٠٢

(١٧) نفسه، ص ١٠٤

(١٨) نفسه، ص ٧٣

(١٩) نفسه، ص ٩٠

(٢٠) نفسه، ص ١٢٠

(٢١) نفسه، ص ١٢٥

(٢٢) نفسه، ص ١٣٨

(٢٣) نفسه، ص ١٥١

(٢٤) نفسه، ص ١٧٤

(٢٥) نفسه، ص ١٤٨

(٢٦) نفسه، ص ١٠٤

(٢٧) نفسه، ص ٩٦

(٢٨) نفسه، ص ٨٧

(٢٩) نفسه، ص ٦٩

(٣٠) نفسه، ص ٦٧

(٣١) نفسه، ص ١٠٣

(٣٢) نفسه، ص ١٠٤

(٣٣) نفسه، ص ١١٢

(٣٤) نفسه، ص ١١١

- (٣٥) نفسه، ص ١٢٣.
- (٣٦) نفسه، ص ١٢٣.
- (٣٧) نفسه، ص ٩٠.
- (٣٨) نفسه، ص ١٠٣.
- (٣٩) نفسه، ص ١٠٦.
- (٤٠) نفسه، ص ٨٣.
- (٤١) نفسه، ص ٨٧.
- (٤٢) نفسه، ص ٩٩.
- (٤٣) نفسه، ص ١١٢.
- (٤٤) نفسه، ص ١٠٥.
- (٤٥) نفسه، ص ١١١.
- (٤٦) نفسه، ص ١١٦.
- (٤٧) نفسه، ص ٨٩.
- (٤٨) نفسه، ص ٤٢٤.
- (٤٩) نفسه، ص ٣٧.
- (٥٠) نفسه، ص ٧١.
- (٥١) نفسه، ص ١٢١.
- (٥٢) نفسه، ص ١٢٢.
- (٥٣) نفسه، ص ١٥٤.
- (٥٤) نفسه، ص ١٦٥.
- (٥٥) نفسه، ص ٨١.
- (٥٦) نفسه، ص ٨١.
- (٥٧) نفسه، ص ٩٤.
- (٥٨) نفسه، ص ١٠٣.
- (٥٩) نفسه، ص ١١٠.
- (٦٠) نفسه، ص ١١٠.
- (٦١) نفسه، ص ١١٢.
- (٦٢) نفسه، ص ١١٣.
- (٦٣) نفسه، ص ١١٦.
- (٦٤) نفسه، ص ١٠٢.
- (٦٥) نفسه، ص ١٠٤.
- (٦٦) لا يقصد بالتنبؤ هنا الغيب.
- (٦٧) نفسه، ص ٩٩.
- (٦٨) نفسه، ص ١٠٠.
- (٦٩) نفسه، ص ١٠٤.

الرحلة والتاريخ

علاقات الأدب بالعلوم الإنسانية

التكامل وتبادل الأدوار لفهم الوقائع التاريخية

سليم الملوغ

باحث في سلك الدكتوراه

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة شعيب الدكالي – المملكة المغربية



ملخص

يسعى هذا المقال إلى إبراز القيمة المعرفية والمنهجية لأدب الرحلة ودوره المحوري في تجديد الكتابة التاريخية، من خلال توضيح طبيعة التكامل وتبادل الأدوار بين الأدب والعلوم الإنسانية في فهم الوقائع التاريخية. ينطلق الباحث من نقد محدودية المصادر التقليدية للتاريخ، التي ركزت على الأحداث السياسية وأهملت الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، مسجلاً الحاجة إلى مصادر بديلة قادرة على سدّ البياضات وتقديم رؤية «بانورامية» للمجتمع. وفي هذا الإطار يُبرز المقال أهمية الرحلات بوصفها نصوصاً تعتمد على المشاهدة والمعاينة المباشرة، فتوفّر معطيات دقيقة عن الجغرافيا، والذهنيات، والعلاقات الاجتماعية، والعادات والطقوس، وأساليب العيش، فضلاً عن وصف البيئات والثقافات المختلفة بزاوية نظر غير متحيزة نسبياً. كما يناقش الباحث الخصائص الفنية والمعرفية للنص الرحلي باعتباره جنساً أدبياً يمزج بين السرد والوصف والتأمل، ويستند إلى تجارب فردية تتحول إلى مادة تاريخية ذات فاعلية عالية، على نحو يسمح للمؤرخين بإعادة كتابة تاريخ الفئات المهمشة والعادية، وفهم البنى الاجتماعية والاقتصادية التي لا ترد في المصادر الرسمية. ويبرز المقال نماذج من الرحلات المغربية والحجازية، مبيناً ما تحمله من غنى معرفي وسعة في الرصد والتمثيل. ويخلص البحث إلى أنّ أدب الرحلات يشكّل مصدراً أساسياً ومكملاً للنص الإخباري التاريخي، وأن دمجهم في مناهج البحث يمكن من إعادة بناء المعرفة التاريخية على أسس أكثر شمولاً وعمقاً، رغم ضرورة إخضاعه للنقد المنهجي لضمان دقة التوظيف ومصادقية التحليل.

كلمات مفتاحية:

الرحلة؛ البحث التاريخي؛ المصادر البديلة؛ المستكشفون والرحالة؛ العلوم الإنسانية

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٣٠ مايو ٢٠٢٥
تاريخ قبول النشر: ٠٤ يوليو ٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.390635.1236

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

سليم الملوغ، "الرحلة والتاريخ، علاقات الأدب بالعلوم الإنسانية: التكامل وتبادل الأدوار لفهم الوقائع التاريخية"، - دورية كان التاريخية، - السنة الثامنة عشرة - العدد الثالث والسبعون، نوفمبر ٢٠٢٥، ص ٣٥ - ٤٣.



X, formerly Twitter: <http://X.com/kanhistorique>
Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>
Facebook Group: <https://www.facebook.com/groups/kanhistorique>

Corresponding author: elmouloue2020@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في دورية كان تحت رخصة المشاع المُنسب 4.0 (Creative Commons Attribution 4.0 International License) (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

ينفصل عن الآخر، الذي له صلة بمرجعيات الرحالة الثقافية والدينية والاجتماعية وغيرها من المرجعيات الأخرى، فالصورة التي ترسمها الذات للآخر، لا تقوم عفويًا ولا ترتسم في خلو من كل تصميم أو سبق تقدير بل هي ثمرة ووعي ومعرفة سابقة. وقد تنوعت أصناف الرحلات بتباين أهدافها، فقد يرتحل البعض لدواعي تجارية، أو سياسية، أو تعليمية، أو دينية بزيارة الأماكن المقدسة؛ هذا النوع الأخير الذي عرف بالرحلات الحجازية نسبة إلى الحجاز أو الحجية نسبة إلى الحج؛ أي كل ما يتعلق بكتابات الأدباء والمفكرين الذين أعانهم الله ووفقهم لأداء فريضة الحج، وزيارة الأماكن المقدسة.

أولاً: أدب الرحلة المفهوم والدلالة

للرحلة تعريفات عديدة وبعبارات مختلفة عند الأدباء والمهتمين، وهناك بعض التعريفات التي قام بها أدباء وعلماء ومهتمين بأدب الرحلة، وهي كالتالي:

الرحلة لغة:

ورد لفظ الرحلة في عدة معاجم وقواميس وعموماً يجمع الكل على نفس المدلول. "رَحَلَ عن المكان - رحلاً، ورحيلاً، وترحالاً، ورحلة؛ سار ومضى. ورحلة؛ جعل عليه الرحل، فهو مرحول ورحيل. الرحلة؛ الارتحال، (ج) رحل؛ وفي القرآن الكريم: "رحلة الشتاء والصيف"، "كتاب يصف فيه الرحالة ما رأى"^(١). ويقول ابن منظور في لسان العرب عن الرحلة: "الرحلة في اللغة الترحيل والارتحال بمعنى الإشخاص والإزعاج يقال رحل الرجل إذا سار"^(٢). كما جاءت الرحلة أيضاً بمعنى الجهة التي يقصدها الإنسان "الرحلة والارتحال والرحلة بالضم الوجه الذي تأخذ فيه وتريده، تقول أنتم رحلتي أي الذي ارتحل إليهم"^(٣). لا يختلف معه بطرس البستاني في معجمه "محيط المحيط" عندما يقول: "رحل عن البلد يرحل رحلاً، ورحيلاً وترحالاً شخص وسار وراحله عاونه على رحلته، والرحلة النوع من الرحيل"^(٤)، من هذه الأفعال يأتي اسم الرحلة فيعرفها بقوله: "الرحلة النوع من الرحيل، يقال رحل فلان رحلة من لا يعود، وعند المولدين قصة يكتبها المسافر عما جرى له وما رأى في سفره"^(٥).

تسعى هذه الدراسة إلى البحث والتتقيب عن أهمية أدب الرحلة في حقل البحث التاريخي على اعتبار أن الرحلة جنس أدبي يسعف الباحثين والمؤرخين والمهتمين على رسم صورة "بانورامية" وشمولية للأماكن التي زارها بعض الرحالة في مختلف الأزمنة والأمكنة والفضاءات، إذ خلفت من خلال تأليفها أرث حضاري وإنساني وثقافي للقراء....، فقد ألف الإنسان الرحلة والترحال منذ القدم، فترسخت في طبيعته وتجدرت في فكره، إذ عرفت جميع الأمم والشعوب ومنها العالم الإسلامي أشكال متعددة ومختلفة من الرحلات لارتباطها بالنشاطات الإنسانية التي تتطلع إلى استكشاف الأعماق والآفاق.

وحينما تكون الرحلة فعلاً إرادياً يقوم بها الفرد من أجل دوافع ذاتية فإنها لا تتأني إلا عبر كتابتها وتوثيقها، بمعنى انتقال التجربة الإنسانية من فعل إلى تجربة محايدة تجعل من لغة العقل وأسلوب الحوار والمُحاجة أساساً لها فيصبح فعل الرحلة بذلك كتابة يسرد فيها الرحالة أحداث سفره ومشاهداته ومعانياته، مازجا إياها بانطباعاته الذاتية، لتصبح الرحلة بذلك فعلاً وخطاباً يوثق مساراً يبدأ من لحظة انطلاقها لينتهي في مرحلة أوضح إلى الموطن الأصل، وبالتالي تمتزج التجربة المنجزة من طرف الرحالة بطرق الكتابة وما يتخللها من سرد يتأرجح بين اللغة الأدبية واللغة التواصلية، ووصف يتلون بانطباعات وأحكام ومواقف ذاتية وموضوعية تتناسب مع الأفكار العلمية والدينية والإيديولوجية للرحلة.

وبغض النظر عن كون الرحلة تصويراً لمشاهد وتدويناً للانطباعات، فهي كذلك تكشف عن معرفة الآخر، فالرحلة وإن كانت في بلد غير البلد الأصلي فهي رحلة إلى الذات والأعماق، إذ أن كل ما يصفه الرحالة ويعرفه في مته فهو نابع من ذاته، ومن هنا يحضر الآخر كذات ثانية وبلد وثقافة ومشاهد وعادات وطقوس، وتغدو الرحلة سجل يعكس استراتيجيات تتداخل فيها مجموعة من الثنائيات، إذ هذه الثنائيات تتداخل بين ما هو سردي ووصفي وذاتي وموضوعي وانطباعي لا

الرحلة اصطلاحاً:

الرحلة جنس أدبي من أقدم الفنون الأدبية، التي ازدهرت مع مرور الوقت، وتطورت بتطور الثقافات والحضارات، فأدب الرحلات هو مجموعة من الآثار الأدبية يتطرق فيها الرحالة عن رحلته في بلدان مختلفة^(٦)، وفيها يحتفل الكاتب بالأساطير والخرافات، وبعض المحسنات البلاغية، وجمال اللفظ، وحسن التعبير، وارتقاء الوصف...، وهذا هو ما يجعل بعض الدارسين يدخلون أدبيات الرحلة ضمن فنون الأدب العربي^(٧)، فتصبح قراءة هذا اللون من الكتابة متعة ذهنية يصور فيها كاتب الرحلة ما جرى له من أحداث ووقائع، وما صادفه من مواقف أثناء الرحلة التي قام بها في البلد أو خارجه، واصفاً ما تقع عليه العين من مشاهد في هذه البلاد، متحدثاً عن حياة أهلها من عاداتهم وتقاليدهم وطقوسهم وأفكارهم...، مُبدِياً مشاعره وانطباعاته، ومستخلصاً العبر من كل ما جرى أثناء رحلته^(٨).

فأدب الرحلة إذن من الأجناس الأدبية النثرية التي عرفتها البشرية منذ القدم، وهذا الجنس الأدبي يصور لنا واقع الناس وحياتهم، وكيف كانوا يعيشون، كما امتزج هذا الفن الأدبي بفنون وأجناس أدبية أخرى مثل القصص والمذكرات، والسير الذاتية...، وقد تولى كتابة هذا النوع الأدبي، رحالة متنوعون في ثقافتهم وعلومهم، ممن استهوتهم المغامرة والسفر والترحال، مما أدى إلى اختلاف اهتماماتهم فيما ينقلون، إذ اختلفت اهتمامات الرحالة في رحلاتهم؛ وذلك راجع لتنوع ثقافتهم ومرجعياتهم الدينية والفكرية والثقافية ومغامرتهم في سفرهم، فمنهم من نقل عادات وتقاليد وثقافة ولغة ومعتقداتهم الفكرية والمذهبية والدينية.

وفي هذا الصدد فقد شكلت الرحلة مثلاً إلى بلاد الحجاز لأداء فريضة الحج هاجساً لدى معظم المغاربة خاصتهم وعامتهم، وهي رحلات كانت تتم بشكل جماعي عُرفت في المصادر التاريخية بمصطلح "ركب الحج" أو "ركب الحجيج"، وقد دأب بعض العلماء المغاربة خلال فترات مختلفة من تاريخ المغرب على تدوين رحلاتهم في أسلوب أدبي رصين، وضموا ما عاينوه وسمعوا به من

أخبار ووقائع في طريقهم إلى بلاد الحجاز فقد قدموا بذلك صورة متكاملة عن ركب الحاج المغربي إلى الديار المقدسة^(٩)، ومنهم من اعتنى بنقل ووصف جغرافية الأماكن التي ارتحل إليها، وآثارها ومناخها وتوزيع سكانها وطبيعتهم ومعالمهم الحضارية والثقافية، ولا بأس هنا أن نذكر ببعض الرحلات التي وصلت إلينا مدونة، ومن هذه الرحلات على سبيل المثال لا الحصر، نذكر رحلة أبا الحسن محمد بن أحمد بن جبير الأندلسي الذي سار بالرحلة خطوات واسعة، كما نذكر ابن رشيد الفهري السبتي، صاحب كتاب (ملء العيبة)، ومحمد العبدري صاحب (الرحلة المغربية)، كما نذكر كذلك رحلة أبي القاسم التجيبي صاحب (مستفاد الرحلة والاغتراب)، وخالد بن عيسى البلوي صاحب (تاج المفرق)، وابن الحاج النميري صاحب (فيض العباب) الذي سُجلت له رحلة أيضاً إلى الحجاز في مجلدات، ومحمد بن سعيد الرعيني صاحب (الرحلة الحجازية المنظومة)...، وكل هذه الرحلات قدمت صورة لركب الحاج المغربي خلال الفترة الوسيطية بصفة خاصة والرحلة المغربية بصفة عامة، وذلك لوصف طريق الذهاب والعودة، وكذلك إبراز مختلف العوائق التي كانت تقف في وجه ركب الحاج المغربي مع توضيح موقف كل من الحكام والعامة والفقهاء من هذه العوائق التي كانت تقف في وجه ركب الحاج المغربي عامة^(١٠)، وعموماً يعتبر أدب الرحلات ذو قيمة علمية كبيرة، كونه بمثابة وثيقة تاريخية واجتماعية وثقافية وجغرافية يُعتمد عليها لمعرفة أحوال البلاد المكانية والسكانية^(١١).

ثانياً: أدب الرحلة بين الأهمية والخصائص

يبدو أن أدب الرحلة هو واحد من الاجناس الأدبية، يبين لنا الحياة العامة للشعوب من حيث التاريخ والحضارة وجغرافية الأمكنة والاقتصاد السائد، بل وحتى الأفكار المتعلقة بذهنيات وعقليات المنطقة التي زارها الرحالة، كما يعرض لنا هذا الجنس الأدبي الثقافة السائدة والعادات والتقاليد والمعلومات عن العلاقات الاجتماعية ومعيشتهم ومعاشرتهم لبعضهم لبعض، في فترة زمنية من التاريخ لم تكن أجهزة الاتصال الحالية متوفرة، بل كان الرحالة هو العين الناقلة يقدم لنا صورة

ثالثاً: أدب الرحلة مصدرًا للكتابة التاريخية

للمرحلة تاريخ قديم قدم الإنسان ذاته، بل يمكن القول، إن تاريخ البشرية بأسرها إنما هو تاريخ الرحلة، فالإنسان كان يرحل منذ القدم لغايات وظروف بيئية وتاريخية مختلفة هذا ما جعل تاريخه حافل وغني بالثقل والترحال، فقد دونت الأمم والشعوب القديمة رحلاتهم، وخير مثال على هذا ما دونه المصريون القدماء والسومريون والفينيقيون ثم الإغريق والرومان، فقد سجل المصريون رحلاتهم على الجدران المعابد، وخاض الفينيقيون عباب المحيط الأطلسي وعني الإغريق عناية واسعة بوصف البلدان والأقاليم التي زاروها ومروا منها^(١٦). وقام بعض الرحالة والمستكشفين، وبعض التجار الإغريق والرومان في الحقبة القديمة بجولة من الرحلات إلى شمال إفريقيا خصوصاً وإلى سواحل البحر الأبيض المتوسط عمومًا^(١٧)؛ لأن الإنسان مثلما يروم إلى الاستقرار والثبات والإقامة، فإنه يرغب كذلك في الحركة وتغيير الأمكنة، ولكن القصد بتاريخ الرحلة إنما هو الحصول من فعل الرحلة أي نتائجها المعرفية سواء على المستوى الفردي أو الجماعي^(١٨).

فالإنسان لم يبقَ حبس الحركة، بل مارس الرحلة والارتحال، وذلك بعدما تعلم الزراعة وعرف كيف يستقر ويبني ويؤسس المجتمعات، وقد ظل على مدى العصور والقرون يتطلع إلى الآفاق البعيدة ويفكر فيما تشتمل من الخلق والموجودات، وفيما تحمله من الكنوز والخيرات، وخاصةً عندما كان يضيق به الحال، وينضب الماء وتبخل عليه الطبيعة بما يملأ بطنه ويسعده قلبه. ومع تقدم الوعي، وتجدد الحاجات، ازدادت لدى الإنسان الرغبة في التنقل والسفر وتعددت أغراضه وتنوعت، ليس الغاية هنا هو التفتيش في تاريخ الرحلة وإنما الغاية التأكيد على أن الإنسان قد بدأ الرحلة قبل أن يؤسس لتاريخها أو أدبها ودراساتها.

وخلال الفترة الوسيطية تعاضم دور الرحلة وغاياتها بشكل كبير، فالقرآن الكريم أورد العديد من الرحلات للرسول والأنبياء كرحلة سيدنا إبراهيم وموسى، وذو القرنين، وهجرة خاتم المرسلين عليه الصلاة والسلام وعليهم جميعاً، كما ورد لدى أحد الدارسين أن المصريين

متكاملة أو شبه متكاملة عن المناطق التي زارها خلال مدة رحلته.

كما تعتبر مؤلفات الرحالة من بين أهم المصادر التاريخية والأركيولوجية، التي تمدنا بالكثير من المعطيات والمعلومات والأحداث والوقائع التاريخية المهمة والبارزة، وتقدم لنا كذلك وصفاً دقيقاً للشخصيات والمناطق الجغرافية، وهي معطيات أقرب للواقع والحقيقية يصورها الرحالة عن المجالات الاجتماعية والعمرانية والحضارية والاقتصادية كما هو الحال بالنسبة لأشهر رحلة في التاريخ عبد الله الطنجي ابن بطوطة صاحب رحلة «تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار»^(١٩)، حيث قد في هذه الرحلة معطيات ومعلومات مهمة تشكل اليوم مصدراً خصباً للمؤرخين والجغرافيين وعلماء الاجتماع والأدباء والاقتصاديين وكذلك حتى رجال الدولة، بالإضافة إلى رحلة ابن حوقل صاحب «صورة الأرض» الذي زار من خلالها دار الإسلام من المشرق إلى المغرب تفيد لا محالة الدارسين اليوم في مختلف حقول اشتغالهم وقد أوضح الرحالة ابن حوقل في رحلته عن ظروف تأليفه لهذه الرحلة، وفيها عبر عن فوائده ومواعظ جملة للقارئ بصفة عامة والباحثين والمهتمين والمؤرخين على وجه الخصوص^(٢٠).

وفي مجال الحقل الفني، فأدب الرحلة يعد مجالاً أدبياً يزاوج بين الرواية والقصة والسير الذاتية والمذكرات، أما القيمة الأدبية للرحلة، فتتجلى "فيما تعرض فيه موادها من أساليب ترتفع بها إلى عالم الأدب، وترقى بها إلى مستوى الخيال الفني"^(٢١)، فالرحلة إذن يسجل فيها المؤلف مجموعة من المشاهد والأثار الأدبية المرتبطة بسلوك الأفراد والجماعات من عادات وتقاليد وقيم وأخلاق...، وما عاينه كذلك فيما يخص مناخ وجغرافية المناطق والأماكن التي زارها الرحالة أثناء رحلته بنوع من الإبداع الفني والصدق والدقة والقدرة على التعبير وحسن جمال الأسلوب، وكما قال أحد الباحثين: "الرحلة التي يقوم بها الرحالة إلى بلد من بلدان العالم، ويدون وصفاً لها فيه مشاهداته وانطباعاته بدرجة من الدقة والصدق وجمال الأسلوب"^(٢٢).

بها ويصفون ما يرونه ويعبرون عن آراءهم وأحكامهم مع تفاوتهم في هذا الجانب، فمنهم من ذكر المظاهر المختلفة من الحياة الاجتماعية ومنهم من وصف العادات والتقاليد والملابس والأطعمة والأشربة وما إلى ذلك، كما أنهم لم ينسوا ذكر الفئات الاجتماعية من طبقة العلماء والمتقنين في رحلاتهم بل إنهم أعطوهم أهمية كبيرة وتحدثوا عن مجالسهم ودروسهم وخدماتهم لإزالة البدع والمنكرات والشعوذة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر^(٢٣).

ولا شك أن أدب الرحلات من المصادر ذات الأهمية الكبيرة التي تعطينا صورة حقيقية عن التركيبة الاجتماعية والثقافية والنفسية، وتذهب بنا هذه الكتابات إلى مجموعة من الفرضيات والمسلمات الجاهزة على مستويات عدة هذا من جهة، ومن جهة أخرى هناك المفكرين الذين لهم شغف كبير وولع برؤية ومعرفة البلدان الأجنبية، كما هو الحال في جميع الحضارات هدف هؤلاء تنقل المباشر لمعرفة الأحوال التي زاروها وعدد السكان ودراسة الإثنولوجيا والأنثروبولوجيا وتسجيل بعض الأحداث وتدقيق بعض الحكايات والأساطير والخرافات والعادات والتقاليد التي عاينها^(٢٤)، وكذلك اهتمت الرحلة برصد أشكال الهندسة المعمارية التاريخية الأصلية أو الأجنبية، هذه الرحلات التي كانت إما اختيارية أو موجهة بدوافع علمية أو سياسية أو عسكرية، وفي بعض الأحيان تتوفر على أدب غني بأشياء مرئية أو مسموعة ومحكية.

وفي هذا الصدد نجد الرحالة المغربي أبي عبد الله محمد بن الطيب الفاسي المعروف بـ "الشرقي أو الشرقي" فهو فقيه وعالم وأديب ورحالة ينتسب إلى مدينة فاس، وقد دُونَ رحلته الشهيرة تحت عنوان (رحلة ابن الطيب من فاس إلى مكة المكرمة)، وهي الرحلة التي سجل فيها ابن الطيب الشرقي الفاسي أحداث ووقائع سفره من المغرب إلى المشرق، ذهاباً وإياباً سنة ١٧٢٦م، كما تَجَمَّعَ هذه الرحلة بين الوصف والملاحظة الدقيقة، وعرضه كذلك بشكل مركز الوقائع والأحداث التي شاهدها، بالإضافة إلى وصفه الطرق والمسالك التي مر بها ركب الحج المغربي انطلاقاً من خروجه من مدينة فاس ثم مصر فمِنطقة الحجاز، وخلال هذا المسار

القدامى قد أبحروا صوب الجنوب عبر نهر النيل سنة ١٩٤٣ ق.م، وهذه الرحلة تعد من أقدم الرحلات التجارية، بل أن كتاب "التواريخ" لهيرودوت^(٢٥) الرحالة الإغريقي، ما كان أن يضم ما تعلق بحوالي خمسين شعباً من وصف، ومن تأريخ لو لم تكن الرحلة، فهي الإطار الذي تمت فيه المعاينة والمشاهدة. وكما هو معلوم أن هيرودوت عاش في القرن الخامس قبل الميلاد^(٢٦)، فإنه يمكن القول إن هذا الشاهد، والذي قبله، كافيان للبرهنة على أن الإنسان في أمس الحاجة للرحلة لما لها من أدوار ومنافع في حياة الشعوب، وتكاد تكون ضرورة، خاصة في الأزمنة السابقة التي كانت المعرفة تحتاج فيها إلى المعاينة والمشاهدة والاختبار والانتقال، لذلك فإن الرحلة أضحت قناة من قنوات المعرفة، معرفة الكون وجغرافيته، ومعرفة الآخر في ماضيه الذي تجسده آثاره الدالة عليه، وحاضره الذي تشهد عليه ثقافته بمظاهرها المختلفة، وباتت جسراً من جسور التواصل بين الشعوب والثقافات والحضارات، فهي بؤرة للتأقاف والمثاقفة والتفاعل، تتجلى من خلال صورة الآخر كما تتجلى صورة الذات من خلال المعجم المستعمل في الوصف أو في السرد، لذلك فإن نص الرحلة، يمكن أن يعد مدخلاً لدراسة متعددة الأبعاد.

رابعا: أدب الرحلة في خدمة البحث التاريخي

لقد شكل أدب الرحلات مرجعاً خصباً للباحثين في مختلف المجالات لما تتضمنه من معارف ومعلومات تاريخية وجغرافية ودينية واشتغرافية وغيرها، حول الأماكن والبلدان التي ارتحلوا إليها وما اكتشفوه من عوالم وثقافات وأجناس وأحوال للمجتمعات التي تعرفوا عليها أو شاهدوها^(٢٧).

فأدب الرحلات أدب غزير ومتعدد وميدان خصب وواسع، فالنصوص الرحلية من أصدق النصوص تصويراً للحياة الاجتماعية والثقافية في البلدان التي زارها الرحالة، لأنهم يرصدون البلدان كما يشاهدونها وربما يجعلونها أصدق في التصوير، لأنها تأتي من عين جاءت من خارج تلك البلدان، ولذلك فهي عين فاحصة دقيقة صادقة في أغلب الأحيان^(٢٨)، فالرحالة كانوا يطوفون البلدان والأقطار ويصورون البيئات والأشياء التي يمرون

ليس عزمي رضى وعن طيب نفس
إنما كان بالقضاء اضطراراً
واختياري أن لا أفارقك الدهر
ولكن لا أملك الاختيارا
فعسى الله أن يمن بعود
وعساه يطفئ لهيباً وناراً^(٢٨).

فالأسطوغرافيا الرحلية بإمكانها سد مجموعة من الثقوب والبياضات التي ما زالت تعاني منها المصادر التقليدية للتاريخ، هذه الأخيرة التي اهتمت بالجانب السياسي ولم تمنح الفرصة للإشكالات الاجتماعية والجغرافية والاقتصادية الأهمية التي تستحقها، إلا في بعض الإشارات البسيطة التي تقع متفرقة في بعض المصادر ويصعب تجميعها، ويعزى هذا الأمر إلى المؤرخ التقليدي الذي كان يهتم فقط بالجوانب السياسية الذي ليس له مناهج ومقاربات تحليلية^(٢٩).

وبالتالي فالتاريخ الحقيقي لم يعد كما في اعتقاد العديد من المؤرخين التقليديين الكلاسيكيين هو التاريخ الحدثي المرتبط بالأساس بحياة الأباطرة والملوك والشخصيات البارزة، بل هو ذلك التاريخ الذي يقتحم ميادين جديدة كالنوازل الفقهية وأدب الرحلة كمنظور وتصور جديد للكتابة والتدوين التاريخي، نظراً لما تمدهم به من مادة خصبة عن تاريخ الفقراء والمهمشين والأناس العاديين، كما تسعفهم في إعادة بناء وكتابة التاريخ الاجتماعي والاقتصادي بمنظور وصيغة تاريخية جديدة، ولاريب أن أدب الرحلات يسعى إلى اقتحام مجال الأفكار والذهنيات في مجال التاريخ والإجابة عن الأسئلة التي تؤرق بال العديد من الدارسين للتاريخ والباحثين بصفة عامة^(٣٠). وهذا التوجه دعا إليه مجموعة من الباحثين والدارسين في التاريخ وذلك لتجديد الأدوات المنهجية والقواعد لدراسة التاريخ^(٣١).

وكما هو معلوم أن حقل البحث التاريخي انفتح على أدب الرحلات، إذ يعتبر هذا الأخير مصدراً من أهم المصادر العلمية في عملية الكتابة التاريخية بالنسبة للمؤرخين والباحثين في هذا الحقل، نظراً لما تحمله بين صفحاتها من معلومات قيمة ونادرة قلما نجدها في كتب التاريخ الأخرى، فهي تعطينا تصوراً عن الأماكن والأزمنة

الرحلي تحدث عن الوقائع الاجتماعية والعلمية والدينية...، كما توفرت هذه الرحلة على محطات وقرارات شاملة وواضحة عن منطقة الحجاز وكذلك عن المناسك الحجية، والمناطق التي زارها، بالإضافة إلى أن هذه الرحلة دُوت بأسلوب أدبي رفيع سواء فيما يتعلق بطريقة الكتابة عند وصفه للمناطق، أو فيما يخص كذلك الأشعار الخاصة به أو بغيره.

وقد قام بنظم أبيات شعرية عند خروجه من مكة المشرفة إلى المدينة المنورة حيث قال:
أقول، وقد فارقت مكة قاصدا
جناب النبي الهاشمي المعظم
فراق، ومَنْ فارق غير مذهب
وأم، ومَنْ يَممت خير ميم^(٣٥).

وقوله كذلك:

رحلت عن البيت العتيق المحرم
إلى خير قبر الأنام معظم
فكنت كمن قد قال قبلي حقيقة
أبو الطيب الكوفي رب المتكلم^(٣٦).

وقد أنشد محمد بن الطيب الشرقي الفاسي أبيات شعرية يصف من خلالها مناخ بلاد الحجاز وهو مكان أشد حراً إذ يقول:

أقول وحر الرمل قد زاد وقده
ومالي إلى شم النسيم سبيل
أظن نسيم الجو قد مات وانقضى
فعهدي به في الشام، وهو عليل^(٣٧).

كما ذكر محمد بن الطيب الشرقي الفاسي عند خروجه من المدينة المشرفة الطاهر إلى القاهرة بمصر حيث أنظم أبيات شعرية إذ يقول:

أرسلت مقلتي دموعاً غزارا
وحوت أضلعي لهيباً وناراً
وتنأى صبري وهل بعد بعد
يجد الصب سلوة واصطباراً
يا ديار الأحباب كان اختياري
أن أراك المساء والأبكارا

إذن فالرحلات المدونة بصفة عامة تمد مجال البحث التاريخي ببعض المعلومات التي لم يقدمها لنا العلم المختص في هذا المجال، فإذا كان التاريخ يعمل على وصف واستقصاء حياة البلدان وتاريخها بمختلف مظاهرها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية وغيرها، فإن الرحلات أعطت كل ذلك بعده المناسب، وتطرق إلى تحليل جوانب لم تتطرق إلى تحليلها الوثائق التاريخية، فقامت الرحلات بوضع كل ذلك في دائرة الإشعاع التي توجه إليها لاستجلاء الواقع وإخراج التاريخ عن حدوده الضيقة، إذن لا يمكن للمؤرخ الاستغناء عن الرحلات التي كتبت في فترة يدرس أو يكتب عنها بحيث توجد في الرحلات بعض المعلومات والأحداث وأسماء الأماكن المختلفة والعلماء والسياسيين ورجال الدين...، التي لم نجدها في الكتب التاريخية، ولولا الرحلات لم تكن تظهر هذه الأسماء والأحداث، فأدب الرحلة يقدم صورة تاريخية لمدة نابضة بطبيعة العصر الذي عاش فيه الرحالة، إذن يمكن أن يجد المؤرخ والباحث فيها قصصاً تحكي أحداثاً مستمدة من الواقع وبشخصيات حقيقية، فالرحلة يعرضنا على واقع البيئة التي شاهدها والمجتمع الذي اختلط فيه، والرحلة بذلك تجسد بعض الحقائق المعرفية عن المرحلة التاريخية التي عاشها وشاهدها الرحالة، فهي مصدر دُونُ بشهود عيان، فدراستها من الناحية التاريخية مفيدة للغاية في التعرف على الجوانب العلمية والأدبية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية...، فهذه الجوانب كلها كتبت بحسب ما شاهده الرحالة ولا مسمه، ولا شك أن هذه الأمور لا توجد في كتب التاريخ العامة أو الخاصة التي انصب اهتمام مؤلفيها على الأحداث السياسية^(٣٤).

وتجدر الإشارة في هذا الباب أن هنالك إشكال منهجي يتمثل في كيفية التعامل مع النص الرحلي كمادة وحيدة للتركيب التاريخي، فمهما قيل عن أهمية أدب الرحلات فإنها غالباً ما تفرض على الباحث أن يستعين بأدوات مصدريه أخرى حتى يتمكن من سد الثغرات الأساسية التي تميز النصوص الرحلية، لذلك وجب على مستعمليها أخذ الحيطة والحذر في عملية النقل والتدوين والكتابة، كما وجب إخضاعها للنقد التاريخي كون أن كتابات أصحابها يتخللها في بعض الأحيان

لم نكن لنحصل عليها دون مغامرات أولئك الرحالة والمسافرين عبر مناطق عديدة من الكرة الأرضية، من هذا الباب جاءت الأهمية الكبرى لأدب الرحلات في عملية الكتابة والتدوين التاريخي في الكشف عن أغوار أحوال العامة والخاصة من الناس، وأنها تطرح إشكالات تتعلق بتمازج وتلاقح بعض المكونات المجتمعية، فهي تعطي تصور مختلف عن مظاهر ومعاملات ومشاكل التي تترتب بين الناس، كما تتطرق إلى عدة "تييمات" جديدة التي ترتبط بالحياة الدينية والعلمية والروحية والفكرية^(٣٥)، وهي مواضيع لا تتيح للمصادر التقليدية للتاريخ إمكانية الغوص في بحورها.

والواضح أن النصوص الرحلية في كثير من الأحيان تتسم بالغفوية والواقعية، يمكن اعتمادها كوثيقة أساسية ومادة مصدريه مهمة في بناء المعرفة والوقائع والأحداث التاريخية لأنها في أغلب الأحيان لم يتم إصدارها من جانب رسمي ولم تتصف بإيديولوجية مسبقة لكاتب الرحلة، فابتعاد الرحالة عن الجوانب السياسية والإيديولوجية أعطى صورة تطبعها الموضوعية لتدوينه، دون تدخل أي جهات رسمية مما جعل النصوص الرحلية نصوصاً كاملة لأنها نصوص مفيدة يمكن الاعتماد عليها من لدن الباحثين ودارسي التاريخ بناءً موضوعياً بعيداً عن أي تصور آخر، وتجدر الإشارة هنا رغم الاعتماد على نصوص أدب الرحلات في البحث التاريخي، إلا أنه لا يزال جد قليل خاصة إذا تمت ملامسة الصعوبات الكثيرة والجملة التي تواجه الباحثين، وتجعل من النصوص الرحلية أدوات غير سهلة تستوجب من المؤرخين والباحثين القيام بمجموعة من الدراسات المنهجية المسبقة التي تهدف إلى إعداد هذه النصوص كمادة مرجعية، وتجريدها من أي لون أدبي، كما تجدر الإشارة في هذا السياق أن هناك تقاطعات كبيرة بين التاريخ وأدب الرحلة، وأصبح هذا الأخير مصدراً من مصادر المؤرخ وأحياناً مكمل للنص الإخباري وفي كثير من الأحيان كنص يملأ ويسد الفراغات والبياضات في البحث التاريخي في مواضيع جديدة، وكانت بعض النصوص الرحلية بعينها تخدم هذا الطرح كما هو الحال مع الرحلات الحجازية أو الرحلات السفارية المغربية أيضاً^(٣٦).

الإحالات المرجعية:

- (١) ابن فارس، "معجم مقاييس اللغة"، تحقيق، عبد السلام هارون، الجزء ٢، بيروت، دار الجبل، الطبعة الأولى، ١٩٩١م، ص ٤٩٨.
- (٢) محمد بن مكرم ابن منظور، "معجم لسان العرب"، الجزء ١١، بيروت، دار صادر، ١٩٨٤م، ص ٢٧٩.
- (٣) أحمد بن محمد الفيومي، "المصباح المنير في غريب الشرح الكبير"، الجزء ١، بيروت، المكتبة العلمية، ١٩٩٤م، ص ٢٦٤.
- (٤) بطرس البستاني، "مفيد المحيط"، الجزء ٣، بيروت، مكتبة لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٧٧م، ص ٣٦٧-٣٦٨.
- (٥) بطرس البستاني، مرجع سابق، ص ٣٦٨.
- (٦) مجدي وهبة وكمال مهندس، "معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب"، بيروت، مكتبة لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٨٤م، ص ١٧.
- (٧) سيد حامد النساج، "مشوار كتب الرحلة قديما وحديثا"، القاهرة، دار غريب للطباعة والنشر، طبعة الأولى، ١٩٩٢م، ص ٨.
- (٨) سيد حامد النساج، مرجع نفسه، ص ٩.
- (٩) عواطف بنت محمد يوسف النواب، "الرحلات في المغرب الأقصى مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرن الحادي عشر والثاني عشر الهجريين"، الرياض، دار الملك عبد العزيز للنشر والتوزيع، ٢٠٠٨م، ص ١٠٩.
- (١٠) الحسن الغشتول، "خطاب الرحلة المغربية إلى الحجاز"، كتاب المجلة العربية، عدد ٢٥٥، الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنية، سنة ١٤٣٩م، ص ٢٥-٢٦.
- (١١) سيد حامد النساج، مرجع سابق، ص ٨.
- (١٢) محمد بن عبد الله ابن بطوطة، "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"، تحقيق محمد عبد المنعم العريان، راجعه مصطفى قصاص، الجزء الأول، بيروت، دار إحياء العلوم، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م، ص ١٤٥.
- (١٣) أبي القاسم ابن حوقل النصيبي، "صورة الأرض"، الجزء الأول، ليدن، مطبعة برييل، الطبعة الثانية، ١٩٣٨م، ص ٦-٧.
- (١٤) حسني محمود حسين، "أدب الرحلة عند العرب"، لبنان، بيروت، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٩٨٣م، ص ٨.
- (١٥) أنجيل بطرس سمعان، "الرحلة في الأدب الإنجليزي"، مجلة "الهلال"، عدد يوليو/تموز ١٩٧٥، ص ٣٩.
- (١٦) علي عفيفي علي غازي، "كتابات الرحالة مصدر تاريخي"، الرياض، كتاب المجلة العربية، ٢٠١٨، ص ٢٠.
- (١٧) أسعد عيد الفارس، "الرحالة الغربيون في شبه الجزيرة العربية أهدافهم وغاياتهم"، ندوة الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية، الجزء الأول، الرياض، دار الملك عبد العزيز، ٢٠٠٧، ص ٥٥٧.
- (١٨) مرجع نفسه، نفس الصفحة.
- (١٩) حسن محمد فهمي، "أدب الرحلات"، عالم المعرفة عدد ١٣٨، الكويت، مطابع الرسالة، الطبعة الأولى، ١٩٨٩م، ص ٢٣.
- (٢٠) مرجع نفسه، نفس الصفحة.
- (٢١) مرجع نفسه، ص ١٥.
- (٢٢) أنجيل بطرس سمعان، مرجع سابق، ص ٤٠.
- (٢٣) حسن محمد فهمي، مرجع سابق، ص ١٥.
- (٢٤) علي عفيفي علي غازي، مرجع سابق، ص ٧١.

الخيال وتسودها النزعة الذاتية في أحيان أخرى، بالإضافة إلى عدم إلتقان معظم مؤلفيها للغة العربية وغيرها من النقائص التي تشوبها، وعليه فإن كتب أدب الرحلات لها ما لها وعليها ما عليها في عملية التدوين والكتابة التاريخية.

خاتمة

صفوة القول أن أدب الرحلة لون أدبي ذو خصائص ومميزات فنية أدبية، يتسم بالواقعية في أغلب الأحيان لأنه يعتمد على واقع الناس من عادات وتقاليدهم، كما أن أدب الرحلة يختلف عن الأجناس النثرية الأخرى مثل القصة والرواية...، لأنه يضم بين ثناياه إضافة إلى السرد والوصف، التاريخ والجغرافيا وعلم الاجتماع والسياسة وحتى الاثنوغرافية، وعلوم أخرى، فأدب الرحلة موضوع يتسع ويتفرع على مختلف المجالات والمشارب، كما أن أدب الرحلات له أهمية كبيرة من الناحية التعليمية والثقافية، ذلك أن الرحالة يتعرف في رحلته على الكثير من العلماء والشيوخ أثناء رحلته، ويكتسب تجربة وخبرة واسعة في عدة علوم. بالإضافة إلى هذا تعد كتب الرحلات ذا قيمة علمية كبيرة، توفر للمؤرخ ودارس التاريخ والجغرافيا وعالم الاجتماع وباقي العلوم فوائد جمة، إذ تقدم لهم معلومات لا يقدمها العلم المختص في هذا المجال، وتجدر الإشارة أن الرحلة ليست مجرد سجل للأحداث فقط، بل تسلط الضوء على جوانب الحياة العامة من المشاعر والانفعال والأفكار والعواطف والأفراد والحوادث والآثار الإيجابية والسلبية وغيرها وتقدم الواقع والأحوال والانطباعات والمعلومات في ثوب أدبي بليغ.

- (٢٥) محمد بن الطيب الشرقي الفاسي، "رحلة ابن الطيب من فاس إلى مكة المكرمة"، تحقيق عارف أحمد عبد الغني، بيروت، دار العرب للدراسات والنشر والترجمة، ٢٠١٤م، ص ٢٤٧.
- (٢٦) مرجع نفسه، ص ٢٤٨.
- (٢٧) مرجع نفسه، ص ٢٤٩.
- (٢٨) محمد بن الطيب الشرقي الفاسي، "رحلة ابن الطيب من فاس إلى مكة المكرمة"، مرجع سابق، ص ٢٨٠.
- (٢٩) محمد حبيدة، "المدارس التاريخية برلين-السوربون-ستراسبورغ"، الرباط، دار الأمان، الطبعة الأولى، ٢٠١٨م، ص ٢٨.
- (٣٠) حسين محمد فهميم، مرجع سابق، ص ٢٠.
- (٣١) إبراهيم القادري بوتشيش، "من التاريخ السلطاني إلى تاريخ المهتمش نظرات في تجديد الأدوات المنهجية للمؤرخ"، مقال منشور ضمن أعمال مؤتمر "دراسة المجالات الاجتماعية المهمشة في تاريخ المغرب"، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ابن مسيك، مختبر المغرب والعالم المغربية، جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء، ٢٠١١، ص ٤٩.
- (٣٢) سيد حامد النساج، مرجع سابق، ص ٢٤.
- (٣٣) زكي محمد حسن، "الرحلة المسلمون في العصور الوسطى"، القاهرة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ٢٠١٣م، ص ١٢٧.
- (٣٤) محمد حبيدة، مرجع سابق، ص ١٧٦.

الرحلة وكتابة التاريخ

نحو قراءة جديدة للرحلة الأندلسية الموريسكية

رحلة أحمد بن قاسم أفوقاي نموذجًا

د. حميد الكتاني

دكتوراه في اللسانيات العربية
كلية اللغات والآداب والفنون
جامعة ابن طفيل – المملكة المغربية



ملخص

تعالج هذه الدراسة موضوع تاريخ المسلمين في الأندلس بعد سقوط غرناطة عام ١٤٩٢ للميلاد، وتستند إلى نص تاريخي يُعد مصدرًا مصادراً كتابة تاريخ المسلمين بعد سقوط الأندلس، وهو رحلة أحمد بن قاسم الملقب بأفوقاي المولود عام ١٥٧٠م، يقدم هذا النص تاريخًا دقيقًا لحياة المسلمين في القرنين السادس عشر، ويصور معاناته مع الاضطهاد الذي تعرضوا إليه من حملات التنصير والتعذيب وإرغام على التخلي عن هويتهم العربية الإسلامية. وتُعدّ رحلة «الشهاب إلى لقاء الأحباب» مصدرًا تاريخيًا لإعادة قراءة تاريخ الأندلس المتأخر وكتابته من جديد استنادًا إلى نص أدبي يركز على تاريخ المهمشين الذين لم يحظوا باهتمام المؤرخين الرسميين. كما تتناول المقالة مناظرات أفوقاي والقضايا العقدية مثل التوحيد والتثليث التي حاجج بها كبار القديسين في أوروبا مستخدمًا أسلوب الحجاج للدفاع عن حقوق المسلمين الموريسكيين، مما يجعله صوتًا مهمًا للأقلية المضطهدة في الأندلس، حيث سعى للدفاع عن حقوقهم وحريتهم في ممارسة دينهم. إن تناول موضوعًا تاريخيًا بالاعتماد على نص أدبي رحلي هو نوع جديد من التنوع في مصادر إعادة كتابة تاريخ حقبة ما.

كلمات مفتاحية:

رحلة: أفوقاي، حجاج: تاريخ الأندلس: الموريسكيين

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٤ يونيو ٢٠٢٥
تاريخ قبول النشر: ٠٦ سبتمبر ٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.394202.1239

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

حميد الكتاني، "الرحلة وكتابة التاريخ: نحو قراءة جديدة للرحلة الأندلسية الموريسكية، رحلة أحمد بن قاسم أفوقاي نموذجًا"، دورية كان التاريخية، السنة الثامنة عشرة - العدد الثالث والسبعون: نوفمبر ٢٠٢٥، ص ٤٤ - ٥٥.



X, formerly Twitter: <http://X.com/kanhistorique>

Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>

Facebook Group: <https://www.facebook.com/groups/kanhistorique>

Corresponding author: ha.elkettani@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في دورية كان تحت رخصة المشاع المبدع 4.0 (CC BY) (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

أولاً: رحلة أفوقاي الحجري (التعريف والسياق التاريخي)

١/١- صاحب الرحلة

هو أحمد بن قاسم بن أحمد بن الفقيه قاسم بن الشيخ الحجري الاندلسي، عُرفَ بلقب الشهاب عند المغاربة نسبة إلى مختصر رحلته «الشهاب إلى لقاء الأحباب» ولد عام «٩٧٧هـ-١٥٧٠م» بقرية الحجر الأحمر بريف غرناطة، نشأ في بيئة يغلب عليها الصراع العقدي، فأخفى إسلامه كما كان يفعل مسلمو الأندلس، ويُظهر النصرانية، تعلمَ القشتالية وآدابها فأتقنها إتقاناً عجيباً جعله من الماهرين فيها. أما علوم القرآن والشريعة والعربية فقد تعلّمها سرّاً في بيت أهله، الذي عُرفَ عليه بيت فقه وعلم ودين^(٥). ورغم حرصه على إخفاء هويته الإسلامية كُشف أمره ذات يوم عندما اكتشف أسقف غرناطة «جان ميندنيث دي سالفاتيرا» أنه يُحسن القراءة بالعربية، ويرجع ذلك إلى أنه كان يحضر مجالس علمية يعقدها الأسقف نفسه لترجمة نصوص عربية وُجدت يوم «١٩ ربيع الثاني عام ٩٩٦هـ- مرس ١٥٨٨م» في أسفل جدار صومعة الجامع الكبير التي أمر الأسقف بهدمها.

إن «المرء مخبوء تحت لسانه»، كان لسان أفوقاي الحجري عربياً، فكُشِفَ أمره وأصبح مترجماً لدى أسقف إسباني كلما استشكل عليه لفظ عربي في تلك المخطوطات التي تركها المسلمون وراءهم. كان أفوقاي يرغب في الهجرة من الأندلس منذ صغره، فكان يتحين الفرصة التي تسمح له بالهجرة والاستقرار ببلد إسلامي هروباً من الاضطهاد الذي يعيشه المسلمون منذ سقوط غرناطة، وقد استطاع الهجرة على متن سفينة محملة بالقمح كانت متوجهة من ميناء «سانتا مرية Santa Maria» إلى ميناء مدينة البريجة المغربية التي تسمى اليوم «الجديدة» والتي كانت مُستعمرة برتغالية وقتئذٍ، وقد كانت هجرته سنة «١٥٩٩م». انقطعت أخباره عندما كان في تونس يوم ٢٠ رجب عام ١٠٥١هـ/١٦٤١م ولم تعرف سنة وفاته.

تُسجَلُ الأسطغرافيا العربية والإسبانية أن الملكين الكاثوليكين «فيرناندو وإزابيلا» عندما تغلبا على ملك بني الأحمر، واستوليا على غرناطة عام «١٤٩٢م-٨٩٧هـ»، فرضاً على المسلمين المنهزمين أحكاماً قاسية، تمثلت أساساً في القرارات التي ألغيت كل ما تمّ الاتفاق عليه في وثيقة التسليم؛ إذ نكثا العهد التي قطعها في الوثيقة الموقعة، وضيقاً على المسلمين بصنوف التعذيب والاعتداء، حتى أصبحت الهجرة مصيراً محتوماً، وليست خياراً كما كانت قبل السقوط، فبدأ الوجود الإسلامي في ينحسر شيئاً فشيئاً إلى أن صار المسلمون أقليةً وسط أغلبية إسبانية مسيحية ونصرانية.

لقد كانت الهجرة على صعوبتها وقساوتها، غير ممكنة لجميع مسلمي غرناطة، خاصةً الفقراء منهم الذي اضطروا إلى البقاء في الأندلس والتظاهر بالنصرانية والتخفي، إثر صدور قرار تنصير المسلمين بداية من سنة ١٤٤٩م على يد مطران طليطلة «خمينيس دي سيسنيروس» لتبدأ مرحلة تاريخية جديدة عُرفت بمرحلة محاكم التفتيش Inquisition، هذه المرحلة التي ذاق فيها المسلمون الذين أبوا مفارقة ديارهم كل أنواع التعذيب والتنكيل التي صورتها مصادر تاريخية إسلامية عربية وإسبانية. ولما يُست الكنيسة والدولة في إسبانيا من تنصير المسلمين وطمس حقهم في العيش بهويتهم أصدرت قراراً بطردهم نهائياً سنة ١٦٠٩م. وبعد الطرد النهائي بدأت مرحلة تاريخية أخرى عُرفت بمرحلة التهجير القسري التي ذهب ضحية لها الأطفال والشيوخ والنساء والحوامل وأُتلفت أموالٌ وصودرت أملاك^(١)، بل وأحرقت كتب علمية ودينية وتاريخية قدرها المؤرخ «فرانيسيسكو» بمليون وخمسمائة كتاب في تخصصات مختلفة^(٢).

في هذا السياق التاريخي المشحون بالصراعات العقديّة والسياسية والعسكرية وُلِدَ الرَّحَّالَةُ أحمد بن قاسم الحجري المُلقب بأفوقاي، وهو آخر الأندلسيين الموريسكيين^(٣) الذين ألفوا بالعربية^(٤). فمن يكون أحمد أفوقاي؟ وما هي رحلته؟ وما علاقتها بتاريخ الجرح الإسلامي القديم؟

٢/١- رحلة أفوقاي (جدل المخطوط والنسخ)

تعدُّ رحلة أفوقاي الحجري المسماة «رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب» أهمَّ مصدر تاريخي أندلسي كُتِبَ بعد صدور قرار طرد المسلمين الذين آثروا البقاء في الأندلس رغم التعذيب والتكيل، فؤلفها يتحدث فيها عن رحلته الطويلة من الأندلس إلى مراكش، ومن مراكش إلى عواصم أوروبا الغربية، ويتكلم فيها وهو بمنأى عن محاكم التفتيش، يُناظر المسيحيين في عقر دارهم بفرنسا وهولندا، ويُحاججهم دفاعاً عن عقيدة المسلمين الموريسكيين الذي عرّضتهم إسبانيا للتصير كرها وغصبا لحريتهم الدينية.

غير أن رحلة «الشهاب إلى لقاء الأحباب» مفقودة اليوم، وما يوجد هو مختصرها المسمّى «ناصر الدين على القوم الكافرين» وقد طُبِعَ وحُقِّقَ بعنوانين مختلفين^(٦) لمحتوى واحد، غير أن تحقيق محمد رزوق أدق وأشمل من الناحية العلمية، وهو المعتمد في هذه الدراسة، وإليه نشير في الهوامش. يقول متحدثاً عن رحلته المفقودة التي ألفها بمصر: «وطلب مني غير واحد من علماء المسلمين أن أعمل تأليفاً بذلك، ولم يتفق العمل إلى أن أمرني شيخنا وبركتنا بمصر المحروسة بالله وهو العلامة الشهير علمه وثناؤه الشيخ علي بن محمد الأجهوري المالكي، وجعلتُ التأليف رحلة سميتها برحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب»^(٧) وقد ذكر فيها تاريخ الاندلس من الفتح إلى السقوط. أما المختصر الذي بين أيدينا، فيقول فيهك «وها أنا ذا أشرع بعون الله أكتب هذه الورقات ما وقع لي من مناظرات وكل مسألة ألهمني الله تعالى بالجواب عليها في الحين على البديهة، وأذكر نصوصها أيضاً ما وقع لي مع علماء اليهود بالبلاد المذكورة، وقد سميت الكتاب بناصر الدين على القوم الكافرين»^(٨).

يتضح من خلال هذا القول، أن كتاب ناصر الدين على القوم الكافرين، ليس سوى مختصر لكتاب الرحلة المفقود، لأن نسخة مخطوط هذا الكتاب التي توجد في المكتبة الوطنية بباريس تحت رقم Arab ٧٠٢٤، خالية من العنوان واسم الناسخ وتاريخ النسخ، غير أنها تشير إلى العالم المصري الشيخ علي الأجهوري في اللوحة ٥٩

منها. وفي هذه النسخة، هناك نسخة كُتِبَ قبلها بتونس سنة ١٠٥١هـ-١٦٤١، وهي بخط المؤلف، كما يرى المحقق محمد رزوق، وتوجد بالقاهرة رقم ١٦٣٤، وهي بخط مغربي^(٩). وهما يكن من اختلاف عنوان النسختين، فإن محتواهما واحد، مع اختلافات يسيرة في ترتيب الأبواب والفصول، إلى الملاحق التي أضافها المحمد محمد رزوق في آخر الرحلة.

٣/١- مسار الرحلة ومحطات الرحلة

وصلَ أفوقاي إلى المغرب بعد هروبه من البريجة «الجديدة» إلى آزمور سنة ١٠٠٧هـ-١٥٩٩م، ثم قام بعد ذلك بسفارته عن السلطان زيدان السعدي بين ١٠٢٠هـ-١٦١١م/١٠٢٢هـ-١٦١٣م. عبر الرحالة أفوقاي في رحلته من محطات كثيرن بدأها من غرناطة، ثم إشبيلية، فسنتا مارية Santa Maria، ثم البريجة «الجديدة المغربية اليوم» وبعدها آزمور ومراكش وأسفي. وفي مساره إلى أوروبا في سفارته عبر أسفي إلى مرسى هبردي غرسي، ثم إلى باريس، ومنها إلى بوردو، ثم عاد إلى باريس، ثم بوردو من جديد، ومنها ذهب إلى طلووشة «تولوز اليوم» ومنها إلى روان، فمرسى هبردي غرسي، ومنه إلى هولندا، التي زار فيها أمستردام، ومدينة ليدا Leyde ومدينة لَهَاي. ويظهر من خلال رحلته أنه لم يحدد مسار عودته، ولكنه يشير إلى أنه توقف بتونس بعد عودته من الحج، عام «١٠٥١هـ-١٦٤١م» وفيها كتب مختصره لرحلته الطويلة.

ثانياً: أفوقاي الرحالة والمؤرخ (من التاريخ إلى الحجاج)

تؤرخ رحلة أفوقاي الحجري لمنعطف حاسم ودقيق في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية في الغرب الإسلامي «المغرب والأندلس»؛ حيث يلاحظ قرائها أن المؤلف تتجاذبه رغبتان، تتمثل الأولى في حديثه عن تاريخ المغرب والأندلس، حيث يصف أوضاعهما كلما سنحت له الفرصة. وتتجلى الثانية في دفاعه المستميت عن عقيدة المسلمين من خلال المناظرات التي جمعتها بالمسيحيين في العواصم الأوروبية.

التأريخي والحجاجي العام للرحلة، نتساءل ما الدلو الذي سعى إليه مختصر رحلة «الشهاب إلى لقاء الأحباب» في المستويين الرحلي والتأريخي؟ وكيف يمكن اعتبار الرحلة فعلاً تأريخياً، وفعلاً حجاجياً عن قضية تاريخية لا تزال ماثلة في عصرنا الحاضر؟

١/٢- أفوقاي مؤرخاً للرحل العربي الإسلامي القديم

يقوم فعل الحكي الرحلي عند أفوقاي، على ثنائية متوازنة، فهو من جهة أولى يسرد وقائع رحلته، ومن جهة ثانية يعرض عن السرد ويشعر في فعل التأريخ؛ خاصة عندما يدعو السياق الرحلي للحديث عن محنة الموريسكيين، ولعل إصرار الرحالة على الميل إلى فعل التأريخ يرجع إلى المحنة التي مرّ بها باعتباره واحداً من الموريسكيين؛ فالرحالة عاين وعاش لحظة الاضطهاد في عقر داره بالأندلس، وبالتالي فإن حضوره في رحلته، ليس حضوراً عابراً، فحسب، بل حضوراً شاهداً؛ فهو مؤرخ وشاهد عاين حدث التعذيب والتتكيل عن قرب، وذاق ويلاته، وحاصرته الخطوب، وأحاطت به الفجوع، مثله مثل باقي المسلمين الذين اختاروا البقاء في المملكة الإسبانية المسيحية، يقوب في هذا السياق: «قال لي القسيس: بأي مدينة تسمى بالعربية مدينة البحر؟ قلت: لا أدري، لكن يظهر لي أنها البندقية لأنها في البحر مبنية، فأعطاني كتاب الجغرافيا بالعربية وهو من الكتب التي تعمل النصارى بالقالب المسمى: المشتاق في اختراق الآفاق»^(١٣)، وقال: انظر هل تجد هذا الاسم فيه؟ فقرأته كله فلم أجده، وبينما كنت أطلع، إذ جاء بعض المسافرين من بلادي إلى مدينة غرناطة، وعلمت في أي موضع من الفنادق كانوا، فمشيت إليهم والكتاب عندي، وبعد السلام والكلام فتحت الكتاب، فلما رأوه مكتوباً بالعربية دخلهم الخوف العظيم من النصارى، وقلت لهم لا تخافوا لأن النصارى يكرموني ويعظموني على القراءة بالعربية. وكان أهل بلدي جميعاً يظنون أن الحرّاقين^(١٤) من النصارى الذين كانوا يحكمون ويحرقون كل من عليه شيء من الإسلام يخاف بعضهم من بعض، ولا يتكلمون في أمور الدين إلا مع من كان ذمّة، معناه: ذو آمنه. وكثير منهم كانوا يخافون بعضهم من بعض، وكان فيهم من

واستجابةً لهاتين الرغبتين، أنتج أفوقاي رحلته التي بقدر تؤرّخ لشخصه المفرد. تتعكس على صفحاتها هوية الأمة الماثلة في شخصيته المسلمة. ولا جرم أن يصير أفوقاي برحلته هذه مصدر إلهام لكثير من الكتابات الأدبية والفكرية المعاصرة، منها رواية «الموريسكي»^(١٥) التي استلهمت الأحداث التاريخية الكبرى التي تشير إليها رحلة أفوقاي لبناء تخيلها الروائي التاريخي. إن أفوقاي في رحلته يقف مُرخاً ومُناقشاً ومُحلّلاً للأوضاع المضطربة في بلاد الأندلس والمغرب، ويقف مُحاججاً غير من المسيحيين والنصارى للدفاع عن عقيدة الموريسكيين المهجرين قسراً من وطنهم، ما يجعلنا أمام نص رحلي متلفّع بعباءة التاريخ والحجاج، فتارة يرخي الرحالة العنان لقلمه لفعل التأريخ، وتارة يشيخ عن التأريخ ويشعر في مُحاجة غير المسلمين «احتجت أقرأ الإنجيل الذي بأيديهم الآن، منه ومن غيره من كتبهم وجدت ما نردّ عليهم، ونبطل حججهم، ونصرني الله عليهم مرات عديدة»^(١٦). وتارة أخرى، يجمع بينهما في آن واحد.

ولعلّ هذا التوارد بين التأريخي والحجاجي راجع على سببين، يرتبط الأول بفترة كتابة رحلته؛ حيث كتبها بعد أداء رحلته السفارية بسنوات، ما يجعل ذاكرته مُتداعية بتعلّة النسيان، فكان أفوقاي يملأ فجوات رحلته بتاريخ الأحداث التي وقعت في إسبانيا بعد سقوط غرناطة. أما السبب الثاني، فيرجع إلى مهمة أفوقاي في رحلته إلى العواصم الأوروبية الكبرى، والمتمثلة في الدفاع عن قضية أقلية الموريسكيين المهجرين والمضطهدين، والتعريف بأحقية الشعب الموريسكي في العيش بسلام مع احترام عقيدتهم الإسلامية، التي لطالما كانت عقيدة منفتحة تؤمن بالحوار والتسامح طيلة القرون التي حكمت فيها بلاد الأندلس، وأنتج فيها العرب حضارة باذخة لا تزال أنقاضها شاهدة على نتاج حضاري معرفي إسلامي خالص.

إن العمل الذي قام به الرحالة أفوقاي، أشبه أن يكون مرافعة دولية قام من خلالها الرحالة ب «تدويل Internationalization» لموضوع الأقلية الموريسكية المسلمة: «بل نمشي إلى فلنضس، لأنهم لا يضرون المسلمين، بل يحسنون إليهم»^(١٧). انطلاقاً من هذا الملمح

كتابات الرحالة هنا تمثل نموذج «الكتابات المؤرخة والمؤرخة»^(١٨) بتعبير عبد الله العروي.

من بين الأحداث التاريخية الكبرى التي يقدم لها الرحالة أفوقاي تفسيراً مختلفاً عما كتبه مؤرخو الكنيسة في تلك الفترة، نجد حدث طرد المسلمين سنة ١٦٠٩م^(١٩)، وهو الحدث الذي فسره أغلب المؤرخين تفسيراً دينياً؛ فالمؤرخ «مانويل دانيلا ١٦٠٩-١٨٣٠م» فسّر قرار الطرد بعد انسجام المسلمين دينياً مع المجتمع الإسباني، يقول: «الوحدة الدينية كانت تلوح في سماء إسبانيا متألفة مشرقة، ويا سعد ذلك البلد الذي يكون متحداً في مشاعره الكبرى»^(٢٠) وهو التفسير نفسه الذي ذهب إليه المؤرخ «فلورينسو جانييه ١٨٧٧-١٨٣١م» الذي رأى في وجود المسلمين بإسبانيا «حضارة شرقية تفتقر إلى الأفكار والمقومات الأساسية للحضارة الحديثة»^(٢١) أما المؤرخ «هورتز» فقد ظل تفسيره غامضاً، إذ يقول: «على الرغم من وجود كثير من الوثائق الثابتة لدينا، فإن الأسباب الحقيقية التي جعلت الملك يميل في النهاية لهذا الحل المفجع لا تزال غير واضحة، وربما لن تتضح أبداً، لأنه يجب البحث عنها في أحاديث الملك مع الأشخاص المقربين له جداً، ومثل هذه الأحاديث لا تترك أثراً ويصعب معرفتها»^(٢٢).

إذا كان قرار طرد المسلمين قد تم تفسيره تفسيراً دينياً، وتم تسويغه تسويغاً دينياً من قبل القضاء الإسباني في مناسبات كثيرة^(٢٣) فإن الرحالة أفوقاي يلفت نظر قراء رحلته إلى تفسير آخر، يتمثل في النمو السكاني السريع لمسلمي الأندلس، فيشير في رحلته إلى أن المسلمين تم إحصاؤهم مرتين، الأولى في عهد الملك فيلب الثاني ١٥٢٧-١٥٩٨م، والثانية في عهد الملك فيلب الثالث «١٥٧٨-١٦٢١م»، يقول الرحالة: «وهذا فيلب الثاني أمر في بلاده كلها قبل خروجي منها أن يُزَمِّمُوا جميع الأندلس صغاراً وكباراً، حتى التي في رحم النساء بظهور الحمل، ولا علم أحد السر في ذلك. ثم بعد ذلك بنحو السبع عشرة سنة عملوا زمماً آخر مثل الأول كما أعلموني بمراكش، ولك يدرك أحد السرف في ذلك حقيقة. ولكن قال لسان الحال أنهم أرادوا أن يعلموا هل كانوا في زيادة أم لا؟ ولما وجدوا زيادة كثيرة أمروا بقرب ذلك بإخراجهم. وكتب الملك فيلب الثالث كتاباً لقريبه

يحبّ يتعلم شيئاً من دين الله، ولا يجدون من يعلمهم. ولما كنت عازماً على الانتقال من تلك البلاد إلى بلاد المسلمين كنت أعلم جميع من أراد يتعلم من الأندلس في بلدي وغيرها من البلاد التي دخلتها. ولما رأى الأندلس^(٢٤) الحالة التي كنت عليها، كانوا يقولون فيما بينهم: لا بد لهذا من الوقوع في أي الحراقين. وبلغ الحال بي حتى وقفت مع جماعة للكلام، نرى كل واحد منهم ينسلّ حتى أبقى وحدي منفرداً»^(٢٥).

تتفجر من هذا المقطع التوثيقي للوضع الذي كان يعيشه مسلمو غرناطة، بعد صدور قرار التنصير سنة ١٤٩٩م، كلّ معاني العذاب النفسي، والقهر الجسدي، والعيش المتشظي بين هويتين؛ هوية إسلامية مخفية، وهوية نصرانية مُعلنة تظاهراً، كما تكشف العبارات التوثيقية التي يوظفها الرحالة أن الخوف كان منتشرًا حتى بين المسلمين أنفسهم، للدرجة التي تنعدم فيها الثقة بين المرء وأخيه في الدين والدم والعرق.

إن تركيز الرحالة أفوقاي على تسجيل حجم الجرح الذي تعرّض المسلمون جراء قرار التنصير وما تبعه من ممارسات تفتيشية عن النوايا وعن المعتقد، ينم عن وعي تأريخي، ويصدر عن خلفية تاريخية تراهن على تسجيل واقع المسلمين الموريسكيين نفسياً واجتماعياً، الذين أصبحوا يشكلون أقلية لا يكثر لها المؤرخ الرسمي، بل المؤرخ الإسباني المحكوم بسلطة الكنيسة ذات النفوذ الواسع في تلك الفترة. إذا نظرنا إلى الفئة التي يتحدث عنها الرحالة، نجدها فئة المسلمين الذين آثروا البقاء بعد سقوط غرناطة، وهي الفئة الأقلية التي تحتاج إلى تأريخ وضعها الديني والاجتماعي والنفسي، وهذا ما انتبه إليه الرحالة فعمد إلى تسجيله وتدوينه في هذا المختصر من رحلته. فماذا لو وصلتنا الرحلة كاملة؟^(٢٦)

يتعرّز هذا الطرح كلما أمعنا النظر في الأحداث التاريخية الكبرى التي يؤرخ لها الرحالة بوعي مُغاير لما كُتب عن هذا الجرح الذي لم تتناساه الذاكرة العربية الإسلامية مهما امتدت وباعدت بينهما القرون، فالكاتب هنا مؤرخ شاهد، وضحية في الآن نفسه، لذلك فهو يقبض على الحدث لحظة وقوعه، ويعقل جميع الظروف والملايسات التي تحيط به، ما يدفعنا إلى القول بأن

فيذكر الملك المحاولات الفاشلة لتصوير المسلمين، ويزيد على ذلك التسويغ السياسي، يقول الملك كما جاء في نص الترجمة في رحلة أفوقاي: «...ولا نفع معهم قليلا ولا كثيرا، لأنه لم يجد فيهم واحد نصراني حقيقة. والضرر والشر الذي يمكن أن يحدث بسبب ما تعاملنا عليهم، قد ذكره إلينا رجال صلحاء، وأفتوا يفهم بأنه يجوز لنا من غير شك أن نعاقبهم في أنفسهم وأموالهم، لأن الاستمرار على سوء أفعالهم ختم وحكم عليهم أنهم منافقون، وهب أننا قادرون على أن نجزيهم ونعاقبهم بما أوجب سوء فعلهم ولومتهم. فمع ذلك اخترت معاملتهم على طرق الحلم واللين وترك المؤاخدة (...) ونحن في هذا تحققنا وصح من وجوه أنهم بعثوا للتركي الكبير بإصطنبول، ومولاي زيدان بمراكش رُسَلهم يطلبون منهم أن ينجدوهم، وأيضاً بعثوا لأعدائنا البحرية بالجهة الشمالية التي تحت القطب، وأنعموا أن يعينوهم بسفنهم. وأما سلطان إصطنبول قد اصطلح مع سلطان الفرس لأنه كان يشغله. وأما سلطان مراكش فقد عزم على تدويخ البلاد وتسكينها (...) وللقيام بما لزمنا لحفظ مملكتنا أمرنا بإخراج جميع الأندلس الذين هم في تلك السلطنة (بلنسية)»^(٢٨).

يُستفاد من خلال هذا النص الذي أورده الرحالة مُترجما، عدة حقائق تاريخية، منها: الاتصال الروحي بين مسلمي الأندلس وباقي المسلمين في المغرب الأقصى وفي المشرق العربي، أيام الحكم العثماني، فقد كانوا يأملون المساعدة منهم من خلال الدعم العسكري والسياسي الذي طلبوه من سلطان الترك، ومن سلطان مراكش. وهذا الاتصال الروحي والسياسي اعتبره الملك تسويغا يجيز له طردهم إلى خارج مملكة إسبانية. وهذه الحقيقة التاريخية التي أوردها الرحالة أفوقاي، أشار إليها المؤرخ الإسباني «هورتر» الذي يقول: «أما في بلنسية فإن إمكانية نزول الأسطول العثماني لم يكن محتملا، بل كان قائما، حيث كان يكفي إنزال كميات من السلاح حتى تتحول المنطقة إلى بؤرة مقاومة مزعجة في حالة غزو أجنبي، فالموريسكيون لا يستطيعون شيئا بأنفسهم، وأما عندما تتم مساعدتهم من الخارج فيمكن حينذاك أن يتحولوا إلى خطر حقيقي»^(٢٩). هذا من جانب اتصال الموريسكيين بالدولة العثمانية، أما عن

وخليفته بمدينة بلنسية يأمره أن يشرع في إخراج الأندلس»^(٢٥).

تستوقفنا في المقطع أعلاه من رحلة أفوقاي، عدة ملاحظات تؤكد الطرح النظري الذي صُغناه في الجانب النظري لهذه الدراسة، والمتمثل في وعي الرحالة بفعل التاريخ، من خلال توسُّله بعدة وسائل، أهمها أسلوب المقارنة؛ فالرحالة يخبر عن عملية إحصاء مسلمي الأندلس في عهدين «فيلب الثاني وفيلب الثالث» وهذا بقدر ما يشير إلى أن مخطط تهجير المسلمين قد بدأ على عهد فيلب الثاني، بقدر ما يبين وعي الرحالة بمقاصد القرارات التي كانت تتخذ في الأندلس ولا «يعلم أحد حقيقتها»، لكن الرحالة يعلمها لأنه يتأمل الواقع ويعلم ما يقوله «لسان الحال» بتعبيره.

فإذا كان عدد المسلمين في زيادة، فهذا يعني أن مخطط التصير، ومشروع التذويب الثقافي والحضاري للمسلمين في الحضارة الغربية، سيتبعه مزيد من الإخفاق، لأن زيادة عدد المسلمين تعني زيادة في رسوخ الثقافة العربية الإسلامية، ولهذا فعبارة «ولما وجدوا زيادة كثيرة أمروا بقرب إخراجهم» التي اختتم بها الرحالة قوله تعكس ذلك المخطط، وتعكس وعي المؤرخ به أيضاً. ويشير المؤرخ المغرب «عبد الوهاب بن منصور» إلى سبب لا يقل أهمية عما ذكره الرحالة، ولعله استنتج منه، ويتمثل في كون كثير من سكان إسبان النصراني كانوا رهبانا وقساوسة في الكنائس، وكانوا لا يتزوجون^(٢٦)، وهذا ينعكس سلباً على النمو الديمغرافي لإسبان، في مقابل الزيادة في السكان الأندلسيين المسلمين.

لا يكتفي الرحالة بهذا، فيورد ترجمة للنص-الكتاب الذي وجهه الملك فيلب الثالث إلى حاكم بلنسية «مرقس دي غرسينا Marques de Carazena» يأمره فيه بطرد المسلمين» ذلك الكتاب الذي «يتضمن موقفا حضاريا خاليا من حس الفضيلة ومتجرداً من قيم الدين»^(٢٧) بعبارة المؤرخ الإسباني «فيرمين ميورغا» مناصر القضية الموريسكية.

يشير الملك فيلب الثالث في كتابه ذاك إلى مجموعة من المبررات التي دفعته إلى اتخاذ قرار الطرد، وهي مبررات لا تقل أهمية عن التبريرين الديني والسكاني،

سفينة ليمشي لبلاد المسلمين أن يخذوا لهم كل من كان أقل من سبع سنين من الأولاد والبنات، وأخرجوا كل من كان في عشرين سفينة، وأخذوا لأهل الحجر الأحمر نحو ألف من الأولاد، وكل من جاز على طنجة وسبته، أخذوا لهم أولادهم مثل الآخرين»^(٢٥).

يأتي هذا التعليق بعد أن انتهى أفوقاي من إيراد قرار الطرد، فما الغاية من هذا التعليق إذن؟! للإجابة عن هذا السؤال يجب أن نعود قليلاً إلى خطاب الملك فيلب الثالث، ذلك الخطاب حاول فيه الملك أن يقلب الحقائق عن طريق مغالطات منطقية، ففي الخطاب يقول الملك «وهب أننا قادرون على أن نجزيهم ونعاقبهم بما أوجب سوء فعلهم ولومتهم. فمع ذلك اخترت معاملتهم على طرق الحلم واللين، وترك المؤاخذة»^(٢٦). فبين هذا الادعاء بمعاملة المسلمين معاملة حسنة، وبين قرار الإجلاء القسري والاعتداء «وإن كل من يوجد بعد ثلاثة أيام التي ينادى فيها بالأمر خارجاً عن بلده، يجوز كل من لقيه أن ينهب ما عنده ويُسَلِّمه للحكام، وإن امتنع يجوز له قتله»^(٢٧).

بين هذين التصريحين تناقض صارخ، ومغالطة مقصودة، لإضفاء نوع من المصادقية على منطقية قرار الطرد، ولهذا لم يجد الرحالة أفوقاي بداً من التعليق على ادعاء الملك حسن معاملة المسلمين، وبيان بطلان ادعائه.

نستطيع أن نقول بعد هذا العرض الموجز لتواشج الرحلي والتاريخي في مختصر رحلة الشهاب، أن الرحالة أفوقاي الحجري لم يكتفِ بسرد وقائع رحلته من مراكش إلى هولندا، بل طعمها بنصوص ذات صبغة تاريخية تتكامل وتتسجم مع موضوع رحلته السفارية. فهل كان الرحالة أفوقاي يقصد من وراء هذا الفعل أن يكون رحالة مؤرخاً مُقنِعاً ومُحاجِجاً عن الفترة التاريخية التي يعيشها؟ هذا ما سنحاول الإجابة عنه في المحور الآتي.

٢/٢- الرحالة أفوقاي (تأريخ الاحتجاج بالحجاج)

يلاحظ قارئ رحلة أفوقاي أنه مولعٌ ولعاً شديداً بمناظرة النصارى في عقيدتهم، والرد عليهم، خاصةً ردوده على تلك الاتهامات التي وجهوها للمسلمين في

اتصالهم بالدولة السعدية، فقد ذكر المؤرخ «مرثيديس غارثيا أرينال» أن مسلمي بلنسية أوفدوا رسولاً إلى السلطان زيدان يلتمسون منه الدعم السياسي والعسكري^(٢٨)؛ ولكن الأطماع التركية في بلاد المغرب حالت دون تقديم تلك المساعدة^(٢٩).

إنّ التواشج الرحلي والتاريخي يبدو واضحاً من خلال إصرار الرحالة أفوقاي على إيراد وترجمة قرار طرد المسلمين، وتضمينه في نص رحلته، وهذا التواشج بين الرحلي والتاريخي يعكس توارداً فعلياً في بنية الرحلة، فعل حكي الرحلة، وفعل تأريخ موضوع الرحلة؛ ذلك أن الرحالة أورد هذا الكتاب مترجماً في الباب الحادي عشر من رحلته، وهو الباب الذي يتحدث في عن ما وقع له في بلاد فلنضس «هولندا حالياً»؛ حيث عمد إلى ذكر قرار الطرد بوعي منه في المهمة السفارية التي يقوم بها، والمتمثلة في التعريف بالقضية الموريسكية في العواصم الأوروبية، والعمل على تدويلها، يقول في هذا السياق: «ويطول الكلام على ما رأينا في فلنضس، ذكرنا شيئاً في الرحلة^(٣٠) وأما ما ذكرته في هذا الباب مما جوبتُ به للأمير في شأن الأسباب التي حملت لسلطان النصارى على الأندلس من بلاده فنذكر هنا شيئاً»^(٣١).

يتضح إذن، من خلال قول الرحالة، أن إيراده لقرار الطرد مترجماً، ما هو في الحقيقة إلا دليل على رغبة الرحالة لإبراز حجم الإشكال الحضاري الذي يثوي خلف قرار الطرد، الذي شكل مأساة الشعب المسلم؛ فالمسلمون الأندلسيون لم يبد استعدادهم للذوبان في المجتمع الإسباني الجديد، بل ظلوا متمسكين بعاداتهم وعقائدهم، ورفضوا الاندماج الديني والسياسي، وبتعبير المؤرخ هورتز «من الصعب على تلك الأقلية أن تشعر بالولاء لملك يرعى الجهاز القمعي كله»^(٣٢). لقد أصرّ الرحالة على إيراد قرار الطرد بكامله تفاصيله، باعتباره وثيقة تاريخية تتضمن قراراً سياسياً يعكس محنة شعب الأندلس المسلم إمعاناً منه في إبراز فاجعة طرده.

يقول الرحالة معلقاً على قرار الطرد: «وبعد أن خرجوا أهل سلطنة بلنسية، فأمر بالخروج للذين كانوا بالأندلسية، وغيرها من البلاد القريبة إليها أن يخرجوا. وبعد أن اكتروا السفن وهم في وادي إشبيلية بعث السلطان أمراً عكس الأول، وقال: إن كل من اكترى

تجميعاً لهاتين السمتين «السفارية والحجاجية» تحولت رحلة أفوقاي من رحلة فردية ذاتية، إلى رحلة هوية أمّة تدافع عن حقها في العيش بسلام وتسامح رغم الاختلاف الديني. إن احتجاج الرحالة كان حجاجياً بالدرجة الأولى، فهو يناظر رجال الدين في فرنسا وهولندا، ويحاول إقناعهم بصحة العقيدة الإسلامية التي حافظ عليها الشعب الأندلسي فتعرض للاضطهاد نتيجة لحريته الدينية^(٤٠).

تتنوع المناظرات التي قام بها الرحالة في رحلته، وكانت تلك المناظرات تأتي في سياق ذكر أحوال مسلمي الأندلس، ولماذا تم اضطهادهم، وقد توزعت مواضيع تلك المناظرات على ثلاث اتجاهات:

- مناظرات عقدية حول التوحيد ومسألة التثليث المسيحي
- مناظرات السلوك والمعاملات والزواج
- مناظرات حول الطهارة

وقد اختلفت في الطول والقصر، فتارة يورد الرحالة المناظرة كاملة، وتارة يورد جزءاً منها، وتارة ثالثة، يذكرها على وجه الإجمال، وهذا ضربٌ من التصرف الذاتي الذي يعلي من ذاتية الرحالة، ويحد من موضوعيته؛ غير أننا نلتبس العذر نقدياً للرحالة، ذلك أنه يصرح في بعض المواضع بأن ذاكرته تداعت أمام السنين، فبين رحلته كفعل، ورحلته كخطاب، سنوات كثيرة. فالثابت أنه كتب رحلته بعد القيام بها بسنين، ما يجعل النسيان ينسرب إلى الذاكرة ويحد من قوتها. ومن هنا تصبح تعلقة الذاتية التي حوكم بها الرحالة، قابلة للتفسير بالنسيان في حالة النصوص الرحلية التي تكتب بعد القيام بالرحلة، هذا إضافة إلى أن النسيان قد يعتري الرحالة والمؤرخ على حد سواء.

إن مناظرات أفوقاي، من حيث موضوعاتها تعد صورة من صور التفاعل الحضاري بالآخر الغربي «الفرنسي والهولندي» حسب سياق الرحلة، ومن خلال هذا التفاعل الحضاري، نستطيع أن نلمس حدة الاحتجاج بالحجاج؛ فحيثما «يوجد التفاعل البيئي يوجد التدافع الحجاجي»^(٤١)؛ فجنوح الرحالة إلى تدوين مناظراته ليس فعلاً عبثياً، أو استجابة لماء الفجوات

الأندلس، والتي كانت سبباً من أسباب اضطهادهم منذ سقوط غرناطة ١٤٩٢م، ولهذا حمل الرحالة على عاتقه مهمة الدفاع عن حقوق هذه الأقلية المضطهدة من خلال مُحاججة النصارى، ودحض حججهم وردّها عليهم. وقد كان الرحالة يعي حجم المسؤولية التاريخية التي يحملها ولهذا فقد كان شديد الاطلاع على كتب عقائد النصارى واليهود، إذ يقول: «اعلموا أنني ترجمان سلطان مراكش، ومن بتلك الدرجة يحتاج يقرأ في العلوم وكتب المسلمين وكتب النصارى، ليعرف ما يقول وما يترجم بحضرة السلطان»^(٣٨).

انطلاقاً من الخاصية الحجاجية التي اتسمت بها الرحلة، والتي جعلتها تأخذ طابعاً حضارياً خاصاً، فهي من جهة أولى، تتضمن آراء ومواقف الرحالة، بصفته مثقفاً ومترجماً وسفيراً، يقوم بالدفاع عن هويته الإسلامية الفردية والجماعية، تلك الهوية التي حُجبت عنه وعن مسلمي الأندلس رداً من الزمن، بسبب سياسة الإقصاء الديني واللغوي الذي تعرض له بصفته فرداً من جماعته المسلمة. وفي مقابل ذلك الإقصاء، هناك إرغام على هوية بديلة، هوية مسيحية، ولغة قشتالية، لكنه يتشبث بلغته سرّاً ويُجابه الآخرين بالعلم والمعرفة، ومقارعة الحجة بالحجة. ومن جهة ثانية، تعكس الرحلة فعلاً «احتجاجياً Protest» على المجتمع الدولي آنذاك، فنراه يعمل على تدويل قضية اضطهاد المسلمين الأندلسيين من خلال مهمته السفارية، فرحلته في الأصل قامت من أجل هدف مقصود هو تخليص ما نُهب من بعض أهل الأندلس على يد البحارة الفرنسيين في طريق هجرتهم من إسبانيا «وكان الأندلس يقطعون البحر في سف النصارى بالكراء، ودخل كثير منهم في سفن الفرنج، ونهبوهم في البحر، وجاء إلى مراكش أندلس «موريسكيون» منهوبون من الفرنج من أربع سفن. وبعث رجل أندلسي من بلاد فرنجة بطلب منهم وكالة ليطلب الشرع عنهم ببلاد الفرنج»^(٣٩). وقد وقع الاختيار على أحمد أفوقاي الحجري ليكون على رأس هذه المجموعة إلى فرنسا لاستخلاص أموال المسلمين المنهوبة من قبل القراصنة الفرنسيين، حاملاً معه كتاباً ديبلوماسياً من السلطان السعودي.

الحجاجية التي وقع فيها التاجر الفرنسي، فإذا كان هذا الأخير يمرر مغالطة حجاجية^(٤٤) قوامها الاستشهاد بجزء من حديث نبوي دون استحضار سياقاته الكلية، للإيقاع بالمتلقي «أفوقاي» فإن هذا الأخير يكشف تلك المغالطة عبر إخضاع قول التاجر الفرنسي إلى قاعدة القياس المُقدماتي:

- مقدمة ١: المؤمن لا يكذب
- المقدمة ٢: السارق يُعاقب بقطع يده
- المقدمة ٣: الزاني المحصن يُعاقب بالرجم
- = النتيجة: المؤمن الذي لا يكذب لا يسرق ولا يزني.

بهذه المقدمات يكشف أفوقاي تلك المغالطة، ويجعل الكذب والسرقة والزنا في خندق واحد، فنراه يستنكر بسؤاله على خصمه «كيف تقول هذا وعندنا أن من يسرق ربع دينار تقطع يده، وإذا زنا المحصن يُرجم»، ف«بُهِتَ التاجر ولم يعرف ما يقوله».

٤/٢ - مناقشة حول مسألة الزيادة والنقصان في الأدیان

يورد الرحالة أفوقاي مناقشة طويلة^(٤٥) جمعتها بقاضي الأندلس في فرنسا، وذلك بعد مغادرة باريس إلى بوردو، وكان موضوع هذه المناظرة حول الزيادة والنقصان في الأدیان. حاول فيها أفوقاي الانتصار لكمال الدين الإسلامي وتنزيهه عن الزيادة أو النقصان، في مقابل إلصاق الزيادة والنقصان بالأديان الأخرى: «قلت: دينكم مفتوح للزيادة والنقصان، لأن كل بابا له أمر عندكم ليزيد وينقص ما يظهر له في الدين»^(٤٦). ويمضي أفوقاي في الدفاع عن وجهة نظره بسرد الحجج المناسبة لدفعاته، فيذكر ما زاده المتعاقبون على منصب البابا في الكنيسة، ويشير إلى مصدر معرفته بذلك فيقول: «قال كرتش المنجم في كتابه، وأيضاً سمران الإشبيلي، وقد عرفته في مدينة إشبيلية اسماً وعيناً، وأيضاً جيش، ذكر كل واحد في كتابه ما زاده وما نقص كل واحد من البابس «يقصد البابا»^(٤٧).

بغض النظر عن موضوع المناظرة، وما يمكن أن يقال عنه، يظهر أن أفوقاي في مناظراته ومجادلاته كان قوي الحجة، واسع الاطلاع على الكتاب المقدس باللغتين العربية والأعجمية، إضافة إلى اطلاعه على ما كتب في

النصية، بل هو تلبية لنداء ذاتي داخلي يسكنه منذ بطش محاكم التفتيش به وبغيره، تلك المحاكم التي «تسائل الموريسكيين عن عقيدتهم الإسلامية، وتتهمهم بالكفر لأنهم لم يتتصروا على وجه الحقيقة»^(٤٨). بهذا نستطيع أن نفسّر تنوع مواضيع تلك المناظرات، ونستطيع أن نفسّر من خلالها ظروف التعايش والتماس الديني والحضاري الذي كان في أوجه وقتئذٍ؛ فموضوعات تلك المناظرات تتصل بما خلفته محاكم التفتيش من ندوب نفسية وجراحات حضارية لم تندمل إلى الآن، وكأن رحلته الحجاجية تنمّ للأوضاع المضطربة بين الإسبان والمسلمين بعد سقوط غرناطة، فحاول الرحالة أفوقاي الإجابة عن تلك الأسئلة العقدية المعلقة، ولو بعد فراره الأندلس.

٣/٢ - مناقشة الدفاع عن أخلاق المسلمين

يسوق أفوقاي أولى مناظراته عندما وصل إلى فرنسا مع تاجر فرنسي كان يعرفه في مراكش، فيقول: «وجاء إلينا تاجر كنت عرفتة في مراكش اسمه فرطن ولطول مكثه في بلاد المسلمين كان يعرف العربية غايةً، وبدأ يتكلم في دين المسلمين، ويشكر دينه. وقال: المسلمون في دينهم مُباح الزنا والسرقة. قلت: هذا باطل. قال: بل صحيح، لأنني سمعت علماءكم يقولون إن بعضاً سأل نبيكم، قال: المؤمن يزني؟ قال له: يزني. قال: والمؤمن يسرق؟ قال: يسرق. قال أيضاً: والمؤمن يكذب؟ قال له: المؤمن ما يكذب. قلت له: المؤمن الذي ما يكذب فلا يسرق ولا يزني، وكيف تقول ذلك وعندنا أن من سرق ما يساوي ربع دينار تقطع يده شرعاً، وإذا زنا المحصن يرجم إلى أن يموت»^(٤٩).

يمثل هذا المقطع القصير نموذجاً حياً لبنية حجاجية تعمل في نسق الرحلة؛ ذلك أن الرحالة عدل فوراً من الحديث عن وصوله إلى مرسى «هبردي غرسي» إلى نقل وقائع أو مناقشة له. ليس الغرض من إيراد هذا النموذج من المناظرة الحديث عن أحكام الزنا والكذب والسرقة في الإسلام، فقد أُسِيلَ بشأنها مدادٌ كثير في الكتابات التخصصية. وإنما الغرض هو الوقوف على القوة الحجاجية التي يستند إليها الرحالة؛ فقد استطاع من خلال اعتماده على قاعدة القياس، أن يكشف المغالطة

خاتمة

ما يسعنا في ختام هذه الدراسة، هو التأكيد أن أفوقاي في مختصر رحلته، استطاع إلى حد بعيد تمثيل حالة التشطي الديني التي كانت تعيشها إسبانية بتضييقها على الحريات الدينية، وعلى المسلمين بوجه خاص، تمثيلاً تأريخياً وحجاجياً، بل إنه عاش تلك الحالة التاريخية، الشيء الذي دفعه للترافع على ضعفاء الأندلس، ومحاولة خلق توازن ديني عبر آلية الحجاج، فإنه وإن كان في حالة ضعف وانحطاط، فإنه لم ينسَ أهمية الدفاع على حقوقه وحقوق غيره على مستوى حرية الاعتقاد والتدين والعيش في سلام، وهو يعلم علم اليقين أن ما عقيدته الإسلامية أنتجت حضارة أندلسية وسعت كل شيء، وانصهرت في بوتقتها الأديان والثقافات واللغات والأعراق والأجناس.

الأديان في إشيلية. ونرجح أن ثقافته حول الأديان استقاهها وهو «صغير من المدارس الخاصة بدروس الكنيسة التي كانت تُفرض على المسلمين الأندلسيين من أجل تثبيت الإيمان المسيحي في نفوسهم»^(٤٨). وفي بعض المواضع كان يعود إلى الكتاب المقدس لبحث عن الحجج التي تدعم وتثبت آراء الإسلام، كما يتبين من قوله: «رأيت أنه لا يكفي في الرد عليهم من كتبنا، إلا إذا كان من كتبهم فهو أقوى وأبلغ»^(٤٩). يتضح أن أفوقاي يتكئ في حجاجه على استراتيجية حجاجية ثنائية، تنهل من كتب الإسلام ومن كتب المسيحية والنصرانية ويُسخرها لتقوية موقفه وآرائه.

إن الغرض من إدراج هذين النموذجين من مناظرات أفوقاي لغيره من النصارى والمسيحيين، يتجلى في التمثيل للحضور الحجاجي في الطاب الرحلي الموريسكي؛ فظروف الصراع الديني كانت عاملاً مباشراً لطفوح الحجاج على سطح الرحلة، خاصة أن الرحالة ذهب في مهمة سفارية الهدف منها هو الدفاع عن حقوق الأقلية المسلمة في الأندلس، وحيثما وجدَ الدفاع وجدَ الحجاج.

إن الحجاج الذي غطى مساحة كبيرة من نص رحلة أفوقاي، لم يكن غاية في ذاته، وإنما نتيجة لأسباب الرحلة من جهة أولى، وامتداداً للحجاج السائد بين المسلمين الأقلية والنصارى الأغلبية في الأندلس، من جهة ثانية. فالرحالة عندما وصل إلى لهاي بهولندا اجتمع بقاضيه، فسأله القاضي: «ما السبب الذي ظهر لك حمل سلطان إسبانية على إخراج الأندلس من بلاده؟ قلت: اعلم أن الأندلس كانوا مسلمين في خفاء من النصارى، ولكن تارة يظهر عليهم الإسلام، ويحكمون فيهم، ولما تحقق منهم ذلك لم يأمن فيهم، ولا كان يحمل منهم أحداً إلى الحروب، وهي التي تفني كثيراً من الناس، وكان أيضاً يمنعهم من ركوب البحر لئلا يهربوا إلى أهل ملتهم (...) وهذا الذي ظهر لي حمله على إخراجهم، لأنهم بطول الزمن يكثرون ...»^(٥٠). انسجاماً مع هذا الوضع كان يناظر الرحالة في مواضيع ذات صلة بمعاونة مسلمي الأندلس.

الإحالات المرجعية:

الموريسكي محمد ميغيل ديمولينا شهادات بالعشرات على نماذج حرق المسلمين.

(١٥) يستعمل المؤلف كثيراً لفظ «الأندلس» كناية على أهل الأندلس.

(١٦) أفوقاي، مختصر رحلة الشهاب، مصدر سابق، ص ٣٤.

(١٧) تلفت ذهن القارئ الكريم، أن ما وصلنا من رحلة أفوقاي كما سبقت الإشارة هو مختصر رحلة «الشهاب إلى لقاء الأحاب». أما نص الرحلة كاملة فلا يزال مفقوداً، فلو وصلنا الرحلة كاملة حتما كنا سنظفر بحقائق ومعطيات تاريخية جديدة تعيد بناء تصورنا لتاريخ الأقلية المسلمة في الأندلس بعد سقوطها، وقد أخبرنا في مختصره عما ذكره فيها فقال: «ثم ذكرت كيف كان حال المسلمين بين النصارى بعد أن أدخلوهم جميعاً كرها منهم في دينهم، وكانوا يعبدون دينين: دين النصارى جهراً، ودين المسلمين في خفاء من الناس. وإذا ظهر على أحد شيء من عمل المسلمين يحكمون فيهم الكفار حكم القوي، يحرقون بعضهم كما شاهدتُ حالهم أكثر من عشرين سنة قبل خروجي منها...» ص ٢٠-٢١.

(١٨) عبد الله العروي، في مفهوم المؤرخ، سلسلة محاضرات جامعية، كلية الآداب ابن مسيك، جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٩، ص ١٦.

(١٩) في ٩ أبريل ١٦٠٩م أصدر الملك فيليب الثالث قراراً يقضي بطرد جميع المسلمين الموريسكيين من إسبانيا، وقد تم تنفيذ القرار تدريجياً حسب المدن والمواقع التي يسكنها الموريسكيون، انظر: أونطونيو دومينغيث وبرنار فانسون، تاريخ الموريسكيين، ترجمة محمد، مرجع سابق، ص ٢٦٧ وما بعدها.

(٢٠) نقلاً عن ماثيو كار، الدين والدم، إبادة شعب الأندلس، ترجمة مصطفى قاسم، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، مشروع كلمة، الإمارات العربية المتحدة، ط١، ٢٠١٣، ص ٤٤.

(٢١) المرجع السابق، ص ٤٤.

(٢٢) أنطونيو هورتز، تاريخ مسلمي الأندلس، الموريسكيون حياة ومأساة أقلية، ترجمة عبد العالي صالح، دار الإشراق، الدوحة، دون طبعة، ١٩٨٨م، ص ١٩٦.

(٢٣) المرجع السابق، ص ١٤٩-١٧٧.

(٢٤) رَمَمُوا بمعنى قَيَّدُوا ودَوَّنُوا، وسيأتي الكلام على هذه الكلمة في الفصل الخاص بتاريخ اللغة.

(٢٥) أفوقاي، مختصر رحلة الشهاب، ص ١١٦.

(٢٦) نقلاً عن: خالد أمين، المجتمع الإسباني في القرنين ١٦-١٧، من خلال وثائق إسبانية، سلسلة أبحاث تاريخية، كتاب الجيب، العدد ٢٢، ٢٠١٥، الصفحة ٣٦.

(27) Fer,in Mayorga. Los Moriscos De Hornachos y La inguiscion

ضمن كتاب: الموريسكيون، أربعة قرون بعد التهجير، تنسيق رحمة الحضري، مركز دراسات الأندلس، الرباط، ط١، ٢٠١٥، ص ٥٣.

(28) مختصر رحلة الشهاب، ص ١١٧-١١٨.

(29) هورتز مرجع سابق، ص ٢٠١.

(٣٠) مريديس غارثيا أرينال، المهاجرون الأندلسيون، ترجمة فكري محمد عبد السميع، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط٣، ٢٠١١، ص ٦٧.

(١) يُراجع في هذا السياق: أنطونيو دومينغيث، تاريخ الموريسكيين، حياة ومأساة أقلية، ترجمة محمد بينانية، منشورات هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، مشروع كلمة، الإمارات العربية المتحدة، ط١، ٢٠١٣-٢٠١٤.

(2) Francisco Piferrer: Nobiliario de los reinos y senarios de Espana. Tvi Madrid. 1860. p 138.

(٣) مصطلح «مورسكي» أطلقه الإسبان على مسلمي الأندلس الذين بقوا فيها بعد السقوط، وكان يعني معنى قديماً، ولكنه شاع استعماله في الدراسات الأدبية التي تعنى بتاريخ تلك الحقبة، وشاع استعماله أيها في الدراسات التاريخية. ونحن إذ نستعمله هنا، لا نقصد به التنقيص منهم، وإنما نستعمله تماشياً تداول المصطلح وشيوعه.

(٤) عندما نقول بأنه آخر موريسكي يؤلف بالعربية، فإننا لا نقطع بهذا الرأي نهائياً، وإنما نقصد آخر موريسكي يصلنا نصه مكتوباً بالعربية، مع ترجيحنا وجود مخطوطات موريسكية بالعربية مفقودة، أو مُحْتَجَنَة في المكتبات الخاصة. وهذا معروف، خاصة في مكتبات عوائل مدينة فاس، ففي سنة ٢٠١٩ اكتشفت مكتبة إثر انهيار منزل قديم يعود بناؤه إلى القرن ١٦ الميلادي، وقد عُثِرَ فيها على مخطوطات نادرة، في مجملها مخطوطات أندلسية وموريسكية.

(٥) انظر ترجمته في: رحلة أفوقاي الأندلسي، مختصر رحلة الشهاب إلى لقاء الأحاب، تحقيق محمد رزوق، دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات العربية المتحدة، ط١، ٢٠١٤، ص ١١-١٢.

(٦) هما: ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق وترجمة شورد فان وقاسم السامرائي وخبرار دفيخرز، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، د ط، د تاريخ. رحلة أفوقاي، مختصر رحلة الشهاب إلى لقاء الأحاب، تحقيق وتقديم محمد رزوق، دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات العربية المتحدة، ط١، ٢٠١٤.

(٧) أفوقاي، مختصر رحلة الشهاب، ص ٢٠.

(٨) أفوقاي، مختصر رحلة الشهاب، ص ٢٢.

(٩) المصدر نفسه، ص ١٢.

(١٠) التي صدرها كاتبها حسن أوريد بتسويغ مُقَدِّماتي، يقول فيه: «استقيتُ مادة هذه الرواية من سيرة أحمد شهاب الدين أفوقاي الذي خلف لنا شهادة عن مساره الفكري في كتابه ناصر الدين، يوم أن فرَّ من الأندلس خوفاً على حياته من فتنة محاكم التفتيش، وانتظم بعد هجرته إلى المغرب في بلاط السلطان السعدي أحمد منصور الذهبي، ورحل في مهمة دبلوماسية إلى فرنسا ثم هولندا بأمر من السلطان زيدان الذي خلف أباه أحمد المنصور» الموريسكي، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، ط١، ٢٠١١، ص ٧٠.

(١١) أفوقاي، مختصر رحلة الشهاب، ص ٢٠.

(١٢) أفوقاي، المصدر السابق، ص ٩٠.

(١٣) يقصد كتاب الشريف الإدريسي المسمى: المشتاق في اختراق الاتفاق، وهو من أوائل الكتب العربية في علم الجغرافيا، وإليه تُنسب أول خريطة للعالم

(١٤) لفظ يُطلق على القساوسة الفائمين بأمر محاكم التفتيش، والذين كانوا يعدُّون المسلمين ويقومون بحرقهم، وقد تضمنت وثائق

- (٣١) محمد حجي، "العلاقات المغربية العثمانية في القرن السادس عشر"، مجلة التاريخية المغربية، عدد ٢٩-٣٠، يوليو ١٩٨٣، ص ١٥١-١٦٠.
- (٣٢) يقصد رحلة الشهاب إلى لقاء الأحياب المفقودة، وليس مختصرها الذي بين أيدينا.
- (٣٣) مختصر رحلة الشهاب، ص ١١٥-١١٦.
- (٣٤) أنطونيو هورتز، مرجع سابق، ص ٢٠١.
- (٣٥) مختصر رحلة الشهاب، ص ١١٩.
- (٣٦) المصدر السابق، ص ١١٧.
- (٣٧) المصدر السابق، ص ١١٨.
- (٣٨) مختصر رحلة الشهاب، ص ٦٧.
- (٣٩) مختصر رحلة الشهاب، ص ٤٧-٤٨.
- (٤٠) ماثيو كار، الدين والدم، مرجع سابق، ص ١٥٧-١٦٩.
- (٤١) يونس حياش، الحجاج عند طه عبد الرحمن، مركز معارف للنشر والتوزيع، المغرب، ط ١، ١٨، ٢٠، ص ١١٣.
- (٤٢) عبد الله حمادي، الموريسكيون ومحاكم التفتيش، الدار التونسية للنشر، تونس، ط ٣، ١٩٩٨، ص ٤٠.
- (٤٣) مختصر رحلة الشهاب، ص ٤٩.
- (٤٤) الحجاج المغالطي نوع من الحجاج يُحاول فيه المُحاجّ إخفاء مقاصد الحقيقة، ويسعى إلى الإيقاع القصدي بالمتلقي-المُحاجّ حتى يقبل دعواه المعروضة، فهذا النوع من الحجاج يتكئ على الاستدلال الذي يبدو كأنه مقنع سيكولوجيا لا منطقيا. لمزيد من التفصيل، انظر: محمد أسيداه، اللسانيات والحجاج، الحجاج المغالط نحو مقارنة لسانية وظيفية، عالم الكتب، الأردن، ط ١، ٢٠١٠، الصفحة ٢٧٢.
- (٤٥) مختصر رحلة الشهاب، الصفحات ٥٨-٨٩-٦٠.
- (٤٦) المصدر السابق، ص ٥٩.
- (٤٧) المصدر السابق، ص ٥٩.
- (٤٨) عبد الوهاب بن منصور، أحمد بن قاسم أفوقاي الحجري آخر موريسكي يؤلف بالعربية، مرجع سابق، ص ١٩.
- (٤٩) مختصر رحلة الشهاب، ص ٨٨.
- (٥٠) مختصر رحلة الشهاب، ص ١١٣.

ميناء وهران التجاري

عهد الرستميين (١٦٠ - ٢٩٦ هـ / ٧٧٧ - ٩٠٩ م)

د. صالح الزرويل

أستاذ التاريخ

المعهد العالي للعلوم الإنسانية والتطبيقية
القرارة - الجمهورية الجزائرية

ملخص

لطالما شكل ساحل المغرب الأوسط في العصر الوسيط فضاء للتبادل التجاري بين الضفتين الجنوبية والشمالية للبحر المتوسط، كما كان بمثابة مفترق طرق للبضائع والمسافرين المتجهين شمالاً نحو أوروبا، وجنوباً نحو بلاد السودان الغربي، وشرقاً نحو المشرق الإسلامي، وغرباً نحو المغرب الأقصى والأندلس، فكانت موانئه ومراسيه فضلاً عن مدنه المنتشرة عبر طول ساحله وجهة ومنتهى ومنطلقاً للعديد من الرحلات البحرية صيفاً وشتاء، وبها ازدهرت أسواق الداخل بما تدره موانئ الخارج. تهدف الدراسة إلى البحث في الأدوار التي عرفتتها مدينة وهران خلال القرن الثاني والثالث الهجري، وذلك عندما كانت من أهم موانئ الدولة الرستمية (١٦٠ - ٢٩٦ هـ)، ومختلف الأنشطة الاقتصادية الداخلية والخارجية التي كانت تتم فيه، كمدينة وميناء، بينها وبين البر الرستمي والأغلب والإدرسي وحتى بلاد السودان في أقصى الجنوب. ولذلك كان من الضروري القيام بوصف تلك البيئات الجغرافية ومختلف أنواع التجارة والقوافل الرابطة بين الجنوب السوداني مرورا بالعاصمة تيهرت وإلى غاية وهران والأندلس، مع استقراء وتحليل لمختلف النصوص الواردة في المصادر الجغرافية. نافست وهران مثيلاتها كجاية وتنس ودلس ومستغانم في الأهمية التجارية، فهي أهم ميناء رسمتي للتصدير إلى الأندلس لمختلف البضائع القادمة من تيهرت وبلاد السودان وغيرها من أسواق المغرب، كما مثلت بوابة استيراد لمختلف السلع القادمة من أوروبا ومن الأندلس بخاصة. مما يمكننا القول بأنها مفترق طرق تجاري بري وبحري يربط الشمال بالجنوب والشرق بالغرب، رغم أنه لم يعيش طويلاً تحت النفوذ الرستمي، إلا أنه أقام تحت إمامتهم قواعد اقتصادية راسخة استفادت منها الدول التي تلتها.

كلمات مفتاحية:

وهران: الدولة الرستمية: العصر الوسيط: الأنشطة التجارية: الأندلس

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٢٧ مايو ٢٠٢٥
تاريخ قبول النشر: ٣٠ يونيو ٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.368833.1235

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

صالح الزرويل، "ميناء وهران التجاري عهد الرستميين (١٦٠ - ٢٩٦ هـ / ٧٧٧ - ٩٠٩ م)". - دورية كان التاريخية. - السنة الثامنة عشرة - العدد الثالث والسبعون: نوفمبر ٢٠٢٥. ص ٥٦ - ٦٧.

X, formerly Twitter: <http://X.com/kanhistorique>Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>Facebook Group: <https://www.facebook.com/groups/kanhistorique>Corresponding author: salah.zerouil@univ-ghardaia.dzEditor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.comEgyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في دورية كان ٤.٠ Creative Commons Attribution International License (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

بيّن من خلالها الطرق التجارية الرستمية البحرية منها والبرية بخاصة والتي ربطت تيهرت بالأندلس شمالاً وغانة جنوباً، دون أن يستفيض في ذكر موانئها الهامة، ونشاطاتها التجارية.

أما الدراسة الثانية فهي كذلك أطروحة دكتوراه عنوانها: "التوجه البحري للمغرب الأوسط وأثره في طرق التجارة والمواصلات (١٠-٢هـ/١٦-١٨م)"، للباحث علي عشي والتي يتحدث في فصلها الأول ما بين القرنين (٢-٥هـ) عن المجال الساحلي للمغرب الأوسط، والتي استعملتها الدول المتعاقبة نقلاً عن كتب الجغرافيين الأوائل وعن المصادر التاريخية كالبكري والإدريسي، أما في جانب العلاقات بين الضفتين فتجد أطروحة الباحثة: خلوط أسماء والتي تحمل عنوان: "الموانئ ودورها في العلاقات التجارية بين المغرب الأوسط والأندلس من ق ٣-٦هـ/٩-١٢م"، وقد مست فترة الرستمين

كما يمكننا الوقوف على دراسة الباحث محمد عنباوي الموسومة بـ: "المدن الساحلية في منطقة المغرب العربي الوسيط إلى حدود القرن الرابع الهجري"، وهي ضمن أشغال ندوة المدينة في تاريخ المغرب العربي، وفيها ذكر لأهم الموانئ المغاربية كجاية وتنس وغيرها دون استفاضة في العلاقات التجارية الرابطة بينها وبين مختلف مدن الضفة الأوروبية.

أولاً: ساحل المغرب الأوسط في العهد الرستمي

لطالما مثّل ساحل المغرب الأوسط المتوسطي في الفترة الوسيطة منطقة صراع بين عديد الدول التي ملكته زماناً مع جيرانها، ومع دول طامعة قادمة من وراء البحار، وذلك راجع بالدرجة الأولى إلى موقعه الاستراتيجي الهام، والتحكم فيه هو تحكم في زمام التجارة البحرية العالمية، لذلك حاولت معظم الدول الإسلامية المتعاقبة عليه عدم التفريط فيه وفي خيراته الاقتصادية.

كانت الدولة الرستمية (١٦٠-٢٩٦هـ/٧٧٧-٩٠٩م) من بين تلك الدول الأولى التي عرفت أهميته وقيمتها الاقتصادية، ورغم استرسال المصادر والمراجع في تاريخ دولة بني رستم في مختلف جوانبها، لاحظنا بعض

شكلت مدن الساحل الشمالي لبلاد المغرب من برقة شرقاً وإلى طنجة غرباً، نقطة انطلاق العلم والتجارة نحو الضفة الجنوبية لسواحل أوربا، كما كانت منفذاً إلى الداخل الإفريقي جنوباً، ومثلت العديد من مراسيه الرئيسة محور المعاملات التجارية الداخلية والخارجية. وقد أسهبت المصادر في ذكر أهمية موانئ المغرب الأوسط الاقتصادية فترة المرابطين والموحدين، في حين لا نجد استفاضة في ذكر ذلك عهد الرستمين.

جاءت هذه الدراسة للبحث في أحد موانئ المغرب الأوسط الهامة وهو ميناء وهران الواقع في الغرب والقريب جغرافياً من الضفة الأندلسية، فقيم تمثلت نشاطات ميناء وهران في الفترة الرستمية، وهل كان أهم بوابة لإفريقيا التجارية من الشمال مقارنة ببجاية، وتنس، ودلس ومستغانم. وللوقوف على أهمية ميناء ومدينة وهران كان لنا في ذلك منهج وصفي وتحليلي لمختلف المصادر التاريخية والجغرافية وكتب الرحلات التي تناولت الساحل الرستمي عموماً ووهران بخاصة.

برزت وهران كميناء تجاري مغربي هام في العصر الوسيط، إذ استخدم كموقع تجميع وتمويل وانطلاق الحملات البحرية الإسلامية نحو الأندلس، فضلاً عن نشاط حركة تجارة القوافل مع إفريقيا حيث يربط ميناؤها بإفريقيا بعدد من الطرق التجارية البرية وقد كانت الصلة الوظيفية بين التجارة الصحراوية والتجارة البحرية من أهم السمات التي لازمتها طوال الفترة الوسيطة، خاصة وأن له من المؤهلات الاقتصادية ما يسمح له بالقيام بهذا الدور، وقد تناولت العديد من الدراسات الجانب التجاري لسواحل بلاد المغرب الأوسط في إطار الدول المتعاقبة عليه.

إن الدراسات التي تناولت سواحل بلاد المغرب الأوسط الوسيط في مختلف عهوده عديدة، لكن تلك التي تناولته في الفترة الرستمية قليلة، ولعل ذلك راجع لندرة المصادر عنها، ولم أقف -فيما أعلم- سوى على بعض من تلك التي أشارت في ثنايا صفحاتها إلى المجال البحري الرستمي، إذ نجد رسالة دكتوراه للباحث نور الدين النوري بعنوان: "المغرب الأوسط أيام بني رستم"،

متأنية، فهي لا تذكر تفاصيل عديدة إنما يمكن استنباطها من بين السطور، لذا جاء موضوعنا عن مدينة وهران في العهد الرستمي كمحاولة للبحث في إحدى تلك الجزئيات، وقبل الحديث عن ميناء ومدينة وهران، وجب تحديد المجال البحري الساحلي الذي كان تابعا للدولة الرستمية.

لعل من الصعوبة بمكان تحديد أسماء جميع الموانئ الرستمية من حدود الأغالية شرقا إلى الأدارسة غربا، لكن يمكن القول مبدئيا بأنها تمتد من حدود بجاية إلى مرسى فروخ قبل تأسيس وهران وذلك استناداً على ما ذكره المؤرخ والجغرافي اليعقوبي إذ يقول في ذلك: «ويتصل بمدينة تيهرت بلد عظيم ينسب إلى تيهرت في طاعة [أبي بكر] محمد بن أفلح بن عبد الرحمن بن رستم (تولى الحكم في ٢٤٠هـ)، والحصن الذي على ساحل البحر الأعظم ترسي به مراكب تيهرت يقال له مرسى فروخ» (اليعقوبي، د.ت: ١٩٢). الذي زار تيهرت والساحل الرستمي. وقد أشار الاصطخري أن تجار تيهرت كانوا يستعملون أيضا مرسى نكور لأن بين تيهرت ونكور عشرون مرحلة.

ويعددها ابن حوقل (ت ٣٦٧هـ): مرسى بني جناد، مرسى الدجاج، جزائر بني مزغنة، تمدفوس، برشك، تنس، مرسى عطا. كما أنه أشار إلى وهران في معرض حديثه عن الأندلس وما يقابلها من مراسي بلاد المغرب فقال: «تمتد أرض الأندلس على البحر فتواجه من أرض المغرب تونس وهكذا إلى طبرقة إلى جزائر بني مزغنان، إلى تنس إلى وهران إلى نكور إلى سبتة ثم إلى أزيلي» (النصبي، ١٩٩٢: ٦٥) لعله قد جمع في نصه هذا ما بين المدن والمراسي، وستظهر مراسي جديدة بعد ذلك يذكرها البكري (ت ٤٨٧هـ)، كما أن أغلب تلك المنافذ البحرية لم تكن قرى أو مدنا إنما مراسي وموانئ للمراكب والسفن التجارية مهمتها تنتهي عند إرسال البضائع للداخل أو الخارج، ولم يكن يحيط بها سكن عمراني إلا بعد تأسيسها لاحقا، مثل مدينة وهران. ويبدو أن سبب ذلك هو الابتعاد عن بؤر الخطر الخارجي إذ تعد السواحل ثغورا إسلامية، وإن كان هناك من قال بعدم تأسيس الرستميين للمدن على حدود إمارتهم.

الغموض الذي يكتنف ساحلها البحري وبسطها نفوذها عليه طوال أيامها الزاهرة، لذا أردنا البحث في هذه الثغرة التي غابت عن بحوث التاريخ قديمها وحديثها. بالعودة إلى ما بين أيدينا من المصادر المختلفة التاريخية والجغرافية والرحلات الخاصة بالفترة الرستمية (٢-٣هـ/٨-٩م)، لا نجد تحديداً واضحاً ومتفقاً عليه بينها، إذ أن أغلبها تكتفي بذكر موانئ مشهورة مثل: تنس ومرسى الدجاج ومرسى فروخ، دون ذكر لباقي المراسي والمدن التي كانت تنطلق منها المراكب الرستمية نحو مختلف الاتجاهات. ولا ندري فيما إذا كانت تلك المراسي قد نشأت قبل أو بعد الوجود الرستمي، والأمر بحاجة إلى العودة إلى تاريخ تأسيس كل ميناء، ويبدو أن المراسي الثلاث المذكورة آنفا كانت أسبق من غيرها، لذلك تداولت أسماءها وتكرر ذكرها في كتب البلدان والجغرافيا.

ومن جهة أخرى يذكر الأصطخري في مسالكة بأن ناكور وجزائر بني مزغنا في مدن وقرى كثيرة فقريبة من تاهرت الأعلى، ولعلها إشارة منه إلى حدود الدولة الرستمية من جهة الساحل (الاصطخري، ١٩٢٧: ٢٩)، كما أنه من الأهمية بمكان معرفة مدى تبعية مدن الساحل للدولة الرستمية، فهل كانت تبعية سياسية واقتصادية أم مجرد تبعية اسمية فقط، إذ ما هو معلوم أن الدولة الرستمية كانت أكثر الدول توسعاً ووحدة وتماسكاً وأكثر تأثيراً على المستوى العقائدي، خاصة أيام الامام الثاني عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم (ابن الصغير، ١٩٨٦: ١٧)، وأن المجال المغربي الذي دان أهله بالمذهب الاباضي كان تحت حكم الامام وسيادة الدولة، بعضها بصفة مباشرة وكان عليها عامل للإمام، أو سلطة غير مباشرة، بالانتماء إلى المذهب الاباضي (النوري، ٢٠١٨: ٥٨)، وكيف ظهرت هذه المدن الساحلية فهل قامت على أنقاض مدن قديمة فينيقية أو رومانية أم هي مدن اسلامية بنيت إلى جانب المدينة القديمة لتكمل بعضهما البعض؟ أم هي مدن إسلامية خالصة؟ (عمارة، ٢٠٠٨: ١٣٩) وكيف كانت تركيبة سكان مدن الساحل الرستمي، فهل كانت متجانسة أم هي نسخة من العاصمة تيهرت، في تنوعها المذهبي والعرقى، وكلها تساؤلات بحاجة إلى إجابات بعد قراءة المصادر قراءة

ثانيًا: وهران عهد بني رستم

تحدثت المصادر التاريخية والجغرافية بخاصة عن وهران كمركز ومدينة، كما تناولت العديد من المراجع حول تاريخ تأسيسها ومؤسسيها قديما وفي الفترة الوسيطة، واتفقت على أن المدينة قديمة أزلية لوجود آثار بها تعود للحقبة الرومانية وما قبلها، أما عن تأسيسها فأغلب المصادر الجغرافية والبلدانية ذكرت أنها كانت حوالي سنة ٢٩٠هـ على يد البحارة الأندلسيين، وذهبت إلى ذكر مصير المدينة بعد زوال حكم بني رستم والفتن التي عرفت في القرن الرابع الهجري وما بعده. لذا آثرت تجنب الخوض في تفاصيل التأسيس، والاقتصار بالحديث عما يخص وهران ودورها التجاري فترة القرنين الثاني والثالث الهجريين، الثامن والتاسع للميلاد.

تضاربت آراء المؤرخين والجغرافيين في تحديد جغرافية بني رستم، وهو ديدن جل الدول في بلاد المغرب، إذ لم تكن لها معالم ثابتة، فالمصادر الجغرافية والرحلات التي بين أيدينا لا تبين حدود الامامة الرستمية والبلدان الداخلة في نطاقها، فإنه يمكن القول أن كل إقليم من الأقاليم والقرى التي كانت تدين بمذهب الإباضية، كانت داخلة في سلطان تيهرت، أي من جبل نفوسة شرقا إلى تيهرت غربا (الحמיד، ١٩٨٠: ٤٠٥)، وقد ناقش د. إبراهيم بحاز هذه المسألة وانتهى إلى رأي أقرب للصواب مفاده أن ممتلكات الدولة الرستمية هي التي ذكرها الحبيب الجنحاني والتي تضم المغرب الأوسط كله، ماعدا تلمسان الادريسية في الغرب، ومنطقة الزاب الاغلبية في الشرق، ويدخل ضمن حدودها جبل نفوسة، ومناطق جنوب طرابلس، وجربة، وبلاد الجريد (بحاز، ٢٠١٥: ٩٩).

ولا يمكن القول بأنها حدود ثابتة طيلة الحكم الرستمي إنما كانت في مد وجزر مع جيرانها، حسب الظروف السياسية والأمنية السائدة، ولعل السكوت عن الحدود الشمالية لإمارة بني رستم، يعني أن الواجهة البحرية للمتوسط كانت هي الحدود الطبيعية لها. ومن المحقق أن حدودها من جهة الشمال تحاذي البحر المتوسط قرب مدينة مستغانم الحالية (ليفيتسكي،

٢٠٠٨: ٢٨). إذ تذكر بعض المصادر أن تجار بني رستم قد استعملوا معظم موانئ المغرب الأوسط من مرسى الخرز شرقا إلى وهران غربا، في حين أن مصادر أخرى تحدد امتداد النفوذ الأغلب الذي شمل مرسى الزقاق والخرز وبجاية وتدلّس. ويبقى تحديد موانئ الأغلبية وموانئ الرستميين بحاجة إلى تدقيق.

كما أن الأئمة الرستميون قد عينوا ولاية على أقاليمهم البعيدة عن العاصمة تيهرت، وذكرت المصادر أسماء من قاموا بالمهمة في شرق الدولة، في سرت ونفوسة وقابس وجبل دمر وقفصة والجريد بينما سكنت عن من تولوها في منطقة الأوراس وشمال تيهرت وغربها وجنوبها فلم تكشف لنا المصادر عن الولاة الذين عينوا في هذه الولايات، ولعل ذلك عائد إلى كون بعض المناطق الرستمية أضحت تحت إمرة بعض الخارجيين عن طاعة الرستميين أو تحت يد الأدارسة والعلويين وخاصة على المراسي الساحلية.

فقد كانت هناك إمارات خارجة عن الرستميين، فمن تيهرت إلى رجل من هواره يقال له ابن مسالة، إلى مملكة لبني محمد بن سليمان بن عبد الله بن الحسن بن الحسين، وكانت مملكة أخرى للبربر تدعى مطماطة ينتشر سكانها في عدة مدن بعضهم في مدينة يقال لها ايزرج (اليقوبي، د.ت: ١٩٥)، تحت إمرة رجل يدعى إبراهيم بن محمد البربري المعتزلي (ابن خرداذبة، ١٨٨٩: ٨٨)، ومدينة أخرى أيضا لهم تسمى الحسنة يملكها رجل منهم يقال له عبد الله (كروم، ٢٠٢٢: ١٠٠٣).

كما فتحت الدولة الرستمية حدودها للكثير من العلويين الفارين من العباسيين، وكان أكثرهم من أبناء محمد بن سليمان العلوي أخ إدريس بن عبد الله مؤسس الدولة الادريسية، وقد استقروا بعد سقوط بني رستم على ضفاف نهر شلف كالجزيرة الخضراء وسوق ابراهيم وغيرها. وامتد نفوذهم الأدارسة ليشمل الشمال الشرقي لوهران ووادي شلف، ومن الجنوب سهول غريس بمعسكر إلى جبال مديون قبلي فاس، ولذلك يمكن القول إنها امتدت على الساحل من الريف غرباً إلى أرض الحضنة من عمالة قسنطينة شرقاً ثم

من مناطق الساحل والداخل، وذلك للعدل والحكمة والانصاف والمساواة التي عرف بها أئمتها. ويبدو أن حكام الأندلس من الأمويين أدركوا هذه الميزة فعملوا على إنشاء مراكز تجارية على طول الساحل الرستمي، ولعل تيهرت قد رحبت بذلك نظرا لما ستدره عليها هذه المراكز أو المدن من أرباح، فتكاثر العنصر الأندلسي الذي قام بتأسيس تنس ووهران وبجاية وغيرها، وقد ذهبوا أبعد من ذلك فتوغلوا إلى الداخل لربط تيهرت بالساحل عن طريق مرسى فروخ ومرسى تنس فيما بعد (عشي، ٢٠١٧، صفحة ٦٤).

يؤكد ابن خلدون في مقدمته على أن البحر المتوسط كان بحيرة اسلامية دون منازع فترة القرنين ٢-٥هـ تقريبا، إذ يقول: «وكان المسلمون لعهد الدولة الاسلامية قد غلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه، وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه، فلم يكن للأمم النصرانية قبل بأساطيلهم بشيء من جوانبه، .. وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه، ... وصارت أساطيلهم فيه جائئة وذاهبة.. وقد ملأت الأكثر من بسيط هذا البحر عدة وعددا» (ابن خلدون، ٢٠٠١: ٢٤٤)، كما انقطعت عنه القرصنة بسبب السيطرة الاسلامية عليه، ولم تتأثر بالصراع الأموي الفاطمي، وكأنهما شبه متفاهمين على رد عدوان الفرنجة والنيل منهم، ومما ساعدهم على ذلك اهتمام الطرفين بأساطيلهم الحربية. وكان لهذه الوضعية انعكاس إيجابي على التجارة الخارجية، بل وعلى مختلف النشاط الاقتصادي فاطمأن التجار على تجارتهم (يوسف، ١٩٩٢: ١٩٦).

بعد انتهاء الصراع المذهبي في بلاد المغرب وما نتج عنه من انعدام للأمن عبر المسالك التجارية، اتضحت معالم الخريطة السياسية لبلاد المغرب والأندلس بدءا من منتصف القرن الثاني الهجري، ورغم الاختلاف المذهبي فقد اتبعت الدول المغاربية سياسة مسالمة، وبهذا عرف المغرب الاسلامي فترة استقرار سياسي امتد الى نهاية القرن الثالث الهجري أسهم في تطور وازدهار المسالك التجارية وأمنها (العزیز، ٢٠٢١: ٤٨).

يظهر أن بلاد المغرب الأوسط قد عرفت الدهقان، إذ أن ابن حوقل يذكر بخصوص وهران أن «في حاضرتها دهقنة وحذاقا» ويعرف الحموي الدهقان أنه «صاحب

تعود بناحية تنس غرباً، وجنوب شلف إلى مليانة وتنتهي بمتيجة (الجيلالي، ١٩٨٤: ٢٤٧/١).

كانت الإمارات السليمانية في بعض مدن غرب المغرب الأوسط، أهمها تلمسان، أرشكول، جراوة، تنس إضافة إلى قراها وأقاليمها، محصورة بين الدولة الإدريسية في المغرب الأقصى، والدولة الرستمية في الجنوب وقليل في الشرق، والإمارات العلوية غير السليمانية، في بعض الأجزاء الشرقية منها مع وجود أجزاء من الدولة الأغلبية في الشرق (كروم، ٢٠١٦: ١٤٤).

من تلك المعطيات يمكننا القول بأن وهران الرستمية كانت عبارة عن ميناء تجاري يربطها بالأندلس وغيرها من السواحل إلى غاية سنة تأسيسها من قبل البحارة كميناء ومدينة، أي أن تحكم الرستميين في الميناء قد انتهى بقدم البحارة الأندلسيين أواخر القرن الثالث الهجري. وعن ذلك يقول ابن حوقل: أنها مدينة محدثة، أي أن الرستميين لم ينشئوا فيها عمرا نأ للاستقرار إنما كانت في عهدهم ميناء تجاري فحسب. إلى غاية مجئ الأندلسيين، ولم تذكر المصادر سبب ذلك رغم كونها منطقة استراتيجية وجغرافية مهمة قريبة من ضفة الأندلس، كما أن اليعقوبي لم يذكر أسماء الموانئ التي تربط ساحل تيهرت بساحل قرطبة مكتفيا بذكر وجود عمران على طول وادي شلف، إذ يقول: «وبينها وبين البحر المالح مسيرة ثلاث رحلات في مستوى من الأرض وفي بعضها سباح وواد يقال له وادي شلف وعليه قرى وعمارات يفيض كما يفيض نيل مصر يزرع عليه. (اليعقوبي، د.ت: ١٤٩)».

يعتبر كثير من الدارسين أن دولة بني رستم دولة داخلية ذات طابع بري، لكن الأبحاث أثبتت عكس ما ذهب إليه هؤلاء (أرشيبالد، د.ت: ٢٥٠)، إذ كشفت النصوص التاريخية والجغرافية سيطرتهم على ساحل ممتد من تلمسان غربا إلى بجاية شرقا ومن جربة إلى برقة في أقصى الشرق، وبذلك يكون بنو رستم يملكون مدنا ساحلية أكثر مما هي عند الأغالبة أو الأدارسة (عناوي، ١٩٨٨: ٨٩).

ولعل وهران هي من المناطق التي انضمت لسلطة بني رستم بإرادة أهلها ودون سيف أو حرب على غرار العديد

بعد استقرارها لم يعرف ساكنة الدولة البداوة، بل ساعدهم الاستقرار على تأسيس مدن جديدة داخلية وساحلية لممارسة الملاحة البحرية، ولعل خبرتهم بها قد اكتسبوها من تجمعات الإباضية على ساحل البحر مثل: الطرابلسيين والجريين وغيرهم.

٣/١- المسالك البرية من وإلى وهران

تربط مدن وقرى بلاد المغرب شبكة طرق طويلة منها الرئيسية ومنها الفرعية، فالرئيسية هي التي كانت بمثابة الطريق السيار اليوم، تستغله القوافل التجارية جيئة ورواحا من وإلى مختلف الأسواق والموانئ، والذي يهمنا من تلك الطرق تلك التي تربط وهران بغيرها من المدن القريبة والبعيدة عنها، إذ من جزائر بني مزغنة يواصل الطريق الساحلي القادم من ساحل إفريقية مسيره باتجاه المدن الساحلية في إقليمي المغرب الأوسط والأقصى، فيجتاز تنس ووهران وواسلن ثم أرشكول ونكور. وكانت هذه المدن محطات نشطة للتجارة البحرية عصرئذ، وارتبطت فعاليتها التجارية مع مدن الداخل. وكانت آخر محطة تجارية في الطريق الساحلي سبتة وطنجة.

أما الطريق الداخلي البري فيجتاز مناطق المغرب الواقعة بين المنطقة الساحلية وبين البراري والمفاوز (الصحراء) والتي تفصل المغرب عن السودان. ونجد في هذه الشبكة طرقا برية رئيسية وأخرى فرعية كثيرة، وأغلبها يمر عبر تيهرت العاصمة الاقتصادية والمحطة التجارية البرية الرئيسية لمختلف القوافل العابرة في جميع الاتجاهات، ونقتصر بذكر تلك الطرق التي تربط وهران بغيرها منها: الذي يبدأ من القيروان، وهو بثلاثة فروع تلتقي عند المسيلة في الزاب، «وطريقان يربطان مدينة وهران بالقيروان الأول مسافته قدرها ٢٥٠ كلم (البكري، ٢٠٠٢: ٢٣٢).

الخط تيهرت-وهران: من خلال المصادر التاريخية نلمس بأن الطرق التجارية كانت تربط تيهرت بعدة موانئ على الشريط الساحلي للمغرب الأوسط، ومن جملة هذه المراسي المعروفة لدى المؤرخين نجد ميناء تنس ومرسى فروخ ومرسى الخرز، وربما استعمل أيضا مرسى مدينة وهران من أجل التعامل مع مدن الأندلس وموانئها المشهورة مثل: بلنسية وطرطوشة. لكن لم نلمس

الضياع «أي أنه مثلما يعتبره لويس لومبار «ملاك كبير» ويكون هؤلاء الدهاقون قد حافظوا على اقطاعياتهم وأراضيهم الشاسعة عن طريق الصلح مع المسلمين أو الدخول في الاسلام (النصيب، ١٩٩٢: ٧٩).

إن الاستقرار السياسي والأمان على النفس والمال وحسن سيرة الحاكم، في أي دولة تعتبر من أهم العوامل التي يطلبها كل تاجر يريد لتجارته الريح ولنفسه الاطمئنان، وهي عوامل وفرها الرستميون لجميع من يؤم دولتهم، فلا شك في أن تيهرت هي صورة واضحة لما يمكن أن تكون عليه المدن والقرى التجارية الأخرى في البلاد (بحاز، ٢٠١٥: ١٧٦).

ثالثاً: تنظيم التجارة عهد بني رستم

ابن الصغير الذي احتك بالرستميين. لم يذكر أبداً مدينة ساحلية أو ميناء في أخباره، على الرغم من أننا نعرف أن هناك موانئ، إذ يقول عن الرستميين: «واتسعوا في البلد وتفسحوا فيها وأنتهم الوفود والرفاق من كل الامصار وأقاصي الأقطار... واستعملت السبل الى بلد السودان، وإلى جميع البلدان من مشرق ومغرب بالتجارة وضروب الأمتعة... والعمارة زائدة والناس والتجار من كل الاقطار تاجرون»، (الصغير، ١٩٨٦: ٣٢-٣١)، لكنه يحدثنا عن التجارة بين السودان وتاهرت. ويصف طريق القوافل من الشرق إلى الغرب، في الصحراء. ويقول الإدريسي: «ولهم تجارات وبضائع وأسواق عامرة» (الإدريسي، ٢٠٠٢: ١١٢).

ينفي مبارك الملي في كتابه تاريخ الجزائر في القديم والحديث وجود مراكب بحرية للرستميين ولا مصانع للدولة، إنما التجارة البحرية فقد كانت بأيدي غيرهم لعدم اتصال المملكة بالسواحل، وكانت يومئذ للأندلسيين فهم الذين يؤمون ببضائعهم المختلفة مراسي الجزائر مثل: مرسى الدجاج وتنس ومرسى فروخ القريبة من مستغانم شرقاً، ولهم اتصال بالرستميين في التجارة خصوصاً من مرسى فروخ، معللاً ذلك بكون المملكة الرستمية مملكة صحراوية والغالب على أهلها الترحال وسكنى الخيام والقيام على المواشي والتجارة في البر (الملي، ١٩٨٩: ٧٥/٢). وإن كان فيما ذهب إليه بعض الصواب في بدايات تأسيس الدولة والعاصمة لكن

المراكشي يرسم طريقاً من بلاد افريقية وينتهي إلى طنجة، منطلقاً من طرابلس إلى تونس ثم بجاية ثم الجزائر ومنها إلى وهران ثم سبتة وطنجة (المراكشي، ١٩٤٩: ٢٨٣)، وكان هذا الطريق من أكثر الطرق البحرية أهمية أمام التجار المسافرين المسلمين، خاصة بعد أن استطاعت بيزنطة انتزاع جزيرتي كريت وقبرص من أيدي المسلمين، وبذلك زالت الحماية التي كانت توفرها هذه الجزر (جبوده، ٢٠٠٨، صفحة ٨٥).

لم تكن المبادلات الاقتصادية بين دول المغرب والأندلس تتم بصفتها شخصيات معنوية (عن طريق وزارات للتجارة والمالية)، بل بين الأفراد فرادى أو منضمين جماعات في شركات (جبوده، ٢٠٠٨: ١٢٤).

٣/٣- المسالك المائية الداخلية

كانت وهران ومرساها حلقة وصل بين سواحل الشرق المغربي والغرب المغربي، إذ كان المغاربة ينقلون سلعهم عبر خط بحري ساحلي، يربط الموانئ الممتدة من طرابلس شرقاً إلى الرباط غرباً مروراً بوههران. فمن وهران إلى تنس مجريان وهما من الأميال مائتا ميل وأربعة أميال (كل مجرى مائة ميل وميلان) (مقديش، ١٩٨٨: ٨٨/١)، ولا تفيد المصادر المتاحة كثيراً في الكشف عن هذا الجانب من التجارة البحرية الداخلية، فالظاهر أنها لم تستخدم كثيراً ويحتمل سبب ذلك إلى نقص تقنيات الملاحة المغربية قديماً.

ولقد ذكر اليعقوبي أن هناك مرسين تحت حكم الدولة الرستمية هما: مرسى تنس ومرسى فروخ (اليعقوبي، د.ت: ٢٣٢)، إذ لم يكن في عهده قد نشأ مرسى وهران بعد، أي بعد رحلته وقدمه إلى المنطقة. في حين يخبرنا ابن حوقل أن بين تنس ووههران عدة محطات أو مراسي بحرية، فمن تنس إلى مرسى عطا ومنه إلى مرسى قصر الفلوس ومنه إلى مرسى وهران (النصبي، ١٩٩٢: ٧٨)، الذي يربطه البكري مباشرة بمرسى فروخ، «ومنها إلى مدينة وهران مراس لا مدن لها مشهورة كمرسى عطا وليس به أحد يسكنه، وقصر الفلوس» (النصبي، ١٩٩٢: ٧٩)، ويبدو من قوله هذا أن تنس ووههران هما المدينتان الوحيدتان في المنطقة، بينما باقي المحطات هي مراسي للسفن فقط.

وجود طريق بري يربط تيهرت بوههران مباشرة، فالبكري الذي أتى على ذكر طول الطريق الرابط بيت تيهرت والبحر، ذكر الشلف والغزة وقلعة مغيلة ومستغانم وتامزغران وحتى ارزاو (أرزيو) ثم وهران على مسافة أربعين ميلاً (البكري، ٢٠٠٢: ٢٥٢/٢)، منه نستنتج أن لا وجود لطريق مباشر يربط العاصمة الرستمية بوههران في حين هناك طريق يربط وهران بتلمسان قدره مرحلتان (البكري، ٢٠٠٢: ٢٥٩/٢)، وذلك بأن تخرج من تلمسان إلى وادي وارو مرحلة، ومنها إلى قرية تانيت مرحلة، ومنها إلى وهران. «(مقديش، ١٩٨٨: ٧٨/١).

وههران القيروان عبر الجادة الكبرى: تخرج من وهران إلى تانسلمت ثم جراوة لعزیزوا ثم قصر ابن سنان ومنه إلى الجادة أو الطريق الساحلية ثم القيروان (البكري، ٢٠٠٢: ٧٣٩/٢)، ولعل مصطلح الجادة الكبرى هي بمثابة الطريق الدولي الرابط بين الشرق والغرب المغربي، والذي تسلكه مختلف القوافل التجارية، وبه العديد من المدن والمحطات التي تقف عندها الرحلات المطولة للراحة واخذ قسط من الاستراحة.

وههران القيروان عبر قسطنطينية: يذكر البكري أنها تمتد لثلاثاً وأربعين مرحلة، وتخرج من وهران إلى قصر منصور بن سنان ثم مدينة يعلى بن باديس ثم نهر سي بن دمر ثم آبار العسكر أو أرسان بالبربرية، ثم ثلاث أو أربع مراحل عبر أراضي مغراوة إلى ساقية ابن الخزر أو إزمين، ثم بنطيوس الثلاث التي كانت إحداها على مذهب واصل بن عطاء والإباضية، والآخرين على مذهب السنة... ومن مدن بنطيوس إلى بسكرة ثم تهوذا. ثم مرحلة إلى باديس، ثم قيطون بياضة أول بلد سماطة، ومنها يفترق الطريق إلى بلاد السودان أو طرابلس أو القيروان عبر نفطة التي بينها وبين قيطون بياضة مرحلتان، ثم توزر قاعدة بلاد قسطنطينية.. وذلك من وهران إلى القيروان على قسطنطينية ثلاث وأربعين مرحلة. (البكري، ٢٠٠٢: ٢٥٨/٢، ٧٤٤)

٣/٢- المسالك البحرية من وإلى وهران

يمكن القول بأن وهران كانت مفترق طرق للتجارة المغربية والمشرقية، فالطريق البحرية الرابطة بين بلاد افريقية وبلاد المغربين الاوسط والاقصى كانت امتداداً للطريق البحري نحو المشرق، حيث أن عبد الواحد

٢/٤-المسالك المائية الخارجية

يذكر الحبيب الجنحاني أن الدولة الرستمية لم يكن لها منفذ بحري سوى ميناء تنس، لكون الموانئ الشرقية كانت تحت سيطرة الدولة الأغلبية (الجنحاني، ١٩٧٨: ١٩)، لكن المصادر تؤكد أن البضائع الرستمية كانت تشحن أيضا من ميناء مرسى الدجاج ومرسى الخرز. توجد طريق تجارية كانت تربط تيهرت بعدة موانئ على الساحل المتوسطي الأوسط منها: مرسى فروخ، ومرسى الخرز ومرسى الدجاج، وربما مدينة وهران. وميناء تنس للتواصل مع قرطبة الأموية وموانئ الأندلس. كما أن وهران كانت على صلة مباشرة بميناء ألمرية الأندلسية وعدة مدن ومراسي أندلسية أخرى كالطريق الرابط بين المرسى الكبير بوهران ومرسى أشكويرش، والآخر الذي يربط وهران بميناء المنكب (خلوط، ٢٠٢١، ٢٠٤).

رابعاً: علاقات الرستميين بالأمويين في الأندلس

من الملاحظ أن ارتباط حيوية الواجهة البحرية للمغرب الأوسط بالنشاط الأندلسي أخذت تزداد منذ النصف الأول من القرن الثالث الهجري، وبلغت الذروة في القرن السادس عهد الموحدين (خليفة، ٢٠٠٩، ١٣٨). وقد أرجع بعض المؤرخين بداية هذه العلاقات إلى وقت مبكر وذكروا أن عبد الرحمن بن معاوية الأموي لما قدم من المشرق فاراً من بطش بني العباس؛ لاذ ببلاط بني رستم حيناً من الدهر، قبل اجتيازه إلى الأندلس. وأكد مرسية-اعتماداً على المقرئ- أنه قضى زمناً في تيهرت ونواحيها قبل رحيله إلى الأندلس في حدود سنة ١٣٨هـ، في حين ينفي محمود اسماعيل عبد الرزاق ذلك تماماً بدليل أن عبد الرحمن بن رستم لم يؤسس دولته في تيهرت بعد، وقد كان آنئذ في القيروان سنة ١٤١هـ، لما مرّ الأمير الأموي ببلاد المغرب سنة ١٣٣هـ (عبد الرزاق، ١٩٨٥: ٢٠٤).

عقد بنو رستم مع أمويي الأندلس أواصر الصداقة والود، وتبادل السفارات والهدايا، كما أوثقوا صلاتهم ببني مدرار وبباضية المشرق لما جمعهم من وحدة المذهب الديني والمصير السياسي... ولم ينجزوا

أعداءهم من العباسيين والأغلبية والأدارسة إلا بما تقتضيه ضرورة الدفاع، بل أحياناً كانوا يغضون الطرف عن أطماع جيرانهم في أطراف الدولة، فلم يحركوا ساكناً حين ضمّ الأدارسة تلمسان وما حولها وسلخوها عن نفوذ تيهرت (الرازق، ١٩٨٥: ١٨٤-٢٠٣).

من الأسباب التي دفعت بأمرأ بني أموية إلى توطيد علاقتهم بالرستميين أنه لم يعد أمامهم من منفذ في بلاد المغرب سوى المغرب الأوسط، لأن المغرب الأدنى قامت فيه دولة الأغلبية الموالية للعباسيين، أما الأقصى فقد كان فيه الأدارسة الذين كانت سياستهم تجاه الأمويين يسودها العداء والحذر والتربص (سالم، ١٩٨١: ٥٦٩) لذلك كانت الأبواب موصدة في وجهها، سوى الرستميين الذين صاروا بمثابة الشريان الحيوي الوحيد الذي بإمكانه أن يمد الإمارة الأندلسية بالحياة ويتعاون معها سياسياً واقتصادياً وحضارياً.

قام الرستميون بدور الوسيط التجاري في نقل منتجات الأندلسيين وتصريفها في بلاد السودان ومصر والمشرق، وهذه التسهيلات كانت بعد عدة مراسلات وعقد معاهدات-لم تصلنا، لعلها أحرقت مع ما أحرقت في مكتبة المعصومة-، وهو ما يؤكد تردد بعض الرستميين والأندلسيين على مجال البعض الآخر...وقد كانت الدولة الرستمية الوحيدة القادرة على فك عزلة الأندلسيين اجتماعياً واقتصادياً، لتصبح قوة الاقتصاد الرستمي سنداً للإمارة الأموية في عمليات الاستيراد والتصدير، وتزويدها بكل حاجاتها.

وهذا لا ينفي القلاقل التي ظهرت في الأندلس إثر ازدياد نفوذ بني رستم فيها حتى صار منهم ولاية مثل: محمد بن سعيد بن رستم الذي تقلد ولاية شنونة، ومحمد بن عبد الرحمن بن رستم وقد خدم في جند الحكم بن هشام، مما استثار الأندلسيين زمن الحكم الأول، فانبرى الشعراء يهيبون به البطش بهم، فخرج إليهم بنفسه ونزل الجزيرة وحمل السيف على أكثر أهلها (عبد الرزاق، ١٩٨٥: ٢٠٥)، وزالت الفجوة بين تيهرت وقرطبة بعد وفاة الحكم سنة ٢٠٦هـ/٨٢١م، فقد أوفد عبد الوهاب الرستمي سفارة مع أبنائه الثلاثة: عبد الغني ودحيون وبهرام، لتجديد أواصر الود مع الخليفة عبد الرحمن بن الحكم (٢٣٨-٣٠٦هـ) الذي رحب بهم

وجدنا الأمراء الأمويين يهادنون الرستميين ويتوددون إليهم.

وكانت غلال تيهرت تسهم في حل الأزمات الاقتصادية بالأندلس (عبد الرازق، ١٩٨٥: ٢٧٨)، وكثيراً ما أثر بعض التجار والحرفيين الأندلسيين الإقامة في تيهرت والعمل في أسواقها وحوانيتها، واستعمل مرسى ميناء وهران من أجل التعامل مع قرطبة وموانئها المشهورة مثل: اشبيلية والجزيرة الخضراء وبلنسية وطرطوشة (مزرعي، ٢٠١٥: ١١٧)، مما يثبت العلاقات الوطيدة الرابطة بين بني رستم وخلفاء بني أمية بالأندلس.

كان التاهرتيون يكتالون بمدّ به خمسة أقمزة ونصف قرطبية (البكري، ٢٠٠٢: ٢٥٠/٢)، وهو تأثر واضح بأمويي الأندلس خاصة في الفترة المتأخرة، حيث كثر فائض الانتاج الذي بدأ تسويقه للخارج فكثرت الثروة في أيديهم، وظهرت طبقة ثرية ابتنت القصور، ولم يبق على بساطة وزهد الإمام الأول عبد الرحمن بظهور مظاهر الترف وهو تأثير واضح من التوجه البحري نحو قرطبة الأمويين.

لم تكن العلاقات السياسية هي كل ما يربط الرستميين بالإمارة الأموية في بلاد الأندلس، بل قامت بين الدولتين علاقات اقتصادية وثيقة، وتتمثل خاصة في المبادلات التجارية، ومما ساعد نموها تلك التسهيلات التي منحها الرستميون للتجار القادمين من الأندلس، حيث فتحت أمامهم الطريق إلى سائر العالم الإسلامي، وقد قويت العلاقة التجارية في ظل حاجة الأمويين بالأندلس إلى مختلف المنتجات وبخاصة الزراعية منها نظراً للفتن والثورات التي قامت خلال فترة هذه الدراسة، والتي حالت دون تحقيق الأندلسيين للاكتفاء الغذائي، إضافة إلى أن الأندلسيين كانوا في حاجة إلى أسواق خارجية لتصريف المنتجات الفائضة عن حاجتهم.

خامساً: مع أوروبا المسيحية (الجمهوريات الإيطالية)

من الصعوبة بمكان الحديث عن منافذ بحرية تربط موانئ بلاد المغرب الأوسط بنظيرتها في الضفة الأوربية

وأنفق عليهم ألف ألف دينار فضلاً عن الهدايا والألطفات التي أنعم بها عليهم، واستمرت العلاقات الودية بين الخليفة الأندلسي محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨-٢٧٣هـ) بعد وفاة الامام عبد الوهاب الرستمي، فوجد في ابنه أفلح كل الترحاب، وقرب الأمير الأندلسي إليه كثيرين من آل البيت الرستمي، واتخذ منهم الوزراء والحجاب والقواد، منهم: عبد الرحمن بن رستم الذي ولي الحجابة لعبد الرحمن الثاني وقيل قد ولي الوزارة، واستفاد الأمويون من خبرات رجال تسلموا مناصب عليا منهم عيسى بن شهيد ويوسف بن بخيت وعبد الله بن أمية بن زيد الذين عملوا وزراء في الدولة الأموية بالأندلس. وبذا تأثرت علاقات بني رستم إلى حد كبير بظروف دولتهم الجغرافية ومذهبهم الديني ومصالحهم السياسية والاقتصادية (الرازق، ١٩٨٥: ٢٠٦)، في حين لم تذكر المصادر أسماء تجار رستميين كانت لهم تجارات بحرية مع الأندلس أو مع غيرها من مدن ساحل البحر المتوسط. واكتفت بوصفها وصفاً عاماً.

فالرستميون صادقوا الأمويين في الأندلس ليس لأن مصالحتهم الاقتصادية مرتبطة بهم، ولكن لأن حسن الجوار من متطلبات الاسلام (بحاز، ٢٠١٩: ٢٤٤).

تحدث اليعقوبي عن مراكب تيهرت التي ترسو بميناء فروخ (اليقوبي، د.ت: ٢١) الذي يقابل موانئ شاطبة وتدمير ومرسى اقلّة الأندلسية (البكري، ٢٠٠٢: ١٨)، وهو ميناء قريب من وهران، علماً أنه قد زار المنطقة أيام الرستميين، وهنا يتساءل د. بحاز في خضم حديثه عن الجيش الرستمي: فهل تلك المراكب كانت تجارية وعسكرية؟ أم أن أسطول الأمويين بالأندلس هو الذي كان يحمي المراكب التجارية الرستمية خاصة وأنها تجارة متجهة إليهم بالذات؟ (بحاز، ٢٠١٩: ٢٦٥).

كانت السفن تترد بين مرسى وهران والمرية حاملة المتاجر والعلماء والمسافرين وقد جمعت عدة عوامل بين أمراء بني أمية في قرطبة وأئمة الرستميين في تاهرت حيث إن خطراً واحداً كان يهددهم وهو الدولة العباسية. ويعتبر أحد المؤرخين أن قيام الدولة الرستمية أطل في عمر الأمويين بالأندلس، كما أن تاهرت كانت الجسر الذي يصل دولة بني أمية في الأندلس بالشرق لذلك

سادساً: التبادل السلعي

لا يمكن فهم نشاط الميناء إلا إذا تم ربطه ببلاده الخلفية من جهة وبمجملة الاقتصاد المتوسطي من جهة ثانية (Cahen, 2014 : p. 361). فميناء وهران وبقية الموانئ تدب الحياة فيها عن طريق تيهرت وما تدره عليهم وتتدفق عليها من البضائع والسلع، وتوقفها عن الضخ يعني الشلل التام في الميناء.

فتح الرستميون الموانئ التابعة لهم في كل من تنس، ومرسى فروخ ووهران لاستقبال البضائع الأندلسية ولا سيما المنسوجات الحريرية، كما قاموا بدور الوسيط في نقل هذه المنتجات وتصريفها في بلاد السودان ومصر وبلاد المشرق الأخرى، كما أن الرستميين كانوا يزودون الأندلسيين بسلع مختلف كانوا في حاجة إليها وبخاصة المنتجات الزراعية والعييد، وبذلك أصبحت الدولة الرستمية سنداً قوياً للإمارة الأموية في عمليات التصدير والاستيراد، وتزويدها بكل ما تحتاج إليه، ونتج عن ذلك نشاط الأساطيل التجارية الأندلسية، وازدهار المدن والموانئ الرستمية والأندلسية على حدّ سواء (بوابية، ٢٠٠٥: ٣٨٥).

ونقل الرستميون تجارتهم إلى الأندلس واتصلوا بموانئها الهامة بمختلف السلع والبضائع كالقمح والعاج والجلود المصنعة القادمة من السودان وغانة مثل: شاطبة وتدمير ومرسى أفلة، كما استقبلوا التجار الأندلسيين في بلادهم (البكري، ٢٠٠٢: ٢٥٠/٢).

كان الذهب والرقيق ينقل بضاعة إلى الأندلس عبر مرفأ وهران وغيرها (لومبارد: ١٩٧٩، ٨٢) «والذي يجيء من البحر الغربي الخدم الصقالب والروم والافرنجيون واللمبرديون والجواري الروميات والأندلسيات وجلود الخز والوبر، ومن الطيب الميعة، ومن الصيدنة المصطكى، فضلا عن الديباج، والفراء والسمور والسيوف». (خردادبة، ١٨٨٩: ١٥٣).

عرف المجتمع الوهراني حياة الرخاء بفعل التجارة مع السودان والتجارة البحرية مع الأندلس أو بسبب وفرة الماشية والمنتجات الزراعي (بحاز، ٢٠١٥: ٢٥٦)، وإن كانت الاسكندرية في المشرق فوهران هي اسكندرية المغرب. وذكر صاحب الاستبصار أن مدينة تنس ووهران كان

في القرنين ٢ و ٣ هـ (Valérian, 2022 : p. 88)، فجّل المصادر تتحدث عن ذلك بدءاً من القرن الرابع والخامس الهجري، أي جاءت بنصوص متأخرة مرحلياً عن فترة الرستميين، ما عدا اليعقوبي الذي زار المنطقة بين ٢٦٣-٢٧٦ هـ. ولم تذكر علاقات تجارية واضحة المعالم بين الضفتين، فمن المبكر إذن الحصول على معلومات عن خطوط بحرية مغرب-أوروبية في القرون الثلاثة الأولى للهجرة. فتجارة جنوى وبيزا مع سواحل المغرب الأوسط غير معروفة جيداً قبل منتصف ق٦هـ/١٢م (عمارة، ٢٠٠٨: ١٤٤).

يصعب تحديد تاريخ بداية العلاقات التجارية بين أوروبا وبلدان المغرب الاسلامي لأن المصادر التاريخية لا تهتم بالموضوع، ويكتفي الباحثون بالتعميم وذكر فترات تقريبية، وعند الاعتماد على النتائج التي توصل إليها هؤلاء يمكن القول إن المسيحيين في بعض المدن الإيطالية بدأوا يحتكون بالمسلمين في المدن الساحلية بالحوض الغربي للبحر المتوسط منذ القرن الرابع الهجري أي في نفس الفترة التي انتظمت فيها حركة التبادل التجاري بين بلدان المغرب والسودان الغربي. وأن مشاهدة سفينتين تابعتين للبندقية في المهديّة وثالثة في طرابلس سنة (٣٦١هـ/٩٧١م) لدليل على أن سفن بلاد الروم قد وصلت إلى موانئ بلاد المغرب (يوسف، ١٩٩٢: ٢٣٤).

لم تذكر المصادر تفاصيل التجارة بين بني رستم وأوروبا، لا من حيث المدن التي كانت تتاجر معها ولا من حيث أنواع السلع والبضائع المتاجر بها، لكن يمكن التقدم زمنياً إلى القرن السادس والسابع والثامن الهجري وقراءة نصوص بعض الرحلات الذي قام بها الرحالة لنقف على ذلك، ولا يبدو أن الأمر قد تغير كثيراً.

ولعل ما ذكرته المراجع من عمليات التبادل التجاري بين الضفتين الاسلامية والمسيحية ما بعد القرن الرابع الهجري، هو نموذج لما كانت عليه التجارة الرستمية مع الجمهوريات الإيطالية، ولا نعتقد أن حجم التبادل التجاري في القرن الثاني والثالث الهجري، كان على نفس المنوال بدءاً من القرن الرابع الهجري وما بعده. إذ من المجازفة الحديث عن رواج التجارة بينهما، ما لم تظهر وثائق جديدة تثبت ذلك.

خاتمة

تمثلت مدينة وهران بوابة الدولة الرستمية الاقتصادية ومنفذها البحري الرئيس على ساحل البحر المتوسط نحو مختلف الوجهات كالأندلس وغيرها، وكانت بمثابة مفترق طرق بري وبحري يربط الشمال الاوربي بالشرق الأغربي والغرب الادريسي والجنوب السوداني. وقد بدأت كمرسى يرتاده التجار من مختلف الجهات، ثم صار مرسى ومدينة منذ سنة ٢٩٠هـ، ورغم الفترة القصيرة التي عاشتها كمدينة وميناء تحت الحكم الرستمي إلا أنها عرفت حيوية تجارية خارجية ضاهت بها نظيراتها على الساحل المتوسطي.

تنوعت البضائع المصدرة عبر ميناء وهران فقد شملت الرقيق والذهب وأنواع الماشية والمحاصيل الزراعية والصناعات وغيرها، كما استقبل العديد من المواد والبضائع الأندلسية، إذ كان نقطة استيراد وتصدير للعاصمة تيهرت. ولعل الاستقرار الأمني والتسامح المذهبي المؤدي إلى التعايش بين مختلف الأطياف الإسلامية وغيرهم من أهل الذمة الذي شهدته الدولة الرستمية طيلة حكمها، شجع كثيراً التجار من مختلف الجنسيات لارتداد مينائها الرئيس وأسواقها الداخلية.

وضع الأمويون الثقة الكاملة في بني رستم رغم الاختلاف المذهبي والعنقي، الذي لم يمنع من تدفق السلع بين الجانبين فضلا عن تبادل الهدايا والزيارات، فقد ارتبط الجانب السياسي بالجانب الاقتصادي بينهما أيما ارتباط، وذلك لاشتراكهما في الأعداء التقليديين لهما من بني الأغلب والأدارسة.

يمكن للباحثين التوسع كثيراً في جزئيات عديدة واردة في البحث، وما تم تقديمه سوى غيض من فيض الجانب الاقتصادي للدولة الرستمية على الوجهة البحرية وفي ميناء وهران على وجه الخصوص، إذ ندعو للبحث في دور باقي المدن الساحلية منها والداخلية التي تبقى مغمورة رغم قلة المعلومات عنها إلا أنه يمكن الوقوف على ذلك من خلال مختلف المصادر الجانبية مثل كتب الفقه، والنوازل، والتراجم، وغيرها.

يحمل منهما الكثير من المواد الغذائية إلى سائر مدن المغرب وإفريقية. غير أنه لم يصرح بنوعيتها وأصنافها. وخلاصة القول، أن حركة التبادل التجاري انتعشت في هذه المرحلة التاريخية بشكل واسع بين مختلف مدن بلاد المغرب، إذ غالباً ما كان يستورد التجار ما تفتقر إليه أسواق مدنها، ويصدرون ما فيض من حاجة السكان سواء كان داخل الإقليم الواحد أو الأقاليم الأخرى، متحدين في ذلك جميع المعوقات، التي كثيراً ما كانت تسبب في عرقلة تحركاتهم من اضطرابات وثورات وضرائب.

البيبلوغرافيا:

المصادر (كتب ومقالات):

- الإدريسي أبو عبد الله محمد. (٢٠٠٢). **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.
- الإصطخري أبو إسحاق. (١٩٢٧). **كتاب مسالك الممالك**. ليدن: مطبعة بريل.
- البكري أبو عبيد عبد الله. (٢٠٠٢). **المسالك والممالك**. بيروت: دار الكتب العلمية.
- ابن خرداذبة أبو القاسم عبيد الله. (١٨٨٩). **المسالك والممالك**. ليدن: مطبعة بريل.
- ابن خلدون عبد الرحمن. (٢٠٠١). **المقدمة**. بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
- ابن الصغير. (١٩٨٦). **أخبار الأئمة الرستميين**. بيروت: دار الغرب الاسلامي.
- المراكشي عبد الواحد. (١٩٤٩). **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**. القاهرة: مطبعة الاستقامة.
- النصبي أبو القاسم بن حوقل. (١٩٩٢). **كتاب صورة الأرض**. بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة.
- اليقوي أحمد بن واضح. (د.ت). **البلدان**. بيروت: دار الكتب العلمية.

المراجع (كتب ومقالات):

- أرشيبالد لويس. (د.ت). **القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط**. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.
- بحار إبراهيم. (٢٠١٥). **الدولة الرستمية**. (١٦٠-٢٩٦هـ/٧٧٧-٩٠٩م) دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية. الجزائر: وزارة الشؤون الدينية والأوقاف.
- بحار إبراهيم. (٢٠١٩). **الدولة الرستمية-دراسة في النظم والمجتمع**. الجزائر: مؤسسة كتابك.
- بوابية عبد القادر. (٣١ أكتوبر، ٢٠٠٥). **علاقة الرستميين بالإمارة الأموية في الأندلس**. التراث العربي، الصفحات ٣٩٢-٣٨١.
- جيوه مريم. (٢٠٠٨). **التجارة في بلاد إفريقية وطرابلس الغرب خلال العهد الموحد والحفصي**. (٩٨٠-١٥٧٢-١١٦٠م). الزقازيق: كلية الآداب جامعة الزقازيق.
- الجنحاني الحبيب. (١٩٧٨). **المغرب الإسلامي-الحياة الاقتصادية والاجتماعية**. تونس: دار التونسية للنشر.
- جودت عبد الكريم يوسف. (١٩٩٢). **الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين**. (٩٠١-٩٠٠م). الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
- الجيلالي عبد الرحمن. (١٩٨٤). **تاريخ الجزائر العام**. لبنان: منشورات دار مكتبة الحياة.
- خلوط أسماء. (٢٠٢١). **الموانئ ودورها في العلاقات التجارية بين المغرب الأوسط والأندلس من ٦٠٠-٩١٢هـ/١٢٠٠-١٤٩٢م**. تيارت: جامعة ابن خلدون.
- خليفة رفيق. (٢٠٠٩). **الأندلسيون وتنشيط حركية الواجهة البحرية للمغرب الأوسط**. مخابر البناء الحضاري للمغرب الأوسط.
- السيد عبد العزيز سالم. (١٩٨١). **تاريخ المغرب الكبير**. بيروت: دار النهضة العربية.
- عبد الحميد سعد زغلول. (١٩٨٠). **تاريخ المغرب العربي** (المجلد ٢). الاسكندرية: منشأة المعارف.

- عبد الرازق محمود إسماعيل. (١٩٨٥). **الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري**. الدار البيضاء: دار الثقافة.
- عبد العزيز رشيد. (٢٨ ديسمبر، ٢٠٢١). **الازدهار الاقتصادي ودوره في التطور العمراني والتركز السكاني في مدن المغرب الأوسط تيهرت نموذجا**. مجلة قضايا تاريخية، الصفحات ٦٤-٤٧.
- عشي علي. (٢٠١٧). **التوجه البحري للمغرب الأوسط وأثره في طرق التجارة والمواصلات**. (١٠٢-١٠١هـ/٨٠٠-٨٠١م). باتنة: جامعة باتنة ١.
- عمارة علاوة. (٢٠٠٨). **دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر والغرب الإسلامي**. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
- عناوي محمد. (١٩٨٨). **المدن الساحلية في منطقة المغرب العربي الوسيط إلى حدود القرن الرابع الهجري**. الدار البيضاء: منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية.
- كروم عيسى. (ديسمبر، ٢٠١٦). **إمارات بني سليمان في المغرب الأوسط بين الوجود والنسيان**. (١٧٢-٣٤٢هـ/٧٨٨-٩٥٣م). مجلة كان التاريخية، الصفحات ١٤٧-١٣٧.
- كروم عيسى. (١٢، ٢٠٢٢). **تلمسان إمارة سليمان (١٧٢/٣٤٢هـ - ٧٨٨/٩٥٣م)**. مجلة روافد للدراسات والبحوث العلمية في العلوم الاجتماعية والانسانية، الصفحات ٩٩٣-١٧٠.
- لومبارد موريس. (١٩٧٩). **الجغرافية التاريخية للعالم الإسلامي خلال القرون الأربعة الأولى**. دمشق: دار الفكر.
- ليفيتسكي تاديوس. (٢٠٠٨). **دراسات شمال إفريقية**. عمان: مكتبة الضامري للنشر والتوزيع.
- مزرعي سمير. (جوان، ٢٠١٥). **الطرق التجارية في المغرب الأوسط ودورها في تنشيط الحركة التجارية**. مجلة كان التاريخية، الصفحات ١٢٨-١١٧.
- مقدش محفوظ. (١٩٨٨). **نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار**. بيروت: دار الغرب الاسلامي.
- الميلي مبارك. (١٩٨٩). **تاريخ الجزائر في القديم والحديث**. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
- النوري نور الدين. (٢٠١٨). **المغرب الأوسط أيام بني رستم-دراسة في التاريخ والتأثر**. تونس: كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية.

المراجع الأجنبية

- Cahen, Claude. (2014, juin 12). Quelques mots sur le déclin commercial du monde musulman à la fin du Moyen Âge. UMIFRE, pp. 359-366.
- Valérien, Dominique. (2022, janvier). Réseaux d'échanges et littoralisation de l'espace au Maghreb. Cahier de civilisation médiévale, pp. 87-105.

صيد الأسماك في الأندلس

دراسة في الأبعاد الاقتصادية والاجتماعية

أ.د. قاسم عبد سعدون الحسيني

رئيس قسم التاريخ

كلية التربية للعلوم الإنسانية

جامعة ذي قار - جمهورية العراق



ملخص

قبل الخوض في تفاصيل الموضوع لابد من التنويه والقول أن قلة المادة المصدرية التي تناولت الموضوع ألقت بظلالها على الدراسة. إذ جاءت هذه الدراسة لتسلط الضوء على موضوع لم تتناوله أعلام الباحثين والمهتمين بالدراسات الأندلسية بشكل كبير، والمتمثل بصيد الأسماك في الأندلس، حيث تمتعت بلاد الأندلس بموقع جغرافي مهم كونها تطل على ثلاث مسطحات مائية، وأنهاراً داخلية تخترق أراضي الأندلس وتكثر فيها، الأمر الذي انعكس إيجاباً في وفرة الثروة السمكية في المياه التي تحيط بالأندلس، وقد استخدم الأندلسيون طرائق وأساليب بسيطة لصيد الأسماك تختلف حسب طبيعة الأفراد الممارسين لعملية الصيد فانتعشت الثروة السمكية وكثر الصيد وتوفرت الأسماك بكميات كبيرة وأصبحت مورد اقتصادي مهم يدر أموالاً طائلة على من يمتحن هذه المهنة حيث عرف الأندلسيون الصيد النهري والبحري، وكذلك عملوا على تربية الأسماك في بحيرات قصورهم، واهتموا بهذا المورد الاقتصادي المهم، وترتب على ذلك أن توفرت الثروة السمكية وتنوعت مصادرها، الأمر الذي ساهم في رفد الاقتصاد الأندلسي. وقد كان لهذا التنوع أثراً واضح في تطور الصناعات الغذائية في الأندلس، أو التجارة بها فالأسماك باعتبارها سلعة سريعة التلف خاصة عند نقلها من المناطق الساحلية إلى المناطق الداخلية الأمر الذي استوجب المحافظة على جودتها خشية تلفها لذلك استعمل الأندلسيون مادة العسل، أو الملح للمحافظة عليها دون أن تفسد. مما ساعد على بقائها طرية وساهم في وصولها إلى مناطق بعيدة. وقد انتظمت الدراسة بمقدمة وثلاث محاور أبرزها: أماكن وجود الأسماك، وأنواع الصيد، ووسائل وطرائق الصيد، وخاتمة تجلت بها أبرز النتائج التي توصلت إليها الدراسة، معتمدين على مصادر جغرافية أعانتنا في إعداد هذه الدراسة.

كلمات مفتاحية:

الأندلس؛ الصيد؛ صيد الأسماك؛ الثروة السمكية؛ الصيد النهري

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٢٣ أغسطس ٢٠٢٥
تاريخ قبول النشر: ٢٧ سبتمبر ٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.466753

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

قاسم عبد سعدون الحسيني، "صيد الأسماك في الأندلس: دراسة في الأبعاد الاقتصادية والاجتماعية"، - دورية كان التاريخية - السنة الثامنة عشرة - العدد الثالث والسبعون: نوفمبر ٢٠٢٥. ص ٦٨ - ٧٨.



X, formerly Twitter: <http://X.com/kanhistorique>

Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>

Facebook Group: <https://www.facebook.com/groups/kanhistorique>

Corresponding author: Ukm_2012@yahoo.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في جُوبية كان 4.0 International License (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

حول هذا الموضوع قال فيه: (والأندلس في ديوان العجم جزيرة خصبة مخصوصة بكثرة البر والبحر، وأنواع الفواكه والنعم،...، كثرة الصيد من الوحش والطير والحوث...) ^(٤). أما ابن الخطيب فلم يفته أبداً هذا الأمر وهو يتحدث عن مفاخر الأندلس لا سيما مفاخر مدينة غرناطة وما تحتويه من ثروة سمكية كانت تشغل جزءاً من اقتصادها فذكر أن في مالقة ^(٥) حيتان مرتزقة في كل حين ^(٦)، مما يرجح وجود سوق خاصة لبيع السمك والتجارة به. كذلك ذكر المقرئ نصاً مهماً عن الثروة الحيوانية في الأندلس يحوي قائمة بأسماء الحيوانات وكان السمك يتصدرها. ^(٧)

أولاً: أماكن وجود الثروة السمكية في الأندلس

تتواجد الاسماك في الأندلس وتحديدًا في المسطحات المائية فمنها ما يعيش في الأعماق ومنها ما يعيش قريباً من السطح ومنها ما يعيش في اتصال بينهما، وتستمر حياة أصناف الأعماق من الاسماك بنمو أكثر بطئاً وبقدرة تكاثرية ضعيفة، وتقوم بهجرات موسمية تصل فيها إلى مناطق صيدها، وقد حظيت مياه البحر المتوسط بأصناف كثيرة من الأسماك، ذلك لأن البيئة المتوسطية تُعد بيئة ملائمة لتكاثر الاسماك البحرية، وتُصنف الأسماك: مستقرة ومهاجرة وقشريات ومرجان متشعب، والصفات الأساسية للأسماك المستقرة هي العيش طول العام تقريباً في نفس المناطق وبالتالي الاحتفاظ بنمط معيشي مستقر إلى حد ما، أما الاسماك المهاجرة فأنها تقوم بأسفار طويلة في البحر ولا تظهر بجوار السواحل إلا في بعض الأوقات، لذلك يكون صيدها موسمياً لاسيما في وقت الربيع، أما القشريات فأنها تصطاد موسمياً هي الأخرى، وينطبق ذلك على المرجان أيضاً ^(٨).

أمتن الأندلسيون مهنة صيد الأسماك ومارسوها بطرائق شتى حسب الأمكنة والأزمنة، لا سيما في مياه البحر المتوسط، علماً أن ظروف الملاحة في المنطقة الغربية للبحر المتوسط لا تلائم النشاط الإنساني بكامل جهاتها، إذ لم يتأثر هذا الجزء من البحر بدخول المياه الأطلنطية عبر مضيق جبل طارق، أو المؤثرات القادمة

ذكر ابن خلدون ^(١) أصناف المعاش قائلًا: (أعلم أن المعاش هو عبارة عن ابتغاء الرزق والسعي في تحصيله وهو مغفل من العيش. كأنه لما كان العيش الذي هو الحياة لا يحصل إلّا بهذه جعلت موضعاً له على طريق المبالغة ثم إن تحصيل الرزق وكسبه: إما أن يكون بأخذه من يد الغير وانتزاعه بالاعتدار عليه على قانون متعارف ويسمى مغرمًا وجباية، وإما أن يكون من الحيوان الوحشي بافتراسه وأخذه برمييه من البر أو البحر ويسمى اصطليداً، وإما أن يكون من الحيوان الداجن باستخراج فضوله المنصرفة بين الناس في منافعهم كاللبن من الأنعام والحريز من دوده والعسل من نحله، أو يكون من النبات في الزرع والشجر بالقيام عليه وإعداده لاستخراج ثمرته ويسمى هذا كله فلحاً، وإما أن يكون الكسب من الأعمال الإنسانية إما في مواد معينة وتسمى الصنائع من كتابة وتجارة وخطاطة وحياسة وفروسيّة وأمثال ذلك أو في مواد غير معينة وهي جميع الامتهانات والتصرفات، وإما أن يكون الكسب من البضائع وإعدادها للأعواض، إما بالتغلب بها في البلاد واحتكارها وارتقاب حوالة الأسواق فيها، ويسمى هذا تجارة فهذه وجوه المعاش وأصنافه).

تبعاً لما تقدم تُعد الثروة السمكية مصدراً من مصادر المعاش لا بل هي رافداً هاماً من روافد الثروة الحيوانية في الأندلس، وذلك لوفرة الأسماك، وما لهذا الأمر من دور كبير في رفد الاقتصاد الأندلسي، إذ كان لموقع الأندلس الجغرافي وإحاطتها بالمسطحات المائية ووقوعها على البحر المتوسط من جهة والمحيط الأطلنطي من جهة أخرى سبباً رئيساً في انتعاش الثروة السمكية، حيث انتشرت مصائد الأسماك على طول السواحل: الشرقية، الجنوبية والغربية، إضافة إلى الأنهار الداخلية في البلاد ^(٢). ونظراً لتعدد مصادر المياه فقد عُرفت الثروة السمكية في الأندلس أنواعاً متعددة من الأسماك منها البحرية ومنها النهرية ^(٣).

تفاخر الصيادون الأندلسيون بكثرة ما كانوا يصطادونه من السمك الأمر الذي تؤكد المصادر التاريخية حيث ذكر صاحب كتاب تاريخ الأندلس نصاً

الخاصية أنَّ حوته أطيب حوت يؤكل في الأندلس^(٤٠)، وفي أشبيلية^(٤١) كانت مياه نهر الوادي الكبير تحوي ما لا يحصى من أنواع السمك^(٤٢)، من أشهرها البوري والشابل^(٤٣)، وهذه إشارة لا تدل على الكثرة في النوع فقط، بل وفي الكم^(٤٤). كذلك اشتهرت شلوبينيه بوفرة السمك ووصفت بأنَّ سمكها أكثر من رملها^(٤٥)، على حد تعبير ابن الخطيب إذ قال (حوت هذه السواحل أغزر من رمله...) ^(٤٦).

كذلك اشتهرت مدينة مالقة بوجود نوع من السمك يُطلق عليه اسم الرعاد وهي سمكة عريضة لون ظاهرها لون رعاد مصر سواء، وباطنها أبيض، وفعلها في تخدير ماسكها كفعل رعاد مصر، أو أشدَّ إلا أنها لا تؤكل، وقد كان سكان مالقة يعتقدون بها معتقدات خاصة يضمنون بها استمرار العلاقات الزوجية فإذا علقت المرأة شيئاً من الرعاد عليها لم يطق زوجها البعد عنها، وكذلك أنَّ علق منها الرجل عليه لم تكد المرأة أن تفارقه ^(٤٧). ولعلَّ هذا الاعتقاد لا صحة له، لكن آمن سكان مالقة به ظناً منهم أنَّ هذا النوع من السمك يؤدي إلى توطيد العلاقة الزوجية واستمرارها ويُحقق السعادة بين الزوجين.

ثانياً: أنواع الصيد

١/٢- الصيد البحري

قال الله سبحانه وتعالى في محكم كتابه العزيز: ﴿أَحْلَلْ لَكُمْ صَيْدَ الْبَحْرِ وَطَعَامَهُ مَتَاعاً لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمَّتْ حُرُمًا﴾ ^(٤٨)، ونظراً لإحاطة الأندلس بالمسطحات المائية من ثلاث جهات أنتعش الصيد البحري فيها حيث اشتهرت مدينة باجة بوفرة الثروة السمكية وسمكها من نوع يُعرف بحوت البوري ليس له في الأوقات نضير يخرج من حوت واحد عشرة أرطال شحم أو أكثر ^(٤٩)، وقد أستخدم دهن هذا الحوت في إضاءة المصابيح ^(٥٠)، ويُذكر أن هذا الحوت يخرج في شهر أغسطس من البحر إلى النهر فيكثر صيده ^(٥١).

كذلك اشتهرت مدينة بزليناه بصيدها البحري حيث يُصاد بها الحوت الكبير ويحمل منها إلى الجهات المجاورة لها ^(٥٢). ولعلَّ كثرة صيد هذا الحوت ونوعيته الجيدة تدل على وجود سوق خاص به إذ لا غرابة أن تتم

من حوضه الشرقي رغم ذلك مارس الصيادون الأندلسيون مهنة الصيد في هذا الجزء البحري واصطادوا أنواعاً متعددة من الأسماك ^(٩).

أصطاد الأندلسيون السمك في سواحل: أشبونة^(١٠)، وشواطئ جزيرة شلطيش^(١١)، واكشونية^(١٢) حيث اشتهرت بكثرة صيدها في البر والبحر^(١٣) حيث العنبر^(١٤) الطيب^(١٥)، ويتواجد أيضاً في سواحل شنترين^(١٦) وشدونة^(١٧) بكميات كبيرة جداً إذ يقذفه البحر إلى ساحله في بعض الأوقات فيحمل منه إلى سائر البلاد^(١٨) الأمر الذي أكده ابن غالب^(١٩) بالقول: (ويلقى بريف أشبونة العنبر الفالق المتاهي كثيراً وهو يفوق كل عنبر ولا يشبهه إلا الهندي). لم يقتصر وجود العنبر على ما ذكر، بل وجد في مدينة شلب^(٢٠) أيضاً، إذ يخرج من سواحلها من البحر المحيط^(٢١).

اشتهرت بعض مدن الأندلس بشواطئ كبيرة عُرفت بوجود سمك الحوت الكبير، حيث اشتهرت شواطئ التن^(٢٢) بوجود حوت كبير يفوق حوت البحر كله في لذته^(٢٣). وكذلك شواطئ المنكب^(٢٤)، حيث الحوت الكبير^(٢٥). أما شواطئ بزليناه^(٢٦) فيصطاد بها الحوت بكميات كبيرة جداً^(٢٧). وإلى جانب ما ذكر اشتهرت شواطئ شدونة بحوت التن الشهير^(٢٨)، أما مدينة مـربـلة^(٢٩)، فأنها اشتهرت بسردينها الممتاز وحوتها السمين^(٣٠).

لم تكن الثروة السمكية في الأندلس مقتصورة على مياه البحار والمحيطات، بل كان للأنهار الداخلية نصيب وفير منها فقد انتشرت الأسماك في نهر: أييرو^(٣١)، والوادي الكبير^(٣٢) حيث يوجد فيه السمك والحيتان الغليظة^(٣٣)، وقد خص المقري هذا النهر بالقول: (أنه ليس في الأرض أتم حسناً من هذا النهر، يضاهي دجلة والفرات والنيل، تسير فيه القوارب للنزهة والصيد، تحت ظلال الثمار وتغريد الأطيار^(٣٤) [الطيور] وفيه من أنواع السمك ما لا يحصى، وبالجمله فهي قد حازت البر والبحر^(٣٥)).

كذلك وجد السمك في شواطئ طرطوشة^(٣٦)، وشواطئ يانه^(٣٧) حيث السمك الكبير ذات اللون الأصفر^(٣٨)، ونهر أطرية الموجود في قرطبة^(٣٩)، إذ له من

الصدد اشتهرت مربلة بصيدها البحري المتمثل بصيد الحوت وسردينها الممتاز وحوتها السمين.^(٦٠)

أن حرارة مياه المحيط الأطلنطي وملوحتها متغيرة إذ تلتقي هذه المياه مع مياه البحر المتوسط عن طريق مضيق جبل طارق مع وجود نباتات بحرية، كل ذلك ساعد بأن تكون مياه الساحل الأطلنطي من أغنى مناطق العالم بالأسماك.^(٦١)

ونظراً لوفرة الأسماك في الأندلس خص الأندلسيون السمك والحوت بأمثال حيث قالوا: (إذا رأيت البلبين أبشر بالمشكل)^(٦٢)، والبلين أو البلية هي كلمة مرادفة لكلمة قيطوس التي تكتب أحياناً قيطس cetus، وهي لفظة يونانية تعني الحوت أو البلية أو دابة البحر^(٦٣). وكذلك قالوا: (بجل شابل، دم على خد)^(٦٤)، وقالوا: (بجل صلباح، ماي موت حتى يُذبح)^(٦٥)، وأيضاً قالوا: (المول أسم يقتول).^(٦٦)

٢/٢- الصيد النهري

عُرف الأندلسيون الصيد النهري وعملوا على تربية الأسماك في بحيرات قصورهم، واهتموا بهذا المورد الاقتصادي المهم، وترتب على ذلك أن توفرت الثروة السمكية وتنوعت مصادرها، الأمر الذي انعكس على تنوع الأسماك في الأندلس. فمن أنواع السمك المشهور في الأندلس هو: الترحته^(٦٧) ويوجد في نهر أييرو^(٦٨)، الشابل، الصلباخ، المول والشول ومن أنواع الحيتان أيضاً البوري^(٦٩) والشوري ويكثر وجودها في طرطوشة.^(٧٠)

أهتم حكام بني أمية في الأندلس بالثروة السمكية، إذ كانوا يستمتعون بالصيد ويتخذونه وسيلة للمتعة والترفيه عن النفس إذ جاء في الأثر الروائي أن الأمير عبد الرحمن الداخل (١٢٨-١٧١هـ / ٧٥٥-٧٨٧م)^(٧١)، كثيراً ما كان يخرج للصيد لا سيما في مرسى المنكب حيث المصائد والسمك الوفير.^(٧٢) كذلك كان الأمير عبد الله بن محمد (٢٧٥-٣٠٠هـ / ٨٨٨-٩١٢م)^(٧٣) كان يصيد السمك في نهر قرطبة فأراد الخروج للصيد وعهد إلى خاصته وحرسه إلا يسمحوا لأي أحد جواز قنطرة النهر.^(٧٤)

التجارة بهذا النوع، وأن يشكل مورداً اقتصادياً مهماً للصيد الأندلسي.

كذلك اشتهرت منطقة ساحل شذونة بتوافر الحوت من نوع التّن الشهير^(٥٣) ويبدو أن مياه شذونة انفردت وحدها بوجود هذا النوع من الحوت دون تواجده في مياه أخرى، حيث يظهر في أول شهر مايو ويخرج من البحر المحيط فيدخل إلى البحر المتوسط فيُصاد مدة ظهوره والتي هي أربعين يوماً، ثم لا يظهر إلى مثل ذلك الوقت من العام الآخر.^(٥٤) وبخصوص هذا النوع من الحوت ذكر الزهري أنه حينما ينقطع البحر فيصير خلجاناً كثيرة وذلك لارتفاع كرة الأرض وفيها يظهر الحوت المسمى بالتّن، ويصل إلى بلاد الأندلس وإلى جزيرة أقریطش، وهذا الحوت أسرع ما يكون جرياً في البحر، إذ يقطع مسافة ١٤٠٠ فرسخاً من نقطة انطلاقه إلى نقطة وصوله في يوم وليلة، ولا يخرج إلا في أول يوم من شهر مايو، ويبقى طول هذا الشهر ثم يرجع في أول يونيو إلى موضعه، وعند أول خروجه يُصطاد في بلاد الأندلس في الموضع المسمى بالقتنبك، وحينما يرجع في أول شهر يونيو فيُصاد بالموضع المسمى بطرف الفخ وهو طرف الجبل المسمى بجبل طارق فما دخل منه في حوز مربلة أخذ بالشباك، وما وصل منه إلى ساحل المغرب فيُصطاد في المكان المسمى بتامسان وذلك عن طريق رماح وضع في اشنتها اجنحة بارزة تُرشق في حوت التّن، ولا تخرج وفي أطراف عصيها حبال طوال.^(٥٥)

أما من يفلت من الصيد فإنه يصل إلى موضعه الذي يخرج منه ويبقى إلى عامٍ ثانٍ، فيخرج مرة ثانية هكذا دأب هذا الحوت على طول الدهور والأعوام^(٥٦)، يتميز حوت التّن بجسم ضخم، أزرق صلب، يبلغ طوله ما بين المتر وثلاثة أمتار ووزنه يتراوح بين الـ ٧٠ و ٣٠٠ كيلو غرام، وليس في البحر حوت أسمن، ولا أطيب منه، ولا يؤكل في معمور الأرض طرياً إلا في الأندلس وقد يُببس ويُدخر ويجلب إلى جميع أقطار الأرض يابساً، وقد يُصطاد أيضاً بطول هذا الشهر في الموضع المحصور ما بين مدينة دانية^(٥٧) وسواحل الأندلس^(٥٨). وفي هذا الإطار يبدو أن الصيادين الأندلسيون كانوا على دراية بالأشهر التي تكثر فيها الأسماك مع تحديدهم للأشهر التي يكثر فيها هذا النوع من الأسماك^(٥٩). وفي ذات

لصيد الأسماك، فقد أستخدم الأندلسيون الرماح كوسيلة للصيد لا سيما تلك التي في أسنتها أجنحة بارزة تساهم في تسهيل عملية الصيد.^(٨٢)

رافقت عمليات صيد الأسماك في الأندلس حدوث بعض المشاكل بين الصيادين، لذلك حفلت بعض كتب الفتاوى والنوازل بأمور تخص هذه المشاكل، حيث ذكر في مجلد المعيار المعرب أن أبو القاسم الغبريني سأل عن جماعة صيادين يأتي أحدهم بشبكة وآخر باثنين وآخر بثلاث وأكثر فالذي له ثلاثة يأخذ سهمين، والذي له اثنتان يأخذ سهماً ونصفاً ومن له شبكة يأخذ سهماً واحداً، وهنالك قوم يعطون شباكهم لمن يصيد بها فأجاب قائلاً: (لا يجوز لمن يعطي شباكه على النصف، ولا يحل فعل الآخرين، ولا يجوز ذلك).^(٨٣)

رابعاً: تجارة السمك

أمتن الأندلسيون مهنة صيد الأسماك وتجاريتها إذ لم تكن حكرًا لفئة معينة، بل مارسها بعض فقراء وزهاد الأندلس واتخذوها وسيلة لإدراك ضحك العيش والاستغناء عن ذل المسألة^(٨٤)، فقد كان القاضي أبو بكر بن السليم^(٨٥)، يصيد السمك بنهر قرطبة ويبيع صيده فيأخذ من ثمنه ما يقتات به ويتصدق بفضله^(٨٦)، وكذلك الشيخ أبو زكريا يحيى ابن أبي علي المشهور بالزواوي^(٨٧)، أصطاد السمك متى ما أشتهى أكله فكان ينزل البحر ويصطاد ما يكفي لسد حاجته^(٨٨)، وكذلك أعتاش أبو حفص عمر بن معاذ الصنهاجي^(٨٩) على ما يصطاده من البحر لسد رمقه ورمق عياله.^(٩٠)

ازدهرت تجارة بيع السمك في الأندلس وأن قسماً من الناس أنصرف إلى صيد السمك والاتجار به فكان عمر بن حفصون^(٩١) قبل أن يعلن عصيانه على الإمارة الأموية في الأندلس يشغل بتجارة السمك ويتاجر بها^(٩٢). والبعض الآخر أخذ من صيد الأسماك حرفة لا سيما سكان السواحل الجنوبية والشرقية وسكان ضفاف الأنهار، حيث كانوا يصطادون السمك ويزودون المدن والقرى بمختلف أنواع الأسماك^(٩٣)، ومن الجدير بالذكر أن الصيد كان لا يقتصر على السمك فقط، بل لربما شمل أيضاً اللؤلؤ أو المرجان.^(٩٤)

أهتم الخليفة عبد الرحمن الناصر (٣٠٠-٣٥٠هـ/ ٩١٢-٩٦١م)^(٩٥)، بالثروة السمكية حيث ذكر في إحدى الروايات أن الناصر كان يفتت اثنا عشر ألف خبزة في اليوم كغذاء للأسماك في بحيرة قصر قرطبة^(٩٦)، وكان يُنقع لها ستة أقفزة من الحمص الأسود كل يوم^(٩٧)، وفي ذلك إشارة إلى مهنة تربية الأسماك في الأندلس. الأمر الذي يدل على اهتمام الخليفة الناصر بهذا المورد الاقتصادي المهم. كذلك يُذكر أن الناصر فرغ من إحدى غزواته سنة (٩٢٨/٥٣١٩م)، فانتقل إلى ساحل مالقة وأمضى فيه ثلاثة أيام مستريحاً تصطاد أمامه أنواع عديدة من السمك^(٩٨). تأسيساً على ما تقدم يبدو أن بعض حكام الأندلس كانوا يتخذون من صيد الأسماك وسيلة للتسلية والترفيه عن النفس وسط أجواء أمنية مشددة.

ثالثاً: طرائق وأساليب صيد الأسماك في الأندلس

لم تزودنا الروايات التاريخية بمعلومات وافية عن طرائق وأساليب صيد الأسماك في الأندلس، وكل ما عثرنا عليه هو أن هنالك طرائق وأساليب بسيطة أستخدمها الأندلسيون لصيد الأسماك تختلف حسب طبيعة الأفراد الممارسين لعملية الصيد، فمنهم من أستخدم الخيط والصنارة ومنهم من أستخدم الشباك المسماة بالخطاف أو المدربة وعادة ما تستخدم هذه الشباك لصيد سمك التونة، وقد يطلق عليها في الوقت الحاضر اسم تونارية^(٩٩).

دفع الاستهلاك اليومي للأسماك بعض الأفراد إلى استخدام وسائل بسيطة تساعدهم في توفير قوت يومهم حيث كان البعض ينزل إلى النهر ويصطاد السمك بيده. ولعل هذه الطرائق كانت طرائق بسيطة أعتمدها بعض الفقراء ممن كانوا يفضلون الأكل من صيد أيديهم مفضلين أكل السمك لنقاوته من الغش والحرام^(١٠٠).

كذلك أشار أحد الباحثين أن الأندلسيون استعملوا طريقة لصيد الأسماك تتمثل في استخدام سمكة من نوع البوري تقدم كطعم لاصطياد السمك على طول ضفة البحر لجلب الأسماك الذكور وصيدتها بواسطة الشباك^(١٠١). وإلى جانب ما ذكر من وسائل وطرائق

يؤكل في معمور الأرض طرياً إلا في الأندلس). وكان يتم نقله من مصائده إلى داخل الأندلس حيث يمكن أن يثبت ويدخر ثم يُباع مجمداً في الأسواق، ويُصدر الفائض منه إلى جميع الأقطار يابساً.^(١٠٢) نظراً لكثرة وجود الأسماك في مياه الأندلس أنتشرت أسواق بيع الأسماك في معظم المدن الأندلسية لا سيما: قرطبة، المنكب، بزيلانه وأشبونة إذ أصبحت هذه المدن مراكزاً مهمة لبيع الأسماك وتصديرها إلى خارج بلاد الأندلس.^(١٠٣)

بناءً على ما تقدم انتعشت تجارة السمك وأخذت قوارب الأندلسيين تجوب الأنهار والبحار تصطاد السمك، أما ما يخص أسعار السمك فأن الروايات التاريخية لم تزودنا بمعلومات كافية عن هذا الموضوع، وكل ما عثرنا عليه هو أن كثرة المسطحات المائية في الأندلس، وما تحتويه هذه المسطحات من ثروة سمكية هائلة انعكس سلباً على أسعار السمك وأدى إلى رخص أثمانه في السوق، فيذكر ابن غالب^(١٠٤)، أنه كان يباع في قرطبة (من أنواع السمك المملوح وغيره في كل يوم على اختلاف أجناسه أيام جريانه بعشرين ألف دينار قاسمية على اعتدال القيم).

وقد كان لوفرة الأسماك وتنوعها أثراً واضحاً في تطور الصناعات الغذائية في الأندلس، أو التجارة بها فالأسماك باعتبارها سلعة سريعة التلف خاصة عند نقلها من المناطق الساحلية إلى المناطق الداخلية لذلك لا بد من المحافظة على جودتها خشية تلفها لذلك أستعمل الأندلسيون مادة العسل^(١٠٥) أو الملح للمحافظة عليها دون أن تفسد^(١٠٦). إذ ساعد ذلك على بقائها طرية وساهم في وصولها إلى مناطق بعيدة، الأمر الذي أشار إليه المقري^(١٠٧) بالقول: (وحيثما سار من الأقطار يجد الحوانيت في الفلوات والشعاري والأودية ورؤوس الجبال لبيع الخبز والفواكه والجبن واللحم والحوت وغير ذلك من ضروب الأطعمة).

باع الأندلسيون السمك في أسواق خاصة، وقد شدد فقهاء الأندلس على أن يباع السمك في أماكن وأسواق خاصة تكون في معزل عن الطريق، لما تعود من الرائحة، ولما هم عليه من الهبة والحال، وأن يلتزموا بتنظيف أماكنهم، وأن للمبتاع لا يسببوا الأذى للمارة، وأن لا

كان لظهور صناعة القوارب في الأندلس وتطورها أثراً كبيراً في ازدهار الثروة السمكية في الأندلس، حيث تم إنتاج مراكب للصيد في البحر والنهر تفاوتت من حيث الحجم ففي نهر اشبيلية استخدمت للصيد، وينطبق هذا الكلام على مدينة اشبونة حيث الصيد البحري وكذا في مدينة اكشونبه^(٩٥). وقد كانت القوارب التي تبحر في مياه أكشونبه أكبر حجماً وأكثر متانة من سابقتها، وذلك لأجل أن يتحمل الأعماق والتيارات والأمواج المائية التي غالباً ما تكون شديدة أو أكثر شدة مما هي من الأنهار الداخلية. كذلك ظهرت صناعة السفن والقوارب الصغيرة المعدة لهذا النشاط الاقتصادي المهم.

شهدت تجارة الأسماك رواجاً كبيراً في الأسواق الأندلسية، فأنشئ لها مصائد متخصصة في مواقع متعددة من السواحل الأندلسية المختلفة^(٩٦)، يُضاف إلى ذلك ما كانت تُسهم الأنهار به في رفق الاقتصاد الأندلسي بالأسماك، لاسيما نهر الوادي الكبير الذي يشتهر بوجود حيتان البوريات والشوابلات وغيرها من الأسماك^(٩٧)، وقد وصف ابن غالب^(٩٨) الأسماك الموجودة في هذا النهر قائلًا: (أنه أطيب حوت يؤكل بالأندلس).

كذلك أشتهر نهر إيبرو بكثرة الأسماك حتى أنه كان يمد أسواق مدينتي طرطوشة وسرقسطة بأنواع مختلفة من الأسماك أشهرها الحوت المعروف بالطرخته أو الترخته وهو حوت أبيض كبير الحجم ليس له إلا شوكة واحدة^(٩٩). أما نهر وادي يانه لم يقل أهمية عن بقية الأنهار من حيث رفق تجارة السمك بالأندلس، إذ عُرف عن هذا النهر بكثرة أسماكه التي تكون ذات لون أصفر وفيها نقط حمرة ولها أنياب وأضراس إذ ليس في البحار ولا في الأنهار أطيب من هذا النوع من السمك.^(١٠٠)

انتعشت تجارة بيع الأسماك في الأندلس لا سيما أسماك التين الكبيرة، إذ صُدرت هذه الأسماك إلى بلاد المغرب الإسلامي، ذلك لأن أغلب المصائد الأندلسية تقع على الشواطئ الجنوبية والجنوبية الغربية في غرب الجزيرة الخضراء وجزيرة طريف، وقد وصف الزهري^(١٠١)، هذا النوع من السمك قائلًا: (ليس في البحر حوت أسمن منه، ولا أطيب منه، ولا

المخالف للحوث الذي في أوله بينا فإن ذلك عيب يرد به).^(١١٢)

خاتمة

يتضح من خلال هذه الدراسة؛ أن صيد الأسماك لم يكن نشاطاً فرعياً في الأندلس، بل شكّل رافداً أساسياً من روافد الاقتصاد والمجتمع. فقد أتاح الموقع الجغرافي المتميز تنوعاً ووفرة في الثروة السمكية انعكس على الصناعات الغذائية والتجارة والأسعار، وأسهم في تحقيق الأمن الغذائي للسكان. كما حمل هذا النشاط أبعاداً اجتماعية وثقافية بارزة، حيث مثّل مورداً معيشياً للفقراء والزهاد، ووسيلة ترفيه للنخب الحاكمة، إلى جانب ارتباطه بعبادات ومعتقدات خاصة. وإلى جانب ذلك، برز دور السلطة التنظيمية ممثلاً في المحتسب الذي أسهم في ضبط الأسواق وحماية المستهلك. ومن ثم، فإن دراسة صيد الأسماك في الأندلس تكشف عن جانب مهم من تاريخها الاقتصادي والاجتماعي، وتفتح المجال لمزيد من الأبحاث المقارنة بين الأندلس والمجتمعات الإسلامية الأخرى في حوض البحر المتوسط.

يطرحوا حوت البحر في الماء العذب (فأنه يفسده)، وأن لا يخلطوا البائت بالطري، وأن لا يكثر الرش فإنهم يؤذون الحاضرين، ولا بأس أن يغمس في الماء ثم يخرج منه سريعاً لتلا يفسد عليهم، ويمنعون عن تمليح البائت من اليومين والثلاثة، لأنه تولد فيه عفونة والأحسن تمليحه طرياً وعلى المحتسب مراقبة بائعي الحوت وأن يلزم الجميع بالالتزام بذلك^(١٠٨)، ولا يسمح لهم أن يربحوا ربحاً كثيراً، لأن الحوت ليس كسائر السلع، ولا يسمح لهم كذلك ببيع الخبز ولا بمجاورة الخبز لقذارة حرفتهم، كما لا يسمح لهم أن يبيعوا اللبن لنفس السبب.^(١٠٩)

لم تقتصر نواهي الفقهاء على ما ذكر، بل امتدت لتشمل القلائيين للحوث، حيث أمروا بتتقية الحوت، وإخراج ما في جوفه وحلقه وغسله جيداً، وعليهم أن يبالغوا في تنظيفه، ولا يقلوه بزيت رديء، ونهوا عن تلويث الحوت بالدقيق عند القلي، ونهوا عن غمسه عند خروجه من المقلي سخناً في الماء والملح، ويعرف ذلك بالثرمولة ليحسن الناظر، ويثقل في الميزان ويؤدبون أن لم يلوثوا ويؤمرون بتبليغ القلي وانعدام الطبخ، وعليهم بتنظيف أماكنهم لكي لا يسببوا الأذى للمارة أو لباقي التجار.^(١١٠) كذلك عثرنا في نوازل ابن الحاج التجيبي على نازلة تخص فيمن أشتري حوتاً فوجد في جوفه لؤلؤة، فأنها تكون ملكة مثل أن تكون مثقوبة فهي كاللقطة ويعرفها وليست للبائع ولا للمشتري، وأن لم تكن مثقوبة فهي دليل على أنها لم تملك وكان الشيوخ يفتون في ذلك فممنهم من يراها للبائع ومنهم من يراها للمبتاع كالدار يشتريها المشتري فيجد فيها كنزاً^(١١١).

وتجدر الإشارة إلى أن عملية بيع السمك لم تتم دون إثارة بعض المشاكل بين البائع والمشتري في حالة الإخلال بأعراف البيع والشراء، حيث ذكر أحد الفقهاء أن بعض باعة السمك كانوا يعمدون إلى خلط كبيره بصغيره، فيضعون الأسماك الكبيرة في الأعلى والصغيرة في الأسفل استغفالاً للزبون الذي ما إن يكشف العيب حتى يطالب بإلغاء البيع، وأنتقل صدى هذه الحالة إلى الإفتاء فرأى الونشريسي (أن ما كان من ذلك (السمك)، قريباً بعضه من بعض لم يرد، وما كان من ذلك بائناً مثل أن يجد في قاع العدل الحوت الدون

الإحالات المرجعية:

- (١) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، (٨٠٨/١٤٠٦م)، تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس، خليل شحادة، راجعاً سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، ٢٠٠٠، ١/٤٧٩-٤٨٠.
- (٢) البكر، خالد عبد الكريم حمود، النشاط الاقتصادي في الأندلس في عصر الإمارة (١٣٨-٥٣١٦/٧٥٥-٩٢٨م)، مطبوعات مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض، ١٤١٤هـ، ص ١٥٤.
- (٣) العذري، أحمد بن عمر بن أنس، (ت. ٧٨٠هـ/١٨٥٠م)، نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك، تحقيق: عبد العزيز اللاهواني، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، د.ت، ص ٢٨.
- (٤) مجهول، مؤلف أندلسي، (ت. بعد سنة ٧١٧/١٣١٧م)، تاريخ الأندلس، دراسة وتحقيق عبد القادر بوبايا، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٩، ص ٧١-٧٢.
- (٥) مالقة: بالأندلس، مدينة على شاطئ البحر، عليها سور صخر، والبحر في قبليها وهي حسنة عامرة أهلة كثيرة الديار، وفيما استدار بها من جميع جهاتها شجر التين المنسوب إليها، وهو يحمل إلى مصر والشام والعراق وربما وصل إلى الهند، وهو من أحسن التين طيباً وعذوبة، ولها برضان كبيران، وشرب أهلها من الآبار، ولها واد يجري في زمان الشتاء وليس بدائم الجري، الحميري، الروض المعطار، ص ٥١.
- (٦) ابن الخطيب، لسان الدين أبي عبد الله محمد بن الخطيب السلماي، (ت. ٥٧٦/١٣٧٤م) مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس (مجموعة من رسائله)، تحقيق أحمد مختار العبادي، مطبعة جامعة الإسكندرية، مصر، ١٩٥٨، ص ٦١، مجهول، تاريخ الأندلس، ص ١٢٣.
- (٧) المقري، أحمد بن محمد المقري التلمساني، (ت. ٤١٠هـ/١٦٣١م)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٨٨، ١/١٩٨-١٩٩.
- (٨) بن عميرة، محمد، الموارد المائية وطرق استغلالها ببلاد المغرب من الفتح الإسلامي إلى سقوط دولة الموحدين، أطروحة دكتوراه في تاريخ الغرب الإسلامي، كلية العلوم الانسانية، جامعة الجزائر، ٢٠٠٥، ص ٣١٤-٣١٦.
- (٩) بن عميرة، الموارد المائية، ٣١١.
- (١٠) أشبونة: مدينة في الأندلس من كور باجة المختلطة، وهي مدينة قديمة على سيف البحر تنكسر أمواجه في سورها واسمها قودية، وسورها رائق البنيان بدیع الشان، وبابها الغربي قد عقدت عليه حنايا فوق حنايا على عمد من رخام مثبتة على حجارة من رخام... الحميري، محمد بن عبد المنعم، (ت. حوالي ٥٧١. /١٣١٠م)، الروض المعطار في خبر الأقطار، ط٢، تحقيق إحسان عباس، بيروت، ١٩٨٤، ص ٦١.
- (١١) شلطيّش: جزيرة بالأندلس، بقرب مدينة لبله لا سور لها ولا حظيرة، إنما هي بنيان متصل ببعضه ببعض، وبها دار صناعة الحديد الذي يعجز عن صنعه أهل البلاد لجفائه، وهي صنعة المراسي التي ترسي بها السفن، وهي كثيرة السفن، وبها دار صناعة لإنشائها، ويسكنها جماعة من النصارى. يُنظر. الحميري، الروض المعطار، ص ٣٣٤-٣٤٤.
- (١٢) أكشونية: مدينة بالأندلس يتصل عملها بعمل أشبونة وهي غربي قرطبة وهي مدينة كثيرة الخيرات برية بحرية قد يلقي بحرها على ساحلها العنبر. يُنظر. الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي، (ت ١٢٢٦/١٢٢٨م)، معجم البلدان، بيروت، دار صادر، ١٩٧٧، ١/٢٤٠.

نتائج الدراسة

- أن الكتابة في هذا الموضوع يُعدّ من الأمور الصعبة والشاقة، وذلك لقلة المادة المصدرية التي تناولت هكذا مواضيع، لذلك لا غرابة أن تتنظم الدراسة بهذا الشكل، وأن يكون حضوراً للمصادر الجغرافية في أعانت الباحث في أعداد هذه الدراسة.
- نظراً لإحاطة الأندلس بالمسطحات المائية من ثلاث جهات، وكثرة الأنهار الداخلية انتعش الصيد بنوعيه البحري والنهري وتوفرت الأسماك بكميات كبيرة فانتعشت الثروة السمكية انتعاشاً كبيراً، انعكس على تطور الصناعات الغذائية بأشكالها المختلفة.
- كان للثروة السمكية دوراً كبيراً في رفد الاقتصاد الأندلسي، حيث كان لوفرة الأسماك دوراً كبيراً في سد الحاجة المحلية للسكان وسد حاجتهم من هذا المورد الغذائي المهم.
- انتعشت تجارة تصدير الأسماك، بين الأندلس الإسلامية والدول المجاورة لا سيما دول بلاد المغرب الإسلامي.
- نظراً لتطور مهنة صيد الأسماك في الأندلس، انفردت الأندلس بتطوراً اقتصادي مهم ساهم في رفع مستوى دخل الفرد، وبالتالي أصبحت حياة الفرد الأندلسي فيها لمحة من الترف الاجتماعي لا سيما هؤلاء الذين يعملون في مهنة صيد الأسماك.
- أصطاد الأندلسيون السمك بطرائق وأساليب متعددة، ساعدت الصياد الأندلسي بصيد الأسماك بكميات وفيرة.
- كان للمحتسب دوراً مهماً في تنظيم الأسواق وتحديد أماكن بيع الأسماك من خلال مراقبة الأسواق وتشديد العمل بوصايا الفقهاء ورجال الدين.

- (٢٧) الإدريسي، الشريف أبي عبد الله محمد بن عبد العزيز، (ت. ١٢٦٤/٥٥٦م)، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، مطبعة ليدن، ١٩٦٨، ص. ٢٠؛ الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص. ٤٤.
- (٢٨) الحميري، **الروض المعطار**، ص. ٣٣٩.
- (٢٩) **مربلة**: بالأندلس بقرب مرسى سهيل ومرسى مالقة، ومربلة مدينة صغيرة مسورة من بناء الأول محكمة العمل ممتعة المرام. يُنظر: الحميري، **الروض المعطار**، ص. ٥٣٤.
- (٣٠) ابن الخطيب، **معيار الاختبار**، ص. ٨٥.
- (٣١) **أبيرو**: وهو النهر الذي ينبع من شمال شرق شبه الجزيرة الأيبيرية، ويصب في البحر الأبيض المتوسط عند مدينة طرطوشة. يُنظر: البكري، **جغرافية الأندلس وأوروبا**، ص. ٥٧؛ الحموي، **معجم البلدان**، ١/ ٢٦٢-٢٦٣.
- (٣٢) **الوادي الكبير**: وهو قصبة الأندلس وسمي بهذا الاسم في مدة حكم بني أمية وكان اسمه في مدة حكم الروم، وزعم كثير من الناس أن الوادي الكبير ووادي تدمر الهابط على مرسية يخرجان من عين واحدة وتنقسم على نصفين نصف يهبط إلى قرطبة ونصف يهبط إلى مرسية. يُنظر: الزهري، أبي عبيد الله محمد بن أبي بكر، (ت. في أواسط القرن السادس الهجري/ أواسط القرن الثاني عشر الميلادي)، كتاب الجغرافية وما ذكرته الحكماء فيها من العمارة وما في كل جزء من الغرائب والعجائب يحتوي على الأقاليم السبعة وما في الأرض من الأميال والفراسخ، تحقيق محمد حاج صادق، الناشر مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د.ت، ص. ٩٧-٩٨.
- (٣٣) الزهري، **كتاب الجغرافية**، ص. ٨٨.
- (٣٤) **نفح الطيب**، ٨/١.
- (٣٥) يحتوي هذا النهر على ثروة سمكية، إذ توجد على سواحله مصائد سمك التونة والأسماك الصغيرة. يُنظر: ابن غالب، **فرحة الانفس**، ص. ٣٩.
- (٣٦) **طرطوشة**: مدينة في سفح جبل، ولها سور حصين، وبها أسواق وعمارات وضياع وفعلة، وإنشاء المراكب الكبار من خشب جبالها وبجبالها خشب الصنوبر الذي لا يوجد له نظير في الطول والغلظ يُنظر: الحموي، **معجم البلدان**، ٣/ ١٥٠؛ الحميري، **الروض المعطار**، ص. ٣٩١.
- (٣٧) **وادي يانة**: أحد انهار الأندلس المهمة ينبع من المنطقة الواقعة غربي جبل شليز، ويصب في المحيط الأطلسي ويبلغ طوله ٣٠٠ ميل وفيه حيتان كثيرة صفراء اللون. يُنظر: الزهري، كتاب الجغرافية، ص. ٩٧.
- (٣٨) ابن غالب، **فرحة الأنفس**، ص. ٣.
- (٣٩) **قرطبة**: قاعدة بالأندلس وأهم مدائنهم ومستقر خلافة الأمويين بها، وآثارهم بها ظاهرة، وفنائيل قرطبة ومناقب خلفائها أشهر من أن تذكر. يُنظر: الحموي، **معجم البلدان**، ٧/ ٥٣-٥٤؛ الحميري، **الروض المعطار**، ص. ٤٥٦.
- (٤٠) ابن غالب، **فرحة الأنفس**، ص. ٣٩.
- (٤١) **أشبيلية**: مدينة بالأندلس جليلة بينها وبين قرطبة مسيرة ثمانية أيام ومن الأميال ثمانون، وهي مدينة قديمة أزلية يذكر أهل العلم باللسان اللطيني أن أصل تسميتها أشبالي معناه - المدينة المنبسطة - ويقال إن الذي بناها يوليوس القيصر وإنه أول من تسمى قيصر. يُنظر: الحميري، **الروض المعطار**، ص. ٥٨.
- (٤٢) المقرئ، **نفح الطيب**، ٢٠/١.
- (٤٣) يكثر هذا النوع من السمك في مدينة المهدية في تونس ويُعرف باسم الشبوقة والشبوقة. يُنظر بن عميرة، **الموارد المائية**، ص. ٣٢، علماً أن ابن سعيد يسميه السائل ولعل ذلك خطأ مطبعي، ويوجد هذا النوع من السمك نتيجة لالتقاء الماء المالح مع الماء الحلو،

- (١٣) ابن غالب، محمد بن أيوب الغرناطي، (من أهل القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي) قطعة من كتاب **فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس**، تحقيق لطفي عبد البديع، فصل من مجلة معهد المخطوطات، المجلد ٢، مصر، ١٩٥٦م، ص. ٢٢.
- (١٤) **العنبر**: مادة صلبة لا طعم لها ولا رائحة، إلا إذا سُحقت أو احترقت فأنه حينئذ ينبعث منها رائحة طيبة، وقيل العنبر روث الحيتان البحرية، أو نبات ينبت في البحر أو عيون تنبع في البحر يصير منه ما تبلعه الدواب فتقذفه. يُنظر: المقرئ، **نفح الطيب**، ١٩٩/١.
- (١٥) مجهول، تاريخ الأندلس، ص. ١٠١.
- (١٦) **شنترين**: مدينة بالأندلس معدودة في كور باجة، تقع على جبل عال كثير العلو جداً، ولها من جهة القبلة حافة عظيمة ولا سور لها، وبأسفلها ريض على طول النهر، واشتهرت بكثرة البساتين والفواكه، ونهرها يفيض على بطحائها كفيض نيل مصر. يُنظر: الحميري، **الروض المعطار**، ص. ٣٤٦.
- (١٧) **شذونة**: كورة بالأندلس متصلة بكورة مورور، وعمل شذونة، وهي من الكور المجندة، نزلها جند فلسطين من العرب. وهي كورة جليلة القدر، جامعة لخيرات البر والبحر، كريمة البقعة عذبة التربة، تفيض مياهها فلا تذوي مع المحل ثمارها، وقد لجأ إليها عامة أهل الأندلس سنة ست وثلاثين ومائة. يُنظر: الحميري، **الروض المعطار**، ص. ٣٣٩.
- (١٨) البكري، أبي عبيد الله بن عبد العزيز، (ت. ٩٤٨/٥٤٨م)، **كتاب المسالك والممالك**، تحقيق جمال طلبه، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣، ٣٨٤/٢؛ القزويني، زكريا بن محمد بن محمود، (ت. ١٢٨٣/٥٦٨م)، **آثار البلاد وأخبار العباد**، دار صادر، بيروت، د.ت، ص. ٤٥٢؛ المقرئ، **نفح الطيب**، ١٤١/١.
- (١٩) **فرحة الانفس**، ص. ٢٢.
- (٢٠) **شليب**: من بلاد الأندلس، وهي قاعدة كورة الكشونبة، وهي قبلي مدينة باجة، ولها بساتين فسيحة وبطائح عريضة، وفيها جبل كبير كثير المسارح والمياه، وأكثر ما ينبت فيه شجر التفاح العجيب يتضوع منه روائح العود إذا أرسلت فيه النار. وهي في بساط من الأرض وفيها جنات وغللات، ووادي وبحراً تجري فيه المياه. يُنظر: الحميري، **الروض المعطار**، ص. ٣٤٢.
- (٢١) ابن سعيد، أبي الحسن علي بن موسى، (ت. ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م)، **المغرب في حلى المغرب**، حققه وعلق عليه شوقي ضيف، ط٤، دار المعارف، القاهرة، د.ت، ٣٨١/١؛ لومبار، موريس، **الإسلام في مجده الأول من القرن الـ ٢ إلى القرن الـ ٨ هـ (١٠٨-١٠م)**، ط٣، ترجمة إسماعيل العربي، دار الآفاق الجديدة، المغرب، ١٩٩٠، ص. ٢٨٢.
- (٢٢) **مالقه**: مدينة على شاطئ البحر، عليها سور صخر والبحر في قلبها وهي حسنة عامرة أهلة، كثيرة الديار... يُنظر: الحميري، **صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار**، عني بنشره وتصحيحه وعلق عليه: إ. ليفي بروفنسال، ط٢، دار الجبل، بيروت، ١٩٨٨، ص. ١٧٧-١٧٨.
- (٢٣) مجهول، تاريخ الاندلس، ص. ١٢٣.
- (٢٤) **المنكب**: مدينة حسنة بالأندلس متوسطة كثيرة مصايد السمك وبها فواكه جمّة، وفيها مرسى صيفي يكن بشرقه، وله نهر يريق في البحر، وعليه حصن كبير لا يرام، به ريض وأسواق وجامع. يُنظر: الحميري، **الروض المعطار**، ص. ٤٤٨.
- (٢٥) ابن الخطيب، **معيار الاختبار في ذكر المعاهد والديار**، تحقيق محمد كمال شبانه، الناشر مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٠، ص. ٩٤.
- (٢٦) **بزليانه**: قرية على ساحل البحر قريبة من مالقة، يصطاد بها الحوت الكثير ويحمل منها إلى المناطق المجاورة. يُنظر: الحميري، **صفة جزيرة الاندلس**، ص. ٤٤.

الليطالي تريغلييه، في حين يسمى في الشمال الميلى، علماً أنَّ منه ما يعرف بالبورى الشتوي والبورى الصيفي والبورى الخريفي ولعلَّ هذا التصنيف جاء نتيجة لدخول هذا النوع من السمك المياه المفضلة له حسب فصول السنة. يُنظر بن عميرة، **الموارد المائية**، هامش رقم (١)، ص ٣٢.

(٧٠) القزويني، **آثار البلاد**، ص ٥٤٥؛ البكر، **النشاط الاقتصادي**، ١٥٦-١٥٧.

(٧١) **عبد الرحمن الداخل**: عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان الداخل إلى الأندلس، ويقال له صقر قريش - سماه أبو جعفر المنصور بذلك - وكنيته أبو المطرف، وهو الأشهر في كنيته، وقيل أبو زيد، وقيل أبو سليمان. هرب في أول دولة بني العباس إلى المغرب، وتردد بنواحي إفريقية، وأقام دهرًا في أخواله نفزة من قبائل البربر، لحق بالأندلس في غرة شهر ربيع الأول سنة ثمان وثلاثين ومائة، وهزم أميرها يوسف ابن عبد الرحمن الفهري في يوم الخميس لتسع خلون من ذي الحجة من هذه السنة، يُنظر: ابن الأبار، أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاة، (ت. ٥٨٠هـ / ١٢٦٠م)، **الحلة السيرة**، حققه وضبط حواشيه، حسين مؤنس، ط ٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥، (١/ص ٣٥) وما بعدها.

(٧٢) الحميري، **الروض المعطار**، ص ٥٤٨.

(٧٣) عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن، كنيته أبا محمد أمه أم ولد أسماها عشار، ولد سنة ٢٢٨هـ، نقش خاتمه عبد الله بقضاء الله راض عرف بتقواه وورعه وجهه للخير كثير التواضع شديد الوطأة على الظالم متفنا في جميع العلوم النافعة للدين، امتلأت الأندلس في حكمه بالفتن وصار في كل جهة متغلب، مات سنة ٣٠٠هـ. يُنظر: الحميدي، أبي محمد عبدالله بن أبي نصر فتوح بن عبدالله الأزدي، (ت. ٤٨٨هـ / ١٠٩٥م) **جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس**، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦، ص ١٢، الضبي، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة، (ت. ٥٩٩هـ / ١٢٠٢م) **بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٨، ص ١٦؛ مجهول، **ذكر بلاد الأندلس**، ص ١٥٣.

(٧٤) ابن عذاري، أبي العباس أحمد بن محمد المراكشي، (ت. بعد سنة ٧١٢هـ / ١٣١٢م)، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، ج ٢، تحقيق ج.س. كولان وإ. ليفي بروفنسال، ط ٢، بيروت، دار الثقافة، ١٩٨٠م، ١٤٦/٢.

(٧٥) **عبد الرحمن الناصر**: عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله، أمه أم ولد رومية تسمى مزنة، ولد في سنة ٢٧٧هـ، كنيته أبو المطرف، لقبه الناصر لدين الله، نقش خاتمه عبد الرحمن بقضاء الله راض، ولي بعد وفاة جده الأمير عبد الله، وكان والدو قد قتله أخوه المطرف بن عبد الله، كان عبد الرحمن شهماً جواداً كريماً فصيح اللسان قاهر اللغات خطيباً بليغاً شاعراً مجيداً صارماً، وهو أول من تسمى بأمر المؤمنين من بني أمية في الأندلس، بايعه جميع أهل قرطبة وأعلن الخلافة الأموية في الأندلس سنة ٣١٦هـ، وتوفي سنة ٣٥٠هـ. يُنظر: ابن حيان القرطبي، أبي مروان حيان بن خلف، (١٠٧٦/٥٤٦٩م) **المقتبس في أخبار بلد الأندلس**، نشر ب. شالميتا بالتعاون لضبطه وتحقيقه مع ف. كورنيطي و م. صبح وغيرهما، المعهد الأسباني العربي للثقافة العربية، كلية الآداب، مدريد، ١٩٧٩، ١٣/٥ وما بعدها؛ الحميدي، **جذوة المقتبس**، ص ١٢؛ الضبي، **بغية الملتبس**، ص ١٧؛ مجهول، **ذكر بلاد الأندلس**، ص ١٥٩-١٦٠.

(٧٦) مجهول، **تاريخ الأندلس**، ص ٢٠٨.

(٧٧) المقري، **نفع الطيب**، ٦٧/١هـ؛ زيارة، نادر فرج، **الترف في المجتمع الإسلامي: الأندلس (٥٩٢/٧١١م = ١٢٦٩/١٢٦٩م)**، رسالة ماجستير، كلية الآداب قسم التاريخ، الجامعة الإسلامية، غزة، فلسطين، ٢٠١٠، ص ٦٨.

ويمتاز هذا النوع من السمك بأنه يحتوي على زيت كثير حتى قيل إنه يستخدم لإضاءة المصابيح. يُنظر: **كتاب الجغرافية**، ص ١٣٨.

(٤٤) مجهول، **تاريخ الأندلس**، ص ١١٤.

(٤٥) **شلوبينيه**: حصن بالأندلس من أعمال كورة البيرة بينه وبين المنكب عشرة أميال. يُنظر: الحموي، معجم البلدان، ٣/٣٦؛ الحميري، **صفة جزيرة الأندلس**، ص ١١١.

(٤٦) ابن الخطيب، **مشاهدات**، ص ٨١.

(٤٧) المقرئزي، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي بن عبد القادر، (ت. ٨٤٥هـ / ١٤٤١م)، **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ، ١٢٤/١.

(٤٨) **المائدة** / ٩٦.

(٤٩) البكري، **المسالك والممالك**، ص ٢٣٧؛ الحميري، **الروض المعطار**، ص ٣٧٨.

(٥٠) الحميري، **الروض المعطار**، ص ١٨٤.

(٥١) الزهري، **كتاب الجغرافيا**، ص ١١٩-١٢٠.

(٥٢) الحميري، **الروض المعطار**، ص ٩٢.

(٥٣) الحميري، **الروض المعطار**، ص ٣٣٩.

(٥٤) الحميري، **الروض المعطار**، ص ٣٣٩.

(٥٥) بن عميرة، **الموارد المائية**، ص ٣٦٩.

(٥٦) بن عميرة، **الموارد المائية**، ص ٣٣١.

(٥٧) **دانية**: مدينة بشرق الأندلس على البحر عامرة حسنة لها ربح عامر وعليها سور حصين، وسورها من ناحية المشرق في داخل البحر قد بني بهندسة وحكمة، ولها قصبة منيعة جداً، وهي على عمارة متصلة وشجر تين كثيرة وكروم، والسفن واردة عليها صادرة عنها، ومنها كان يخرج الأسطول إلى الغزو، وبها ينشأ أكثره لأنها دار إنشائه، وفي الجنوب منها جبل عظيم مستدير: يُنظر الحميري، **الروض المعطار**، ص ٣٢٢-٣٢١.

(٥٨) الزهري، **كتاب الجغرافية**، ص ١١٩-١٢٠.

(٥٩) بن عميرة، **الموارد المائية**، ص ٣٣١.

(٦٠) ابن الخطيب، **معيار الاختيار**، ص ٨٥.

(٦١) بن عميرة، **الموارد المائية**، ص ٣١٤.

(٦٢) الزجالي، أبي يحيى عبيد الله بن أحمد الزجالي القرطبي، (ت. ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م)، **أمثال العوام في الأندلس**، تحقيق محمد بن شريفة، منشورات وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم، المغرب، د.ت، مثل رقم (١٥)، ص ٦.

(٦٣) ابن حزم، أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد، (ت. ٤٥٦هـ / ١٠٦٣م)، **رسائل ابن حزم (طوق الحمامة في الألفة والالتفاف)**، ط ٢، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٧، ٢٤٢/١.

(٦٤) الزجالي، **أمثال العوام**، مثل رقم ٦٢١، ص ١٤.

(٦٥) الزجالي، **أمثال العوام**، مثل رقم ٦٦٩، ص ١٤٩.

(٦٦) الزجالي، **أمثال العوام**، مثل رقم ٢٣١، ص ٥٨.

(٦٧) **الترجته**: يُقال لها أيضاً القرجة أو الطرخة، وهو نوع من أصناف السمك العجيب، يمتاز بلونه الأبيض، وحجمه الكبير، وليس فيه إلا شوكة واحدة، ويكاد نهر ابيرو ينفرد بوجود هذا النوع من السمك حتى قيل إنه لا يوجد في غيره به. يُنظر: القزويني، **آثار البلاد**، ص ٥٠٥.

(٦٨) القزويني، **آثار البلاد**، ص ٥٠٥.

(٦٩) تضم عائلة سمك البوري أصناف متعددة تختلف تسمية كل واحد منها من منطقة إلى أخرى، والبوري هي تسمية شمال تونس، من أنواعه: احميري، وفيري في الشمال، ومويلة في الجنوب، ومجل في المهديّة ويسمى مولس، ويسمى عند عرب تونس باسمه

- (٧٨) ابن حيان، **المقتبس**، ٢٢٣/٥.
- (٧٩) لومبار، **الإسلام في مجده**، ص ٢٨١؛ الزغول، جهاد غالب مصطفى، الحرف والصناعات في الأندلس منذ الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، رسالة ماجستير، كلية الدراسات العليا، الجامعة الاردنية، ١٩٩٤، ص ٥٢.
- (٨٠) بلمداني، نوال، **"الثروات البحرية وطرق صيدها بالغرب الإسلامي من خلال الكتابات الوسيطية"**، بحث منشور في مجلة عصور الجديدة، العدد ١٩-٢٠، الجزائر، ٢٠١٥، ص ٩٥-٩٦.
- (٨١) بلمداني، **"الثروة السمكية بالغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط"**، بحث منشور في مجلة المواقف، الجزائر، ٢٠١٥، ١٨٨-١٨٩.
- (٨٢) الإدريسي، **نزهة المشتاق**، ص ٢٠٠.
- (٨٣) الونشريشي، أبي العباس أحمد بن يحيى، (ت. ٥٩١٤/١٠٣٤م)، **المعيار المغربي** والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب، خرجه جماعة من الفقهاء، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للملكة المغربية، الرباط، ١٩٨١، ١٨٩/٨.
- (٨٤) المقرئ، **نفح الطيب**، ٣٣٩/١.
- (٨٥) **أبو بكر بن السليم**: محمد بن إسحاق بن منذر بن إبراهيم بن محمد بن السليم، قاضي الجماعة بقرطبة رحل إلى المشرق سنة ٣٣٢هـ، وأنصرف إلى الأندلس فأقبل على الزهد ودراسة العلم، ولي القضاء بقرطبة سنة ٣٥٦هـ، كان بصيراً بالاختلاف عالمًا بالحديث ضابطاً لما رواه متصرفاً في النحو واللغة، حسن الخطابة والبلاغة. وتوفي رحمه الله سنة ٣٦٧هـ. يُنظر: ابن سعيد، **المغرب في حلي المغرب**، ٢١٤/١.
- (٨٦) المقرئ، **نفح الطيب**، ٣٣٩/١.
- (٨٧) لم أجد تعريفاً له في كتب التراجم.
- (٨٨) الغبريني، أحمد بن أحمد بن عبد الله (ت. ٥٧١٤/١٣١٤م)، **عنوان الدراية فيمن عُرِف من العلماء في المائة السابعة ببجاية**، تحقيق رابع بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨١، ص ١٣٦.
- (٨٩) لم أجد تعريفاً له في كتب التراجم.
- (٩٠) بلمداني، **الثروات البحرية**، ص ٩٦.
- (٩١) **عمر بن حفصون**: أحد أشهر معارضي سلطة الامويين في الأندلس عاصر ابن حفصون في ثورته أربعة من الأمراء الأمويين، بدءاً من سنة ٢٦٧هـ، في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن وحتى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر وسيطر خلالها على مناطق كبيرة في جنوب الأندلس، ولاقت حركته ترحيب من أعداد كبيرة من سكان تلك المناطق من المولدين والمستعربين، وقاومتها سلطات الدولة بحزم إلى أن أنهى عبد الرحمن الناصر حركة ابن حفصون وخلفائه تماماً سنة ٣١٦هـ، بعد عشر سنوات على وفاة عمر بن حفصون نفسه. يُنظر: الحميدي، **جذوة المقتبس**، ص ٤٧٦؛ الضبي، **بغية الملمتس**، ص ٤؛ ابن الخطيب، **أعمال الأعلام في مَنْ بُويع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام**، تحقيق وتعليق إ. ليفي بروفنسال، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٦، ص ٣١-٣٣.
- (٩٢) الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد، (ت. ٥٧٤٨/١٣٤٧م)، **سير أعلام النبلاء**، تحقيق علي أبو زيد، مؤسسة الرسالة، د.ت، ٢٦٤/٨.
- (٩٣) بلقاسم، نور الدين، **المجتمع الأندلسي في العهدين المرابطي والموحدي من نهاية القرن ١١/٥ إلى بداية القرن ١٣/٧**، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة منوبة، الجزائر، ٢٠٠٥، ص ٢٢٦.
- (٩٤) البكري، **المسالك والممالك**، ٣٨٥/٢؛ جاسم، نبراس فوزي، **النشاط الاقتصادي في الأندلس من خلال كتب البلدان**، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة بغداد، ٢٠٠٧، ص ٣٧٤.
- (٩٥) ابن غالب، **فرحة الأنفس**، ص ٢٤؛ القزويني، **آثار البلاد**، ص ٤٩٧.
- (٩٦) ابن سعيد، **المغرب في حلي المغرب**، ٤١١/١.
- (٩٧) الزهري، **كتاب الجغرافية**، ص ٨٨؛ مجهول، **ذكر بلاد الأندلس**، ص ٦٢.
- (٩٨) **فرحة الأنفس**، ص ٣٠٨.
- (٩٩) الشوكاني، **التجارة ونظم التسويق**، ص ٣٥٦.
- (١٠٠) الزهري، **كتاب الجغرافية**، ص ٩٧.
- (١٠١) **كتاب الجغرافية**، ص ١٢٠.
- (١٠٢) الزهري، **كتاب الجغرافية**، ص ١٢١-١٢٢.
- (١٠٣) الإدريسي، **نزهة المشتاق**، ٥٦٤/٢؛ الشوكاني، **التجارة ونظم التسويق**، ص ٣٥٧.
- (١٠٤) **فرحة الأنفس**، ص ٢٧.
- (١٠٥) بلمداني، **الثروات البحرية**، ص ٩٦.
- (١٠٦) ابن عبدون، **ثلاث رسائل**، ص ٩٧.
- (١٠٧) **نفح الطيب**، ٢٢٦/١.
- (١٠٨) ابن عبد الرؤوف، أحمد بن عبد الله، (ت. النصف الأول من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي)، **رسالة في آداب الحسبة والمحتسب منشورة ضمن ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب**، نشر ليفي بروفنسال، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٥٥، ص ٩٧.
- (١٠٩) ابن عبد الرؤوف، **ثلاث رسائل**، ص ٩٠.
- (١١٠) ابن عبدون، **ثلاث رسائل**، ص ٩٧.
- (١١١) ابن الحاج التجيبي، محمد بن أحمد (ت. ٥٥٢٩/١١٣٤م)، **نوازل ابن الحاج التجيبي**، تحقيق، أحمد شعيبي، منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية، تطوان، ٢٠١٨، ٢/ مسألة رقم (١٢٢)، ص ١٤١.
- (١١٢) **المعيار المغربي**، ١٧٦/٦.

معركة لهري من خلال مصدري المنصوري وكنون

دراسة مقارنة

موحسين بعالي

باحث في سلك الدكتوراه

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة السلطان المولى سليمان - المملكة المغربية



ملخص

تتعدد المؤلفات والدراسات التي تتخذ من أحداث عسكرية معينة، موضوعاً للتأريخ أو الدراسة والتحليل، بحثاً عن الحقائق التاريخية، من خلال الاعتماد على المصادر والوثائق التاريخية التي عاصرت الحدث وأرخت له، لكن مسألة الموضوعية تبقى مطروحة حول متون وخراسات هذه الدراسات ومصادرها أيضاً، والتي يذهب البعض إلى الجزم باستحالتها، مبررين ذلك بكون أي كاتب كيفما كان شأنه أو مقامه، يبقى إنساناً له انتماء محدد ومتشبع بثقافة معينة تمثل عصارة تكوينه الثقافي ومستواه الفكري، إلى جانب اختلاف زمن الحدث عن زمن التأريخ له ودراسته، مما يفرض نسبية الحقائق التاريخية. وانطلاقاً من هذا الطرح تأتي ورقتنا البحثية هذه، في محاولة حثيثة لرصد ومقارنة مؤلفين تاريخيين أحدهما محلي والآخر أجنبي، الأول "كباء العنبر" للمؤرخ أحمد المنصوري، والثاني "الجليل الأمازيغي" للقبطان سعيد كنون، حول المتن الخاص بحدث تاريخي عسكري يتمثل في معركة لهري، التي عرفتها منطقة زيان بتاريخ ١٣ نونبر ١٩١٤م، في إطار المقاومة الزبانية ضد توغل الاستعمار الفرنسي بعد توقيع معاهدة الحماية في فاس سنة ١٩١٢م. يمكن اعتبار استغرافية المقاومة الزبانية عامة ومعركة لهري خاصة، ما تزال في بدايات تكوينها، تحتاج لدراسات ودراسات، بمقاربات مختلفة، واعتماد مختلف الوثائق التاريخية والتراثية، الاقتصادية والسياسية، الدينية والاجتماعية، الوطنية والأجنبية، لتكتمل الصورة الحقيقية حول حدث المعركة، من سياقها مروراً بمظاهرها وأطوارها، ووصولاً إلى تبعاتها وتداعياتها، وبطبيعة الحال في إطار الموضوعية والعلمية، بعيداً عن الانحياز والذاتية والسرد الحكائي، ويبقى الأمل معقوداً على الباحثين الشباب، لسبر هذه الأغوار بعد التسليح بالتكوين الرصين على يد ثلة من الأساتذة الباحثين في مختلف الجامعات.

كلمات مفتاحية:

معركة لهري؛ زيان، مقارنة؛ موحس؛ لافير دور؛ التاريخ الحديث والمعاصر؛
التاريخ المقارن

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٢٦ مايو ٢٠٢٥
تاريخ قبول النشر: ٢٩ يونيو ٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.389402.1233

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

موحسين بعالي، "معركة لهري من خلال مصدري المنصوري وكنون: دراسة مقارنة". - دورية كان التاريخية. - السنة الثامنة عشرة - العدد الثالث والسبعون، نوفمبر ٢٠٢٥، ص ٧٩ - ٩٠.



X, formerly Twitter: <http://X.com/kanhistorique>
Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>
Facebook Group: <https://www.facebook.com/groups/kanhistorique>

Corresponding author: bmouhssin@hotmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في دورية كان 4.0 International License (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

ميشال دوفوكو الذي قدم للفرنسيين وصفا دقيقا للمغرب ومكوناته الطبيعية والبشرية لتسهيل عملية الغزو، إلى جانب الاستعانة بجنود أمازيغ من الجزائر والمغرب لفهم القبائل والتواصل معها، مثل الضابط سعيد كنون الأمازيغي الجزائري، وبمخبرين أشهرهم الملازم الأول ابن داوود، كما سهر القادة على تطبيق تلك الخطط، مستعينين في ذلك بضباط على رأس جنود أفارقة- جلبوا من المستعمرات- ومغاربة من المناطق التي تمت تهديتها، وفرنسيين.

إلا أن توالي الهجمات الزيانية على المعسكر الفرنسي ليل نهار منذ إخضاع خنيفرة في سعي حثيث لإجبار العدو المحتل على المغادرة، خاصة مع تزايد خسائره المادية والبشرية يوما بعد يوم، جعلت المعسكر محاصراً تحت رحمة الغارات الزيانية المفاجئة، وازداد قلق الكولونيل لافيردور الذي أرقه التفكير في سبل رفع الحصار عن معسكره، وحماية أرواح ومعدات جنوده الذين أصبحوا في حالة يأس وأصيبوا بالعياء والإرهاق، وأصبحوا يشعرون بضيق العيش ومرارته^(٤).

ولأن خير وسيلة للدفاع هي الهجوم، قرر الكولونيل لافيردور الهجوم على مخيم موحى وحمو الزياني بمنطقة لهري، التي لا تبعد عن مركز خنيفرة سوى ١٥ كلم، لكن هذا القرار سيتسبب في نشوب معركة لهري الشهيرة التي انهزم فيها الجيش الفرنسي شر هزيمة، واعتبرها الزيانيون مفخرة أجدادهم.

قرار بني على معلومات جاء بها مخبرين سريين زيانيين يعملان لصالح مكتب الاستعلامات الفرنسية، وهما عمر وأخوه باحسين- أبناء أخت القائد الزياني، اللذان ذهبا لصف العدو بعد طردهما من القبيلة من طرف القائد جراء ارتكابهما لجريمة^(٥).

حيث أكد أن موحى وحمو الزياني يقيم احتفالا كبيرا بمناسبة ازدياد مولوده الذكر الخامس عشر وهو في الستين من عمره، فازداد حنق وغيض الكولونيل لافيردور من نخوة وحيوية الزيانيين ولا مبالاتهم بالحرب أو بقرب المعسكر الفرنسي منهم^(٦).

وقد جاء في كتاب J.Le Prévost "توافدت القبائل على القائد من السحر حتى المساء، وهي تصحب معها مئات الخرفان لإقامة شوى الفحم، إن هؤلاء القوم الذين

تعتبر بلا شك معركة لهري حدثاً تاريخياً بارزاً في تاريخ الدولة المغربية، يندرج في سياق نتائج غزو بلاد زيان، فبعد التمكن من احتلال مدينة خنيفرة عاصمة زيان في ١٢ يونيو ١٩١٤م، سعى الفرنسيون لبسط النفوذ على ما جاورها، في مقابل توالي هجمات الزيانيين لاسترجاع مدينتهم، فأصبح المعسكر في وضع حصار لا يحتمل، مما جعل المسؤول عن معسكر خنيفرة يتخذ قرار الهجوم على مخيم لهري لسجن أو القضاء على زعيم المقاومة الزيانية موحى وحمو الزياني، فكانت المواجهة في صباح يوم الجمعة ١٣ نونبر ١٩١٤م، حيث كان الانتصار للجيش الفرنسي في بداية المواجهة قبل أن تتقلب الأوضاع ليصبح هذا الأخير مفلولا متكبداً لخسائر جمة، فما تفاصيل هذه المعركة؟ وكيف أرخ المنصوري وغريمه كنون المختلفان في موقعهما وانتمائهما لهذا الحدث؟ وهل تحلياً بالموضوعية اللازمة في تاريخهما؟

أولاً: معركة لهري حدث بارز في تاريخ المغرب

عائنه الكولونيل لافيردور Laverdure^(١)، كثرة الخسائر البشرية والمادية التي لحقت بمعسكره في خنيفرة بسبب شراسة المقاومة الزيانية، فصار يفكر في خطة الخلاص حسب تقديراته، كما أن انهيار معنويات أفراد الجيش، الذين ظلوا قلقين من كثرة الغارات التي أرقت مضاجعهم، في ظل توحيد قبائل زيان تحت قيادة موحى وحمو الزياني^(٢)، مدعومة بمقاتلين من قبائل أخرى، جعل هذا الكولونيل يفكر في أن فك الحصار عن جنوده رهين بشن غارة على مخيم لهري واختطاف القائد موحى وحمو الزياني^(٣).

فرغم ما سخره المحتل من المقومات العسكرية المادية من عتاد وذخيرة وتموين، والبشرية من ضباط وسرايا للمشاة وخيالة ورماة، في إطار جيش منظم وخطط عسكرية محكمة، رسمت خطوطها العريضة من طرف المارشال هوبير ليوطي "المقيم العام" معتمدا على دراسات سوسيولوجية وإيثيوغرافية قام بها علماء فرنسيون بتوجيه من الإدارة الفرنسية، ومن أشهرهم

الأطلس، في ذروة تلك الجبال، أشم المعطس وأنموا في ترابها، وأربي في شعابها وهضابها، فهي وطني منذ نعومة أظفاري..."، تميز بنبوغه وورعه وحفظه للقرآن حيث نشأ في حضان والده قاسم بن محمد المنصوري الذي كان من مساعدي السلطان المولى الحسن الأول حيث عينه رئيس الجند الذي زود به القائد موحا وحمو الزياني لاستتباب الأمن في تلك المناطق سنة ١٨٧٩م.

تتلذذ على يد العلامة زيان أبي عبد الرحمن النتيفي، وبعدها قصد فاس ليتابع دراسته في القرويين حيث تشبع بالفكر السلفي -الذي انتشر في فاس خاصة والمغرب عامة بفضل العلامة أبو شعيب الدكالي الذي درس بالأزهر وتأثر بفكر محمد عبدو-، ونال الإجازة من علماء المشرق بمكة المكرمة والمدينة المنورة وتونس والجزائر، وفي سنة ١٩٢٠ غادر القرويين إلى وادي زم حيث منح كرسي مسجدها لمباشرة التعليم، وفي ١٩٣٠ عين نائب قاضي وادي زم، وبعدها عين قاضيا في تاوريرت ثم نقل إلى الرباط ثم مراكش حيث كان يزواج بين القضاء والتدريس، ثم نقل إلى سيدي بنور ومنها إلى سوق الأربعاء الغرب ثم إلى مشرع بلقصور سنة ١٩٤٩م إلى أن أحيل على التقاعد بعد استقلال المغرب، فعكف على التأليف إلى أن توفي سنة ١٩٦٥م.^(١٢)

إنتاجه الفكري:

تعددت انتاجات العلامة أحمد المنصوري ومن أبرزها نجد:

في مجال الآداب:

١- مشموم الجبل والسهل، من مناظرة بين العلم والجهل.

٢- المبادئ السامية لأصول الطب في الشريعة الإسلامية.

٣- الأبحاث الرشيدة عن الآداب بين جبال دبدو ورشيدة.

٤- مسامرة الشعراء لحديث الأدباء والشعراء.

٥- الآثار المستطابة من رحلتي لمكة وطابة.

٦- ديوان شعري يحتوي على ثلاثمائة قصيدة: "جيد الشعر وقرره مرتبة على حروف الهجاء".

يعتبرون الحرب تسلية، نسوا أو تناسوا أن العدو يرباط على بضعة كيلومترات من خيمة قائدهم"^(٧)، مما أغضب لافيردور الذي قرر يوم ١٢ نونبر ١٩١٤م، الهجوم على المخيم واختطاف موحي وحمو الزياني ومساعديه الأقربين، ونهب الخيام والقطيع، ثم العودة إلى خنيفرة قبل الساعة الثامنة صباحا من ١٣ نونبر، مستبعداً مقاومة الزيانيين بقوتهم المحدودة التي لا تتجاوز ٦٠٥ فارسا و ١٠٩٠ بندقية فقط.^(٨)

قرار رأى فيه ضابطا المخابرات الفرنسية Ract و Blancaz و Marrot مغامرة ومخاطرة، لا ينبغي الإقدام عليها، لكن لافيردور كان مصراً ومصمماً على تنفيذ الخطة مهما كلفته، فعقد اجتماعا وشرح خطته التي تقتضي خروج القوى على الساعة ٢ ليلا من المعسكر، وتتجه نحو لهري في سكون ودعة، وبدون جلبه، بقيادة قرني الشيطان المذكورين اللذين صحبا معهما ٨٠ فارسا من أبطال المعسكر الراكبين في صفوفه^(٩).

لقد كان لافيردور متحمسا جدا لهجومه المباغت هذا، ولم يساوره شك في نجاحه، رغم التحذيرات التي تذكره بمغامرة Mangin الذي ضمن هو الآخر أن في مقدوره القضاء على موحا وسعيد الوراوي^(١٠) بالقصيبة، فكانت كارثة بالنسبة لجيشه، وقناعة لافيردور هذه سبق أن عبر بها لجنراله ليوطي في خنيفرة قائلاً: "أليس من الصعب يا سيادة الجنرال أن يتردد المرء في انتهاز الفرصة والهجوم على العدو رغم التعليمات، سيما وأنه (العدو) على مرمى من بنادقنا، وأن ذلك لا يتطلب إمكانات كبيرة للانتصار عليه"^(١١) وبذلك تشبث لافيردور بقراره، ولم يستطع أحد في مجلس قيادة الأركان أن يثنيه عن قرار الهجوم.

ثانياً: قراءة في مصدري المنصوري وكنون

١/٢-قراءة في مصدر كباء العنبر من عظماء

زيان وأطلس البربر

التعريف بالمؤلف: هو أحمد بن قاسم بن محمد المنصوري، مكناسي ومنصوري الأصل، من سلالة الشرفاء الأدارسة، ولد بقرية خنيفرة ببلاد زيان حوالي سنة (١٣١٥هـ / ١٨٩٧م)، يقول عن نفسه: "قدر لي وإن كنت مكناسي الدار، منصوري الوجار أن أنشأ في ثايا

صورة غلاف المؤلف^(١٥)

لغلاف كتاب "كباء العنبر" صبغة خاصة تميزه، حيث كتب العنوان كاملا بخط كبير الحجم وبلون أحمر مما جعله بارزا ومثيرا للانتباه، وكتب في أسفله مباشرة اسم المؤلف "أحمد المنصوري"، بخط أقل حجما من العنوان لكنه واضح، وفي أسفل الصفحة كتب اسم المحقق "محمد بن لحسن" والمقدم "مصطفى الكثيري" وفي آخر الصفحة كتب اسم الهيئة الناشرة "الندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير"، وكل ذلك على خلفية مميزة، عبارة عن صفحة من المخطوط (من "وهم أولئك الذين لم يزالوا ... إلى "ولا من أنفق في ذلك ذهبه ولا ورقه")^(١٦)، خلفية رمادية وخط كتابة بني اللون، في جزئها العلوي تدوين، وبأسفل وعلى اليمين إحالات وهوامش، وبذلك يستنتج المتلقي من النظرة الأولى للغلاف، أنه تحقيق لمخطوطة قديمة كتبت بخط اليد.

والغلاف الخلفي للكتاب تم تخصيصه للتعريف بالمحقق الدكتور محمد بن لحسن، نشأة ومسار إنتاجا، حيث ينحدر المحقق من قبيلة آيتسكوكو إحدى قبائل زيان الشمالية، ولد سنة ١٩٤٥م، بدأ مشواره الدراسي بمدينة خنيفرة، حصل على الإجازة في التاريخ والجغرافيا بالرباط ١٩٧٢م، والدكتوراه سنة ١٩٩٧م، درس بالثانوي لمدة عشرين سنة، والتحق بكلية الآداب ببني ملال سنة ١٩٩١م، له إنتاجات عديدة أشهرها:

أما في ميدان التاريخ فقد ألف:

٧- مخطوطة حول "تاريخ بلدة خنيفرة" وهو عبارة عن محاضرة ألقاها في المؤتمر التاسع للمعهد العلمي بالرباط، حققها محمد أمحزون سنة ١٩٨٦.

٨- مخطوطة "كباء العنبر من عظماء زيان وأطلس البربر" حققها الأستاذ محمد بن لحسن، وهي جزء من موضوع محور بحثنا هذا.

إنتاجات تؤكد المكانة العلمية للعلامة أحمد المنصوري، الذي لم يصرفه تقلده لمناصب القضاء والتدريس عن الإنتاج والتأليف.^(١٣)

تعريف وتوصيف المؤلف:

كتاب "كباء العنبر من عظماء زيان وأطلس البربر" في الأصل مخطوطة، توجد نسخة مصورة منها بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم ٩٤٦، والنسخة الأصلية في حوزة ابن المؤلف الأستاذ عز الدين المنصوري بالبيضاء،^(١٤) حققها الأستاذ محمد بن لحسن، وقدمها الأستاذ مصطفى الكثيري، ونشرته الندوبية السامية لقدماء المقاومين، بدعم من وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، حيث خرج في طبعته الأولى (الصورة) سنة ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، من مطبعة الكرامة بالرباط، في ٣٢٣ صفحة من الحجم الكبير (24سم×17سم)

- قراءة في الغلاف والعنوان:



- معركة لهري (١٣ نونبر ١٩١٤) صفحات من الجهاد الوطني، مطبعة أنفو-برانت، فاس، ط٢٠١١م.
- Moha ou Hamou Zayani l'âme de la résistance marocaine a la pénétration Française dans le moyen Atlas. Imp. Infoprint, 2003, Fès.

الجزء الأول: تطرق لنشأته وللمرتكزات لحضارية (التاريخ+ الجغرافيا+ الاقتصاد+ الإنسان) حيث رصد تاريخ مدينة خنيفرة وجغرافيتها، ومكونات قبائلها والقبائل المحيطة بها، مركزاً على زيان الذين ذكر مختلف خصائصهم التي تميزهم (شجاعتهم- إسلامهم- خيراتهم- أنشطتهم الاقتصادية- سكانهم- صفاتهم- جهادهم...) إلى جانب رصد علاقتهم بالدولة العلوية الحاكمة، والأدوار الإيجابية التي قام بها القائد موحى وحمو الزياني في ظل الدولة العلوية.^(١٩)

الجزء الثاني: اهتم برصد مقاومة القبائل خاصة الزيانية للغزو الاستعماري الفرنسي، مركزاً على بطولات القائد موحى وحمو الزياني (أبرزها معركة لهري) التي كبدت الجيش الفرنسي خسائر فادحة، وموضحاً دور القيادة السياسية والعسكرية التي استأثر بها هذا القائد الذي عمل على توحيد القبائل تحت قيادته، وإعداد أفرادها للقتال وتوفير العدة اللازمة، والقيادة الفكرية التي قادها العلماء والفقهاء في مقدمتهم محمد بن عبد الكبير الكتاني وسيدي علي أمهاوش ومولاي أحمد السبعي، الذين ارتفعت أصواتهم المناهية بالجهاد وبذل الغالي والنفيس في سبيل إعلاء كلمة الإسلام، ضد المستعمر المسيحي الصليبي، ثم يعرج على أشهر المعارك التي قادتها قبائل الأطلس ضد المستعمر قبل وبعد معركة لهري، وكيف تم استقطاب ثلة من أبناء موحى وحمو الزياني وتحويلهم من مقاومين غلى مناصرين للغزو الاستعماري، حيث مهدوا طريق التوغل في جبال الأطلس المتوسط وإسقاط القبائل المقاومة الواحدة تلو الأخرى، لينتهي باحتلال القصيبة سنة ١٩٢٢م، ويختم بحدث مقتل بوعزة ابن موحى وحمو الزياني، الذي تميز بشراسته ووصف بالخائن الذي يقاتل أهله لإرضاء العدو.^(٢٠)

العدة المصدرة والمرجعية: يمكننا تقسيمها إلى نوعين:

مصادر ومراجع المؤلف: اعتمد المؤلف على العديد من المصادر والمراجع المكتوبة والشفوية، والتي دونها في مخطوطته، ومن أشهرها:

المكتوبة: اعتمد الكاتب بطبيعة الحال على مصادر مكتوبة لم يشر إليها المحقق بوضوح، باستثناء الإشارة

أما العنوان "كباء العنبر من عظماء زيان وأطلس البربر"، فالكباء بمعنى عود البخور^(١٧)، والعنبر مادة صلبة لا طعم ولا ريح لها إلا إذا سحقت وأحرقت فتنبعث منها رائحة زكية، ويقال إنه روث دابة بحرية^(١٨)، وعظماء زيان هم بطبيعة الحال المقاومون الذين استرخسوا دمائهم في سبيل الله وضحو بأرواحهم من أجل وطنهم، وبذلك فالكتاب من خلال العنوان يتحدث عن خبرة المقاومين والعلماء والفقهاء الزيانيين وغيرهم بجبال الأطلس.

تصميم الكتاب:

يتألف المصدر الذي بين أيدينا من تقديم ومقدمة وجزأين:

التقديم: قدم الأستاذ مصطفى الكثيري المندوب السامي لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، كتاب "كباء العنبر" الذي حققه الأستاذ محمد بن لحسن، حيث نوه بمساهمة العلامة أحمد المنصوري في التأريخ لأحداث بلادنا المغرب عامة والمقاومة الزيانية خاصة، كما نوه بعملية التحقيق الرزينة والدقيقة، المبنية على المعايير والضوابط العلمية، التي أسفرت عن هذا الإنتاج العلمي الرصين، الذي سيساهم في إغناء معارف ومعارك الأجيال الصاعدة حول تاريخ وجهاد الأسلاف.

المقدمة: ركزت مقدمة الكتاب على رصد عصر المؤلف الذي يمتد من أواخر القرن ١٩م إلى غاية ستينات القرن العشرين، وهي الفترة التي عرف فيها المغرب أصناف الضغوط الاستعمارية، وخضع للحماية الفرنسية التي ووجهت بمقاومة مسلحة وسياسية انتهت باستقلال المغرب، كما وقفت المقدمة بتفصيل وتدقيق على رصد حياة المؤلف من نشأته وتعلمه، وزياراته ودراسته، ومهامه ومناصبه، وإنتاجاته الفكرية.

وحسه السياسي الحكيم..."، كما شارك في الحرب بفرنسا حيث جرح في جبهة شامباني ومورونفيلي في ١٧ أبريل ١٩١٧، فأصبح بذلك ضابط جوقة الشرف، وضمن الإطار الخاص بضباط الاستعلامات يشغل مرتبة رئيس مكتب من الدرجة الأولى.^(٢٤)

وذكر المنصوري أن كنون كان طالب علم مهاجر بمدرسة أروكو في فترة قبل الحماية (وربما اندرج ذلك في إطار دراسته لقبائل آيت أومالو)، وأخيراً انتقل لمكناس في بعض إداراتها، وهناك أدركته المنية في ١٣٥٧هـ / ١٩٣٨م، حيث تشهد شهادة الإسلام، وأوصى أن يدفن بضريح سيدي بنعيسى.^(٢٥)

إنتاجه الفكري:

استفاد سعيد كنون من التعليم الفرنسي بالجزائر، الذي مكّنه بعد دخوله الجندية الفرنسية، من فرض نفسه والترقي في المراتب خاصة بفضل إتقانه للغة الأمازيغية، فصار ضابط استعلامات، مجبر على إعداد تقارير دورية حول ساكنة وطبيعة المناطق المحتلة والمراد احتلالها، فبرع في ذلك، حسب شهادة العقيد هوتو Hout، ومن أبرز إنتاجات الضابط سعيد كنون نجد:

- كتاب "الجبل الأمازيغي آيت أومالو وبلاد زيان: المجال والإنسان والتاريخ".
- كتب مقالات عديدة في جرائد ومجلات أشهرها مجلة السعادة.
- كتب دليلاً منوغرافياً Notice حول جوانب حياة القبائل، قدمه لرئيسه العقيد هوتو.
- كتب عدة بحوث أشهرها بحث حول فرق الجياشة والعصابات، أعادت نشرته مجلة إفريقيا الفرنسية (عدد ١٩٢٧، ص ٤٨٣).

تعريف وتوصيف المؤلف:

يعتبر كتاب "الجبل الأمازيغي آيت أومالو وبلاد زيان: المجال والإنسان والتاريخ" الذي ألفه الضابط سعيد كنون، في الأصل بحثاً عسكرياً ينجزه ضباط الشؤون الأهلية حول مختلف جوانب حياة القبائل التي كلفوا بتسييرها، يطلق عليه لفظ Notice، ولأنه لا يوجد مقابل دقيق لتعريبه، استقر الرأي على تسميته بالدليل

الواضحة التي أوردها المؤلف حول قراءته ونقده لمقال الضابط سعيد كنون وموقفه من المقاومة الزيانية رغم كونه أمازيغي قبائلي من الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية.^(٢٦)

الشفوية: تعتبر الرواية الشفوية الزيانية من أهم مصادر المؤلف، حيث ذكرها في أكثر من مناسبة، كحديثه عن فظاعة الهجوم الفرنسي على مخيم لهري" كان ممن قصد رجال المدفعية معمي ولد الحاج حدو، وهو من أصدقائنا، فحكى لنا أنهم شنوا الغارات..."^(٢٧) أو في إطار حديثه عن دعم ألمانيا والدولة العثمانية للمقاومة الزيانية حيث قال "... وليس لدينا إلا العالم سيدي عبد الرحمان النتيفي شيخنا" وهاهو الفقيه يقص علينا ما جرى..."^(٢٨) مما يؤكد أن المؤلف اعتمد بشكل كبير على الرواية الشفوية للمعاصرين للحدث، خاصة أن وظيفته بالقضاء في وادي زم كانت تبعده عن بلاد زيان موطن الحدث.

مصادر ومراجع المحقق: اعتمد المحقق بدوره في عملية تحقيق المخطوطة موضوع الدراسة على ٥٤ مصدراً باللغة العربية منها القديمة والحديثة، و٢١ مصدراً باللغة الأجنبية. وقد أوردها في نهاية الكتاب قبل الفهرس.

٢/٢-قراءة في مصدر الجبل الأمازيغي آيت

أومالو وبلاد زيان

التعريف بالمؤلف:

حياته:

القبطان سعيد كنون أمازيغي قبائلي من الجزائر، ينحدر من أولاد عيسى بناحية ذراع الميزان، التحق بالجندية في يناير ١٩٠٢م، وعين ملازماً ثانياً (Sous-lieutenant) في أكتوبر ١٩١٢، وفي ١٩١٤ اعترف له بحقوق المواطنة الفرنسية فألحق بالنظام العسكري الفرنسي ورفي إلى رتبة قبطان في دجنبر ١٩١٦، شارك في المعارك ميدانياً، حصل على تنويه عسكري سنة ١٩٢٤ وصفه بـ "ضابط استعلامات من الطراز الأول قدم خدمات جليلة لعمليات التهدة على جبهة زيان، بفضل معرفته العميقة باللغة والأعراف الأمازيغية وميزاته العسكرية الرائعة الممثلة في الأقدام والعنفوان،

سما منظر طبيعي خلاب (الخلفية) لمنطقة من مناطق جبال الأطلس المتوسط، ثم يليه العنوان الفرعي "المجال والإنسان والتاريخ" بخط أقل سمكا وبلون أبيض في قلب المرتفعات المطلة على تجمع سكاني في أعلى تلة، ثم اسم المترجم في أسفله، وفي آخر الصفحة على اليمين رمز الهيئة الناشرة، وبالتالي فغلاف هذه الطبعة بمنظرها الطبيعي وعنوانها الدقيق والمركز، غاية في الإتيان، يغري المتلقي بالسفر في ثناياه واكتشاف خباياه.

وفي الغلاف الخلفي لهذا الكتاب، بعد رمز سلسلة ضفاف في عددها ١٨ في أعلى الصفحة أقصى اليسار، ثم اسم المؤلف وعنوان الكتاب في الوسط، نجد مقتطفات مهمة من تقديم المترجم (المعرب) الدكتور محمد بوكبوت لعمله هذا فوق خلفية زرقاء، والمدرج بين دفتي الكتاب ٢٨، وفي آخر الصفحة على اليمين رمز الهيئة الناشرة، وعلى اليسار ثمن المؤلف بالدرهم (٦٠ درهما).

أما فيما يخص العنوان، فقد اختاره المؤلف بعناية تامة، حيث تم الإفصاح عن جوانب موضوع الدراسة والمتمثلة في "المجال" الذي حدده بدقة "الجبل الأمازيغي وبلاد زيان"، ثم "الإنسان" الفرد والجماعة قبائل "آيت أومالو"، ساكن المجال السالف الذكر والمتفاعل معه لإنتاج نمط ثقافي واقتصادي معين، ثم "التاريخ" أو الزمن التاريخي كنتاج تفاعل الإنسان بالمجال وعلاقته بالحركة وتوالي الأحداث والتطور والتغير، وبالتالي دمج المؤلف بين المفاهيم الهيكلية لحقل التاريخ (المجال، الزمن والإنسان).

كما أن صورة الغلاف -المنظر الطبيعي- تعبر ضمناً عن العنوان، حيث يظهر المجال "الجبل الأمازيغي وبلاد زيان" الممتد والشاسع بجباله الشاهقة وسفوحه الحادة، والتجمع السكاني في قلب المجال دلالة على تفاعل الإنسان "قبائل آيت أومالو" مع المجال، أما الزمن التاريخي وأحداثه المتنوعة فيمكن اكتشافه من خلال الغوص في ثنايا الكتاب.

٢- تصميم الكتاب

صمم الكاتب مؤلفه بشكل منهجي، حيث انطلق من تحديد وتعريف المجال المدروس ثم أهم الأنشطة الاقتصادية، وعرج على دراسة الإنسان وخصائصه

المونوغرافي،^(٢٦) صدر هذا الكتاب في الأصل باللغة الفرنسية سنة ١٩٢٩م، والنسخة المعربة التي بين أيدينا هي من تعريب الدكتور محمد بوكبوت، للنسخة التي أصدرتها مصلحة الشؤون الأهلية بالمغرب عن منشورات لجنة إفريقيا الفرنسية بباريس سنة ١٩٢٩م، طبعت هذه النسخة المعربة بمطبعة بني يزناسن، سلا، منشورات الزمن، سلسلة ضفاف، العدد ١٨، يوليو ٢٠١٤م، بدعم من وزارة الثقافة المغربية، فخرجت في ٢١٠ صفحة من الحجم المتوسط (24سم×17 سم)



صورة لغلاف المؤلف^(٢٧)

١- قراءة في الغلاف والعنوان:

لكتاب "الجبل الأمازيغي" غلاف جذاب تم تصميمه باحترافية، حيث يظهر في الأعلى أقصى اليمين رمز سلسلة ضفاف في عددها ١٨، واسم المؤلف والعنوان الرئيسي "الجبل الأمازيغي آيت أومالو وبلاد زيان" بخط عريض في وسط أعلى الصفحة بلون أزرق في

معين، وفي دراستنا هذه حول حدث معركة لهري، ارتأينا الأخذ بمنهج المقارنة بين مؤلفين بارزين عاصراً الحدث، أحدهما للعالم والقاضي (أحمد المنصوري) المنحدر من قبائل زيان، والذي يشيد بالمقاومة الزيانية، والآخر ضابط في الجيش الفرنسي (سعيد كنون) شارك في المعركة فخص لها جزءاً من مؤلفه حول قبائل آيت أومالو، علماً نسبر أوجه التشابه والتناقض بين المؤلفين، وننظر للحدث بمنظاريين محلي وأجنبي، على اختلاف خلفياتهما وتوجهاتهما وأهدافهما المعلنة والمضمرة.

٢/٣-المقارنة: جدول المقارنة^(٢٩)

المنصوري أحمد	كنون سعيد	
تكوين ديني على يد علماء ومشايخ في القرويين بفاس وفي المشرق، فأجازوه بفضل نبوغه واجتهاده.	تكوين عسكري في تخصص الاستعلامات بعد تكوين دراسي عصري في المدارس الفرنسية بالجزائر.	التكوين العلمي
مارس مهنة التدريس في المساجد ثم ولج مهنة القضاء كمساعد في البداية ثم كقاضي في عدة مدن مغربية في ظل الحماية الفرنسية.	بدأ مساره في صفوف الجيش الفرنسي كجندي ثم غدا ملازماً ثانياً، ورقي بعدها لرتبة قبطان، ثم ضابط استعلامات، وشارك في الحرب العالمية الأولى ونال وسام جوقة الشرف.	المسار المهني
منهج استنباطي انطلق من العام إلى الخاص، مع احترام التسلسل الكرونولوجي في سرد الأحداث	منهج استنباطي انطلق من العام إلى الخاص، مع احترام التسلسل	المنهج المعتمد في الدراسة

ومميزاته وأنشطته، وبعد ذلك انتقل لسرد أحداث وتفاعلات وتفاصيل الزمن التاريخي، وبذلك بقي مخلصاً لما تبناه من خلال عنوان الكتاب.

فقد قسم الكاتب مؤلفه هذا إلى ست أقسام، قسم أول خصصه لتحديد بلاد آيت أومالو عامة وبلاد زيان خاصة، وثاني أدرج فيه بطاقة اقتصادية عن أهم الأنشطة الاقتصادية بهذا المجال (رعي/ فلاحة/ صناعة/ تجارة)، وثالث وصف خلاله إنسان المنطقة وخصائصه (اللغة/ العادات/ الدين/ اللباس/ المعاملات...)، وفي القسم الرابع، ركز على تنظيمات آيت أومالو السياسية والعسكرية ومكانة الأمغار بها، ثم عرف بأبرز شخصياتها خلال زمن الدراسة (أواخر القرن ١٩م وبدايات القرن ٢٠م)، أما في القسم الخامس فقد شرع في سرد أحداث وتفاصيل عمليات تهدئة (احتلال) بلاد آيت أومالو، باعتماد نهج كرونولوجي، أما القسم السادس فقد خصصه للعمل المستقبلي، ما لم يتم إنجازها في زمن كتابة هذا المؤلف، أي ما يجب القيام به مستقبلاً من احتلالات لإخضاع السطح الشمالي للأطلس الكبير وصولاً إلى منطقة واويزغت التي تعتبر آخر معاقل المقاومة والتي لم يتم احتلالها إلا سنة ١٩٣٤م، حيث أورد معلومات اقتصادية وعسكرية وسياسية ومعلومات عن المقاومة، ثم ختم بخاتمة وملاحظات عديدة، ثم أدرج ٧ ملاحق حول قيادات وأنساب الأسر المشهورة.

ومن خلال هذا التصميم يظهر جلياً أن هذا الكتاب عبارة عن تقرير وبحث عسكري دقيق وشامل يعطي معلومات متنوعة لمكونات الجيش الفرنسي قصد ضبط سيطرتها على المناطق الخاضعة، وتكوين معرفة شاملة عن المناطق غير الخاضعة، لتسهيل عملية غزوها، وقد طعم المؤلف كتابه بالعديد من الصور والخرائط الداعمة والموضحة، التي زادت من قيمة واحترافية هذا العمل.

ثالثاً: مقارنة بين مصدري المنصوري وكنون

١/٣-تقديم

الاعتماد على عملية المقارنة من السبل والعمليات الفكرية والعلمية المعتمدة لرصد أوجه التشابه والاختلاف بين المؤلفات التاريخية التي تؤرخ لحدث

المنصوري أحمد	كنون سعيد	
المقالات والكتب أما من حيث	يستوجه من سرية وكتمان لمصادر المعلومات والاحصائيات.	
بخصوص معركة لهري		
ألقاب المعركة	وقعة لهري الشهيرة، المعركة، النزلة المخوفة، الواقعة، الغدر، المتوقعة، الحادثة، الفجيعة	القضية، الكارثة، الأحداث الحزينة، المعركة، القضية المؤسفة
دوافع المعركة	تحدث الكاتب عن عمر وأخيه باحسين "قرون الشر" المطرودان من طرف القائد م ح ز بسبب السرقة، هما اللذان أخبرا قائد المعسكر الفرنسي بموقع مخيم لهري وسهولة الهجوم لاختطاف القائد ومحو، وبناء عليه اتخذ لافيردور قرار الهجوم رغم معارضة الضابطين Morrot و RactBlancaz.	ذكر الكاتب أن عمر وأخاه باحسين "مخازنين مخبرين" هما اللذان أخبرا قائد المعسكر لافيردور بموقع مخيم لهري وسهولة الهجوم عليه لاختطاف القائد موحى وحمو، وبناء عليه اتخذ لافيردور قرار الهجوم رغم معارضة الضابطين Morrot و RactBlancaz.
تفاصيل بداية المعركة	أشار الكاتب إلى بداية انطلاق الجيش من خنيفرة مع الثالثة من صباح يوم الجمعة ١٣ نونبر ١٩١٤م، ومع إطالة السحر بدأ الهجوم الغادر على	أكد الكاتب أن الجيش الفرنسي انطلق من خنيفرة صباح الجمعة ١٣ نونبر ١٩١٤م، في أربع مجموعات في صمت، ومع مطلع الصباح استيقظ

المنصوري أحمد	كنون سعيد	
الأسلوب المعتمد	جمالية في أسلوب الكتابة، وانتقاء للمصطلحات والكلمات والأوصاف، وتوظيف أبيات شعرية وآيات قرآنية وأمثال وحكم	الكرونولوجي في سرد الأحداث (حسب النص المترجم) أسلوب عسكري تسوده الدقة والوضوح، تغيب فيه الجمالية الأدبية، وتكثر فيه المصطلحات العسكرية والإحصاءات، وتقديرات للمسافات والأبعاد
الموضوعية	يظهر جلياً من خلال المؤلف أن الكاتب منقاد بالحمية الإسلامية ومتحيز للزيانيين، حيث نعتهم بالشهداء والأحرار والمجاهدين والمقاومين والمسلمين، في مقابل نعتهم للفرنسيين بالكفار والغزاة والأعداء	يظهر من خلال الكتاب أن المؤلف متحيز للجيش الفرنسي، حيث نعت عمليات التوغل بالتدخل لتتظيم البلاد والحفاظ عليها، ونعت أفراد الجيش بالشجعان والأبطال في مقابل نعت المقاومين بالهجم والمتوحشين والأعداء.
العلمية	من حيث العدة المصدرية فقد أفصح المؤلف نسبياً عن المصادر الشفوية والمكتوبة التي نهل منها، كلقائه مع بعض الشخصيات، وقراءته لبعض	التستر عن مصادر المعلومات (شفوية- مكتوبة) نظراً لطبيعة العمل الإستخباري السري الذي يقوم به ضباط الاستعلامات، وما

المنصوري أحمد	كنون سعيد	
حيث قتلوهم بدون رحمة ومثلوا بجثثهم.	حيث قتلوهم بدون رحمة ومثلوا بجثثهم.	
خسائر الجيش الفرنسي	حدد خسائر الفرنسيين في ٣٠١٣ جندي وضابط، وتجاوز عدد الضباط ١٠٠، إلى جانب العتاد والعدة	بلغ عدد القتلى ٣٣ ضابطا و٧٠٠ جندي، إضافة إلى العتاد والعدة
خسائر المقاومة	حدد عدد القتلى في ٣٠٠ شهيد، وحوالي ١٠٠٠ جريح	بلغ عدد القتلى في صفوف العدو حوالي ٤٠٠ قتيل.
تبادل الأسرى والجثث	استرجع القائد زوجته وابنته من الأسر وافتداهن بجثث القتلى الجنود الذين في حوزته.	استرجع المركز جثة العقيد لافيردور وخمسة ضباط في مقابل زوجتي ومحمو.
بعيد المعركة	في ١٨ نونبر ١٩١٤م جاءت قوة عظيمة إلى موقع المعركة حيث التقطت الجثث والمدافع، وهو الحدث الذي حضره الكاتب شخصيا.	في ١٦ و ١٧ نونبر ١٩١٤م وصلت قوات الإغاثة، وفي ١٨ منه انتقلت إلى مكان المعركة لدفن الموتى، وقامت باستعراض قوة على مرأى العدو المتأهب، دون الدخول في المواجهة.
آثار وتبعات المعركة	- صمت آذان فرنسا بحديث الفجيعة، فتجاوزت رجال الحرب	- كون القائد ومحمو مجموعات قبلية ووزع عليها أراضي

المنصوري أحمد	كنون سعيد	
المخيم حيث سقطت النساء والأطفال والرجال، وحكى الكاتب عن هول المجزرة بالمخيم وعن بطولات النساء	أهل زيان على ذوي إطلاق كثيف للرصاص والمدافع ففروا مذعورين	
نجاة موحى ومحمو الزياني	ذكر الكاتب بان القائد موحى ومحمو نجا بفضل زوجتيه، إحداهما سرجت فرسه والأخرى أجمته وحلت رباطه.	أشار الكاتب إلى أن نجاة القائد موحى ومحمو الزياني كانت بفضل ولديه بوعزا وباعدي، اللذان وضعاه بسرعة على فرسه وأبعدها نحو مزكوشن.
تفاصيل الجزء الثاني من المعركة	توافد المجاهدون من كل حذب وصوب لقطع طريق عودة الجيش الفرنسي إلى مركز خنيفرة، حيث هبت أصناف زيان من أروكو وأقلال، كما هب كل من إيشقيرن وآيتسخمان وبني مجليد... فألحق المجاهدون بجيش العدو خسائر فادحة، حيث قتل معظمهم وانتحر الكولونيل لافيردور بعد تأكده من الهزيمة.	انشغل الجنود بنهب الخيام، بينما كان العدو يتمالك أنفاسه ويستعيد توازنه ويتقوى بتوافد قبائل زيان وإيشقيرن وآيت إسحاق لقطع طريق العودة. فتكبد جيشنا 'الفرنسي' خسائر فادحة في رمشة عين بسبب انقضاض زيان الهائج من كل حذب وصوب، ويحكي مشاهد من الرعب والوحشية في تعامل الأعداء 'زيان' مع جنودنا

خاتمة

يظهر جلياً وبالملموس من خلال القراءة والتحليل والمقارنة للمصدرين السالفين، أن أصعب ما يمكن توسمه في كتابات تاريخية مصدرية مختلفة المشارب والانتماءات، حول حدث معين، هي الموضوعية والحياد، فالعلامة أحمد المنصوري يكتب انطلاقاً من تموقعه وانتمائه كمسلم مغربي يحب وطنه ويدافع عليه، في ظل استعمار من طرف العدو الفرنسي المسيحي (الكافر)، وبذلك كتب منافحاً عن المقاومين ممجداً لنضالهم ومقدساً لدمائهم، في مقابل شيطنة العدو المحتل والمستعمر، أما سعيد كنون فرغم كونه من أصول جزائرية أمازيغية، إلا أن مهمته العسكرية التي كلف بها تسموا على انتماؤه، وإتقانها حري بترقيه في سلم الرتب العسكرية، ونيل رضا مرؤوسيه، فكتب ممجداً للبطولات العسكرية ولأفراد الجيش الفرنسي الذي يسعى جاهد -حسب منظوره- إلى التهدة وإخماد التمردات وعصيان القبائل من أجل بسط سيطرة الحماية الفرنسية على بلاد المغرب قصد المساعدة على تحديث هذه الدولة وعصرنتها، حسب ما جاء في ديباجة معاهدة الحماية: "الفصل الأول: إن دولة الجمهورية الفرنسية ودولة جلالة السلطان قد اتفقتا على تأسيس نظام جديد بالمغرب مشتمل على الإصلاحات الإدارية والعدلية والتعليمية والاقتصادية والمالية والعسكرية التي ترى الدولة الفرنسية إدخالها نافعاً بالإيالة المغربية".^(٣١) وهو المشروع الذي لا يمكن أن يكتمل إلا بانخراط جميع أطراف المجتمع المغربي سواء باللين أو باستعمال القوة.

كما ظهر لنا من خلال المقارنة، بعض من المبالغة من طرف العلامة المنصوري في تقدير قتلى الجيش الفرنسي، حيث قدر القتلى الجنود بـ ٣٠١٣ والضباط بـ ١٠٠ ضابط، في مقابل تقليل خسائر المقاومة التي لم تتجاوز حسب تقديره ٣٠٠ قتيل، في حين اتصف كنون بنسبة كبيرة من الموضوعية في تحديد عدد قتلى الجيش الفرنسي والمقاومين، فمغالاة المنصوري هذه غير مفهومة ولا منطقية، علماً أنه اطلع على كتابات الفرنسيين بما فيهم نده كنون هذا، فهل حبه للمقاومة واعتزازه بانتماؤه

المنصوري أحمد	كنون سعيد
بالمغرب إلى رجال السلطة بباريز، فتجرعوها غصة، فكتب عنها - كانت هناك مؤرخوها، ونصبوا لها في مواطن المعركة نصبا كالتذاكير، وبدون حياء ولا خجل سموهم شهداء الشرف.	الانتجاع، مما مكنه من إخماد النزاعات القديمة. - كانت هناك محاولات للاتصال بالألمان خاصة من طرف أولعايدي.
- وصل خبر الانتصار للألمان والعثمانيين الذين راسلوا القائد عبر مخبريهم مهنيين له بالفوز ومؤكدين له استعدادهم للمساعدة.	- حدث صراع مصالح بين أبناء القائد أدى إلى انضمام بعضهم إلى الجيش الفرنسي.
- كاد الفرنسيون ينسحبون من معسكر خنيفرة بعد المعركة، لذا لزموا وكرهم ولم يجروا على خوض أية معركة، بل إنهم أصبحو محاصرين من جديد فلا مؤنة أو إمدادات تصلهم إلى ويعترض سبيلها من طرف المجاهدين ولا تصل إلى بشق الأنفس.	- حدث صراع بين أبناء القائد أدى إلى انضمام بعضهم إلى الجيش الفرنسي.
بالمغرب إلى رجال السلطة بباريز، فتجرعوها غصة، فكتب عنها - كانت هناك مؤرخوها، ونصبوا لها في مواطن المعركة نصبا كالتذاكير، وبدون حياء ولا خجل سموهم شهداء الشرف.	الانتجاع، مما مكنه من إخماد النزاعات القديمة. - كانت هناك محاولات للاتصال بالألمان خاصة من طرف أولعايدي.
- وصل خبر الانتصار للألمان والعثمانيين الذين راسلوا القائد عبر مخبريهم مهنيين له بالفوز ومؤكدين له استعدادهم للمساعدة.	- حدث صراع مصالح بين أبناء القائد أدى إلى انضمام بعضهم إلى الجيش الفرنسي.
- كاد الفرنسيون ينسحبون من معسكر خنيفرة بعد المعركة، لذا لزموا وكرهم ولم يجروا على خوض أية معركة، بل إنهم أصبحو محاصرين من جديد فلا مؤنة أو إمدادات تصلهم إلى ويعترض سبيلها من طرف المجاهدين ولا تصل إلى بشق الأنفس.	- حدث صراع مصالح بين أبناء القائد أدى إلى انضمام بعضهم إلى الجيش الفرنسي.

- لقبائل زيان هو ما دفعه للمبالغة في تقدير خسائر الجيش الفرنسي؟ أم أن هناك سبب آخر؟ وفيما يخص سعيد كنون، فيعاب عليه تجاهل المجزرة التي قام بها الجيش الفرنسي في مخيم لهري ضد الأهالي العزل النيام، حيث تمت مباغتتهم على حين غرة، فعاثوا فيهم فساداً وتقتيلاً، ثم نهبوا قطعانهم وممتلكاتهم، في مقابل إبدائه لحسرتة وحزنه على انتقام المقاومين من أفراد الجيش الفرنسي شر انتقام، عند ملاحقتهم وقطع طريق التحاقهم بمعسكر خنيفرة، وهو ما يؤثر على موضوعية الكاتب.
- (١١) محمد بن لحسن، **معركة لهري**، مر س نقلاً عن Rapport n° 263، ص ٨٥.
- (١٢) أحمد المنصوري، م س، ص ١٧-٢٤.
- (١٣) المصدر السابق ص ٢٤.
- (١٤) نفسه، نفس الصفحة.
- (١٥) من إنجاز الباحث اعتماداً على النسخة الإلكترونية.
- (١٦) أحمد المنصوري، م س، ص ٤٢-٤٤.
- (١٧) إبراهيم أنيس وآخرون، **المعجم الوسيط**، مجمع اللغة العربية-مكتبة الشروق الدولية، ط ٤، القاهرة، ٢٠٠٤ م، ص ٧٧٤.
- (١٨) نفس المرجع ص ٦٣.
- (١٩) أحمد المنصوري، م س، ص ٤٤-١٩٠.
- (٢٠) نفسه، ص ١٩١-٢١٣.
- (٢١) نفسه، ص ٢٦٠-٢٦١.
- (٢٢) نفسه، ص ٢٥٧.
- (٢٣) أحمد المنصوري، م س، ص ٢٥٤-٢٦٧.

- (٢٤) كنون سعيد، **الجلب الأمازيغي آيت أومالو وبلاد زيان: المجال والإنسان والتاريخ**، تعريب محمد بوكبوت، إصدار مصلحة الشؤون الأهلية بالمغرب، عن منشورات لجنة إفريقيا الفرنسية، باريس، ١٩٢٩م، مطبعة بني يزناسن، سلا، منشورات الزمن، سلسلة ضفاف، العدد ١٨، يوليو ٢٠١٤ م، ص ٩-١٠.
- (٢٥) أحمد المنصوري، م س، ص ٢٦١.
- (٢٦) سعيد كنون، م س، ص ١١.
- (٢٧) من إنجاز الباحث اعتماداً على النسخة الإلكترونية.
- (٢٨) سعيد كنون، م س، ص ٦-٧.
- (٢٩) من إنجاز الباحث اعتماداً على مضامين المؤلفين.
- (٣٠) سعيد كنون، م س، ص ١٨٠.
- (٣١) معاهدة فاس "الحماية"، وقعت في ٣٠ مارس ١٩١٢م، الفصل الأول، نسخة إلكترونية، ص ١.

الإحالات المرجعية:

- (١) الكلونيل Laverdure : هو رينيه فيليب ليفيردور René Philippe Laverdure ولد في 27 يناير ١٨٦٢ في باريس وتوفي يوم 13 نوفمبر ١٩١٤ في معركة لهري، بقرية تبعد بحوالي ١٥ كلم من مدينة خنيفرة بالمغرب، ودفن في مقبرة بن مسيك بالدار البيضاء، التحق سنة ١٨٨٠م عن عمر ١٨ سنة بفوج المشاة البحري الأول، عين في عدة مناصب ورتب، آخرها في سنة ١٩١٤م حيث عين قائدا لإقليم زيان- خنيفرة- من قبل الجنرال ليوطي.
- (٢) **موحي وحمو الزياني**: هو محمد (ينطقها الأمازيغ موحى) وحمو (الواو بمعنى ابن) ابن عقى بن أحمد المدعو أمحزون بن موسى بن سعيد بن عبد الرحمان بن موسى بن لحسن بن سعيد ويشو
- (٣) محمد بن لحسن، **معركة لهري (١٣ نونبر ١٩١٤) صفحات من الجهاد الوطني**، مطبعة أنفو-برانت، فاس، ط ١، ٢٠٠١م، ص ٦٩
- (٤) محمد بن لحسن، **معركة لهري**، مر س، ص ٧٩
- (٥) المنصوري أحمد، **كباء العنبر من عظماء زيان وأطلس البربر**، تحقيق وتقديم محمد بلحسن منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، مطبعة الكرامة الرباط، ط ١، ٢٠٠٤، ص ٢٥٤
- (٦) محمد بن لحسن، **معركة لهري**، مر س، ص ٨٦
- (٧) محمد بن لحسن، **معركة لهري**، مر س، ص ٨٧.
- نقلا عن J. Le Prévost p 161.
- (٨) المالكي الملكي بن الجيلالي، **ثورة القبائل ضد الاحتلال**، ج ٢، المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، دار أبي رقرق، الرباط، ط ١، ٢٠١٤ م، ص ٥٧٠.
- (٩) أحمد المنصوري، م س، ص ٢٥٥
- (١٠) **موحي وسعيد الوراوي**: هو محمد أوسعيد أوعسو الوراوي (من قبائل آيتوورا) قائد المقاومة ضد الفرنسيين في منطقة القصيبة حيث كبد الفرنسيين خسائر فادحة.

ملاحم التحول في التنظيمات الاجتماعية لقبيلة "أيت عبيد وعلي" بين العرف والتدخل الاستعماري من "تَعْقِيْت" إلى "القَائِد"

حسن أمزوز

باحث في سلك الدكتوراه

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة السلطان مولاي سليمان – المملكة المغربية



ملخص

يندرج المقال الراهن ضمن حقل التاريخ الاجتماعي للقبائل المغربية، ويتناول ملاحم التحولات التي طرأت على مؤسسات التنظيم الاجتماعي لدى قبيلة "أيت عبيد وعلي"، إحدى القبائل المكونة لاتحادية "أيت سَحْمَان" بالأطلس المتوسط، وذلك خلال فترتين حاسمتين: ما قبل الاستعمار الفرنسي (قبل ١٩٣٢م) وخلال فترة التدخل الاستعماري (من ١٩٣٢م إلى ١٩٥٦م). وقد حاولنا فيه فهم تطور أنماط ممارسة السلطة، وأشكال الشرعية، من خلال وصف وتحليل ثلاث مؤسسات تنظيمية أساسية لعبت أدواراً مركزية في تاريخ القبيلة المدروسة، وهي: مؤسسة "تَعْقِيْت" باعتبارها آلية تنظيمية تنبني على سلطة العائلة والرضى الجماعي، وقد عرفت القبيلة في مرحلة ما قبل الاستعمار، مؤسسة "أَمْغَار" كإطار تنظيمي توافقي يمثل مختلف الفخزات المكونة للقبيلة، ويُعهد إليه بقيادة شؤون القبيلة، وتنسيق العلاقات بين فخزات القبيلة في السلم والحرب. مؤسسة "القَائِد" التي جسدت سلطة مفروضة من طرف الاستعمار الفرنسي، عبر ادماج القبيلة في هيكل الدولة المركزية الاستعمارية، أدت إلى ظهور تغييرات في تمفصل السلطة. كما يرصد مقالنا هذا، انطلاقاً من المصادر المكتوبة والرواية الشفوية، ومن خلال المقارنة بين هاتين المؤسسات، كيف أعادت القبيلة إنتاج نظمها الاجتماعية بين منطق الاستمرارية والتكيف والصراع.

كلمات مفتاحية:

أيت عبيد وعلي؛ التنظيمات الاجتماعية للقبيلة؛ مؤسسة "تَعْقِيْت"؛ مؤسسة "أَمْغَار"؛ مؤسسة "القَائِد"؛ تاريخ المغرب الحديث والمعاصر

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ١١ يونيو ٢٠٢٥
تاريخ قبول النشر: ١٥ يوليو ٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.391296.1238

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

حسن أمزوز. "ملاحم التحول في التنظيمات الاجتماعية لقبيلة "أيت عبيد وعلي" بين العرف والتدخل الاستعماري؛ من "تَعْقِيْت" إلى "القَائِد". - دورية كان التاريخية. - السنة الثامنة عشرة - العدد الثالث والسبعون: نوفمبر ٢٠٢٥. ص ٩١-٩٩.



X, formerly Twitter: <http://X.com/kanhistorique>
Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>
Facebook Group: <https://www.facebook.com/groups/kanhistorique>

Corresponding author: amzouzhasanbonsir@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في دورية كان ٤.٠ This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made. فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقَدِّمَةٌ

يُعدّ رصد وفهم تطور التنظيمات الاجتماعية في المجتمعات القبلية من أهم مجالات البحث في التاريخ الاجتماعي؛ إذ يشكل البحث فيها أساساً لفهم التحولات التي عرفتتها الحياة الاجتماعية والسياسية لهذه المجتمعات خلال الفترات التاريخية المختلفة، خاصة في الجوانب المرتبطة بتبادل السلطة والتماسك الاجتماعي. في هذا الإطار، يأتي موضوع كشف ملاحم تطور التنظيمات الاجتماعية لقبيلة "أيت عبدي وعلي"، خلال الفترة ما قبل الاستعمار (قبل ١٩٣٢م) وفترة الاستعمار (١٩٣٢-١٩٥٦م)، باعتبار القبيلة، موضوع المقال، إحدى القبائل التي لها مكانة تاريخية في الأطلس المتوسط لكونها تشكل جزءاً من اتحادية "أيت سَحْمَان".

أمام التنوع والتعدد الحاصل في المكونات البشرية لقبيلة "أيت عبدي وعلي"، بين مكونات أصلية ومكونات غير أصلية وافدة وأخرى ذات انتماء طريقي صوفي، وخروجها عن سلطة المخزن وعيشها في مجال "السبيبة" (قبل ١٩٣٢م)، تحتم عليها إيجاد تنظيمات اجتماعية تنظم حياة وعلاقة مكوناتها، وتحقيق التوازن بين وحداتها البشرية؛ ومن ثمة التغلب على ما قد يحدث من اضطراب أو اختلال في توازن القبيلة.

ومن أجل ضمان استمرار إطار القبيلة الذي وحّد مختلف مكوناتها، ستعرف قبيلة "أيت عبدي وعلي" مجموعة من التنظيمات الاجتماعية، تطورت حسب السياق التاريخي وما حصل خلاله من تراكم في المؤسسات الاجتماعية العرفية المنظمة لحياة القبيلة. مؤسسات عرفية لم تكن جامدة ولا ثابتة، بل نشأت وتعرضت في مسارها لعدة تغيرات، بداية بتمركز التنظيم في أسرة وحيدة في مؤسسة "تَعْقِيَت"، مروراً بالتناوب في تنظيم سلطة القبيلة بين فخذاتها عبر انتخاب "أَمْغَار" القبيلة، ونهاية بـ"الْقَائِد" كإطار إداري تنظيمي فرضته الإدارة الاستعمارية الفرنسية (بعد ١٩٣٢م).

وعليه، يسعى هذا المقال إلى وصف وتحليل ملاحم التحولات التي عرفتتها التنظيمات الاجتماعية المشار إليها سابقاً، من خلال مقارنة سوسيولوجية-تاريخية

تروم وصف العلاقات الاجتماعية وتفكيك بنيات السلطة التي أفرزتها عبر الزمن. وتتمثل إشكاليته المركزية في الوقوف على الكيفية التي انتقلت بها المؤسسات من "تَعْقِيَت" إلى "أَمْغَار"، ثم مؤسسة "الْقَائِد" المعينة، وما رافق ذلك من تحولات في أشكال الشرعية ومصادر السلطة وبنية التنظيم القبلي. ولتأطير هذه الإشكالية، طرحنا الأسئلة الآتية:

ماهي أبرز مؤسسات التنظيم الاجتماعي التي عرفتتها قبيلة "أيت عبدي وعلي" في الفترتين؛ السابقة والمتزامنة مع التدخل الاستعماري الفرنسي؟
وأيّن تتجلى ملاحم ودلالات تطور هذه المؤسسات على مستوى السلطة، وأنماط الشرعية، وبنية القبيلة؟

أولاً: التعريف بقبيلة "أيت عبدي وعلي"

١/١- المجال الجغرافي لقبيلة "أيت عبدي وعلي"

يغطي مجال قبيلة "أيت عبدي وعلي" ثلاثة مراكز أساسية هي: "تَكَارْف"، "بُوتْفَرْدَا"، "تيزي نَسْلِي"، جميعها تابعة لإقليم بني ملال. يتميز هذا المجال بتضاريس جبلية متنوعة تغلب عليها السلاسل الجبلية والمرتفعات التي تحدد معالمه الطبيعية. يحده من الشمال مجال قبيلتي "أيت هُودِي" و "أيت إِسْحَاق"، ومن الشرق مجال قبيلة "أيت حَمَامَا وَعَلِي". يلتقي جنوباً مع مجال قبيلتي "أيت حُدِيدُو" و "أيت يَفْلَمَان"، أما من الجنوب الغربي فيجاوره مجال قبيلة "أيت داوود وَعَلِي"، ومن الغرب مجال قبيلة "أيت وِيرَا". وأخيراً، تمتد حدوده في الشمال الغربي لـتلتقي مجدداً مع مجال قبيلة "أيت هودي".

٢/١- أصل ومكونات قبيلة "أيت عبدي وعلي"

يعود أصل قبيلة "أيت عبدي وعلي" الأمازيغية إلى صنهاجة، ويتجلى ذلك في معالمها اللغوية، والثقافية، وعاداتها، وتقاليدها. كما يشهد على الانتماء أيضاً، ما أورده المؤرخ الناصري أحمد بن خالد في كتابه الاستقصا، رغم حداثة، وذلك في معرض حديثه عن غزو مولاي الحسن لـ "أيت ومالو"، الذي كان سنة ١٢٠٥هـ الموافق لـ ١١٨٨م تقريباً، حيث يقول: «أيت ومالو من برابرة فازازا وهم بطن من صنهاجة يشتمل على أفخاذ كثيرة مثل ضيان وبني مكيلد وشقيرن وأيت سخمان وأيت سري وغيرهم أمم لا يحصيهم إلا خالقهم، قد

يتميز نظام "تَعْقِيَت" لدى القبيلة المدروسة بانفراد أسرة وحيدة لممارسته، عكس قبائل "آيت يَفْلَمَان" التي كانت "تَعْقِيدِين" بالنسبة لها عبارة عن مجلس^(٣). كما أن قرارات وأحكام "تَعْقِيَت" تمتاز بالصرامة، إلى درجة أن اسم هذا التنظيم افترن في المتداول الشعبي بكل ما لا ينسى. فكلما ظلم أو أسيء إلى شخص...إلا وقال في هذا الأمر "تَعْقِيدِين نَوَابْدَا"، أي لن أنسى هذا الأمر إلى الأبد، نسبة إلى تلك الأحكام الصارمة التي كانت تصدر من الأسرة الممارسة لهذا النظام، وارتباطا أيضاً باستمرارية هذه الممارسة وتوارثها لدى نفس الأسرة لمدة طويلة جداً.

سيخضع هذا التنظيم لتعديل في شكله، خاصة بعدما طغى أحفاد "آيت حدو وسعيد"، الأسرة المختارة لممارسة هذا النظام، وأخذوا يمارسون الظلم، وأزاعوا عن مسار الحكمة والعدل والمساواة في فض النزاعات^(٤). هنا ستفكر القبيلة في تجاوز هذا الانفراد في "تَعْقِيَت"؛ لأن عزل الأسرة المنوط بها ذلك لا يمكن حسب أعراف القبيلة. وكان مما عللوا به تعديل عنصر الانفراد في نظام "تَعْقِيَت" بالازدواجية هو شساعة مجال القبيلة وكثرة وحداتها البشرية، وهي حيلة تجنبهم رفض الأسرة الممارسة لـ"تَعْقِيَت"، أو ما يسمى محلياً بـ"زَيناسْت كَ وَاْمَان"؛ بمعنى فك تركز القرارات والأحكام من أيديهم دون أن يشعروا بذلك، وبشكل يبدو ودياً في ظاهره^(٥). وبعد اجتماع القبيلة مع أسرة "آيت حدو وسعيد"، سيتم تعيين "آيت منصور" لمشاركتهم مهام "تَعْقِيَت"^(٦)، ليميل اتخاذ القرارات الكبرى وفض النزاعات، بعد ذلك، لعائلة "آيت منصور" بشكل كبير، واستمرت في ممارسة هذا التنظيم مدة طويلة من الزمن حتى سموا بـ"آيت تَعْقِيَت".

إن التحول من إسناد السلطة في تنظيم "تَعْقِيَت" من أسرة واحدة إلى تداولها بين أسرتين، ثم استقرارها في يد أسرة جديدة، ستسمى لاحقاً "آيت تَعْقِيَت"^(٧)، يعكس دينامية داخلية في إعادة إنتاج شرعية السلطة داخل القبيلة، بعيداً عن القوة ومن خلال الاعتراف الجماعي. فاستقرار السلطة في يد الأسرة الثانية لم يكن مجرد انتقال ميكانيكي، بل نتيجة لتوافق اجتماعي جديد بُني على تفاوض أساسه فقدان شرعية الأسرة الأولى بسبب

عمروا جبال فازازا وملؤوا قننها وتحصنوا بأوعارها مند تملك البربر المغرب قبل الإسلام بأعصار طويلة^(٨). وبما أن قبيلة "آيت عبدي وعلي" تشكل فرعاً من فروع اتحادية "آيت سَخْمَان"، فهي إذا تنحدر من الجدر الصنهاجي العريق.

تجمع الرواية الشفوية في الأصل المجالي للقبيلة على أنه يعود إلى منطقة "كُوسَر"، التابعة حالياً لإقليم أزيلال، وهناك كانت بدايتها الأولى قبل أن تستقر في المجال الحالي. كما تضيف شرطاً متوارثاً يعتبر من محددات الانتماء إلى القبيلة، وهو أن "من لا يعود أصله إلى "كُوسَر"، فليس من "آيت عبدي وعلي"، وهو تعبير عن مركزية هذا الأصل في الذاكرة الجماعية للقبيلة وفي بنيتها الاجتماعية.

قبيلة "آيت عبدي وعلي" هي إحدى القبائل المكونة لاتحادية "آيت سَخْمَان" والتي تضم بالإضافة إلى "آيت عبدي وعلي"، القبائل الآتية: "آيت حَمَامَا وعلي"، "آيت سَعِيد وعلي"، "آيت داوود وعلي"، "آيت عَمَر وعلي". وتضم قبيلة "آيت عبدي وعلي" خمس فخذات رئيسية: "آيت الرِّبْع"، "آيت وَغَاض"، "آيت بَنْدَق"، و"آيت بُولْمَان".

ثانياً: مؤسسة "تَعْقِيَت" من السلطة

العائلية المختارة إلى السلطة الرمزية

يسمى هذا التنظيم عند القبائل الأمازيغية في الجنوب الشرقي "تَعْقِيدِين"، خاصة قبائل "آيت عَطَا" واتحادية "آيت يَفْلَمَان"، ويعني عندهم تسطير القواعد التقليدية المتوارثة عن الأجداد، كما يعني الاتفاق والميثاق بين المجموعة القبلية لخدمة الصالح العام^(٩).

قد يكون هذا الشكل التنظيمي من أقدم ما عرفته قبيلة "آيت عبدي وعلي" في تنظيم شؤونها، خلال فترة "السيبة" قبل ١٩١٢م. تتم ممارسته باختيار عائلة وحيدة، معروفة بحكمتها ووجاهة وحنكة أفرادها، من بين الأسر المكونة لقبيلة "آيت عبدي وعلي"، ليناط بها، بالإجماع، اتخاذ قرارات القبيلة وفض النزاعات بين الأفراد والفخذات خلال مدة مفتوحة قد تستمر عرفياً إلى الأبد. واختيار هذه العائلة عرف لا يمكن التراجع عنه إلا في حالة نادرة سنتطرق لها فيما بعد.

يشترط في "أمغار" القبيلة توفر مجموعة من الشروط أهمها: كبر سنه، النزاهة، الحكمة، الصدق والأمانة... ويتولى المهمة تطوعاً دون أجر أو تعويض. وقبل تعيين "أمغار" جديد، يودع "أمغار" المنتهية ولايته عن طريق "أصيفض"، إذ يخبر في اجتماع أعيان القبيلة بانتهاء مدة ولايته. تُشير هنا إلى أنه بالرغم من الاتفاق على التناوب السنوي في تعيين "أمغار" القبيلة، قد تحدث تزكية "أمغار" لسنة إضافية، كاعتراف استثنائي بكفاءته الرمزية، في إطار الكاريزما المكتسبة^(١٠)، باعتبارها سلطة لا تبنى على الوراثة أو القانون بمختلف صيغته، بل على التقدير الجماعي لمكونات القبيلة، ثمرة الأداء الفعلي

بعد توديع "أمغار" السابق، تمنح فرصة اختيار "أمغار" جديد للفخذة الموالية، حسب الترتيب المتفق عليه من طرف القبيلة، كمرحلة انتقالية وجزء من الطقوس الاجتماعية المجددة للتماسك^(١١). يتم تعيين "أمغار" القبيلة الجديد عادة بعد جني المحاصيل وملء المخازن الفردية والجماعية، وهو الوقت المناسب لكل الاحتفالات، إذ يشكل لحظة ذات رمزية اقتصادية واجتماعية. تختار القبيلة المكان المناسب لحفل تعيينه ويدعى له ممثلو الفخذات وأعيان القبيلة، وقد يحضر حفل التعيين هذا ممثلو القبائل المجاورة^(١٢)، مما يمنح الشخص المختار لمهمة "أمغار" القبيلة شرعية^(١٣) أوسع، ويدمج مؤسسة "أمغار" ضمن شبكة من التحالفات مع القبائل المجاورة، ويخلق قرابة من نوع آخر.

يُمارس "أمغار" القبيلة بعد تعيينه سلطات عرفية غير مكتوبة. فعلى المستوى الداخلي للقبيلة هو بمثابة المسؤول عن تنفيذ قرارات القبيلة من حقوق وواجبات، ويحكم إليه في حالات النزاعات والخصومات المستعصية وقضايا الحياة المختلفة، وعلى المستوى السياسي فهو الممثل للقبيلة والمؤهل للحديث باسمها في علاقاتها مع القبائل الأخرى، مما يفرض فيه القدرة على التفاوض مع "إمغار" القبائل المجاورة في حالات نشوب نزاعات معها. أما على الصعيد العسكري، فيحرص على أن تكون القبيلة قوية ومتأهبة، يحدد عدد الفرسان والمحاربين حسب كل فخذة، وله الكلمة في إقرار الحرب أو السلم أو الصلح.

ما وُصف بالشطط والتسلط، وهو ما نتلمس فيه تحولا من السلطة التقليدية الجماعية إلى سلطة شبه كاريزمية وراثية، لا تقتصر شرعيتها على الشروط العرفية فحسب، بل على النسب والانتماء الرمزي^(٨). كما يظهر هذا التحول، من جهة أخرى، كيف أن النظام القبلي، رغم تأسيسه على البنى العرفية، ليس ثابتاً أو مغلقاً، بل يخضع لإعادة التشكيل الداخلي حين تتغير موازين السلطة الرمزية، أو عندما تزداد الحاجة إلى تمثيلية أوسع بفعل اتساع المجال الجغرافي للقبيلة وتعدد مكوناتها.

ثالثاً: مؤسسة "أمغار" الحكمة الاجتماعية

والتوافق الجماعي لبناء السلطة

إن التوسع المجالي لقبيلة "أيت عبيدي وعلي"، وتزايد مكونات القبيلة البشرية، لم يكن مجرد تحول ديمغرافي أو مجالي جغرافي، بل شكل لحظة مفصلية في إعادة بناء التنظيمات الاجتماعية بما يواكب هذه التغيرات. فقد أصبحت مؤسسة "تَعْقِيْت"، بصيغتها المنحصرة في أسرة بعينها، عاجزة عن تمثيل هذا التنوع، مما فتح المجال لبروز "أمغار" كآلية أكثر مرونة وشمولاً.

الـ"أمغار" في اللغة الأمازيغية يعني الأكبر سناً أو شخص ذو مكانة وشأن في القبيلة. و"أمغار تَنْقَبِيلْت" هو إطار عرفي لتنظيم الحياة وللفضل في المنازعات، عرفه الأمازيغ منذ القدم، يدبرون من خلاله حياتهم وعلاقاتهم دون الحاجة إلى سلطة مركزية أو خارجية.

عرفت قبيلة "أيت عبيدي وعلي"، بعدما ظهرت عيوب مؤسسة "تَعْقِيْت"، نظام "أمغار تَنْقَبِيلْت نوسْكَاس"؛ أي أمغار القبيلة السنوي، تتناوب الفخذات الأربع الأصلية المكونة للقبيلة ("أيت بولمان"، "أيت الربيع"، "أيت وعاض"، "أيت بندق") في تعيينه بنية تحقيق تكافؤ الفرص والحفاظ على قوة القبيلة وقطع الطريق أمام هيمنة أي طرف^(٩). كما أن التناوب هنا يجسد آلية من آليات توزيع السلطة، تضمن استمرار توازن العلاقات الداخلية داخل القبيلة، وتقطع مع احتكار السلطة، الشيء الذي يخلق شعوراً بالانتماء المشترك والمسؤولية الجماعية اتجاه القضايا الخاصة والعامة للقبيلة.

وتمثيلية الفخذات، حققت هذه المؤسسة نوعاً من التوازن بين سلطة مركزية رمزية على مستوى القبيلة، وبين آليات رقابة وتفويض تشاركية. لقد كان لآلية الدوائع والضمانات دور هام في توفير شكل فعال من الرقابة الذاتية والتماسك الداخلي لمكونات القبيلة، الشيء الذي مكّن من ضبط العلاقات الاجتماعية بناءً على الثقة والاعتراف المتبادل، دون الحاجة إلى أجهزة قسرية.

تجسد مؤسسة "أمغار"، إذن، نموذجاً مركباً للسلطة داخل القبيلة، حيث تتقاطع فيه الشرعية الأخلاقية، والتوافق الجماعي، مع الوظيفة التدييرية، في إطار يتأسس على قيم العرف، ويكرس نسقا من التنظيم القبلي المشترك. إلا أنه وبعد خضوع القبيلة للاستعمار الفرنسي عام 1932م^(١٧)، أخذت السلطة تتزاح من بنى توافقية تعتمد على المشروعية المجالية والرمزية إلى أشكال مفروضة من خارج النسق القبلي، كان من بين تجلياتها ظهور مؤسسة "القائد".

رابعاً: مؤسسة "القائد": من الزعامة الروحية بين الرضى والتسلط إلى الزعامة المحلية المعينة

يُعدّ ظهور مؤسسة "القائد" في قبيلة "أيت عبدي وعلي" تحولاً بنيوياً في أنماط السلطة، حيث شكلت هذه المؤسسة إحدى أبرز تجليات التغلغل الإداري الاستعماري في البنيات الاجتماعية السابقة للقبيلة. فبعدما كانت السلطة موزعة بين مؤسسات توافقية ورمزية كـ "تقيت" و "أمغار"، أتى "القائد" كنموذج للسلطة المعينة من الأعلى، تستمد مشروعيتها من الإدارة المركزية الاستعمارية بدلاً من التوافق القبلي. ويجسد هذا التحول والانتقال لحظة فاصلة في التاريخ الاجتماعي للقبيلة، إذ تحولت السلطة من منطق "الجماعة" إلى منطق التراتبية والانضباط البيروقراطي، ومن السعي إلى تحقيق أهداف القبيلة ومكوناتها إلى تحقيق الأهداف الاستعمارية للإدارة الفرنسية.

ظهر النظام "القائدي" في قبيلة "أيت عبدي وعلي" بعد إخضاعها من طرف القوات الفرنسية، وبالضبط بعد تعيين زعيم "إمهاوش"، سيدي المكي" قائداً على

يُساعد "أمغار" في القيام بالمهام السالفة الذكر "إيمورن" ممثلو الفخذات، يختارهم هو أو يعينون من طرف الفخذات بنفس العدد، ويكون من واجبهم مساعدة "أمغار" وتقديم المشورة، ويشكلون حلقة وصل بين "أمغار" والفخذات، تصرف من خلالها القرارات والحقوق والواجبات. كما يتم تعيين أو اختيار "ضامن" لكل فخذه يتولى جمع مبلغ الوديعة (R'HEN) المحدد قبل تعيين "أمغار"، وتتكون عموماً من الماشية أو الخيول أو الأسلحة، ويجب على كل ممثل أن يعهد، سواء بشكل تقديري أو فعلي حسب العرف، بمبلغ الوديعة إلى المكلف بالدوائع^(١٤).

وأي قرار أو عقوبة من "أمغار" في حق فخذه يجب أن يتم تطبيقها على الفور بواسطة ممثليها، وفي حالة عدم الأداء، يقوم أمغار بالاتصال بـ "الضامن" الممثل لرفض تطبيق القرار لخصم مبلغ الغرامة من الوديعة^(١٥). وبذلك يكون كل ممثل ضامناً لفخذه من جميع العقوبات المتخذة ضدها. وعليه، فإن وظيفة الوديعة ليست اقتصادية فحسب، بل لها وظيفة رمزية أيضاً، لكونها تمثل ضماناً جماعياً لتنفيذ القرارات وتجسد منطق المسؤولية الجماعية والرقابة المتبادلة.

ونشير هنا، إلى أن بنية القبيلة أفرزت، إلى جانب مؤسسة "أمغار"، أشكالاً متخصصة من نفس المؤسسة تُعنى بمجالات وظيفية دقيقة، مثل: "أمغار نتركاً" الذي يتولى تدبير نظم السقي وتوزيع مياه العيون وفق أعراف دقيقة. كما نجد "أمغارنلجامع": المشرف على أمور المسجد وأجرة الفقيه...وكذا "أمغار نكدلان": يتولى تدبير وتنظيم المراعي الجماعية المتواجد داخل مجال القبيلة^(١٦). وهي في المجمل تفرعات تعكس الشكل اللامركزي لمؤسسة "أمغار"، حيث تتوزع السلطة وتجزأ حسب الوظائف لتعكس عمق التنظيم الاجتماعي القبلي وقدرته على المواءمة بين الوحدة والتخصص، بين الرمزية والنجاعة العملية.

يتضح، من خلال ما تقدم، أن مؤسسة "أمغار" شكلت مرحلة مهمة في مسار التنظيمات الاجتماعية لقبيلة "أيت عبدي وعلي"، إذ برزت كاستجابة داخلية واعية بالتحولات المجالية والديمقراطية التي عرفتتها القبيلة. فمن خلال الهيكل الهرمية للسلطة المبنية على التناوب

مركز أغباله من ١٩٣٥م إلى ١٩٤٢م^(١٨)، بناء على عدة اعتبارات منها أن "إيمهوآش" كانوا آخر سلطة تقرر الحرب وتجمع القبائل ضد المستعمر الفرنسي في المنطقة، ولم يكن لها حضور في التنظيمات الاجتماعية الداخلية للقبيلة. هذا، بالإضافة إلى تلك العلاقة المشكوك فيها بين هاته الزعامة الدينية والسلطات الفرنسية، والتي لم تتكشف ملامحها إلا مع معركة "تازيزاوت" عام ١٩٣٢م، حسب شهادات المستجوبين، مما منح مكانة "إيمهوآش" لدى السلطات الفرنسية وأهلهم لتولية قيادة "أيت عبيد وعلي" و"أيت حماما وعلي" تحت حكم الفرنسيين^(١٩).

أشير، في سياق مؤسسة "القائد"، إلى أن الإدارة الاستعمارية الفرنسية حاولت، بالموازاة مع ذلك، ومن خلال الظهير البربري الصادر يوم ١٦ ماي ١٩٣٠م، إعطاء القبائل الأمازيغية صلاحية صورية تنص على احتفاظها بأعرافها وتنظيماتها المحلية. إلا أن الغاية من الظهير السالف الذكر هو تفرقة مكونات المجتمع المغربي واستقطاب شيوخ القبائل لتفادي مزيدا من الخسائر البشرية في صفوف جنودها جراء المقاومة الشرسة للقبائل الأمازيغية. وبناء على هذا التوجه الذي تبناه المستعمر الفرنسي، سيتم تأسيس محاكم عرفية بلغ عددها ٨١ محكمة خلال سنة ١٩٢٩م، وسيتزايد عددها بعد التقدم الحاصل للقوات الفرنسية في مجالات القبائل الأمازيغية^(٢٠). ستؤسس في هذا الإطار محكمة عرفية بمركز أغباله تضم ممثلي القبائل وأعيانها للتداول في المشاكل والنزاعات بين الأفراد والقبائل.

بعد وفاة القائد "سيدي المكي" سنة ١٩٤٢م، خلفه ابنه الأكبر "سيدي علي" ولد "سيدي المكي"، المعروف باسم "بأ سيدي"، وعين قائدا رسميا لـ"أيت سحمان" الشرق (بناء على القرار رقم ١٣٨٢ CMK/2C المؤرخ في ١٦ ديسمبر ١٩٤٢ الصادر عن السيد الجنرال رئيس جهة مكناس).

يتفق الشيوخ المستجوبون في وصف الفترة التي قضتها قبيلة "أيت عبيد وعلي" تحت قيادة "إيمهوآش" خلال فترة الاستعمار بالظلم والاستبداد، خاصة ما مارسه "بأسيدي" ابن "سيدي المكي" من شطط تعددت مظاهره. فكلما أغرم بامرأة، عازبة أو متزوجة، إلا

وأخذها معه بحجة "رأنت تكرامين" أي مساعدة نساء عائلة "إكرامين" في الأشغال المنزلية ليوم أو يومين. بالإضافة إلى أنه امتلك نسخ مفاتيح دكاكين مركز "تيزي نسلي"، يفتحها ليلا ويسرق ما بها من مواد غذائية ونقود. لم يقف شططه عند هذا الحد، بل استغل قلاحي المنطقة وأجبرهم على العمل في حقوله بمنطقة "متسردان" قرب "واندس"، وأخذ محاصيل حقولهم الخاصة عنوة. ساعده في تسلطه هذا مخبرون ومتعاونون من "إزغواضن"، وحدة من مكونات القبيلة المدروسة، يخبرونه بكل ما يقال فيه في القبيلة من كبيرة وصغيرة، وهم من كشفوا له أسماء الذين حاولوا قتله دفاعاً عن كرامة وشرف القبيلة، وهما "حدو وعلي" و"سعيد والسو"، الذين حُكوا بالسجن بعد هذا الحدث.

وقد أكدت تقارير الإدارة الفرنسية، هي الأخرى، ما ذهب إليه الرواية الشفوية، من توصيفات لسلوك القائد "بأ سيدي"، خاصة فيما يتعلق بمظاهر التسلط وسوء استخدام النفوذ، ومما جاء فيها: "هذا القائد الشاب، ولكن المليء بالعيوب، بعيد كل البعد عن الرضا، ومن خلال ساديته، ووحشيته، وأخلاقه غير المقبولة، وجشعه ورغبته في زوجات المتواجدين تحت سلطته، جعل الجميع ينفر منه خاصة قبيلة "أيت عبيد"، يأخذ الأمر دائماً بشكل سيء. ومع ذلك، فإن هذه الأمور موضع حرص نسبي من جانب "بأ سيدي" الذي يخاف منهم"^(٢١).

قُدمت مجموعة من الشكايات ضد "القائد بأسيدي"، في موضوع التسلط والشطط، خلال الفترة بين ١٩٤٦م و١٩٤٨م^(٢٢)، سيتلقى، بناء عليها، ونظرا لعدم تحسن سلوكاته، توبيخا رسميا من طرف رئيس دائرة القصيبة، وذلك سنة ١٩٤٩م^(٢٣)، ومع ذلك لم يتراجع. وبعد ثبوت سرقة لزربية "وعمر" بالدليل وبحضور ممثل السلطة الفرنسية^(٢٤)، سيكون إنهاء مهام "بأسيدي" قد دخل حيز التنفيذ في ٨ ماي ١٩٥١م. وكان ذلك حدثا بارزا عم الفرح من خلاله أرجاء القبيلة^(٢٥). وقد اختزلت الذاكرة المحلية هذا التقهقر الحاصل في وضعية "بأسيدي" من قائد مستبد ومتسلط إلى شخص معزول في الهامش، وقرار محاكمته في يد ممثلي القبائل، في بيت شعري باللغة الأمازيغية، يقول فيه الشاعر:

والشطط، مما أدى إلى تصاعد التوتر داخل قبيلة "آيت عبدي وعلي". وإزاء هذا الوضع تعالت أصوات محلية تطالب بتعيين "قائد" محلي مستقل عن قيادة أغبال، ليتم تعيين أول قائد من داخل القبيلة، من عائلة "آيت تَعْقِيْت" تحديداً، في محاولة لتكييف السلطة الجديدة مع بعض امتدادات الشرعية السابقة داخل البنية القبلية.

خاتمة

إن قبيلة "آيت عبدي وعلي"، كما هو الحال مع العديد من القبائل المغربية التي عاشت خارج سلطة المخزن، خلال فترة "السَّيِّبَة"، شهدت تحولات في تنظيماتها الاجتماعية نتيجة لتأثيرات داخلية أو خارجية مرتبطة بالاستعمار الفرنسي فيما بعد. في البداية، كانت مؤسسة "تَعْقِيْت" تجسد شكلاً من أشكال السلطة الجماعية والتوافقية، حيث كانت مهمة التحكيم وتدبير الأمور الداخلية والخارجية للقبيلة تناط بأسرة معينة في إطار عائلي تداولي مستمد من مرجعية عرفية اجتماعية للقبيلة. إلا أنه، ومع مرور الوقت، تحولت السلطة في مؤسسة "تَعْقِيْت" إلى نمط وراثي يعكس انتقالاً من السلطة الجماعية التوافقية إلى سلطة شبه كاريزمية تتأسس فيها الشرعية على النسب أكثر من كونها قائمة على الأداء والرضا الجماعي. أما مؤسسة "أمغار"، التي تجسد القيادة الأخلاقية والرمزية داخل القبيلة، فقد لعبت، قبل الاستعمار الفرنسي، دوراً هاماً في الحفاظ على التماسك الاجتماعي والانسجام بين مختلف الفخزات المكونة لقبيلة "آيت عبدي وعلي".

ستظهر مؤسسة "القَائِد" بعد خضوع قبيلة "آيت عبدي وعلي"، في معركة "تازيزاوت" عام ١٩٣٢م، كجزء من هيكل السلطة التي فرضها الاستعمار الفرنسي، بهدف ضمان تطبيق السياسة الاستعمارية بشكل مركزي في المناطق القبلية. وقد شكلت هذه المؤسسة تحولا أساسياً في تاريخ التنظيمات الاجتماعية للقبيلة، إذ ألغيت التراتبية القبلية لصالح تنظيمات أكثر بيروقراطية وتسلطاً. فبالرغم من اعتماد السلطات الفرنسية الاستعمارية على دمج الزعامات الروحية في

"مامي تَحْلِيدُ أَدُونِيْتْ أَشُوفْ أَبْرَمْ لُوقَاتْ مَرْتَانِيْدْ بَاسِيْدِي إِسْ إِلَّا كَوَقْمُونْ وَعَرُوْ".

ومعناه: "أحوال الدنيا متقلبة لا قيمة لها هل رأيتم مصير "باسيدي" أصبح بين يدي "وَعَرُوْ"، ممثل من ممثلي القبائل".

ستتقدم قبيلة "آيت عبدي وعلي"، بعد عزل "باسيدي"، إلى هيئة الإدارة الفرنسية بطلب إحداث مركز القيادة بمجال "آيت عبدي وعلي"، والاستقلال عن مركز أغبال. وبالفعل تم قبول طلبهم وفتح الباب لتقديم أسماء مقترحة لتولية قيادة "آيت عبدي وعلي"، حيث قدمت كل فخذة مرشحاً لهذا المنصب، وكانت الأسماء المقترحة على الشكل الآتي^(٢٦):

آيت الربيع: حدو وحماو

آيت بولمان: موحى وعلي وعمامو

آيت وغاض: موحى وعلي وتَعْقِيْت

آيت بندق: حدو والسو

سُجْري هيئة الإدارة الفرنسية بـ"أغبالا" بحثاً حول سير الأسماء المقترحة لتولية منصب قيادة "آيت عبدي وعلي"، ولما أتممت هذه المهمة حددت للقبيلة موعداً بمركز "بوتفردا"، للإعلان عن قائد "آيت عبدي وعلي"، والذي كان هو "موحى وعلي وتَعْقِيْت"، لما لعائلته من مكانة وتوارثها مسؤولية البث في نزاعات القبيلة في إطار نظام "تَعْقِيْت". إلى جانب هذه المكانة هناك رأي يقول إن اختيار "موحى وعلي وتَعْقِيْت" قائداً لقبيلة "آيت عبدي وعلي" جاء بإيعاز من عائلة "آيت واسو"، أعيان وقواد منطقة القصيبة، وأن الهيئة المكلفة كانت لتختار "موحى وعلي وعمامو" لولا تدخل العائلة النافذة السالفة الذكر^(٢٧).

يتضح من خلال ما تقدم أن تعيين أول "قائد" على قبيلة "آيت عبدي وعلي" جاء في سياق مركب، حيث عمدت الإدارة الاستعمارية الفرنسية إلى استثمار رمزية الزعامات الروحية والدينية لتثبيت نموذجها الجديد. وفي هذا الإطار، تم تعيين زعيم ديني يتمتع بسلطة رمزية على قبيلتي "آيت سَخْمَان" الشرق، "آيت عبدي وعلي" و "آيت حماما وعلي"، كقائد رسمي، قبل أن تؤول السلطة إلى ابنه، الذي اتسمت ممارسته بالتسلط

(٩) القبطان سعيد كنون، **الجبلة الأمازيغي أيت ومالو وبلاد زيان: المجال والإنسان والتاريخ**، تعريب الدكتور محمد بوكبوط، سلسلة ضفاف العدد ١٨، منشورات الزمن، مطبعة بني إزناسن سلا، ٢٠١٤، ص. ٩٥.

(١٠) يشير ماكس فيبر إلى أن **السلطة الكاريزمية** تنبع من الصفات الشخصية الاستثنائية التي يتمتع بها الفرد مثل: الحكمة والقدرات الفائقة، والتي يعترف بها المجتمع. وفي حالة مؤسسة "أمغار" هاته، يمكن فهم إعادة تركيته لولاية ثانية على أنه اعتراف جماعي بصفاته الشخصية وأدائه المتميز، مما يضيف عليه شرعية مكتسبة من خلال تفاعل الأفراد معه. للتوسع في هذا المفهوم، أنظر:

Weber, Max, « Economy society... », op. cit., pp. 241-245.

(١١) **نقصد هنا بـ "المرحلة الانتقالية" ما ذهب إليه Turner, Victor**، حين اعتبرها جزءاً أساسياً من الطقوس الاجتماعية التي تسهم في إعادة تشكيل التنظيم الاجتماعي. ففي حالة طقوس تعيين "أمغار"، يمكن اعتبار الحفل، الذي يعقب موسم جمع المحاصيل، فرصة لإعادة تحديد الشرعية الاجتماعية وتأكيد التماسك الاجتماعي، حيث يشهد على تجديد السلطة داخل القبيلة. راجع في هذا الصدد:

Turner, Victor, *The Ritual Process: Structure and Anti-Structure*, Aldine Publishing, 1969, pp. 94-97.

(١٢) سعيد وزعا، ٧٢ سنة، "بوتفردا" المركز، تاريخ المقابلة: ٢٠٢٠/١٦/٢٤م.

(١٣) قد تُفهم هذه الشرعية، التي حظي بها "أمغار" في النظام القبلي، على ضوء تصور **مارسيل موس** لـ "الهبة الرمزية"، حيث يقوم النظام التقليدي على تبادل، غير مادي بين الفرد والجماعة، أساسه الاعتراف الجماعي والمكانة المعنوية، مقابل ما يقدمه "أمغار" من حكمة، وحياد، وخدمة الصالح العام للقبيلة. فالهبة هنا ليست مادية، بل تتمثل في عطاء أخلاقي واجتماعي يقابله رد الجميل من خلال تقدير رمزي واستمرارية الثقة الجماعية، مما يضمن تماسك الجماعة دون الحاجة إلى جهاز سلطوي. كل هذا وذلك، يجعل من "أمغار" وسيطا لا يحكم بالقوة، وإنما بالإجماع، وهو ما يشكل تجلياً حياً لما سماه **مارسيل موس** بـ "الحقائق الاجتماعية الكلية"، التي تُدمج الأخلاقي بالديني والاجتماعي. أنظر:

Mauss, Marcel, *Essai sur le don, Forme et raison de l'échange sans les sociétés archaïques*, l'année sociologique, 1925, pp. 71-74.

(14) Archives Diplomatiques de Nantes, **FICHE DE TRIBU DE TRIBU DES AIT SOKHMAN DE L'EST** FRMAE_1MA_285_002, image 1105, p. 20.

(15) Ibidem.

(١٦) موحى والوداوش، ٨٦ سنة، دوار "إيربان" جماعة "بوتفردا"، تاريخ المقابلة: ٢٠٢١/٠٥/٢٢م.

(١٧) نشير هنا، إلى أن بداية استعمار المغرب من طرف القوات الفرنسية، سنة ١٩١٢م، ستتجاوز المهام الحربية إطارها القبلي إلى إطار ديني أعم تجلّى في الجهاد ضد "إرومين". فأصبح تدبير الأمور الحربية والعسكرية بيد زعماء "إمهوراشن" وانتزعت من أمغار القبيلة بقوة السلطة الروحية، وتحول الدفاع عن مجال ضيق يتحدد بحدود القبيلة إلى الدفاع عن مجال عام يشمل الوطن بأكمله.

مؤسسة "القايد"، إلا أنه سرعان ما بدى شطط وتسلط هذه الأخيرة على قبيلة "أيت عبيدي وعلي"، مما فرض تعيين "قايد" محلي ينتمي إلى القبيلة، حاولت من خلاله إدارة المستعمر إيجاد توازن شكلي بين التنظيمات التقليدية السابقة ومؤسسة "القايد" كسلطة جديدة.

الإحالات المرجعية:

- (١) الناصري أحمد بن خالد، **الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، البيضاء ١٩٩٧، ج ٩، ص ١٩٩.
- (٢) **معلمة تاريخ المغرب**، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا المغرب، ١٩٨٩م، ج ٨، ص. ٢٧١.
- (٣) عبد القدر بوراس، "اتحادية قبائل أيت عطا والعرف القبلي"، ضمن ندوة: **الأعراف بالبادية المغربية**، منشورات مجموعة البحث في تاريخ البوادي المغربية سلسلة ندوات ومناظرات رقم 1، جامعة ابن طفيل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ٢٠٠٤م، ص. ٥٩.
- (٤) عنو وبندق، **٧١ سنة**، دوار "تنكارف" جماعة "بوتفردا"، تاريخ المقابلة: ٢٠٢٠/٠٨/٢٥م.
- (٥) نفس الرواية الشفوية.
- (٦) نفس الرواية الشفوية.
- (٧) يمكن فهم رمزية مؤسسة "تعقيت"، باعتبارها شكلاً من أشكال الرأسمال الرمزي، كما حلله Pierre Bourdieu، عندما تتحول الوظيفة الاجتماعية إلى موقع رمزي له مكانة معنوية في الذاكرة الجماعية للقبيلة. فحين يقتصر دور "تعقيت" في أسرة واحدة، تتحول هذه الأخيرة إلى فاعل شرعي داخل الحقل الاجتماعي، بما تملكه من رصيد الاعتراف، لا مجرد تأدية المهام فقط. فالرأسمال الرمزي، حسب Pierre Bourdieu لا يمارس إلا حين يُعترف به من قبل الجماعة، وهو ما نلاحظه في استمرار شرعية العائلة في نظر القبيلة المدروسة، رغم تغير السياقات التاريخية. أنظر:

Bourdieu, Pierre. **Le Sens pratique**, Paris: Les Éditions de Minuit, 1980, pp. 191-207.

(٨) قد يتقاطع هذا التحول من سلطة جماعية تداولية إلى سلطة عائلية متوارثة مع ما ذهب إليه Max Weber، في تحليله لأشكال الشرعية التقليدية، حين أشار إلى أن الشرعية التقليدية قد تتحول من ممارسة جماعية تستند إلى العرف، إلى نمط كاريزمي وراثي، حيث ينظر إلى الصفات الاستثنائية أو التاريخ العائلي كأساس للسلطة، دون الحاجة إلى إعادة التوافق الجماعي كل مرة. وفي سياق "تعقيت" نجد أن هذه الوظيفة لما أصبحت حكراً على عائلة واحدة، تم الحفاظ على رمزيته من خلال النسب لا الأداء، ما يوافق معنى "الشرعية الوراثية شبة الكاريزمية". راجع:

Weber, Max, « Economy society: An Outline of Interpretive Sociologie », University of California Press, 1978, pp. 226-234.

(18) Mohamed bougrin : « La bataille de Tazizaout dans la littérature orale une tayffart contre Sidi ELMekki Amhaouch », in Revue des Arts de l'Oralité, 2008, p.15.

(19) لفت انتباهنا ونحن نقوم بجمع المعطيات من شيوخ القبيلة المدروسة، وجود معلومات عبارة عن روايات أو أبيات شعرية تهم موضوعها التشكيك في ثبات موقف سيدي المكي ضد المستعمر. ونحن إذ نستحضر هاته المعطيات بأشكالها المختلفة، ليس من أجل تأكيدها وإنما من واجبنا كباحثين عرضها لعلها تكون، يوما ما، معطى ومنطلقا لدراسة موقف القبيلة من هذا الزعيم الروحي.

تقول الرواية الأولى أن "سعيد وموح وتغشوت"، مقاوم من قبيلة أيت عيدي وعلي، قصد مخيم سيدي المكي بعدما نفذت الذخيرة والمؤونة للمقاومين، طلبا لرأي الزعيم الروحي في المحنة، وإذا به يجد في مخيم سيدي المكي مجموعة من الفواكه التي لم يمتلكها في ذلك الوقت إلا المستعمرين أو من كان إلى جانبهم. ومخافة "سيدي المكي" من انكشاف سره وفقدان سمعته، يضيف نفس المستجوب، سيأمر المقاومين والمحاصرين بالاستسلام.)

ومن الدفعات التي رفعتها الذاكرة المحلية تأييدا لقولها ضد "سيدي المكي" أيضا، تعيين هذا الأخير قائدا على أغباله نايت سخمان واستمراره في هذا المنصب إلى أن توفي. ولقد كان هذا التعيين مناسبة لصياغة أبيات شعرية تذهب مع طرح التشكيك، ومنها:

إِنَّا سَنُ سِيدِي الْمُكِّيَّ ثَلَاثَ غُورِي تَدَوَاتِ إِيْوَصِيَّيْ بَابَا
زَيْغُ إِيْوَ إِيْوَ أَدْحُشْمُ تَقِيَّادِيْثُ أَدَسُ أَكُنْ إِيْرومِيْنُ أَوْ مُوجُوْرُ

ما معناه: لقد ادعى سيدي المكي امتلاك قبيلة تركها له أبوه، إلا أن الحق هو رغبته في تولي منصب القائد بحبيبه المستعمر.

(٢٠) محمد مونير، "ظهير تنظيم المحاكم العرفية: ما حقيقته في تاريخ المغرب المعاصر"، ضمن الندوة الدولية حول تاريخ الأمازيغ، الدورة السادسة للجامعة الصيفية بأكادير، أيام ٢٣، ٢٢، ٢١ يونيو ٢٠٠٠م، دار أبي رقرق للطباعة، ج٢، ص. ١٠٠.

(21) Archives Diplomatiques de Nantes, FICHE DE TRIBU DE TRIBU DES AIT SOKHMAN DE L'EST, FRMAE 1MA_285_002, image 1102, p.17.

(22) Ibidem.

(23) Ibidem.

(٢٤) علي البقالي، ١١ سنة، دوار بومية، جماعة "بوتفردا"، تاريخ المقابلة ٢٠٢٠/٠٦/٢١م.

(25) Archives Diplomatiques de Nantes, FICHE DE TRIBU DE TRIBU DES AIT SOKHMAN DE L'EST, FRMAE_1MA_285_002, image 1103, p.18.

(٢٦) حماد أمزيل، تيزي نسلي المركز، ٩٤ سنة، مقابلة بتاريخ ٢٠٢٠/٠٦/٢١م. و: علي البقالي، ١١ سنة، دوار بومية، جماعة "بوتفردا"، تاريخ المقابلة ٢٠٢٠/٠٦/٢١م.

(٢٧) علي البقالي، رواية شفوية سابقة.

العناية بتوثيق الأوقاف

في القرن الثالث عشر الهجري التاسع عشر الميلادي

حجة شرعية لوقف الشريف محمد أبي نُمي الثاني أنموذجاً

دراسة تاريخية وثائقية

د. محمد بن حسين الحارثي الشريف

باحث تاريخي وناظر وقف

دكتوراه في التاريخ والحضارة – جامعة أم القرى

مكة المكرمة – المملكة العربية السعودية



ملخص

تتناول هذه الدراسة موضوع "العناية بتوثيق الأوقاف في القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي" من خلال دراسة نموذج حجة شرعية لوقف الشريف محمد أبي نُمي الثاني. تركز الدراسة على أهمية توثيق الأوقاف في السياقات التاريخية والشرعية، من خلال دراسة وثيقة وقفية من مكة المكرمة تعود إلى عام ١٨٥١م، والتي توثق أحد الأوقاف الهامة التي أوقفها الشريف محمد أبي نُمي الثاني. تُعد هذه الوثيقة مصدراً أساسياً لفهم تأثير الأوقاف في الحياة الاجتماعية والاقتصادية في مكة خلال تلك الحقبة، وتسليط الضوء على التوثيق الشرعي للأوقاف وأثره في ضمان استمراريتها وحمايتها. تهدف الدراسة إلى إبراز دور الوثائق الوقفية في المحافظة على الحقوق الشرعية والاقتصادية، وتحليل الشروط والآثار المترتبة على الوقف. كما تدرس الوثيقة كأداة لفهم الأنماط الاجتماعية والاقتصادية في مكة، حيث توضح مختلف التفاصيل المتعلقة بالعقارات الموقوفة والمستفيدين منها. تبرز الدراسة أيضاً علاقة علم التوثيق بالفقه الإسلامي والعلوم الأخرى، وتؤكد على أهمية الأوقاف كأداة لبناء الاستقرار الاجتماعي من خلال توفير الموارد للفقراء والمحتاجين. ختاماً، تعتبر هذه الحجة الوقفية وثيقة تاريخية مهمة تساهم في إثراء الدراسات التاريخية والشرعية والاجتماعية، كما تسلط الضوء على الأثر الدائم للأوقاف في المجتمع الإسلامي.

بيانات الدراسة:

كلمات مفتاحية:

توثيق الأوقاف؛ حجة وقفية؛ الوقف في الإسلام؛ مكة المكرمة؛ الدراسات التاريخية الوثائقية

تاريخ استلام البحث: ٢٤ سبتمبر ٢٠٢٥
تاريخ قبول النشر: ٢٨ أكتوبر ٢٠٢٥

معرف الوثيقة الرقمي: 10.21608/kan.2025.466765



الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

محمد بن حسين الحارثي الشريف، "العناية بتوثيق الأوقاف في القرن الثالث عشر الهجري التاسع عشر الميلادي، حجة شرعية لوقف الشريف محمد أبي نُمي الثاني أنموذجاً: دراسة تاريخية وثائقية". - دورية كان التاريخية-. السنة الثامنة عشرة- العدد الثالث والسبعون: نوفمبر ٢٠٢٥. ص ١٠٠-١١٤.



X, formerly Twitter: <http://X.com/kanhistorique>
Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>
Facebook Group: <https://www.facebook.com/groups/kanhistorique>

Corresponding author: alsharifmh95@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في جُورنل كان التاريخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع للأغراض تجارية أو ربحية. This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

يُعَدُّ الوقف أحد أهم النظم الإسلامية التي أسهمت في بناء المجتمع وتنميته عبر العصور، إذ جمع بين البُعد الديني والاجتماعي والاقتصادي، وكان له أثر بارز في استدامة العمل الخيري وتكريس روح التكافل. وقد حظي توثيق الأوقاف بعناية خاصة من القضاة والموثقين؛ لما يمثله من ضمان لحفظ الحقوق واستمرار النفع. وفي هذا الإطار تأتي هذه الدراسة الموسومة بـ «العناية بتوثيق الأوقاف في القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي»: حجة شرعية لوقف الشريف محمد أبي نُمي الثاني أنموذجاً: دراسة تاريخية وثائقية»، لتتناول نموذجاً من وثائق الأوقاف في مكة المكرمة، مُمثلاً في حجة وقف تاريخية تُبرز طبيعة الصياغة الشرعية ودلالاتها الاجتماعية والاقتصادية في تلك الحقبة.

مشكلة البحث:

بيان أهمية توثيق الوقف؛ التاريخية بعد وفاة مؤلفه بنحو (٢٧٦) عاماً، ومدى تأصيله الشرعي الفقهي؛ ليعُدَّ إرثاً مهماً لفهم الهوية الاجتماعية لأهل مكة المكرمة في تلك الفترة التاريخية.

الأهمية والمقاربة المنهجية:

تتمثل في أهمية التوثيق الشرعي للأوقاف؛ بإنشاء العقود التي يسجلها الموثقون العدول، أو ما يُعرف بالصك الذي يُكتب ليكون حجة في المستقبل لإثبات حق، أو التقيد بالتزام، سواء أكان ذلك بين طرفين، أم بإرادة منفردة واحدة، كالوصية والوقف؛ حيث دلَّ على أصل التوثيق قول الله -عزَّ وجلَّ-: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ...»^(١).

حيث تُعدُّ الوثائق من المصادر الأصلية والأساسية لدراسة التاريخ والحضارة العربية لكونها منبعاً مادياً يرد فيه الكثير من المعلومات الأصلية لكل باحث يرغب في الوصول إلى الحقائق العلمية في مجال الدراسات التاريخية والشرعية والاجتماعية.

أهداف الدراسة:

١- انطلاقاً من اهتمام ورعاية المملكة العربية السعودية (ملوكاً وقضاة) بالأوقاف والعناية بها التي أسفرت عن

إنشاء الهيئة العامة للأوقاف في عام (٢٠١٥م) بهدف تنظيم الأوقاف^(٢) والمحافظة عليها وتطويرها وتمييزها داخل المملكة العربية السعودية.

٢- دراسة الوثائق الوقفية ورعاية الأوقاف؛ حصيلة اهتمام شخصيٍّ وأُسريٍّ بأوقافنا الشخصية من مزارع ومنازل، في مكة المكرمة ووادي المضيق.

٣- بيان أهمية التوثيق الشرعي للأوقاف (الشروط وعلم الصكوك) الإسلامي، ومفهوم الوقف -حكمه وأنواعه- في الشرع الإسلامي.

٤- دراسة وتحقيق الحجة الشرعية لبيان سماتها الخارجية والداخلية والبيانية "البليوجرافيا"؛ وثائقياً باستخدام "علم الديپلوماتيك" (Diploma).

٥- استنتاج أهم آثار الأوقاف الاجتماعية والاقتصادية.

الفترة الزمنية والمكانية "النطاق":

أ) النطاق الزماني: نشأة الوقف بالقرن العاشر الهجري، وتوثيقه بالحجة الوقفية، في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري.

ب) النطاق المكاني: مكة المكرمة.

الدراسات السابقة:

دراسة موجزة لجملة وثائق وصكوك وقف الشريف أبي نُمي الثاني، قديمة وحديثة ضمن محتوى كتاب: (الاستشراف على تاريخ أبناء محمد الحارث الأشراف - دراسة تاريخية وثائقية)، الطبعة الثانية، ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م؛ لَمْ يُسَبَقْ إِلَيْهَا وَأَنْفَرَدَ بِهَا هذا الكتاب.

منهج البحث:

من منطلق أن طبيعة الموضوع (في كلياته وجزئياته) هي التي ترسم بالأساس ملامح المقاربة المنهجية التي ينبغي اعتمادها في البحث؛ ونظراً لطبيعة هذه الدراسة الوثائقية، فقد استخدم الباحث المنهج التاريخي للدراسة والتحليلي (للحجة الوقفية)؛ المؤدي إلى تفسير نص الوثيقة، وإظهار محتواها، والكشف عن غايات كتابها ودقتها، ونتائجها. وقد قسمت البحث إلى مقدمة، وأربعة مباحث، وخاتمة.

أولاً: أهمية التوثيق الشرعي للأوقاف

١/١- التوثيق الشرعي (الشروط وعلم

الصكوك) الإسلامي

تُعَدُّ الوثائق أساساً مهماً في بناء الحقائق كونها تمثل الأصول الدقيقة التي يجد الباحث في محتواها ما يكمل به الحلقات التاريخية المفقودة، ولهذا فإن الدراسات التاريخية تعتمد اعتماداً كبيراً على الوثائق كونها من المصادر الأصلية والأساسية لكل مؤرخ وباحث يريد إضافة مادة جديدة للتاريخ^(٣).

وفي اللغة الوثيقة تعني: الإحكام في الأمر، والجمع وثيق، والوثيق: الشيء المحكم، والموثقُ الأمانة، ووثق وثاقه: مصدر الشيء المحكم، ووثقه توثيقاً أحكمه، والميثاق العهد، والجمع موثيق^(٤). أما أصل الكلمة يعود إلى مادة (وثق): (الواو والثاء والقاف كلمة تدل على عقد، وإحكام. ووثقت الشيء: أحكمته)^(٥)، وقال الخليل بن أحمد -رحمه الله -: "والوثيقة في الأمر: إحكامه، والأخذ بالثقة، والجميع وثائق"^(٦).

والتوثيق في اصطلاح الفقهاء: إثبات العقود والتصرفات والالتزامات على وجه يحتج به^(٧) أمام القضاء، وهو لا يخرج في هذا الاستعمال عن المعنى اللغوي. ولفتة التوثيق ومرادفاتها في القرآن الكريم ووجوب الوفاء بالعهود والمواثيق: جاءت مفردات هذه الكلمة في القرآن الكريم في آيات منها: قول الله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾^(٨)، وقال تعالى في معرض ذكره قصة يوسف وإخوته: ﴿قَالَ لَنْ أَرْسِلَ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾^(٩).

والمراد بالتوثيق هنا: تسجيل العقود، ونحوها في سجلات محكمة.

والوثائق: هي العقود التي يسجلها الموثقون العدول^(١٠).

وقد عُرِفَت الوثيقة بأنها: (صك كتب ليكون حجة في المستقبل لإثبات حق أو التقيد بالتزام، سواء أكان ذلك

بين طرفين، أم بإرادة منفردة واحدة، كالوصية والوقف)^(١١).

ومما اشتهر عند الفقهاء المتقدمين مصطلح "علم الشروط" أي: (علم التوثيق):

عرّف طاش كبرى زادة (ت ٩٦٨هـ) علم الشروط بأنه "علم يبحث فيه عن إنشاء الكلمات المتعلقة بالأحكام الشرعية. وموضوعه ومنفعته ظاهران. ومبادئه علم الإنشاء وعلم الفقه، وله استمداد من العرف". وقد عرّفه مؤخراً روعي أوزجان بأنه: "علم بفقه أحكام كيفية كتابة الالتزام التعاملي وماله مكانة مخصوصة في حفظ حقوق الخلق في محلها المخصوص على وجه الحجية دون البطالان شرعاً". وعلى وجه الدقة: "هو العلم الذي يبحث في كيفية تدوين الأحكام الشرعية على وجه يصح الاحتجاج به"^(١٢).

ويهدف علم الشروط كما يقرره الإمام السرخسي (ت ٤٨٣هـ)، ويؤكد السمرقندي في "رسوم القضاة" إلى عدة أوجه: أحدها: صيانة الأموال، حيث أمر الله تعالى بصيانتها ونهى عن إضاعتها فقال تعالى: ﴿وَلَا تَاْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾^(١٣)، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَاْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾^(١٤). والثاني: قطع المنازعة، فإن الكتاب يصير حكماً بين المتعاملين. والثالث: التحرز عن العقود الفاسدة. والرابع: رفع الارتياح، فقد يشتهب على المتعاملين إذا تطاول الزمان مقدار البدل، ومقدار الأجل.

ويستمد علم الشروط أصوله من الفقه باعتباره فرعاً من فروعه، وبخاصة ما يتعلق بالمعاملات والتصرفات الخاضعة للكتابة والتوثيق، كما أنه يستمد أصوله من العرف والعادة والرسوم والأمور الاستحسانية؛ ويستند علم الشروط في مشروعيته إلى الكتاب والسنة^(١٥).

ومن علم الشروط بوب السمرقندي للأوقاف والمصارف في كتابه المذكور الباب الثامن والعشرين والتاسع والعشرين، وقسمهما لعدة فصول منها اتخاذ دار مسجد، واتخاذ مقبرة، واتخاذ رباط للمارة والسابلة، والأوقاف في العقارات، وقسم المصارف لعدة فصول منها الوقف على الأولاد، والوقف على الموالي، والوقف على عمارة المساجد^(١٦).

تعالى: ﴿وَأَسْتَشْهَدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾^(٢٣).

أهمية التوثيق:

- حفظ الأموال والدماء والأعراض والأنساب في الموارث من الضياع، وإصلاح العقود المتعلقة بها، مما يشيع الأمن في المجتمع، والتحرز من العقود الفاسدة، بسبب جهل طرفي العقد لفقه المعاملات، أو تحيلهما، أو تواطؤهما معاً على وجه من التعاقد لمصلحتهما لا تجيزه الشريعة.
- قطع المنازعات والارتياح بين المتعاملين حال الحياة والوفاة، ونفي الخصومة بسبب الإنكارات للحقوق أو عدم القدرة على أداء الحق، وذلك عند الرجوع إلى الوثائق التي كتبت حسب الشروط الشرعية، وبكتابة عدل، وبإظهار الحق بشهوده لمن تحدثه نفسه بالإنكار والجحود خوفاً أو حياء.
- حصول الطمأنينة لصاحب الحق في استيفاء حقه، وثبوته عند المنازعة بمعرفة الأجل وحلوله، ومقدار الحق، وخاصة إذا بعد الزمن؛ لأن الإنسان معرض للنسيان والموت^(٢٤).

ثبوت الوقف

ينشأ الوقف بالألفاظ الدالة عليه الصادرة من الواقف أو ما يقوم مقامها من كتابة أو إشارة أو غيرها، ولإثبات الوقف طرق وأساليب متعددة سيأتي بيانها: ثبوت الوقف بالحجة الوقفية (الصك الوقفي)^(٢٥). وهي: «وثيقة إنشاء الوقف، عليها علامة القاضي أعلاها وخط الشاهدين أسفلها»^(٢٦).

٣/١- الفترة التاريخية لتوثيق وقف الشريف

محمد أبي نمي الثاني

تم تحرير وتوثيق هذا الوقف في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري بمكة المكرمة، خلال إمارة أمير مكة المكرمة الشريف عبد المطلب بن غالب^(٢٧)، وبأمر منه بتاريخ: ٢٢ محرم ١٢٦٨هـ، الموافق: ١٦/نوفمبر/ ١٨٥١م، كما ورد ذلك نصاً في الحجة

ولقد ظهر التوثيق الشرعي بظهور الدولة الإسلامية في المدينة النبوية، حين أقامها النبي (ﷺ) وكان ضمن أعمال أخرى كالقضاء والحسبة وغيرها من أعمال الدولة حيث اتخذ النبي (ﷺ) كتاباً يكتبون ما يكلفهم به، فكان علي وعثمان رضي الله عنهما يكتبان الوحي، وخالد بن سعيد بن أبي العاص ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما يكتبان حوائجه، والمغيرة بن أبي شعبة والحسين بن نمير رضي الله عنهما يكتبان ما بين الناس، وزيد بن ثابت يكتب للملوك^(٢٨).

واستمر الأمر على ذلك في دولة الخلفاء الراشدين، لكن التوسع العظيم للدولة المسلمة اقتضى زيادة الكتاب والتوسع في تخصصاتهم، فمن رؤوس هؤلاء الكتاب في عهد أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - عثمان بن عفان، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن الأرقم، وحنظلة بن الربيع. ومن كتاب عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - زيد بن ثابت، وعبد الله بن الأرقم. ومن كتاب عثمان بن عفان - رضي الله عنه - مروان بن الحكم، وأبو جبير الأنصاري، وعبد الله بن الأرقم. ومن كتاب علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - سعيد بن نمران الهمداني، وعبد الله بن جعفر وعبد الله بن جبير^(٢٩). ثم تطور الأمر في العهد الأموي، فبدأ القضاة بتوثيق بعض القضايا، فكان القاضي سليم التجيبي أول قاض بمصر يسجل سجلاً بقضائه^(٣٠). وعلى ذلك جرى الأمر في العهد العباسي، لكن مع اتساع الدولة، وتعدد الأمم الداخلة تحت سلطان الدولة، وظهور قضايا ومظالم جديدة، احتيج إلى سن أنظمة قضائية وأساليب تحفظ للناس حقوقهم، وتمنع من الظلم والتعدي^(٣١). وفي سياق زمني واحد جاء العهد الأموي في الأندلس متميزاً بالاهتمام بالتوثيق خاصة في مجال الوقف (الأعباس) فلأهمية الأوقاف أفردوا لها ولاية خاصة، من أهم أعمالها: إصدار الصكوك الخاصة بالأعباس^(٣٢).

٢/١- توثيق الوقف ومشروعيته^(٣٣)

مشروعية توثيق الوقف:

ثبتت مشروعية توثيق الوقف في الكتاب الكريم، وذلك على النحو الآتي: قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾، وقال

الوقف بعد لزومه ببيع، أو هبة أو نحوهما، كما أنه لا يجوز الرجوع فيه. (٣٢)

ومن الصدقة الجارية وقف البيوت والأراضي والمساجد وغيرها. وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَصَبْتُ أَرْضًا بِخَيْرٍ لَمْ أُصِبْ مَالًا قَطُّ أَنْفَسَ عِنْدِي مِنْهُ، فَمَا تَأْمُرُ بِهِ؟ قَالَ: «إِنْ شِئْتَ حَبَسْتَ أَصْلَهَا، وَتَصَدَّقْتَ بِهَا» قَالَ: فَتَصَدَّقُ بِهَا عُمَرُ، أَنَّهُ لَا يَبَاعُ وَلَا يُوهَبُ وَلَا يُورَثُ.. (٣٣)

حكمه: الوقف مندوب إليه مرغّب فيه بقول الله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا﴾ (٣٤).

وورد في السنة النبوية قول رسولنا المصطفى محمد (ﷺ): عن نافع بن عبد الله بن عمر قال: أصاب عمر أرضاً بخير، فأتى النبي (ﷺ) يستأمره فيها، فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَصَبْتُ أَرْضًا بِخَيْرٍ لَمْ أُصِبْ مَالًا قَطُّ أَنْفَسَ عِنْدِي مِنْهُ، فَمَا تَأْمُرُ بِهِ؟ قَالَ: «إِنْ شِئْتَ حَبَسْتَ أَصْلَهَا، وَتَصَدَّقْتَ بِهَا» قَالَ: فَتَصَدَّقُ بِهَا عُمَرُ، أَنَّهُ لَا يَبَاعُ وَلَا يُوهَبُ وَلَا يُورَثُ.. (٣٥).

وقد حبس رسول الله (ﷺ) سبعة حوائط وهي: الأعراف أو الأعواف، والصفافية، والدلال، والميثب، والبرقة، وحسن، ومشربة أم إبراهيم، وإنما سميت مشربة أم إبراهيم؛ لأن أم إبراهيم مارية كانت تنزلها. قال ابن كعب: (وقد حبس المسلمون بعده على أولادهم وأولاد أولادهم). (٣٦)

٢/٢-أنواع الوقف

ينقسم الوقف من حيث من ينتفعون به إلى نوعين: خيري، وأهلي، وهذا التقسيم لم يكن موجوداً في صدر الإسلام. بل إن الوقف كان يسمى صدقة، إلا أن مفهوم هذين النوعين كان موجوداً وإن لم يطلق عليهما: الأهلي أو الخيري.

النوع الأول الخيري: وهو ما جعل ابتداء على جهة من جهات البر، ولو مدة معينة، يكون بعدها وقفاً على شخص معين من أقارب الواقف أو غيرهم. النوع الثاني: الأهلي: أو الذري: وهو ما جعل ابتداء لشخص معين أو أشخاص معينين سواء أكانوا أقارب الواقف أم لا، مع

الشرعية؛ الذي تولى إمارة مكة المكرمة ثلاث فترات متفاوتة، فكانت الأولى عام (١٨٢٧م/١٢٤٣هـ)، وإمارته الثانية (وهي الفترة التي تم فيها إنشاء حجة الوقف) في نهاية عام ١٨٥٠م/١٢٦٧هـ في عهد السلطان العثماني عبد المجيد الأول (١٨٣٩-١٨٦١م/١٢٥٥-١٢٧٨هـ)، وفي ظل متغيرات جديدة شهدتها الدولة العثمانية، حيث استطاعت بمساعدة الدول الأوروبية تقليص نفوذ واليها على مصر محمد علي باشا وفقاً لمعاهدة لندن عام (١٨٤٠م/١٢٥٦هـ) وتسوية عام (١٨٤١م/١٢٥٧هـ) التي حصرت نفوذه في ولاية مصر كولاية وراثية له ولعقبه (٣٨)، فانتهى بذلك الوجود المصري في شبه الجزيرة العربية. ولم تزد الفترة الثانية لإمارة الشريف عبد المطلب عن خمس سنوات ظهرت فيها نزعة الاستقلالية ورغبته في تقليص نفوذ الحكم العثماني، أما إمارته الثالثة والأخيرة فكانت عام (١٨٨٠-١٨٨٢م/١٢٩٨-١٣٠٠هـ). (٣٩)

وأثنى على ولاية الشريف عبد المطلب بن غالب، معاصره مؤرخ مكة الأديب أحمد بن محمد الحضراوي (١٣٢٧هـ) فذكر أنه: "أحسن إلى جيران بيت الله؛ وأن هذه عادة أمراء مكة"، ولأزم الشريف عبد المطلب بعض العلماء، وأخذ عنهم، وخصص جزءاً من وقفه ليعصرف على أربعة من الفقهاء، وأسهم في إحياء النهضة العلمية في بلده، ومن شواهد ذلك أنه أنشأ مدرسة لتعليم أبناء مكة بجوار الحرم المكي (٣٠).

ثانياً: الوقف في الشرع الإسلامي

١/٢-تعريف الوقف

لغة: كلمة الوقف في اللغة تدل على المكوث في الشيء والمنع والوقف: الحبس والوقف مصدر وقفت الشيء وقفاً، أي حبستّه، ويطلق المصدر (الوقف) على اسم المفعول (الشيء الموقوف)، والجمع أوقاف ووقوف يقال: وقفت الدار وقفاً، أي حبستّها في سبيل الله (٣١).

اصطلاحاً: هو تحييس الأصل فلا يورث ولا يباع ولا يوهب، وتسبيل الثمرة لمن وقفت عليهم. وهو: عقد لازم بمجرد ثبوته بأي قول، أو فعل دال عليه، سواء أحكم به قاضٍ، أم لا؟ إذا ثبت هذا فإنه لا يجوز التصرف في

الكبيرة ونجاح الحروب العثمانية، زُيّنت مكة بشكل ملحوظ وازدهرت من نواح أخرى تحت حكم أبي نمي الثاني، الذي عزز انصرافه لمصالح مكة وديانته، وسمعة أشرافها".

ثالثاً: دراسة وثائقية لحجة الوقف الشرعية الأولى في القرن الثالث عشر- الهجري/ التاسع عشر الميلادي

١/٣-التعريف بموضوع الحجة الوقفية

- مصدرها: حجة شرعية توثيقة لوقف في عهد الشريف عبد المطلب بن غالب أمير مكة وبأمره. وهذا الصك صورة مخرجة من سجل المحكمة الشرعية بمكة في العهد السعودي.
- موضوعها: إحياء وتجديد وقف الشريف محمد أبي نمي رحمه الله.
- تاريخها: ٢٢ محرم ١٢٦٨هـ، الموافق: ١٦ نوفمبر ١٨٥١م.
- فهذه الحجة الوقفية مضمونها "دور وعقارات وعزل ودكاكين ووجاب^(٤٤) من بعض عيون وادي فاطمة شمال مكة المكرمة؛ بأركان الوقف: (وقف، واقف، موقوف عليه، وصيغة الوقف)^(٤٥)، فكانت الأركان الأربعة متوفرة ومثبتة في هذه الحجة الوقفية.
- أسماء الورادين فيها:
- الشيخ إبراهيم محمد سعيد الفتة^(٤٦) الوكيل الشرعي على جميع أوقاف الشريف محمد أبي نمي.
- أمير مكة الشريف عبد المطلب بن غالب.
- القاضي العالم العلامة خطيب زاده مولانا الحاج محمد سعد الله أفندي^(٤٧).

سبب إنشاء هذه الحجة: بأن الوقف الآتي بيانه هو وقف الشريف محمد أبي نمي بن بركات وقد فقد أثر واقفه لفقد حججه وفقدت رسومه من دواوين القضاة لفقدائها من محكمة مكة مع جميع السجلات فاشتبهت بموجب ذلك عليه مصارفه ولا سيما وقد وجد عمل نظاره من الملوك ليس على حالة واحدة، بل مختلف وغير مؤتلف وقد أشرف على الاضمحلال وأذن بالانحلال حيث جرى فيه بعض الملوك المتأخرين التقارير وتملكه

تعيين جهة من جهات البر تستحق الوقف بعد انقطاع الشخص أو الأشخاص الذين سماهم^(٣٧).

٣/٢-مُنشئ الوقف أمير مكة المكرمة في

القرن (١٠هـ/ ١٦م)

وهو الشريف محمد أبو نمي الثاني بن بركات الحسني الهاشمي القرشي^(٣٨). ولد ليلة التاسع من ذي الحجة من عام ٩١١هـ، وكان يُلقب نجم الدين، "صاحب القانون"، شارك أباه بركات في ولاية مكة، وعمره ثمان سنوات، حيث صدرت له هذه الولاية من السلطان المملوكي الغوري عام ٩١٨هـ، وامتاز أبو نمي بحزمه في إدارة الأمور وصرامته في الحكم وبذلك هابته الأعراب والأهالي واحترمه الحجاج والمجاورين^(٣٩).

وبعد سقوط الحكم المملوكي على يد العثمانيين أبقاه السلطان العثماني مشاركاً لوالده في إمارة مكة، ثم منفرداً بالإمارة بعد وفاة والده. وعدّه المؤرخون زعيماً قل من يضاهيه شهرة من طبقات الأشراف الأخرى. وكان الشريف أبو نمي جم الفضائل، حسن السمائل، محمود السيرة، له النثر الرفيع الفائق، والنظم البديع الرائق. واستمرت مكة محكومة بأمره سنين في استقرار لا تعبت بها القلاقل والفوضى. فولّي مكة بعد وفاة أبيه الشريف بركات ووصل إليه التأييد بعد وفاة أبيه من السلطان سليمان خان وكان عمره إذ ذاك نحو العشرين سنة. وتوفي الشريف أبو نمي بن بركات ليلة تاسوعا افتتاح سنة ٩٩٢هـ بوادي الأبيار من جهة اليمن وحمل إلى مكة وصلى عليه تجاه الكعبة ميرزا مخدوم ودفن بالمعلاة. وقيل إنه عاش ثمانين سنة، وشهراً، ويوماً، ومدة ولايته منفرداً، ومشاركاً لولديه [أي أحمد والحسن] ثلاثة وسبعون سنة^(٤٠).

ومن الحوادث المهمة في تاريخه تصديه لغزو البرتغاليين "الإفرنج" لميناء جدة؛ وهي من الجهاد في سبيل الله تعالى في أعظم ثغور بيت الله الحرام، وكان ذلك في أواخر سنة ٩٤٨ هـ^(٤١). ويذكر أيوب صبري باشا^(٤٢): "ارتفع قدر الشريف أبي نمي وعلا شأنه بين الأهالي، لأنه كان عاقلاً ومدبراً وقديراً في الحرب، لم يتضرر أحد من الناس في زمنه سواء من بين الأهالي أو الحجاج أو التجار". ويقول غوري^(٤٣): "وبسبب الثروة

[الإجراء الافتتاحي] مقدمة الحجة الوقفية:

"مضمونها حضر إلى المجلس الشريف الشرعي.. بمكرمة الشيخ إبراهيم بن محمد سعيد الفتة وهو الوكيل الشرعي على جميع أوقاف الشريف محمد أبوئمي بن بركات بن محمد بن بركات عن موكله الناظر على أوقاف المذكور.. الشريف عبد المطلب، فغب حضور الوكيل أنهى لحضرة فخر قضاة الإسلام منفذا القضايا والأحكام ببلد الله الحرام العالم العلامة خطيب زاده مولانا الحاج السيد محمد سعد الله أفندي بأن من الجاري تحت نظر ملوك مكة ملكاً بعد ملك من ذرية جدهم أبي نمي الموقف المذكور هو وقف جدهم المزبور الآتي بيانه وتوضيحه وقد آل النظر الآن للشريف عبد المطلب حسب عمل نظارة من أسلافه ملوك مكة خلفاً بعد سلف..."

٣/٣- عناصر نص الحجة الوقفية

يُعدّ النص أهم جزء في الحجة الوقفية ويتكون من عناصر موضوع التصرف أي بيان الوضع؛ حيث ذكر الواقف أهليته لأداء التصرف طوعية من غير إكراه. يضاف إلى ما سبق من عناصر يتضمنها النص العناصر التالية:

إثبات صحة التصرف: حاز الشريف عبد المطلب آل غالب الوقف إليه وأبطل التقارير من يد ممتلكيه ووضع عليه يده.

ممتلكات الوقف:

- سبع عزل^(٥٠)، عزلتان بالقرارة^(٥١) وخمس عزل بباب العمرة^(٥٢).
- وتسعة عشر دكاناً^(٥٣) من باب العمرة إلى المسفلة^(٥٤)، وأربع دكك مباسط، وأربعة دكاكين بالمعلاة^(٥٥)، متلازفة^(٥٦) علوها دكان وقف بالكامل.
- وبجانب هذه الدكاكين سبع قطع أراض متصلة بظهر الدكاكين عليها عشش للتجارة.
- وبجانبها قطعة ثامنة بجانب قبر الولي الحبشي فيها يباع تمر.
- ومنها فرن في حارة الشيخ عباس بحوشه.
- وفيها فرن أيضاً بزقاق المدعى^(٥٧).
- وبجانبه حوش كبير كان سابقاً مجزرة.

بموجب كل غني يتصرف فيه بالتصرفات الملكية وحرر منه كل مسكين وفقير.. فالموجب ذلك جهالة شرط موقفه وعمل نظاره واشتباه مصارفه.

٢/٣- السمات العامة للحجة الوقفية

(الخارجية والداخلية).

السمات الخارجية: تتعلق بمعرفة نوع الورق والحبر والإخراج والهوامش وحالة الحجة الوقفية.

- الورق: هذه الحجة الوقفية من مقتنيات الباحث، صورة مخرجة من سجل المحكمة الشرعية بمكة في العهد السعودي. انظر: صورتها في الملاحق.
- الحبر المستعمل: أسود يميل إلى اللون البني لاحتوائه على أكسيد الحديد.
- شكل الوثيقة: تتألف الحجة من ورقة واحدة (وجه وظهر).
- إخراج الصفحة والهوامش والسطور: لا تختلف هذه الحجة الوقفية عن مثيلاتها من الوثائق التي صدرت في العهد العثماني بالحجاز. لكن الصك مستخرج من السجل السعودي.
- الهوامش: الهامش الأيمن عريض (حوالي ٦ سم) بينما الهامش الأيسر ضيق (حوالي ٢ سم).
- السطور: كُتبت الحجة الوقفية في سطور كاملة منتظمة دون فواصل أو وقفات، وعدم وضع النقاط على بعض الحروف، ولم توضع الهمزات على بعض الحروف، إلا في بعض الأحيان.

السمات البيانية " البليوجرافيا "

الخط: هو خط الرقعة؛ ولم يستعمل الكاتب حروفا كبيرة ولا المدات في الكلمات الافتتاحية أو بداية الفقرات.

اللغة: ضعف الالتزام بقواعد النحو والإملاء، في بعض المسميات أو العبارات.

السمات الداخلية: وهي معرفة أجزاء الحجة الوقفية، وأسلوبها من الناحيتين الفقهية، والوثائقية "الدبلوماسية".^(٤٨)

- ومنها أيضاً بجياد بقرب الرباط المذكور للمستقلين الفقراء مشتمل على ثمانية مساكن فجملة الأربطة المذكورة أعلاه عشرة، خمسة منها للفقراء الفقراء في سكناهم وخمسة منها للفقراء المستقلين مع حريمهم وأولادهم الذين لا يجدون مسكناً في الخارج والعزلتان التي بالقرارة متلازقتان بالقرب من بيت القزاز.
- ومنها في أبي شعيب^(٦٧) ربع وجبة^(٦٨) بأرضها المسماة السانية ومنها نصف وجبة بأرضها في المدة المسماة الجابر.
- ومنها نصف وجبة بأرضها تسقي عين الفيض^(٦٩) فجملة الوجاب، وجبة، وربع وجبة.
- ومنها بجدة مصانع عبد الله نصيف، ثم وقت تاريخ الحجة مستأجرة من ابن الدعيس.

طبقات الوقف:

- نصف من غلة الوقف الفاضل بعد المنصرف في جميع ذلك يصرف لفقراء السادة الأشراف من ذرية الواقف جدهم (نسل وسلالة الشريف محمد أبي نمي الثاني)، ذكورهم وإناثهم بالسوية.
- حيث كان ذلك أقرب لغرض الواقف وحيث إن ذريته الفقراء أولى بصرف غلة وقفه عليهم دون غيرهم وذلك أيضاً أوقف شرعاً حيث تخرج غلته على ذرية موقفه.
- ثم إذا انقضى ذووه والعياذ بالله يصرف ذلك الذي كان لذريته لسكان أربطته الآتي بيانها.
- وإذا انقضوا والعياذ بالله وتعذر صرف الغلة عليهم يكون للفقراء والمساكين.

شروط الوقف:

- أول ما يبدأ من غلة الوقف بعمارته ورممرته (أي صيانتها) وما فيه بقاء عينه.
- وجعل العشر من غلاته للمباشر عليه من طرفه أو من طرف نظاره إذا آل النظر إليهم.

- ومنه أرض محتكرة في المسفلة تحت يد شيخ الشبيكة^(٥٨) مستور في زقاق الجنائز^(٥٩).
- ومنها عشرة أربطة رباط عند باب العمرة الشهير برباط سكنى الهنود وبين عزلتين من عزل الوقف مشتمل على ستة عشر خلوة ومنها رباط عند حنفية باب العمرة ويشتمل على ثمانية عشر خلوة بجانب هذا الرباط.
- ثلاث عزل للوقف من السبع المذكورة أعلاه.
- وتحت عزلتان منها ثلاثة دكاكين للوقف من الستة عشر دكانا المذكورة أعلاه.
- ومنها رباط أبو سدره^(٦٠) فيه بازان مشتمل على ست عشرة خلوة.
- أربعة دكاكين للوقف من الدكاكين المذكورة أعلاه.
- وبظهر الرباط مما يلي سوق الصغير^(٦١) خمسة دكاكين للوقف.
- ومنها رباط أبو بازان^(٦٢) قرب السوق الصغير مشتمل على تسع خلوات^(٦٣).
- بجهة بابه دكانان ودكة للوقف وبظهره خمسة دكاكين وثلاث دكك مباسط^(٦٤) كلها للوقف كما ذكر أعلاه.
- ومنها رباط بزقاق الكاتب بحارة باب إبراهيم^(٦٥) مشتمل على خمس عشرة خلوة.
- فهذه خمسة أربطة لسكنى الرجال فقط استحسن سيدنا وسيد الجميع أن يكون الساكن فيها فقيراً غير متزوج وألا يجعل فيها خزيناً للبيع والشراء.
- ومنها رباطان بحارة زقاق اليافعي بالمسفلة بالزقاق الموصل المنشية أحدهما شهير بسكنى باعامر مشتمل على عشرة مساكن سفلى للفقراء المستقلين^(٦٦) النازلين فيه غير المؤجرين لسكناهم وهذه الشروط أيضاً في بقية الخمسة الآتية أيضاً.
- وبجانب هذا الرباط رباط للمستقلين الفقراء شهير بسكنى عبد الرزاق، مشتمل على مخزن باب الرباط.
- وتسعة مساكن سفلى أيضاً بزقاق اليافعي المقابل لهما رباط أيضاً للمستقلين الفقراء شهير بسكنى الرويني مشتمل على تسعة مساكن.
- ومنها رباط بجياد بقرب مصافي المضايقي مسمى برباط الأقبوية مشتمل على سبعة عشر مسكناً لسكنى المستقلين الفقراء.

أعلاه بعد أن أطلع ذلك على أهل العلم والأمانة والديانة فرأى مولانا القاضي أن ما استحسنه سيدنا وسيد الجميع من جميع ما ذكر أعلاه واستحسنه أهل الأمانة والديانة والعلم لا عدول عنه حيث كان موافقاً للشرع الشريف من صرف الغلال على النمط المسطور إذ المقصود من أوقاف الواقفين إجراء الخيرات عليهم بعد موته لم يقله (ﷺ) إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له ولا يتحصل إجراء خيرات الأوقاف إلا بعد عماراتها ورمرمتها وبما فيه بقاء عينها ولا يتم وقف إلا إذا كان على جهة غير منقطعة وهو صرفه للفقراء والمساكين ونحو ذلك مع أن الوقف المذكور إنما صرفت غلته على فقراء ذرية الواقف وهم أولى من غيرهم فلم تخرج غلته عنهم بعد صرف اللازم على الوقف مما ذكر أعلاه وغيره وأذن مولانا القاضي للناظر في جميع ذلك ونفذه وأمر بإجرائه واستحسنه وأبرم على النمط الذي سطر وقرر للمباشر نيابة عن الناظر لعمارتها أجره مثله وهو العشر حسبما قرر ذلك له سيدنا وسيد الجميع حيث إن المباشر يلحقه زيادة مثبته تشتت الوقف بمواضع عدة في مكة وغيرها.

الإجراء الختامي:

١- خاتمة الحجة الوقفية: " .. فبسبب ذلك رأى مولانا القاضي من المقدر المذكور هو أجره المثل للناظر المذكور يقبضها الناظر ويصرفها المباشر عنه ونفذ جميع ذلك وأمضاه وأوجب العمل بمقتضاه بعد تحقق جميع وثبوتيه لديه الثبوت الشرعي المحرر المرعي وما هو الواقع جرى وحرر في ٢٢ محرم السنة ثمانية وستين ومائتين وألف وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

٢- التاريخ: ٢٢/محرم/١٢٦٨هـ، الموافق: ١٦/نوفمبر/ ١٨٥١م.

٣- علامات الصحة والإثبات:

ختم المحكمة

وبعد نظر القاضي أصدر حكمه بإثبات الأعيان الموجودة آنذاك، وبالموافقة على مصارف الوقف وأن يصرف الفاضل بعد المنصرف للفقراء السادة الأشراف

- ويصرف ما يحتاجه الناظر للوقف من أجره نحو مشرفين أو صكوك أو أجره دواب عند الاحتياج لذلك لضرورة مصالح الوقف.
- يصرف من غلته لخسفتين توضع في المسجد الحرام لكل خسفة خمسة دواقر وفقهه يقرأ كل فقيه على كل خسفة بطول السنة وفي رمضان يجعل على كل خسفة (٧٠) عشرة دواقر (٧١) ويصرف أيضاً من غلته على ختم في رمضان في الخسفتين حسبما يليق بالختم.
- يصرف أيضاً من غلته لكل رباط قيمة زيت لقنديل يوضع عند باب الرباط يسرج الليل كله يقوم به شيخ كل رباط يصرف لكل قنديل في كل ليلة.
- نصف من غلة الوقف الفاضل بعد المنصرف في جميع ذلك يصرف للفقراء السادة الأشراف من ذرية الواقف جدهم (ذكورهم وإنثاهم بالسوية).
- فرض أجره المثل للمباشر نيابة عن الناظر (الشريف عبد المطلب) حين العمل مما يسوغ للنظار عمله شرعاً.
- فهذه خمسة أربطة لسكنى الرجال فقط استحسن سيدنا وسيد الجميع أن يكون الساكن فيها فقيراً غير متزوج وألا يجعل فيها خزيناً للبيع والشراء.
- ومنها رباطان بحارة زقاق اليافعي بالمسفلة بالزقاق الموصل إلى المنشية أحدهما شهير بسكنى باعامر مشتمل على عشرة مساكن سفلى للفقراء المستعدين النازلين فيه غير المؤجرين لسكناهم وهذه الشروط أيضاً في بقية الخمسة.
- شرط الواقف لنفسه الشروط الآتية: الإدخال والإخراج والإعطاء والحرمان والزيادة والنقصان والتغيير والتبديل والإبدال والاستبدال وله أن يكرر ذلك في وقفه هذه المدة بعد المدة والكثرة بعد الكثرة حسب ما يحب ويختار.

فحيث طلب سيدنا وسيد الجميع ذو الفهم الثاقب والرأي الصائب أدام الله دولته، ولا زال في عز وتمكين بتأييد رب العالمين من مولانا القاضي المومى إليه أعلاه دام عزه وعلاه إمعان نظره السديد ورأيه الرشيد فيما استحسنه سيدنا ورتبه ووزعه على النمط المسطور

مجال الدراسات التاريخية والشرعية، والاجتماعية، والاقتصادية.^(٧٣)

الآثار الاجتماعية للوقف: إن الأوقاف عمل اجتماعي دوافعه في أكثر الأحيان اجتماعية وأهدافه دائماً اجتماعية، فالأوقاف الإسلامية في الأصل عمل اجتماعي، ومن تلك الآثار الاجتماعية المترتبة على الوقف، أو التي كان للوقف دور في تعزيزها في حياة المجتمع وترسيخها، أنه ساعد على تحقيق الاستقرار الاجتماعي وعدم شيوع روح التذمر في المجتمع وذلك نوع من المساواة بين أفرادهم فقد تمكن الفقير من الحصول على حقه من المتطلبات الأساسية في الحياة من خلال نظام الوقف. كما تمكن الوقف بما يمتلكه من مرونة من بسط مبدأ التضامن الاجتماعي وشيوع روح التراحم والتواد بين أفراد المجتمع وحمايته من الأمراض الاجتماعية التي تنشأ عادة في المجتمعات التي تسود فيها روح الأنانية المادية وينتج عنها الصراعات الطبقيّة بين المستويات الاجتماعية المختلفة، فالتأمل في نظام الوقف في الإسلام يرى بوضوح كيف عمل ذلك النظام المتكامل على تعزيز روح الانتماء بين أفراد المجتمع وشعورهم بأنهم جزء من جسد واحد تحقيقاً لحديث الرسول (ﷺ): (ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)^(٧٤). وهذا الشعور بالانتماء يشمل الطرفين الواقف والمستفيد من الوقف، فالواقف استشعر دوره المناط به في المجتمع وخصص جزءاً من ماله لسد حاجة من حاجات المجتمع، والمستفيد من الوقف يستشعر بعين التقدير مدى حاجته للانتماء لجسد المجتمع الواحد الذي قام أثرياؤه بإسعاد فقرائه من خلال نظام الوقف.

إن الدارس للأثر الاجتماعي للوقف لابد أن تستوقفه نوعية الطبقة الاجتماعية التي استفادت بشكل كبير من الوقف وكيف استطاع تغييرها وتحقيق ما يسمى بظاهرة الحراك الاجتماعي في بنية المجتمع.^(٧٥) كما تجلّى في مضمون هذه الحجة الوقفية.

الآثار النسبية للحجج الوقفية: فمن آثار هذا الوقف المهمة التي لم يتطرق لها الباحثون في آثار الأوقاف - بحسب اطلاعي - أن الأوقاف الدُّرِّيَّة ساهمت مع عوامل

من ذرية الواقف جدهم المذكور ذكورهم وإنائهم بالسوية، لأن هذا أقرب إلى غرض الواقف من وقفه، وحيث إن ذريته الفقراء أولى بصرف غلة وقفه دون غيرهم، وذلك أيضاً أوفق شرعاً حيث لم تخرج غلته من ذرية موقفه.^(٧٦)

رابعاً: الآثار التاريخية والعلمية والاقتصادية للوقفية

يتبين من هذه الحجة الوقفية معرفة عدد من (أسماء الأحياء والشوارع والأسواق) داخل مكة، ومواقع الأربطة والأوقاف والمستفيدين منها، وعيني مياه بقرية أبي شعيب بوادي فاطمة شمال مكة، حتى أن بعض هذه المواقع زال واندثر مع التوسعات التي شملت المسجد الحرام، والنهضة العمرانية بالمنطقة المركزية المحيطة بالمسجد الحرام (من فنادق وأبراج سكنية).

تمثل هذه الحجة الوقفية مصدراً مهماً للمعطيات الطبوغرافية لمكة المكرمة في القرن الثالث عشر الهجري.

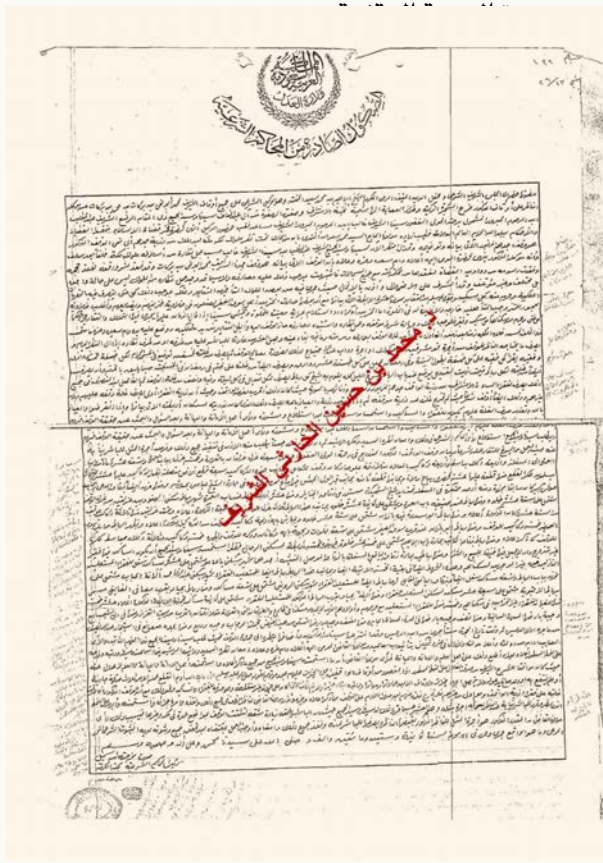
تُعَدُّ هذه الحجة الوقفية الشرعية وثيقة رسمية صادرة من محكمة شرعية معتبرة بأختام قضاتها وتصديقاتهم في الوجه الأمامي والوجه الخلفي؛ لا يمكن التشكيك والطعن في صحتها، فبالتالي هي مصدرٌ لإعادة إحياء التراث الإسلامي، وإعادة كتابة التاريخ، وتجديد المفاهيم التاريخية التقليدية، كما هو مبين تفصيلاً في التحليل الدبلوماسي للحجة الوقفية.

الحُجَّةُ الوقفية، ومثيلاتها من مصادر التاريخ، فهي شواهد ناطقة بالأحوال والأوضاع العامة في بلدان الوقف في مراحل زمنية متفاوتة.

يُسْتَفَادُ من هذه الحجة الوقفية، وما شابهها، في معرفة التراجم؛ إذ يرد في الحجة ذكر للواقف، والقاضي، أو الموثق للوقف، والشهود، والمستفيدين من الوقف، والقائمين عليه من النظائر ونحوهم، ثم القضية الذين يتتابعون على توثيق الوقف، فكل أولئك يرد ذكرهم في سياق الحجة الوقفية، كما ورد في هذه الحجة الوقفية المحققة.

تعتبر هذه الحجة الوقفية ومثيلاتها بمثابة تراث وطني لا يُقدر بثمن، ومصدر لا غنى عنه، لكل باحث في

الملاحق



خاتمة

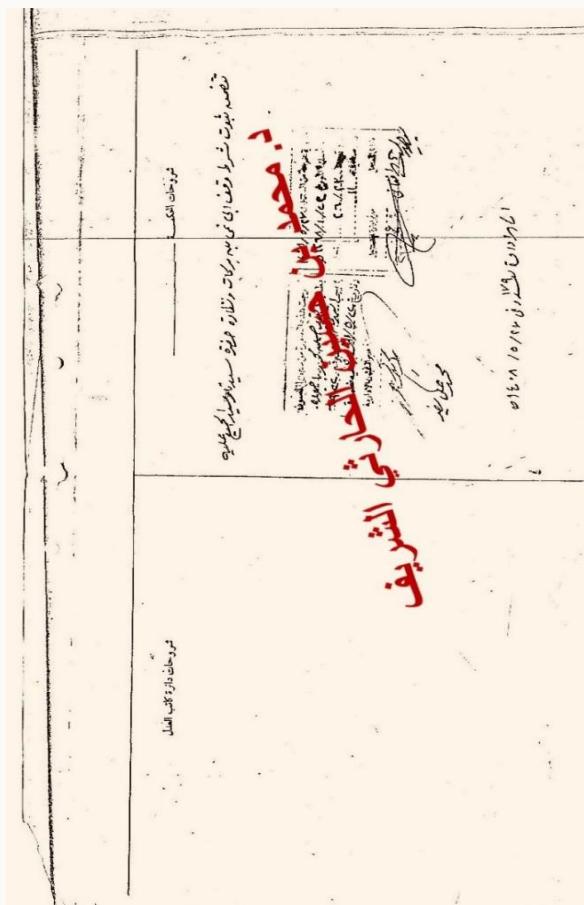
أخرى في حفظ أنساب تلك الأسر (ذرية الواقف)، ودعمت تماسكها وتقاربها وتعارفها وتلاقيها ببعضها، حتى لو تباعدت أماكن السكنى لذوي الواقف^(٧٦)، كما هو مُشاهد على أرض الواقع.

نستخلص من هذه الدراسة الوثائقية، أنه لم تصل أي أمة من الأمم السابقة إلى ما وصلت إليه الأمة الإسلامية من: توثيق لكتاب ربها، وأقوال نبيها (ﷺ) وأحكام دينها، بل ولم تعرف أي أمة من الأمم السابقة ما عرفته الأمة الإسلامية من: توثيق لرجالها، وحملة شريعتها^(٧٧).

وأن علاقة علم التوثيق بغيره من العلوم الأخرى علاقة وثيقة، فالعلوم الأخرى تحتاج إليه لتوثيقها وحفظها، وعلم التوثيق يحتاج إليها في استمداداته، فهو يستمد قواعده من الفقه، ويستمد شروطه من علم الشروط، ويستمد ألفاظه وأسلوبه من علم الأدب^(٧٨).

كذلك الوقوف على الآثار العلمية التاريخية والشرعية والاجتماعية والاقتصادية لمثل تلك الحجج والصكوك؛ من مثل معرفة الجوانب الحضارية، والمواقع العمرانية، والمعطيات الطبوغرافية، إضافة إلى معرفة التراجم والأعلام، والآثار الاجتماعية، والأسرية، والنسبية.

فهذه الحجج والوثائق الوقفية بمثابة تراث وطني لا يُقدر بثمن، ومصدر لا غنى عنه، لكل باحث في مجال تلك الدراسات التاريخية أو الشرعية، أو الاجتماعية، والاقتصادية. ومن ثم - أيضاً - بيان مدى اهتمام عرب الجزيرة العربية عامة وأهل الحجاز خاصة بإنشاء الأوقاف وتوثيقها ورعايتها، والعمل على ديمومتها.



الإحالات المرجعية:

- (١) سورة البقرة، آية رقم (٢٨٢).
- (٢) نظام الهيئة العامة للأوقاف، تاريخ الإصدار: ٢٦ / ٢ / ١٤٣٧ هـ الموافق: ٢٠١٥/١٢/٨ م، تاريخ النشر: ١٤٣٧/٣/١٤ هـ الموافق: ٢٠١٥/١٢/٢٥ م، مرسوم ملكي رقم (١١/م) بتاريخ ٢٦ / ٢ / ١٤٣٧، انظر: موقع: **مجموعة الأنظمة السعودية**، المجلد السادس، **أنظمة العمل والرعاية الاجتماعية**، نظام الهيئة العامة للأوقاف، <https://2u.pw/0UWLQND>.
- (٣) الشاهين، محمد عمر، **نصوص ووثائق تاريخية**، (دار الفكر - الأردن - عمان، ط ١، ٢٠١٠ م - ١٤٣٠ هـ)، ص ١٩.
- (٤) الشاهين، **نصوص ووثائق تاريخية**، ص ٢١؛ الحجيلي، عبدالله محمد سعد، **علم التوثيق الشرعي**، (دار الصمعي - الرياض، ط ٢، ١٤٤٣/٥١/٢١ م)، ص ٣٣-٣٦.
- (٥) ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (ت ٣٩٥ هـ)، **معجم مقاييس اللغة**، المحقق: عبد السلام محمد هارون، (دار الفكر، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م)، مادة (وَقَّ): ج ٦، ص ٨٥.
- (٦) الفراهيدي، أبو عبد الرحمن خليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (ت ١٧٠ هـ)، **كتاب العين**، المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، (دار ومكتبة الهلال)، باب القاف والثاء: مادة (وَقَّ): ج ٥، ص ٢٠.
- (٧) حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله، الشهير بحاجي خليفة وبكاتب جلبي حاجي خليفة، **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، (دار إحياء التراث بيروت)، ج ٢، ص ٤٦؛ السمرقندي: أبي نصر أحمد بن محمد (ت ٥٥٥ هـ)، **كتاب الشروط وعلوم الصكوك، دراسة وتحقيق**: أحمد جابر بدران، (دار الوفاء، دار النشر للجامعات - القاهرة، ١٤٣٨ هـ/ ٢٠١٧ م)، - مقدمة المحقق - ص ١٢٦.
- (٨) سورة المائدة، آية رقم (٧).
- (٩) سورة يوسف، آية رقم (٦٦).
- (١٠) بن عبد الله، عبد العزيز، **معلمة الفقه المالكي**، (دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، ط ١، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م)، ص ٣٢٦.
- (١١) الحجيلي، عبد الله بن محمد، **الأوقاف النبوية وأوقاف الخلفاء الراشدين**، (دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ١٤٣٠ هـ/ ٢٠٠٩ م)، ص ١١٥.
- (١٢) السمرقندي، **كتاب الشروط وعلوم الصكوك** - مقدمة المحقق - ص ١٢٤-١٢٥.
- (١٣) سورة البقرة، آية رقم (١٨٨).
- (١٤) سورة النساء، آية رقم (٢٩).
- (١٥) السمرقندي، **كتاب الشروط وعلوم الصكوك** - مقدمة المحقق - ص ١٢٥-١٢٦.
- (١٦) السمرقندي، **كتاب الشروط وعلوم الصكوك**، ص ٥١٦-٥٢٦.
- (١٧) الجهشياري، أبي عبد الله محمد بن عبدوس، **الوزراء والكتّاب**، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي، (مطبعة مصطفى البابي الحلبي - القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٥٧ هـ/ ١٩٣٨ م)، ص ١٢-١٣.
- (١٨) الجهشياري، **الوزراء والكتّاب**، ص ١٠-٢٣.
- (١٩) الحجيلي، **علم التوثيق الشرعي**، ص ١٦؛ وانظر: اللويحق، عبد الرحمن بن معلّ: **توثيق الأوقاف (الأصول الشرعية والأساليب الإجرائية)**، (١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م)، الموقع: شبكة الألوكة: موقع الشيخ اللويحق، <https://2u.pw/7mOrSCO>.
- (٢٠) الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (ت ٤٥٠ هـ)، **الطوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي وهو شرح مختصر المزني**، المحقق: الشيخ علي محمد معوض - الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، (دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط ١، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م)، ج ١٦، ص ٢٧.
- (٢١) الحجيلي، **علم التوثيق الشرعي**، ص ١٦٧ - ١٦٨؛ وانظر: اللويحق، **توثيق الأوقاف (الأصول الشرعية والأساليب الإجرائية)**.
- (٢٢) **مدونة أحكام الوقف الفقهية**، (إعداد: الأمانة العامة للأوقاف - الكويت، ط ١، ١٤٣٩ هـ - ٢٠١٧ م)، ج ٣، ص ١٤٠-١٥٨.
- (٢٣) سورة البقرة، جزء من آية ٢٨٢.
- (٢٤) السمرقندي، أحمد بن محمد علاء الدين أبو نصر، **رسوم القضاة**، تحقيق: محمد جاسم الحديثي، (نشر وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٨٥ م)، ص ٢١ - ٢٤؛ الزريقي: جمعة: **التوثيق العقاري في الشريعة الإسلامية**، (نشر، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان طرابلس، الجماهيرية الليبية، ط ١، ١٣٩٤ هـ / ١٩٨٥ م)، ص ٢٠ - ٢١؛ انظر: **مدونة أحكام الوقف الفقهية**، إعداد: الأمانة العامة للأوقاف - الكويت، ج ٣، ص ١٤٠-١٥٨.
- (٢٥) ابن عابدين: محمد أمين: **حاشية رد المحتار، على الدر المختار: شرح تنوير الأبصار**، (شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط ٢، ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م)، ج ٤، ص ٣٠٨.
- (٢٦) **حاشية ابن عابدين**، ج ٤، ص ٣٠٨؛ انظر: **مدونة أحكام الوقف الفقهية**، إعداد: الأمانة العامة للأوقاف - الكويت، ج ٣، ص ١٤٠-١٥٨.
- (٢٧) انظر أخباره وترجمته: دحلان، أحمد زيني، (١٣٠٣ هـ)، **خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام**، المطبعة الخيرية، مصر، ط ١، ص ٣٠٥-٣٢٧؛ الصباغ: محمد بن أحمد المالكي المكي المعروف بالصباغ (ت ١٣٢١ هـ): **تحصيل المرام في أخبار البيت الحرام والمشاعر العظام ومكة والحرم وولاتها الفخام**، تحقيق عبد الملك بن دهيش، ط ١، ١٤٢٤ هـ/ ٢٠٠٤ م، ج ٢، ص ٧٩٩-٨٠٩؛ أبي الفيض البكري: عبد الستار بن عبد الوهاب (ت ١٣٥٥ هـ)، **فيض الملك الوهاب المتعالي بأنباء أوائل القرن الثالث عشر والتوالي**، تحقيق: عبد الملك بن دهيش، المكتبة الأسدية - مكة المكرمة، ج ٢، ص ٤٣؛ الغازي: عبد الله، **إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام**، مكتبة الأسدي - مكة المكرمة، ط ١، ١٤٣٠ هـ/ ٢٠٠٩ م، ج ٤، ص ٦٦، ج ٦، ص ٣٧١-٣٧٣.
- (٢٨) طه، جاد، **معالم تاريخ مصر الحديث والمعاصر**، (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٨٥ م، ط ١) ص ١٣١؛ السباعي، **تاريخ مكة**، ج ٢، ص ٥٣-٥٣١؛ جارشلبي، **أشراف مكة المكرمة**، ص ٢١٧-٢١٨.
- (٢٩) الغالبي، سلوى، الشريف عبد المطلب بن غالب أمير مكة المكرمة، **رؤية جديدة في ضوء الوثائق البريطانية**، (إصدار جمعية التاريخ والآثار بدول مجلس التعاون، مداولت اللقاء العلمي السنوي الثالث عشر للجمعية، مسقط- عُمان، ٢-٥ جمادى الآخرة ١٤٣٣ هـ/ ٢٣-٢٦ أبريل ٢٠١٢ م)، ص ٢٧٥-٣١٩.
- (٣٠) الهاشمي، إبراهيم بن منصور، محقق: **كتاب "كتب الشريف عبد المطلب بن غالب التي وقفها على مكتبة الحرم المكي"**، كتبه

علي بن فضل (ت ١١٧٣هـ)، (١٤١٢هـ/١٩٩٣م)، **إتحاف فضلاء الزمن**

بتاريخ ولاية بني الحسن، تحقيق محسن محمد حسن سليم، ط١،

دار الكتاب الجامعي، القاهرة، ج١، ص٣٣١، ص٤٠٧، ص٥٥٩.

(٣٩) **باكثر، وسيلة المآل في عد مناقب الآل**، ج١، ص١٢٢-١٣٥،

السنجاري، **مناقب الكرم**، ج٣، ص١٧٥، ص٢٢٥، ص٢٤٦، العصامي،

سمط النجوم العوالي، ج٤، ص٣٠٢-٣٢٠، الطبري، **إتحاف فضلاء**

الزمن، ج١، ص٣٣١، ص٤٠٧، ص٥٥٩.

(٤٠) **باكثر، وسيلة المآل في عد مناقب الآل**، ج١، ص١٢٢-١٣٤،

السنجاري، **مناقب الكرم**، ج٣، ص١٧٥، ص٢٢٥، ص٢٤٦؛ العصامي:

سمط النجوم العوالي، ج٤، ص٣٠٢-٣٢٠، الطبري، **إتحاف فضلاء**

الزمن، ج١، ص٣٣١، ص٤٠٧، ص٥٥٩؛ **خلاصة الكلام في بيان**

أمرأه البلد الحرام، ص٤٨-٥٥، الصباغ: **تحصيل المرام في أخبار البيت**

الحرام، ج٢، ص٧٧؛ الغازي: **عبد الله بن محمد الغازي المكي**

(ت ١٣٦٥هـ): **إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام**، تحقيق: عبد

الملك بن دهبش، مكتبة الأسد - مكة المكرمة، ط١،

١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م، ج٣، ص٣٥٩، السباعي، **أحمد، تاريخ مكة**، ط١،

١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ص٣٤٦؛ انظر: الحارثي: **الشريف محمد بن حسين:**

الاستشراف على تاريخ أبناء محمد الحارث الأشراف، دراسة تاريخية

وثائقية، (مؤسسة الريان - بيروت، ط٢، ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م)، ص١٣٨-

١٥٠.

(٤١) **الشريف، محمد الحارثي، دراسة مُحَكَّمَة "الدور التاريخي للشريف**

محمد أبي نمي الثاني حاكم الحجاز وأمير الحرمين الشريفين، في

القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي في التصدي للغزو

البرتغالي للحجاز" ، نُشرت في العدد (٣٣) الدوري لمجلة ريس

العلمية المحكمة. (مجلة العلوم التربوية والاجتماعية، مسار التربية

والعلوم الاجتماعية ٤٢٣، المجلد [٥] (١٣)، ديسمبر ٢٠١٨،

http://www.ressjournal.com/Makaleler/1849683052_8.p

df، ونُشرت الدراسة المذكورة ضمن كتاب: دراسات علمية محكمة،

شركة تكوين، الطبعة الأولى، ١٤٤٣هـ/٢٠٢٢م، ص١١-٤٦.

(٤٢) **مرآة جزيرة العرب**، تحقيق: أحمد متولي، الصفصافي المرسي، دار

الاتفاق العربية، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، ص٨٦.

(٤٣) **غوري: جيرالد: حكام مكة**، ترجمة: رزق الله بطرس، (الوراق للنشر -

بيروت وبغداد، ٢٠١٢م)، ص١٦١.

(٤٤) **الوجبة**، حصة مقننة من مياه العين بالوادي وتُجمع على "وَجَاب"،

وتُقَسَّم على ساعات الليل والنهار. وهي من ضمن ما يُسمى

[قانون الخيف] أي قانون تقسيم مياه العين بين المَلَك والمزارعين،

بين مزارع ذلك الوادي. انظر **الدراسة المُحَكَّمَة**: "قانون الخيف،

سُقيا مزارع (آل باز الأشراف الحَرث) بوادي نخلة الشامية (المضيق)"،

نُشرت بمجلة جامعة الزيتونة الأردنية، للعلوم للدراسات الإنسانية

والاجتماعية، المجلد (٣)، الإصدار (٢)، ٢٠٢٢م.

<https://2u.pw/1ihb2L2n>، والدراسة منشورة أيضاً ضمن كتاب/

دراسات علمية محكمة، (شركة تكوين، الطبعة الأولى،

١٤٤٣هـ/٢٠٢٢م)، ص٩١-١٣٣.

(٤٥) **الطرابلسي: الإسعاف في أحكام الأوقاف**، ص٥٣-٦٣؛ وانظر

الصالح: محمد بن أحمد: **الوقف في الشريعة الإسلامية وأثره في**

تنمية المجتمع، ص٦٠-٨٤.

قاضي مكة السيد الحاج محمد (١٢٧٩هـ)، (دار البشائر الإسلامية،

ط١، ١٤٤٣هـ/٢٠٢٢م)، ص١٩-٢٢.

(٣١) انظر مادة (وقف): ابن منظور، **لسان العرب**، مادة (وقف) المجلد

التاسع، (دار صادر، بيروت)، ص٣٥٩، ٣٦٠؛ **تاج العروس للزبيدي**،

ج٦، ص٣٦٩؛ الفيومي، أحمد بن محمد بن علي الفيومي المقري،

المصباح المنير، المكتبة العصرية - بيروت، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م،

ج٢، ص٣٤٦؛ الفيروز آبادي، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب

الفيروز آبادي (ت ٨١٧هـ)، **القاموس المحيط**، مؤسسة الرسالة

للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ط٨، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م،

ج٣، ص٢٠٥.

(٣٢) **الجزائري، أبو بكر: منهاج المسلم**، مكتبة العلوم والحكم، المدينة

المنورة، (ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م)، ص٣٧٥؛ وانظر: الصالح، محمد بن

أحمد، **الوقف في الشريعة الإسلامية وأثره في تنمية المجتمع**،

(ط١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م)، ص١٩-٢٩.

(٣٣) رواه البخاري في **كتاب الشروط**، باب الشروط في الوقف برقم

(٢٧٣٧)، ورواه مسلم في كتاب الوصية، باب الوقف برقم (١٦٣٢)،

ضمن كتاب، **الكتب الستة**: (صحيح البخاري، صحيح مسلم، سنن أبي

داود، سنن الترمذي، سنن النسائي، سنن ابن ماجه)، اعتنى به:

رائد بن صبري بن أبي عُلفة، مكتبة الرشد - الرياض، الطبعة الثانية،

١٤٣٣هـ/٢٠١٢م.

(٣٤) **سورة الأحزاب**، آية رقم (٦).

(٣٥) رواه البخاري في **كتاب الشروط**، باب الشروط في الوقف برقم

(٢٧٣٧)، ورواه مسلم في كتاب الوصية، باب الوقف برقم (١٦٣٢).

(٣٦) **الخُصَّاف**، أبو بكر أحمد بن عمرو الشيباني (ت ٢٦١هـ)، **أحكام**

الأوقاف، تحقيق: محمد عبد السلام شاهين، (دار الكتب العلمية -

بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م)، ص٥؛ ابن شبة: عمر بن شبة (واسمه

زيد) بن عبيدة بن ربيعة النميري البصري، أبو زيد (ت ٢٦٢هـ)، **تاريخ**

المدينة (أخبار المدينة)، حققه: فهد محمد شلتوت، (عام النشر:

١٣٩٩ هـ)، ص١٧٣؛ الطرابلسي: برهان الدين إبراهيم بن موسى

الطرابلسي الحنفي (ت ٩٢٢هـ): **كتاب الإسعاف في أحكام**

الأوقاف، تحقيق: عبد الله نذير مزي، (المكتبة المكية - مؤسسة

الريان، ط١، ١٤٣٦هـ/٢٠١٥م)، ص٤٥.

(٣٧) بدر شيني، أحمد هاشم، **أوقاف الحرمين الشريفين في العصر**

المملوكي، إصدار خاص بمناسبة مكة عاصمة الثقافة الإسلامية،

(مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م)، ص٣٣ -

٣٤؛ انظر: الصالح، محمد بن أحمد، **الوقف في الشريعة الإسلامية**

وأثره في تنمية المجتمع، ص٥٣-٥٤.

(٣٨) **باكثر، أحمد بن الفضل (ت ٥١٤٧هـ)، وسيلة المآل في عد مناقب**

الآل، تحقيق: محمد بن حسين الحارثي الشريف وآخرين، (شركة

تكوين للطباعة والنشر - جدة، الطبعة الأولى، ١٤٤٢هـ/٢٠٢١م)، ج١،

ص١٢٢-١٣٥؛ السنجاري، علي تاج الدين بن تقي الدين، (ت ١١٢٥هـ)،

مناقب الكرم في تاريخ مكة والبيت وولاية الحرم، تحقيق: جميل

المصري وآخرين، جامعة أم القرى، مكة، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ج٣،

ص١٧٥، ص٢٢٥، ص٢٤٦؛ العصامي: عبد الملك بن حسين: (ت

١١٠١هـ)، **سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي**، تحقيق:

عادل عبد الموجود، وعلي معوض، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١،

١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ج٤، ص٣٠٢-٣٢٠؛ الطبري المكي، محمد بن

عمارته الأولى التي جرت سنة ١٦٠هـ، وقد جددت عمارته في زمن السلطان سليم وابنه مراد خان سنة ٩٨٤هـ. باسلامة: حسين عبد الله: **تاريخ عمارة المسجد الحرام**، (ط٣)، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، ص ١٢٨.

(٥٣) **الدكان**، هو المتجر الصغير لمختلف المواد التموينية، [الباحث].

(٥٤) ذكر الفاكهي: وحدّ (المعلقة) فيما يقال - والله أعلم - وفيما جاء الأثر بذلك حديث جرهم، وقطورا، أنهم لما نزلوا مكة بعد العماليق، اقتسموا مكة نصفين، فكان لجرهم، أعلى الوادي، وكان لقطورا أسفلها، فكان حوز جرهم وجه الكعبة إلى الركن الأسود، والمقام، وموضع زمزم، مصعداً ميمناً وشمالاً، وقيعقان إلى أعلى الوادي. وكان حوز قطورا المسفلة ظهر الكعبة الركن اليماني، والغربي، وأجيادين، والثنية، والمسفلة. وكانت جرهم تعشّر من جاء من المعلقة، وكانت قطورا تعشّر من جاء من المسفلة. وحدّ ذلك من شق مكة الأيمن ما حازت دار الأرقم بن أبي الأرقم، والزقاق الذي على الصفا يصعد منه إلى جبل أبي قبيس مصعداً في الوادي، فذلك كله من (المعلقة). **أخبار مكة**، ج٤، ص ١٢٩-١٣٠، أي أن مكة المكرمة تنقسم إلى قسمين (معلقة ومسفلة) فالجزء العلوي يبدأ من الجهة الشمالية للمسجد الحرام ويسمى معلقة، ومن الركن اليماني للكعبة المشرفة يسمى مسفلة.

(٥٥) نفس تعريف الحاشية السابقة.

(٥٦) متلازمة أي متلاصقة، [الباحث].

(٥٧) **المدعى**: ممر مرتفع ومنحدر باتجاه المسجد الحرام، ويقع في الناحية الشمالية منه، من جهة باب السلام، وكان به سوق مُسقف، [الباحث]. وقد أورد السنجاري عن المدعى: وبنى عمر بن الخطاب رضي الله عنه في هذه السنة ١٨٠هـ-الردم بأعلى مكة المشرفة، وهو المحل الذي يقال له المدعى. منائح الكرم، ج١، ص ٥٢٤.

(٥٨) **الشبيكة** حي من أحياء مكة وهو غرب المسجد الحرام، وهو نقطة الوصول للقادمين من المدينة المنورة، إذ يصلون أولاً إلى الزاهر فجبول. وبه عدد من الأزقة، ومنها: زقاق المساوي، زقاق الشرباصي، زقاق الوشقلي، زقاق الحفرة، زقاق الجنائر، زقاق الفلاح. ويذكر عنه ياقوت: الشبيكة، بالكاف، بين مكة والزاهر على طريق التنعيم ومنزل من منازل حاج البصرة بينه وبين وجرة أميال. وهي حي من أحياء مكة من الجهة الغربية. **معجم البلدان**، ج٣، ص ٣٢٤.

(٥٩) **زقاق الجنائر**: متفرع من السوق الصغير إلى حي الشبيكة، وقد أزيل هذا الزقاق في توسعة المسجد الحرام. شافعي: **الأربطة بمكة في العهد العثماني**، ص ١٣٧.

(٦٠) **رباط السدرة**: يقع بالجانب الشرقي من المسجد الحرام على يسار الداخل إلى المسجد الحرام من باب بني شبيبة، وهو ملاصق لرباط المراغي، لم يعرف واقفه ولا تاريخ وقفه إلا أنه كان موقوفاً في سنة ٤٠٠هـ وموضعه هو دار القوارير التي بنيت في زمن الرشيد. الفاسي: **شفاء الغرام**، ج٢، ص ٥٩١؛ السنجاري: **منائح الكرم**، حاشية ٣، ج٣، ص ٨٣.

(٦١) **السوق الصغير**: من الأحياء القديمة، يقع غرب المسجد الحرام، الكردي، التاريخ القويم، ج٢، ص ١٧٦، وقد أزيل هذا السوق، وحالياً يشغل مكانه شركة مكة للإنشاء والتعمير. شافعي: **الأربطة بمكة المكرمة في العهد العثماني**، ص ٤٤.

(٦٢) **البازان**: مكان للسقاية وهو عبارة عن شبكة مياه بها مواسير تسمى «أشباب» يتدفق منها الماء لتعبئة برميل حديدي. صحيفة عكاظ،

(٤٦) الشيخ القاضي إبراهيم بن محمد سعيد بن مبارك الشهير كأسلافه بالفتة المكي الحنفي: الفقيه الكبير، العالم الشهير، الناظم النائر الأديب، ولد بمكة سنة (١٢٠٤هـ) ونشأ بها، تولى القضاء بمكة سنة (١٢٨٣هـ)، ومات رحمه الله سنة (١٢٩٠هـ)، انظر ترجمته في: **نظم الدرر**، لعبد الله محمد الغازي المكي، تحقيق: عبد الملك بن دهيش، (توزيع المكتبة الأسدية - مكة، ط١، ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م)، ص ٣٢٤؛ المختصر من كتاب نشر النور والزهر، عبد الله مرداد، (عالم المعرفة - جدة، ط٢، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م)، ص ٥١؛ **أعلام المكيين**، عبد الله المعلمي، (مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ط١)، ج٢، ص ٧١٩.

(٤٧) القاضي العالم العلامة خطيب زاده مولانا الحاج محمد سعد الله أفندي: ما ورد عنه لدى الكردي، محمد طاهر الكردي المكي (ت. ١٤٠٠هـ)، **كتاب التاريخ القويم لمكة بيت الله الكريم**، مكتبة النهضة الحديثة بمكة المكرمة، ط١، (١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م)، ج٦، ص ١٠٦؛ أنه رئيس محكمة مكة عام ١٢٦٨هـ، ولم تتوفر له ترجمة في المصادر الأخرى، كما لم يترجم له المعلمي في أعلامه. انظر: الشيخ عبد الله المعلمي: **قضاة مكة المكرمة من القرن الأول الهجري حتى العصر الحاضر**، ١٤٣١هـ، ج٢، ص ٢١.

(٤٨) يُعرف علم الوثائق: في اللغات الأوروبية باسم "علم الديپلوماتيك"، وقد أُشتق ذلك الاسم من الكلمة اليونانية (Diploma) ومعناها صحيفة مطوية، وقد سميت كذلك لأنها كانت تكتب في الأزمنة الماضية، إما على قراطيس البردي، أو قطع الرق، أو الورق عندما انتشرت صناعته في العالم، ثم تطوى الصحيفة بحيث تصير ملفوفة، وتحزم أحياناً بشريط من الجلد أو القماش، وقد يختم على هذا الشريط حفظاً للوثيقة من العبث والتزييف. عيسوي: عصام أحمد: **مدخل لدراسة الوثائق العامة في مصر في القرن التاسع عشر**، (الإسكندرية، دار الثقافة العلمية، ٢٠٠١م)؛ الدراسة الديپلوماتية لسجلات الدواوين الحكومية في مصر، Cybrarians Journal 34, pp.88-115 Issue 2014

(٤٩) مصطلح **(المزبور)** يتكرر في الحجج والصكوك الشرعية في العهد العثماني، بما يفيد (المذكور، والمشار إليه) [الباحث].

(٥٠) عزل جمع ومفردا عزلة، والعزلة في المصطلح المعماري المكي، البيت الصغير، أما الكبير فيسمى بيتاً. مكاي: حسام عبد العزيز: **المصطلحات الحضارية في مكة المكرمة**، من خلال بعض الكتب والوثائق المكية، من القرن التاسع الهجري، حتى منتصف القرن الرابع عشر، (مركز تاريخ مكة، ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م، حرف العين)، ص ٢٣٥.

(٥١) يذكر الفاكهي في تاريخه، **أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه**، (طه، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م، مكتبة الأسد)، قرارة المدحاة، موضع كان أهل مكة يتداحون فيه بالمداحي والمراضع، ج٣، ص ٣١٠، والقرارة حي من أحياء مكة القديمة في شمال المسجد الحرام، منه يتجه السالك إلى حي النقا والحلقة القديمة. شافعي: حسين عبد العزيز: **الأربطة بمكة المكرمة في العهد العثماني**، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، (١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م)، ص ٧٢.

(٥٢) **باب العمرة**: سمي بذلك لأن المعتمرين من التنعيم (مسجد السيدة عائشة رضي الله عنه) تعودوا على الدخول والخروج منه في الغالب، وذكره بهذا الاسم ابن جبير في رحلته، والمحب الطبري في كتابه القرى، وسماه الأزرقي باب بني سهم، وهو بمنفذ واحد، قد أنشأه أبو جعفر المنصور في عمارته، وجده الخليفة المهدي في

(٧٦) انظر الدراسة المحكمة: الطارثي: الشريف محمد بن حسين: "وثيقة وقفية من وثائق الأوقاف لدى الأشراف الحُرث - دراسة وثائقية".

نُشرت بسجل اللقاء العلمي (١٥) لجمعية التاريخ والآثار بدول مجلس التعاون، (٣٨٣-٣٩٦). ومنشورة أيضًا ضمن كتاب: دراسات علمية محكمة، (شركة تكوين، الطبعة الأولى، ١٤٤٣هـ/ ٢٠٢٢م)، ص ٢٢٣-٢٤٠.

(٧٧) السالمي، عبد الرزاق مهدي أحمد، التوثيق بالكتابة في الفقه الإسلامي، دراسة فقهية مقارنة، ملخص رسالة ماجستير، جامعة ذمار، الجمهورية اليمنية، لعام ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م، ص ٩.

(٧٨) السالمي: التوثيق بالكتابة، ص ٩.

محمد الهتار: البازان تاريخ يحكي قصة جدة، (الخميس ٢٥ يناير ٢٠٠٧م).

(٦٣) الخلوة أو الخلوات: غرف خاصة داخل المسجد الحرم، للانقطاع لقراءة القرآن وتدارسه، وتوجد بجانب الأبواب الرئيسية للحرم، وعدد منها في البدروم (القبو). [الباحث].

(٦٤) دُكك مباسط: (أماكن مفتوحة للبيع في الأسواق وأمام الدكاكين)، يقول السنجاري: "وشرعوا في هدم الدكك التي قدام الدكاكين والبيوت، والظلل والأشعة، وجميع الزوائد الحادثة، والمباسط التي في الطرق والأسواق". منائح الكرم، ج ٥، ص ٤٤٥.

(٦٥) باب إبراهيم من الجهة الغربية للمسجد الحرام، نُسب لرجل كان خياطاً عند هذا الباب واسمه إبراهيم الخياط. باسلامة: تاريخ عمارة المسجد الحرام، ص ١٢٧.

(٦٦) لعل المقصود المتعفين من الفقراء والمحتاجين، [الباحث].

(٦٧) أبو شعيب (إحدى قرى، -وبه عين ماء ومزارع- وادي فاطمة شمال مكة المكرمة، محافظة الجيوم حالياً): يقع بين دف زيني والجوم، ويسكنها فرعان من الأشراف البراكيت. جار الله بن فهد: حُسن القرى في أودية أم القرى، تحقيق: الشريف أحمد ضياء العنقاوي، دار القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١٤م، ص ١٦٧.

(٦٨) الوجبة، حصّة مقننة من مياه العين بالوادي وتُجمع على "وجاب"، سبق التعريف بها.

(٦٩) الفيض: عين ماء بالقرب من قرية أبو شعيب الواقعة بين دف زيني والجوم بوادي فاطمة شمال مكة المكرمة، وذكر عنها البلادي في معجمه قوله: إن عين الفيض انقطعت في مشروع (أبو حصاني). معجم معالم الحجاز، ج ٧، ص ١٣٣؛ انظر: جار الله بن فهد: حُسن القرى في أودية أم القرى، حاشية رقم (٢) ص (١٦٧)، والصفحات (١٦١)، (٣٠٣)، (٣٠٩).

(٧٠) الخصفة أو خسفة: في الأصل بساط، أو فرش يصنع من سعف النخل كان يُتخذ في المساجد فرشاً لها على نمط الحنايل، والبساطات المعدة للصلاة، تُفرش أثناء الصلاة بالساحات الداخلية بالمسجد الحرام أو المسجد النبوي (الحصوات)، ثم تطوى بعد الصلوات، [الباحث].

(٧١) الدوارق: فهي أواني الفخار الخاصة بماء زمزم، والمقصود أن يُسبّل (أي توزع مجاناً في سبيل الله) عدد من دوارق زمزم على زوار الحرم الشريف وجلساء حلقات القرآن الكريم، [الباحث].

(٧٢) انظر الأختام والتصديقات في نهاية الجهة الأمامية للصك الوقفي، والجهة الخلفية.

(٧٣) محمد، مرسى محمد، "الوثائق الوقفية ودورها في إثراء تاريخ الحضارة الإسلامية"، (التسامح) (فصلية فكرية إسلامية)، ع ١٣ (شتاء ١٤٢٧، ٢٠٠٦)، ص ١٥١-١٦٣.

(٧٤) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، (٨/ ١٠) برقم: (٦٠١١)؛ وأخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، (٤/ ١٩٩٩)، برقم: (٢٥٨٦)، بلفظ: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى".

(٧٥) السدحان، عبد الله بن ناصر: دور الوقف في بناء الحياة الاجتماعية وتماسكها، (إصدار مؤتمر الأوقاف الأول بالمملكة العربية السعودية بمكة المكرمة، عام ١٤٢٢هـ)، ج ٦، ص ٢٣٤.

الجزائر العثمانية

دراسة في الأوضاع السياسية والعسكرية وتطور نظام الحكم

د. محمد صلاح حقي

دكتوراه في التاريخ الحديث
باحث في تاريخ العرب الحديث والمعاصر
القصرين – الجمهورية التونسية

ملخص

يتناول هذا البحث دراسة تحليلية للأوضاع السياسية والعسكرية في الجزائر خلال الحقبة العثمانية (١٥١٩-١٨٣٠)، مسلطاً الضوء على تطور أنظمة الحكم وتعاقب مراحلها الأربع: البيلديات، الباشوات، الآغوات، ثم الدايات. يبرز البحث كيف ارتكز الحكم العثماني في الجزائر على السيطرة المباشرة للنخب التركية، مع إقصاء العناصر المحلية من المناصب العليا، معتمداً في المقابل على سياسة المهادنة والتقارب مع شيوخ القبائل وقبائل المخزن لضمان الاستقرار واستمرار النفوذ. شهدت المرحلة الأولى (البيلديات) بروز نفوذ رياس البحر كقوة عسكرية وسياسية، بينما تميزت مرحلة الباشوات بسيطرة الموظفين المدنيين المعيّنين من الباب العالي. أما عهد الآغوات فمثّل تفوّل الجيش الإنكشاري على السلطة وما صاحبه من فوضى وعدم استقرار. وقد شكّل عهد الدايات، الأطول زمناً والأكثر تأثيراً، تحولاً جوهرياً؛ إذ انتقل تعيين الحاكم من السلطان العثماني إلى الانتخاب المحلي عبر الديوان، ما أضفى استقلالية شبه كاملة على الإيالة. كما أبرز البحث دور القبائل والزوايا كفاعل رئيس في التوازن السياسي، إما بدعم الحكم أو بتهديد استقراره عبر الثورات والتمردات. ويبيّن كيف ساهمت الانقسامات الداخلية، الاغتيالات، تدخل الجيش الإنكشاري، وتعدد الأزمات الاقتصادية والأوبئة في إضعاف البنية السياسية والعسكرية. يخلص البحث إلى أن الجزائر في العهد العثماني تميزت بخصائص مزدوجة: ارتباط اسمي بالباب العالي مع استقلال فعلي في القرارات، ما جعلها عرضة للتفكك والتراجع في أواخر العهد، وهو ما استغلته فرنسا لإسقاطها وفرض استعمار استيطاني سنة ١٨٣٠.

كلمات مفتاحية:

الجزائر العثمانية؛ عهد الباشوات؛ الباب العالي؛ عهد الدايات؛ تاريخ الجزائر الحديث

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٤ أغسطس ٢٠٢٥
تاريخ قبول النشر: ١٨ سبتمبر ٢٠٢٥

معرف الوثيقة الرقمي: 10.21608/kan.2025.466767



الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

محمد صلاح حقي، "الجزائر العثمانية: دراسة في الأوضاع السياسية والعسكرية وتطور نظام الحكم"، دورية كان التاريخية، السنة الثامنة عشرة - العدد الثالث والسبعون، نوفمبر ٢٠٢٥، ص ١١٥ - ١٣٢.



X, formerly Twitter: <http://X.com/kanhistorique>
Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>
Facebook Group: <https://www.facebook.com/groups/kanhistorique>

Corresponding author: shedi1636@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في دورية كان تحت رخصة المشاع المُنسب 4.0 (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

العسكري والعكس صحيح كما ستبينه الأحداث التي سنتطرق إليها لاحقاً في هذه الدراسة، كما ساهم الجانبين السياسي والعسكري مساهمة فعّالة في تطور نظام الحكم في الجزائر طيلة الفترة العثمانية أي من سنة ١٥١٢ إلى نهاية الحكم العثماني سنة ١٨٣٠ تاريخ احتلال البلاد من طرف الفرنسيين.

عرفت الحياة السياسية في إيالة الجزائر العثمانية (١٥١٨-١٥١٩ / ١٨٣٠م) توالي أنماط مختلفة من أنظمة الحكم متميزة ومتنافسة فيما بينها أدت إلى تعاقب أربع فترات كان أهمها وآخرها حكم الدايات (١٦٧١ - ١٨٣٠ م)^(١)، وقد أستحوذ الأتراك على دواليب الحكم في الإيالة واحتكروا كل السلط وحرّموا الجزائريين من مناصب الإدارة و الحكم رغم أنهم كانوا أقلية في المجتمع الجزائري وقد اعتمدوا في إدارة شؤون الإيالة الداخلية على قبائل المخزن والتقارب والمهادنة مع شيوخ القبائل والمرابطين فالعثمانيين أدركوا منذ البداية دور القبائل في استمرار حكمهم بالجزائر والمحافظة على وجودهم هناك.

كانت الإدارة السياسية في الجزائر - إذن - في يد العثمانيين حيث أعتبرت الجزائر منذ ١٥١٩ إيالة تابعة للإمبراطورية العثمانية وكان يحكم البلاد نائب عن السلطان العثماني تغيرت صفته وتسميته وطريقة اختياره حسب تغير نظام الحكم في الإيالة، وقد مرت الجزائر خلال العهد التركي بأربعة عهود وهي عهد البيلربايات وعهد الباشوات ثم الأغوات وأخيراً الدّايّات.

١/١-عهد البيلربايات:^(٢) الجزائر مركزاً

للحكم والتعيين من الباب العالي

امتد هذا العهد من سنة ١٥١٩ تاريخ انتصاب العثمانيين رسمياً بالجزائر وإرسال فرمان التولية لخير الدين من قبل السلطان العثماني إلى ١٥٨٧ م، ودام ٦٨ سنة وقد كانت طائفة رياس البحر^(٣) خلاله الأكثر تأثيراً لأن أغلب البيلربايات كانوا من رجال البحر وهو ما سبّب استياء قوات الجيش البري الذين يعرفون باسم اليولداش Yoldach^(٤). و كانت الجزائر تحت الهيمنة العثمانية على رأسها باشا ولكنها كانت تُدار - علاوة على تونس وطرابلس - من طرف البيلرباي الذي يعين

إن دراسة تاريخ الجزائر الحديث لا يُعدّ أمراً جديداً باعتبار أن الكتابات أنت على معظمه لا سيما الكتابات الجزائرية التي اهتمت أساساً بالجانب السياسي والعسكري وهذا أمر مشروع للحفاظ على الذاكرة الوطنية وحمايتها من الطمس والتهميش الذي تعرضت له أثناء الاحتلال الهمجي الفرنسي الذي عبث بالوثائق العثمانية وأتلفها للقضاء على كل ما يتعلق بتاريخ هذا البلد باعتبار أن المحتل كان يرغب في محو الذاكرة الجزائرية كمقدمة لإلحاق الجزائر بفرنسا وجعلها ولاية فرنسية لكي ينفرد بثرواتها وموقعها الجغرافي المتميز المطل على البحر الأبيض المتوسط والذي يتوسط قارات إفريقيا وأوروبا وأمريكا، مما يضمن له حرية الملاحة في هذا الفضاء لنهب ونقل الثروات الجزائرية إلى فرنسا، فالاحتلال إذن أراد القضاء على حقبة تاريخية مهمة في تاريخ الجزائر ألا وهي الحقبة العثمانية - التي شهدت أحداثاً وتحولات لا سيما سياسية وعسكرية وفي نظام الحكم جديرة بالدرس - ليصنع لها تاريخاً على هواه وعلى مقاسه بما يخدم مصلحة الاستعمار الامبريالي وليجعل من الجزائر مجرد ولاية فرنسية يبدأ تاريخها مع سنة ١٨٣٠ تاريخ احتلالها من قبل فرنسا وليضفي على وجوده شرعية أخلاقية وقانونية وليفرض الأمر الواقع على الشعب الجزائري خاصة الأجيال التي ستأتي لاحقاً، فالغرب الامبريالي لا يريد تاريخاً لبقية الشعوب لأن التاريخ يصنع الأمم ويجعل لك موضعاً في عالم امبريالي لا تاريخ له، لأجل هذا هب المؤرخون الجزائريون لتدوين تاريخهم العثماني لحفظه من التلاشي والاندثار ولهذا السبب ذاته أردت المساهمة بعمل يهتم بتاريخ الجزائر خلال الحقبة العثمانية. فما هي ملامح الأوضاع السياسية والعسكرية للجزائر العثمانية وكيف تطور نظام الحكم هناك؟

أولاً: الأوضاع السياسية والعسكرية في

الجزائر العثمانية

سيطرة العثمانيين على الإدارة السياسية في الجزائر ارتأينا ضم الجانب السياسي للجانب العسكري باعتبار أن كليهما يحدد الآخر فالسياسي هو من يحدد

٣/١-عهد الآغوات العسكري (١٦٥٩ إلى

(١٦٧١) الباشا منصب شرفي

خلال هذا العهد تغلب رجال الجيش البري (اليولداش) على الباشوات ورياس البحر حيث انتزعوا من الباشا جميع الصلاحيات التي أصبحوا يمارسونها باستثناء دفع الرواتب وتعيين الحكام المحليين أو القيادة ومحكمة سكان الإيالة التي سلموها إلى قائدهم الذي كان يحمل اسم آغا المحلة ومنه جاءت تسمية العهد (عهد الآغوات) لتصبح وظيفة الباشا شرفية و يُرسلُ الباشا كل ثلاثة سنوات من طرف السلطان العثماني حتى سنة ١٧١١م. وكانت مدة حكم الآغا سنتين ليترك المنصب بعدها إلى آخر ويكتفي باللقب الشرفي (آغا شرف) أو (منقول آغا) باللغة التركية وكي لا يفرد الآغا بالحكم ويستأثر بالسلطة فرض عليه قادة الجيش مساعد يسمى الديوان العالي^(١).

بعد استفحال تدخل الإنكشارية في شؤون الإيالة أحسّت طائفة الرياس "الطائفة" بخطر يهدد إمتيازاتها فقررت التخلص من نظام الآغوات الذي عمته الفوضى وعدم الاستقرار وعوضته بنظام أكثر استقراراً يختار حكامه من تشكيلاتها سُمي بنظام الدايات وقد دامت مدة حكم الآغوات التي كانت السيطرة فيها للقادة العسكريين إثني عشر سنة فقط. تميزت هذه الفترة بغياب السيادة العثمانية الفعلية حيث أصبح الديوان المتكون من كبار ضباط الإنكشارية ينتخب الآغا للحكم بعد ما كان الحاكم يُعين من قبل السلطان العثماني خلال فترتي البايكربايات والباشوات، وأبرز ما ميز الأسلوب الجديد في نظام الإيالة تنافس الضباط فيما بينهم للوصول إلى الحكم وقيام تكتلات عسكرية داخل الفرق الإنكشارية ممّا أدى إلى غياب الأمن وفقدان الهيبة العسكرية ممّا جعل السلطان العثماني والأهالي يؤيدان قادة القوى البحرية الرياس أثناء صراعهم مع الآغوات الذين يمثلون قادة القوى البرية الإنكشارية وأهم ما ميز فترة الآغوات تدهور الأوضاع و تفشي الفساد والفوضى.

من قبل الباب العالي الذي كان مقره الجزائر لتكون هذه الأخيرة مركزاً لحكم ثلاث إيالات (تونس والجزائر وطرابلس)، ويبدو أن هذا التنظيم كان مستوحى من المخاطر التي كانت تواجهها الإمبراطورية وخاصةً إسبانيا التي كانت تحتل بعض القواعد على شواطئ بلاد المغرب والتي كانت تشكل دوماً تهديداً مستمراً للممتلكات العثمانية، غير أن الصراع بين طبقة الرياس وجنود الإنكشارية كان من الأسباب الرئيسية التي دفعت بالعثمانيين إلى تغيير نظام البايكربايات واستبداله بحكم الباشوات وتقسيم الحكم بفصل هذه الولايات الثلاثة عن بعضها البعض وإسناد كل إيالة إلى باشا يعين لمدة ثلاثة سنوات بعد أن شعرت السلطنة بخطر التمرد ضدها وهكذا يتحول الحكم من حكم البايكربايات للإيالة إلى حكم منفصل يتولاه باشا.

٢/١-عهد الباشوات (١٥٨٧ - ١٦٥٩)^(٢)

الباشا يرسل من الأستانة ومدة حكمه ثلاثة

سنوات

الباشا هو لقب يمنح لأصحاب المناصب العالية من مدنيين وعسكريين ويعتبر عهد الباشوات عهد الموظفين الذين كانت ترسلهم الأستانة ونتيجة للصراع بين ريّاس البحر واليولداش من أجل الوصول إلى مرتبة البيلربايات ألقى السلطان العثماني هذا اللقب وعيّن واليا عثمانيا مدنيا لحكم الجزائر يحمل لقب باشا (Pacha) وحُدّدت مدة الحكم بثلاثة سنوات فقط يتم استدعاؤه بعد نهاية المدة إلى العاصمة إسطنبول ويرسل باشا آخر إلى الجزائر لتعويضه.

امتدت فترة الباشوات من ١٥٨٧ إلى ١٦٥٩ وكانوا يمثلون سلطة تنفيذية فقط، ولكن استمر تعيينهم من إسطنبول كممثلين للباب العالي وتشريفا له إلى غاية سنة ١٧١١م، ففي هذه السنة جمع الحاكم في الجزائر بين منصبي الداي والباشا وهو ما يُعدُّ تطوراً في نظام الحكم في الإيالة، وقد كان نفوذ طائفة ريّاس البحر وقوات الجيش البري متساوياً في هذا العهد في البداية غير أن اليولداش سيطروا في نهاية الصراع على الحكم ممّا أدى إلى قيام عهد الآغوات.

٤/١-عهد الدايات (١٦٧١ - ١٨٣٠)

تحول كبير في نظام الحكم: الدايا يجمع كل السلط وغياب السيادة الفعلية للعثمانيين

امتد عهد الدايات من ١٦٧١ إلى ١٨٣٠ تاريخ الاحتلال الفرنسي ونهاية الحكم العثماني في الجزائر^(٧)، هذا الحكم الذي سيتواصل في تونس إحدى وخمسين سنة أخرى أي إلى ١٨٨١ تاريخ احتلال فرنسا للبلاد، والداي هو لقب يطلق على بعض رجال البحر ويعني الزعيم أو الخال باللغة التركية وهو اللقب الذي أخذه حاكم الجزائر منذ سنة ١٦٧١ حيث ظهر خلال هذه السنة فساد نظام الأغوات واحتج رياس البحر على استئثار اليولداش بالسلطة بدعم من الأهالي مما دفع بهذه الطائفة الأخيرة (أي اليولداش) إلى القبول بتوسيع الديوان العالي وذلك بإدخال عدد من رياس البحر ومن كبار الموظفين المدنيين، ومن مهام الديوان العالي انتخاب الدايا حيث ينتخب الديوان أحد أعضائه ليتولى حكم الجزائر بمساعدة الديوان ويسمى الحاكم المنتخب بالدايا وبعد الانتخاب كان يرسل اسم الدايا الجديد إلى السلطان العثماني ليوافق على تعيينه بإرسال فرمان التولية وإذا شغل المنصب لوفاة الدايا أو مقتله أو إعفائه من مهامه فيتم اختيار خليفة له بنفس الطريقة.

التزم الدايات في بداية الأمر بالارتباط بالدولة العثمانية غير أن هناك من الدايات من تخلى عن هذه السياسة فلم يبق للسلطان العثماني غير السيادة الاسمية، فالداي له صلاحيات عديدة فهو يقرر الحرب ويعقد الاتفاقيات الدولية ويستقبل البعثات الدبلوماسية غير أنه في حالة الحرب كانت الجيوش الجزائرية تشترك مع الجيوش العثمانية في العمليات الحربية على غرار معركة نافرين سنة ١٨٢٧.

وهكذا نلاحظ تغير في طريقة الحكم في الجزائر مع فترة الدايات حيث كانت طريقة التعيين تتم من إسطنبول من قبل السلطان العثماني بينما أصبحت خلال هذا العهد تتم عن طريق الانتخاب وما على السلطان العثماني إلا إرسال فرمان بعد الاطلاع على

اسم الدايا المنتخب وهو ما يعني ضمناً ضعف التأثير العثماني في الجزائر وبالتالي استقلال الإيالة عن الباب العالي ويتجلى ذلك في رفض الدايا علي شاوش قبول الباشا الجديد الذي أرسله السلطان العثماني ليجمع بين لقبه الدايا والباشا، وخلال هذه الفترة لم يبق للسلطان العثماني سوى بعض مظاهر الاحترام مثل الدعاء له في صلاة الجمعة وطلب مرسوم التعيين وإرسال المراكب الجزائرية لنجدة الأسطول العثماني في حالات الحرب لتكون فترة الدايات نقطة تحول كبيرة في نظام الحكم في الجزائر وفي علاقتها بالباب العالي حيث أصبحت للجزائر جميع مظاهر الاستقلالية من جيش خاص وميزانية وتمثيلاً دبلوماسياً مستقلاً (قناصل) وأصبح الدايا يعقد المعاهدات مع الدول الأجنبية باسم الجزائر لا باسم السلطنة العثمانية ويرسل القناصل والرسل إلى الخارج ويوافق على تعيين القناصل الأجانب في الجزائر ويعلن الحرب ويقر السلم ويأمر بضرب سكة وطنية.

كما اضطلع الدايا بمهام قيادة الجيش الإنكشاري والإشراف على شؤون الإدارة العامة وإعلان الحرب والتوقيع على معاهدات السلم وتجديد أو رفض حقوق الاستغلال للشركات الأجنبية، كما يشرف على اجتماع الديوان ويتلقى واردات الضرائب والإتاوات المختلفة من الدول الأجنبية ويشرف على تعيين مختلف المناصب بما فيها الحكومة المركزية والبايات. كما نلاحظ أن الدايا جمع بين يديه الإشراف على كل المناصب بما في ذلك العسكرية مما جعلنا نمزج بين السياسي والعسكري في دراستنا هذه لأن قرارات الحرب أو السلم هي في النهاية قرارات سياسية كما سنرى عند دراستنا للصراعات بين البلدين عسكرياً لاحقاً. وعلى الرغم من الحكم المطلق الذي تمتع به الدايات فإنهم كانوا يستمدون حكمهم من الديوان أو مجلس الشورى^(٨).

من خلال ما تقدم نلاحظ أن عهد الدايات يظل الأطول من بين العهود الأربعة التي ميزت الحياة السياسية لإيالة الجزائر خلال العهد العثماني وهو العهد الذي بلغت فيه الجزائر أوجها في الجانب السياسي حيث أصبح يحكمها الدايا بواسطة ديوان خاص والديوان يتألف من الضباط ويرأسه الدايا ويجتمع أربعة مرات في الأسبوع للنظر في مشاكل البلاد

الجيش الإنكشاري حيث فُتح الباب للجميع دون استثناء ودون مقاييس "حتى لأناس كانوا أدينوا" ^(١٥) وهو ما جعل هذه الفرقة ترتكب أخطاء ومخالفات ضدّ البدو والقبائل بل وصل بهم الأمر إلى القيام بالثورات وتغيير الحكام حسب أهوائهم وأغراضهم وكان أول ضحاياهم الداي مصطفى باشا ^(١٦). إن المتتبع للنظام السياسي القائم في الجزائر خلال هذه الفترة يلاحظ أنه من بين خمسة دايات ^(١٧) أربعة منهم قتلوا مما يدلّ على حالة الفوضى والتطاحن التي كانت تحكم البلاد ومما يُنذر بزوال هذا النظام السياسي، ويرى صالح العفري أن وفاة صالح باي كانت بداية تدهور الحكم العثماني في البلاد ^(١٨) بينما يرى Cate ^(١٩) وكذلك دبيرمون ^(٢٠) في مذكراته التي نشرها Serval سنة ١٩٦٥ في كتاب "المجهولون في التاريخ" أن بداية تدهور الحكم العثماني بالجزائر بدأ منذ سنة ١٧٩٨ وهي سنة وفاة الداي حسن ^(٢١) وبداية حكم مصطفى الخزناني ^(٢٢) (١٧٩٨ - ١٨٠٥).

إن تدهور الحكم العثماني كان نتيجة سببين رئيسيين أولهما الصراع الذي كان قائماً في مستوى السلطة المركزية ومحاولة الافراد بالحكم وثانيهما هو سياسة البطش والتتكيل التي كان يمارسها الحكام تجاه الرعية ^(٢٣) دون أن ننسى معطى هام وهام جداً هو تدخل الجيش الإنكشاري في الشؤون السياسية الجزائرية وسياسة الاغتيالات، فمثلاً بعد مقتل الداي مصطفى من طرف الجيش الإنكشاري تولى الحكم بعده الداي أحمد (١٨٠٥ - ١٨٠٨) الذي ارتكب أخطاء وجرائم كبيرة ^(٢٤) منها اغتيال وعزل البايات بهدف الاستيلاء على أموالهم. وللتذكير فإن سياسة اغتيال البايات والاستيلاء على أموالهم قصد تعويض العجز المالي للإيالة الجزائرية استهلها الداي حسن سنة ١٧٩٢، ولكنه لم يُحسن استغلال هذه الأموال، بل بذّرها وعبث بها ^(٢٥) وهو الذي ضاعف من مرتبات الجيش الإنكشاري في البلاد تجنباً لثوراته وهو ما يعني أن هناك تواطؤاً بين الجيش والحكام، كما انتشرت في عهده ظاهرة بيع المناصب للبايات ^(٢٦) وكثرة التمردات والثورات ضدّ الحكم العثماني بالجزائر وكذلك وقعت الحرب مع تونس سنة ١٨٠٧.

وهناك ديوان عام ^(٩)، والديوان هو عبارة عن مجلس للشورى من أهم أعضائه خمسة موظفين: المسؤول عن الخزينة والناظر لشؤون المالية والمكلف بالشؤون البحرية وكتابة الديوان (أربعة كتاب) ومفتان أحدهما مالكي (المذهب الأصلي للجزائريين) والآخر حنفي (المذهب الأصلي للعثمانيين) للنظر في الشؤون الشرعية ^(١٠) وقد لعب الديوان دوراً كبيراً في مساعدة الداي على تسيير شؤون الدولة إلا أن التطاحن والتنافس الذي ميّز الحكام العثمانيين في أواخر حكمهم أدّى إلى تعطيله ^(١١) تزامناً مع تطور نظام الحكم قُسمت الجزائر منذ عهد حسن باشا إلى ثلاثة مقاطعات إدارية تعرف الواحدة باسم البايليك وعلى رأس كل بايليك بايا وهي كالتالي: بايليك الغرب وعاصمتها وهران منذ استرجاعها نهائياً من السيطرة الإسبانية سنة ١٧٩٢ وبايليك الشرق وعاصمتها قسنطينة وبايليك التيطري وعاصمتها المدية أما الجزائر وما جاورها فقد أطلق عليها اسم "دار السلطان" وقد كانت تحت إشراف الداي وقد كان البايات مُرغمون على دفع الضرائب والإتاوات إلى الجهاز المركزي أما في بقية الشؤون فلهم استقلالية تامة في إدارة بايلكاتهم ^(١٢)، وتُقسم البايليك إلى قيادات ودواوير وقبائل، وتتحصر مهمة الباي في السهر على استتباب الأمن في البايليك والعمل على تحقيق أمن الطرقات حتى يستطيع الفرد التنقل من مكان إلى آخر دون الحاجة إلى الحماية ^(١٣) كما يلعب دور إخضاع المواطنين والمحافظة على الهدوء وتجنب الثورات ولو بترحيل أُسرٍ بأكملها من مكان إقامتها ولئن كان الداي هو المشرف على حكم الإيالة نظرياً فإن الباي كان مستقلاً إدارياً ببايليكه حيث لم يكن يخضع للداي إلا في ما يتعلق بجمع الضرائب وتجنيد الجيوش عند الضرورة، وقد تدعّمت استقلالية البايات أكثر فأكثر في أواخر الحكم العثماني حيث استفحلت النزعة الاستقلالية للبايات خاصة بعد موت الداي محمد بن عثمان باشا ^(١٤) فكادت الجزائر أن تصبح "فيدرالية" بالمفهوم العصري للكلمة.

تميز الوضع السياسي بايالة الجزائر خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر لا سيما القرن التاسع عشر في نهاية الحكم العثماني بالتأزم والانحطاط وقد أرجعه حمدان بن عثمان خوجة إلى النظام المُتبع في تجنيد

الأتراك في المدن على الحاميات العسكرية لأنهم خيروا حكم البلاد عن طريق الوساطة من خلال أعوان ووسطاء أطلق عليها قبائل المخزن^(٣٢) وهي سياسة أُتبعت أيضاً في تونس وهنا تتضح لنا معالم دور القبائل في توجيه الحياة السياسية الجزائرية نحو الاستقرار أو نحو التوتر وتدخلها في تسيير الحكم في الإيالة وهو أمر أدركه العثمانيون وكذلك حكام الجزائر حيث سعوا إلى تقديم امتيازات لمثل هذه القبائل مثل الإعفاء من الضرائب والحصول على أراضي لاستغلالها وتملكهم للأسلحة للدفاع عن أنفسهم.

ثانياً: تأثير الوضع السياسي في تطور نظام الحكم بالجزائر خلال القرون السابع عشر، والثامن عشر والتاسع عشر الميلادي

١/٢-الجزائر خلال القرن السابع عشر الميلادي: اضطرابات وعدم استقرار سياسي فرضاً تحولاً في نظام الحكم

تميز القرن السابع عشر ميلادي بكثرة الاضطرابات داخلياً وكثرة التهديدات الخارجية للبلاد أيضاً حيث كانت الجزائر سنة ١٦٧١ هدفاً لحملة الأسطول الإنكليزي الذي ألحق أضراراً وخسائر فادحة بمدينة الجزائر ومينائها^(٣٣) أدت إلى تضرر رجال البحرية الجزائرية الذين ثاروا على الآغا علي - حكم الأغوات - لميله إلى سياسة المهادنة بمشاركة جند الإنكشارية أدت إلى مقتله وانتهت الثورة بانتخاب أكبر ضباط البحرية الحاج مصطفى محمد الطريقي لمنصب الدايا^(٣٤) ويسمى أيضاً دولتلي فكانت بداية عهد الدايات الذي امتد من ١٦٧١ إلى ٠٥ جويلية ١٨٣٠ ونهاية عهد الأغوات الذي امتد من سنة ١٦٥٩ إلى ١٦٧١ وكانت البداية مع أربعة دايات هم: مصطفى الطريقي (١٦٧١ - ١٦٨٢) وبابا حسن (١٦٨٢ - ١٦٨٣) وحسين ميزومورتو (١٦٨٣ - ١٦٨٦) الذي حصل على الباشوية في السنة الأخيرة وتخلّى بالتالي عن منصب الدايا لإبراهيم خوجة (١٦٨٦ - ١٦٨٩) والدأي شعبان خوجة (١٦٨٩ - ١٦٩٥)^(٣٥).

وقد تميّز الوضع السياسي بالجزائر بكثرة الاغتيالات والعزل وتدخل الإنكشارية، فالداي أحمد تم اغتياله من طرف الجيش في ٧ نوفمبر ١٨٠٨ وتولى بعده علي خوجة الذي لم يدُم حكمه سوى أربعة أشهر^(٣٦) تولى بعده الحاج علي باشا الحكم سنة ١٨٠٩ الذي تم اغتياله أيضاً سنة ١٨١٥ أمّا خلفه الدايا الحاج محمد فتمّ قتله بعد أسبوعين فقط من الحكم، ويُرجع أحمد توفيق المدني سبب قتله إلى قيامه "بتصحيح دفاتر الجيش وإلغاء مرتبات الذين لا وجود لهم"^(٣٨) - وهنا نلاحظ فساد الجيش والحكام في الجزائر، فالمرتبات تعطى حتى لمن لا يباشر العمل أي صرف مرتبات وهمية ويبين كذلك سيطرة الإنكشاريين على الوضع السياسي للبلاد - ثم تولى بعده عمر داي الحكم الذي كان مآله الاغتيال هو الآخر^(٣٩) وخلفه علي خوجة في ٩ سبتمبر ١٨١٧ وهذا الأخير مات بالبلاء وخلفه حسين باشا.

ما نستنتجه هو عدم استقرار الحكم في الجزائر في العهد العثماني تبيّنه كثرة الاغتيالات وتدخل الجيش الإنكشاري المستمر في تسيير الحكم حتى أن الدايات كانوا كثيراً ما يقرؤون حساباً لهذا الجيش عند توليهم السلطة كتغيير مقر الحكم من الجينية إلى القصبة من قبل الداي علي وتحسينه وهو أمر يُشئت فكر الحاكم ويجعله في عدم استقرار، أو إرضائهم كما فعل أغلبية الدايات، كما تميز الوضع السياسي بقصر مدة الحكام ممّا يعيق تحقيق تطور في فتراتهم وقد لعب الجيش الإنكشاري دوراً هاماً في تدهور نظام الحكم بالجزائر حيث كان الحكم العثماني في البلاد قائماً على العنف وتأييد أو سخط الإنكشارية^(٤٠) وهو ما يعني أن الوجود العثماني في الجزائر اتخذ طابعاً عسكرياً^(٤١)، ونتيجة لتجاوزات الإنكشارية المتنوعة أصبحت المؤسسة العسكرية عاملاً سلبياً في الحياة السياسية والاقتصادية ومصدر قلق واضطراب وهو ما دفع بالداي علي إلى التخلص من سيطرتهم سنة ١٨١٧ ممّا ساهم في استقرار الوضع السياسي في عهد الدايا حسين.

إذا تتبعنا الوضع العام في الجزائر نلاحظ أنّه كان يوجد عدد كبير من القبائل التي كانت خارج السيطرة خاصة في منطقة التخوم أين كانت تتموقع قبيلتي الحنانشة والنمامشة والشايبية وأتباعها بينما حافظ

انتشار الأوبئة مثل وباء ١٦٧٨ الذي قضى تقريبا على كل الجيش الجزائري الذي كان يحاصر وهران في ذلك التاريخ وكذلك أوبئة سنوات ١٦٧١ و ١٦٧٥ و ١٦٨٥^(٤٤).

اتبع هؤلاء الدايات سياسة تهدف إلى تقوية نفوذهم وتحقيق الاستقرار في البلد وتوفير المال اللازم لهم خاصة من غنائم الحروب والهدايا أي الضريبة^(٤٥) من خلال تنشيط الغزو البحري ضد الدول التي لا تربطهم بها اتفاقيات سلام والعمل على إضعاف نفوذ الديوان ومجلس طائفة الرياس حتى يستقلوا بالقرار وينفردوا بالسلطة ويعملوا على إخضاع القبائل لسلطتهم تارة بالقوة وطورا باللين أو بالاستعانة ببعض القبائل المخزنية والعلماء والمرابطين^(٤٦) وهي طريقة سيتبعها جلّ دايات الجزائر في محاربتهم للقبائل المتمردة والتأكيد على دفع الضرائب من القبائل ومساعدة الطامعين في الحكم من التونسيين الفارين مقابل دفع أموال كبيرة ستكون سببا في اندلاع أزمات وحروب بين الإيالات في عدة مناسبات إضافة إلى التجارة لا سيما مع تونس، غير أن هذه السياسة لم تحقق كل الأهداف المرجوة مثل الأمن والاستقرار والتصدي للأخطار الخارجية الأوروبية وتحرير وهران والمرسى الكبير من الهيمنة الإسبانية والإخفاق في دحر السلطان المغربي إسماعيل.

كانت نهاية هؤلاء الدايات مأساوية شأنهم شأن الأغلبية المطلقة من بقية دايات الجزائر وكانت عهودهم قصيرة جداً رغم أن الدايا ينتخب للحكم مدى الحياة حيث أُجبر الدايا الأول على مغادرة البلاد من طرف ميزومورتو سنة ١٦٨٣ الذي قتل الدايا الثاني في انقلاب سنة ١٦٨٣، كما فرّ الدايا إبراهيم إلى تونس سنة ١٦٨٩ واضطر الدايا ميزومورتو هو الآخر إلى الفرار إلى إستانبول سنة ١٦٨٩ وقُتل الدايا شعبان من طرف الجند. كما دشّن هؤلاء الدايات عهداً جديداً من التدخلات في الشؤون التونسية، أما علاقتهم بالإمبراطورية العثمانية فقد تميزت بنوع من الاستقلالية تجاه الباب العالي الذي لم يجد بداً من القبول بالأمر الواقع فاكتفت الإمبراطورية بالتعاون مع إيالة الجزائر دون أوامر والتوسط لإصلاح النزاعات خاصة بينها وبين إيالة تونس.

كان الأربعة دايات الأوائل من طائفة رياس البحر أما الخامس (شعبان خوجة) فقد كان من ضباط الجند الإنكشاريين وهو ما يُعدُّ تطورا في نظام الحكم في الجزائر خلال الفترة العثمانية، وتتميز عهدهم وكذلك عهد من بعدهم بميل الجزائر إلى الاستقلال عن الدولة العثمانية حيث كان الدايا المنتخب من رجال الطائفة يتمتع بصلاحيات هامة وليس مجرد وال عثماني تابع للباب العالي^(٣٦) بل ورفض كل الدايات إلى حدود الاحتلال الفرنسي تدخل السلطان العثماني وإن فرض هذا الأخير رأيه وسلطته أحيانا في إبرام الصلح بين الجزائر وتونس غير أن ذلك لم يعكّر صفو العلاقات الجيدة مع الأتراك ربّما لإيمان منهم بأهمية العثمانيين عندما يتعلق الأمر بخطر خارجي وهو ما أثبتته استجداء الجزائر بالسلطنة العثمانية مرارا، كما كان الدايات يستجيبون إلى دعوات السلاطين العثمانيين بالمشاركة في حروب الإمبراطورية البحرية^(٣٧) وكانت الإمبراطورية العثمانية تقدم مقابل ذلك المساعدات الحربية للجزائر أحيانا وتسمح للدايات بتجنيد الجند من أتراك آسيا^(٣٨) أحيانا أخرى ممّا يعني وجود علاقات تعاون بين الجزائر والإمبراطورية العثمانية التي ظلت ترى في الجزائر إيالة تابعة لها منذ ١٥١٩.

كما شهدت هذه الفترة صراعات بين الجزائر والعديد من الدول الأوروبية على غرار أنكلترا وفرنسا^(٣٩) وهولندا^(٤٠) وإسبانيا^(٤١) والمغرب، كما تميزت فترتهم بالعديد من التدخلات في تونس لأغراض مختلفة وبتعدد الثورات والمؤامرات والانقلابات في مدينة الجزائر وخارجها أهمها سنة ١٦٧١ في مدينة الجزائر التي أدّت إلى وصول محمد الطريقي إلى الحكم وتدشين بداية حكم الدايات بعد الآغوات وكذلك انقلاب الدايا حسين ميزومورتو على الدايا بابا حسن ومحمد الطريقي سنة ١٦٨٣ وقبلها اندلاع ثورة في تلمسان ضد السلطة القائمة في المدينة سنة ١٦٧٣^(٤٢) وكذلك ثورة الجند سنة ١٦٨٩ في مدينة الجزائر ضد ميزومورتو نتيجة ميله للسلام مع فرنسا والحرب على تونس^(٤٣) وانتفاضة سكان الجزائر والقبائل سنة ١٦٩٢ وتمردّ الجند على الدايا شعبان في أوت ١٦٩٥. كما شهدت الجزائر عامة خلال هذه الفترة

نتيجة تنظيم التجار الأوروبيين لأنفسهم في قوافل محروسة الأمر الذي صعب مهمة التجار الجزائريين^(٥٣)، كما شهدت الجزائر خلال هذا القرن تدخلات وهجومات خارجية من جهتي الشرق والغرب وانتشار الأوبئة وقلة الموارد وانتفاضات الجند مما أدى إلى أزمة اقتصادية واجتماعية أدت بدورها إلى أزمة سياسية مما جعل القرن عصيباً على البلاد.

نلاحظ مما تقدم أن القرن السابع عشر تميز بعلاقات توتر بين الجزائر من ناحية وجارتها المغرب التي تدخلت مراراً في الغرب الجزائري وتونس التي تدخلت في الشرق من ناحية ثانية لكن الجزائر تصدت للهجوم، كما تميز القرن بالتدخل الإسباني وتصدي الجزائر له فكانت الإيالة تواجه ثلاث جبهات وسيواصل هذا التوتر خلال القرن الثامن عشر. فكيف كانت الأوضاع خلال هذا القرن؟

٢/٢-الجزائر خلال القرن الثامن عشر

الميلادي: من تعيين الباب العالي للبasha

إلى ضمّ الداى للمنصب

لم تكن الجزائر خلال القرن الثامن عشر أفضل حال مما كانت عليه خلال القرن السابق من ناحية الوضع الداخلي الذي ظل متأزماً ومن ناحية العلاقة مع الإمبراطورية العثمانية، ولكن الشيء الجديد الذي شهدته الإيالة خلال هذا القرن هو التطور الحاصل في نظام الحكم حيث كان الباب العالي يعين الباشا، ولكن بداية من ١٧١١ ستتغير العادة وسيضم الداى منصب الباشا إليه.

شهد القرن الثامن عشر تداول ثلاثة عشر دايا على الحكم في الجزائر وكانت بدايته غير مستقرة لا سيما الفترة الممتدة بين ١٧٠٥ و ١٧٣٢ التي شهدت تعاقب ست دايات انتهت فترات أغلبهم إما بالاعتقال أو الانقلاب بينما شهدت الفترة الممتدة بين ١٧٣٢ و ١٧٤٨ استقراراً واضحاً من خلال تعاقب داين فقط هما إبراهيم الكبير وإبراهيم الصغير ليعود عدم الاستقرار ليميز أواخر القرن ويمكن تقسيم القرن الثامن عشر في الجزائر إلى أربع فترات مختلفة الأطوار والأحداث:

تواصلت مظاهر عدم الاستقرار والأزمات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية بعد ١٦٩٥ إلى بداية القرن الثامن عشر (١٧٠٥) حيث تداول على الحكم خلال هذه الفترة القصيرة ثلاثة دايات هم: الداى شعبان الذي قتل سنة ١٦٩٥ والداى أحمد الذي توفي بمرض سنة ١٦٩٨ والداى حسن شاوش الذي تخلى عن منصبه ورحل إلى المشرق سنة ١٧٠٠.

تميزت الحياة السياسية خلال هذه الفترة الأخيرة من القرن السابع عشر بكثرة الهجومات المغربية على الحدود الجزائرية والغرب الجزائري والتصدي الجزائري لها حيث كان السلطان المغربي إسماعيل يهدف إلى توسيع نفوذه نحو الغرب الجزائري^(٥٤)، كما تميزت هذه الفترة بالحرب على تونس (زمن مراد الثالث) وكان ذلك سنة ١٧٠٠. كما تميز هذا القرن بتعدد الانتفاضات من قبل الجند ضدّ الدّايات بسبب تقصيرهم أو عجزهم عن معالجة الوضع الصّعب الذي كانت تعاني منه البلاد نتيجة غزوات تونس والمغرب وإسبانيا نذكر على سبيل المثال ثورة الجند سنة ١٦٩٦ على الدّاي أحمد نتيجة ضعف أدائه في مواجهة القوات المغربية على الحدود^(٥٥) وانتفاضتان ضدّ الدّاي حسن شاوش سنة ١٦٩٩ بعد توغل حملة مغربية في الغرب الجزائري وميل الداى إلى المسالمة وسنة ١٧٠٠ أيضاً بسبب ضعف مواجهة القوات المغربية التي أجبرته على تسليم الحكم لمن يرغب فيه الجند وهو الداى مصطفى ومغادرته إلى طرابلس^(٥٦) وانقلاب الجند على الداى مصطفى لدى عودته من حملة فاشلة على تونس سنة ١٧٠٥.

كما تميّز القرن السابع عشر أيضاً بانتشار الأوبئة مثل أوبئة ١٦٩٥ و ١٦٩٧ و ١٦٩٨ و ١٦٩٩ و ١٧٠٠ و ١٧٠٢^(٥٧) مما أدى إلى تدهور الحالة الصحيّة خاصة سنة ١٧٠٠ فتراوح مثلاً عدد الضحايا بالجزائر بين ٢٥٠٠ و ٤٥٠٠٠^(٥٨) مما أدى إلى تقلص الموارد البرية والبحرية نتيجة القضاء على الكثير من العاملين في القطاع الاقتصادي من فلاحين وغيرهم من ناحية ونتيجة إلحاق الحملات المغربية أضراراً بالمحاصيل الزراعية لبابلييك الغرب من ناحية ثانية فارتفعت بذلك أسعار المواد الغذائية^(٥٩)، أمّا تقلص الموارد البحرية فكان

(٢/٢) ١-فترة أولى: من ١٧٠٥ إلى ١٧٣٢م: الجمع بين منصبي الداي والباشا ووضع داخلي متردي

تداول على الحكم خلال هذه الفترة ست دايات بوتيرة متسارعة خاصة في البداية^(٥٤) والتي تميزت بانتقال الحكم بطريقة غير سلمية في أغلب الأحيان باستثناء علي شاوش وكور عبيدي اللذان ماتا بالمرض بينما مات البقية قتلاً إثر عمليات الانقلاب، كما تميزت الفترة بتعدد ثورات الجند وانقلابهم على الدايات وقيام بعض الثورات في الأقاليم مثل ثورة القبائل والحنانشة وغيرها وبالكوارث الطبيعية علاوة على الصراع بين الجزائر وإسبانيا. كما شهدت الفترة تحولاً نوعياً في نظام الحكم خاصة منذ ١٧١١ حيث امتنع الداي علي شاوش عن استقبال الباشا الذي عينه السلطان العثماني طبقاً للعادة المتعارف عليها ويعود ذلك إلى كثرة مؤامرات الباشوات من جهة ورغبة الحكام الجزائريين في تحقيق استقلالية عن الباب العالي من جهة أخرى وأسند منصب الباشا إلى الداي الجزائري ليكون الداي علي شاوش (١٧١٠ - ١٧١٨) أول داي جمع بين المنصبين محدثاً ثورة في نظام الحكم في الجزائر فازداد نفوذه وضعف نفوذ الديوان ونفوذ السلطان العثماني ليتواصل العمل بهذا النظام الجديد بعده^(٥٥).

كما تميزت الفترة بميل العلاقات بين الجزائر من ناحية وبينها وبين المغرب وتونس من ناحية ثانية خاصة منذ عهد الداي حسن - الذي خلف الداي مصطفى - نحو الاستقرار والسلم وكذلك الشأن مع فرنسا وإنجلترا ومع بقية الدول الأوروبية باستثناء إسبانيا التي كانت لها معها مواجهات^(٥٦)، وقد تردى الوضع في بايليك الشرق نتيجة الثورات والحروب ونقص المال للإنفاق على الجند فكانت المؤامرات كردة فعل من الجند على وضعيته المزرية^(٥٧) مثل المؤامرة على الداي علي شاوش سنتي ١٧١٣ و ١٧١٧^(٥٨). كما شهدت الفترة تكاثر الأوبئة (١٧١٦) والجفاف وزحف الجراد، كما شهدت الجزائر عدة ثورات مثل ثورة القبائليين الذين داهمهم الجوع فقاموا بتخريب برج منايل^(٥٩) والحنانشة بقيادة الشيخ

بوعزيز بن نصر سنة ١٧٢٤^(٦٠) ممّا يدل على دور القبائل داخل الإيالة في تحقيق الاستقرار أو عدمه. علاوة على ذلك شهدت الفترة تزايد حظوة اليهود ونمو النشاط القرصني وعودة الصراع مع الإسبان سنة ١٧٣٢ واحتلال المرسى الكبير من جديد في نفس السنة في شهر جويلية^(٦١)، وهكذا حققت الجزائر خلال هذه الفترة مكاسب وأخفقت في تحقيق أخرى فهل ستحقق ما تبقى في الفترة الممتدة بين ١٧٣٢ و ١٧٤٨؟

(٢/٢) ٢-من ١٧٣٢ إلى ١٧٤٨م:

عودة تعيين الباشوية إلى السلطان العثماني وفترة استقرار سياسي

شهدت هذه الفترة تحولاً أيضاً في نظام الحكم في الجزائر إذ وبعد أن جمع الداي لمنصبي الباشا والداي عادت الباشوية خلال هذه الفترة إلى الباب العالي أي إلى السلطان العثماني حيث تحصل الداي إبراهيم الكبير (١٧٣٢ - ١٧٤٥) على منصب الباشوية من السلطان قاطعاً بذلك سياسة الاستقلالية التي اتبعتها سابقوه ممن رفضوا الباشوات المعيّنين من قبل إستبول. تميزت هذه الفترة من الناحية السياسية بالاستقرار تجسده قلة الحكام المتداولين على السلطة في الجزائر من الدايات حيث شهدت دايين فقط وتدل عليه أيضاً طول فترة حكم إبراهيم الكبير (ثلاثة عشر سنة كاملة) وكذلك كيفية انتقال الحكم من الداي إبراهيم الكبير إلى شقيقه إبراهيم الصغير حيث تنازل الأول عن الحكم طوعية.

خارجياً عرفت علاقات الجزائر بعض التقلب في عهد الداي إبراهيم باشا تراوحت بين السلام والتوتر أو العداء مثل مع فرنسا وأنجلترا، أما مع الإسبان^(٦٢) فقد استمر الصراع نظراً لإعادة احتلال إسبانيا لوهراة والمرسى الكبير، كما كانت العلاقة مع تونس عدائية لإجبارها على دفع التزاماتها لإيجاد حل للضائقة المالية التي حلت بالبلد سنأتي على ذلك في البابين الثاني والثالث، أما مع الإمبراطورية العثمانية فقد ساد جو من الفتور إذ كانت الجزائر لا تعلقاً كثيراً بالمعاهدات التي تبرمها الإمبراطورية مع الدول الأوروبية ولا تخضع

الألباني على الداوي محمد للقضاء عليه واغتياله في ١١ ديسمبر ١٧٥٤م.

خارجياً كانت العلاقات مع الدول الإسلامية سلمية مثل الإمبراطورية العثمانية وإن لم ترق إلى مستوى التعاون وكذلك مع طرابلس وأما مع بعض الدول الأجنبية فقد كانت جيدة في عهد الداوي محمد بن بكر على غرار الدنمارك والسويد وهولندا وتوسكانيا وهامبورغ وفرنسا وإنجلترا بينما ظلت العلاقات مع إسبانيا عدائية وكذلك مع مالطا وصقلية وجنوة والبرتغال، كما شهدت فترته تعدد الكوارث الطبيعية من أوبئة وزلازل وطواعين خاصة بداية من ١٧٥٢م^(٦٩) والمجاعات^(٧٠).

أما فترة الداوي علي بوصبع بداية من سنة ١٧٥٢ م وهو تاريخ اغتيال الداوي محمد بن بكر من طرف الجند وتولية الحكم في الجزائر فقد شهدت عودة للاستقرار من خلال إخماد الثورات وإفشال المؤامرات حيث تم القضاء على المتآمرين من الجند الذين تمردوا في أفريل ١٧٥٥م بقيادة خوجة الخيل^(٧١)، وفي سنة ١٧٥٦م واجه الداوي علي بوصبع تمرداً بقيادة شقيقه وآغا الصبايحية ووكيل الحرج وأربعون تركيا لكنه تمكن من إفشال محاولتهم ونفاهم جميعاً إلى سميرون وصادر أملاكهم^(٧٢)، كما استطاع إخماد ثورة تلمسان سنة ١٧٥٩م^(٧٣) بعد أربعة سنوات من اندلاعها وكذلك ثورة أهالي بلاد تنس غرب الجزائر في ١٧٥٦ - ١٧٥٧م وثورات القبائليين في صائفة ١٧٥٨م بعد سنتين من اندلاعها^(٧٤) وثورات الأسرى في مدينة الجزائر سنة ١٧٦٣ وثورات قسنطينة^(٧٥) تحت حكم الباي أحمد القلي.

أما خارجياً فقد عاد التوتر مع فرنسا بينما كانت العلاقات مع هولندا وتوسكانا والنمسا والبرتغال ومالطة و نابولي متقلبة لتتواصل العلاقات السلمية مع الدول الإسلامية مثل الإمبراطورية العثمانية والمغرب وطرابلس الغرب، كما شهدت فترته تواصل الكوارث والزلازل نذكر زلزال مدينة الجزائر في نوفمبر ١٧٥٥م^(٧٦) وزلزال البليدة في ١٧٦٠م وزلزال العاصمة وطاعوني فيفيري وسبتمبر ١٧٥٦م^(٧٧) اللذان أجبرا الداوي علي إرسال جيشه في حملة إلى تونس في الظاهر لمحاربتها ولكن في الباطن لإبعاده عن إمكانية الإصابة

لضعفها ولا تستجيب لتدخلاتها في النزاع بينها وبين تونس^(٧٨).

اقتصادياً استمرت الضائقة المالية وتواصلت الكوارث مثل الجفاف سنتي ١٧٣٥ و ١٧٣٨ والمجاعة والطاعون مثل الطاعون الذي قدم إلى الجزائر عن طريق سفينة من الإسكندرية في جوان ١٧٤٥ كما تواصلت الثورات أهمها ثورة القبائليين في صيف ١٧٣٤ الذين تم إخضاعهم من قبل الداوي إبراهيم^(٦٤) ثم سنة ١٧٤٥^(٦٥) وثورة أهالي تلمسان وكراغلتها على الحامية الموجودة في المدينة سنة ١٧٣٦ وكان الهدف إحياء مملكة تلمسان الزيانية^(٦٦) والقلاقل في الشرق: بايليك قسنطينة، الحاناشة والنماشة... أما فترة حكم إبراهيم الصغير التي دامت ثلاثة سنوات فقط (١٧٤٥ - ١٧٤٨) فقد تميزت باضطراب الوضع في بايليك الغرب وتزايد نشاط البحرية الجزائرية وميل علاقات الجزائر نحو العداء خاصة مع تونس بينما مالت العلاقات نحو السلام مع فرنسا وأنقلترا والسويد وهولندا، وأما داخليا فقد سجلت هذه السنوات القليلة من حكم الداوي إبراهيم الصغير ثورة الأهالي والكراغلة في تلمسان في صيف ١٧٤٦ بزعامة رجم البجاوي الذين أطردها الحامية التركية منها والاستقلال بها إحياء لمملكة تلمسان^(٦٧).

(٢/٢) ٣-فترة ١٧٤٨ - ١٧٦٦م:

بين التوتر والاستقرار السياسي

تميزت هذه الفترة - فترة الداوي محمد بن بكر والداوي بابا علي النقسيس الملقب ببوصبع - هي الأخرى بتعدد الثورات والتمردات في مدينة الجزائر وخارجها وبأهمية نشاط الغزو البحري وبالعلاقات المتقلبة مع الدول الأوروبية والإسلامية، ومن الثورات نذكر ثورة سكان جبال القبائل المجاورة لدلس نتيجة الضريبة التي أراد باي التيطري فرضها والتي تم إخمادها في سنة ١٧٥١م والتي تجددت سنة ١٧٥٦م^(٦٨) لتطفو مجددا مسألة دور القبائل في الجزائر، وتمرد فريق من الجند في صائفة ١٧٥٢م وتمرد المستعبدین وتحطيمهم الأبواب وخروجهم إلى الشوارع لكن ثورتهم قُمعت بشدة وتآمر بعض الجند في ديسمبر ١٧٥٤م بقيادة أوزون علي

قبائل الأعشاش والمهاينة وأولاد علي بن طلحة الحشم وفليقة والأحرار وحميان بين ١٧٨٠م و١٧٨٥م^(٨٧).

خارجياً تميزت الفترة بتعرض الجزائر إلى العديد من الحملات البحرية أهمها الحملة الدنماركية في جوان ١٧٧٠م بقيادة الأميرال كاس Kaas والتي أعقبها صلح ١٧٧٢م^(٨٨) والحملات الإسبانية لسنوات ١٧٧٥م و١٧٨٣م و ١٧٨٤م والتي انتهت بمفاوضات من أجل السلام واتفاق ١٤ جوان ١٧٨٦م^(٨٩)، أما العلاقات مع بقية الدول الأوروبية فقد تراوحت بين العداء مثل إسبانيا وروسيا والدويلات الإيطالية باستثناء البندقية والبرتغال ومالطة وأنقلترا^(٩٠) وبين المهادنة على غرار فرنسا.

لم تكن وضعية الجزائر أحسن حال من الفترات السابقة على مستوى الكوارث التي تعرضت إليها حيث شهدت مثلاً زحف الجراد في سنوات ١٧٦٨م و ١٧٧٨م و ١٧٨٠م و ١٧٨٤م و ١٧٨٧م و ١٧٨٨م م تزامن ذلك مع حصول سنوات من القحط والجفاف مثل سنوات ١٧٧٣م و ١٧٧٨م و ١٧٧٩م م مما أدى إلى حصول مجاعات (١٧٧٥م و ١٧٨١م و ١٧٨٥م و ١٧٨٨م م) وحتى قبل هذه السنوات على غرار ١٧٦٨م و ١٧٦٩م، كما شهدت الفترة ظهور الطاعون في العديد من السنوات مثل ١٧٧٦م و ١٧٨٠م و ١٧٨٦م و ١٧٨٧م و زلازل خاصة في مدينة الجزائر أبرزها زلزال سنتي ١٧٦٧م و ١٧٧٣م

وزلازل وهران سنة ١٧٩٠م وهو ما سيؤثر على العلاقات بينها وبين تونس لأن الجزائر ستحاول تعويض ما خسرت من جراء الكوارث بالهدايا التي تُفرض على الباي التونسي، بل وسيكون الطاعون دافعاً في بعض الأحيان لإقامة حروب مع تونس الهدف منها إبعاد الجيش الجزائري حتى لا يصاب به.

تواصلت القلاقل والتوترات الداخلية مع الداي حسن خلف إبراهيم الصغير في ظل تزايد عمليات العزل والقتل والنفي مثل عزل علي آغا الصبايحية وسجنه ثم قتله خوفاً من منافسته^(٩١) وعزل علي برغل وكيل الحرج وقارة محمد الخزندار ونفيهما إلى إستنبول^(٩٢) وعزل مصطفى الوزناجي باي التيطري سنة ١٧٩٢م وعزل صالح باي قسنطينة في نفس السنة وقلته ومصادرة أملاكه نتيجة مناصرتهم لعلّي آغا وعزل من خلف

بالمرض لذلك أطلقنا على هذه الحرب عبارة "حرب الطاعون" سنأتي عليها بالتفصيل في باب العلاقات السياسية والعسكرية بين البلدين، وطواعين سنتي ١٧٥٨م و ١٧٦٣م وزحف الجراد سنة ١٧٦٠م ومجاعة سنتي ١٧٥٤م و ١٧٥٦م^(٧٨).

كانت حالة الجزائر في النصف الأول من القرن الثامن عشر - إذن - مشحونة بالتوتر والصراعات وكانت الإيالة تواجه الكوارث الطبيعية فهل ستتواصل هذه الحالة في النصف الأخير من هذا القرن؟

(٢/٢) ٤-فترة ١٧٦٦ - ١٨٠٥م:

توتر سياسي لعبت فيه القبائل دوراً هاماً

توافق هذه الفترة حكم الداي محمد بن عثمان باشا وخلفه الداي حسن وتميزت فترة الأول بتعدد مؤامرات الجند نذكر على سبيل المثال ثلاثة مؤامرات في سنة واحدة: أفريل وجوان وأكتوبر سنة ١٧٦٦م وسنتي ١٧٦٨م و ١٧٨٨م، كما شهدت الفترة ثورات في مختلف الأقاليم خاصة الجبلية والمناطق الجنوبية الصحراوية مثل ثورة فليسة بزعامة المرابط أحمد أو السعدي (١٧٦٧م - ١٧٦٨م) والتي وصلت إلى أسوار مدينة الجزائر ولكن الداي تمكن منها سنة ١٧٦٩م^(٧٩) وثورة أهالي الجبال من جديد سنة ١٧٨٩م. كما شهدت الفترة تعدد الثورات في بايليك قسنطينة مثل عصيان أهل الشافية وأولاد سلطان بالأوراس سنة ١٧٦٨م^(٨٠) وتمرد عشيرة السقنية سنة ١٧٧٤م^(٨١) وتمرد أولاد عاشور بفرحيوة بقيادة شيخهم محمد الشلهوم في ١٧٧٦م و ١٧٨١م^(٨٢) وتمرد أهالي الواحات في الجنوب سنة ١٧٨٨م^(٨٣) وتمرد بعض المرابطين ومشايخ الطرق منهم محمد (العزاب) في قسنطينة والشيخ أحمد الزواوي في جبال أوزغار قرب قسنطينة سنة ١٧٨٩م^(٨٤).

كما شهدت بايليك التيطري هي الأخرى ثورات متعددة مثل تمرد أولاد نايل سنة ١٧٧٢م أولاد عمور سنة ١٧٧٤م وتمرد في قصر الشلالة والأغواط وعين ماضي في جنوب البايليك^(٨٥) ولم تسلم بايليك الغرب هي الأخرى من الثورات حيث شهدت تمرد الشريف محمد بن علي في ناحية تلمسان سنة ١٧٨٠م^(٨٦) وتمرد

للظروف التي تعيشها إذ ستجبرها حالات الطاعون مثلاً على خوض حروب مع تونس ليس لإخضاعها أو لعدم دفع تونس ما عليها من ضرائب تجاه الجزائر وإنما إبعاداً لجند الجزائر عن الطاعون، كما ستخوض الإيالة عدة حروب مع جارتها محاولة منها لحل أزمتها الاقتصادية والاجتماعية.

كما نستنتج من خلال ما تقدم فاعلية القبيلة في الأحداث ومساهمتها في رسم تاريخ الجزائر خلال القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر على غرار قبائل الحنانشة والنمامشة وأنجاد وفليسة والقبائليين وغيرهم، هكذا نلاحظ أن القرنين السابع عشر والثامن عشر كانا قرني الأزمات والصعوبات الداخلية للجزائر فماذا عن القرن التاسع عشر؟

٣/٢- الجزائر خلال القرن التاسع عشر (تواصل الأزمات والقلق)

شهد القرن التاسع عشر تواتر ستة دايات على الحكم وهم الداوي أحمد (١٨٠٥ - ١٨٠٨م) والداوي علي العسال (١٨٠٨ - ١٨١٥م) والداوي علي والداوي عمر وعلي خوجة وأخيرا الداوي حسين وتميز بتعدد الأزمات السياسية مثل الاغتيالات والتمرد والعزل، ففي عهد الداوي الأول شهدت الجزائر ثورات الدرقاويين^(١٠٢) نسبة إلى درقة - وهي بلدة في المغرب كان سكانها أتباعا للشيخ سيدي العربي الدرقاوي الذي خلف مولاي إدريس على رأس الطريقة الدرقاوية، حاربوا الحكم العثماني في الجزائر - كما استهلت الجزائر القرن بمؤامرات على الداوي أحمد مثل مؤامرة أحمد شاوش الرأغب في الانقضاض على الحكم بالتعاون مع باي تونس سنة ١٨٠٧ وبانقلاب الأهالي عليه ونقمتهم وخاصة الجند ممّا أدى إلى قتله واستبداله بالداوي علي العسال نتيجة هزيمته أمام تونس في سراط سنة ١٨٠٧م وإبرامه سلما معها. كما شهد القرن عدم استقرار سياسي خاصة فيما يتعلق برتبة الباي من خلال كثرة التغييرات التي شملت المنصب حيث كان الداوي يأمر بتغييرهم وتعذيبهم وقتلهم فبين سنتي ١٨٠٤ و ١٨١٣م تداول على البايلىكات حوالي تسعة بايات قُتلوا كلهم وهي سياسة أدت إلى ظهور نفمة

البايين ثم من تلاهما وقتلهم ومصادرة أملاكهم^(٩٣). كما شهدت الفترة تمرد قبائل سماته في بايليك التيطري^(٩٤) وثورة فليسة في مقاطعة دار السلطان نتيجة قتل قائد سياو لزعيمهم الحسين بن زعمون والتي إنتهت بإبرام اتفاق سنة ١٧٩٩م^(٩٥) وتمرد النهادة أو الخميريين على الحدود التونسية وأولاد بوعون في سهل زانة وأولاد سعيد في الأوراس في مقاطعة بايليك الشرق^(٩٦) وتمرد وجدة في بايليك الغرب، كما شهدت نفس الفترة تواتر سنوات زحف الجراد مثل سنة ١٧٩٨ م والمجاعة (١٧٩٤م) والطاعون (١٧٩٤م - ١٧٩٨م)^(٩٧).

لم تكن فترة حكم آخر داوي جزائري في القرن الثامن عشر - مصطفى - بمنأى عن المؤامرات والكوارث حيث تميزت سياسته الداخلية بتعدد حالات العزل وعدم الاستقرار من خلال التغيير الذي شمل العديد من المسؤولين ومصادرة أملاكهم والزج بهم في السجن أو النفي إلى الخارج^(٩٨)، كما تعددت المؤامرات في عهده في مدينة الجزائر وكذلك الثورات ضد الحكم العثماني في البايلىك مثل مؤامرة ١٨ سبتمبر ١٨٠١م التي نفذها خوجة الخيل بتحريض من الأنقليز ومؤامرة ٢١ مارس ١٨٠٥م، كما تعرض الداوي لمحاولة اغتيال في مناسبتين الأولى في ٢٨ ماي سنة ١٧٠٥م والثانية في ٣٠ جوان ١٨٠٥م علاوة على ثورات شهدتها قسنطينة ووهران مثل ثورة قبيلة فليسة سنة ١٧٩٩م التي إنتهت بإبرام صلح وثورة قبائل أنجاد في وهران^(٩٩) والحنانشة والنمامشة^(١٠٠) أما الكوارث فحسبنا التذكير بجراد سنوات ١٧٨٨ و ١٧٩٩ وطاعون سنة ١٧٩٨م.

بالنسبة للسياسية الخارجية لهذا الداوي، فإنها لم تختلف عن سياسة دايات القرن الثامن عشر الذين سبقوه حيث شهدت توتراً مع بعض البلدان على غرار فرنسا وأنقلترا وتحسنا مع البعض الآخر مثل إسبانيا والدنمارك والولايات المتحدة الأمريكية^(١٠١) والدول الإسلامية أيضاً التي ارتقت معها العلاقات في عهده إلى التعاون أحياناً.

هكذا عانت الجزائر خلال القرن الثامن عشر من مشاكل في جميع الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية ممّا سيؤثر على علاقتها بتونس حيث ستسعى كما سنرى لاحقاً إلى تغيير سياستها طبقاً

السلطان^(١٠٧) والتي نجح في إخمادها كما اندلعت في عهده ثورة أولاد نايل سنة ١٨١٧م في بابلييك التيطري وآل مقران في بابلييك الشرق الجزائري^(١٠٨) وثورات أخرى في بابلييك الغرب على غرار ثورة ابن الشريف الدرقاوي سنة ١٨١٦ م في بني سنوس بنواحي تلمسان^(١٠٩) كما لم يسلم هذا الداي هو الآخر من انتفاضات الجند في مدينة الجزائر سنة ١٨١٥م وذلك لقبوله بالشروط الأمريكية وسنة ١٨١٦م لقبوله بشروط إكسماوث^(١١٠) وهي السياسة التي أدت إلى قتله شنقا سنة ١٨١٧م من قبل الجند إثر تمردهم مرة أخرى^(١١١). خارجياً شهدت فترة الداوي عمر قطيعة مع الولايات المتحدة الأمريكية التي قادت حملة ضد الجزائر^(١١٢) التي شهدت في عهده حملة أنقليزية - هولندية بقيادة إكسماوث وكابلان^(١١٣)، كما لم تخلُ فترته من الجفاف وزحف الجراد والطاعون على غرار سنتي ١٨١٦ م و١٨١٧م.

نفس المشهد السياسي يعاد في عهد خلفه الداوي علي خوجة (١٨١٧ - ١٨١٨م) حيث شهدت الجزائر عدة ثورات لعل أهمها ثورة الجند الإنكشاريين^(١١٤)، كما شهدت أيضاً أزمة تغيير البايات على غرار سابقه، ففي الغرب تم عزل الباي علي قارة بغلي لشك في ولائه وعين مكانه الباي حسن^(١١٥) وفي الشرق تم عزل باي قسنطينة محمد شاکر وتغييره بمصطفى قارة الذي عزل هو الآخر بعد شهر فقط من توليه البابليكية لانغماسه في المملدات ولقساوته وتم تعويضه بالباي أحمد المملوك سنة ١٨١٨م^(١١٦). علاوة على سياسة العزل والقتل قام الداوي بالتقليل من صلاحيات الباي وفي عهده ساءت أحوال البلاد رغم قصر مدة حكمه التي لم تتجاوز ستة أشهر حتى قال عنه حمدان خوجة: "... ولو عاش طويلاً لخرب الجزائر دون شك في ذلك" ولكن الرجل مات بالطاعون. خارجياً تميزت فترة حكمه بحسن الجوار والعلاقات الطيبة مع البلدان الإسلامية وصلت إلى حد التعاون بينما تميزت العلاقة مع الدول الأوروبية بالتوتر نظراً لاستئناف نشاط الغزو البحري من قبل الجزائريين.

بعد وفاة الداوي علي خوجة في ٠١ مارس ١٨١٨م انعقد مؤتمر آيكس لا شابال في سبتمبر من سنة ١٨١٨

عليه من الأهالي ومن المؤسسة العسكرية وكانت سبباً من بين أسباب أخرى في اغتياله

على مستوى العلاقات الخارجية تميزت بداية القرن بهجوم تونس على الشرق الجزائري مستغلة الظروف الصعبة التي تمرُّ بها الجزائر سنة ١٨٠٧م واجتياح المغرب للجنوب الغربي الجزائري في مناسبتين أولى سنة ١٨٠٥ م وثانية عام ١٨٠٧ م وعزم نابليون على غزو الجزائر سنة ١٨٠٨م في المقابل شهدت العلاقات مع أنقلاترا تحسناً بلغ حد التقارب، وللإشارة فإن تناولنا للعلاقات بين الجزائر وبقية البلدان لاسيما المغرب لا يُعدُّ خروجاً عن الموضوع وإنما لأن هذه العلاقات كانت محدداً لعلاقتها بتونس خاصة العلاقة مع المغرب أمّا فترة خلفه الداوي علي الغسّال فقد دامت سنة واحدة من سنة ١٨٠٨ م إلى سنة ١٨٠٩م وبالتالي من الصعب رصد ملامحها نظراً لقصرها لذلك سنمرُّ إلى فترة الداوي الحاج علي (١٨٠٩ - ١٨١٥م) التي شهدت تطورات تستحق الدراسة حيث تميزت هي الأخرى بتعدد المؤامرات والقتال الداخلي والخارجية إذ عمد هذا الداوي إلى قتل العديد من البايات الأقوياء^(١١٧) والتخلص منهم فبين سنتي ١٨١١ و ١٨١٣م تم عزل أربعة بايات مع قتلهم، كما شهدت فترته ظهور عدة تمردات مثل تمرد الدرقاويين والقبائليين وتمرد بناحية بوسعادة سنة ١٨١٤م وثورة آل مقران بمجانة^(١١٨) وثورة أولاد مهدي بناحية سيدي عيسى وثورة قبيلة الزناخرة وأولاد نايل.

خارجياً تميزت بداية القرن التاسع عشر خلال عهد هذا الداوي باندلاع الحروب مع العديد من الدول مثل تونس (١٨١٠م - ١٨١٣م) والولايات المتحدة الأمريكية (١٨١٢م - ١٨١٥م)^(١١٩) والسويد والدنمارك واليونان في المقابل شهدت سياسته الخارجية - مع دول أخرى - مرحلة من السلم لا سيما مع أنقلاترا وفرنسا وإسبانيا والبرتغال والمغرب والدولة العثمانية، وقد كانت هذه السياسة سبباً في قتله خنقا في الحمام من قبل الجند^(١٢٠).

تواصلت نفس الأزمات مع خلفه الداوي عمر (١٨١٥ - ١٨١٧م) والذي واجه عدة ثورات لعل أهمها ثورة قبائل فليسة بقيادة ابن زعموم في أقصى مقاطعة دار

بالتعاون مع الإمبراطورية العثمانية وبالعلاقات السلمية مع بقية الدول الإسلامية في المقابل كانت العلاقات صدامية مع أنقلازا سنة ١٨٢٤ م وكذلك فرنسا.

لم تكن الجزائر في أحسن أحوالها خلال الثلاثة قرون التي أتينا عليها حيث واجهت ظروفًا سياسية واجتماعية واقتصادية وكذلك طبيعية صعبة أثرت على علاقاتها الخارجية لا سيما مع تونس محور موضوعنا حيث ستلقي هذه المشاكل بضلالها على الأوضاع الأمر الذي دفعنا إلى دراسة الوضع الداخلي في كلا البلدين، كما نلاحظ الدور الكبير الذي لعبته العديد من القبائل والزوايا في عدم الاستقرار في الجزائر حيث حركت تاريخ هذه الإيالة، كما ستحرك إيالة تونس أيضاً فهل ستواجه هذه الأخيرة في وضعها الداخلي نفس المصير ممّا سيؤثر على علاقتها بالجزائر أم أنها ستكون أفضل حال؟

خاتمة

تعتبر الفترة العثمانية من أهم المراحل والمحطات التي شهدتها الجزائر باعتبار أنها شهدت تحولات كبيرة على جميع المستويات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعسكرية مما أثر حتى على نظام الحكم الذي لم يكن مستقرا وألقى بضلاله على العلاقات مع تونس البلد المجاور، كما تعتبر الفترة العثمانية مهمة جداً وجديرة بالدراسة باعتبار أنها انتهت بانتصاب الاستعمار الفرنسي الذي استغل ضعف الدولة العثمانية - مثل بقية القوات الاستعمارية - ليسطو على ممتلكاتها ویرثها ويمعن في نهب ثرواتها لا سيما الجزائر التي كانت في أعين الفرنسيين ولاية تابعة لفرنسا باعتبار أن استعمارها كان استعماراً استيطانياً، كما تعتبر الفترة العثمانية مهمة أيضاً نظراً للضعف الذي أظهره الباب العالي تجاه السلطة المحلية الجزائرية أحياناً مما جعل الجزائر تظهر بمظهر البلد الذي يتمتع بحكم ذاتي تحت الانتصاب العثماني عكس تونس وبقية الأيالات العثمانية.

م انتهى بإصدار تصريح يحظر على دول المغرب البحرية القرصنة في المستقبل^(١١٧) وفي فترة آخر داي للجزائر قبل الاحتلال الفرنسي أي قبل ١٨٣٠ - والتي سنعتمد هذا التاريخ كآخر تاريخ للجزائر في القرن التاسع عشر خلال العهد العثماني - شهدت الجزائر نوعاً من الاستقرار باعتبار طول فترة حكم الداي حسين (من ١٨١٨ إلى ١٨٣٠م) لكنه لم يكن حاجزاً أمام الاحتلال الفرنسي للبلاد ولا ينفي وجود المؤامرات وحالات التمرد حيث تجددت مؤامرات الجند الإنكشاريين ضدّ الداي ومحاولة القضاء عليه وتعويضه بآخر إذ تذكر المصادر تعرّض الداي حسين لمحاولتي اغتيال من طرف الإنكشاريين.^(١١٨)

كما تعددت في عهده الثورات والعصيان والتمردات في بايليك تحت زعامات محلية قبلية - خاصة في بايليكي الشرق (قسنطينة) والجنوب (التيطري) - ودينية في بايليك الغرب (وهران)^(١١٩) مثل ثورة الدرقاويين والتيجانين^(١٢٠) انطلاقاً من زوايتهم في عين ماضي^(١٢١) وثورة قبائل أولاد نائل سنتي ١٨١٨ و ١٨٢٦ في بايليك التيطري^(١٢٢)، أما بايليك قسنطينة فشهدت ثورات ذباح بن بوعكاز شيخ العرب في الجنوب الشرقي سنة ١٨١٨ ثم أخيه فرحات سنة ١٨٢٠^(١٢٣) ثم ثورة زين بن يونس شيخ أولاد يحيى بن طالب سنتي ١٨١٩ م و ١٨٢٦م^(١٢٤)، كما شهدت الفترة عصيان ابن جلاب سنة ١٨٢٠م في توغرت^(١٢٥) وعصيان الحراككة في سنة ١٨٢٣م^(١٢٦) والحنانشة في ١٨٢٧ و ١٨٢٨م^(١٢٧).

كما شهدت الفترة ثورات قامت في منطقة القبائل الواقعة بين شمال غرب بايليك الشرق وشرق مقاطعة دار السلطان أهمها ثورة قشطلولة وبني صدقة في أواخر ١٨١٨م وأخرى تزعمها محمد أوقاسي في عمراوه سنة ١٨١٩م وثورة بني عباس سنة ١٨٢٣م ممّا يدل على الدور الفاعل لبعض القبائل والزوايا في استقرار البلد أو توتره وفي توجيه الأحداث. كما سجلت الكوارث أيضاً حضورها خلال هذه المرحلة الأخيرة من حكم الدايات في الجزائر مثل الجفاف والمجاعة والطاعون (١٨١٦م - ١٨٢٣م) وزلزال سنة ١٨٢٥م في البليدة الذي دمّرها، أما خارجياً فقد تميزت سياسة آخر الدايات الجزائريين

الإحالات المرجعية:

- العنتري (صالح)، **فريدة منسية**، تحقيق أحمد سيساوي، رسالة جامعية، جامعة قسنطينة ١٩٨٠، ص ٨٥
- (١٩) كتابه **التاريخ الصغير للجزائر والمغرب وتونس**، الجزائر، ١٩٨١ (٢٠) قائد الجيش الفرنسي في الجزائر سنة ١٨٣٠ (٢١) ١٧٩٢ - ١٧٩٨
- (٢٢) الزهار (أحمد الشريف)، **مذكرات**، تقديم أحمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٧٤، ص ٧١
- (٢٣) انظر الزياتي (محمد بن يوسف)، **دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران**، تقديم المهدي بوعبدلي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٧٨، ص ١٩٠ - ٢١٧ - ٢٢٠ وكذلك ابن عبد القادر (مسلم)، **أنيس الغرب والمسافر**، تحقيق رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٧٤، ص ٤٧ انظر أيضاً العنتري (صالح)، **مجاعات قسنطينة**، تحقيق رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٧٤، والعنتري في كتابه **فريدة منسية**، ص ٨٦ وخوجة (حمدان)، **المرآة**، ص ١٥٠
- (٢٤) خوجة (حمدان)، **المرآة...**، مص س، ص ١٥٠
- (٢٥) الزهار (أحمد الشريف)، **مذكرات**، مص س، ص ٩٥
- (٢٦) يذكر حمدان خوجة انه " ...لم يكن على الذي يريد أن يصبح بايا إلا أن يتجه إلى أقارب احمد باشا ويمدهم بالأموال " خوجة (حمدان)، **المرآة**، مص س، ص ١٥٠ - ١٥١
- (٢٧) الزهار (أحمد الشريف)، **مذكرات**، مص س، ص ١٠٣
- (٢٨) الزهار، نفس المصدر، ص ١١٥
- (٢٩) سبنسر (وليام)، **الجزائر في عهد رياس البحر**، تعريب وتعليق ع - ق خبادية، الجزائر، ١٩٨٠، مر س، ص ١٦٣
- (٣٠) سعد الله (أبو القاسم)، **أربعة رسائل بين باشوات الجزائر وعلماء عنابة**، مر س، ص ١٤
- (٣١) الزبيري (محمد العربي)، مر س، ص ١٩
- (٣٢) كانت هذه القبائل تتمتع بامتيازات كبيرة مثل الإعفاء من الضرائب والحصول على أراضي لاستغلالها وكذلك أسلحة لحماية أنفسهم وهو نفس المنحى تقريبا في تونس
- (33) Grammont (H. DE), **Histoire d'Alger sous la Domination Turque (1515 1830)**, Paris, 1887, P P 219 -220.
- (٣٤) الداوي مصطلح تركي ويقصد به الخال والزعيم والقائد لمائة نفر ثم أصبح منصبا حكوميا ساميا رئيسيا لإيالة تونس منذ سنة ١٥٩١ ويسمى أيضاً دولاتلي. انظر: ابن أبي دينار، **المؤنس**... مص س، ص ٢٠٠ - ٢٠١
- (٣٥) عزيز سامح (التر)، **الأتراك العثمانيون في شمال إفريقيا**، تعريب محمود علي عامر، بيروت، ١٩٨٩، ص ٤١٥ - ٤٣١
- (٣٦) سعيدوني (ناصر الدين)، **الجزائر في التاريخ (العهد العثماني)**، الجزائر، ١٩٨٤، ص ١٤ - ١٥
- (٣٧) حدث ذلك في ١٦٨٩ عهد الداوي شعبان انظر عزيز سامح، **الأتراك العثمانيون... مر س**، ص ٤٣٢
- (٣٨) فارس (محمد خير)، **تاريخ المغرب الحديث والمعاصر**، دمشق، ١٩٨١، ص ١٤٨ - ١٤٩
- (39) DE Grammont (H.), **Histoire d'Alger sous la Domination Turque (1515 1830)**, Paris, 1887, P P ٢١٩ - ٢٢١ - ٢٤٨ - ٢٥٩.

- (١) الخداري (محمد)، " بلاد المغرب تحت الحكم العثماني نموذج الجزائر في عهد الدايات (١٦٧١ - ١٨٣٠) "، **مجلة كان التاريخية**، العدد الثاني والعشرون، السنة السادسة، ديسمبر ٢٠١٣، ص ٢٥
- (٢) تعني عبارة بيلرباي باللغة التركية أمير الأمراء وهو اللقب الذي حمله خير الدين ومن بعده عشرة من الحكام حتى إلغاء هذه التسمية سنة ١٥٨٧ م بنهاية عهد البيلربايات. انظر الهندي (محمود إحسان)، **الحوليات الجزائرية تاريخ المؤسسات في الجزائر من العهد العثماني إلى عهد الثورة فالاستقلال**، الناشر العربي للإعلان والنشر والطباعة والتوزيع، ص ٤١
- (٣) رياس البحر هم من أبناء جزر البحر الأبيض المتوسط و هذا ما جعلهم يختارون البحر مصدرا لرزقهم وأغلبهم من المسيحيين الذين اختاروا اعتناق الدين الإسلامي كما أن أكثرهم من أصل أوروبي على غرار الحسن قورصو من كورسيكا والحسن بنديتشي من البندقية و العلي علي الكبير من أصل إيطالي والحاج حسين ميزو مورتو، يتكلمون لغة خاصة بهم مزيجية بين اللغات الأوروبية السائدة في المتوسط مع استعمال كلمات عربية وأخرى تركية وكان رياس البحر يعيشون على أعمال الغزو البحري من خلال إغارتهم على السفن الأجنبية أو الموانئ المسيحية ثم يعودون إلى موانئ الجزائر للرسو في مرفأ باب الواد وهناك يبيعون غنائمهم للتجار.
- (٤) **اليولدش** (Yoldach) هم جنود الجيش البري وأغلبهم من أتراك الأناضول الذين يتطوعون في فرق الإنكشارية.
- (٥) سبنسر (وليم)، **الجزائر في عهد رياس البحر**، تعريب وتقديم عبد القادر زبادية، دار القصة للنشر، الجزائر، ٢٠٠٦، ص ٨٧
- (٦) الديوان الأعلى هو مجلس يتشكل من أعضاء الفرق العسكرية فقط في أول الأمر، ثم أصبح يضم ممثلين عن الرياس وبعض الموظفين المدنيين الكبار مثل المفتي فيما بعد.
- (٧) سبنسر (وليم)، **الجزائر في عهد رياس البحر**، مر س، ص ٩١
- (٨) الجيلالي (عبد الرحمان بن محمد)، ج٣، ص ٢١٩
- (9) VENTURE DE PARADIS, **Alger au XVIII(ème) siècle**, 2(ème) édition, Bouslama, Tunis, sans date, p 118
- (١٠) كوران (أرجموند)، **الإمبراطورية العثمانية والجزائر في التاريخ**، محاضرة أقيمت في الملتقى الثاني عشر للفكر الإسلامي، باتنة، ١٩٧٨
- (١١) خوجة (حمدان بن عثمان)، **المرآة**، تحقيق وتعريب محمد العربي الزبيري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٧٥، ص ١٥٤
- (١٢) أرجموند (كوران)، **الإمبراطورية العثمانية والجزائر...**، مر س، ص ١٥
- (١٣) خوجة (حمدان بن عثمان)، **المرآة**، مص س، ص ١٦١
- (١٤) تولي الحكم من سنة ١١٧٩ إلى ١٢٠٥ هـ / ١٧٦٦ - ١٧٩١ م: يرى العديد أن تدهور الحكم العثماني بالجزائر يبدأ اثر وفاة هذا الداوي
- (١٥) خوجة (حمدان)، مص س، ص ١٤٩
- (١٦) نفس المصدر، ص ١٥٠
- (١٧) الداوي أحمد ١٨٠٥، الداوي علي ١٨٠٩، الداوي الحاج علي ١٨٠٩، الداوي الحاج محمد ١٨١٥ والداوي عمر ١٨١٧
- (١٨) يقول العنتري: " لكن بعد عهد صالح باي أصبح المعيار الوحيد هو الوصولية لدى الداوي حتى يتمكن أي كان من توليه هذا المنصب "،

(٥٨) دوغرامون، **تاريخ الجزائر**، ص ٢٩٤ انظر أيضًا عزيز (سامح التري)، **الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية**، تعريب محمود علي عامر، جزءان في مجلد واحد، بيروت، ١٩٨٩ وترجمة عبد السلام أدهم الجزء الأول، لبنان ١٩٦٩، ص ٢٧٨ انظر أيضًا عزيز (سامح التري)، **الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية**، مر س، ص ٤٦٨.

(٥٩) دوغرامون، **تاريخ الجزائر**، ... مرجع مذكور، ص ٢٧٨ - ٢٨٢ أيضًا سامح عزيز، مر س، ص ٤٦٨.

(60) Mercier (E), **Histoire de l'Afrique septentrionale**, V III, Paris, 1891, P 342

(٦١) الراشدي (أحمد بن سحنون)، **الثغر الجمالي في ابتسام الثغر الوهراني**، تحقيق وتقديم المهدي البوعبدلي، منشورات وزارة التعليم العالي الأصلي، قسنطينة، ١٩٧٣، ص ١٩٢ - ١٩٥.

(62) DE Grammont (H.), **Histoire d'Alger sous la Domination Turque (1515 1830)**, P ٢٨٨ - ٢٨٩

(٦٣) دوغرامون، **تاريخ الجزائر**، ص ٢٩٤ انظر أيضًا سامح عزيز، **الأتراك العثمانيون** ... مر س، ص ٤٨٨ - ٤٨٩ - ٤٩١ - ٤٩٣.

(64) DE Grammont (H.), « Correspondance des consuls d'Alger, Alger 1642 - 1743 », IN, **R A**, T 31 - 33, Alger 1887 - 1889, P 321.

(٦٥) ابن حمادوش، ص ١٦٣.

(66) Mercier (E), **Histoire de l'Afrique septentrionale**, V III, Paris, 1891, P 375 - 376 - 389 - 390.

(٦٧) ابن يوسف (محمد الصغير)، **المشروع الملكي**، ص ٢٧.

(٦٨) لوسيان (شايو)، ص ٩٦ - ٩٧ - ١٣٨.

(٦٩) لوسيان (شايو)، ص ١٠٠.

(70) DE Grammont (H.), "Correspondance des consuls d'Alger", Alger 1642 - 1743, IN, **R A**, T 31 - 33, Alger 1887 - 1889, P 306.

(71) Ibid, P ٣١٠.

(72) Ibidem, P ٣١٧.

(73) Mercier (E), **Histoire de l'Afrique septentrionale**, V III, Paris, 1891, P 389 - 390.

(74) DE Grammont (H.), "Correspondance des consuls d'Alger", Alger 1642 - 1743, IN, **R A**, T 31 - 33, Alger 1887 - 1889, PP 310 - 313.

(75) Mercier (E), **Histoire de l'Afrique septentrionale**, V III, Paris, 1891, P 388.

(76) DE Grammont (H.), "Correspondance des consuls d'Alger", Alger 1642 - 1743, IN, **R A**, T 31 - 33, Alger 1887 - 1889, PP 310 et.

- Mercier (E), **Histoire de l'Afrique septentrionale** P 385,

(٧٧) فاليري، ص ١٣٦ - ١٣٨.

(٧٨) انظر: بخصوص الكوارث في عهد الداوي علي بوضبع سعيدوني (ناصر الدين)، الأحوال الصحية والوضع الديمغرافي بالجزائر أثناء العهد العثماني، **المجلة التاريخية المغربية**، عدد ٣٩ - ٤٠، تونس، ١٩٨٥، ص ٤٣٣ - ٤٣٧ انظر أيضًا ميرسي، ج ٣، ص ٣٨٥ ودوغرامون، **مراسلات**، ص ٣١٠.

(٤٠) قنان (جمال)، **معاهدات الجزائر مع فرنسا ١٦١٩ - ١٨٣٠**، الجزائر، ١٩٨٧، ص ٣١٥ - ٣١٧ - ٣١٩ - ٣٢٧.

(41) DE Grammont (H.), **Histoire d'Alger sous la Domination Turque (1515 1830)**, P ٢٤٥.

(42) Voinot (L), **Oudjda et l'Amalat**, Oran, 1912, p 284.

(43) Emerit (M), Un mémoire sur Alger par Petis Dela Croix, 1962, In **a.i.e.o.**, T II, 1953, P 12.

(44) DE Grammont (H.), **Histoire d'Alger sous la Domination Turque (1515 1830)**, P 225.

(٤٥) تحدثت المصادر والأرشيفات عن الهدايا التي كانت ترسلها تونس الى الجزائر كدلالة على الولاء، ولكن المتمعن في طبيعة هذه الهدايا يلاحظ أنها نوع من الضريبة باعتبار أنها تفرض فرضاً من الجانب الجزائري لذلك اعتبرناها ضريبة وليست هدية انظر في هذا الصدد مثلاً الأرشيف الوطني التونسي، دفتر ٢٠٥، ورقة ٢٠٦ - ٢٠٧ ودفتر عدد ٢١٤٤، الورقة ٢٠٥ ظهر والورقة ١٦٤ وجهاً وظهرًا. انظر أيضًا:

Plantet (E), **Correspondances des Deys d'Alger avec la cour de France, (1579 - 1833)** 2 Vol, Paris, 1838 P.31.

(٤٦) سعد الله (أبو القاسم)، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج ١، الجزائر، ١٩٨١، ص ٤١٦.

(٤٧) سنوات ١٦٩٦ - ١٦٩٧ - ١٦٩٩، ١٧٠٠ انظر الزباني (أبو القاسم)، **الترجمان المغربي**، نشر هوداس، باريس، ١٩٨٦، ص ٢٥ - ٢٦.

(48) DE Grammont (H.), **Histoire d'Alger sous la Domination Turque (1515 1830)**, P ٢٦٧.

(٤٩) دوغرامون، مر س، ص ٢٧٠.

(50) BERBRUGGER (A), "Mémoire sur la peste en Algérie", in **Exploration Scientifique de l'Algérie**, T 2, Paris, 1847, P 206.

(51) DE Grammont (H.), **Histoire d'Alger sous la Domination Turque (1515 1830)**, PP 268 - 269.

(52) DE Grammont (H.), "Correspondance des consuls d'Alger", Alger 1642 - 1743, IN, **R A**, T 31 - 33, Alger 1887 - 1889, P 164 - 212.

(53) DE Grammont (H.), **Histoire d'Alger sous la Domination Turque (1515 1830)**, P ٢٧١.

(٥٤) الداوي حسين خوجة (١٧٠٥ - ١٧٠٧)، الداوي محمد بكداش (١٧٠٧ - ١٧١٠)، الداوي دالي ابراهيم (مارس ١٧١٠ - أوت ١٧١٠)، الداوي علي شاوش (١٧١٠ - ١٧١٨)، الداوي محمد بن حسن (١٧١٨ - ١٧٢٤)، الداوي كور عبيدي (١٧٢٤ - ١٧٣٢).

(٥٥) عزيز (سامح التري)، **الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية**، تعريب محمود علي عامر، جزءان في مجلد واحد، بيروت، ١٩٨٩ وترجمة عبد السلام أدهم الجزء الأول، لبنان ١٩٦٩، ص ٤٦٣ - ٤٦٤.

(٥٦) دوغرامون، **تاريخ الجزائر**، مر س، ص ٢٧٢ انظر أيضًا الجزائري (محمد بن ميمون)، **التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمدية**، تقديم وتحقيق محمد بن عبد الكريم، الجزائر، ١٩٧٢، ص ١٣٩ - ١٤٠.

(57) Mercier (E), **Histoire de l'Afrique septentrionale**, V III, Paris, 1891, P 338

de la soc , Archive de la Province de Constantine, Constantine , 1867, p 460 – 461.

(٩٧) سعيدوني (ناصر الدين)، الأحوال الصحية والوضع الديمغرافي بالجزائر أثناء العهد العثماني، *المجلة التاريخية المغربية*، عدد ٣٩ - ٤٠، تونس، ١٩٨٥، ص ٤٣٤ - ٤٣٧.

(٩٨) الزهار (الحاج أحمد الشريف)، *مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب أشرف الجزائر*، مص س، ص ٧١ - ٧٢ - ٨٤ - ٨٥ - ٨٨ انظر أيضاً دوغرامون، مراسلات ...، ص ٣٦٢.

Mercier , *Histoire de l' Afrique septentrionale*, V III, Paris, 1891, P 453.

(99) Rousseau (A), *Chronique du Beylik d'Oran par un secretaire du Bey Hassan*, Alger, sans date, p 8.

(100) Mercier (E), *Histoire de l'Afrique septentrionale*, op.cit 456 voir aussi : Vaysettes (E) Histoire de constantine sous la domination Turque , de 1517 à 1837 , in *recueil des notices et mémoires de la soc* , Archive de la Province de Constantine , Constantine , 1867 , p 470 – 471.

(101) DE Grammont (H.), « Correspondance des consuls d'Alger , Alger 1642 – 1743 », IN , *R A* , T 31 – 33 , Alger 1887 – 1889 , PP 348.

(١٠٢) (أ . كور)، الدرقاوي، *دائر المعارف الإسلامية المترجمة إلى العربية*، المجلد التاسع، ص ١٩٨ - ٢٠٦.

(١٠٣) المسلم (ابن عبد القادر)، *أنيس الغريب والمسافر*، تحقيق رابع بونار، الجزائر، ١٩٧٤، ص ٩٧ - ١٠٥.

(١٠٤) العنتري (محمد الصالح بن)، *تاريخ قسنطينة، فريدة منسوبة في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها*، مراجعة وتقديم وتعليق يحي بوعزيز، د م ج، الجزائر، ١٩٩١، ص ٨١ - ٨٣. انظر أيضاً:

Vaysettes (E), *Histoire de Constantine sous la domination Turque*, op.cit, pp ٥١٨ - ٥٢٨.

وأيضاً:

Mercier (E), *Histoire de l'Afrique septentrionale*, op.cit, V III , P ٥٨٤.

(١٠٥) سعد الله (أبو القاسم)، *أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر*، الجزائر، ١٩٧٨، ص ٢٠٣ - ٢٢٣ - ٢٢٦.

(١٠٦) الزهار (الحاج أحمد الشريف)، *مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب أشرف الجزائر*، تحقيق أحمد توفيق المدني، الجزائر، ١٩٧٤، ص ١١١.

(107) Mercier (E), *Histoire de l'Afrique septentrionale*, V III , op.cit, p 498 491 – 492.

(١٠٨) العنتري (محمد الصالح بن)، *تاريخ قسنطينة ... مصدر سابق*، ص ٨١ - ٨٣.

انظر أيضاً:

Mercier (E), *Histoire de l'Afrique Septentrionale* , Vol III , op.cit, p 498 – 499.

Vaysettes (E), *Histoire de Constantine sous la domination Turque*, op.cit, PP.518 – 546.

(79) DE Grammont (H.), « Correspondance des consuls d'Alger », Alger 1642 – 1743 , IN , *R A* , T 31 – 33 , Alger 1887 – 1889 , PP 318 – 320 – 329 et

- Mercier (E) , *Histoire de l'Afrique Septentrional* , op.cit , V III , p 396

(80) Vaysettes, « Histoire des derniers Beys de Constantine depuis 1793 jusqu'à la chute d'Hadh Ahmed », in *Revue Africaine*, T 3 – 7, Alger, 1858 – 1863, P 324 – 325

(81) Ibid , P 336

(٨٢) سعيدوني (ناصر الدين)، *دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر*، الجزائر، ١٩٨٤، ص ٦١.

(٨٣) نفس المرجع، ص ٦٢.

(84) Vaysettes, *Histoire des derniers Beys de Constantine ...* , P 369 – 372.

(٨٥) الراشدي (أحمد بن سحنون)، *الثغر الجمالي في ابتسام الثغر الوهراني*، تحقيق وتقديم المهدي البوعبدلي، منشورات وزارة التعليم الأصلي، قسنطينة، ١٩٧٣، ص ١٣٨ - ١٣٩.

(86) Mercier (E) , *Histoire de l'Afrique septentrionale* , V III , Paris, 1891 , P 411

(٨٧) الراشدي (أحمد بن سحنون)، *الثغر الجمالي ...*، مص س، ص ١٣٦ - ١٣٨، انظر أيضاً ابن هطال التلمساني (أحمد)، *رحلة محمد الكبير باي الغرب إلى الجنوب الصحراوي الجزائري*، تحقيق وتقديم محمد بن عبد الكريم، القاهرة، ١٩٦٩.

(88) DE Grammont (H.), « Correspondance des consuls d'Alger », Alger 1642 – 1743 , IN , *R A* , T 31 – 33 , Alger 1887 – 1889 , PP 319 – 320 et Mercier , *Histoire de l'Afrique septentrionale*, V III , P 401.

(89) DE Grammont (H.) , *Correspondance des consuls d'Alger* , op . cit , T 31 – 33 , Alger 1887 – 1889 , PP 324 – 330 – 333 – 338 et Mercier , *Histoire de l' Afrique septentrionale* , V III , P 403 – 408 – 412 – 414.

(90) DE Grammont (H.), « Correspondance des consuls d'Alger », op . cit , PP 322 – 323.

(٩١) الزهار (الحاج أحمد الشريف)، *مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب أشرف الجزائر*، تحقيق أحمد توفيق المدني، الجزائر، ١٩٧٤، ص ٥١ - ٥٢ انظر أيضاً دوغرامون، *مراسلات ...* ص ٣٧٤.

(92) DE Grammont (H.), « Correspondance des consuls d'Alger », Alger 1642 – 1743 , IN , *R A* , T 31 – 33 , Alger 1887 – 1889 , PP 351.

(93) Ibid , PP 347 – 354 – 358.

(٩٤) الراشدي (أحمد بن سحنون)، *الثغر الجمالي ...*، مص س، ص ٣١٤ - ٣١٥.

(95) DE Grammont (H.), « Correspondance des consuls d'Alger », op . cit , P 351.

(96) Vaysettes (E), « Histoire de constantine sous la domination Turque , de 1517 à 1837 », in *recueil des notices et mémoires*

- (126) Ibid , P 514
- (127) Mercier (E), *Ibidem* , PP, 521 – 522 et:
- Vaysettes (E), *Histoire de Constantine sous la domination Turque*, PP.586 – 595.
- انظر أيضًا: العنتري (محمد الصالح بن)، **تاريخ قسنطينة، فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها....**، مص مذكور، ص. ٩٠ – ٩٢.
- (١٠٩) المسلم (ابن عبد القادر)، **أنيس الغريب والمسافر....**، مص س، ص. ١١.
- (١١٠) كلفت الدول الأوروبية المشاركة في مؤتمر فيانا أنقلترا بابلغ مقررات المؤتمر إلى دول شمال إفريقيا منها الجزائر والتي أسندت المهمة إلى قائد أسطولها اللورد اكسماوث وتتعلق الشروط بوجود كف دول شمال إفريقيا عن إستعباد الأسرى الأوروبيين الذين يقعون في قبضتها ووجوب وضع حد لتصرفات قراصنتها:
- Mercier (E) , *Histoire de l'Afrique Septentrionale*, Vol III, op.cit, p. 491 – 492.
- (١١١) التميمي (عبد الجليل)، مغامرة الحماية التونسية على وهران سنة ١٨٣١، **المجلة التاريخية المغربية**، عدد ٥، تونس، ١٩٧٦، ص ص ٢٤٠ – ٢٤١.
- (١١٢) شالير (وليم)، **مذكرات ولیم شالير**، تعريب وتقديم إسماعيل العربي، الجزائر، ١٩٨٢، ص ١٤٦ – ١٤٨.
- (113) DE Grammont (H.), «Correspondance des consuls d'Alger», Alger 1642 – 1743 , IN , **RA** , T 31 – 33 , Alger 1887 – 1889 , PP. 376 – 377.
- (١١٤) الزهار (الحاج أحمد الشريف)، **مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب أشرف الجزائر**، مص س، ص ١٣٤.
- (١١٥) المسلم (ابن عبد القادر)، **أنيس الغريب والمسافر....**، ص ١١ – ١٢.
- (١١٦) العنتري (محمد الصالح بن)، **تاريخ قسنطينة، فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها....**، ص ٨٣ – ٨٥ والهامش ٦٦.
- (١١٧) قنان (جمال)، **نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث ١٥٠٠ – ١٨٣٠**، الجزائر، ١٩٨٧، ص ٢٠٨ – ٢١٢.
- (118) DE Grammont (H.), «Correspondance des consuls d'Alger», Alger 1642 – 1743 , IN , **RA** , T 31 – 33 , Alger 1887 – 1889 , PP.382.
- (١١٩) سعيدوني (ناصر الدين)، **النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني ١٧٩٢ – ١٨٣٠**، الجزائر، ١٩٨٥، ص ٤٧ – ٤٩ – ٦٠ – ٦١ – ٦٨ – ٦٩.
- (١٢٠) التيجانيون هم أتباع سيدي أحمد التيجاني مؤسس الطريقة التيجانية الذي ولد في عين ماضي سنة ١٧٣٧ وتوفي بفاس سنة ١٨١٤.
- (١٢١) الزهار (الحاج أحمد الشريف)، **مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب أشرف الجزائر**، مص س، ص. ١٥.
- (122) FEDERMANN (H) et AUCAPITAINE, «Notice sur l'histoire et l'administration du Bey lik de Ttteri» , IN , **RA** , T11 , Alger 1867 , PP 297 – 302.
- (١٢٣) العنتري (محمد الصالح بن)، **تاريخ قسنطينة، فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها....**، مص س، ص ٧٦. انظر أيضًا:
- Mercier (E) , *Histoire de l'Afrique Septentrionale*, Vol III, op.cit, PP. 505 – 509.
- (124) Feraud (CH), «Les Hrar, Seigneurs des Hanancha», in **R** , **A** , T 18, Alger, 1874 , P. 362 – 365.
- (125) Mercier (E), op.cit , PP. 510 – 511.

قبيلة حودران بين الارتحال والاستقرار

علاقة القبيلة بالمخزن (١٨٥٠ – ١٩٥٦م)

د. عبد السلام بحاج

باحث في التاريخ الاجتماعي والديني
الأكاديمية الجهوية لمهن التربية والتكوين
الرباط – المملكة المغربية



ملخص

تهدف هذه الدراسة إلى دراسة تاريخ قبيلة حودران، إحدى قبائل كوندالية زمور، التي تقع شمال غرب المغرب. تعرض الدراسة التحولات التاريخية لهذه القبيلة، خاصة في القرن التاسع عشر، حيث انتقلت من منطقة أعالي وادي بهت إلى الأراضي التي تستقر فيها حالياً في شمال غرب المغرب. يتم التركيز على دور قبيلة حودران في النزاع على الأرض بين القبائل المختلفة، وبين القبائل والمخزن السلطاني. كما تعرض الدراسة تطور الحركة السلطانية في المنطقة، مروراً بمحلات سلطانية كانت تهدف إلى فرض السيطرة وجمع الإتاوات من القبائل المتمردة. تناقش الدراسة أيضاً أصل وتسمية "حودران"، مشيرة إلى عدة تفسيرات لغوية ترتبط بموقعهم الجغرافي. كما تسلط الضوء على تنظيم قبيلة حودران، التي تتكون من عدة فرق وعائلات ذات روابط دموية، وتهتم بأشكال السكن التقليدي من خلال الخيام المنسوجة من شعر الماعز وصوف الغنم. تُعد الزربية الزمورية أحد أبرز عناصر التراث الفني لدى قبيلة حودران، والتي تمثل جزءاً من ثقافتهم المحلية. كما تستعرض الدراسة الأنشطة الاقتصادية للقبيلة قبل وبعد الاستعمار، مشيرة إلى تحول المنطقة إلى مستعمرة فلاحية مع إحداث الضيعات الزراعية التي خصصها المستعمر لزراعة القمح والعب، وتأثير هذا التحول على أنماط حياة القبيلة. أخيراً، تناقش الدراسة تأثير الحروب الداخلية والحركات السلطانية على الحياة اليومية لسكان حودران، مؤكدة أن تاريخ هذه القبيلة يمثل جزءاً أساسياً من تاريخ المنطقة.

كلمات مفتاحية:

زمور؛ حودران؛ زناتة؛ المخزن؛ الحركة السلطانية

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٣١ مايو ٢٠٢٥
تاريخ قبول النشر: ٠٢ يوليو ٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.466901

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

عبد السلام بحاج، "قبيلة حودران بين الارتحال والاستقرار: علاقة القبيلة بالمخزن (١٨٥٠ – ١٩٥٦م)". - دورية كان التاريخية. - السنة الثامنة عشرة - العدد الثالث والسبعون: نوفمبر ٢٠٢٥. ص ١٣٣ – ١٤٩.



X, formerly Twitter: <http://X.com/kanhistorique>

Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>

Facebook Group: <https://www.facebook.com/groups/kanhistorique>

Corresponding author: assoubahaj2012@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في دورية كان ٤.٠ Creative Commons Attribution International License (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

تستدعي هذه الدراسة التي خصصناها للتعرف على تاريخ قبيلة حودران منذ بداية القرن التاسع عشر. اعتماد مجموعة من المواد المصدرة، منها الرواية الشفوية والمصادر المكتوبة واللقى الأثرية. سعياً منا لمحاولة سد البياضات التي يطرحها تاريخ مجتمع شفوي.

وبناءً على ما سبق، تعتبر الرواية الشفوية مصدراً من مصادر تدوين تاريخ القبائل في غياب أو ندرة المصادر المكتوبة. والرواية الشفوية هي الأخبار المتواترة عن الأحداث، التي وقعت في الماضي. ولا نجدها في المدونات المكتوبة. وفي ظل غياب التدوين يشكل هذا المصدر الذاكرة الجماعية للقبائل. ويندرج ضمن الحكايات، والأساطير، والأمثال، وغيرها. ونجد بعض الأشخاص رجالاً ونساءً، يتمتعون بذاكرة قوية وبمهارات الحكي، متخصصون في هذه الوظيفة. يمكن اعتبارهم مؤرخين تقليديين أو إخباريين.

والرواية الشفوية تكمل النصوص والوثائق المكتوبة والمادية كالصور والمعمار... وتغني الذاكرة الجماعية، وتهتم بتاريخ الأعيان والعامّة والمهمشين. رغم أنها تطرح عدة إشكالات منها قضية الذاتية والموضوعية، حيث يرى جرمان عياش أن الرواية الشفوية يستعملها المؤرخ لا لكي يثبت الأحداث كما وقعت، وإنما ليتعرف على الصورة العالقة في أذهان الناس إزاء هذه الأحداث. وهذا ما دفع بجوزيف كزربو ليشترط تعزيزها بمصدر آخر^(١). ولهذا يجب جمعها واستغلالها باستعمال اللسانيات وإخضاعها لنقد تاريخي موضوعي. وهذا يتطلب تكويناً علمياً هاماً، يتجاوز إمكانات المؤرخ لوحده. فهي أقرب إلى الأحداث كما جرت، وتظل مصدراً أساسياً لكتابة التاريخ.

وسنعمل على البحث في أصل كلمة حودران من خلال الاعتماد على مجموعة من القواميس المتخصصة في اللغة الأمازيغية وعلى المصادر المكتوبة والشفوية. إننا نعمل على إنجاز مونوغرافية مجال ترابي وجغرافي محدود، لكن كان له تأثيره إيجاباً وسلباً في سياسة

المخزن، خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

١- في معنى كلمة حودران

استشرنا المعجم العربي الأمازيغي لمحمد شفيق، فوجدنا أن أقرب كلمة يمكن أن نشق منها هذه الكلمة في الأمازيغية هي: أدرار أي الجبل وساكن الجبل يدعى أبودرار^(٢)، وتجمع على إبودران. وقد انتقلوا من قمم الجبال إلى المنحدرات والبساتط (تكريكا)، ونزل من الأعلى إلى الأسفل في الأمازيغية (إحودر أي انحنى ونزل). والمثل الشائع لدى القبائل المجاورة يقول: "إحودران إبودران ... أي إبودران. ويرجع سي أحمد بوبية كلمة "إحودران" إلى الفعل الأمازيغي "إحودر" أي انحنى. فيقول "فلعل المعنى يرجع إلى الموقع الجغرافي للقبيلة... فهي تتكون من هضاب تكثر بها الانحناءات حتى تكاد تكون سهلاً، ثم تأخذ في الصعود"^(٣). ويتواتر عند قبائل زمور أن أيت أوربيل في حريهم ضد حودران يقولون: "حودر أوزكري أك أد وثخ أحودري huder a uzbekri ak ad uwtax ahudrri أي: "نحن يا أوزكري (كناية على الانتماء لأيت زكري) لكي أصوب الرصاصة للحودراني"^(٤). وعموماً فإن ما ذهبنا إليه وما أشار إليه بوبية يرجع أصله للطوبونيميا والجغرافيا.

تعتبر فرقة أيت يزي هي مركز قيادة حودران بأسرها. وكلمة "تزي" تعني المارة التي تفرز المرة (بكسر الميم)، وقد تكون مشتقة "تزي" Izriy ومعناها الشيخ وهو نبات، تمتاز به السهوب الشرقية موطن زناتة، ونحن نعلم أن أيت يزي تتحدر من زناتة. ونزولهم في وقت متأخر. أي في بداية القرن التاسع عشر- إلى بساتط هضاب ضاية رومي، هو ما أعطى لهذه القبيلة بفروعها اسم حودران. أي أنهم لما نزلوا من مرتفعات أيت جبل الدوم إلى بساتط ضاية رومي.

٢- الأصول

ترجع الروايات الشفوية أصولها إلى منطقة الجنوب الشرقي (خصوصاً أيت عمو فرع القائد بوعزة) ويؤكد مارسيل لين هذا^(٥). وهي قبيلة كانت تعيش على الرعي واقتصاد الغزو، والنهب والسرقة بدرجة أساسية. انتقلت رفقة قبائل أخرى إلى المنطقة بحثاً عن الكلاً

(عاري وُعياش). وإجانتن مروا من وادي فلات Fellate من روافد أم الربيع^(١٥).

٣- نزول أيت يزي إجانتن من أيت جيل الدوم إلى بسائط منطقة ضاية رومي

بعد مجاعة عرفتها منطقة ضاية الرومي القلب النابض لمنطقة زمور، سنوات ١٨٤٧ - ١٨٥١، حيث المحاصيل الزراعية لسنتي ١٨٤٥ و ١٨٤٦ كانت ضعيفة، مما اضطر معه الناس إلى إخراج مخزون المطامير واستهلاكه^(١٦). كما تميزت سنة ١٨٤٧ بجفاف تسبب في ضعف المحصول وتقشي الغلاء في الأسواق. فحل الفقر الذي جلب معه المجاعة^(١٧). فخرج القرويون يبحثون عن الجذور ليقننوا عليها فمات منهم عدد كبير. كما كان محصول سنتي ١٨٤٨ و ١٨٤٩ ضعيف فاستمرت المجاعة. وكانت سنة ١٨٥٠ سنة جفاف تام. فارتفعت الأسعار وزادت حدة المجاعة. وسمي هذا العام بعام الخبيزي وايرني^(١٨). واشتد الجوع "حتى أكل الناس الحشيش والربيع والنبات ... ومات جل الناس بالجوع"^(١٩). وهكذا اضطر المالكون الأصليون، وهم أيت بلقاسم وأيت علي ولحسن للتحرك نحو الغرب ويبيعون أراضيهم لوافدين أجانب عن المنطقة وهم إجانتن وأيت يزي^(٢٠). وهما قبيلتان تتحدران من قبائل زناته. كما يدل على ذلك اسم "إجانتن" فقد تم تحريف الزاي جيما ويقول ابن خلدون في العبر "أما نسبهم بين البربر فلا خلاف بين نسبتهم أنهم من ولد شانا وإليه نسبهم، وأما شانا فقال أبو محمد بن حزم في كتاب الجمهرة قال بعضهم هو جانا بن يحيى بن صولات بن ورمالك بن ضرى بن رحيك بن مدغيس بن بربر بن همرحق بن كراد بن مازيغ...^(٢١)". ويضيف "وزناته هو جانا بن يحيى بن ضريس"^(٢٢). وقال في مكان سابق: "هؤلاء البطون من بطون البرابرة البتر من ولد سمكن بن يحيى بن ضرى بن زحيك بن مادغيس الأبر، وأقرب ما إليهم من البرابر زناته لأن أباهم جانا هو أخو سمكن بن أبيه فلذلك كانوا ذوي قرى لهم"^(٢٣). ويؤكد ابن خلدون أنهم من البربر، ويفند انتسابهم للعرب، فادعاهم لذلك كان من باب الترفع عن النسب البربري، لأنه كان في ذاك العهد معرضا للاستعباد والجباية. وهكذا يشير ابن خلدون في

والماء، في إطار حركية القبائل من المناطق الجافة إلى المناطق الرطبة. وهي حركية طبعت تاريخ المغرب وشمال إفريقيا منذ الفترة القديمة. تتم الحركة في إطار جماعات صغرى أو كبرى أو كأفراد في اتجاه المناطق الخصبة^(٢٤). نظرا لضيق مجال الانتجاع في المناطق الشبه جافة وندرة المياه^(٢٥). ويرى إيميل لاوست أن نمط الخيمة الموجودة عند الزموريين ترجع أصولها للمناطق الشبه صحراوية والصحراوية^(٢٦)، وأن أصول هذه القبائل تعود لزناته، التي كانت ترحل بين الصحراء والساحل المتوسطي. والخيمة تستمد وجودها من انعدام الاستقرار الدائم، والتثقل بغرض الانتجاع أو لظروف الحرب والنزاع. ويعطي التحليل الكولونيالي للنسيج الاجتماعي للقبيلة، ويعرفها كمجموعة إنسانية تحمل الإحساس بالانتماء لجد مشترك^(٢٧). مع ما يستلزمه ذلك من امتلاك مجال لممارسة الأنشطة الاقتصادية والرعي والحرب. فالمجموعات البشرية في البوادي البربرية تتسم باللاتجانس الذي يعد عاملاً أساسياً في تكوين هويتها^(٢٨). فهي ترجع لأصول مختلفة وتقتطن تراباً مشتركاً. فالمجال الذي تقطنه زمور بين مرتفعات الأطلس المتوسط لزيان وغابة المعمورة "وكان الشعوب التي سكنت هذا المجال قديماً، مجرد عابر سبيل لم يكثر أثراً لا على الأرض، ولا على التركيبة الإثنية للسكانة الحالية"^(٢٩). وهذا رأي يفترق للدقة فالمجال الزموري يحمل أثراً تعود لألاف السنين.

وتوجد بعض الإشارات تتعلق بقبيلتي حودران وأيت حكم، تجعل مارسيل لين يفترض أن زمور مرت من الأطلس الكبير، غرب جبل العياشي عبر فج تونفيت^(٣٠). ويشير كذلك أن أيت بوشليفن فرع من حودران، كانت تقطن منطقة أسيف ملول التي تربط بين ملوية وحوض زيز. مرت أيت بوشليفن من تيزي ن ساف ثم عبر أكوديم Agoudim على الحوض الأعلى لوادي أنسكمير^(٣١) Ansegrim. ثم استقروا في أغبالو نسردان فنزلوا لخيفرة ثم إلى ألكموس قرب سهل مانت (نجد حالياً اسما عائلياً في أيت بوشليفن يدعى مانتا) Ment^(٣٢).

ويذكر أن أيت عياش وهي فرع من حودران، يقطنون مرتفعات ضاية رومي. أنهم كانوا يسكنون جبل العياشي

القرن الثامن عشر، عندما بدأت حودران تنزل من الجبل. ففي هذه المعركة فقدت أحد فروعها عشرون شخصا وفرع آخر أربعون شخصا. وعقب المعركة أشعلوا النيران ليلا، ليوهموا العدو بقدوم محاربين جدد فهربت بني احسن وتركت المكان^(٣١). ونجد بعض الأصول العائلية في كناش الحالة المدنية لبعض سكان ايت يزي، ترجع لأيت جبل الدوم حاليا. وفي سنة ١٨٥٠ كانت هاتان الفرقتان من قبيلة حودران تستوطنان المجال الترابي، الذي تقطنانه اليوم.

وتجمع وثيقة مخزنية، صدرت في عهد المولى الحسن سنة ١٨٩٠^(٣٢)، وهي تحصي فرق قبائل زمور من حيث عدد الرماة والخيول والخيام. فبعد أن قسمتها إلى أربع. جمعت في ربع حودران ما يلي:

حدران	أقسام	عدد الخيام
	أيت سيبر العرب	٢٠٠
	أيت سيبر الشلوح	٤٠٠
	أيت ميمون	٤٠٠
	أيت ريعين	٥٠٠
	أيت عشرين	٦٠٠

وتضيف الوثيقة:

حدران	خيل	رماة
	٦٠٠	١٥٠٠

نستخلص من الوثيقة أن المخزن كان يجمع بين حودران وأيت جبل الدوم في ربع واحد. وهذا ما يدل على تقاربهم في الأصول. ويعضد هذا كلام مارسيل لين، الذي يقول بنزوح أيت عشرين من حلف أيت جبل الدوم. كما تعطينا فكرة عن عدد الخيام التي يبلغ عددها ١١٠٠ خيمة، إذا ما قمنا بفصل أيت سيبر وأيت ميمون من حلف حودران. وإذا ما اعتمدنا متوسط عدد أفراد الخيمة الذي قال به لوكي Luguay^(٣٣) أي ٧ أشخاص، فسيكون عدد ساكنة القبيلة في نهاية القرن التاسع عشر ٧٧٠٠ نسمة. أي ١١ بالمائة من ساكنة زمور الذي قدره لوكي بسبعين ألف نسمة. بينما يعتبر الدليل الأبجدي الذي جرد الكونفدراليات القبلية والقبائل

النصين السابقين إلى اسم "جانا" أو "أجانا" بالأمازيغية الذي يجمع على "إجانثن" وهم من زناتة وهو اسم لا يعرف العرب معناه حسب ابن خلدون^(٣٤). فزناتة من "صيغة جانا التي هي اسم أبي الجيل كله وهو جانا بن يحيى المذكور"^(٣٥). ويقول صاحب الحلل البهية: "فتكون نسبة زناتة إلى الجد المذكور... الذي اسم أبي الجيل كله كما لابن خلدون، وهو جانا بن يحيى بن صولات بن وارماك بن ضرى بن بن زحيك بن مادغيس بن بربر. وهم إذا أرادوا الجنس في التعميم ألحقوا بالاسم المفرد تاء، فقالوا جانات، وإذا أرادوا التعميم زادوا النون مع النون تاء فصار جاناتن"^(٣٦) وبهذا تكون كلمة "إجانثن" هي الأصل وزناتة هي تحريف عربي لها.

ويرى السيد مولود أن إجانثن من الأمازيغ البتر. ينحدرون من الجد الأعلى المسمى أجانا الذي عاش في جنوب المغرب^(٣٧). أو كما سما التقي العلوي "جانات بن يحيى بن ضريس الجد الأعلى لزناتة"^(٣٨). وهو نفس النسب الذي أعطاه لهم ابن خلدون^(٣٩). ويظهر من خلال تحليل التركيبة الحالية لأيت يزي، أنه لم يتم ترحيل كل الساكنة التي كانت مستقرة هنا قبل قدوم أيت يزي وإجانثن. حيث نجد فخدة لا تزال تحمل اسم أيت علي ولحسن في مكان يسمى بوجهين على وادي تانوبرت، وهي فرع من أيت علي ولحسن التابعة لبني عمرو، وإلى حدود بداية الألفية الثالثة لا يزال يقام موسم ولي يدعى سيدي عمرو.

وهذا الاستقرار أو الاستيلاء على الأراضي تم قبل فترة حكم مولاي عبدالرحمان. كما يشير إلى ذلك مارسيل لين، حيث أن عبدا يسمى "سعيد العبد" سرق وهو صغير في منطقة دكالة، وجلب إلى إجانثان واشتراه الشيخ قسو ولد الحاج (قسو والحاج)^(٤٠).

ونزوحهم لمنطقة ضاية رومي، يرجع - حسب مارسيل لسن - إلى انقسامات تقع باستمرار في قبائل زمور. فأيت يزي وإجانثن كانتا في الماضي جزءا من أيت جبل الدوم. انفصلتا عنهم والتحقتا بحودران. وهما قبيلتان تنتميان إلى أيت عشرين. لأنهم وقع منهم عشرون قتيلا، في معركة ضد بني احسن في تافودايت. ومصدر هذه الرواية حسب لين دائما هو قائد أيت زكري إدريس بن شهبون سنة ١٩٤٩. وهذه المعركة وقعت في نهاية

وهو يشكل لحمة أقوى من لحمة القبيلة نفسها^(٤٠). وينقسم كل "عظم" إلى خيام (أخامن) من عشرة إلى عشرين خيمة^(٤١). ويضم "العظم" /إغص" أحيانا عائلات أو أفرادا منحدرين من قبائل أخرى "ويندمج الأفراد الغرباء في المجموعة الأولية بذبح أضحية على مجموع أفرادها أو على فرد واحد"^(٤٢). ويذهب كوتيي Gautier أن العشيرة التي تبنى على صلات الدم، هي "امتداد لروح العائلة وكبرياء جنس ويتعلق الأمر بالدم لا بالأرض"^(٤٣). لذلك كانت القبائل في تحركاتها على المجال، تحتفظ بهوية الاسم ولا تتعلق كثيرا بالأرض.

والأسرة ممتدة تقطن في خيمة من شعر الماعز وصوف الغنم ومن الدوم، تسجها النساء وهي عبارة عن "إفليجن"، وتتكون الخيمة المتوسطة من ٧ إفليجن والكبرى تصل إلى ١٢ أفليج، ترفع الخيمة بركيزتين (ترسال) تحملان عمودا أفقيا يسمى الحمار (أحمار)^(٤٤). ويتكون أثاث المطبخ من رحى لطحن الحبوب (شسيرت) وصحون من الطين وأواني طينية للطبخ. وحصير من الدوم وزرابي من الصوف. وتتكون الخيمة غالبا من الجد والجدة والأبناء المتزوجين والأحفاد "نميل إلى القول بأن الأسرة المكونة من عدة إخوة أو أبناء أعمام متزوجين، مشتركين في استغلال ملكية غير منقسمة هي السائدة... في مجموع المغرب القروي في القرون الماضية"^(٤٥). وبالنسبة لخيام الأعيان، كانت تضم أيضاً بعض الناس البؤساء، يعيشون في كنف خيامهم، سواء كانوا فقراء، يعملون مقابل لقمة العيش، أو خدم أجراء أو عبيد يعيشون في ظروف حسنة. فإذا كانت الأمة تعاشر سيدها الزموري وأنجبت منه طفلا، ينسب إلى أبيه وتكون له نفس الحقوق مثله مثل إخوته^(٤٦). ثم تأتي الفخدة التي تتكون من مجموعة من الدواوير (إسونن)، ومجموع الأفخاذ هي التي تشكل القبيلة^(٤٧).

إن التحالف المشكل من الأسفل إلى الأعلى، من الخيمة للوصول إلى القبيلة، يتحول إلى تحالف على المستوى العلوي، وينقسم في سيرورة انشطار وتشظي وانصهار^(٤٨). هذا الصعود من الأسفل إلى الأعلى، هو عبارة عن دوائر لها مركز واحد وأقطار مختلفة المسافة. تتجلى فيها للخيمة والفرد أهمية وظائف الحماية

والفرق القبلية في الإمبراطورية الشريفة الذي أنجز سنة ١٩٣ حودران قبيلة ضمن كونفدرالية قبائل زمور، إلى جانب أيت جبل الدوم (٩٧٢٧ نسمة) وأيت زكري (١٢٩٦٠ نسمة) وبني اعمر (٢٧٢٦٤ نسمة) وأيت يدين (٦٠٠٨ نسمة) ومصفرة (١١٥٣٢ نسمة) وأيت حكم (٨٧٤٥ نسمة)، بينما قدر سكان حودران ب ١٢٤٦١ نسمة) ويصل مجموع سكان قيادة القائد حدو أنداك ٢١٤٦١ نسمة^(٤٩).

بينما قسمت الحماية الفرنسية كونفدرالية زمور إلى خمسة أخماس كبرى وهي: حودران مع بني حكم، وأيت جبل الدوم وبني عمرو ومصفرة وأيت زكري^(٥٠). والخمس جاء ربما من كون زمور تشكل يدا واحدة (أفوس)، واليد تتكون من خمسة أصابع^(٥١). ويرى حسن رشيق أن الخمس عند زمور له دلالة مالية مرتبطة بالجباية والكلف المخزنية، وليست دلالة إثنوغرافية^(٥٢). وهذا الرأي الأخير يبدو وجيها نظرا لدخول فرق لا تنتمي إلى زمور في هذا التقسيم كأيت يدين.

٤- الموقع الجغرافي لقبيلة حودران

تحتل قبيلة حودران شعابا وتلالا في جهتها الجنوبية، تكسوها الغابات الكثيفة. وفي الشمال تقطن "أراضي خصبة تدر عليها الرزق الكثير"^(٥٣). هذه الهضاب والتلال تشقها أنهار وجداول مائية كوادي تانوبرت ووادي أسيفاو. وجدوال مائية كايفر وسهب العنز وعين الحجر وهي من روافد أسيفاو. تحدها شمالاً قبيلة أيت زكري وجنوبا زعير وأيت حكم وزيان وشرقا أيت أوريبيل. وهي تمتاز بأراضيها الخصبة التي تنتج القمح الجيد وبالغابات الشاسعة.

٥- انتظام المجموعات الصغيرة داخل قبيلة حودران

مفهوم القبيلة: يمكن تعريف القبيلة بأنها مجموعة من الفرق أو العائلات (الخيام) التي تجمعها إما رابطة الدم، أي الانحدار من جد مشترك. أو رابطة المصالح المشتركة^(٥٤).

تتكون قبيلة حودران من عدة فرق، والفرقة تنقسم إلى دواوير (أسون)، والدوار يشكل ما يسمى بـ"العظم" (إغص) ikhs الذي يدعي أفراد الانتماء لجد مشترك.

آيت عياش التابعة لأيت يفلمان. ويقدر عدد سكانها بـ ٧٥٦ نسمة سنة ١٩٣٠^(٥٦).

وللإشارة فأيت المجدوب كانوا فرعاً من حودران، ثم اختاروا الانضمام لأيت أوريبيل لأسباب غامضة، منها مقتل القائد حمادي الحدراني في معركة مع أيت أوريبيل.

وفي جهة الجنوب الغربي حيث توجد قرية لمعايز نجد:

أيت بوشليفن: وهي فرقة تعتمد الرعي والزراعة المسقية، نظراً لقربها من غابة الشطبة، ووادي تانوبرت. فأشليف هو وعاء كبير يملأ بالصوف. وربما اشتق منه اسم الفرقة "أيت بوشليفن"^(٥٧). ويعد سكانها سنة ١٩٣٠ بـ ١٢٧٩ نسمة^(٥٨).

أيت شاعو: وفي أراضيهم أقيم مركز لمعايز وكان عدد سكانها سنة ١٩٣٠ يقدر بـ ٨٠٢ نسمة^(٥٩).

لمعاريف: ويقطنون بجوار وادي تانوبرت، وتجاورهم قبيلة زعير. ويقدر عدد سكانها في الثلاثينيات بـ ٧٣٤ نسمة^(٦٠).

وفي الوسط والشمال نجد فرقتي:

أيت يزي: ومن فروعها أيت عمو أيت خلو وأيت علي ولحسن (أيت فاسكا)^(٦١) وأيت علا^(٦٢) وأيت الغازي وكان عدد سكانها يقدر في الثلاثينيات من القرن العشرين بـ ٢٣٦٠ نسمة^(٦٣).

إجانتن: ومن فروعها أيت حسي وأيت قسو، وبأراضيها توجد ضاية رومي ويشقها وادي أسيفاو. وقدر عدد سكانها سنة ١٩٣٠ بـ ٩٥٤ نسمة^(٦٤).

٦- السكن واللباس عند حودران

كان الأسر في قبيلة حودران مثلها مثل باقي أسر زمر خلال القرن التاسع عشر وإلى ما بعد الاستقلال، تسكن في خيام منسوجة من الشعر والصوف والدوم. حيث يصف شارل دوفوكو أثناء عبوره لمنطقة زمر الوضعية قائلاً: "داخل كل خيمة نساء ينسجن لفليج، والتليس والبرنس وترحلت، وهي أغطية متعددة الألوان، أو يفتلن الحصر من الدوم، التي تطرز فيما بعد بصفائر من صوف ذات ألوان زاهية"^(٦٥). وبالنسبة للباس فقد كان بسيطاً " بالنسبة للرجال الأغنياء لا قميص ولا

وتسوية الخلافات العائلية وبين الخيام والعظام والأفخاذ. لتنتهي إلى وجود سلطة عليا على رأس القبيلة كلها. التي يكون من وظائفها حفظ النظام وتسوية النزاعات وإقامة العرف ووضع خطط للحرب والسلم والتحاف مع قبائل الجوار^(٤٩).

وتتكون من الأفخاذ التالية:

أيت يكو: وتقتن هضاباً وجبالاً، تغطيها الغابات الكثيفة. يجاورها من جهة الجنوب قبيلة زيان. وبلغ عدد سكانها سنة ١٩٣٠ حوالي ١٨٧٣ نسمة^(٥٠). وقيمون تحالفاً مقدساً مع فخذة أيت حمو بولمان من أيت جبل الدوم، يقيمون موسماً للقاء بالتناوب، لا يزال يعقد إلى يومنا هذا.

أيت حمو إيدير: وهي فرقة من حودران توجد في الحدود مع أيت أوريبيل. وقدر عدد سكانها في الثلاثينيات بـ ٣٩٥ نسمة^(٥١).

أيت سيدي لحسن: تستوطن منطقة تافودايت المنيع. بعد أن نزلت في السابق بموضع يسمى زمري^(٥٢) التابع لأيت علة أيت يزي. وتافوديت التي وصفها دو فوكو بأنها "سلسلة متوالية من أضلاع وهضاب ترتفع تدريجياً وتحدها شعاب متعددة"^(٥٣) يكسوها الضرو والخروب والصنوبر. وقد مر بها دو فوكو وكانت خالية من السكان سنة ١٨٨٣. مما يدل على أن أيت سيدي لحسن لازالوا في هذا العهد بمنطقة زمري.

أيت حنو عدي ذهبيين: ويعود اسم ذهبيين إلى عقد تحالف تقوم به الفرقة مع فرق أخرى من القبيلة في حالة الحرب، حيث يتم ذبح خروف للفرقة المراد التحالف معها. وفي حالة قبول التحالف يتم إرسال سلهام مع السفراء الذين يحملون الاقتراح.

وهم من آيت الشيخ عمر الزعيم الروحي لحودران^(٥٤)، يقام له موسم سنوي إلى يومنا هذا. كما يقام بأيت حنو عدي مقام الطلبة بسيدي العربي، في مكان يسمى أجيون.

ومنهم أيضاً أيت عفي قدر عدد سكانها سنة ١٩٣٠ بـ ٧٩٤ نسمة^(٥٥)، حيث توجد بحيرتان ملحيتان. وأيت عياش الذين يطلون على ضاية رومي. ويجاورهم من جهة الشمال أيت المجدوب من أيت أوريبيل. وهم فرع من

إن الأنماط الزخرفية للنسج المختلفة مهمة ومختلفة من قبيلة إلى أخرى، مما يجعل هذا الفن التقليدي فسيفساء حقيقية. فالزربية الأمازيغية تقليد عريق في زمر وفي الأطلس المتوسط. وزربية حودران تنتمي إلى هذا النوع، الذي يغطي قبائل زمر وزعير وزيان وايت مكيل وايت نظير وايت سكوكو. والزربية البربرية يمكن أن تحمل ٤٨٠٠٠٠ عقدة في المتر المربع^(٧١). ويعود تاريخ الزربية الأمازيغية إلى عصور ما قبل التاريخ، كما تشهد على ذلك الأنماط الزخرفية التي نجد لها مثيلاً على النقوش الصخرية التي تعود لستة آلاف سنة على الأقل. كما يتم إنتاج الحنبل أيضاً بهذه القبيلة من الصوف الناعم والقطن، قاعدة الألوان حمراء وسمك المنسوج ضعيف بالمقارنة مع الزربية. ويحمل زخارف مستوحاة من الطبيعة ومن الرموز المحلية.

تم عرض الزربية الزمورية والحدورانية خلال الحقبة الاستعمارية، في متحف فاس والرباط اللذين أحدثتهما المستعمر سنة ١٩١٥. كما تم تنظيم معارض للزربية في البيضاء سنة ١٩١٥ وفاس سنة ١٩١٦ والرباط سنة ١٩١٧. كما تم عرض هذه الزربية في جناح مارسان بباريس ما بين سنتي ١٩١٧ و١٩١٩. وفي المعرض الكولونيالي بمارسيلييا سنة ١٩٢٢. حيث تعرف الجمهور الأوروبي عموماً والفرنسي خصوصاً على الفن الأهلي للمغرب^(٧٢).

٧- الأنشطة الاقتصادية

كان سكان المنطقة قبل دخول المستعمر، يعتمدون بالأساس للحصول على الرعي والزراعة البورية، وأيضاً على الصيد واستغلال الغابة بممارسة الانتجاع (العزيب). يرحل بعض أفراد العائلة إلى الغابة في بداية فصل الربيع. كما كانوا يعتمدون على الإغارة والحرب للحصول على الغنائم.

بعد دخول الاستعمار واستقراره بحودران، عمل المقيم العام ليوطي منذ سنة ١٩٢٦ على توطين المعمرين بالمنطقة^(٧٣) عن طريق شراء الأراضي الخصبة أو الاستيلاء عليها، وتكوين ضيعات واسعة، خصصوها لزراعة القمح والعب. وذلك سيرا على خطى السياسة الفرنسية التي تهدف إلى جعل المغرب مخزناً للقمح

سروال وإنما فقط فرجية عادية عليها برنس، أما الفقراء فما لهم إلا البرنس^(٦٦). ويضع الأغنياء فوق رؤوسهم عمامة من قطن أبيض. ويحلق الرجال رؤوسهم ويحفظون بخصلة شعر طويلة فوق الأذن "شبيهة بناظر اليهود"^(٦٧). والنساء يلبسن قطعة ثوب من القطن أو الصوف، يمسكنه بأقراط من الفضة تسمى بالخلال. أو باستخدام عقد على الكتف. وإما رفع الجانب الأعلى للثوب وربطه فوق النهدين، فيبقى الكتفان وأعلى العنق عاريين. وإما بترك الجزء الأسفل من الثوب ينزل فيبقى الجسم عارياً إلى الحزام^(٦٨). ويضعن على رؤوسهن قطعة من الثوب ولا يحتجن.

ترجع أصول الزربية البربرية إلى العصر النيولوتي. هذا التراث الذي حفظه الأمازيغ في الجبال والهضاب والسهول. أغلب أنواع الزربية المغربية هي من أصول بربرية، أنتجت القبايل التي تمارس الرعي والانتجاع. صنعت من صوف الغنم. وهي تشكل أهم أدوات الأثاث في الخيمة البربرية^(٦٩). وهي تحفة فنية تعبر عن أحاسيس وثقافة القبائل. وتعتبر امتداداً أيضاً لنمط الإنتاج الرعوي السائد بهذه المناطق. يتم استغلال الصوف لتحويله إلى منتجات تقليدية تستخدم للاستعمال المحلي وأيضاً للبيع في أسواق المدن مثل فاس ومكناس ومراكش.

تتميز الزربية الزمورية بكونها تنسج على قاعدة ذات لون أحمر. تقطعها زخارف ذات أشكال هندسية بالألوان الأصفر والبرتقالي، والأزرق، والأبيض، والأسود.

تتم عملية نسج الزربية الحدورانية على مستوى من الخيوط العمودية والأفقية والتي تشكل مربعات منتظمة إلى حد ما. وهذا التقاطع يمنح للناسج فرصة التعبير عما يخالجه. ويمنحه حرية أكبر لوضع الرموز التي يريد رسمها: مربعات ومعينات ومستطيلات على قاعدة من اللون الأحمر، مصحوبة بزخارف بالأصفر والأبيض والأسود... وزخارفها هندسية مثل زخارف الزربية البربرية. وتنسج هذه الزربية باليد من صوف الغنم على منسج من الخشب. وتتطلب عملية نسج زربية (أزطا)^(٧٠) من ٢٠ إلى ٣٠ يوماً. وتحمل هذه الزربية الزمورية الحرير الطبيعي على قاعدة من الصوف. مشكلاً زخارف متنوعة ومتسلسلة بشكل عمودي.

٩- الحركات السلطانية المارة من بلاد حودران

تعتبر "الحركة" السلطانية وسيلة من وسائل الردع وضبط المجال - خصوصاً خلال القرن التاسع عشر - وأيضاً لجمع الضرائب والإتاوات من القبائل السائبة. إما بواسطة السلاح أو عن طريق التأثير الشخصي والديني^(٧٨) وإظهار "بركة" السلطان. فهي أداة لفرض السلطة. ففي العادة يقوم السلاطين بعدة أسفار من أجل إخضاع القبائل المتمردة. فالصقر هو الذي يحلق في الأعالي، أما الديك فيحوم حول المنزل ويضطرب بغنائه الدجاجات^(٧٩). حيث كانت المحلة السلطانية تتحرك بشكل دائري، يتوسطها الأفراك (خيمة السلطان) ويحيط به رجال المخزن والجيش وفرسان القبائل المخزنية. حيث يصل شعاع الدائرة إلى ٢٠ كيلومتر^(٨٠). وهكذا يمكننا تصور أن مرور المحلة عندما يمر من حودران، فيمكنها تغطية مجال هذه القبيلة بكامله. وأن يقوم بتمشيط كامل لأرضها واستنزاف خيراتها. لذلك كان الحل الوحيد هو الاستسلام أو الاعتصام بمرتفعات تافوديت وطريوة.

فللذهاب من فاس إلى مراكش أو العكس، ولاختصار الطريق، كان لزاماً على السلطان أن يمر من طريق القبائل السائبة، ومنها زمر^(٨١). وهكذا مرت عدة حركات ومحلات سلطانية، خصوصاً بعد تقسيم السلطان الحسن بن محمد بن عبد الرحمان لزمر إلى ٢٢ قيادة. وتساهم القبائل المخزنية في الحركات السلطانية لمعاينة القبائل السائبة، حيث يقول محمد بن عبد الرحمان إلى أبيه قائلاً: "على أن حركة الأعراب لا تجدي نفعا مع عمالها وكبرائها، فضلاً عنها إذا كانت مع من لا يخشى منه، بل ربما تسببت في هزيمة شنيعة، وقد رأينا ذلك منهم لما توجهنا إلى الغرب، وربطنا على زمر الشلح..."^(٨٢). وهذا يدل على قوة وصلابة قبائل زمر وتمرسها في القتال.

عرفت بلاد حودران مرور عدة حركات سلطانية منها: حركة المحلة السلطانية للمولى الحسن سنة ١٨٨١م، حينما توجه السلطان من فاس إلى مراكش، فحلت

بالنسبة لفرنسا^(٧٤). وقد استوحت هذه السياسة من مقاربة تعتبر المغرب القديم "خزاناً للحبوب" بالنسبة لروما. فوطنت مجموعة من العائلات الفرنسية في البوادي المغربية من بينها حودران. وقد تم تكوين هذه الضيعات ما بين ١٩٢٧ و ١٩٣١.

لكن هذه السياسة توقفت سنة ١٩٣١^(٧٥)، فعمد المعمرون إلى زراعة العنب الذي يستخدم في استخراج الخمر. وتم فتح محل لبيع الخمر في مركز جمعة حودران بجانب مقر البريد الحالي.

تم إصدار مرسوم بالجريدة الرسمية عدد ١١٢٧ بتاريخ ١٥ يونيو ١٩٢٦. يتعلق بالترخيص للشركة الفلاحية زمر بتيداس، باستعمال مياه وادي تانوبرت بمعدل ١٤ لتر في الثانية. في المكان المقابل للمركز العسكري فانسيان Vincien بالمعازيز. وذلك بغرض سقي مزارعات القطن والتبغ على مساحة تقدر ب ٢٥ هكتار. وينص على استعمال محركات لضخ الماء لمدة ٨ ساعات في اليوم.

٨- أمغار أو قائد الحرب

يتم اختيار أمغار أو قائد الحرب، من طرف شخص يتميز بالقوة والشجاعة والكفاءة الحربية. وهم الذين يقودون المعارك^(٧٦). ولا غرابة أن تكون قيادة القبيلة في فخذة أيت يزي، إغص أيت عمو. حيث يتم اختيار قادة الحرب منه. فقد كان الشيخ الغازي هو زعيم حودران وقائد حروبها، وكذلك حفيده القائد حدو بن بوعزة الغازي. وهذه العائلة قدمت حياة قائدها في ساحة الحرب، ضد أيت أوريبيل، ويتعلق الأمر بالقائد حمادي بن حدو الغازي. وبحاج بن بوعزة الذي توفي برصاصة بقيت في جسمه لمدة طويلة.

ومن أسباب اندلاع الحرب بين القبائل، عدم احترام شروط المزارك، أو رفض إرجاع المسروق، أو الثأر لقتيل... وعند الرغبة في إيقاف الحرب يتدخل أحد الأعيان ممن يملكون الاحترام والوقار، أو يلتجأ الطرف الضعيف الذي يرغب في السلم إلى فرقة محايدة للتدخل. وفي حالة قبول السلم، يقدم هذا الطرف الذبيحة^(٧٧).

"محلته بزمور ثم عند زعير التي اجتاحتها"^(٨٣). فلمباغثة قبيلة زعير وتأديبها، كان لزاما عليه أن يسلك طريق ضاية رومي ومركز حودران ثم لمعايز.

حركة المولى الحسن سنة ١٨٧٧م وقد مرت من أربعاء وادي بهت والخميسات وضاية الرومي وتبعث طريق واد أسيفاو وكانت يحمها الفرسان الذين يمرون على الهضاب المطلة على حوض الوادي، في عهد القائد علي بن حدو الذي كان يستقر على الضفة اليسرى للوادي. ووصلت لعبابو والطويجن بأيت حكم ثم عرجت على المعازيز بحودران^(٨٤). يقول ابن زيدان: "ولما كانت سنة أربع وتسعين ومائتين وألف نهض المترجم من مكناش ووجهته مراكش فخيم بسبع عيون، ومنها إلى عين عرمة، ومنها إلى أمحصى، ومن ثمَّ إلى اربعاء بهت، ومنها إلى الخميسات، ومن ثم إلى ضاية رومي، ومنها لعبابو، ومنه على الطويجن ثم لتيداس من بنى حكم"^(٨٥). وقد نظم الشعراء المرافقين لهذه الحركة مراحلها ووصف وقائعها ومشاهدها فقال:

مراحلنا للحوز أندية زهر
ورائدتها في الفتح يصحبه النصر
هو الطالع الميمون لاحت سعوده
بأفلاك عز دونها الشمس والبدر
منازل من سبع العيون تعدها
حماة لدين الله والبيض والسمر
وجيش لهام حيث زمر أذعنوا
إلى سيدي من أمره الجبر والكسر
وأعطوا يد الطاعات في عين عرمة
وما لهم في ذاك نقض ولا غدر
وأقدمنا عون الإله وحوله
لأمحص من جرعائه المورد الغمر
أقمنا به يوماً مقام كرامة
فجاج بنا للأربعا الزمن النضر
منازل مولانا اللواتي تشوقت
إليه كما يشتاقه النيل والقصر
هو القصر منصور بطلعة سيدي
فما إن له عنها يقر به صبر
يباكره فوح العبير ونشره
ويهدى له أنفاس أراجيه الزهر

منازل مولانا بفسطاطه الذي
سراذقه أمن وأطنا به خير
معرج بهت من تسلسل ماؤه
رضابا كأن قد شابه الذهب التبر
فأزعم منها السير مالك رقنا
وعسكره الساطى وجحفله المجر
يصك به الأعداء صكا وبأسه
مهنده زرق مطاعنها حمر
فخيم في الخميسات فأصبحت
وما لمجال المجرمين بها ذكر
وما لج في تلك التناثف صائل
ولا زعر إلا وحق به المكر
أباد وعفى بغيهم وعنادهم
وأرهبهم من بطشه الخوف والذعر
فأنهضه التأييد حتى استوى على
أعز بلاد عندهم وهم كثر
لضاية رومي والسلامة ردؤه
وحاجاته حمت وقد قضى الأمر
فطورا بترغيب يسوس وتارة
بترهيب فتاك يدين له الدهر
وحاول في أعباب تتميم رشدهم
فتم بتداس له ونما الأجر
ولما أجزنا بالطويخي هياؤا
هداياهم فيها المحجلة الغر
فننفذ حكماً عادلاً في فريقهم
بنى حكم من حلمه عنهم ستر
ثمال اليتامى عصمة لأرامل
براحته طى المحارب والنشر
فجاءوا حفاة صاغرين أذلة
ولم يأوهم طود ولم يحمهم وعر
وأدوا حقوق المسلمين فما ونى
غشومهم عنها ولا الصالح البر
مراحل للأملاك أسلافه الألى
لهم بأبى السبطين قد ثبت الفخر
هم نسخوا عز المعازيز بالظبا
وما آدهم نجد بعيد ولا غور

فأحيا أمير المؤمنين سبيلهم
كما كان، بل قد فاقهم ذلك الصقر
إمام على الدين الحنيفى قابض
فإرضاءه ربح وإسقاطه خسر
إمام له في كل شيء فراسة
هي الحق والعلم اللدن والسر
إمام فحدث عن شمائله التي
بها انفسحت في الغرب دولته البكر
هو الحسن المنصور لذ بركابه
وإن غال من أعدائك الهتر والمتر^(٨٦)

وهي قصيدة طويلة، يمجّد فيها الشعراء السلطان. ويذكرون قوته وبطشه بالقبائل السائبة التي مرت منها المحلة. ومنها الخميسات التي ضرب فيها الخيام. ففر الفرسان والمحاربون، الذين وصفوا بالمجرمين. فلما دخل أرض زمور مر أربعاء وادي بهت، الذي كان يقام في ذلك العهد على الضفة اليسرى للنهر، أي بأرض قبليين، وليس بالمكان الذي يوجد به اليوم، التابع لأيت سيبرن. وهذا يستخلص من كلام شارل دو فوكو الذي صرح بجواز الوادي لما ذهب لسوق الثلاثاء بالخميسات. ولكنه لما عاد في الغد عبر طريق "القرادات" قاصدا تافودايت. قال بأنه يصعب الحصول اليوم على زطاط، لأن الرجال منشغلون اليوم في سوق الأربعاء. فلما واصل طريقه قطع واد أورجليم نواحي برجلين فقط.

ثم مر السلطان بالخميسات عبر طريق ما يغرف اليوم عند السكان بـ"القرادات" وأقام بها وقطع دابر الفتن بها. ونزل صوب حودران واستولى على أعز بلاد عندهم وأفضلها وهي ضاية رومي. التي استراح حول ضفافها مستعملا تارة الترغيب وتارة أخرى التهيب لإخضاع أهلها. ثم اتبع طريقه مكتسحا أراضي إجانتن وآيت عمو وقطع وادي أسيغاو ثم تانوبرت، يقتضي آثار الفارين ليصل إلى موضع يسمى اعبابو ومر بغابة الشطبة. لكي يتم مهمته فتم له ذلك ودخل تيداس. فجاءه بنو حكم صاغرین حفاة لكي يؤدوا الإتاوات ويطلبوا العفو.

فخرج على لمعايزيز ذات الأراضي المنبسطة والمياه الوفيرة التي تتساب على سطح الأرض. والتي تمرح في غاباتها ومروجها الطبا، وتتعم أرضها بالخيرات. حركة ١٨٨٩ حيث انطلقت من مكناس ومر بأربعاء واد بهت ثم ضاية رومي، ومرت بسيدي علال البحراوي لتصل إلى الرباط.

في يوم الإثنين ١٣ ذو القعدة (١٣٠٨هـ / ١٨٩١م) كما يشير إلى ذلك الضابط الإنجليزي^(٨٧). حيث خرج السلطان من مكناسة "وخيم بالمحل المعروف بدار أم السلطان، ومن ثم لعين عرمة فأربعاء وادي بهت فولجة العكارى فضاية رومي، فتفلت فسيدي علال البحراوي فالعرجات فقرميم، ثم رباط الفتح^(٨٨) فقبولة فسيدي يَحْيَى من بلاد زعير ففدان الناموس فبزار فأبو الضراضر فعويد الماء فالكيسان فصخرة الدجاجة من بلاد ورديفة فبيار امزوى فسيدي محمد البصير من بلاد بنى زمور".^(٨٩) خلال هذه الحركة قامت مجموعة من زمور بسجن مجموعة من رجال السلطة المكلفين بسقي الماء، وغنموا عددا من البغال. فأرسل السلطان قوة، تتكون من ٣٠٠٠ إلى ٤٠٠٠ رجل لعقاب فرقة من زمور^(٩٠). حيث فر ومور إلى الجبال والأوعار. وكان ذلك في شهر شتبر من نفس السنة. فخلال هذه الحركة تسلسل زموري وتخطى الخط الدفاعي للحركة وقطع عشرة آلاف من الأمتار في الميدان المفتوح، ووصل إلى خيمة الضابط إنكليفييلد والقائد ماكلان. وامتنى أحد خيول القائد وفر هاربا في السهل. وصعد مرتفعا قبل أن يدخل الغابة دون أن يستطيع أحد إيقافه^(٩١).

حملة سنة (١٣٠٧هـ / ١٨٩٤م) حيث تقول رسالة أحمد موسى بن أحمد إلى عمال وقواد زمور: "أحببتنا وخدام سيدنا الأرضين كافة عمال زمور... وبعد فحملته الواردون عليكم بهذا قد وجههم مولانا لاختبار طريق الحملة السعيدة من مكناسة الزيتون إلى رباط الفتح، فليقف كل واحد منكم في ترابه فيما يتوقفون عليه من مؤونة وعلفا، وتوجيه من يصاحبهم من أهل البلد لتعرفهم بالطريق، حتى يقضوا الغرض المذكور ويرجعوا ولا بد، عن أمر مولانا أعزه الله، وعلى المحبة والسلام.

في ١٦ شوال ١٣٠٧ هـ

أحمد موسى بن أحمد^(٩٢).

وكانت هذه الحركات تثقل كاهل القبائل التي تمر منها إذ يصل عدد المشاركين فيها ٦٠٠ رجل "... وأما الحركة إن كانت للغرب أو الحوز، فعددها محصور في ستمائة رجل... وأما راتب الحركة فهو محصور في ستين ريالاً للفارس وثلاثين ريالاً للراجل... وأما زاد العمال فألف ريال..."^(١٠٠).

خاتمة

لا يمكن تتبع ورصد تاريخ المغرب، دون الإحاطة الشاملة بتاريخ القبائل والتجمعات البشرية التي استوطنت هذا المجال عبر التاريخ. ولهذا فإن تاريخ حودران يعتبر حلقة ضمن سلسلة كبيرة من الأحداث التاريخية، التي تخلد لذكريات تحرك القبائل على المجال على الأقل منذ الألف السادسة قبل الميلاد. وهذا يظهر من خلال الرموز التي تظهر على النسيج كالزربية. وأيضاً على الوشم المنقوش على أجساد النساء. وباختصار إنه نبش في تاريخ المهمشين.

فالمقصود من نص الرسالة الموجهة إلى كل قواد زمر، الذين ستمر منها المحلة السلطانية. هو التعرف على الطريق الجديدة، لأنها ليست مألوفة لدى السلاطين. وهذه الطريق تمر من ضاية رومي ومركز قيادة حودران ثم المعازيز لتتوجه إلى رباط الفتح.

حركة مولاي عبد العزيز التي خرجت من فاس في ١٢ شتبر ١٩٠٧، ومرت من أراضي قبائل متمردة^(٩٣)، من بينها زمر، فعبرت طريق ضاية رومي، ووقفت في لمعايز لتعرج على زعير قبل الوصول للرباط. بعد أن كانت محلة هذا السلطان تتحاشى المرور من تراب القبائل المتمردة كزمر وزعير، مثلما حدث سنة ١٩٠١. حيث إن المحلة العزيزية "لم تتكلم مع أحد من قبائل الطريق في شيء من الأمور..."^(٩٤)

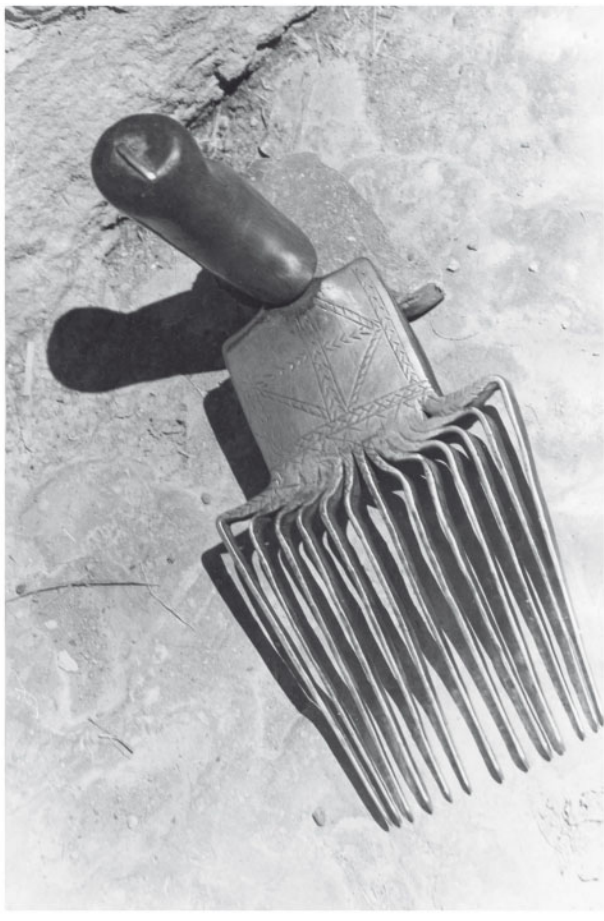
حملة مولاي عبد الحفيظ من مراكش إلى فاس، مارا من زيان بلاد صهره القائد حمو الزياني، فخرج على مولاي بوعزة ووالماس، ثم أيت يكو حودران فوادي بهت، ثم دخل مكناس "دخولا احتفاليا"^(٩٥) في ١٥ ماي ١٩٠٨.

حملة المولى عبد العزيز إلى مراكش في ١٢ يوليوز ١٩٠٨، التي مرت من أراضي زمر وقطعت من لمعايز وزعير وبني خيران ثم صخرة الدجاجة، ثم دار ولد الشافعي قرب واد أم الربيع^(٩٦). وتوقفت لمدة خمسة عشر يوماً، لكنها عادت مهزومة ولم تتمكن من دخول المدينة.

في ٢١ مارس ١٩٠٨ أرسل المولى حفيظ محلة تحت قيادة القائد بوخبزة لتأديب زمر بما فيها حودران، لكن^(٩٧) لها تلقت مقاومة شديدة "ففروا كالأرانب التي تطاردها الكلاب (السلوقي)"

في ماي ١٩٠٩ قام المولى عبد الحفيظ بمصادرة أموال أخيه المولى الكبير، وكذلك ضيعاته وخزائنه من الحبوب والشاي. فهرب إلى أتباعه من زمر وزعير "فاستقبله زمر استقبلاً حاراً وقدموا له المؤن"^(٩٨). وكان هذا الأخير يريد طلب لبعفو، لكنه خاف على نفسه وعلم أنه مستهدف في حياته. فلجأ إلى حودران على عهد القائد بوعزة بن حمادي، وفي شهر يونيو من نفس السنة "صعد عبر تافودايت إلى واد بهت"^(٩٩). فذهب مختفياً عند كروان وبني مطير وآيت سخمان.

الملاحق



صورة رقم (٢)
تاسكا آلة تستخدم في نسج الزربية^(١٠٢)

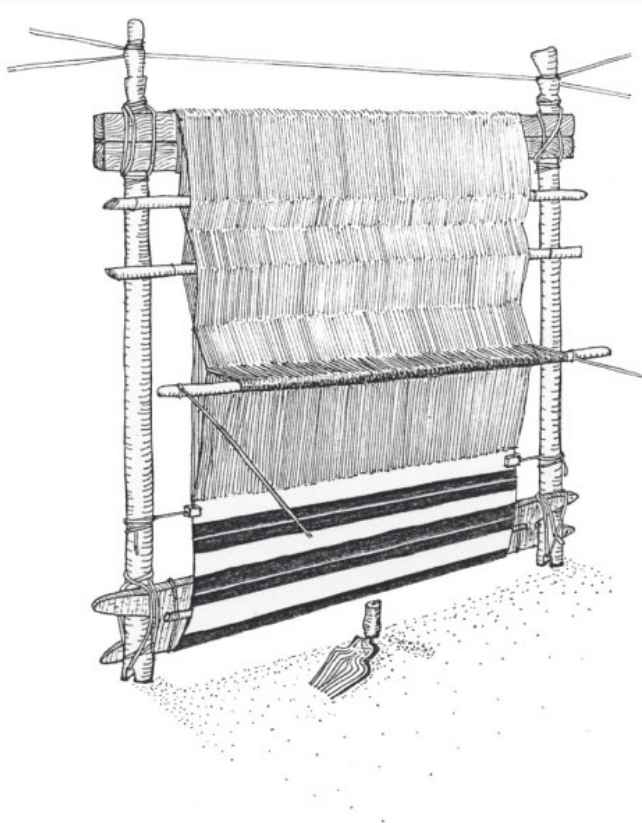


صورة رقم (١)
زربية زمورية من حودران تؤرخ بمنتصف القرن
العشرين،
وأبعادها بالسنتيمتر ١٨٦ x ٢٥٢^(١٠١).



Pl. XII

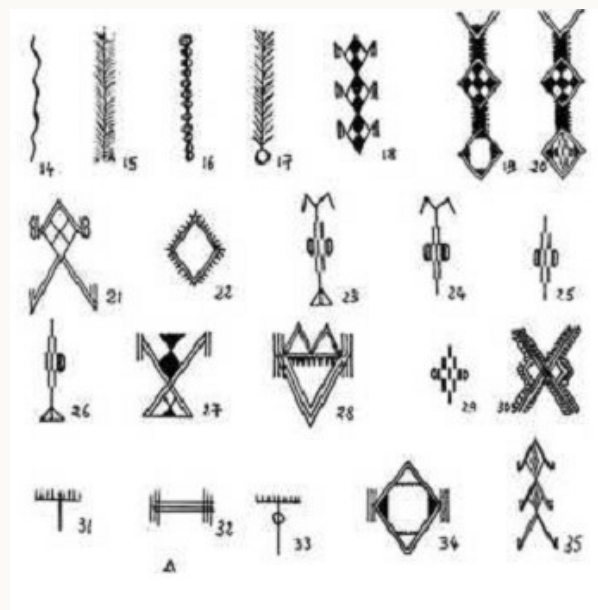
صورة رقم (٤)
الزربية الزمورية^(١٠٤)



صورة رقم (٣)
منسج تقليدي للزربية^(١٠٣)



صورة رقم (٦)
بهاج بن بوعزة أمغار الحرب



صورة رقم (٥)
الرموز والأنماط الزخرفية المستخدمة في نسج
الزربية الأمازيغية^(١٠٥)

الإحالات المرجعية:

- (1) Kizerbo Joseph, Histoire de l'Afrique noire d'hier à demain, Paris, p. 17.
- (٢) شفيق محمد، **المعجم العربي الأمازيغي**، الجزء الأول، منشورات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، ص. ٢١٠.
- (٣) بوبية أحمد، **قبائل زمور والحركة الوطنية**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣، ص. ٧١.
- (4) Rachik Hassan, C collectivités Traditionnelles et modernisation Les Ait Zekri D'Zemmour, Mémoire pour le diplôme des études supérieures es-sciences politiques, Université Hassan II, 1982, p.25 note 24.
- (5) Lesne Marcel, Les Zemmour. Essai d'histoire tribale (à suivre). In: Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, n°2, p. 97.
- (6) Terrasse Henri, Histoire du Maroc des origines à l'établissement du Protectorat français, Casablanca, 1949, tome. I, p. 13.
- (7) Ibid, p.217.
- (8) E. Laoust, L'habitation chez les transhumants du Maroc Central, In Hesperis, VI, 1935, p. 292.
- (9) LAHLIMI (A), Les collectivités rurales traditionnelles et leur évolution, repris dans Etudes sociologiques sur le Maroc, publications du B.E.S.M. p. 20
- (10) RACHIK Hassan, « Construction de l'Identité Amazigh », in H. Rachik (éd.), Usages de l'identité Amazigh au Maroc, Casablanca, 2006, p. 17.
- (11) ADERGHAL Mohamed (1993), Le massif d'Oulmes et ses bordures. Évolution agraire et organisation de l'espace dans le pays Zaïan-Zemmour, Maroc du Nord-Ouest, Thèse de Doctorat en géographie, Université Paul Valéry, Montpellier III, 3 volumes, 7, p. 193.
- (12) Ibid, p. 112.
- (13) Lesne Marcel, Les Zemmour, essai d'histoire tribale, In revue des mondes musulmans et de la méditerranée, 1966, , p.11٢.
- (14) lesne Marcel, Les Zemmour...op. cit, p. 115.
- (15) Ibid, p. 113.
- (16) Miège Jean Louis, La crise marocaine de 1868- 1869, In Le Maroc et l'Europe, tome III, p.222.
- (١٧) البزاز محمد الأمين، **تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ١٩٩٢، ص. ١٧٤.
- (١٨) الناصري أبو العباس أحمد خالد، **الاستقصا في أخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق محمد عثمان، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١٠، ج. ٩، ص. ٦١.



صورة رقم (٧)

ضاية رومي ٢٥ أكتوبر ٢٠٢٤

- (41) QUERLEOX., LES ZEMMOUR (Étude ethnographique d'après le Questionnaire de la Résidence Générale de France au Maroc), l...op. cit, p. 21.
- (٤٢) سبيلمان جورج، **آيت عطا الصحراء وتهدة أفلا ن دراء**، ترجمة محمد بوكبوط، المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، ٢٠٠٨، ص. ٣٣.
- (43) Gautier E F, Les siècles obscures du Maghreb, Paris, 1927, p. 87.
- (44) Ibid, p. 28.
- (٤٥) التوفيق أحمد، **المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر (إينولتان ١٨٥٠ - ١٩١٢)**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، الطبعة الثالثة، ٢٠١١، ص. ١١٧.
- (46) QUERLEOX., LES ZEMMOUR (Étude ethnographique d'après le Questionnaire de la Résidence Générale de France au Maroc), In Archives berbères, Publication du Comité d'Études Berbères de Rabat, VOLUME I FASCICULE 2, 1915, p. 21.
- (47) Ibid, p. 22.
- (48) Fouret J, La segmentarité au Maghreb, In L'homme, Revue française de l'anthropologie, Avril-Juin, 1966, p. 108.
- (49) Gellner E, Système tribal et changement social en Afrique du Nord, In Annales marocaines de sociologie, 1969, p. 5.
- (50) Service de travail et des questions sociales, RÉPERTOIRE ALPHABÉTIQUE DES CONFÉDÉRATIONS DE TRIBUS, DES TRIBUS, i DES FRACTIONS DE TRIBUS ET DES AGGLOMÉRATION DE LA ZONE FRANÇAISE DE L'EMPIRE CHÉRIFIEN au 1er Novembre 1930, Casablanca, p. 63.
- (51) Ibid, p. 61.
- (52) lesne Marcel, Les Zemmour...op. cit, p. 130.
- (٥٣) دو فوكو شارل، **التعرف على المغرب ١٨٨٣ - ١٨٨٤**، الجزء الأول، ترجمة المختار بلعربي، الطبعة الأولى، دار الثقافة، ١٩٩٩، ص. ١٢.
- (٥٤) المرجع نفسه، ص. ٦٨.
- (55) Service de travail et des questions sociales, RÉPERTOIRE ALPHABÉTIQUE DES CONFÉDÉRATIONS DE TRIBUS, DES TRIBUS ... op. cit, p. 50.
- (56) Ibid, p. 53.
- (٥٧) بوبية أجمد، قبائل زمور والحركة الوطنية ... مرجع سابق، ص. ٦٩.
- (58) Service de travail et des questions sociales, RÉPERTOIRE ALPHABÉTIQUE DES CONFÉDÉRATIONS DE TRIBUS, DES TRIBUS ... op. cit, p. 55.
- (59) Ibid, p. 57.
- (60) Ibid, p. 108.
- (٦١) تافسكا في الأمازيغية تعني الذبح والذبيحة.
- (62) Service de travail et des questions sociales, RÉPERTOIRE ALPHABÉTIQUE DES CONFÉDÉRATIONS DE TRIBUS, DES TRIBUS... op. cit, p. 52.
- (١٩) السوسني محمد المختار، **المعسول**، مطبعة النجاة، البيضاء، ج ١٥، ١٩٦٠، ص. ١٠.
- (20) lesne Marcel, Les Zemmour...op. cit, p. 140.
- (٢١) ابن خلدون عبد الرحمن، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠١، الجزء السابع، ص. ٣.
- (٢٢) نفسه.
- (٢٣) ابن خلدون، **كتاب العبر**، الجزء ٦، ص. ١٢٨.
- (٢٤) ابن خلدون، **العبر** ج ٧، مصدر سابق، ص. ٧.
- (٢٥) المصدر نفسه.
- (٢٦) المشرفي، **الحلل البهية**، ص. ٢٧٣ - ٢٧٤.
- (27) Belghazi Hammou, Tada chez les Zemmour, instances, puissance, évanescence, Institut royal de la culture amazighe, Rabat, 2008, p. 45.
- (٢٨) التقي العلوي، **أصول المغاربة**، منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي، الطبعة الأولى، ٢٠١٦، ص. ٨٠.
- (29) Ibn Khaldoun Abderrahman, Histoire des Berbères, tome 1, traduit de l'arabe par Slane, Geuthner, Paris, 1999, p. 255.
- (30) Ibid, p. 140.
- (31) lesne Marcel, Les Zemmour...op. cit, p. 121.
- (٣٢) وثيقة رقم ١٥٠٥٩ تؤرخ لمراحل رحلات الحسن الأول بتاريخ محرم ١٢٠٨ هـ الموافق ل ١٨٩٠ م، الخزنة الحسنية، الرباط.
- (33) Le capitaine Luguay, Les Zemmour et les Zaér, manuscrit archives de vinceennes, Paris, n° du carton 3 H 5, In France ARCHIVES. Portail national des archives.
- (34) Service de travail et des questions sociales, RÉPERTOIRE ALPHABÉTIQUE DES CONFÉDÉRATIONS DE TRIBUS, DES TRIBUS, i DES FRACTIONS DE TRIBUS ET DES AGGLOMÉRATION (نسخة) DE LA ZONE FRANÇAISE DE L'EMPIRE CHÉRIFIEN au 1er Novembre 1930, Casablanca, p. 22.
- (35) Bellaire Michaux, Villes et tribus du Maroc (Rabat et sa région), T III, les tribus, ed. Leroux, Paris 1920, p. 198 ; Lesne Marcel, Evolution d'un groupement berbère: Les Zemmour , Ecole du livre, Rabat, 1959» p. 117.
- (36) Pascon Paul, Le Haouz de Marrakech, ed. marocaines et internationales, Tanger, rebbàa.. 19 77, T.I p. 159, note 7.
- (37) Rachik Hassan, C collectivités Traditionnelles et modernisation Les Ait Zekri D'Zemmour...op.cit, 1982, p. 2.
- (٣٨) بوبية أجمد، **قبائل زمور والحركة الوطنية** ... مرجع سابق، ص. ٦٨.
- (39) Erckmann Jules, Le Maroc moderne... op. cit, p. 113.
- (40) QUERLEOX., LES ZEMMOUR (Étude ethnographique d'après le Questionnaire de la Résidence Générale de France au Maroc), In Archives berbères... op. cit, p. 22.

(٨٦) ابن زيدان، **إتحاف ... ابن زيدان عبد الرحمان بن محمد السجلماسي،** العز والصولة في معالم نظم الدولة، جزءان، المطبعة الملكية الرباط، ١٩٦١ ج٢، ص. ٢٠٠ - ٢٠١.

(87) Inglefield F. S, LE RAPPORT DU CAPITAINE INGLEDFIELD SUR LE MAKHZEN ET LA TRIBU DES ZEMMOURS (1891)... op. cit, p. 145.

(٨٨) أعفيف، **الحركات الحسنية ... مرجع سابق.**

(٨٩) ابن زيدان، **إتحاف ... الجزء الثاني،** مصدر سابق، ص. ٣٠٨.

(90) Inglefield F. S, LE RAPPORT DU CAPITAINE INGLEDFIELD SUR LE MAKHZEN ET LA TRIBU DES ZEMMOURS (1891)... op. cit, p. 146

(91) Ibid, p. 159.

(٩٢) ابن زيدان، **العز والصولة، الجزء الأول ... مصدر سابق،** ص. ٢٦٨.

(٩٣) أرنو، **ومن المحلات السلطانية ... مرجع سابق،** ص. ١٧٦.

(٩٤) بوعشرين الحسن بن الطيب بن اليماني، **التنبه المغرب عما عليه** **التن حال المغرب،** تقديم محمد المنوني، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ١٩٩٤، ص. ٦٩ - ٧٠.

(٩٥) أرنو، **زمن المحلات السلطانية ... مرجع سابق،** ص. ١٨٠.

(٩٦) المرجع نفسه، ص. ١٨٣.

(97) Arnaud (L), Au temps des Mehallas ou le Maroc de 1860 à 1912, Ed. Atlantides, Casablanca, 1952, p. 267.

(٩٨) أرنو، **زمن المحلات السلطانية ... مرجع سابق،** ص. ٢٠٩.

(٩٩) نفسه.

(١٠٠) **الخانزة الحسنية كُنَاش** ١٩٩٠، ص. ٦٦، ظهر السلطان المولى عبد العزيز بتعيين إبراهيم زنيبر أميناً على قبيلة إداجلول بتاريخ ٤ جمادى الأولى ١٣١٤ الموافق ل ١١ أكتوبر ١٨٩٦.

(101) Collection Bert Flint. In: Horizons Maghrébins - Le droit à la mémoire, N°22, 1994. Mes tissages. Création et tradition dans les arts textiles et populaires en Méditerranée : Maroc, Espagne, France, p. ١١١

(102) Lefébure Claude, linguistique et technologie culturelle, l'exemple du métier à tisser vertical berbère, In revue Technique et Culture, n° 54- 55, p. 127.

(103) Lefébure Claude, linguistique et technologie culturelle, l'exemple du métier à tisser vertical berbère...op.cit, p. 119.

(104) Prosper Ricard, corpus des tapis marocains, tapis du moyen Atlas, Paris, 1925, pl XII.

(105) Mohamed CHTATOU, Le tapis amazigh: identité, création, art et histoire, in Le monde amazigh, 13 juin 2020.

(63) Ibid, p. 64.

(64) Ibid, p. 102.

(٦٥) دوفوكو، التعرف ... مرجع سابق، ص. ٦١.

(٦٦) نفسه.

(٦٧) نفسه.

(٦٨) نفسه.

(69) Prosper Ricard, Corpus des tapis marocains, tapis de Rabat, Pais, 1923, p. 7.

(٧٠) وكلمة أزطا مأخوذة من عمودين طويلين يحملان ترتكز عليهما عملية النسيج.

(VI) **Mohamed CHTATOU, Le tapis amazigh: identité, création, art et histoire, in Le monde amazigh, 13 juin 2020.**

(72) Prosper Ricard, Corpus des tapis marocains, tapis de Rabat, Pais, 1923, p. 7.

(73) Gadille Jacques. La colonisation officielle au Maroc. In: Cahiers d'outre-mer. N° 32 - 8e année, Octobre-décembre 1955. p. 306.

(74) Swearingen Will D. Terre, politique et pouvoir au Maroc. In: Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, n°45, 1987. Monde arabe: la société, la terre, le pouvoir. p. 41.

(75) Swearingen Will D. Terre, politique et pouvoir au Maroc. In: Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, n°45, 1987... op. cit, p. 41.

(76) QUERLEOX., LES ZEMMOUR (Étude ethnographique d'après le Questionnaire de la Résidence Générale de France au Maroc... op. cit, p. 25.

(77)QUERLEOX., LES ZEMMOUR (Étude ethnographique d'après le Questionnaire de la Résidence Générale de France au Maroc... op. cit, p. 47.

(78) Erchman Jules, Le Maroc moderne, Paris, 1985, p. 175.

(79) Goufourier L, chronique de la vie de Moulay El Hassan, p. 331.

(80) Weisgerber Dr, Au seuil du Maroc moderne, Laporte, Rabat, 1947, p. 141 -150.

(81) Mercier L, CÉRÉMONIAL QUI ENTOURE L'ARRIVÉE DU SULTAN A RABAT, In Archives marocaine, Publication de la comité scientifique, du Maroc, volume VI, Paris, 1906, p. 412.

(٨٢) **الخانزة الحسنية كُنَاش** ٤، الرسالة بتاريخ ٢٩ محرم ١٢٥٤ الموافق ل ١ أبريل ١٨٣٩.

(٨٣) أرنو لويس، **زمن المحلات السلطانية: الجيش المغربي وأحداث قبائل المغرب ما بين ١٨٦٠ و ١٩١٢م،** ترجمة محمد ناجي بن عمر، **أفريقيا الشرق،** ٢٠٠٢، ص. ٥٢.

(٨٤) أعفيف محمد، " **الحركات الحسنية من مؤلفات ابن زيدان** "، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، العدد السابع، ١٩٨٠، ص ٦٧- ٧١.

(٨٥) ابن زيدان، **إتحاف أعلام الناس ... ج٢،** مصدر سابق، ص. ٢٠٠.

العلاقة بين سلطنة زنجبار وألمانيا في عهد السلطان خليفة بن سعيد (١٨٨٨ - ١٨٩٠م) دراسة وثائقية

د. أحلام بنت حمود الجهورية

مديرة مختصة للدراسات الوثائقية
هيئة الوثائق والمحفوظات الوطنية
مسقط - سلطنة عُمان



ملخص

شهدت العلاقات بين سلطنة زنجبار وألمانيا خلال فترة حكم السلطان خليفة بن سعيد (١٢٠٥-١٣٠٧هـ / ١٨٨٨-١٨٩٠م) تقارباً على المستوى الدبلوماسي، وتجاذباً على المستوى السياسي، حيث تزامن اعتلاء السلطان خليفة بن سعيد عرش زنجبار مع اعتلاء ولهم الثاني (١٣٠٥-١٣٣٦هـ / ١٨٨٨-١٩١٨م) -الشهير في المصادر العربية بالملك غليوم الثاني- عرش ألمانيا. وتوجد نماذج من المراسلات المتبادلة بين السلطان خليفة بن سعيد والامبراطور ولهم الثاني لدى هيئة الوثائق والمحفوظات الوطنية بسلطنة عُمان، منها: رسالة تعزية من السلطان خليفة إلى الملك ولهم الثاني بوفاته والده وتهنئته باعتلائه العرش، ورسالة شكر من الملك ولهم الثاني إلى السلطان خليفة متمنياً من خلالها استمرار العلاقات الودية بين الطرفين. ورسالة شكر من المستشار الألماني بسمارك إلى السلطان خليفة بن سعيد على الوفد المُرسَل من قبله لتهنئة الملك بتولي الحكم وغيرها من المراسلات. كما تم عقد اتفاقية اقتصادية بين السلطان خليفة بن سعيد والشركة الألمانية الأفريقية، والمعروفة تاريخياً باتفاقية تأجير البر الأفريقي، وتم توقيعها في ١٦ شعبان ١٣٠٥هـ / ٢٨ أبريل ١٨٨٨م، وتتضمن الاتفاقية خمسة عشر بنداً. وخرجت الدراسة بعدد من النتائج، أبرزها أن جذور العلاقات التاريخية الرسمية بين الألمان وسلطنة زنجبار تعود إلى عهد السلطان ماجد بن سعيد بتوقيعه اتفاقية تجارية مع المدن الهانزية الحرة الألمانية: (لوبيك، بريمن، هامبورغ) حول المصالح التجارية المشتركة بين الطرفين، والموقعة بتاريخ: ١١/١١/٢٧٥هـ - ١٣/٦/١٨٥٩م. كما توصلت الدراسة إلى أن العلاقات الألمانية مع سلطنة زنجبار في عهد السلطان خليفة بن سعيد اتخذت بعدين، البعد السياسي-الاقتصادي (الاستعماري)، وهذا يظهر من خلال الشركة الألمانية الأفريقية ومحاولتها التعدي على أملاك سلطنة زنجبار. والبعد الدبلوماسي، ويظهر من خلال المراسلات الودية بين الجانبين، وتبادل السفراء، والوفود والهدايا.

كلمات مفتاحية:

عُمان؛ خليفة بن سعيد؛ زنجبار؛ ألمانيا؛ ولهم الثاني؛ تاريخ عُمان

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٢٢ يوليو ٢٠٢٥
تاريخ قبول النشر: ٢٦ أغسطس ٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.406242.1250

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

أحلام بنت حمود الجهورية، "العلاقة بين سلطنة زنجبار وألمانيا في عهد السلطان خليفة بن سعيد (١٨٨٨ - ١٨٩٠م): دراسة وثائقية". دورية كان التاريخية، السنة الثامنة عشرة - العدد الثالث والسبعون، نوفمبر ٢٠٢٥. ص ١٥٠ - ١٧١.



X, formerly Twitter: <http://X.com/kanhistorique>

Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>

Facebook Group: <https://www.facebook.com/groups/kanhistorique>

Corresponding author: ahlam.wah2017@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في جُورِيَّة كان تحت رخصة المشاع المُنسب ٤.٠ (CC BY 4.0) (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

لقد أسهمت عُمان على امتداد تاريخها الطويل في صنع الحضارة الإنسانية، وقد أخذ ذلك الإسهام أشكالاً وصوراً متنوعة منها العلاقات السياسية والاقتصادية التي حرصت عُمان على بنائها مع محيطها الإقليمي والدولي. وتجلّى ذلك في علاقاتها مع حضارات بلاد الرافدين ووادي السند ووادي النيل وبلاد فارس، ثم علاقاتها القوية في العصور الإسلامية المبكرة على وجه الخصوص مع شرق أفريقيا والهند. وقد قويت هذه العلاقات في عهد دولة اليعاربة (١٦٢٤-١٧٤٤م)، وتعاضمت في عهد الدولة البوسعيدية التي شهدت عُمان في عهدها امتداداً جغرافياً بين قارتي آسيا وأفريقيا تحت ما سمي بالإمبراطورية العُمانية في عهد السلطان سعيد بن سلطان (١٨٠٤-١٨٥٦م).

من هذا المنطلق تهدف الدراسة إلى البحث في علاقة سلطنة زنجبار -هذا المصطلح أطلق عليها بعد تقسيم الإمبراطورية العُمانية عقب وفاة السلطان سعيد بن سلطان والمعروف تاريخياً بتقسيم كاننج- مع ألمانيا ومعرفة أبعاد هذه العلاقة السياسية والاقتصادية والدبلوماسية من خلال تحليل مجموعة متنوعة من الوثائق مع الاستعانة بالمصادر التاريخية ذات العلاقة؛ متضمنة تمهيد يوضح العلاقات الألمانية مع سلطنة زنجبار قبل عهد السلطان خليفة بن سعيد، ومبحثين رئيسيين؛ المبحث الأول يعطي نبذة تاريخية عن السلطان خليفة بن سعيد والامبراطور ولهم الثاني. أما المبحث الثاني فيقدم قراءة تاريخية-وثائقية حول أوجه العلاقة بين سلطنة زنجبار وألمانيا خلال عهد السلطان خليفة بن سعيد.

تمهيد: العلاقات الألمانية مع سلطنة

زنجبار قبل عهد السلطان خليفة بن سعيد

تُعدّ وفاة السلطان السيد سعيد بن سلطان في ١٩ صفر ١٢٧٣هـ / ١٩ أكتوبر ١٨٥٦م، حدثاً تاريخياً مفصلياً في تاريخ زنجبار^(١)، وهو ما عبّر عنه المغيري بقوله: "وبموت السيد سعيد دخل تاريخ زنجبار وإفريقية الشرقية في عصر جديد"^(٢). وبعد وفاة السلطان السيد سعيد بن سلطان نشب النزاع على الحكم بين أبنائه مما

أدى إلى تقسيم الإمبراطورية العُمانية إلى سلطنتين: زنجبار ويحكمها السلطان ماجد، وعُمان ويحكمها السلطان ثويني؛ وذلك بعد تدخل الانجليز من خلال تشكيل لجنة رأسها اللورد كاننج وتم إعلان قرارها في ٢ أبريل ١٨٦١م^(٣).

بدأت المطامع الاستعمارية تظهر بعد وفاة السلطان سعيد بن سلطان، وتعاضمت أكثر في نهاية عهد السلطان برغش بن سعيد (١٢٨٧-١٣٠٥هـ / ١٨٧٠-١٨٨٨م)، "ففي أول نوفمبر عام ١٨٨٦م تم الاتفاق بين بريطانيا وفرنسا وألمانيا على تحديد الباقي من مملكة زنجبار، فجعلوها تشتمل على برية ساحلية، عرضها عشرة أميال، وطولها يمتد من نهر رفوما إلى نهر تانا، وهي مسافة ٦٠٠ ميل، ويشتمل أيضاً على البلدان الساحلية كسمايوه، براوة من أملاك الصومال، ومقديشو ومركه مع أرض مساحتها عشرة أميال في دائرة كل بلدة، وتشتمل أيضاً على بلدة وارشيخ مع أرضها خمسة أميال"^(٤). ويمكن تلخيص الضغط الأوروبي في تقسيم أملاك سلطنة زنجبار في أواخر عهد السلطان برغش وفق ما ذكره المغيري: "وقد ظهرت دول أوروبا في أيام السيد برغش وبدرت بوادرهم القهرية في تقسيم مملكة زنجبار، ولقي السيد برغش منهم الإهانة والضغط في تقديم مطالبهم لتقسيم مستعمراته وتحرير الرقيق"^(٥).

كما يذكر المغيري أن السلطان برغش عندما تولى الحكم أشار عليه القنصل الألماني بزنجبار أن يعمر بندر السلام على نحو ما كان ينوي السيد ماجد في تعميرها واتخاذها عاصمةً للملكه، وتدخل القنصل الإنجليزي الذي أشار على السلطان برغش عدم جدوى هذا الأمر وصرف نية السيد برغش عن تعمير بندر السلام. ويضيف المغيري أن القنصل الإنجليزي أخبر السلطان برغش أن الدول الأوروبية قد اقتسمت أملاكه، فرفع القنصل الإنجليزي إلى حكومته ما أشار به قنصل ألمانيا على السيد برغش بتعمير دار السلام وقال بأن القنصل الألماني يتدخل في سياسة زنجبار. ونتيجة لذلك أبلغت الحكومة البريطانية الحكومة الألمانية بذلك التدخل، فاستدعته من زنجبار إلى برلين^(٦). ويضيف المغيري أيضاً أنه لما وصلت قطع الأسطول الألماني زنجبار تطالب في ضم بندر السلام تحت وصايتها هددت السيد برغش

زنجبار وبين الألمان تعود إلى عام ١٨٥٩م عهد السلطان ماجد بن سعيد (١٢٧٣-١٢٨٧هـ / ١٨٥٦-١٨٧٠م) بتوقيعه أول اتفاقية تجارية مع المدن الهانزية الحرة^(١١) الألمانية: (لوبيك، بريمن، هامبورغ) حول المصالح التجارية المشتركة بين الطرفين مؤرخة في عام (١٢٧٥/١١/١١هـ - ١٨٥٩/٦/١٣م)^(١١). وقد أتاحت هذه الاتفاقية حرية الشراء وتملك العقار في زنجبار للرعايا الألمان الأمر الذي كان له أكبر الأثر في خدمة المصالح الألمانية عندما اتخذت السياسة الألمان قرار التوسع الاستعماري في شرق إفريقيا عام ١٨٨٥م. كما شهد عهد السلطان ماجد بعض المراسلات الدبلوماسية بين الجانبين وهو ما توضحه رسالة من السلطان ماجد بن سعيد إلى شول نائب القنصل الألماني يبلغه بثبات سعر الذهب في زنجبار مؤرخة في (١٢٧٨/٣/٢٨هـ - ١٨٦١/١١/٣٠م)^(١٢).

أما في عهد السلطان برغش فشهدت العلاقات بين الطرفين تطوراً وتجادباً سياسياً في ذات الوقت، وهو ما تثبتته بعض المراسلات بين الطرفين، فتثبتت المراسلات الدبلوماسية رسالة من ولهم الأول امبراطور ألمانيا وملك بروسيا (١٨٧١-١٨٨٨م) إلى السلطان برغش بن سعيد يطلب منه اعتماد أوراق الدكتور جدهارد غلفس كقنصل ألماني في زنجبار تأكيداً لعلاقات الصداقة والتعاون بين الدولتين^(١٣). كما توجد رسالة من وليم وسولد القنصل الألماني في زنجبار إلى السلطان برغش تتضمن وصفاً لمواصفات سفينة (ماشوه) تم الموافقة على شرائها من قبل السلطان برغش برء ملحق في نفس الرسالة المؤرخة في: ١٢٧٠/٦/٢٧هـ - ١٨٨٤/٤/٢٣م^(١٤). واستمرت العلاقات بعد وفاة الامبراطور ولهم الأول فقد أرسل الامبراطور فريدريك الثالث (٩ مارس ١٨٨٨م - ١٥ يونيو ١٨٨٨م) امبراطور ألمانيا وملك بروسيا رسالة إلى السلطان برغش يعلمه فيها بتوليته الحكم، ويؤكد على استمرار العلاقات الودية بينهم مؤرخة في: ١٣٠٥/٧/٣هـ - ١٨٨٨/٣/١٥م)^(١٥).

شهدت العلاقات بين الألمان والسلطان برغش بعض التوتر وهو ما تؤكد رسالة أرسلها السلطان برغش إلى بسمارك المستشار الألماني يعترض فيها على مادة وردت في الإعلان الصادر من الامبراطور الألماني ولهم الأول

وطلبت منه إما وإما، فحينئذ تذكر السيد برغش قول القنصل الألماني وقال لقد صدقت فراسة أخي ماجد في عزمه على تعمير بندر السلام. وهنا يستدرك المغيري ويذكر رأيه: أنه لو كان السيد ماجد أو السيد برغش عمرا دار السلام ونقلوا العاصمة إليها وليست لديهما قوة بحرية ولا برية لحمايتها فلا فائدة من عمارتها^(١٦). تلك بعض الحوادث التي ذكرها المغيري ومن خلالها يظهر بداية التدخل المباشر في أملاك السلطان برغش. وبصفة عامة دخلت ألمانيا كدولة استعمارية في شرق أفريقيا في القرن التاسع عشر، وتعد من الدول التي دخلت سباق الاستعمار في وقت متأخر بالمقارنة مع دول أخرى في هذا السباق كالبرتغال وبريطانيا وفرنسا؛ حيث لم يكن لألمانيا قبل القرن التاسع عشر أية سيطرة رسمية على أي جزء من المنطقة. بدأ النشاط الألماني الاستكشافي والتجاري والتبشيري منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر في عهد السلطان سعيد بن سلطان، إلا أنها لم تتخذ الطابع الرسمي إلا بعد عقد مؤتمر برلين ١٨٨٤-١٨٨٥م، حيث أن المستشار الألماني بسمارك (١٨٧١ - ١٨٩٠م) رفض قبل عام ١٨٨٤ الاستجابة لنداءات الرحالة والتجار ورجال الصناعة الألمان في تأسيس مستعمرات ألمانية؛ والسبب عائد إلى أن ألمانيا لم تظهر ككيان موحد قبل عام ١٨٧٠م، فبعد تحقيق الوحدة بين الولايات الألمانية والانتصار على فرنسا في عام ١٨٧١م وظهور مناطق صناعية (الإلزاس، واللورين) وبدء الصناعة الألمانية وتوسعها وحاجتها إلى أسواق جديدة ومواد خام بعيداً عن احتكار الدول الأوروبية الأخرى^(١٧). هنا ظهرت الحاجة لألمانيا لوجود مستعمرات توفر لها المواد الخام، وتسمح بوجود أسواق لتسويق منتجاتها.

بدأت العلاقات التجارية بين شرق إفريقيا وألمانيا في عام ١٨٤١م عندما قامت شركة هانزينج Hansing وشركة أوزوالد Oswald اللتان كانتا تابعتين لاتحاد دويلات الهانسا، على تأسيس وكالات تجارية لهما في زنجبار في عهد السيد سعيد بن سلطان، زارت بعد ذلك العديد من السفن الألمانية ميناء زنجبار في إشارة إلى تطور النشاط الملاحي والتجاري لألمانيا في المنطقة^(١٨). ويمكن القول إن جذور العلاقات الرسمية بين سلطنة

ولزيادة الضغط على السلطان تم إحضار السيدة سالمة بنت سعيد بن سلطان بالسفن الحربية بحجة المطالبة بنصيبها من ميراث والدها السيد سعيد. وقد لجأ السلطان برغش إلى حلفائه الانجليز لمساعدته وأبوا تعاطفهم معه؛ لكنهم تخلوا عنه وتصلوا من كافة التزاماتهم السابقة له بوحدة وسلامة أراضيهم من الأطماع الخارجية، وبعد التواطؤ البريطاني الألماني لم يجد السلطان بدا من سحب الاحتجاج والاعتراف بالمناطق التي احتلها الألمان في البر الأفريقي، إضافة توقيع معاهدة تمنح بموجبها ألمانيا امتيازات في أراضي السلطان، وكذلك تسهيلات في الموانئ التابعة له. وبدعوة من بريطانيا تم في عام ١٨٨٦م تم توقيع اتفاقية بين ألمانيا وبريطانيا لتقسيم شرق أفريقيا، حدد بموجبها مناطق نفوذ كلا منهما، وقد نتج عنها التعدي على بعض ممتلكات سلطنة زنجبار وهذا يناقض معاهدة ١٨٦٢م والتي وقعتا بريطانيا وفرنسا عقب تحكيم كاننج، والذي تعهدت فيه الدولتان بالحفاظ على سلامة واستقلال سلطنة زنجبار^(١٩).

أولاً: نبذة تاريخية عن السلطان خليفة بن

سعيد والامبراطور ولهم الثاني

١/١-السلطان خليفة بن سعيد

(١٣٠٥-١٣٠٧هـ / ١٨٨٨-١٨٩٠م)

السلطان السيد خليفة بن سعيد، هو الابن السابع عشر من بين أولاد السلطان السيد سعيد بن سلطان، وُلد في بيت المتوني بزنجبار في عام ١٢٦٩هـ / ١٨٥٢م، وقد ورث عن أبيه مقاطعة كيكانجوني. وللسيد خليفة ابن وحيد يسمى محمد توفى في ٧ ربيع الأول ١٣٣٤هـ / ١٢ يناير ١٩١٦م^(٢٠). واجه السيد خليفة ظروفًا صعبة عندما تولى أخاه السلطان السيد برغش الحكم في زنجبار خلال الفترة (١٢٨٧-١٣٠٥هـ / ١٨٧٠-١٨٨٨م) حيث وضعه في السجن. وتختلف المصادر في أمرين: المدة التي قضاها السيد خليفة في السجن، وسبب سجنه. فيرى بعضها أنه سُجن عامين في الفترة (١٢٨٧-١٢٩٠هـ / ١٨٧٠-١٨٧٣م)، ومصادر أخرى تذكر أنه سُجن خمسة أعوام ولا تحدها على وجه الدقة^(٢١). ومن المصادر التي تذكر الحادثة كتاب: (جهينة الأخبار

(١٨٧١-١٨٨٨م) والذي ينص على ضم عدد من المناطق التابعة لسلطنة زنجبار تحت سلطة الألمان موضحاً حجته في ذلك مؤرخة في (١٣٠٢/٧/٢٦هـ- ١٨٨٥/٥/١١م)^(٢٢). ويُفهم هذا التجاذب السياسي الذي حدث في عهد السلطان برغش من خلال نمو الاستعمار الألماني في تلك الفترة الزمنية، ففي عام ١٨٧٨م تم إنشاء الجمعية الألمانية للدراسات الأفريقية في برلين وكانت هذه الجمعية تشرف على عدد من الجمعيات الألمانية التي كانت تقوم بنشاطات استكشافية بين تنجانيقا وزنجبار. وفي عام ١٨٨٢م تم إنشاء الجمعية الألمانية للاستعمار وكان هدفها توجيه الرأي العام الألماني نحو النشاط الاستعماري وبعدها تم إنشاء الشعبة الاستعمارية في البرلمان الألماني (مجلس الريخستاغ)، الذي كان يمثل الهيئة التشريعية في ألمانيا. وفي عام ١٨٨٤م قام الدكتور كارل بيترز التوقيع على عشر معاهدات مع زعماء قبائل (أوسجارا، ونجورو، وأوكامي) وقد نجحت هذه المعاهدات في ضم مساحة واسعة من الأرض تصل إلى ٦٠٠٠٠ ميل مربع من مساحة شرق أفريقيا^(٢٣).

وخلال الفترة من نوفمبر ١٨٨٤ إلى فبراير ١٨٨٥م عقد مؤتمر برلين بدعوة من المستشار الألماني بسمارك، من أجل تنظيم عملية استعمار إفريقيا بين الدول الأوروبية، بحضور ممثلين من ١٦ دولة، وقد فتح هذا المؤتمر الباب أمام الدول الاستعمارية الأوروبية للقيام باحتلال الأراضي في أفريقيا تحت غطاء الشرعية الدولية، دونما مراعاة لدول القارة وشعوبها. وبتاريخ ٢٨ فبراير ١٨٨٥م وقع الإمبراطور الألماني وليم الأول على مرسوم الحماية الإمبراطوري للمناطق المقابلة لجزيرة زنجبار في البر الأفريقي، حيث تم بموجبه فرض الحماية الألمانية على المنطقة الإفريقية المواجهة لزنجبار واحتج السلطان برغش على مرسوم الحماية الألماني برسالة موجهة للإمبراطور نظراً لأن المناطق التي شملها مرسوم الحماية كانت ضمن سيادة سلطنة زنجبار^(٢٤)؛ مثل: مناطق (كيوزا جارا وتابورا ويوجيجي، حيث تم الاستحواذ على ٩٦٤٥٠ كم مربع من الأراضي الخاضعة لسلطان زنجبار. وكان الرد الألماني بإرسال قطع من أسطولها الحربي للضغط على سلطان زنجبار برغش،

الحكومة البريطانية. لم يستجب القنصل البريطاني لطلب الوفد بعزل السلطان خليفة لكنه اقترح على الحكومة البريطانية أن الانقسام في زنجبار يجعل الوقت مناسباً لتقسيم ممتلكات سلطنة زنجبار في داخلية شرق أفريقيا بين بريطانيا وألمانيا وهو ما تم بالفعل^(٢٨).

تُوفى السلطان خليفة بن سعيد في ٢٣ جمادى الثانية (١٣٠٧هـ / ١٣ فبراير ١٨٩٠م)، وكان عمره ٣٨ عاماً ومدة حكمه سنتان إلا أربعة وعشرون يوماً^(٢٩). وتولى بعده حكم سلطنة زنجبار أخيه السلطان علي بن سعيد (١٣٠٧-١٣١٠هـ / ١٨٩٠-١٨٩٣م). وتتلخص الوقائع في سبب موت السيد خليفة أنه قام بزيارة قصره الريفي للاستمتاع بالهواء الطلق، وكان في صحة جيدة؛ ولكنه ما لبث أن وقع بعد مضي بضعة أيام من تلك الزيارة صريع المرض (حمى شديدة) إثر عودته من رحلة قنص استغرقت ساعات قلائل ثم ما لبث أن مات متأثراً بضربة الشمس والحرارة^(٣٠). ويصف بينت Bennett (مسؤول أمريكي معاصر للسيد خليفة): "إن السيد خليفة ببساطة حاكم نبيل وعادل"، ويرى أن السيد خليفة دافع عن مصالح رعاياه العرب، وإنه لا يقل شأنًا عن سلاطين زنجبار الآخرين المعروفين^(٣١).

٢/١-الإمبراطور ولهم الثاني

(١٣٠٥-١٣٣٦هـ / ١٨٨٨-١٩١٨م)

تولى ولهم الثاني الحكم في ألمانيا بعد وفاة والده الامبراطور فريدريك الثالث الذي لم يمكث في الحكم طويلاً، حيث حكم لمدة ٩٩ يوم تقريباً (ثلاثة أشهر) خلال الفترة: (٩ مارس ١٨٨٨م - ١٥ يونيو ١٨٨٨م)، ويعد ولهم الثاني الإمبراطور الأخير لألمانيا الموحدة فيما يعرف بالرايخ الألماني الثاني، ومكث في الحكم لمدة طويلة حوالي ٣٠ عاماً، وبعد خسارة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨م أجبر ولهم الثاني على التنحي عن عرش الإمبراطورية وانتهت بذلك فترة حكم الإمبراطورية الألمانية التي كان لأوتو فون بسمارك^(٣٢) الدور الكبير في تأسيسها بعد توحيد الولايات الألمانية الشمالية والجنوبية واختيار ملك بروسيا ولهم الأول

في تاريخ زنجبار)، حيث يذكر المغيري أن السيد خليفة بن سعيد عزم على اختلاس الملك من أخيه السيد برغش عندما كان في زيارة لأوروبا في عام ١٨٧٥م؛ ولكن نائبه على السلطنة السيد علي بن سعود علم بذلك، فتدارك الأمر قبل وقوعه، وألقي القبض على السيد خليفة وحجر الخروج عليه حتى يعود السيد برغش إلى زنجبار وأفادت الأخبار أن حجر الخروج عليه استمر سنتين^(٣٣). لم يطلق السلطان برغش سراح أخيه إلا عندما نوت إحدى أخواته الحج إلى مكة، فخاف أن تصبه دعوة عليه هناك بالمدينة المقدسة، فطلب من أخته أن تغفو عنه فرفضت إلا بعد أن تم إطلاق سراح أخيه خليفة من الحبس^(٣٤).

يُعدّ السلطان السيد خليفة بن سعيد ثالث سلاطين زنجبار، وحكم سلطنة زنجبار خلال الفترة: (١٣٠٥-١٣٠٧هـ / ١٨٨٨-١٨٩٠م) خلفاً لأخيه غير الشقيق السلطان السيد برغش بن سعيد، حيث تولى السلطان السيد خليفة الحكم في يوم الجمعة ١٧ رجب عام ١٣٠٥هـ / ٣٠ مارس ١٨٨٨م^(٣٥)، بعد وفاة أخيه السلطان برغش في الساعة الثامنة والنصف مساء ليلة الخميس ١٤ رجب ١٣٠٥هـ / ٢٧ مارس ١٨٨٨م في الباخرة في طريق العودة إلى زنجبار^(٣٦). ومن أهم الصفات التي عُرف بها السيد خليفة أنه كان متسامحاً، مقرباً لعلماء زنجبار وقضاتها. وقد عمل على إعادة القضاة الذين عزلهم أخيه السلطان برغش إلى القضاء؛ ومنهم: القاضي عبد العزيز بن عبد الغني الأموي، والقاضي أحمد سميط^(٣٧). وفي عهده طالب عرب الجزيرة الخضراء (بمبا) برفع الضريبة التي وضعها السلطان برغش على القرنفل ووعدهم بتخفيض تلك العشور الكبيرة لكن وزراءه عارضوه؛ مما أثار استياء ملاك الاقطاعيات الزراعية، ومع ذلك ونتيجة للمصالح المشتركة تراجع الملاك عن المضي قدماً في مطالبهم^(٣٨). ومن الأحداث التي تُسجل في عهد السلطان السيد خليفة بن سعيد محاولة أخيه السيد علي بن سعيد لإزاحته عن الحكم من خلال التآمر مع بعض الزعماء، حيث شكّل وفداً في عام ١٣٠٦هـ / ١٨٨٩م وذهب لمقابلة القنصل البريطاني إيوان سميث للاحتجاج على أداء أخيه السلطان خليفة، وأبدى الوفد استعداداً للتعاون مع

إيان سميث قام بإبلاغ السيد خليفة باختياره من قبل الحكومتين البريطانية والألمانية كسلطان على زنجبار وفقاً لشروط محددة تمت الموافقة عليها من قبل السيد خليفة، والمتمثلة في المصادقة على الامتيازات الممنوحة من قبل السلطان السيد برغش^(٣٥) للشركتين الأوربيتين: البريطانية والألمانية، ضمن ما يُعرف تاريخياً بالاتفاقية الإنجليزية-الألمانية في عام ١٨٨٦م^(٣٦)، والتي قُسمت من خلالها شرق أفريقيا إلى منطقتي نفوذ بريطانية، وأخرى ألمانية، ولم تعترف لزنجبار إلا بعشرة أميال إلى الداخل من الشريط الساحلي الممتد من كسمايو في الصومال شمالاً، إلى نهر روفومو شمال موزمبيق جنوباً. ووافق السيد خليفة على تلك الشروط رغبة في التخلص من عزلته التي فرضها عليه أخيه السلطان برغش^(٣٧).

تمكن الألمان بعد شهرين من تولي السيد خليفة مقاليد الحكم في زنجبار -وبأسلوب الضغط- من إنهاء المفاوضات معه، ونص الاتفاق على منح شركة إفريقيا الشرقية الألمانية الشريط الساحلي الممتد من أومبا إلى روفوما، والمعروفة تاريخياً باتفاقية تأجير البر الأفريقي، وتم توقيعها في ١٦ شعبان ١٣٠٥هـ / ٢٨ أبريل ١٨٨٨م، وتتضمن الاتفاقية خمسة عشر بنداً^(٣٨). وفي ١٦ من أغسطس ١٨٨٨م، تم نقل السلطة رسمياً إلى الشركة^(٣٩).

كانت الاتفاقية مع الشركة الألمانية تنص على أن تدير الشركة المنطقة الساحلية من أومبا إلى روفوما نيابة عن السلطان خليفة وتحت اسمه، وأن يظل علمه مرفوعاً مع الاعتراف بكامل حقوق زنجبار السيادية. لكن ما إن تسلمت الشركة المنطقة حتى تنكرت لعهودها فأنزلت العلم الزنجباري ورفعت علمها مكانه وطالبت السكان بتسجيل الأراضي واستنزف موظفوها السكان مما أدى إلى ظهور حركة المقاومة بقيادة الشيخ بشير بن سالم الحارثي. واتهم الألمان السلطان خليفة بالتحريض على الثورة ودعمها بالمؤن والسلاح، فأقنعوا البريطانيين بمشاركتهم في فرض الحصار على ساحل زنجبار منعاً لوصول السلاح للثوار^(٤٠). وفي رسالة من السلطان السيد خليفة بن سعيد إلى القنصل الإنجليزي شرح فيها الإجراءات التعسفية وتجاوزات الألمان. ٢٣/٤/١٣٠٦هـ - ٢٦/١٢/١٨٨٨م^(٤١).

ليكون إمبراطوراً لها، ويمكن تلخيص التطور التاريخي لظهور جمهورية ألمانيا الاتحادية في الآتي^(٣٣):

- الكونفدرالية الألمانية (١٨١٥-١٨٦٦م).
- الاتحاد الألماني الشمالي (١٨٦٧-١٨٧٠م).
- الإمبراطورية الألمانية (١٨٧١-١٩١٨م).
- جمهورية فايمار (١٩١٩-١٩٣٤م).
- ألمانيا النازية (١٩٣٤-١٩٤٥م).
- ألمانيا الغربية (جمهورية ألمانيا الاتحادية) وألمانيا الشرقية (جمهورية ألمانيا الديمقراطية) (١٩٤٥-١٩٩٠م).
- جمهورية ألمانيا الاتحادية (١٩٩٠- حتى الآن).

أما أباطرة ألمانيا خلال الفترة التاريخية التي عُرِفَتْ فيها بالإمبراطورية الألمانية (ألمانيا القيصرية): (١٨٧١-١٩١٨م)^(٣٤):

الإمبراطور فيلهلم الأول أو ولهم الأول (١٨٧١-١٨٨٨م): قبل توليه حكم الإمبراطورية الألمانية بعد توحيد الولايات الألمانية الشمالية والجنوبية كان ملك بروسيا خلال الفترة (١٨٦١-١٨٧١م)، توفي في ٩ مارس ١٨٨٨م.

الإمبراطور فريدريك الثالث ابن ولهم الأول: (٩ مارس ١٨٨٨م - ١٥ يونيو ١٨٨٨م): تولى الحكم بعد وفاة والده ولهم الأول ولم يمكث طويلاً في الحكم لإصابته بمرض السرطان فتوفى بعد ثلاثة أشهر من اعتلائه عرش الإمبراطورية الألمانية.

الإمبراطور فيلهلم الثاني أو ولهم الثاني: (١٨٨٨-١٩١٨م): تولى الحكم بعد وفاة والده الإمبراطور فريدريك الثالث.

ثانياً: جوانب من العلاقات بين سلطنة زنجبار وألمانيا في عهد السلطان خليفة بن سعيد

١/٢-البعد السياسي

تبدأ العلاقات بين سلطنة زنجبار وألمانيا في عهد السلطان خليفة بن سعيد منذ الأيام الأولى لتوليه الحكم وتعود تفاصيل تلك العلاقة إلى أن القنصل البريطاني

تجارة العبيد، ويبلغه أيضا بإرسال نسخة من القرار الصادر من الجنرال ويسمان نائب الدولة الألمانية في البر الأفريقي والمتضمن بمنع تصدير الأسلحة إلى منطقة البر الأفريقي. ١٣٠٧/٢/٥ هـ- ١٨٨٩/٩/٣٠ م^(٤٧).

وعموماً أدت سوء الإدارة الألمانية لمناطق الامتياز الألماني إلى ثورة السكان المحليين في مناطق الامتياز ضد الألمان، ومن أبرز تلك الثورات ثورة الشيخ بشير بن سالم الحارثي (١٨٨٨-١٨٨٩ م) والذي حقق في البداية عدة نجاحات ضد الألمان لكن بعدها تم الإمساك به وإعدامه عام ١٨٨٩ م. وبسبب هذه الثورة في عام ١٨٨٨ م انتقلت إدارة المستعمرة الألمانية في شرق أفريقيا من شركة شرق أفريقيا الألمانية إلى الرايخ الألماني (البرلمان) على إثر قيام ثورة بشير الحارثي في نفس العام وطلبت الشركة من الحكومة الألمانية المساعدة في القضاء على هذه الثورة وهو ما يفسر تدخل المستشار الألماني لمحاولة تهدئة الأوضاع مع السلطان خليفة بن سعيد.

كما تثبت المراسلات محاولة الألمان في التدخل لصالح السلطان خليفة بن سعيد في الحادثة التي حاول فيها الطليان فرض نفوذهم على السلطان خليفة بن سعيد على نحو ما كان لبريطانيا وألمانيا، وبعد بعض المحاولات الدبلوماسية الفاشلة قدم القنصل الإيطالي طلب للسيد خليفة بالتنازل عن ولاية كسمايو على أن يكون تنازلاً غير مشروط^(٤٨). رفض السلطان السيد خليفة الفكرة أو مناقشتها؛ مما أثار رده غضب القنصل الإيطالي الذي قام بإنزال العلم الإيطالي من على مبنى القنصلية^(٤٩)، وتوقف عن الاتصال بالسلطان خليفة^(٥٠). إزاء هذا التصعيد من الجانب الإيطالي أرسل السلطان خليفة رسالة للقنصل الإيطالي أوضح فيها تأخر رده بانشغاله في الصيام^(٥١). كما أرسل السلطان خليفة بن سعيد رسالة إلى القنصل الإنجليزي إيان سميث يشرح فيها محاولات الطليان الاستيلاء على كسمايو ويطلب مساعدة الانجليز والألمان لإيقاف التدخل الإيطالي في أملاك سلطان زنجبار^(٥٢).

أثار هذا التصرف من جانب القنصل الإيطالي مخاوف كل من ألمانيا وبريطانيا وحاولتا تهدئة الأمور، حيث قام بسمارك المستشار الألماني بتوجيه القنصل

تدخل المستشار الألماني بسمارك لحل المسألة وهو ما توضحه رسالة منه مؤرخة في ١٠/٣/١٣٠٧ هـ- ١٨٨٩/١١/٣ م إلى السلطان خليفة بن سعيد يبلغه فيها رغبة الامبراطور الألماني في استقرار الأوضاع في منطقة البر الأفريقي طالباً مساعدته في تحقيق ذلك، كما يبلغه الموافقة على طلب جلالته في خفض ضريبة العشور التي تأخذها الشركة الألمانية^(٥٣). كما أرسل بسمارك المستشار الألماني إلى السلطان خليفة يبلغه رفضه للفعل الذي قامت به الشركة برفع علمها إلى جانب علم جلالته، كما يوضح له أنه سينظر إلى الشكاوى المرفوعة ضد الشركة الألمانية الأفريقية بخصوص الضرائب بالرجوع إلى الاتفاقية المبرمة بين الطرفين، وأخيراً يؤكد على حرص الامبراطور ولهم على علاقات الود والصداقة بين البلدين. ١٣٠٦/١٢/١١ هـ- ١٨٨٩/٨/٧ م^(٥٤).

استغلت ألمانيا إمكانياتها العسكرية وتمكنت بعد جهد جهيد من القضاء على ثورة الشيخ بشير بن سالم الحارثي والقبض عليه وإعدامه، وقد لعبت بريطانيا دورها في مساعدة ألمانيا في صراعها مع الثوار، وقد ترتب على النجاح البريطاني الألماني في القضاء على ثورة الساحل رفع الحصار عن الساحل الشرقي لأفريقي، وكان المقابل إصدار جديد ضد تجارة الرقيق حيث قام السيد خليفة بتوقيع اتفاق في سبتمبر ١٨٨٩ م، وينص هذا الاتفاق على تخويل كل من بريطانيا وألمانيا الحق في تفتيش المراكب العربية في مياه زنجبار بحثاً عن الأرقاء (العبيد)^(٥٥)، وبمنع دخول الأسلحة إلى زنجبار والجزيرة الخضراء (منع تجارة السلاح)^(٥٥)، كما تم التعهد على اعتبار كل أبناء العبيد الذين يولدون بعد الأول من يناير ١٨٩٠ م أحراراً، وتم توقيع التعهد/ الاتفاقية في ١٨/١/١٣٠٧ هـ- ١٨٨٩/٩/١٣ م^(٥٦). وهو ما تثبتته المراسلات المختلفة منها: رسالة من نائب القنصل الألماني في زنجبار إلى السلطان خليفة بن سعيد يبلغه بإرسال ترجمة للإعلان المتفق عليه من قبل الألمان والإنجليز والطليان وبموجبه سيتم رفع الحصار عن منطقة البر الأفريقي في الأول من أكتوبر ١٨٨٩ م، كما يبلغه إرسال نسخة من الإعلان/ القرار الصادر من القبطان الألماني وعلى ضوئه سيتم تفتيش السفن لمنع

خليفة بن سعيد سلطان زنجبار إلى ولهم الثاني إمبراطور ألمانيا وملك بروسيا يعزيه في وفاة والده، ويهنئه بمناسبة توليه الحكم، مؤرخة في: ١٢/١٢/١٣٠٥هـ - ١٨٨٨/٨/٢٦م^(٥٧).

ومما توثقه المراسلات المتبادلة بين الجانبين أيضاً رسالة من السلطان خليفة إلى بسمارك وزير خارجية ألمانيا يشكره على الموافقة في تعيين ألبات أسولد كقنصل لسلطان زنجبار في همبورج بألمانيا، مؤرخة في: ١٢/١٢/١٣٠٥هـ - ١٨٨٨/٨/٢٤م^(٥٨). ورسالة أخرى من السلطان خليفة إلى القنصل الجنرال ألبات أسولد يعلمه فيها بموافقة بسمارك وزير خارجية ألمانيا على تعيينه كقنصل لسلطان زنجبار في ألمانيا ومباشرة أعماله في المنصب مؤرخة في: ١٢/١٢/١٣٠٥هـ - ١٨٨٨/٨/٢٤م^(٥٩).

كما تبادل الجانبان الوفود، فتوجه وفد مرسل من السلطان خليفة بن سعيد إلى برلين لمقابلة الإمبراطور الألماني ولهم الثاني، وكانت هناك مراسلات لترتيب تلك الزيارة، منها: رسالة من نائب القنصل الألماني في زنجبار إلى خليفة بن سعيد سلطان زنجبار حول موعد سفر الوفد المرسل من سلطان زنجبار إلى برلين لمقابلة الإمبراطور الألماني ولهم الثاني وذلك لعمل الترتيبات اللازمة لاستقباله، مؤرخة في: ١٢/٥/١٣٠٦هـ - ١٨٨٩/٨/١م^(٦٠). وبعد انتهاء الزيارة، أرسل الإمبراطور ولهم الثاني قيصر ألمانيا وملك بروسيا رسالة إلى السلطان خليفة بن سعيد سلطان زنجبار يشكره فيها على الوفد المرسل منه، وعلى الهدايا المرسلة منه من خلال الوفد الذي زاره في برلين، مؤرخة في: ١٢/٢/١٣٠٧هـ - ١٨٨٩/٩/٣٠م^(٦١). كما تلقى السلطان خليفة رسالة من بسمارك المستشار الألماني يشكره على الوفد المرسل (ومنهم: سعود بن حمد ومحمد بن سليمان) من جلالته لمقابلة الإمبراطور ولهم الثاني (١٨٨٨-١٩١٨م) ويبلغه رغبة الإمبراطور الألماني في استقرار الأوضاع في منطقة البر الأفريقي طالباً مساعدة سلطان زنجبار في تحقيق ذلك. كما يبلغه الموافقة على طلب جلالته في خفض ضريبة العشور التي تأخذها الشركة الألمانية، مؤرخة في: ١٠/٣/١٣٠٧هـ - ١٨٨٩/١١/٣م^(٦٢).

الألماني في زنجبار إلى العمل على تهدئة الوضع؛ لأن إضعاف السلطان خليفة يؤثر على المصالح الاستعمارية الألمانية في شرق أفريقيا، وقد لعب السفير الألماني والسفير البريطاني دورهما في توضيح أن استخدام القوة الإيطالية ضد السلطان خليفة سوف يترتب عليه موقف بريطاني ألماني معارض. وهكذا نجح الضغط الدبلوماسي في جعل إيطاليا تعيد النظر في موقفها وهو ما تم بالفعل ولهذا أوقفت إيطاليا أطماعها مؤقتاً^(٥٣).

وأهم حدث بعد وفاة السلطان خليفة وفي عهد أخيه السلطان علي بن سعيد (١٣٠٧-١٣١٠هـ / ١٨٩٠-١٨٩٣م)، هو توقيع اتفاقية موقعة بين مدير الشركة الإنجليزية الأفريقية ممثلاً لبريطانيا والكميسار القيصري - ويسمان نائب الدولة الألمانية في البر الأفريقي- ممثلاً لألمانيا، تتضمن الاتفاقية تسعة بنود تنظم عدد من القضايا بين الطرفين (تبعية بعض المناطق/ تجارة العبيد/ تجارة الأسلحة/ الرعايا) مؤرخة في: ١٢/٦/١٣٠٧هـ - ١٤/٢/١٨٩٠م^(٥٤). واتفاقية تقسيم أملاك زنجبار بين ألمانيا وبريطانيا^(٥٥)، وفق ما نصت عليه اتفاقية هيلغولاند-زنجبار بتاريخ ١ يوليو ١٨٩٠م التي وقعت بين ألمانيا وبريطانيا في العاصمة الألمانية برلين ومن ضمن البنود التي نصت عليها اعتراف ألمانيا بالحماية البريطانية على زنجبار أي تخليها عن اعترافها باستقلال زنجبار مقابل تخلي بريطانيا عن جزيرة هوليفلاند الواقعة في بحر الشمال لصالح ألمانيا، كما نصت المعاهدة على تحديد خط حدودي بين منطقتي النفوذ الألمانية والبريطانية، وإعادة تقسيم بعض المناطق الأفريقية بين البلدين، إضافة إلى الضغط على سلطان زنجبار للتنازل عن بعض ممتلكاته وأراضيه التابعة له نظير مبلغ مالي^(٥٦).

٢/٢-البعد الدبلوماسي

شهدت العلاقات بين سلطنة زنجبار وألمانيا في عهد السلطان خليفة بن سعيد، نشاطاً دبلوماسياً ظهر في المراسلات التي تثبتها الوثائق بين الجانبين، والتي توثق تبادل القناصل، والوفود والهدايا بين الجانبين. وتبدأ تلك المراسلات من خلال رسالة موجهة من السلطان

وفي جانبه الثاني: وما تشاءون إلا أن يشاء الله، محمد رسول الله، تقديم العبودية بصدق المحبة، ما الحقيقة من طرف أهل البلاد المذكورة أدناه، عند خادمه الوالي سليمان بن ناصر الملكي، إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً، ما شاء الله.

كلوة وما تعلق بها، ليندي وما تعلق بها، سودي وما تعلق بها، مكنداني وما تعلق بها.

فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ١٨٩٠م
١٣٠٧هـ^(٦٥). كما يذكر بنیان سعود تركي أن قيصر ألمانيا أهدى السلطان خليفة بن سعيد ساعة ثمينة مطلية بالذهب^(٦٦).

خاتمة

تعود جذور العلاقات التاريخية بين الألمان وزنجبار إلى عهد السلطان السيد سعيد بن سلطان، واتخذت تلك العلاقات الجانب الرسمي في عهد السلطان ماجد بن سعيد (١٢٧٣-١٢٨٧هـ / ١٨٥٦-١٨٧٠م) من خلال توقيع معاهدة تجارية بين سلطان زنجبار والمدن الهانزية الحرة الألمانية: (لوبيك، بريمن، هامبورغ) حول المصالح التجارية المشتركة بين الطرفين، والموقعة بتاريخ: ١١/١١/١٢٧٥هـ - ١٣/٦/١٨٥٩م.

اتخذت العلاقات الألمانية مع سلطنة زنجبار في عهد السلطان خليفة بن سعيد بعدين:

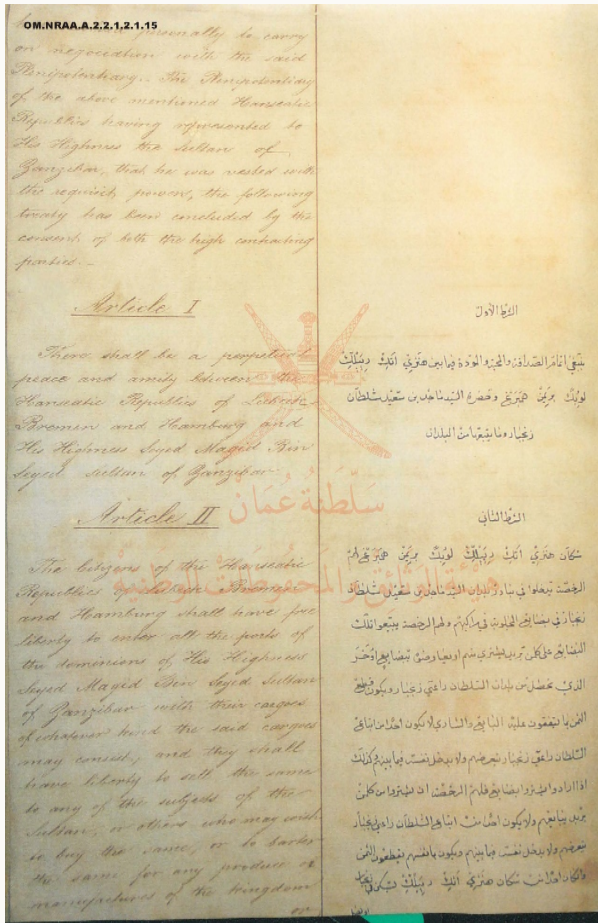
البعد السياسي-الاقتصادي (الاستعماري): وهذا يظهر من خلال الشركة الألمانية الشرقية ومحاولتها في التعدي على أملاك سلطنة زنجبار، وانعكس ذلك سلبياً من خلال ثورة الشيخ بشير بن سالم الحارثي وما ترتب عليه من حصار لزنجبار وتوقيع عدد من الاتفاقيات حول تجارة السلاح والعبيد.

البعد الدبلوماسي: ويتضح من خلاله العلاقات الودية بين السلطان خليفة بن سعيد والامبراطور ولهم الثاني، فتم تبادل السفراء، والوفود والهدايا وهو ما تكشفه الوثائق التي تسجل تلك المراسلات بين الطرفين. تثبت الوثائق أن الأطماع الاستعمارية للألمان في عهد السلطان خليفة بن سعيد أدت إلى رضوخ السلطان علي

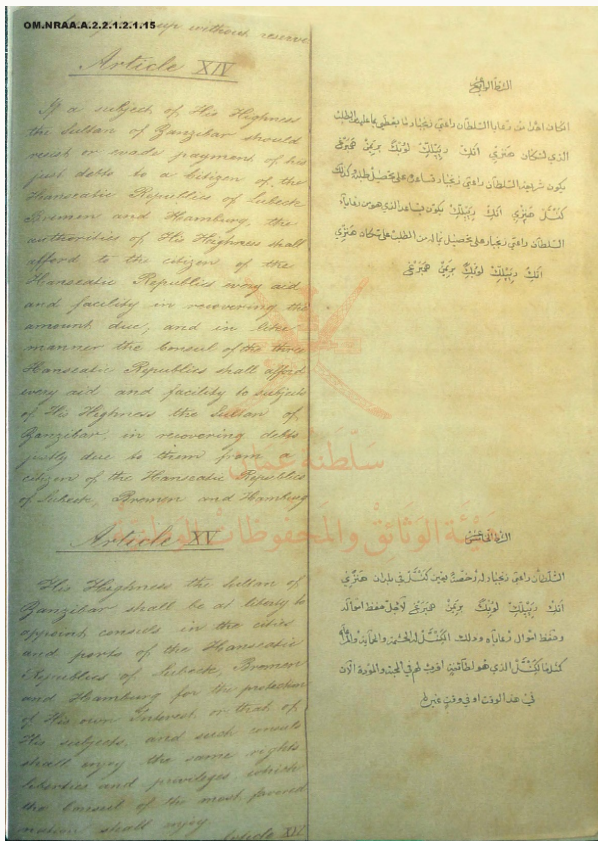
كما تناولت المراسلات الدبلوماسية بين الطرفين موضوع التهدة بين السلطان خليفة بن سعيد والشركة الألمانية الأفريقية، فتلقى السلطان خليفة رسالة من الامبراطور ولهم الثاني قيصر ألمانيا وملك بروسيا يبلغه برفع موضوع شكاوى جلالته تجاه الشركة الألمانية الأفريقية إلى المستشار بسمارك، مع طمأنة جلالته بإمكانية التوصل إلى اتفاق مُرضي للطرفين بما يضمن علاقات الود والصداقة بين البلدين مؤرخة في: ١٩/١٢/١٣٠٦هـ - ١٥/٨/١٨٨٩م (الوثيقة ترجمة باللغة العربية عن الألمانية)^(٦٣)، سبقتها رسالة من بسمارك المستشار الألماني إلى السلطان خليفة بن سعيد يبلغه عن رفضه للفعل الذي قامت به الشركة برفع علمها إلى جانب علم جلالته، كما يوضح له أنه سينظر إلى الشكاوى المرفوعة ضد الشركة الألمانية الأفريقية بخصوص الضرائب بالرجوع إلى الاتفاقية المبرمة بين الطرفين، وأخيراً يؤكد على حرص الامبراطور ولهم على علاقات الود والصداقة بين البلدين، مؤرخة في: ١١/١٢/١٣٠٦هـ - ٧/٨/١٨٨٩م.^(٦٤)

ويذكر المغيري: "وفي عام (١٣٠٧هـ / ١٨٩٠م) أهدت المستعمرات الألمانية المعروفة بالمرائم في هذه الأفريقية سيفاً مذهباً، بواسطة الشيخ الجليل سليمان بن ناصر الملكي، الذي قدمه بنفسه لجلالة ملك الألمان في برلين، مطرزاً بصفايح الذهب، وعصاً ذهبية بغاية الهندسة والاتقان، وفي جانب هذا السيف الوجيهي مكتوب هذه العبارة: (بسم الله الرحمن الرحيم، إلى حضرة صاحب العز والاقترار جلالة السلطان، والملهم المعظم، قيصر ألمانيا، ملك بروسيا، سلمه الله تعالى، وأبقاه ونصره على أعدائه، نصر من الله وفتح قريب- بواغامويو وما تعلق بها، تانغة وما تعلق بها، سعدان وما تعلق بها) وهذان البيتان

لصاحبه السعادة والسلامة
وطول العمر ما ناحت حمامة
وعز دائم لا ذل فيه
واقبال إلى يوم القيامة



ص: (٢)



ص: (٣)

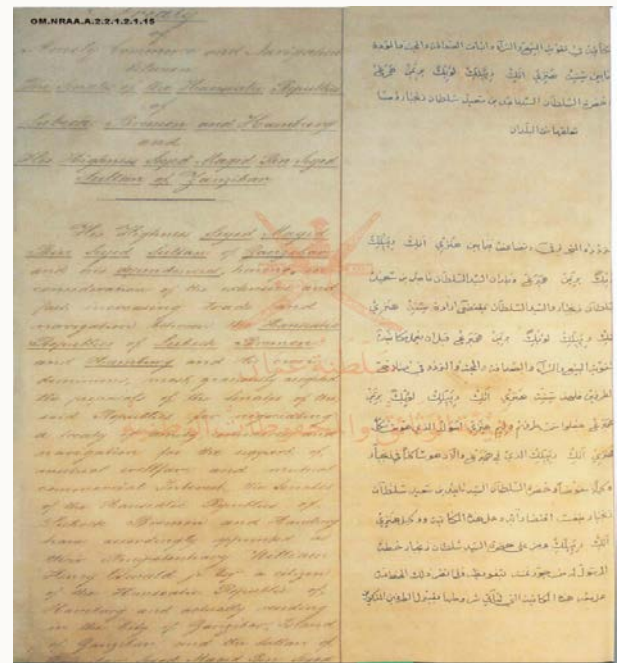
بن سعيد لضغط الإنجليز وقبوله توقيع اتفاقية وضع زنجبار تحت الحماية الإنجليزية في ٤ نوفمبر ١٨٩٠م. ختاماً، توصي الدراسة بالبحث الوثائقي المعمق لأرشفيات متنوعة كالأرشفة العُمانية والعثمانية والروسية، وعدم الارتكان للسردية الغربية التي تتمثل في الوثائق الإنجليزية والألمانية التي تشوه بعض الحقائق المتعلقة بتاريخ زنجبار.

الملاحق:

صور من الوثائق

رقم (١)

اتفاقية بين السلطان ماجد بن سعيد سلطان زنجبار (١٢٧٣-١٢٨٧هـ / ١٨٥٦-١٨٧٠م) والمدن الهانزية الحرة الألمانية: (لوبيك، بريمن، هامبورغ) حول المصالح التجارية المشتركة بين الطرفين. ١١/١١/١٢٧٥هـ - ١٣/٦/١٨٥٩م: الرصيد الوثائقي للسلطان ماجد بن سعيد البوسعيدي، هيئة الوثائق والمحفوظات الوطنية، مسقط، سلطنة عُمان، ملف شؤون خارجية، رمز الوثيقة: OM.NRAA.A.2.2.1.2.1.15(2-14)

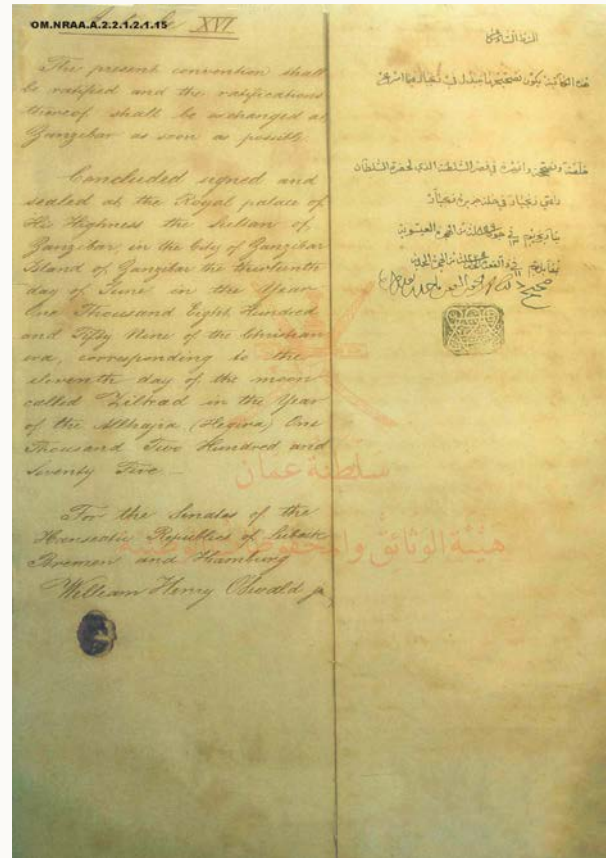
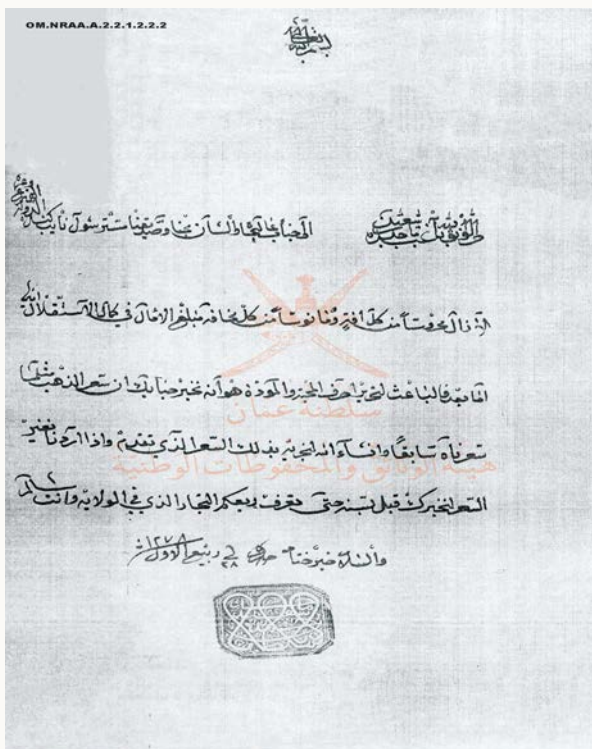


ص: (١)

رقم (٢)

رسالة من السلطان ماجد بن سعيد سلطان زنجبار
(١٢٧٣-١٢٨٧هـ / ١٨٥٦-١٨٧٠م) إلى شول نائب
القنصل الألماني (دولة الهمبو/ همبورغ) يبلغه بثبات
سعر الذهب في زنجبار ٢٨/٣/١٢٧٨هـ -
٣٠/١١/١٨٦١م: الرصيد الوثائقي للسلطان ماجد بن
سعيد البوسعيدي، هيئة الوثائق والمحفوظات الوطنية،
مسقط، سلطنة عُمان، ملف شؤون خارجية، علاقات
خارجية مع ألمانيا، عملة وضرائب، رمز الوثيقة:

OM.NRAA.A.2.2.1.2.2.2(2)



ص: (٤)

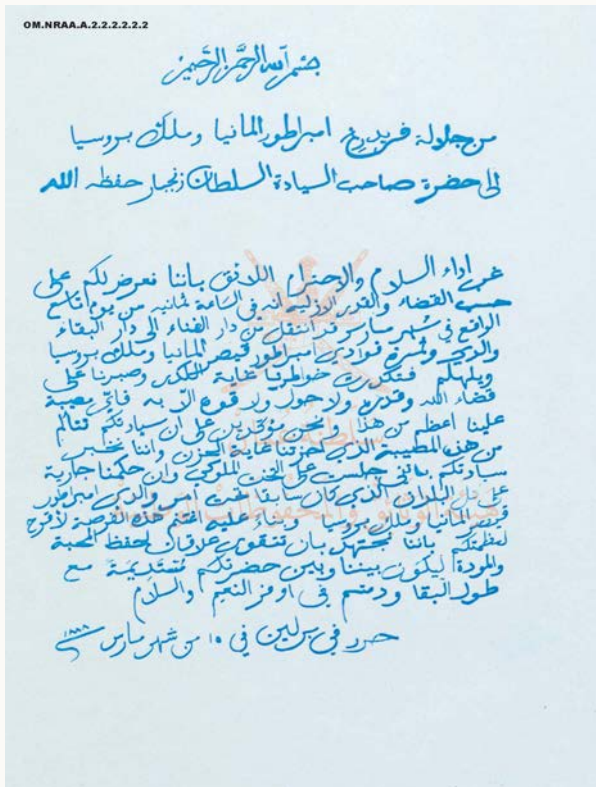
رقم (٣)

رسالة من ولهم الأول امبراطور ألمانيا وملك بروسيا
(١٨٧١-١٨٨٨م) إلى السلطان برغش بن سعيد سلطان
زنجبار (١٢٨٧-١٣٠٥هـ / ١٨٧٠-١٨٨٨م) يطلب منه
اعتماد أوراق الدكتور جدهارد غلفس كقنصل ألماني في
زنجبار تأكيداً لعلاقات الصداقة والتعاون بين الدولتين.
(غير مؤرخة)، رصيد السلطان برغش، علاقات خارجية
مع ألمانيا، شؤون قنصلية، رمز الوثيقة:

OM.NRAA.A.2.2.2.2.2(22)

رقم (٤)

رسالة من الإمبراطور فريدريك الثالث (٩ مارس
١٨٨٨م - ١٥ يونيو ١٨٨٨م) إمبراطور ألمانيا وملك
بروسيا إلى السلطان برغش بن سعيد (١٢٨٧-١٣٠٥هـ /
١٨٧٠-١٨٨٨م) سلطان زنجبار، يعلمه فيها بتوليته
الحكم، ويؤكد على استمرار العلاقات الودية بينهم.
٣/٧/١٣٠٥هـ - ١٥/٣/١٨٨٨م. رصيد السلطان
برغش، علاقات خارجية مع ألمانيا، شؤون قنصلية، رمز
الوثيقة: OM.NRAA.A.2.2.2.2.2(20)



رقم (٥)

رسالة من برغش بن سعيد سلطان زنجبار (١٢٨٧-١٣٠٥هـ / ١٨٧٠-١٨٨٨م) إلى بسمارك المستشار الألماني يعترض فيها على مادة وردت في الإعلان الصادر من الامبراطور الألماني ولهم الأول (١٨٧١-١٨٨٨م) والذي ينص على ضم عدد من المناطق التابعة لسلطنة زنجبار تحت سلطة الألمان موضعاً حجتة في ذلك. ١٣٠٢/٧/٢٦هـ - ١٨٨٥/٥/١١م. رصيد السلطان برغش، علاقات خارجية مع ألمانيا، شؤون قنصلية، رمز الوثيقة: OM.NRAA.A.2.2.2.2.2(15)



رقم (٦)

وثيقة تضم ثلاث مراسلات كالاتي:

- رسالة من السلطان خليفة بن سعيد سلطان زنجبار (١٣٠٥-١٣٠٧هـ / ١٨٨٨-١٨٩٠م) إلى بسمارك وزير خارجية ألمانيا يشكره على الموافقة في تعيين ألبات أسولد كقنصل لسلطان زنجبار في همبورج بألمانيا. ١٣٠٥/١٢/١٧هـ - ١٨٨٨/٨/٢٤م.

- رسالة من السلطان خليفة بن سعيد سلطان زنجبار (١٣٠٥-١٣٠٧هـ / ١٨٨٨-١٨٩٠م) إلى القنصل الجنرال ألبات أسولد يعلمه فيها بموافقة بسمارك وزير خارجية ألمانيا على تعيينه كقنصل لسلطان زنجبار في ألمانيا ومباشرة أعماله في المنصب. ١٣٠٥/١٢/١٧هـ - ١٨٨٨/٨/٢٤م.

- رسالة من السلطان خليفة بن سعيد سلطان زنجبار (١٣٠٥-١٣٠٧هـ / ١٨٨٨-١٨٩٠م) إلى ويلهم الثاني إمبراطور ألمانيا وملك بروسيا (١٨٨٨-١٩١٨م) يعزیه في وفاة والده، ويهنئه بمناسبة توليه الحكم. ١٣٠٥/١٢/١٩هـ - ١٨٨٨/٨/٢٦م.

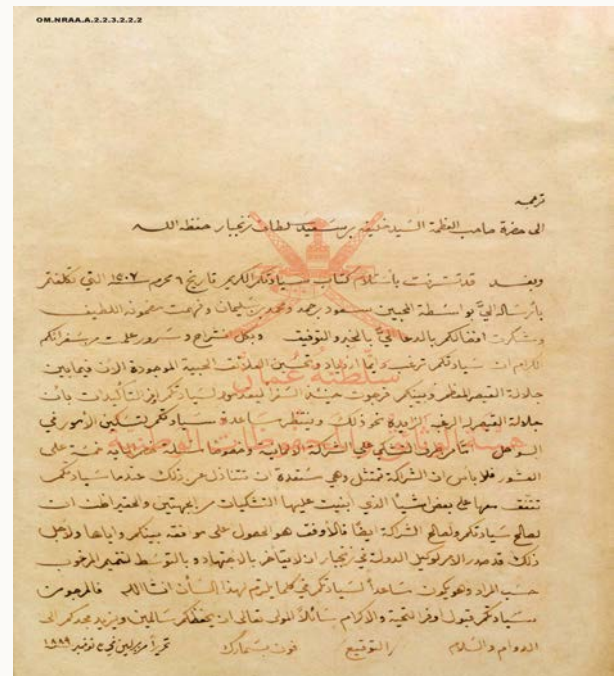
رصيد السلطان خليفة بن سعيد، علاقات خارجية مع ألمانيا، شؤون إدارية وقنصلية:

OM.NRAA.A.2.2.3.2.2.1(2)



رقم (٧)

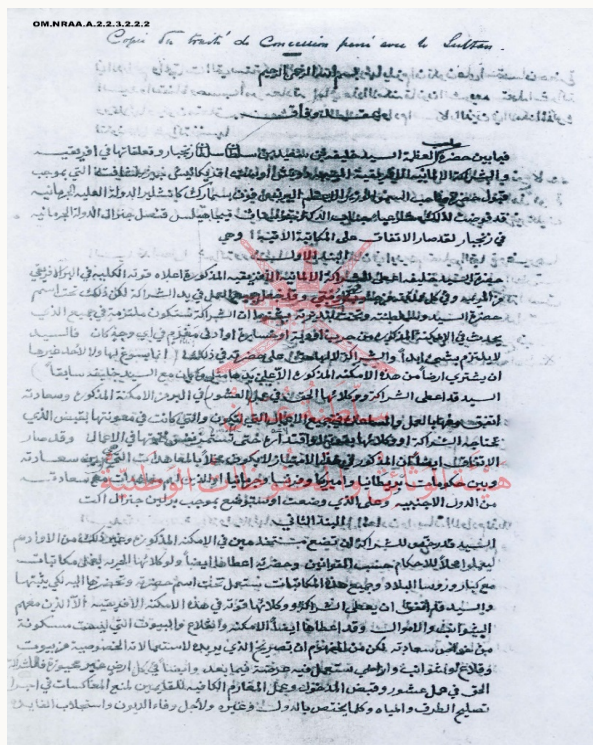
رسالة من بسمارك المستشار الألماني إلى السلطان خليفة بن سعيد سلطان زنجبار (١٣٠٥-١٣٠٧هـ/ ١٨٨٨-١٨٩٠م) يشكره على الوفد المُرسَل (ومنهم: سعود بن حمد ومحمد بن سليمان) من جلالتة لمقابلة الامبراطور ولهم الثاني (١٨٨٨-١٩١٨م) ويبلغه رغبة الامبراطور الألماني في استقرار الأوضاع في منطقة البر الأفريقي طالباً مساعدة سلطان زنجبار في تحقيق ذلك. كما يبلغه الموافقة على طلب جلالتة في خفض ضريبة العشور التي تأخذها الشركة الألمانية. ١٣٠٧/٣/١٠هـ- ١٨٨٩/١١/٣م. رصيد السلطان خليفة بن سعيد، علاقات خارجية مع ألمانيا، شؤون اقتصادية للشركة الألمانية: OM.NRAA.A.2.2.3.2.2(58)



رقم (٨)

اتفاقية تجارية بين السلطان خليفة بن سعيد سلطان زنجبار (١٣٠٥-١٣٠٧هـ/ ١٨٨٨-١٨٩٠م) والشركة الألمانية الأفريقية يتم بموجبها تأجير البر الأفريقي للشركة الألمانية تحت سيادة وسلطة سلطان زنجبار خليفة بن سعيد، وتتضمن الاتفاقية خمسة عشر بنداً. ١٣٠٥/٨/١٦هـ - ١٨٨٨/٤/٢٨م. رصيد السلطان خليفة بن سعيد، علاقات خارجية مع ألمانيا، شؤون اقتصادية للشركة الألمانية:

OM.NRAA.A.2.2.3.2.2(4-7)



ص (١)

[illegible]

ص (٤)

[illegible]

السيد

ص (۲)

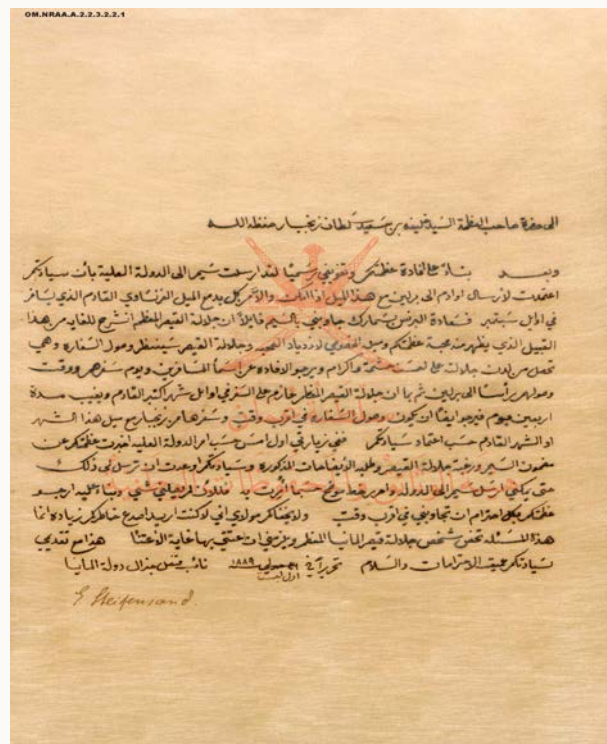
[illegible]

ص (۳)

رقم (٩)

رسالة من نائب القنصل الألماني في زنجبار إلى خليفة بن سعيد سلطان زنجبار (١٣٠٥-١٣٠٧هـ/ ١٨٨٨-١٨٩٠م) حول موعد سفر الوفد المُرسَل من سلطان زنجبار إلى برلين لمقابلة الإمبراطور الألماني ولهم الثاني (١٨٨٨-١٩١٨م) وذلك لعمل الترتيبات اللازمة لاستقباله. ١٣٠٦/١٢/٥هـ - ١٨٨٩/٨/١م. رصيد السلطان خليفة بن سعيد، علاقات خارجية مع ألمانيا، شؤون إدارية وقنصلية:

OM.NRAA.A.2.2.3.2.2.1(8)



رقم (١٠)

رسالة من بسمارك المستشار الألماني إلى السلطان خليفة بن سعيد سلطان زنجبار (١٣٠٥-١٣٠٧هـ/ ١٨٨٨-١٨٩٠م) يبلغه عن رفضه للفعل الذي قامت به الشركة برفع علمها إلى جانب علم جلالته، كما يوضح له أنه سينظر إلى الشكاوى المرفوعة ضد الشركة الألمانية الأفريقية بخصوص الضرائب بالرجوع إلى الاتفاقية المبرمة بين الطرفين، وأخيراً يؤكد على حرص الامبراطور ولهم على علاقات الود والصداقة بين البلدين. ١٣٠٦/١٢/١١هـ - ١٨٨٩/٨/٧م. رصيد السلطان خليفة بن سعيد، علاقات خارجية مع ألمانيا، شؤون اقتصادية للشركة الألمانية:

OM.NRAA.A.2.2.3.2.2.2(30-31)

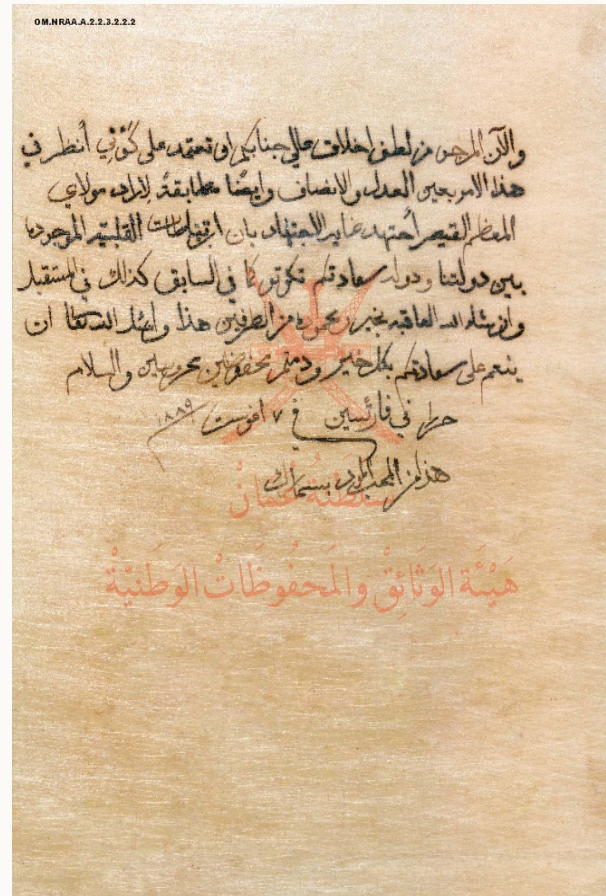


ص (١)

رقم (١١)

رسالة من ولهم الثاني قيصر ألمانيا وملك بروسيا
(١٨٨٨-١٩١٨م) إلى السلطان خليفة بن سعيد سلطان
زنجبار (١٣٠٥-١٣٠٧هـ / ١٨٨٨-١٨٩٠م) يبلغه برفع
موضوع شكاوى جلالتة تجاه الشركة الألمانية الأفريقية
إلى المستشار بسمارك، مع طمأننة جلالتة بإمكانية
التوصل إلى اتفاق مُرضي للطرفين بما يضمن علاقات
الود والصداقة بين البلدين. ١٩/١٢/١٣٠٦هـ-
١٨٨٩/٨/١٥م (الوثيقة ترجمة باللغة العربية عن
الألمانية). رصيد السلطان خليفة بن سعيد، علاقات
خارجية مع ألمانيا، شؤون اقتصادية للشركة الألمانية:

OM.NRAA.A.2.2.3.2.2.2(32)



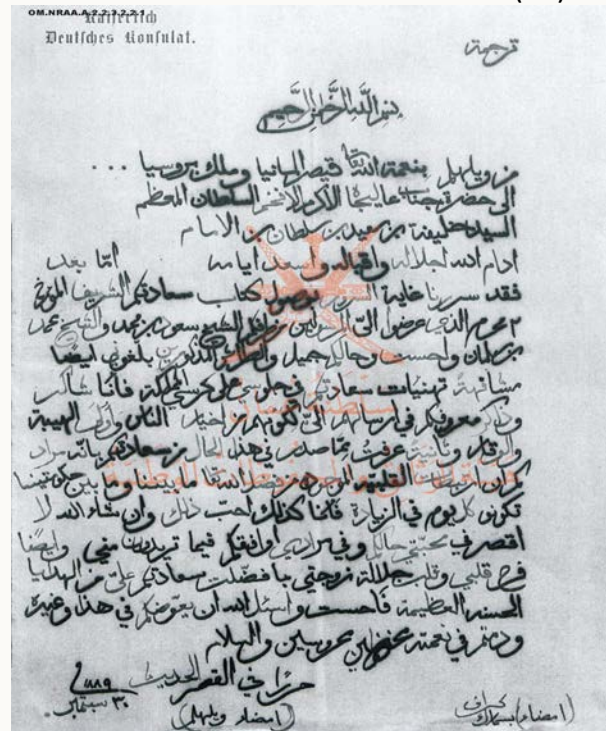
ص (٢)



رقم (١٢)

رسالة من ولهم الثاني قيصر ألمانيا وملك بروسيا
 (١٨٨٨-١٩١٨م) إلى السلطان خليفة بن سعيد سلطان
 زنجبار (١٣٠٥-١٣٠٧هـ / ١٨٨٨-١٨٩٠م) يشكره فيها
 الوفد المرسل منه، وعلى الهدايا المرسلة منه من خلال
 الوفد الذي زاره في برلين. ١٣٠٧/٢/٥هـ-
 ١٨٨٩/٩/٣٠م. رصيد السلطان خليفة بن سعيد،
 علاقات خارجية مع ألمانيا، شؤون إدارية وقنصلية:

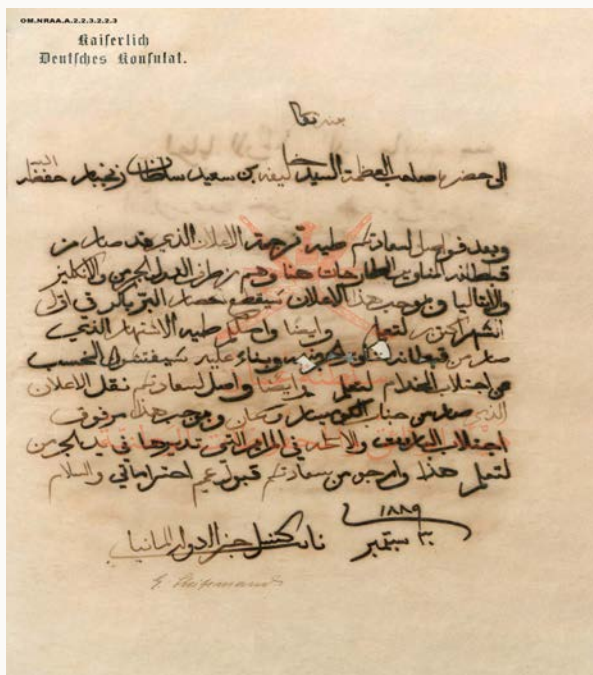
OM.NRAA.A.2.2.3.2.2.1(15)



رقم (١٣)

رسالة من نائب القنصل الألماني في زنجبار إلى
 السلطان خليفة بن سعيد سلطان زنجبار (١٣٠٥-
 ١٣٠٧هـ / ١٨٨٨-١٨٩٠م) يبلغه بإرسال ترجمة للإعلان
 المتفق عليه من قبل الألمان والإنجليز والطيالان وبموجبه
 سيتم رفع الحصار عن منطقة البر الأفريقي في الأول
 من أكتوبر ١٨٨٩م، كما يبلغه ارسال نسخة من الإعلان/
 القرار الصادر من القبطان الألماني وعلى ضوءه سيتم
 تفتيش السفن لمنع تجارة العبيد، ويبلغه أيضا بإرسال
 نسخة من القرار الصادر من الجنرال ويسمان نائب
 الدولة الألمانية في البر الأفريقي والمتضمن بمنع تصدير
 الأسلحة إلى منطقة البر الأفريقي. ١٣٠٧/٢/٥هـ-
 ١٨٨٩/٩/٣٠م. رصيد السلطان خليفة بن سعيد،
 علاقات خارجية مع ألمانيا، شؤون عسكرية:

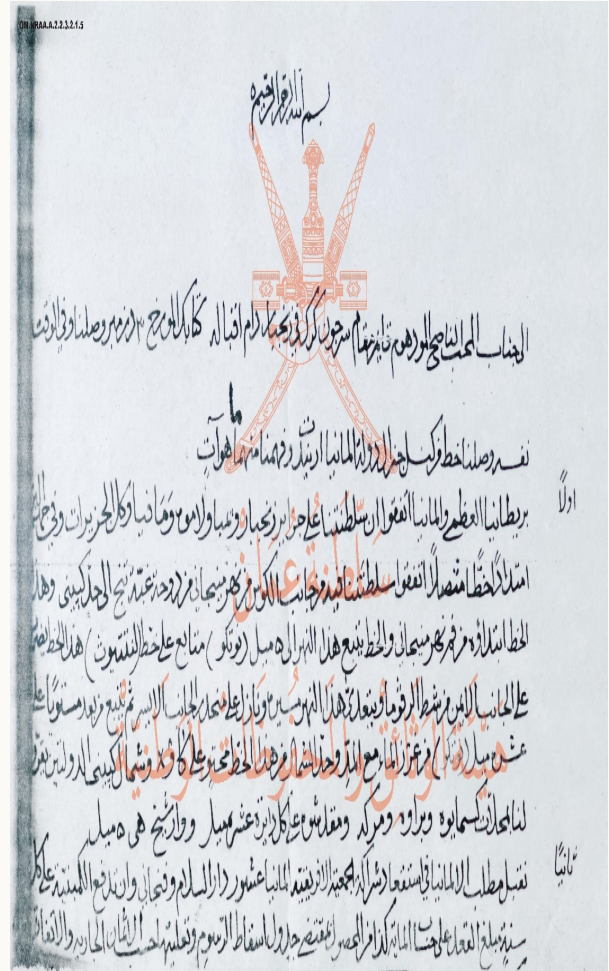
OM.NRAA.A.2.2.3.2.2.3(24)



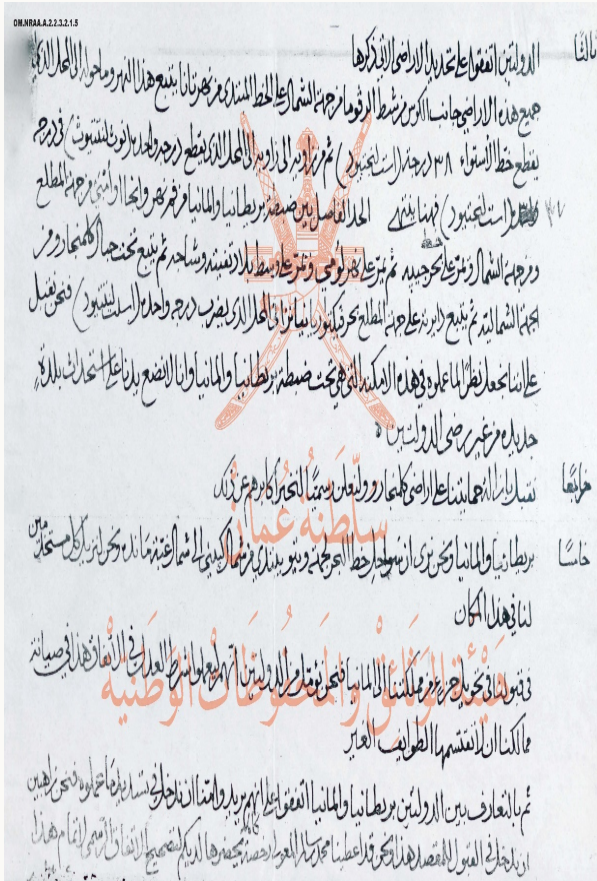
رقم (١٤)

اتفاقية تقسيم أملاك زنجبار بين ألمانيا وبريطانيا.
رصيد السلطان خليفة بن سعيد، علاقات خارجية مع
بريطانيا، اتفاقيات ومعاهدات:

OM.NRAA.A.2.2.3.2.1.5(14-15)



ص (١)



ص (٢)

رقم (١٥)

رسالة من السلطان السيد خليفة بن سعيد سلطان زنجبار (١٣٠٥-١٣٠٧هـ / ١٨٨٨-١٨٩٠م) إلى القنصل الإنجليزي يشرح فيها طلب الطليان بوضع كسمايوه تحت حكمهم ويطلب مساعدة الانجليز والألمان في حل المسألة. ١٣٠٥/٩/٢٥هـ - ١٨٨٨/٦/٤م. رصيد السلطان خليفة بن سعيد، علاقات خارجية مع بريطانيا، ايجار الموانئ (الفرض):

OM.NRAA.A.2.2.3.2.1.2(1)



رقم (١٦)

رسالة من السلطان السيد خليفة بن سعيد سلطان زنجبار (١٣٠٥-١٣٠٧هـ / ١٨٨٨-١٨٩٠م) إلى القنصل الإنجليزي يشرح فيها الإجراءات التعسفية وتجاوزات الألمان. ١٣٠٦/٤/٢٣هـ - ١٨٨٨/١٢/٢٦م. رصيد السلطان خليفة بن سعيد، علاقات خارجية مع بريطانيا، ايجار الموانئ (الفرض):

OM.NRAA.A.2.2.3.2.1.2(18)



الإحالات المرجعية:

- (٢٣) المغيري، **جبهة الأخبار**، ص ٣٦٧.
- (٢٤) المغيري، **جبهة الأخبار**، ص ٣٧٢.
- (٢٥) المغيري، **جبهة الأخبار**، ص ٣٦٩؛ الفارسي، البوسعيديون حكام زنجبار، ص ٢١.
- (٢٦) مجموعة باحثين، **الموسوعة العُمانية**، مج ٤، ص ١٣١١.
- (٢٧) المغيري، **جبهة الأخبار**، ص ٢٦٣؛ تركي، بنیان سعود. السيد خليفة بن سعيد البوسعيدى سلطان زنجبار (١٨٨٨-١٨٩٠م). **مجلة كلية الآداب**، جامعة الإسكندرية، ع ٢: ٣، ص ٧.
- (٢٨) تركي، السيد خليفة بن سعيد، ص ٢١.
- (٢٩) المغيري، **جبهة الأخبار**، ص ٣٧٢.
- (٣٠) المغيري، **جبهة الأخبار**، ص ٢٦٣؛ تركي، السيد خليفة بن سعيد، ص ٢٢.
- (٣١) تركي، **السيد خليفة بن سعيد**، ص ٥.
- (٣٢) أوتو فون بسمارك (ولد ١ أبريل ١٨١٥م، وتوفى ٣ يوليو ١٨٩٨م): قام بسمارك بدور كبير في توحيد الولايات الألمانية وتأسيس الإمبراطورية الألمانية وأصبح أول مستشار لها منذ تأسيسها في عام ١٨٧١م وحتى عزله للإمبراطور ولhelm الثاني في ٢٠ مارس ١٨٩٠م وذلك لتباين وجهات النظر بين الرجلين. تولى منصب المستشار الألماني خلال فترة حكم ثلاثة أباطرة: ولhelm الأول وفريدريك الثالث ولhelm الثاني. وكان لبسمارك الدور الأكبر في رسم السياسة الداخلية والخارجية لألمانيا خلال فترة زمنية طويلة امتدت لعشرين عاماً تقريباً. يُنظر: شعيب، علي. **بسمارك**، ط ١، دار الفكر اللبناني، بيروت: ١٩٩٢م، ص ١٢-١٤، ٢٤، ٢٧، ١٠٨.
- (٣٣) شعيب، **بسمارك**، ص ٦٤.
- (٣٤) شعيب، **بسمارك**، ص ٦٥.
- (٣٥) اتفاقية منح امتياز لشركة شرق أفريقيا البريطانية لمدة خمسين عام وتحمل الاتفاقية بنود مختلفة في السياسة والتجارة واستخراج المعادن، وتم توقيعها في ٣ شعبان ١٣٠٤هـ/ ٢٤ مايو ١٨٨٧م. انظر: **الرصيد الوثائقي للسلطان برغش بن سعيد البوسعيدى**، هيئة الوثائق والمحفوظات الوطنية، مسقط، سلطنة عُمان، علاقات خارجية مع بريطانيا، رمز الوثيقة: OM.NRAA.A.2.2.2.1.1(59-64).
- (٣٦) **الرصيد الوثائقي للسلطان خليفة بن سعيد البوسعيدى**، هيئة الوثائق والمحفوظات الوطنية، مسقط، سلطنة عُمان، شؤون خارجية مع بريطانيا، اتفاقيات ومعاهدات: (14-15) OM.NRAA.A.2.2.3.2.1.5، يُنظر: الملاحق، وثيقة رقم ١٨، ص ٤٤-٤٥.
- (٣٧) تركي، بنیان سعود. السيد خليفة بن سعيد البوسعيدى سلطان زنجبار (١٨٨٨-١٨٩٠م). **مجلة كلية الآداب**، جامعة الإسكندرية، ع ٢: ٣، ص ٢٠٥-٢٠٦؛ مجموعة باحثين، **الموسوعة العُمانية**، مج ٤، ص ١٣١١.
- (٣٨) **الرصيد الوثائقي للسلطان خليفة بن سعيد البوسعيدى**، هيئة الوثائق والمحفوظات الوطنية، مسقط، سلطنة عُمان، شؤون خارجية مع ألمانيا، شؤون اقتصادية للشركة الألمانية: OM.NRAA.A.2.2.3.2.2.2(4-7)، يُنظر: الملاحق، وثيقة رقم ٩، ص ٣٣-٣٤.
- (٣٩) **الرصيد الوثائقي للسلطان خليفة بن سعيد البوسعيدى**، هيئة الوثائق والمحفوظات الوطنية، مسقط، سلطنة عُمان، شؤون خارجية
- (١) توفي السلطان سعيد بن سلطان في طريق عودته من عُمان إلى زنجبار، على متن فرقاطته كوين فيكتوريا. وله من العمر ٦٥ عاماً، واستمر حكمه لمدة ٥٢ عاماً. ترك السيد سعيد بن سلطان وصية توضح ما يحتاج إليه بعد موته من جميع جهاز الموتى، وتوزيع أمواله على الفقراء والمساكين، وأجرة الحج والصيام عنه، وأوصي بجميع ما يملكه من أسلحة ومركبين لبيت مال المسلمين، وبيع ما بقي من مراكب وتقسيم الأموال على ورثته. انظر: **هيئة الوثائق والمحفوظات الوطنية**، مسقط، سلطنة عُمان، الرمز المرجعي للوثيقة: OM.NRAA.A.2.1.3.26.
- (٢) المغيري، سعيد بن علي (ت: ١٣٨١هـ/ ١٩٦٢م). **جبهة الأخبار في تاريخ زنجبار**، ط ٤، تحقيق: محمد علي الصليبي، وزارة التراث والثقافة، سلطنة عُمان، مسقط: ٢٠٠١م، ص ٢٨٧.
- (٣) ج.ج. لوريمر. **دليل الخليج (القسم التاريخي)**، مج ٢، مكتب صاحب السمو أمير دولة قطر، الدوحة: د.ت، ص ٧٢٩-٧٣٢؛ المغيري، **جبهة الأخبار**، ص ٢٨٧.
- (٤) المغيري، **جبهة الأخبار**، ص ٢٨٩.
- (٥) المغيري، **جبهة الأخبار**، ص ٣٦٥.
- (٦) المغيري، **جبهة الأخبار**، ص ٣٦٥.
- (٧) المغيري، **جبهة الأخبار**، ص ٣٦٥-٣٦٤.
- (٨) الشبلي، أحمد بن خلفان. **زنجبار في عهد السلطان خليفة بن حارب البوسعيدى (١٩١١-١٩٦٠م)**، ط ١، دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق: ٢٠١٥م، ص ٣٢.
- (٩) الشبلي، المرجع نفسه، ص ٣٣.
- (١٠) **المدن الهانزية الحرة**: اتحاد تجاري ربط بين ثلاث مدن ألمانية (لوبيك وبريمن وهامبورغ) ثم اتسع وشمل مدن أخرى.
- (١١) ينظر الملاحق، وثيقة رقم ١.
- (١٢) ينظر الملاحق، وثيقة رقم ٢.
- (١٣) ينظر الملاحق، وثيقة رقم ٣.
- (١٤) **هيئة الوثائق والمحفوظات الوطنية**، مسقط، سلطنة عُمان، الرصيد الوثائقي للسلطان برغش، علاقات خارجية مع ألمانيا، رمز الوثيقة: OM.NRAA.A.2.2.2.2.1(1-2)، يُنظر: الملاحق، وثيقة رقم ٣.
- (١٥) **هيئة الوثائق والمحفوظات الوطنية**، مسقط، سلطنة عُمان، الرصيد الوثائقي للسلطان برغش، علاقات خارجية مع ألمانيا، رمز الوثيقة: OM.NRAA.A.2.2.2.2.2(20)، يُنظر: الملاحق، وثيقة رقمه.
- (١٦) يُنظر: الملاحق، وثيقة رقم ٦.
- (١٧) الشبلي، المرجع نفسه، ص ٣٣.
- (١٨) يُنظر: الملاحق، وثيقة رقم ٦.
- (١٩) لوريمر، دليل الخليج، مج ٢، ص ٧٢٩-٧٣٢.
- (٢٠) المغيري، **جبهة الأخبار**، ص ٣٧٢؛ الفارسي، عبد الله بن صالح (ت: ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م). **البوسعيديون حكام زنجبار**. ترجمة: محمد أمين، ط ٢، سلسلة تراثنا، وزارة التراث القومي والثقافة، مسقط: ١٩٨٢م، ص ٢٢.
- (٢١) مجموعة باحثين. **الموسوعة العُمانية**، مج ٤، ط ١، وزارة التراث والثقافة، مسقط: ٢٠١٣م، ص ١٣١.
- (٢٢) المغيري، **جبهة الأخبار**، ص ٣٦٧.

- (٥١) **الرصيد الوثائقي للسلطان خليفة بن سعيد البوسعيدى**، هيئة الوثائق والمحفوظات الوطنية، مسقط، سلطنة عُمان، علاقات ودية وشؤون قنصلية (علاقات خارجية مع إيطاليا والدولة العثمانية وبلجيكا): OM.NRAA.A.2.2.3.2.3.1(2-3).
- (٥٢) **الرصيد الوثائقي للسلطان خليفة بن سعيد البوسعيدى**، هيئة الوثائق والمحفوظات الوطنية، مسقط، سلطنة عُمان، شؤون خارجية مع بريطانيا، إيجار الموانئ (الفرض): OM.NRAA.A.2.2.3.2.1.2(1).
- (٥٣) تركي، السيد خليفة بن سعيد، ص ٨.
- (٥٤) **رصيد السلطان خليفة بن سعيد**، علاقات خارجية مع بريطانيا، اتفاقيات ومعاهدات: OM.NRAA.A.2.2.3.2.1.5(12-13)، يُنظر: الملحق، وثيقة رقم ١٦.
- (٥٥) **رصيد السلطان خليفة بن سعيد**، علاقات خارجية مع بريطانيا، اتفاقيات ومعاهدات: OM.NRAA.A.2.2.3.2.1.5(14-15).
- (٥٦) الريامي، ناصر بن عبد الله. زنجبار شخصيات وأحداث (١٨٢٨-١٩٧٢م). ط ٢، مكتبة بيروت، القاهرة: ٢٠٠٩م، ص ٣٢٩.
- (٥٧) **رصيد السلطان خليفة بن سعيد**، علاقات خارجية مع ألمانيا، شؤون إدارية وقنصلية: OM.NRAA.A.2.2.3.2.2.1(2)، يُنظر: الملحق، وثيقة رقم ٧، ص ٢٨.
- (٥٨) **رصيد السلطان خليفة بن سعيد**، علاقات خارجية مع ألمانيا، شؤون إدارية وقنصلية: OM.NRAA.A.2.2.3.2.2.1(2)، يُنظر: الملحق، وثيقة رقم ٧، ص ٢٧.
- (٥٩) **هيئة الوثائق والمحفوظات الوطنية**، مسقط، سلطنة عُمان، **رصيد السلطان خليفة بن سعيد**، علاقات خارجية مع ألمانيا، شؤون إدارية وقنصلية: OM.NRAA.A.2.2.3.2.2.1(2)، يُنظر: الملحق، وثيقة رقم ٧، ص ٢٧.
- (٦٠) **هيئة الوثائق والمحفوظات الوطنية**، مسقط، سلطنة عُمان، **رصيد السلطان خليفة بن سعيد**، علاقات خارجية مع ألمانيا، شؤون إدارية وقنصلية: OM.NRAA.A.2.2.3.2.2.1(8)، يُنظر: الملحق، وثيقة رقم ١٠، ص ٣٤.
- (٦١) **هيئة الوثائق والمحفوظات الوطنية**، مسقط، سلطنة عُمان، **رصيد السلطان خليفة بن سعيد**، علاقات خارجية مع ألمانيا، شؤون إدارية وقنصلية: OM.NRAA.A.2.2.3.2.2.1(15)، يُنظر: الملحق، وثيقة رقم ١٣، ص ٣٨.
- (٦٢) **هيئة الوثائق والمحفوظات الوطنية**، مسقط، سلطنة عُمان، **رصيد السلطان خليفة بن سعيد**، علاقات خارجية مع ألمانيا، شؤون اقتصادية للشركة الألمانية: OM.NRAA.A.2.2.3.2.2.2(58).
- (٦٣) **هيئة الوثائق والمحفوظات الوطنية**، مسقط، سلطنة عُمان، **رصيد السلطان خليفة بن سعيد**، علاقات خارجية مع ألمانيا، شؤون اقتصادية للشركة الألمانية: OM.NRAA.A.2.2.3.2.2.2(32)، يُنظر: الملحق، وثيقة رقم ١٢، ص ٣٧.
- (٦٤) **هيئة الوثائق والمحفوظات الوطنية**، مسقط، سلطنة عُمان، **رصيد السلطان خليفة بن سعيد**، علاقات خارجية مع ألمانيا، شؤون اقتصادية للشركة الألمانية: OM.NRAA.A.2.2.3.2.2.2(30-31).
- (٦٥) المغيري، **جوهية الأخبار**، ص ١٥٨-١٥٩.
- (٦٦) تركي، السيد خليفة بن سعيد، ص ٢١.

- مع ألمانيا، شؤون اقتصادية للشركة الألمانية: OM.NRAA.A.2.2.3.2.2.2(4-7)، السيد خليفة بن سعيد، ص ١.
- (٤٠) لمزيد من التفاصيل حول المراسلات التي تمت بين القنصل الألماني والسلطان خليفة بن سعيد حول الحرب ومجرباتها انظر: **الرصيد الوثائقي للسلطان خليفة بن سعيد البوسعيدى**، هيئة الوثائق والمحفوظات الوطنية، مسقط، سلطنة عُمان، شؤون خارجية مع ألمانيا، **شؤون عسكرية**: OM.NRAA.A.2.2.3.2.2.3، **الرصيد الوثائقي للسلطان خليفة بن سعيد البوسعيدى**، هيئة الوثائق والمحفوظات الوطنية، مسقط، سلطنة عُمان، شؤون خارجية مع بريطانيا، شؤون عسكرية: OM.NRAA.A.2.2.3.2.1.4(19,21).
- (٤١) **رصيد السلطان خليفة بن سعيد**، **علاقات خارجية مع بريطانيا**، إيجار الموانئ (الفرض): OM.NRAA.A.2.2.3.2.1.2(18).
- (٤٢) **الرصيد الوثائقي للسلطان خليفة بن سعيد البوسعيدى**، هيئة الوثائق والمحفوظات الوطنية، مسقط، سلطنة عُمان، علاقات خارجية مع ألمانيا، شؤون اقتصادية للشركة الألمانية: OM.NRAA.A.2.2.3.2.2.2(58)، يُنظر: الملحق، وثيقة رقم ٨.
- (٤٣) **رصيد السلطان خليفة بن سعيد**، علاقات خارجية مع ألمانيا، شؤون اقتصادية للشركة الألمانية: OM.NRAA.A.2.2.3.2.2.2(30-31)، الملحق، وثيقة رقم ١١، ص ٣٥-٣٦.
- (٤٤) **الرصيد الوثائقي للسلطان خليفة بن سعيد البوسعيدى**، هيئة الوثائق والمحفوظات الوطنية، مسقط، سلطنة عُمان، شؤون داخلية، النقل البحري: OM.NRAA.A.2.2.3.1.5(6).
- (٤٥) **الرصيد الوثائقي للسلطان خليفة بن سعيد البوسعيدى**، هيئة الوثائق والمحفوظات الوطنية، مسقط، سلطنة عُمان، شؤون خارجية مع ألمانيا، شؤون قضائية: OM.NRAA.A.2.2.3.2.2.5(15)، يُنظر: الملحق، وثيقة رقم ١٥، ص ٤.
- (٤٦) **الرصيد الوثائقي للسلطان خليفة بن سعيد البوسعيدى**، هيئة الوثائق والمحفوظات الوطنية، مسقط، سلطنة عُمان، علاقات خارجية مع بريطانيا، اتفاقيات ومعاهدات: OM.NRAA.A.2.2.3.2.1.5(8)، يُنظر: الملحق، وثيقة رقم ١٦، ص ٤١.
- (٤٧) **رصيد السلطان خليفة بن سعيد**، **علاقات خارجية مع ألمانيا**، شؤون عسكرية: OM.NRAA.A.2.2.3.2.2.3(24)، يُنظر: الملحق، وثيقة رقم ١٤، ص ٣٩.
- (٤٨) **الرصيد الوثائقي للسلطان خليفة بن سعيد البوسعيدى**، هيئة الوثائق والمحفوظات الوطنية، مسقط، سلطنة عُمان، علاقات ودية وشؤون قنصلية (علاقات خارجية مع إيطاليا والدولة العثمانية وبلجيكا): OM.NRAA.A.2.2.3.2.3.1(6).
- (٤٩) يذكر القنصل الإيطالي إنزال العلم في رسالة أرسلها إلى السلطان خليفة بن سعيد يعلمه بذلك. انظر: **الرصيد الوثائقي للسلطان خليفة بن سعيد البوسعيدى**، هيئة الوثائق والمحفوظات الوطنية، مسقط، سلطنة عُمان، علاقات ودية وشؤون قنصلية (علاقات خارجية مع إيطاليا والدولة العثمانية وبلجيكا): OM.NRAA.A.2.2.3.2.3.1(7).
- (٥٠) تركي، السيد خليفة بن سعيد، ص ٨.

حلف آيت يافلمان والمقاومة المسلحة للاستعمار الفرنسي في الجنوب الشرقي المغربي (١٩٠٨ – ١٩٣٦) مقاربة تاريخية وسوسولوجية

محمد عطوش

إطار بوزارة التربية الوطنية والتعليم
ماسر تدريس العلوم الاجتماعية والتنمية
جامعة محمد الخامس – المملكة المغربية



ملخص

يرتكز هذا المقال على دراسة الأدوار التاريخية والسياسية والعسكرية التي اضطلعت بها قبائل حلف آيت يافلمان في مواجهة المشروع الاستعماري الفرنسي بالجنوب الشرقي المغربي، خلال الفترة الممتدة من ١٩٠٨ إلى ١٩٣٦. ويهدف إلى إبراز الكيفية التي تمكنت بها هذه التكتلات القبلية من بلورة مقاومة منظمة رغم محدودية الموارد والظروف الطبيعية القاسية، مع تحليل سياقات التأسيس والتطور ومختلف آليات الصمود التي تبنتها. واعتمدت الدراسة على منهج تاريخي تحليلي، استند إلى مصادر متنوعة، شملت الوثائق الاستعمارية، والروايات الشفوية، والمرويات الشعرية المحلية، إضافة إلى الأدبيات التاريخية والندوات العلمية ذات الصلة. وقد أظهرت نتائج البحث أن حلف آيت يافلمان لم يكن مجرد تكتل قبلي ظرفي، بل شكّل إطاراً استراتيجياً للمقاومة، اتسم بالمرونة والتنظيم والانضباط، واستطاع خوض معارك كبرى، من أبرزها معركة جبل بادو سنة ١٩٣٣ بقيادة المجاهد زايد أوسكتي. كما تكشف في هذه الدراسة عن استمرار العمل الفدائي بعد هذه المعركة، بقيادة زايد أو حماد، الذي تبني أسلوب حرب العصابات طيلة ثلاث سنوات، نفذ خلالها عمليات نوعية خلفت خسائر معتبرة في صفوف الاحتلال الفرنسي. وتؤكد المعطيات المستخلصة أن الموروث الشعري الأمازيغي والرواية الشفوية لعبا دوراً جوهرياً في الحفاظ على الذاكرة الجماعية، وتوثيق محطات المقاومة التي تم تغييبها نسبياً في الكتابات الرسمية. وقد أوصى البحث بضرورة إعادة الاعتبار لهذه التجربة التاريخية ضمن مشروع وطني لتثمين التراث المقاوم.

كلمات مفتاحية:

آيت يافلمان؛ المقاومة المسلحة؛ الاستعمار الفرنسي؛ معركة جبل بادو؛
الشعر الأمازيغي

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٠٥ يونيو ٢٠٢٥
تاريخ قبول النشر: ٠٩ يوليو ٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.392375.1237

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

محمد عطوش، "حلف آيت يافلمان والمقاومة المسلحة للاستعمار الفرنسي في الجنوب الشرقي المغربي (١٩٠٨ – ١٩٣٦): مقاربة تاريخية وسوسولوجية"، دورية كان التاريخية، السنة الثامنة عشرة- العدد الثالث والسبعون، نوفمبر ٢٠٢٥، ص ١٧٢ – ١٨٨.



X, formerly Twitter: <http://X.com/kanhistorique>
Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>
Facebook Group: <https://www.facebook.com/groups/kanhistorique>

Corresponding author: pr.attouch@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في دورية كان 4.0 International License (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

وقد تفرعت عن هذه الإشكالية المركزية مجموعة من الأسئلة من قبيل: ماهي أبرز محطات مقاومة "أيت يافلمان" للغزو الفرنسي التاريخي؟ كيف ساهمت معركة بادو في عرقلة الاستعمار؟ هل مقاومة "زايد أوحاماد" حركة فردية أم امتداد لمعركة بادو؟ كيف يمكن توظيف الشعر كمصدر بديل للتأريخ للأحداث المدروسة؟

خطة البحث

يتكون البحث من تقديم عام ومدخل ومحورين رئيسيين إضافة إلى خاتمة. بالنسبة للمحور الأول وهو بعنوان "مساهمة قبائل أيت يافلمان في مقاومة الاستعمار: من بوذنيب إلى بادو" بينا فيه التضحيات الجسام لحلف أيت يافلمان، دفاعا عن الوطن واستقلاله. أما المحور الثاني فهو بعنوان: "حركة زاید أوحاماد امتداد لمقاومة بادو" سلطنا فيه الضوء على شخصية فذة كبدت الاستعمار خسائر فادحة رغم قلة العتاد.

حدود البحث

يغطي هذا البحث زمنياً الفترة الممتدة من ١٩٠٨ إلى ١٩٣٦، ومجاليا الجنوب الشرقي المغربي، خاصة الأطلس الكبير الشرقي حيث انتشار قبائل حلف "أيت يافلمان"، مع الإشارة إلى أننا حاولنا وضع موضوع البحث في سياقه التاريخي، حتى يتسنى إدراك التعاون الوثيق بين مختلف قبائل الجنوب الشرقي لمجابهة التغلغل الامبريالي.

صعوبات البحث

لا شك أن البحث في مثل هذه المواضيع الحساسة أمر صعب للغاية، وهو ما يفسر جملة من الصعوبات التي اعترضتنا أثناء انجازه نذكر من بينها:

- ضيق الحيز الزمني المخصص لهذا البحث الذي يدخل في إطار بحث الإجازة، فالمدة الزمنية لا تتعدى ثلاثة أشهر؛

- تشتت المادة العلمية وتواجدها في مكتبات متناثرة، مما جعل الوصول إليها صعب وعدم سماح بعض المكتبات للزائرين باستعارة الكتب أو نسخها؛

يعتبر البحث في موضوع المقاومة المسلحة المغربية ضد الاستعمار-خاصةً بالجنوب الشرقي المغربي-من المواضيع المهمة والحساسة في نفس الوقت، والتي تتطلب إلماماً دقيقاً بمختلف الجوانب المتعلقة به، نظراً للدور الكبير الذي لعبته في تأخير الاحتلال الاستعماري والحيولة دون بسط نفوذه التام بالمنطقة. فرغم الظروف الطبيعية والاقتصادية الصعبة، والتفوق الكبير للمستعمر الفرنسي من حيث العدد والعتاد العسكري، فقد هبت القبائل والمدن من كل ناحية للذب عن أراضيهم ضد المتدخل.^(١) وقد ساهمت أيضاً قبائل "أيت يافلمان" وأبلى البلاء الحسن، وكتبت التاريخ بمداد من ذهب، خاصة بمعركة جبل بادو التي ستبرز كحدث تاريخي مهم يجسد وطنية سكان الجنوب الشرقي المغربي، ودفاعهم المستميت عن الأرض والمقدسات، ورفضهم الخنوع للاستعمار الفرنسي الغاشم، رغم الكلفة الغالية للنضال والمقاومة.

دواعي اختيار الموضوع

إن اختياري البحث في هذا الموضوع المتعلق بمساهمة حلف أيت يافلمان في المقاومة، جاء نتيجة مجموعة من الدوافع الذاتية والموضوعية والتي يمكن إجمالها فيما يلي:

- لاحظت أثناء تواجدي بالجنوب الشرقي المغربي الحضور القوي لمقاومة الاستعمار خاصة معركة بادو ومقاومة زاید أوحاماد في أذهان الساكنة، لذلك فكرت في التعمق في هذا الموضوع وتخصيص بحث الإجازة له من أجل الإلمام بمختلف جوانبه.
- قلة الدراسات التي تطرقت لموضوع مقاومة قبائل أيت يافلمان بشكل دقيق، فأغلب الأبحاث المنجزة هي أبحاث متسرعة ويغلب عليها طابع النمطية والتعميم.
- محاولة إبراز دور الشعر في كتابة التاريخ، خاصة في ظل شح المصادر المكتوبة.

إشكالية البحث

تتمثل الإشكالية المحورية المؤطرة للبحث فيما يلي: كيف تعاملت قبائل "أيت يافلمان" مع الاستعمار الفرنسي؟

مدخل

واجه المغرب طيلة القرن التاسع عشر الميلادي ضغوطات استعمارية متنوعة، استهدفت أساساً إفقاده سيادته واستقلاله. ومع بداية القرن العشرين الميلادي ازداد التغلغل الامبريالي قوة، خاصةً بعد تولي المولى عبد العزيز^(٢) الحكم. هذا الأخير لم يستطع الوقوف بوجه الأطماع الاستعمارية بسبب قلة تجربته وصغر سنه وتكالب الدول الأوروبية عليه. عزل المولى عبد العزيز وتم تعويضه سنة ١٩٠٨ بأخيه الأكبر المولى عبد الحفيظ^(٣) بموجب بيعة مشروطة. ولم يستطع السلطان الجديد بدوره استعادة توازن وهيبة المغرب، بل ازدادت الأمور تعقيداً بعد توقيع معاهدة الحماية^(٤) مع فرنسا، لتسقط البلاد بشكل رسمي تحت قبضة الاستعمار الأوروبي.

بعد مؤتمرات تسوية سرية بين الدول الأوروبية، تم تقسيم المغرب إلى ثلاثة مناطق نفوذ، كما توضح الخريطة في الملاحق. رغم توقيع معاهدة الحماية لم يكن من اليسير استعمار المغرب كاملاً، لقوة المقاومة المسلحة في مختلف أنحاء البلاد. ففي الجنوب ناصرت قبائل سوس والصحراء الشيخ أحمد الهيبه^(٥) الذي دخل مراكش وقام بهجمات قوية على المستعمر الفرنسي، لكنه سينسحب بعد الانهزام في معركة سيدي بوعثمان سنة ١٩١٢.

وبالأطلس المتوسط واجه الاستعمار مقاومة عنيفة من طرف قبائل زيان بزعامة موحي أحمو^(٦) الذي استطاع هزم الجيوش الفرنسية في معركة لهري سنة ١٩١٤. أما في منطقة الاستعمار الإسباني فقد استطاعت قبائل الريف بزعامة محمد بن عبد الكريم الخطابي^(٧) كتابة التاريخ بمداد من ذهب، بعد الانتصار الساحق على الجيش الإسباني في معركة أنوال الخالدة. وبالجنوب الشرقي المغربي شهد جبل صاغرو معارك طاحنة بين الفرنسيين وقبائل أيت عطا، أشهرها معركة بوكافر بقيادة عسو بسلام^(٨) التي أبان فيها المغاربة عن عزم وصمود أذهل ضباط الاستعمار الفرنسي وجنوده. إذا كان هذا موقف مختلف المناطق المغربية، فما دور قبائل "أيت يافلمان" في مقاومة الغزو الفرنسي؟ وماهي

- التثقل المستمر من مدينة مكناس إلى الجنوب الشرقي المغربي، خاصةً وأنتي اعتمدت على الرواية الشفوية كذلك كمرجع مهم لإنجاز البحث. خاصة وأن المصادر المكتوبة حول حلف أيت يافلمان تظل قليلة، كما أن الاعتماد على التقارير الكولونيالية أمر فيه مغامرة علمية، لأنها تفتقد في معظمها للموضوعية...

المادة المصدرية للبحث

رغم الصعوبات السابقة الذكر، فقد حاولنا تناول الموضوع بجمع كل ما أمكن من المراجع على اختلاف أنواعها. في هذا الصدد يمكن الإشارة إلى أهمها كما يلي:

- المراجع المكتوبة: في ظل شح المصادر المعاصرة للأحداث المدروسة، ارتأينا الاعتماد على مجموعة من المراجع المتأخرة، منها:
- "التاريخ السياسي للمغرب الكبير"، الجزء الثامن، عبد الكريم الفيلاي؛

- "تدغى تاريخ وأعلام"، مولاي أحمد الإدريسي.
- أشغال الندوات: إلى جانب المراجع السابقة الذكر اعتمدت على مجموعة من الإصدارات المنبثقة عن أعمال ندوات، سواء المباشرة أو تلك التي تم عقدها عن بعد باستعمال الوسائط الالكترونية. ومن أهمها نذكر منها:

- أشغال ندوة عن بعد نظمها فضاء الذاكرة التاريخية بميدلت بتاريخ ٣٠ دجنبر ٢٠٢١.

- المقالات الالكترونية: من أبرز المقالات الالكترونية التي أفادتنا كثيراً في هذا البحث نذكر:

- عدي الراضي، حلف أيت يافلمان: التاريخ والمجال، المجلة الالكترونية الحوار المتمدن، ٢٤/١٠/٢٠١٦.

- الرواية الشفوية: اعتمدنا كثيراً في المحور المتعلق بحركة "زايد أوحاماد" على تسجيل صوتي يعود لسنة ٢٠١٢ للسيد "موجان زايد" رحمه الله من قصر تمتوتشت والذي عاصر الأحداث المدروسة. وفي الأخير نتمنى أن تكون لهذه المحاولة المتواضعة إضافة بسيطة للإنتاج التاريخي المتعلق بمنطقة الجنوب الشرقي عامة، ومجال أيت يافلمان أساساً، خاصةً في فترة الاستعمار.

اتفق الزعماء التاريخيين المؤسسين^(١٣) لحلف أيت يافلمان أن تكون القيادة جماعية، بحيث تنتخب كل قبيلة ممثلاً لها يساهم في اتخاذ القرارات المتعلقة بالحلف. هذا الأمر سيكون نقطة ضعف لهذا الحلف، وسيفتح الباب أمام صراعات خفية لا تزال تظهر بين الفينة والأخرى إلى اليوم، وإن بنسبة أقل. منذ تأسيسه دخل حلف "أيت يافلمان" في صراع قوي مع حلف "أيت عطا"، الذي حاول بكل قوة التوسع والسيطرة على منتجعات الرعي. وتعتبر معركة تلوين سنة ١٨٨٣ آخر معركة بين الحلفين المتنافسين. بعد احتلال الجزائر سنة ١٨٣٠ وتونس سنة ١٨٨١ وظهور الفرنسيين على مسرح الأحداث، هبت القبائل الامازيغية المنتمية للحلفين للمقاومة حيث لعبت أدوار طلائعية في محاربة المحتل^(١٤). لعب حلف "أيت يافلمان" دوراً مهماً إذن في عرقلة الغزو الاستعماري للأطلس الكبير الشرقي، وأبلى البلاء الحسن في الدود عن الوطن. المحطات الخالدة التي سجلها التاريخ بمداد من ذهب لقبائل هذا الحلف نذكر معركة بادو بقيادة زايد اوسكنتي. فما هي أهم محطات ونتائج مقاومة هذا الحلف للاستعمار الفرنسي؟

٢/١-صفحات مضيئة في تاريخ مقاومة أيت

يفلمان (١٩٠٨ - ١٩٣٣)

انخرطت القبائل المشكلة لحلف "أيت يافلمان" بقوة في المقاومة المسلحة، وقدمت تضحيات كبيرة في سبيل عرقلة الغزو الأجنبي وفي سبيل الدفاع عن حوزة الوطن واستقلاله. خاصةً مع بداية الزحف الامبريالي على الجنوب الشرقي مطلع القرن العشرين الميلادي، حيث أقامت فرنسا أول مركز استعماري بمنطقة بوذنيب سنة ١٩٠٨. وبعد ظهور حركة "التزويني" بتافيلالت سارعت قبائل حلف "أيت يافلمان" للمشاركة إلى جانبه ضد الجيوش الفرنسية. كما ناصرت خليفته "بلقاسم النكاوي" الذي تزعم المقاومة بعد مقتل التزويني سنة ١٩١٩. ومن أهم المعارك التي شهدتها الجنوب الشرقي المغربي نذكر: معركة إيفري سنة ١٩١٤، معركة مسكي ١٩١٨، ثم معركة البطحاء الشهيرة في يوليوز ١٩١٨ حيث انتصرت جيوش التزويني وقائده بلقاسم النكاوي

الدلالات التاريخية لمعركة بادو؟ كيف ساهم زايد أوحما في عرقلة الغزو الاستعماري؟ هل يمكن اعتبار الشعر مصدراً بديلاً للتاريخ للمقاومة؟

أولاً: مساهمة حلف أيت يافلمان في المقاومة ضد الاستعمار (من بوذنيب إلى بادو)

١/١-التعريف بحلف أيت يافلمان

أدى ضعف سلطة الدولة المركزية خلال الفترة التاريخية الحديثة وتسارع الأحداث السياسية والاجتماعية والاقتصادية بالجنوب الشرقي المغربي- حيث توالي سنوات الجفاف والأوبئة، وغياب الأمن وانتشار الصراعات بين القبائل المنتشرة في المنطقة - إلى ظهور تحالفات قبلية عديدة. في هذه الظروف المتسمة بالتوتر شجعت الأحداث السياسية مجموعة من القبائل الصنهاجية لتقوم بدور فعال في توجيه الأحداث التاريخية بالهوامش الصحراوية لمغرب الجنوب الشرقي، خاصة اتحادية أيت عطا^(٩) بالأطلس الكبير واتحادية أيت يافلمان بالسفوح الشرقية للأطلس الكبير^(١٠). فما هي ظروف ظهور حلف أيت يافلمان؟

"أيت يافلمان" عبارة أمازيغية مركبة من كلمتين: "أيت" وتعني أهل و"يفلمان" بفتح الياء وتعني وجد الأمان^(١١). تشير الكثير من المصادر التاريخية إلى أن حلف أيت يافلمان تشكل خلال النصف الأول من القرن السابع عشر الميلادي، في ظروف حرجية تميزت بزحف القبائل العطاوية عبر "تيزي نلغمت" و"ملوية العلّيا"، وهما ممران كانا تحت سيطرة قبائل كانت تشعر بضرورة التكتل ضد الخطر العطاوي^(١٢). تشكل حلف أيت يافلمان من عدة قبائل بالسفوح الشرقية للأطلس الكبير خاصة قبيلة "أيت مرغاد" التي لعبت دوراً كبيراً، إلى جانب "أيت حديدو" و"أيت يزديك" و"أيت يحيى" وقبائل أخرى انضمت فيما بعد. ويمكن تحديد سنة ١٦٤٥م هي سنة التأسيس الفعلي لهذا الحلف بمنطقة "إمضغاس"، وذلك بناءً على وثيقة تاريخية عثر عليها بزاوية أسول وأوردها العربي مزين. (انظر الصورة رقم ١)

حيث شارك إلى جانب والده في معركة بوذنيب سنة ١٩٠٨. أرسله والده بعد ذلك وهو في سن الثامنة عشر إلى القائد موحى أعسو بمنطقة ميدلت، حيث تلقى تكويناً عسكرياً إضافياً، واحتك بشخصيات فذة لها مكانة كبيرة في تاريخ المقاومة المسلحة بالجنوب الشرقي.

حضر زايد أوسكنتي في عدة معارك مهمة أبرزها: معركة تافيلالت ١٩١٨، معركة تودغى ١٩١٩، معركة أيت يعقوب ١٩٢٩، معركة تونفيت ١٩٣٠. اكتسب زايد أوسكنتي خلال ثلاثينيات القرن العشرين الميلادي، مكانة كبيرة كأبرز قادة المقاومة المسلحة بالجنوب الشرقي المغربي، حيث قاد عدة معارك طاحنة إلى جانب زعماء آخرين، من أهمها: معركة "تاردة" ١٩٣٠، معركة "سردار إيغمان" ١٩٣٢، معركة "تازكزاوت" ١٩٣٢، معركة "وادي إيغ" قرب أغبالو نكدوس سنة ١٩٣٢. وتبقى معركة "بادو" سنة ١٩٣٣ من أبرز المعارك التي قادها المقاوم الكبير زايد أوسكنتي، إلى جانب قادة آخرين مثل "علي أطرمون"، "موحى أعرجي" والفقيهي "سيدي أحمد" و"سيدي الطيبي". فماهي الظروف المحيطة بهذا الحدث التاريخي؟

٤/١- معركة بادو (الحلقة الأخيرة في

مسلسل المقاومة المسلحة)

بعد احتلال واحة "تودغى" وإخضاع "صاغرو" جندت فرنسا قواتها العسكرية القادمة من مراكش وتادلة ومكناس لمحاولة السيطرة على مجال انتشار قبائل "أيت يافلمان" التي تعتبر من المناطق القليلة التي لم تسقط بعد تحت قبضة الغزو الفرنسي. هكذا إذن ففي أواخر شهر يوليوز من سنة ١٩٣٣، سيطرت قوات الجنرال جيرو على "تنغير" ونفذت هجوماً على منطقة "إيغ" و"أغبالو نكدوس" من الجنوب يومي ٠٤ و ٠٥ عشت ١٩٣٣. وزحفت مجموعة الجنرال "هوري" على منطقة "تمتوش"، ومنها صعدت إلى جبل حمدون. أما قوات الجنرال "دولوسيل" فقد قامت بالهجوم على منطقة "أمضغوس" عبر "تيزي ن تغريزين" (١٨).

أمام الحصار العسكري المضروب على القرى والتجمعات السكانية، هرع المقاومون من مختلف القبائل

على الجيش الفرنسي بعد أن أثخنوا فيهم القتل ومات عدد من الضباط الفرنسيين (١٥).

وبحكم القرب الجغرافي الكبير والمصير المشترك بين مناطق نفوذ أيت يافلمان والأطلس المتوسط، فقد شاركت القبائل المشكلة لهذا الحلف - خاصة أيت مرغاد وايت حديدو وايت يحيى - في التصدي لمحاولة الفرنسيين إخضاع هذه الرقعة الجغرافية، خاصة "منطقة تونفيت" التي كانت جيوش الاستعمار قد بدأت غزوها منذ ١٩٢٢ بعد احتلال أبو الدراع بأيت عياش وأودغيس... (١٦). وقد شهدت المنطقة معارك عنيفة جداً يبقى أبرزها معركتي "أنفكو" و"تازكزاوت" في يوليوز ١٩٣١. كان من الطبيعي بعد السيطرة على تافيلالت والأطلس المتوسط، أن تتجه أنظار المستعمر إلى الأطلس الكبير الشرقي، وقد استطاع المحتل في متم سنة ١٩٣٢ أن يوطد قدمه في مناطق تودغة ودرعة وما بينهما، ليتم بذلك تطويق منطقة صاغرو التي تجمع فيها المقاومون... وبدأت نذر المواجهة العسكرية تلوح في الأفق (١٧).

شهد إذن جبل صاغرو معارك ضارية بين المستعمر الفرنسي وقبائل أبيت عطا بقيادة عسو باسلام، أبرزها معركة بوكافر الخالدة سنة ١٩٣٣. وقد ساهمت قبائل حلف أيت يافلمان إلى جانب أيت عطا باقتدار في هذه المواجهة، التي انتهت باستسلام العطايين. أمام هذا المعطى الميداني الجديد، أصبح مجال أيت يافلمان في مواجهة مباشرة مع المستعمر الفرنسي، الذي سيواجه مقاومة عنيفة، خاصة في معركة جبل "بادو" الخالدة بقيادة أوسكنتي. فمن هو هذا المقاوم؟

٣/١- زايد أوسكنتي قائد قبائل ايت يافلمان

الكبير

ولد "زايد أوسكنتي" حوالي ١٨٩٠ بقرية "تاسكونتيت" التابعة إدارياً لقيادة أملاكو، وتوفي يوم ١٠ يوليوز ١٩٤٤ بعد سقوطه من أعلى جبل "تاعباست" بقصر "أيت إبراهيم" نواحي قيادة "أسول". ينتمي أوسكنتي لفحزة "أيت عيسى إيزم"، وهي فرع من قبيلة أيت مرغاد. كان منذ صغره مولعاً بالفروسية وركوب الخيل، واشتهر بكونه محارباً بارعاً. ساهم في المقاومة المسلحة ضد الاحتلال الفرنسي منذ نعومة أظافره،

سيدي مواصلة القتال بجبل حمدون إلى آخر رصاصة. وبعد محاصرة المجاهدين ونفاذ الذخيرة والمؤونة اضطروا بدورهم للاستسلام، حيث تعرضوا لكل أشكال التعذيب والإهانة والتكيل^(٢٢).

كلف مقاومة أيت يافلمان بأغبالو نكردوس وبادو وحمدون خسائر مادية وبشرية فادحة جدا، ومن أبرز القتلى وسط الجيش الفرنسي نذكر:

- القبطان روسو الذي قتل في أغبالو نكردوس يوم ٤ غشت ١٩٣٣؛
- الملازم أول دوفر فراكينيو الذي قتل في كردوس يوم ٧ غشت ١٩٣٣؛
- الملازم أول دوسوراس الذي قتل في كردوس يوم ٩ غشت ١٩٣٣؛
- الملازم أول كيند الذي قتل في كردوس يوم ٩ غشت ١٩٣٣؛
- القبطان دوبير الذي سقط في كردوس يوم ١١ غشت ١٩٣٣^(٢٣)...

ساهمت عوامل عديدة في حسم المستعمر لمعركة بادو منها:

- نفاذ الأسلحة والمؤونة عند المقاومين وسيطرة الفرنسيين على النقاط الرئيسية للتزود بالماء، هذا العامل أثر بشكل واضح على صمود المجاهدين.
- استعمال المستعمر لأسلحة متطورة، خاصة المدافع الثقيلة والطائرات الحربية التي حسمت القتال، وشكلت خطراً كبيراً على المقاومين وعلى المشاة بمختلف أنواعها.
- استعمال الجيش الفرنسي لنفق "تاكنسا" الذي يتواجد بين قصر أكديم وقصر تانا لتسهيل الوصول إلى منطقة أسول التي يوجد بها جبل بادو، هذا النفق ساهم إلى حد كبير في تغيير موازين القوى بالأطلس الكبير الشرقي لصالح الفرنسيين.

٥/١- دور الشعر في التاريخ لمعركة بادو^(٢٤)

واكب شعراء أيت يافلمان أحداث بادو بعناية شديدة، سواء أثناء أو بعد هذه المعركة التاريخية التي حضرت

إلى الجبال المجاورة للاختباء في الكهوف والمغارات، والاستعداد لمواجهة القوات الاستعمارية، خاصة بجبل بادو^(٢٥) الذي رابطت فيه مجموعة زايد أوسكنتي وجبل حمدون الذي رابطت فيه مجموعة سيدي الطيب نايت سيدي. تسارعت الأحداث بالأطلس الكبير الشرقي "حيث أعطى الجنرال "هوري" أوامره للمجموعات التي كانت على مشارف أغبالو نكردوس للزحف على تيزي نحمدون ابتداء من يوم ٠٤ غشت ١٩٣٣"^(٢٦).

طيلة غشت ١٩٣٣ استمرت المواجهة العنيفة خاصة بين مجاهدي "أيت يافلمان" تحت إمرة مجموعة من القادة "كزايد أوسكنتي" و"علي طرمون" وغيرهم من جهة، والقوات الفرنسية المدعومة بالمرتزقة السينغاليين والمغاربة الذين فضلوا العمل مع الاستعمار. أبان المجاهدون عن صمود كبير وروح قتالية عالية جدا، حيث كبدوا الاستعمار خسائر مادية وبشرية كبيرة، جعلته يستدعي قوات إضافية ويستعين بجحافل من الطائرات الحربية التي ساهمت بشكل كبير في تغيير ميزان المواجهة لصالح الفرنسيين. ورغم التفوق الاستعماري فقد رفض المقاومون الاستسلام، إذ قرروا الاستمرار في الجهاد، ونقلوا المواجهة لجبل "بادو" الذي اتخذوا من كهوفه مكانا للاختباء وخزن المؤونة، والقيام بهجمات مباغثة أرغمت الاستعمار على التراجع في بعض الأماكن.

حاول الفرنسيون دفع المقاومين للاستسلام بالترهيب أحيانا وبالترغيب أحيانا أخرى، فتوقفت المواجهات يوم ٢٤ غشت ١٩٣٣، ترقبا لنزول القائد زايد أوسكنتي للتفاوض مع الجنرال "جيرو" لكن دون جدوى، إذ فضل القائد المرغادي الاستمرار في القتال. وأمام هذا المعطى "قررت قوات الاحتلال شن هجوم شرس يوم ٢٥ غشت ١٩٣٣ على بادو أسكرسو، واجهه المجاهدون ببسالة وشجاعة خارقة، وتم تبادل إطلاق النار بين الطرفين، ووصلت المعركة إلى المواجهة المباشرة باستعمال السلاح الأبيض"^(٢٧). في يوم ٢٦ غشت ١٩٣٣ وأمام قوة الهجوم الفرنسي ونفاذ المؤونة اضطر المقاومون المتمركزون بجبل بادو تحت قيادة زايد أوسكنتي للاستسلام للقوات الفرنسية حقنا للدماء، في حين قررت المجموعة التي يقودها سيدي الطيب نايت

بعد الهجوم العنيف الذي قامت به القوات الفرنسية على مدشره، لجأ الشاعر إلى جبل بادو الذي عقد عليه أمالاً كبيرة للنجاة من بطش الاستعمار. لكن رغم عظمة هذا الجبل وعلوه ومناعته، إلا أنه لم يسلم من القصف الكبير باستعمال الطائرات الحربية، مما جعل الشاعر يصاب بخيبة أمل كبيرة.

البيت الرابع

Nsam7ak a Baddo Sam7i Chyin
Nak Aydakd Yugi Ach Yagh Lkour
سامحتك يا بادو، راجيا أن تسامحني أيضاً
أنا من تسبب لك مآسي القذائف والرصاص

حاصرت القوات الفرنسية جبل بادو وقصفته بأشد المدافع فتكا، وبالطائرات التي كانت تطلق النار باسترسال، حتى اختلطت الدماء والأعضاء البشرية بالأرض والتصقت بالصخور والأشجار. هذا المشهد جعل الشاعر صاحب البيت يصاب بصدمة كبيرة من هول المشهد، معتذراً لجبل بادو ومحملاً نفسه مسؤولية ما حدث.

ثانياً: حركة زايد أوحمد استمرار لمقاومة جبل بادو

بعد واقعة بادو المشهورة سنة ١٩٣٣، نزل المقاومون من الجبل والرغبة في الانتقام تملأ قلوبهم، خاصة بعد الإهانة التي واجهتهم بها السلطات الفرنسية بعد الاستسلام. تعتبر منطقة أمضعوس^(٢٥) من المناطق التي كان لها دور كبير في معركة بادو، مما جعل الاستعمار الفرنسي يفرض عليها قرارات مجحفة، من قبيل الأعمال الشاقة. هذا الأمر زاد من حنق سكان المنطقة، وفي مقدمتهم "زايد أوحمد أمخدش" الذي سيمرّد على السلطات الاستعمارية ويكبدها خسائر كبيرة. فمنّ هو هذا المقاوم؟

١/٢-نبذة عن زايد أوحمد

ولد زايد أوحمد أمخدش من أسرة فقيرة أواخر القرن التاسع عشر الميلادي بقصر إقدمان الذي ينتمي حالياً للجماعة الترابية "أيت هاني" بإقليم تنغير. ينتمي لفخدة "إربيين" وهي فرع من فروع قبيلة أيت مرغاد

بشكل قوي في أذهان سكان الجنوب الشرقي، ولا زالت إلى يومنا هذا. في هذا الصدد أشارت مجموعة من الأبيات الشعرية من "أحيدوس نايت مرغاد" بالخصوص وبشكل صريح لمعركة بادو. هذه الأبيات - التي سنعمل على ترجمتها للعربية- يمكن من خلالها اكتشاف جوانب خفية لم تتبها لها المصادر المكتوبة، وإن كانت الترجمة في الحقيقة ستفقد أصالها وقوتها الشعرية.

البيت الأول:

Tlla Ljent G Baddou Tta Ur-as Nghiy
Awa Ur i Tchtamt A Lmut Izil
في جبل بادو جنة لم أستطع إليها سبيلاً
لم يكتب لي ذلك الموت الجميل

في هذا البيت الشعري العميق نعر على "أنا" متشظية ومتحسرة عن عدم المشاركة في معركة جبل بادو، هذه المحطة التي تشكل في اعتقاد الشاعر جسراً للجنة أو جنة في حد ذاتها. الموت في جبل بادو ليس موتاً محزناً، بل هو- بقدر مأساويته - موت جميل، لم يكتب للشاعر - صاحب البيت - تذوقه لظروف قاهرة... هنا نصادف أناساً استرخسوا دماءهم في سبيل وطنهم، من أجل حريتهم، وليعيشوا في أرض تصدح لغتهم وكيونتهم.

البيت الثاني:

Imaydak Nga Abu Ttir Niflwan
Allig Da Tzzad Am Ourwa Ghifi
ما ذنبنا معك أيتها الطائفة العنيفة
حتى صرت مثل دارسة تأتين على الأخضر واليابس

يشير الشاعر في هذا البيت لقساوة وعنف القصف الذي كان تتعرض له المداشر والقرى المحادية لجبل بادو، باستعمال طائرات حربية كثيفة. هذا القصف خلف خسائر بشرية ومادية كثيرة، وأدخل الرعب في صفوف سكان المنطقة.

البيت الثالث:

Awa Digh s Baddo Ghalgh Al3fou
Iddis Tfferd Agnsou N tawalin
قصدت جبل بادو ظاناً أن الهناء
كامن بين أشجار العرعار

سراً لخطوة مواصلة المقاومة عبر البحث عن أشخاص يشاركونه ما ينوي القيام به. حسب الرواية الشفوية فقد طالب المساندة في بداية المطاف من أشخاص ينتمون لقصور "تمتوتشت" و"أيت هاني" نذكر منهم:

- خياعلي زايد أوحساين "رحمة الله عليه" لم يستطع مرافقة زايد أوحمد لأنه أصيب بجرح غائر في معركة بادو؛
- سعيد أومخداش رحمه الله رفض أبوه بشدة فكرة مرافقته لزايد أوحمد؛
- سكو أوحمد خياعلي رحمه الله رفض الفكرة لعدم قدرته على ترك أسرته...^(٢٩)

انتقل بعد ذلك زايد أوحمد لمنطقة "تانا"^(٣٠) التي وجد فيها مجموعة من الأشخاص الذين تقبلوا الفكرة، وفي مقدمتهم "موحي أحمو جعو" و"سعيد أوحمد أتايروت"، (حسب الرواية الشفوية دائماً والتي لا تختلف إطلاقاً مع ما ورد في الوثائق الفرنسية التي نشرها الصحفي ميمون أم العيد في مجلة هسبريس سنة ٢٠١٩).

أول ما تفتن له زايد أوحمد هو ضرورة امتلاك السلاح باعتباره وسيلة ضرورية لمواجهة الاستعمار. في هذا الصدد أشار "موحي أحمو جعو" إلى أن نسيبه يمتلك سلاحاً يُطلق عليه محلياً "ساسبو" وهو مدفع قديم. انطلق زايد أوحمد ورفاقه للقيام بأول عملية ضد الفرنسيين "بأقا نتركي" بالضبط "أخوبي ن تيكطت". (كانت أول عملية اغتيال حسب الوثائق الفرنسية التي أوردها الصحفي ميمون أم العيد في ١١ يونيو ١٩٣٤). وقد تمكنوا من اغتنام أسلحة مهمة من هذه العملية، بعدها توالى عمليات أخرى كبدت الفرنسيين خسائر بشرية ومادية كبيرة. إلى حدود هذا التاريخ (صيف ١٩٣٤) لا تزال السلطات الفرنسية تجهل الجهة التي تنفذ هذه العمليات الخطيرة، خاصة أن "زايد أوحمد" استطاع إخفاء عملياته البطولية بدقة متناهية.

ظل "زايد أوحمد" ورفاقه يتنقلون بشكل متخفي وبسرعة متناهية في جبال وقرى ومدامر الأطلس الكبير الشرقي، مستفيدين من معرفتهم الكبيرة بتضاريس المنطقة ومن علاقاتهم الطيبة بمجموعة من

الصنهاجية. قضى طفولته كباقي أقرانه، واشتغل في جمع الحطب ورعي الأغنام بالجبال المجاورة.^(٣١) حسب الرواية الشفوية المتداولة بالمنطقة فقد عرف "زايد أوحمد" بدائه ونباهته وشجاعته وقدراته العسكرية، مما جعله يتولى مسؤولية حماية الأهالي منذ حادثة سنه. ولما قام القائد "التهامي الكلاوي" بحملة كبيرة على إقليم تنغير، أثقل كاهل سكان المنطقة بضرائب مجحفة وفرض عليهم أعمالاً شاقة أفقدتهم كرامتهم. ثارت حفيظة أهل تودغة فتجندوا لمقاومة "الكلاوي" مستعينين بأيت مرغاد من الشمال، وكان زايد أوحمد في مقدمة المرغادين الذين تطوعوا لمحاربة جيوش الكلاوي.

كان حضور زايد أوحمد قوياً في الأحداث الجارية بالأطلس الكبير الشرقي، خاصة في معركة "بوغافر" حيث كان يمد العطاويين بالأسلحة، "ولما قامت المقاومة بجبل بادو عام ١٩٣٣ انطلق إلى صفوفها فقاتل وفقد رفيقة دربه (تاوعديت من قصر تمتوتشت)"^(٣٢). هذا المسار الحافل والحضور القوي منذ بداية القرن ٢٠، فند بشكل لا يدع مجالاً للشك محاولة البعض التقيص من مساهمة هذا المقاوم، وحصرها في الانتقام لنفسه بعد حادثة إهانته التي سنفضل فيها لاحقاً. فكيف انطلقت حركة زايد أوحمد أومخداش؟ وماهي أهم تطوراتها ونتائجها؟ كيف تمكن المستعمر من القضاء على هذا المجاهد الكبير؟

٢/٢- بداية حركة زايد أوحمد ودخوله دائرة

التحقيق

بعد معركة بادو الخالدة كان "زايد أوحمد أومخداش" من أكثر المتحينين لفرصة الانتقام لشرف المنطقة والبلد ككل، خاصة وأن الفرنسيين قد فرضوا على سكان "أمضغوس" و"تمتوتشت" وكل المناطق التي شاركت في بادو عقوبات قاسية من قبيل شق الطرق. زايد أوحمد "اشتغل عاملاً في شق الطريق الرابطة بين أيت هاني وامسمير... وفي لحظة انصباب العرق من جهة العمل تقدم إليه الضابط الفرنسي المكلف بمراقبة الأشغال وأهانته كلاماً وصفها"^(٣٣).

تحايل زايد أوحمد حتى حصل على تصريح من المراقب الفرنسي للتخلف عن العمل، فبدأ في الإعداد

في وقت استمرت فيه الهجمات المباغثة ضد المصالح الفرنسية.

٣/٢- حصيلة العمليات التي نفذها زايد أوحاماد

رغم الجهود الحثيثة والتحقيقات المكثفة التي فتحتها السلطات الفرنسية، لم تستطع الوصول لزايد أوحاماد الذي ظل يشن " الغارات الخاطفة والهجمات السريعة، فتحين الفرص المواتية ونفذ هجماته في (تمتوتشت) وتودغى وكلميمة وصاغرو واسيف ملول على مدى أربع سنوات^(٣٢) من ١٩٣٣ إلى ١٩٣٦.

وقد كانت حصيلة العمليات التي قام بها زايد أوحاماد كما يلي:

- ١١ / ٠٦ / ١٩٣٤: وضع كمين للملازم "كرماي" قرب تمتوتشت وقتل جنديين؛
- ٢٦ / ٠٦ / ١٩٣٤: مقتل الملازم "فيليبون" بقرية تانا وغنم سلاحه وذخيرته؛
- ١٩ / ٠٨ / ١٩٣٤: مهاجمة قافلة بمضيق تودغى؛
- ١٠ / ١٠ / ١٩٣٤: عملية ضد شاحنة بين الراشيدية وكلميمة قتل سائقها؛
- ٠١ / ١٢ / ١٩٣٤: قتل جنديين بمضيق تودغى؛
- ٢٧ / ٠١ / ١٩٣٥: مقتل ضابط الصف "تريسانت" بين تودغى وأيت هاني؛
- ٠١ / ٠٦ / ١٩٣٥: مقتل الملازم "فرومنتان" قرب مركز إملشيل؛
- ١٦ / ١١ / ١٩٣٥: هجوم على فرقة من الكوم السابع بكردوس وقتل ستة وغنم أسلحتهم؛
- ٣٠ / ١٢ / ١٩٣٥: الهجوم على حانة بمركز تودغى جرح فيها صاحب الحانة من أصل يهودي ومخزني مغربي وقتل ثلاثة من الجنود...^(٣٣)

وقد كان الخونة المتعاونون مع الاستعمار أيضاً من ضحايا العمليات البطولية التي قام بها زايد أوحاماد. في هذا الصدد تمكن من قتل "مبارك أوعبد السلام" شيخ قبيلة أيت أريتان ومساعدته موحى سكي، كما قتل شخصاً آخرًا من قصر أيت بوجان بتغيير يدعى "خوجمان". وقد وصل عدد القتلى من جهة الاستعمار

الأسر. كانت عمليات هذا المقاوم لغزاً محيراً للسلطات الفرنسية، التي فتحت تحقيقاً موسعاً لكشف الجهة المسؤولة عن تنفيذ هجمات كبدتها خسائر كبيرة. فكيف توصل الاستعمار لتحديد هوية زايد أوحاماد؟ خلال إحدى تنقلاته (حسب الرواية الشفوية) وصل المقاوم "زايد أوحاماد" إلى منطقة "الريش" وقصد سوق المنطقة للتزود بالموثونة، فالتقى بعض أصدقائه من رحل "أيت عيسى إزم"^(٣١). ومن بين الحاجيات التي اقتناها حزمة تضم علبة كثيرة من عود الثقاب، والتي ستكون الإشارة التي ستدخله دائرة التحقيق. أثناء تواجده بالريش سنة ١٩٣٤ علم زايد أوحاماد ورفاقه أن سيارة فرنسية محملة بالموثونة ستزود الحامية الفرنسية المرابطة "بأكديم إيغف أمان"، فنصبوا لها كميناً واعترضوها قرب منطقة "ميززيل" وقتلوا المتواجدين على متنها واستولوا على مجموعة من الأسلحة والعتاد.

جن جنون السلطات الفرنسية بعد هذا الحادث، ففتحت تحقيقاً موسعاً واستجوبت الرحل المتواجدين قرب المنطقة (من بينهم من التقى بهم زايد أوحاماد بالسوق). وبعد تعذيب وحشي أشار أحد الرحل إلى أنه التقى شخصاً من "أمضغوس" يدعى "زايد أوحاماد" أومخداش" وقد اقتنى علبة كثيرة من عود الثقاب رغم أنه لا يدخن؟ فكانت هذه الإشارة بداية لإدراج اسمه في التحقيقات التي فتحتها السلطات الفرنسية منذ أواخر سنة ١٩٣٣. انتقل المحققون الفرنسيون إلى قصر "إقدمان" بأمضغوس للبحث عن "زايد أوحاماد" الذي أكدت عائلته أنه حصل على تصريح من السلطات لمغادرة المنطقة، وقد اتجه إلى أزغار (الأطلس المتوسط) للبحث عن العمل. هذا المعطى زاد من شك السلطات الفرنسية في مسؤوليته المباشرة في الأحداث المحيرة التي وقعت بالمنطقة منذ النزول من بادو وأصبح المتهم الأول. كلفت السلطات الفرنسية شخصاً يدعى "موران" (اختيار هذا الشخص كان بناء على بنيته الجسدية الكبيرة وإتقانه للغة العربية ومعرفته المسبقة بمناطق أزغار) للبحث عن "زايد أوحاماد" ووعدته بمكافأة كبيرة إذا تمكن من الرجوع بمعطيات تفيد التحقيق. انتقل "موران" إلى أزغار ورجع دون الحصول على أية أخبار تفيد القضية،

أقرب وقت ممكن، نظراً لخطورتها وعنفها. فكيف تمكن الفرنسيون من الوصول إليه؟

بعد مدة من مرافقته لزائد أوحاماد قرر "سعيد أوحاماد أوتاريروت" الانسحاب والعودة إلى مسقط رأسه بمنطقة "تانا". وبعد انكشاف أمر مشاركته في مختلف العمليات التي استهدفت الفرنسيين، قرر الانتقال إلى ميدلت للاشتغال في مجال رعي الأغنام. أوتاريروت هذا سيكون له دور كبير في كشف موقع زائد أوحاماد. كثفت السلطات الفرنسية بحثها سنة ١٩٣٦، واستعملت مختلف الوسائل للوصول إلى زائد أحماد. في هذا الصدد أصدرت قراراً خطيراً بالقبض على ٤٠ شخصاً من وجهاء "إربيين" (فرع من أيت مرغاد القبيلة التي ينتمي إليها زائد أوحاماد)، وهددتهم بالإعدام في حالة عدم القبض على المقاوم الذي أُرعب المستعمر.

أبلغ شيخ "تانا" السلطات الفرنسية أن "سعيد أوحاماد أوتاريروت" من المحتمل أن يكون شريكا سابقا لزائد أوحاماد، فقررت استقدامه من ميدلت قصد التحقيق حيث اعترف بما نسب إليه وأبدى استعداداته التام للمساعدة في الوصول إلى مكان اختباء المجاهدين. بعث المحققون الفرنسيون "أوتاريروت" لمنطقة أيت سنان بتتغير لاستقصاء الأخبار، خاصة أن زائد أوحاماد على تواصل دائم بعائلة "أيت أوزايد" التي كانت من أبرز المساندين للمقاوم المرغادي ورفاقه. إدعى "أوتاريروت" أنه يرغب في الالتحاق من جديد بزائد أوحاماد ورفاقه لمواصلة المقاومة، فتم إخباره من طرف "أيت أوزايد" أنهم ينوون قضاء عيد الأضحى بمنطقة "تدقالت ن إكناون"، لتكون هذه المعلومة كافية لتحديد موقع زائد أوحاماد والترصد به.^(٣٥)

بعد هذه المعلومة المهمة "قدم إلى تودغة كل من القائد الفرنسي لناحية مراکش "روش" وقائد ناحية ورزازات "شاردو" ورئيس دائرة بولمان "بومبي"^(٣٦)، وتم تجنيد قوات عسكرية كبيرة جدا لمحاصرة تدقالت من كل الجهات، وذلك يوم ٠٥ مارس ١٩٣٦ الذي يوافق ثاني عيد الأضحى. بعد إدراك زائد أوحاماد ورفيقه "موحى أحمو جعو" و"موحى أوغلي نايت حسو" انكشاف أمرهم، رفضوا فكرة الاستسلام وقرروا القتال إلى آخر رمق من حياتهم. وبعد مقاومة شديدة سقط زائد أوحاماد "شهيداً

أكثر من ٤٦ قتيلاً. أمام اشتداد هجمات زائد أوحاماد "جن جنون المستعمر من هذا المقاوم الذي فعل بهم هذه الأفاعيل، فسعوا جهدهم للقضاء عليه ومن معه فاعتقلت من سكان المنطقة عدداً ومن عائلته كذلك... وكل من له علاقة به، فاستنطقوا لمعرفة مخبئه أو إرغامه على الاستسلام ونكلت بكثير منهم فمات بعضهم أو قتل وسجن الآخرون"^(٣٤).

ومن الشهداء الذين قضوا في سبيل الوطن إلى جانب زائد أوحاماد نذكر:

- يحس موحى احساين من أيت هاني.
- علي وعلي نايت عبيدي، داود ارسكال نيبعا، سعيد أهشرا، أوها من قصر تمتوتشت.
- الحداد ابراهيم من قصر تاوداعت.
- الشريف أموح بن علي من قصر إكدمان.
- اموح اورحو، أعشاش، داوود شددود من أسول.
- موحى أوغلي، موحى اتسكت، علي أولاهو، عسو اباتحدوش، سعيد نايت سعيد أحمو، موحى احمو بولمان من قصر تانا.
- باسو أوغلي بن فاسن، علي أشعو، عسو أحماد، فاسكا الكبوس من كلميمة.
- موحى العربي توفي في السجن.
- موحى أوزايد وشقيقه ابراهيم من أيت شعيب بتتغير.
- عدي صالح من قصر أيت أريتان.
- أوبراهيم من قصر تدقالت.

ومن بين المناطق التي دفعت ثمناً غالياً جراء مساندتها لزائد أوحاماد، يمكن أن نشير بالضبط إلى قصر "تمتوتشت" التابع لإداريا لأيت هاني، وقصر "أيت عبد السلام" بمسمرير، ومنطقة تدقالت ن إكناون بتغزوت... وغيرها من المداشر التي عاقبها المستعمر عقاباً شديداً.

٤/٢-تحديد مكان زائد أوحاماد واستشهاده

سخرت السلطات الفرنسية إمكانيات بشرية ومادية واستخباراتية كبيرة للقضاء على حركة زائد أوحاماد في

الملاحق

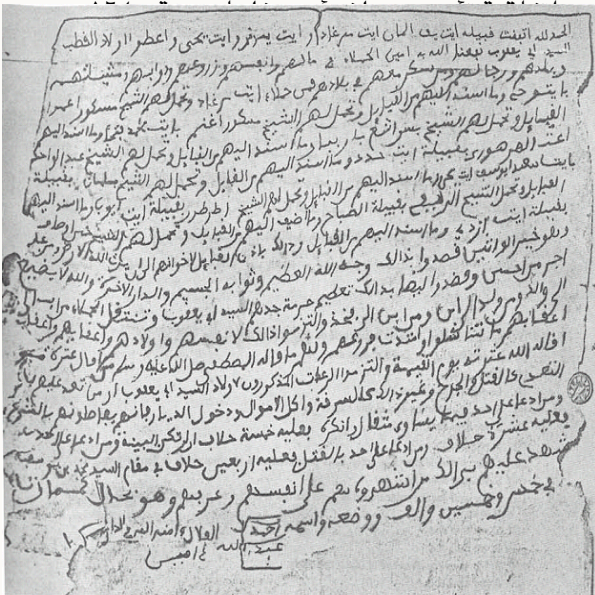
خريطة رقم (١)

المغرب في عهد الحماية ١٩١٢ - ١٩٥٦



مصدر الخريطة: الموقع الإلكتروني www.corcas.ma

صورة رقم (١)



مصدر الصورة: LE ، P 93
LAARBI MAZIN.TAFILALALT

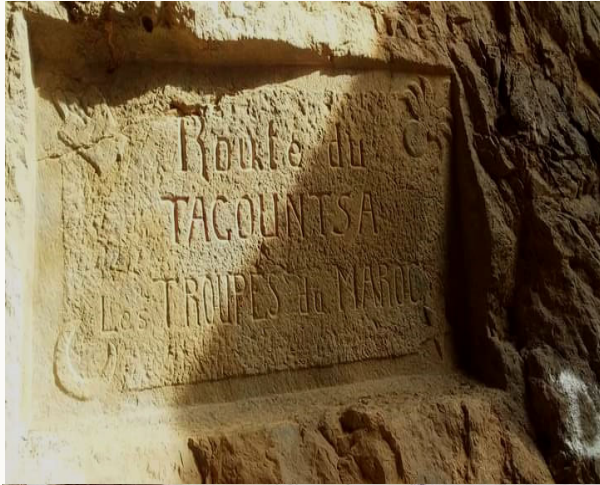
على أرض أنجبت رجالاً لم يعرفوا المساومة ولا الخنوع في أرضهم وكرامتهم".^(٣٧) هكذا إذن "وضعت السلطات الفرنسية نقطة نهاية في التحقيق في شأن مقاوم شرس من قبيلة ايت مرغاد اسمه زايد أوحاماد، قاومم الوجود الفرنسي بالسلاح، وأرداه مخزني مغربي آخر يشتغل تحت إمرة الفرنسيين قتيلاً. وكتبت عنه الصحف الفرنسية واصفة إياه بـ "roi des djicheurs" وهي تعبر عن سعادتها البالغة لتصفيته وحرق جثته".^(٣٨)

خاتمة

انطلاقاً مما سبق ذكره؛ يتضح أن قبائل آيت يافلمان لم تخرج عن سياق ما قام به الشعب المغربي في كل ربوع الوطن، إذ أبلت البلاء الحسن في الدفاع عن الوطن ضد الاستعمار الغاشم الذي وظف كل الوسائل للقضاء على المقاومة. وحسبنا أن الإنسان الأمازيغي عبر التاريخي رفض الاستعباد ودفع الغالي والنفيس من أجل الحرية. ففي بادو وحمدون عانى الفرنسيون كثيراً قبل إرغام "آيت يافلمان" على الاستسلام، ولولا نفاذ المؤونة واستعمال الطائرات الحربية لما كان لهم ذلك. هذا الأمر أكدته أوسكونتي في تصريح لصحيفة "باريس المساء" بعد انتهاء معركة بادو حيث قال: "إن طائراتكم هي التي أحرزت لكم التفوق وألحقت بنا خسائر. ولم أحاول الهرب لأن أوسكونتي لن يتخلى عن أهله وذويه في المحنة".^(٣٩)

أما زايد أوحاماد فقد لقن الاستعمار دروساً قاسية في فنون القتال والمباغثة طيلة ما يقارب ثلاث سنوات، بحيث جعل الفرنسيين يجندون إمكانات كبيرة جداً للقضاء عليه. وبعد نهاية المقاومة المسلحة انخرط أبناء الجنوب الشرقي المغربي ككل - وآيت يافلمان بالخصوص - بقوة في صفوف الحركة الوطنية المغربية وفي خلايا جيش التحرير، وواصلوا النضال ضد الاستعمار إلى حين تحقيق المغرب للاستقلال بعد تلاحم كبير بين الملك والشعب.

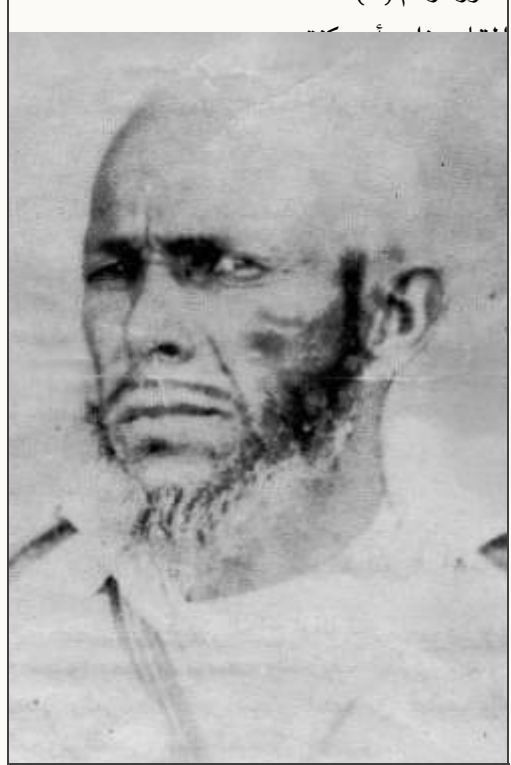
- صور رقم (٤) من معركة بادو وحمدون^(٤٠)
نفق " تاكنسا " الذي استعملته القوات الاستعمارية
للوصول إلى الأطلس الكبير الشرقي



- قادة القوات الفرنسية في معركة بادو: غشت ١٩٣٣



صورة رقم (٢)



صورة رقم (٣)

قمة جبل بادو



المصدر: تم التقاط الصورة بتاريخ ١٥ غشت ٢٠١٦
من طرف ذ. لحسن خياعلي (أستاذ التاريخ والجغرافيا
مديرية تنغير)

- استعمال المستعمر لأسلحة وتقنيات متطورة حسمت
المعركة لصالحه كالمدافع والطائرات الحربية



- استسلام قادة معركة بادو زايد اوسكنتي (يميناً) وموحي عرجي (يساراً)



TC:00:20:54:14



TC:00:21:06:03

- نزول المقاومين من الجبل وتسليم أسلحتهم



TC:00:19:03:21



TC:00:20:32:22



TC:00:10:49:10



TC:00:06:52:02



TC:00:08:45:13



TC:00:06:36:06

صورة رقم (٥)
المجاهد زايد أوحمد



الصورة المتداولة والمعروفة لزايد أوحمد هي مجرد لوحة تقريبية وليست حقيقية. الصورة رقم (٥) هي الصورة الحقيقية النادرة للمجاهد زايد أوحمد، المصدر: حصلت عليها من الأستاذ الباحث في تاريخ منطقة أمضغوس لحسن خياعلي الذي حصل عليها بدوره من شيخ قصر ايت لحسن.



● إسعاف المصابين في معركة بادو



الإحالات المرجعية:

- (١) مولاي أحمد الإدريسي، **تودغى تاريخ وأعلام: نبذة عن تاريخ الواحة منذ دخول الإسلام إلى فترة الاحتلال الفرنسي**، دار الكتب بيروت، الطبعة الأولى، ص ٥٨.
- (٢) **المولى عبد العزيز بن الحسن الأول**، تولى حكم الدولة العلوية ابتداء من سنة ١٨٩٤ إلى حين عزله سنة ١٩٠٨.
- (٣) **المولى عبد الحفيظ** تولى حكم المغرب سنة ١٩٠٨ بعد عزل أخيه الأصغر. استمر في الحكم إلى سنة ١٩١٢.
- (٤) معاهدة وقعتها المولى عبد الحفيظ مع فرنسا بمدينة فاس يوم ٣٠ مارس ١٩١٢، تم بموجبها استعمار المغرب.
- (٥) **أحمد الهيبه** ولد سنة ١٨٧٦، تزعم مقاومة قبائل الجنوب والصحراء. انهزم أمام الفرنسيين في معركة سيدي بوعثمان قرب مراكش في شتنبر ١٩١٢.
- (٦) **موحى أحمو** ولد سنة ١٨٥٧، قاد قبائل زيان بالأطلس المتوسط لتحقيق انتصارات ساحقة على القوات الفرنسية، خاصة في معركة الخالدة سنة ١٩١٤ قرب مدينة خنيفرة. مات سنة ١٩٢١.
- (٧) **محمد بن عبد الكريم الخطابي** ولد سنة ١٨، قاد قبائل الريف للثورة ضد الاستعمار الإسباني. كبد الإسبان هزيمة مذلّة في معركة أنوال سنة ١٩٢١، استسلم سنة ١٩٢٦ بعد تحالف فرنسا وإسبانيا. توفي بمصر سنة ١٩٦٣.
- (٨) **عسو أبسلام** تزعم المقاومة بالجنوب الشرقي المغربي، واجه الفرنسيين في معركة بوكافر سنة ١٩٣٣، لكنه اضطر للاستسلام.
- (٩) **اتحادية أيت عطا** اتحادية أمازيغية صنهاجية تأسست سنة ١٥٣٣ بإغرم أمزدار على يد زعيمها التاريخي دادا عطا، وبدعم من مولاي عبد الله بن حساين.
- (١٠) محمد أحدى، **دراسات حول الجنوب والصحراء**، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الطبعة الأولى ٢٠١١، ص ١٥ - ١٦.
- (١١) عدي الراضي، **"حلف أيت يافلمان: التاريخ والمجال"**، المجلة الإلكترونية الحوار المتمدن، ٢٠١٢، ١٦٧ - ٢٠.
- (١٢) فاطمة بامو، **قبيلة أيت مرغاد تاريخ وتراث، مسلك التاريخ والحضارة**، جامعة محمد الأول بوجدة، ٢٠١٩، ص ١٨.
- (١٣) **الزعماء التاريخيين لحلف أيت يافلمان هم**: سكو بويغف ممثل أيت حديدو، علي وهناش ممثل أيت مرغاد، إبراهيم نتاعكيت ممثل أيت ايزدك، موحى وعقا ممثل أيت يحيى.
- (١٤) محمد أحدى، **دراسات حول الجنوب والصحراء**، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الطبعة الأولى ٢٠١١، ص ٣٢.
- (١٥) مولاي أحمد الإدريسي، **تودغى تاريخ وأعلام: نبذة عن تاريخ الواحة منذ دخول الإسلام إلى فترة الاحتلال الفرنسي**، دار الكتب بيروت، الطبعة الأولى، ص ٦٠.
- (١٦) عبد الكريم الفيلالي، **التاريخ السياسي للمغرب الكبير**، الجزء الثامن، شركة ناس للطباعة القاهرة، ٢٠٠٦، ص ٨.
- (١٧) مولاي أحمد الإدريسي، **تودغى تاريخ وأعلام: نبذة عن تاريخ الواحة منذ دخول الإسلام إلى فترة الاحتلال الفرنسي**، دار الكتب بيروت، الطبعة الأولى، ص ٨١.
- (١٨) عبد الكريم الفيلالي، **التاريخ السياسي للمغرب الكبير**، الجزء الثامن، شركة ناس للطباعة القاهرة، ٢٠٠٦، ص ٢٧٥، بتصريف

صور رقم (٦)

حرق جثة الشهيد زايد أوحاماد واحتفال الصحافة الفرنسية



المصدر: الصفحة الرسمية للصحفي ميمون أم العيد

على موقع فايسبوك، تم نشر الصورتين بتاريخ ٠١ ماي ٢٠٢٠.

(٣٦) مولاي أحمد الإدريسي، **تودغى تاريخ وأعلام: نبذة عن تاريخ الواحة منذ دخول الإسلام إلى فترة الاحتلال الفرنسي**، دار الكتب بيروت، الطبعة الأولى، ص ٨٧.

(٣٧) محمد المعزوي، **هاشم بن الحسن العلوي، الكفاح المغربي المسلح**، معلمة المغرب: ١٤٠٥ و ١٩٩٩ بتصرف.

(٣٨) ميمون أم العيد، **وثائق فرنسية الحلقة (١٠): "هكذا أنهت فرنسا قضية زايد أوحاماد"**، مجلة هسبريس الإلكترونية، عدد ٤. ماي ٢٠٢٠.

(٣٩) عبد القادر بوراس، **ملاحم من مقاومة زايد أوسكونتي (من سنة ١٩٠٧ إلى سنة ١٩٣٣)** منشورات المندوبية السامية للمقاومة وأعضاء جيش التحرير، الطبعة ٢، دار أبي رقرق، الرباط، ٢٠٠٩، ص ٥٥.

(٤٠) هذه الصور مقتطفة من فيلم وثائقي فرنسي نادر تم تصويره بواسطة الطائفة في غشت ١٩٣٣ بجبل بادو، وهو بعنوان:

CONQUETE du HAUT – ATLAS (Le Djebel Baddou), Film réalisé au cour des derniers opération marocaines par: MAXIME DELY.

(١٩) بادو سلسلة جبلية شامخة يبلغ علوها ٢٨٩٠ متر، توجد بين سلسلتي الأطلس الكبير والأطلس المتوسط، بالتحديد بين جماعتي أسول التابعة لإقليم تنغير وأغبالو نكدوس التابعة لإقليم الراشيدية.

(٢٠) علي حادون، مداخلة بعنوان **"ومضات من بادو"** وردت ضمن أشغال ندوة عن بعد نظمها فضاء الذاكرة التاريخية بميدلت بتاريخ ٣٠ دجنبر ٢٠٢١، منشورة على صفحة المندوبية.

(٢١) علي حادون، مداخلة بعنوان **"ومضات من بادو"** وردت ضمن أشغال ندوة عن بعد نظمها فضاء الذاكرة التاريخية بميدلت بتاريخ ٣٠ دجنبر ٢٠٢١، منشورة على صفحة المندوبية الرسمية.

(٢٢) عبد الواحد بن الطالب، مداخلة بعنوان **"معارك جبل بادو وحمدون، علماء مقاومون وشجعان صامدون"**، وردت ضمن أشغال ندوة عن بعد نظمها فضاء الذاكرة التاريخية بميدلت بتاريخ ٣٠ دجنبر ٢٠٢١.

(٢٣) عبد الكريم الفيلالي، **التاريخ السياسي للمغرب الكبير**، الجزء الثامن، شركة ناس للطباعة القاهرة، ٢٠٠٦، ص ٢٢٩ بتصرف.

(٢٤) هذه اللبنيات وردت في الموروث الشعري لأيت مرغاد، ولا تزال إلى اليوم منتشرة بشكل كبير جدا. رغم البحث الحثيث لم أتمكن من معرفة أسماء الشعراء الذين أبدعوها.

(٢٥) يطلق اسم أمضغوس على المجال الترابي الذي تمتد عليه جماعة أيت هاني حاليا، باستثناء قصر تمتوتشت.

(26) ZAID OUCHNA, ZAID OUHMAD,imprimerie: Aljanoub Errachidia, editeur: FAD, 2011,P 13.

(٢٧) مولاي أحمد الإدريسي، **تودغى تاريخ وأعلام: نبذة عن تاريخ الواحة منذ دخول الإسلام إلى فترة الاحتلال الفرنسي**، دار الكتب بيروت، الطبعة الأولى، ص ٨٥.

(٢٨) مولاي أحمد الإدريسي، **تودغى تاريخ وأعلام: نبذة عن تاريخ الواحة منذ دخول الإسلام إلى فترة الاحتلال الفرنسي**، دار الكتب بيروت، الطبعة الأولى، ص ٨٥.

(٢٩) تسجيل صوتي مدته ٨ دقائق يعود لسنة ٢٠١٢ للسيد موجان زايد المولود في عشرينيات القرن الماضي، والمتوفى سنة ٢٠٢٢، حصلت عليه من الأستاذ لحسن خياعلي.

(٣٠) **تانا** هي قرية تابعة إداريا لجماعة أملاكو.

(٣١) **تسجيل صوتي** مدته ٨ دقائق يعود لسنة ٢٠١٢ للسيد موجان زايد المولود في عشرينيات القرن الماضي، والمتوفى سنة ٢٠٢٢، حصلت عليه من الأستاذ لحسن خياعلي.

(٣٢) مولاي أحمد الإدريسي، **تودغى تاريخ وأعلام: نبذة عن تاريخ الواحة منذ دخول الإسلام إلى فترة الاحتلال الفرنسي**، دار الكتب بيروت، الطبعة الأولى، ص ٨٥.

(٣٣) مولاي أحمد الإدريسي، **تودغى تاريخ وأعلام: نبذة عن تاريخ الواحة منذ دخول الإسلام إلى فترة الاحتلال الفرنسي**، دار الكتب بيروت، الطبعة الأولى، ص ٨٥-٨٦.

(٣٤) مولاي أحمد الإدريسي، **تودغى تاريخ وأعلام: نبذة عن تاريخ الواحة منذ دخول الإسلام إلى فترة الاحتلال الفرنسي**، دار الكتب بيروت، الطبعة الأولى، ص ٨٦.

(٣٥) **تسجيل صوتي** مدته ٨ دقائق يعود لسنة ٢٠١٢ للسيد "موجان زايد" المولود في عشرينيات القرن الماضي، والمتوفى سنة ٢٠٢٢، حصلت عليه من الأستاذ لحسن خياعلي.

الأوضاع الصحية في البحرين

١٩٧٠ – ١٩٣٩

أ.د. عماد جاسم حسن

قسم التاريخ

كلية التربية للعلوم الإنسانية

جامعة ذي قار – جمهورية العراق



ملخص

مما لا شك فيه أن الصحة تُعدّ من القطاعات المهمة والتي تشكل مرتكزاً أساسياً في حياة الشعوب وتطورها، وبعد أن عانت منطقة الخليج العربي بشكل عام والبحرين بشكل خاص من تردي الأوضاع الصحية فيها نتيجة انعدام الطب الحديث والاعتماد على الطب الشعبي فقط، لكن وصول الإرسالية الأمريكية إلى البحرين أدى إلى بدايات دخول الطب الحديث، ومن ثم أخذ يتطور في السنوات اللاحقة بوصول عدد من الأطباء فضلاً عن تأسيس عدد من العيادات الصحية، وأيضاً البدء بعملية إنشاء المستشفيات في البلاد وأخذ ذلك الأمر يتطور لا سيما بعد اكتشاف النفط وتصاعد واردات البحرين المالية التي ساهمت بشكل كبير في الاهتمام بالصحة العامة وأعطت الحكومة البحرينية أولوية لذلك الموضوع من أجل القضاء على الأوبئة والأمراض التي كانت منتشرة في البلاد وكانت تحصد أرواح آلاف من السكان سنوياً، وبالتالي فإن بحثنا المعنون (الأوضاع الصحية في البحرين ١٩٣٩ – ١٩٧٠) يحاول أن يسلط الضوء على واقع تلك الأوضاع فضلاً عن توضيح الإجراءات الحكومية الرامية إلى تحسين ذلك الواقع. وقد أظهرت الدراسة أن البحرين كانت تعتمد قبل دخول الإرسالية الأمريكية إليها على الطب الشعبي في معالجة الأوبئة والأمراض التي تنتشر فيها وعدم وجود العلاجات الطبية الحديثة، وعانت البلاد من مجموعة من الأوبئة والأمراض التي كانت تحصد أرواح العديد من السكان.

كلمات مفتاحية:

تاريخ البحرين؛ الصحة في البحرين؛ الأوبئة والأمراض؛ الإرسالية الأمريكية؛
الحكومة البحرينية

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٢٤ مايو ٢٠٢٥
تاريخ قبول النشر: ٢٧ يونيو ٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.467687

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

عماد جاسم حسن، "الأوضاع الصحية في البحرين ١٩٣٩ – ١٩٧٠"، دورية كان التاريخية، السنة الثامنة عشرة - العدد الثالث والسبعون، نوفمبر ٢٠٢٥، ص ١٨٩ – ٢٠٨.

X, formerly Twitter: <http://X.com/kanhistorique>Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>Facebook Group: <https://www.facebook.com/groups/kanhistorique>Corresponding author: dr.amadgulf@gmail.comEditor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.comEgyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في دورية كان تحت رخصة المشاع المُنسب ٤.٠ الدولية (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

يُعَدُّ موضوع الاهتمام بالجانب الصحي من الموضوعات المهمة لكونه يرتبط بحياة الإنسان ومن ثمَّ ضرورة إعطاء ذلك القطاع العناية الكبيرة لأنه يشكل مرتكزاً أساسياً للمجتمع ولتطور الدولة ونهضتها وان الاهتمام بالصحة العامة يساهم بشكل كبير في الوقاية من الأمراض من خلال توفير بيئة صحية ملائمة وكذلك التقليل من انتشار الأوبئة والأمراض المعدية والحد من انتقالها بين الأشخاص ومن ثمَّ توفير الحماية للمجتمع من خلال توفير الفحوصات والعلاجات اللازمة وتطوير وتوسيع البنى التحتية للمؤسسات الصحية.

وعلى هذا الأساس، أولت مملكة البحرين ومنذ فترات سابقة وحتى قبل استقلالها عناية كبيرة بموضوع الصحة من خلال الخطوات والإجراءات التي اتخذتها حكومتها خلال تلك المدة للقضاء على الأمراض المتفشية فيها وأيضاً من أجل تحسين الواقع الصحي فيها، ولأهمية ذلك الموضوع جاء بحثنا بعنوان (الأوضاع الصحية في البحرين ١٩٣٩-١٩٧٠) وتم اختيار عام ١٩٣٩ بداية للبحث لكون العام الذي اندلعت فيه الحرب العالمية الثانية ومن ثمَّ تأثيرها على أوضاع البحرين بشكل عام والأوضاع الصحية بشكل خاص. أما سبب توقف البحث في عام ١٩٧٠ فهو العام الذي يسبق استقلال البحرين ودخولها مرحلة جديدة من تاريخها الحديث والمعاصر.

تكون البحث من تمهيد ومبحثين وتضمن التمهيد توضيحاً موجزاً للأوضاع الصحية في البحرين قبل عام ١٩٣٩، إذ تم التطرق فيه إلى الأمراض والأوبئة المنتشرة خلال تلك المدة وماهي طرق العلاج والوقاية منها، فضلاً عن ذلك تناول التمهيد التعرف على البدايات الأولى لنشأة الطب الحديث في البحرين من خلال مستشفى الإرسالية الأمريكية العربية. أما المبحث الأول فقد تطرق إلى الأوضاع الصحية في البحرين خلال المدة ١٩٣٩ وحتى عام ١٩٤٩، إذ تطرق إلى الإجراءات الحكومية التي كانت تركز على معالجة الأمراض وكيفية الوقاية منها فضلاً عن استحداث بعض الأقسام الطبية وتوسعة المراكز الصحية التي كانت في البحرين وجلب

بعض الأطباء للإفادة من خدماتهم في مجال الطب. أما بالنسبة إلى المبحث الثاني فقد جاء تحت عنوان الأوضاع الصحية في البحرين ١٩٥٠-١٩٧٠ وتطرق إلى المحاولات الحكومية الرامية إلى تحسين الواقع الصحي ومعالجة بعض الأمراض التي كانت مستوطنة فضلاً عن الاهتمام بطلبة المدارس ووضع لجان وفرق خاصة لزيارة المدارس وتطعيم الأطفال وعلاجهم، كما أوضح المبحث التطورات الإدارية في قطاع الصحة والتقسيمات الإدارية لا سيما مع التطور الإداري في البحرين وأوضح المبحث أيضاً الإجراءات الحكومية للاهتمام بالنساء الحوامل ورعاية الأطفال الرضع وأيضاً مشاركة البحرين في المؤتمرات الدولية التي كانت تختص بالجانب الصحي لغرض الإفادة منها في تطوير واقعها الصحي.

اعتمد البحث على مجموعة من المصادر يأتي في مقدمتها الوثائق البريطانية المنشورة في مكتبة قطر الرقمية والتي أوضحت الكثير من المعلومات التفصيلية حول الواقع الصحي في البحرين خلال مدة الدراسة، كما استفاد البحث من كتاب (البحرين تاريخ من الريادة الصحية) لمؤلفه محمد أحمد جوهر والذي يُعَدُّ كتاباً قيماً القى الضوء على القطاع الصحي في البحرين منذ كان الاعتماد على الطب الشعبي وحتى تطوره إلى الطب الحديث، كما تمت الإفادة من بحث بعنوان (أضواء على نشأة وتطور الخدمات الصحية بالبحرين) للباحث عبد الله بن خالد ال خليفة المنشور في كتاب خاص عن مركز الوثائق التاريخية، فضلاً عن ذلك الإفادة من مجلة النجمة الأسبوعية وأيضاً مصادر وبحوث أخرى.

تمهيد

عانت البحرين مثل بقية إمارات الخليج العربي من تخلف الأوضاع الصحية بانتشار الأوبئة والأمراض في العهود السابقة وكانت المعالجات الطبية تتم بشكل بسيط يعتمد على ما يعرف بالطب الشعبي ومما سهل عليهم معرفة اسرار تلك المهنة توارثها مع الأجيال ويكون العلاج من خلال ذلك الطب باستخدام الأعشاب والحشائش والنباتات أو عن طريق الكيِّ أو قراءة بعض السور والآيات أو استخدام الحجامة^(١). وكانت طريقة التدوي تعتمد على الطرق البدائية، فضلاً عن اعتماد

الحشرات واستعمال المياه الملوثة.^(٥) ومن الأمراض الأخرى المنتشرة في البحرين هي أمراض التهابات الأذن بسبب الغوص على اللؤلؤ وكذلك الأمراض الجلدية والروماتيزم عند كبار السن.^(٦)

كانت البحرين قد تعرضت خلال القرن التاسع عشر إلى مجموعة من الأوبئة والأمراض كان في مقدمتها انتشار مرض الكوليرا فيها عام ١٨٢١ وكذلك عودة هذا المرض إليها مرة أخرى في عام ١٨٧١ والذي حصد أرواح الكثير من أبناءها^(٧)، كذلك تعرضت البحرين لمرض الطاعون في عام ١٨٣١ والذي انتقل إليها من الهند وذلك لأن البحرين كانت ترتبط بعلاقات تجارية كبيرة مع الهند خلال تلك المدة وبالتالي تسببت تلك القوافل التجارية بنقل المرض إليها،^(٨) وبذلك يلاحظ أن البحرين قد تعرضت إلى موجات عدة من الأوبئة والأمراض التي فتكت بسكانها ولم تكن تستخدم العلاجات الطبية الحديثة وإنما كان الاعتماد بشكل رئيس على الطب الشعبي في معالجة تلك الأمراض، وبالتالي فإن الطب الحديث لم يدخل إلى البحرين إلا بعد عام ١٨٩٢ بعد تأسيس الإرسالية الأمريكية فيها.^(٩) ومما لا شك فيه، أن اختيار البحرين لتكون مقراً للإرسالية الأمريكية العربية في منطقة الخليج العربي يرجع إلى موقعها الجغرافي المميز بكونها تقع وسط الخليج العربي أي في منتصف الطريق بين البصرة شمال الخليج العربي ومسقط في جنوبه، ولذلك فإن معظم المعلومات التي تغطي إمارات الخليج العربي كانت ترد من مملكة البحرين.^(١٠) اهتمت الإرسالية منذ دخولها البحرين بالجانب الصحي، إذ عدت الخدمات الطبية من الوسائل الرئيسة التي جاءت بها الإرسالية الأمريكية العربية ليس في البحرين فحسب، وإنما في منطقة الخليج العربي بشكل عام والتي سارت جنباً إلى جنب مع الخدمات التعليمية، ولم يكن دافعها في ذلك تحسين الواقع الصحي لتلك المناطق بقدر أن تكون مهمتها الأساسية نشر الديانة المسيحية، وقد استغلت الإرسالية الظروف التي كان يعاني منها المجتمع الخليجي خلال تلك المدة التي كانت فيها إمارات الخليج العربي تقتصر على الخدمات الطبية الحديثة والاعتماد على الطب الشعبي في معالجة الأمراض.^(١١)

السكان على العقاقير العشبية للتداوي، فمثلاً كانوا يستخدمون (السوس الأبيض) لعلاج الحمى بعد وضعه على حافة النهر ليلة الخميس، كما أنهم كانوا يستخدمون خرزة صفراء اللون حول الرسغ للشفاء من اليرقان، وللسكتة الدماغية توضع حديدة ساخنة خلف الرقبة ولعلاج الجروح يوضع البارود على الجرح لشفائه ولإيقاف النزيف تحمل خرزة تسمى فص سليمان ولعلاج لدغة العقرب يوضع معدن خاص على المنطقة المصابة لسحب الدم، كما استخدموا السكين لعلاج الدم (الحجامة) ووخز الجسم بإبرة ساخنة لمعالجة عرق النسا، ولمعالجة بعض الأمراض الجلدية، فقد كانت تدهن بالدهن المقلي وأكثر الأمراض التي كانت شائعة هي الطاعون الذي يفتك بالآلاف من السكان وكذلك الجدري والكوليرا والحمى التيفوئيدية والدازنطري والبلهارزيا والزحار وأمراض العيون وتكون الحصى في المثانة والكلى.^(١٢)

فضلاً عن ذلك، فقد استخدم أهالي البحرين طرقاً أخرى للعلاج يعتمد بعضها على الأدعية الدينية وبعضها الآخر على الأعشاب الطبيعية. ومن تلك العلاجات الكي بالنار في مواقع مختلفة من الجسم حسب حالة المريض، فقد يوصي المعالج الشعبي بكي المريض على ظهره أو ساقيه أو على جانبيه رأسه من جهة الوجه، وأحياناً يتم العلاج بطريقة تدعى الفصد وهي جرح موضع من الجسم وترك الدم ينساب منه باعتبار أن الدم الذي يسيل هو الدم الفاسد دون أن يتم تشخيص الحالة بشكل صحيح.^(١٣)

تعرض سكان البحرين إلى عدة أمراض كانت منتشرة في المنطقة ومنها السل والزهري والجدري والبلهارسيا وأمراض الجهاز الهضمي، فضلاً عن أمراض الرمد والسعال الديكي والجدري والحصبة^(١٤)، أما الأمراض المعوية والتناسلية، فقد كانت منتشرة في البحرين أيضاً، نظراً لتلوث الماء والجهل بمبادئ النظافة وسوء التغذية وانتشار الحشرات، فضلاً عن أمراض المعدة والعيون كالرمد الحبيبي والتراخوما والماء الأبيض وكانت هذه الأمراض من الأسباب التي تؤدي إلى فقدان البصر وترجع أسباب تلك الأمراض إلى الرمال المتحركة والمتطايرة في الهواء وانتشار الذباب وغيره من

سفينة كانت وسط الخليج العربي في الغوص على اللؤلؤ وقد مات غرقاً كثير من البحارة في تلك السنة، ولحقت بالبحرين أضراراً كثيرة من جراء ذلك.^(١٨)

الواقع، أن ذلك الوضع دفع حاكم البحرين للتعاون مع مستشفى الإرسالية الأمريكية العربية لإيجاد حل للظروف غير الطبيعية التي يتعرض لها أهالي البحرين وكذلك مواكبة الظروف الاجتماعية للسكان الذين يعتمدون بدرجة كبيرة في معيشتهم على الغوص، فتم الاتفاق على إنشاء ما يشبه المستشفى العائم وتم أعداد مركب لهذا الغرض وجهاز ليكون مستشفى متواضع مهمته المرور على مفاصات اللؤلؤ لمتابعة الحالة الصحية وتقديم الخدمة الطبية لمن يكون في حاجة إليها، وزود هذا المستشفى بطبيب ومضمد وريان وبعض البحارة.^(١٩)

ومن الإجراءات الأخرى التي اتخذتها الحكومة البحرينية للحفاظ على الصحة العامة في البلاد إصدار البيانات والإعلانات التي تحذر فيها المواطنين وتوضح لهم مخاطر تلك الأمراض وكيفية معالجتها، ونتيجة لانتشار مرض الكوليرا في البحرين، أعلنت الحكومة في ٢١ نيسان ١٩٢٧ عن مجموعة من التعليمات لأهالي البلاد لغرض الالتزام بها للوقاية من ذلك المرض أو التخفيف منه وتضمنت التعليمات أهمية المحافظة على النظافة.^(٢٠) كذلك قرارها في ١١ آب ١٩٢٩ بعدم السماح لأي شخص في النقل على المراكب القادمة من بومباي ما لم يكن حاملاً لشهادة الحجر الصحي التي تثبت عدم إصابته بالمرض، وكذلك عدم أخذ المياه من تلك السفن والمراكب القادمة من تلك المنطقة وذلك نتيجة لانتشار مرض الكوليرا فيها.^(٢١)

وعندما انتشر وباء الكوليرا عام ١٩٣١ صدر إعلان عن الحكومة البحرينية في ١٤ آب من العام ذاته منع بموجبه نزول أي شخص إلى أرض البحرين ما لم يكن لديه شهادة تلقيح ضد المرض وأن الأشخاص الذين لا يملكون شهادة التلقيح فلا يسمح لهم بالنزول فيها، كذلك أن الأشخاص الذين يسمح لهم بالدخول إلى البحرين يجب عليهم إمضاء خمسة أيام في الحجر الصحي للتأكد من سلامتهم، فضلاً عن ذلك فقد أشار الإعلان إلى منع توريد الفواكه والخضروات من الموانئ

وعلى هذا الأساس، أخذ نمو الخدمات الطبية والصحية في البحرين بالاتساع والتطور بشكل ملحوظ ويعود السبب في ذلك إلى توفر الأموال اللازمة لتغطية النفقات الخاصة بالنشاط الصحي، وأصبح باستطاعتهم شراء المستلزمات والأدوية التي يحتاجوا إليها لإسعاف المرضى وكانت تلك الأموال يأتي قسمها منها من الكنيسة الإصلاحية في الولايات المتحدة الأمريكية، أما القسم الآخر فهي الأموال التي يدفعها المرضى لقاء الخدمات الطبية التي كانوا يحصلون عليها^(٢٢)، وأخذ الأطباء يتوافدون على البحرين للانخراط في تقديم الخدمات الصحية التابعة للإرسالية، ففي عام ١٨٩٩ وصل الدكتور (ورال) إلى البحرين وفي عام ١٩٠٠ وصل الدكتور ثومس وزوجته أيضاً^(٢٣) وفي عام ١٩٠٣ افتتح مستشفى ماسون التذكاري في البحرين والذي كان تابعا للإرسالية أيضاً وأخذ يقدم خدماته الصحية لا سيما مع تعرض البحرين إلى وباء الطاعون عام ١٩٠٣ وأيضاً مرض الكوليرا عام ١٩٠٤ ، ونتيجة لكثرة الأمراض والاصابات ذكر أحد التقارير أن عدد المرضى بلغ في البحرين عام ١٩٠٥ بلغ (١٤٠٠٠) ألف مريض وأدخل في ذلك العام (١٦٦) مريض منهم إلى المستشفى وأجريت إلى معظمهم عمليات جراحية ناجحة.^(٢٤)

استمر عمل الإرسالية الأمريكية في البحرين بتقديم الخدمات الطبية لكن ذلك لا يعني القضاء على الأمراض التي كانت منتشرة في البلاد وفي الوقت ذلك كان حاكم البحرين الشيخ عيسى بن علي (١٨٦٩-١٩٣٢) قد اتخذ بعض الخطوات الإصلاحية لتحسين الواقع الصحي في البحرين^(٢٥) ومع ذلك استمر انتشار الأوبئة والأمراض فيها وبخاصة عام ١٩١٩ عندما تعرضت إلى وباء الانفلونزا الإسبانية والتي حصدت ما يقارب (١٥٠٠) شخص من أبنائها.^(٢٦) وفي عام ١٩٢٤ تعرضت البحرين إلى مرض الطاعون وذكرت التقارير البريطانية أن الوباء قدم إليها من دبي خلال الأشهر الأولى من ذلك العام، وأشارت التقديرات إلى حدوث ما يقارب ٤٠٠٠ حالة وفاة بسبب الوباء^(٢٧) وخلال عام ١٩٢٥ تعرضت منطقة الخليج العربي إلى إعصار مدمر راح ضحيته ما يقارب خمسة آلاف سفينة من بين خمسة وعشرون ألف

بالإرشادات الصحية الواردة في تلك النشرة لمنع انتشار الأمراض والقضاء عليها.^(٢٦)

وفي عام ١٩٣٧، شهدت الخدمات الصحية في البحرين تحسناً ملحوظاً، بل عد ذلك العام نقلة نوعية في المجال الصحي بسبب الإجراءات التي اتخذت خلالها ومنها انتشار العيادات الطبية الخارجية بصورة ملحوظة وكذلك التخطيط لبناء مستشفى في منطقة النعيم وأيضاً البدء بإنشاء مستشفى عوالي من قبل شركة بابكو، كذلك انشاء عيادة للبلدية جنوب شرقي المنامة وخصصت بيت بالقرب منها لرعاية الحوامل والولادة، كما أسس مستشفى صغير كمعزل للنساء المصابات بأمراض معدية في منطقة النعيم بالمنامة وفي السياق ذاته أنشئت عدة عيادات للأطفال، وفي نفس العام أيضاً تم الانتهاء من الدراسة الكاملة لإنشاء مستشفى للرجال والنساء يتسع لمائة وعشرين سريراً واختير له موقع بالقرب من شاطئ النعيم، كذلك كلفت الحكومة الرائد (افريدي) الذي يعمل في سلك الخدمات الطبية الهندية ومعهد الملايا بدلهي للقيام بمسح عام لمرض الملايا في البحرين وقد جاء في تقريره أن نسبة الإصابة في المدن (٣٠%) بينما كانت في القرى (٧٠%)، كما تطرق في تقريره إلى أن مصادر توالد البعوض الناقل للملايا هي المستنقعات والآبار الارتوازية والعيون والمياه الراكة والآبار الموجودة في البيوت والجرار التي يوضع فيها الماء في البيوت، ووضع في تقريره عدة طرائق لمعالجة أسباب انتشار الملايا ومنها وضع النفط الخام في تلك المستنقعات وصيانة مصادر المياه وردم المستنقعات وتنظيف المجاري وتكثير الأسماك في القنوات والعيون والآبار المكشوفة.^(٢٧)

وبذلك يلاحظ أن المدة التي سبقت عام ١٩٣٩ قد امتازت بظهور العديد من الأوبئة والأمراض في البحرين في الوقت الذي استمرت فيه المعالجات الطبية البسيطة إلى جانب دخول الطب الحديث من خلال مستشفى الإرسالية الأمريكية وأيضاً من خلال الإجراءات التي اتبعتها الحومة البحرينية وجلب عدد من الأطباء لغرض تحسين الواقع الصحي في الامارة وأدت تلك الإجراءات إلى تحسن نسبي في الأوضاع الصحية في البلاد من

التي تقع شمال الخليج العربي وبخاصةً مدينة البصرة التي كان ينتشر فيها المرض، ولإجراءات احترازية منع الإعلان أهل البحرين استقلال السفن والمراكب القادمة من البصرة أو الموانئ الأخرى القريبة منها والتي ينتشر فيها المرض، وبجانب ذلك زادت الحكومة مخصصات الصحة في ميزانية ذلك العام إلى ٢٦٤٠٠ روبية وأيضاً تم تعيين قابلة هندية مدربة للقيام بعمليات الولادة في مدينة المحرق.^(٢٨)

ومن الإجراءات الأخرى التي اتخذتها البحرين لمنع انتشار الأوبئة والأمراض وبخاصةً عندما انتشر وباء الجدري في بوشهر عام ١٩٣٤، فقد أعلنت الحكومة في ٢٠ آذار من ذلك العام عن منع السفن والبواخر القادمة من ميناء بوشهر أو الموانئ القريبة منه بالدخول إلى موانئها ما لم يتم إجراء الحجر الصحي عليها للتأكد من سلامة ركبها^(٢٩)، وفي السياق ذاته أعلنت الحكومة أيضاً في ٢٢ نيسان ١٩٣٤ بأنه سيتم المباشرة بالتطعيم ضد الجدري في المستشفى الحكومي ويكون ذلك يوم الأربعاء من كل أسبوع^(٣٠)، وفي العام ذاته تعرضت البحرين لانتشار مرض الملايا، وعلى أثر ذلك تشكلت (اللجنة الاستشارية لمكافحة الملايا) والتي ضمت كل من الشيخ محمد بن عيسى آل خليفة رئيس بلدية المنامة والشيخ عبدالله بن عيسى آل خليفة رئيس بلدية المحرق والشيخ سلمان بن حمد آل خليفة ولي العهد والوكيل السياسي البريطاني في البحرين باليوزومدير الكمارك في البحرين ومحمد خليل مدير الطابو والدكتور هومر طبيب المستشفى الحكومي.^(٣١)

الواقع أن الحكومة البحرينية استخدمت عدة أساليب لأجل تحسين الواقع الصحي، ومن تلك الأساليب لجوئها إلى الاهتمام بالجانب التوعوي والإرشادي من خلال اصدار النشرات التعليمية والتثقيفية بخصوص أسباب انتشار الأمراض وطرائق الوقاية منها، إذ أصدرت في عام ١٩٣٧ نشرة أطلق عليها (النشرة الصحية... الملايا والجدري) وتضمنت مقدمة تلك النشرة على أن الدوائر الصحية لحكومة البحرين متخذة جميع الوسائل لسلامة الأهالي ووقايتهم من الأمراض الفتاكة وبالتالي فإن على الأهالي الالتزام

الحكومة البحرينية في تشرين الأول من العام ذاته لتدريب الكوادر البحرينية والعمل على تأسيس إدارة لمكافحة الملاريا، وقد بلغ عدد العاملين في ذلك الفريق مابين ٥٠ إلى ٦٠ فرداً وكانت مسؤولياتهم تتضمن التفتيش الدوري على البيوت والاحياء السكنية والحدائق والبساتين، فضلاً عن فحص الآبار وبرك المياه الراكدة وقد قاموا بما يقارب ٢٥ ألف زيارة تفتيشية خلال شهري شباط - آذار ١٩٤٠، كما كانوا مكلفين بوضع الأسماك الأكلة للبعوض في أماكن تكاثره ومتابعة نموها ونقلها من المزارع السمكية إلى الآبار المنزلية إلى جانب عمليات تطهير ومعالجة أماكن تجمع المياه باستخدام النفط الخام والمبيدات الحشرية، فضلاً عن تنظيف وتطهير مواقع تصريف المياه^(٣٠).

بعد أن كان من أهم التطورات الصحية التي حصلت في البحرين افتتاح مستشفى النعيم والذي كان فيه جناح خاص للرجال فقط افتتحت الشيخة عائشة بنت راشد آل خليفة في أيار ١٩٤٠ قسم النساء بمستشفى النعيم وبعد شهر تسلمت إدارة المستشفى جناحين جديدين تم بنائهما واضيفا إلى قسم الرجال وقبل أن ينتهي عام ١٩٤٠ كان المستشفى قد تكامل بجميع أجنحته وتم تعيين ثماني ممرضات هنديات للعمل بالمستشفى وبلغ عدد الموظفين ٦٤ موظفاً وأخذ المستشفى يقوم بأجراء العمليات الجراحية الكبرى، كما عين مفتشان صحيان أحدهما بالمنامة والأخر بالمحرق^(٣١).

ومن الإجراءات الحكومية للحفاظ على الصحة العامة في البحرين أعلنت الحكومة في ٦ آذار ١٩٤٠ عن ضرورة ردم الآبار البيئية في مدينة المنامة والتي لا تبعد أكثر من ٦٠٠ قدم حول الآبار الارتوازية في الأماكن الاتية (مسجد الخواجة-حديقة البلدية-بئر خليل كانوا -الجامع الشرقي -البئر التي في النعيم) وذلك لمنع تولد البعوض الذي يتسبب في انتشار مرض الملاريا^(٣٢)، ولأهمية ذلك الموضوع أعلنت الحكومة البحرينية في ٩ أيار ١٩٤٠ عن تخفيض المساحات حول الآبار الارتوازية في مدينة المنامة التي اعلن عنها في وقت سابق من ٦٠٠ قدم إلى ٢٠٠ قدم، لذا صار لزاماً على جميع الساكنين في البيوت التي لا تبعد أكثر من ٢٠٠ قدم عن الآبار الارتوازية المذكورة في أعلاه ان يردموا آبأرهم البيئية

خلال توفير اللقاحات والتطعيم ضد الأمراض المعدية فضلاً عن الاهتمام بالجانب التوعوي من خلال النشرات التي أصدرتها الحكومة البحرية لتوعية السكان بأهمية موضوع الوقاية خير من العلاج.

أولاً: الأوضاع الصحية في البحرين

(١٩٣٩ - ١٩٤٩)

أدركت الحكومة البحرينية ضرورة الاستمرار في اتخاذ الخطوات اللازمة لمعالجة وتحسين الواقع الصحي في البلاد لاسيما من خلال الإجراءات التي اتخذت قبل عام ١٩٣٩ ولذا فأنها استمرت في ذلك المجال، إذ أصدر الشيخ حمد بن عيسى ال خليفة ٢٤ أيار ١٩٣٩ إعلاناً إلى أهالي البحرين بخصوص الحذر من انتشار البعوض الذي يحمل مرض الملاريا ولا سيما الأشخاص الذين تكون بساينهم بين مدينتي المحرق والمنامة أو التي تبعد عن حدود المدينتين بمقدار نصف ميل وجاء في الإعلان ذاته إلى أن الحكومة ستقوم بتوزيع النفط الخام مجاًناً إلى المواطنين للقيام برشه في المياه الراكدة لغرض التخلص من البعوض والحد من انتشار مرض الملاريا^(٣٣)، وفي السياق ذاته تم تشكيل لجنة لمتابعة مكافحة مرض الملاريا ضمت بعض أعضاء مجلس بلدية المنامة وبعض الأطباء الذين تم استقدامهم من الهند لغرض وضع الحلول واتخاذ الإجراءات اللازمة، كما تم تخصيص مبلغ ٦٠٠٠ روبية من ميزانية الحكومة لمقاومة المرض والقيام بدفن الأرض المنخفضة الواقعة جنوب المنامة خلف مستشفى الرسالية الأمريكية لأنها تشكل مكاناً يتجمع فيه الماء ويصبح مستنقعات تكون بؤراً ومقراً للحشرات والبعوض، وفي العام ذاته عينت الحكومة الدكتورة مكدروال (Mcderuall) واسندت اليها مسؤولية قسم النساء بالمستشفى، كما عينت الانسة هاربوتل (Harbottle) رئيسة للممرضات وكان عدد الموظفين ثلاثين موظفاً وأربعة أطباء وبلغت الميزانية التي خصصت للصحة في ذلك العام (١٣٦٠٠٠) روبية، كما افتتحت بالوقت ذاته عيادات طبية في كل من البديع وكرزكان والرفاع الشرقي وسترة^(٣٤) كما شهد عام ١٩٣٩ تشكيل فريق مكون من ثلاثة خبراء في مكافحة الحشرات من معهد الملاريا في الهند تعاقدت معهم

ومن القرارات الأخرى التي اتخذتها الحكومة البحرينية في مجال الحفاظ على الصحة العامة مكافحة انتشار البعوض بإصدارها تعميماً في ٨ تموز ١٩٤٢ نص على مسؤولية ملاك البساتين والمزارع في حال تواجد البعوض في بساتينهم بعد قيام الدائرة الطبية بزيارتها وتنظيفها، وإذا وجد مفتشو معالجة الملاريا البعوض يتوالد في أي بستان سيبلغون الأمر إلى هيئة معالجة الملاريا التي تقوم بدورها بإحضار أولئك الأشخاص وإبلاغهم بأن يقوموا بتنظيف بساتينهم خلال مدة أسبوع وخلاف ذلك تقرر عليهم غرامة لا تزيد عن ٢٠ روبية بسبب مخالفتهم للتعليمات^(٤١). كذلك اهتمت الحكومة البحرينية بتشديد الإجراءات الوقائية لمنع انتشار الأمراض أو العدوى ولا سيما بين طلبة المدارس ولأجل ذلك تم تعيين الدكتور كيدرناث في بداية عام ١٩٤٢ ليقوم بزيارات دورية إلى مدارس البحرين بمعدل زيارتين أسبوعياً، فضلاً عن تعيين ممرض ليكون مساعداً له وتخصيص سيارة لتسهيل التنقل بين المدارس وساعدت تلك الإجراءات في تحسين صحة الطلبة وانخفاض معدل انتشار الأمراض بينهم^(٤٢).

فضلاً عن ذلك، تواصلت الجهود للحد من انتشار مرض الملاريا الذي ينقله البعوض المستوطن في البرك والمستنقعات المائية المكشوفة، ففي عام ١٩٤٣ تم معالجة ١١ ألف بئر بأسمك الجرو العربية^(٤٣) التي تتغذى على يرقات البعوض الناقل للمرض وتحد من تكاثره، كذلك تشديد الرقابة على المنازل والمزارع والبساتين وتشديد العقوبات على الأشخاص المخالفين للإجراءات الصحية، وكانت جميع بيوت المحرق والمنامة تفحص مرة أسبوعياً للتأكد من خلوها من المياه الراكدة وإتباع التعليمات الصحية ومن ضمن تلك الإجراءات التخلص من أواني ماء السبيل (الحب) التي كانت منتشرة في الشوارع والأحياء^(٤٤).

وعندما انتشر مرض الجدري في البحرين عام ١٩٤٤ أعلنت الحكومة في ٢٠ شباط من العام نفسه بأن على جميع المواطنين أن يطعموا أنفسهم وأطفالهم ويكون ذلك مجانياً من خلال مستشفى الحكومة أو مستشفى فكتوريا التذكاري التابع للإرسالية الأمريكية في البحرين^(٤٥). وفي العام ذاته كان هنالك انتشار واسع

خلال مدة شهر من ذلك التاريخ^(٣٣). وللحفاظ على صحة المواطنين أعلن مجلس بلدية المنامة في ١٢ أيار ١٩٤٠ عن منع فتح أي محل لصنع المأكولات أو المشروبات إلا بإجازة من البلدية، ومن يخالف ذلك القرار يعرض نفسه للمسؤولية والمحاكمة^(٣٤).

ومن جانب آخر، وبسبب انتشار مرض الجدري في البلاد عام ١٩٤١ أعلن حاكم البحرين الشيخ حمد بن عيسى آل خليفة في ١٣ أيار من العام ذاته عن ضرورة قيام أي صاحب بيت لديه مصاب بذلك المرض بإبلاغ السلطات الحكومية الطبية لغرض أن تتخذ الإجراء المناسب وفي حال عدم الإبلاغ فإن ذلك الشخص سيكون معرضاً لغرامة مالية لا تزيد عن مائة روبية أو حبس لمدة شهر واحد^(٣٥). ومن القرارات الأخرى التي أصدرتها حكومة البحرين للغرض نفسه في ١٦ أيلول ١٩٤١ والذي أكد على منع خروج الأطفال والنساء من البيوت وعدم اختلاطهم بعوائل أخرى وذلك لمنع انتشار العدوى بالمرض^(٣٦)، فضلاً عن ذلك تم نقل جميع المرضى والمصابين إلى الحجر الصحي في قلعة أبو ماهر التي تقع في جزيرة المحرق وذلك لغرض السيطرة على الوباء، وفي العام ذاته تم زيادة عدد الموظفين بمستشفى النعيم بعد أن تم توظيف ١٧ ممرضة هندية مدربة وأربعة أطباء هنود كما تم تشغيل مختبر وأيضاً قسم الأشعة السينية^(٣٧).

وفي ٢٢ شباط ١٩٤٢ تولى حكم البحرين الشيخ سلمان بن حمد آل خليفة^(٣٨) بعد وفاة والده، وعلى أثر توليه حكم البلاد اهتم الشيخ سلمان بتنظيم أمورها من جميع النواحي وكان الجانب الصحي أحد أهم تلك المجالات، إذ أعلن عن مجانية الخدمات الصحية في البحرين مما كان له الأثر الكبير في التقدم الصحي وزيادة عدد الأطباء وإنشاء المستشفيات^(٣٩) ولا سيما باكتمال جميع المرافق الخاصة بمستشفى النعيم في أيار من ذلك العام بتكاليف إجمالية بلغت ٧٠٠ ألف روبية، كذلك نشطت حملات مكافحة الملاريا وذلك بشق المجاري وردم المستنقعات ودفن الآبار المنزلية، كما نشطت حملات التوعية الصحية ونظمت زيارات صحية للمنازل لرعاية الأطفال والامهات والحوامل وتقديم الارشادات الصحية لهم^(٤٠).

وفي العام ذاته وضمن إطار تنظيم الأوضاع الصحية في البحرين تم تشكيل جهازين في هذا السبيل، الجهاز الأول هو ما أطلق عليه لجنة الخدمات الصحية والاجتماعية وكانت تضم في عضويتها رؤساء الأقسام بالمستشفيات القائمة آنذاك وتمثل فيها المعارف والبلديات واسند اليها مهمة دراسة إمكانية رعاية الأمهات والأطفال والاشراف على النظافة ومكافحة التراخوما والسل والبرص والامراض الجنسية. أما الجهاز الثاني فهو جمعية البحرين الطبية وكانت هذه الجمعية تعقد جلساتها في المستشفيات الثلاث (مستشفى النعيم، مستشفى الإرسالية الامريكية، مستشفى شركة النفط).^(٤٨)

الواقع أن لجنة الصحة العامة كانت منطاة بها مجموعة من المهام والمسؤوليات وهي^(٤٩):

- الحجر الصحي من خلال تشديد الرقابة على المسافرين وتعيين مفتشين صحيين في الموانئ والمطار البحري بالمنامة.
- مكافحة مرض الملاريا من خلال متابعة عمل فرق رش المبيدات الحشرية وتوزيع المهام بين حكومة البحرين وشركة بابكو التي ساهمت في تغطية المناطق القريبة من الشركة كسترة، سند، الزلاق، الرفاع، والقوات الجوية البريطانية التي كانت مسؤولة عن تغطية منطقة البسييتين بالمرق والمناطق المحيطة بها نظراً لقربها من القاعدة الجوية وتوفير مادة (دي دي تي) المستخدمة في رش الأسواق ودورات المياه العامة وأماكن تكاثر البعوض كالبرك والمستنقعات.
- النظافة العامة من خلال زيادة عدد دورات المياه العامة إلى ١٦ دورة مياه وتوزيعها بشكل كاف في الأماكن المكتظة ومتابعة نظافتها وصيانتها ورشها للحد من ظاهرة قضاء الحاجة في الشارع.
- مكافحة الأمراض المنقولة جنسياً وشملت تلك المهام الفحص الطبي للعاملات بالبغاء بشكل دوري وإصدار تراخيص طبية لهن مع تحملهن تكاليف العلاج في حالة الإصابة بأي مرض وتفعيل حملات التوعية في القرى بخطورة تلك الأمراض، وطرائق الوقاية منها وترحيل من يثبت قدمها إلى البحرين لممارسة البغاء.

لمرض التراخوما (أو ما يطلق عليه بالرمد الحبيبي الذي يصيب العين) ولاسيما لدى الأطفال، إذ أشارت إحدى الوثائق البريطانية بأن سبب انتشار المرض لدى طلاب المدارس هو انتشار الذباب الكثيف بالقرب من المباني المدرسية وتم اجراء الفحص باستخدام أجهزة متطورة ذات عدسات عالية الدقة وهناك إحصائية بخصوص اعداد الطلبة المصابين وفق الجدول الاتي:

جدول رقم (١)

يبين اعداد الطلبة المصابين بمرض التراخوما عام ١٩٤٤^(٤٦)

اسم المدرسة	عدد الطلبة الذين تم فحصهم	عدد الطلبة المصابين	نسبة الإصابة
ثانوية المنامة	٤٥	٣٠	٦٦,٥%
المدرسة الابتدائية القديمة	٢٣٠	١٨٧	٨١%
المدرسة الابتدائية الجديدة	١٦٢	١٢٦	٧٧,٥%
مدرسة المنامة التقنية	٤٧	٤١	٨٧%
المرق	٣١٢	٢٣٩	٧٧%
المجموع	٧٩٦	٦٢٣	٧٨%

ويتضح من الجدول أعلاه ان نسبة الإصابة بين الطلبة كانت عالية جداً، إذ أن أكثر من نصف عدد الطلبة المتواجدين في كل مدرسة مصابين بمرض التراخوما وهذا يؤشر كثرة الإصابة بذلك المرض خلال تلك المدة.

لأجل تنظيم الأمور الطبية في البحرين قررت الحكومة في ٦ اب ١٩٤٦ بأن لا يسمح لأي طبيب أن يزاول مهنة الطب في البحرين ما لم يكن حائزاً على درجة أقلها ما تعادل درجة مساعد جراح.^(٤٧)

مألوفاً في الشوارع والأحياء وقد ساهمت تلك الطريقة في الحد كثيراً من انتشار الحشرات وبالتالي كان الانخفاض في معدل الإصابات بالمalaria ملحوظاً وبعد نجاح التجربة تم استيراد المزيد من تلك المكائن وأخذت تقوم برش أحياء وشوارع المنامة والمحرق مرتين شهرياً.^(٥١)

وفي عام ١٩٤٨ وإزاء ما لوحظ من تزايد مرض اتريزيا أو ما يُطلق عليه (رتق المريء — اي انسداد له لدى الأطفال حديثي الولادة) فقد قررت لجنة الصحة العامة تدريب القابلات اللواتي كن يقمن بتوليد النساء على يد مشرفات محترفات وكن يمنحن بعد تدريبهن شهادة معتمدة لمزاولة التوليد وإذا صادفتهن حالة متعسرة يتم نقلها إلى المستشفى، كما لوحظ في هذا العام زيادة مرضى التراخوما وخاصة في القرى وتم التوسع في رش مادة (D.D.T) الكيماوية مما أدى إلى خفض الإصابة بالمalaria نسبة ٧% وقد تم تحويل بيت الشيخ راشد بن محمد آل خليفة بالمحرق إلى مستشفى للولادة يضم ١٦ سريراً ومستوصفاً يومياً كما افتتحت عيادة جديدة للنساء بالرفاع الشرقي وقد عينت الأنسة (ملسون) مشرفة على غرفة العمليات والأنسة (السوب) مفتشة على مستشفى النساء وأسند إلى الدكتورة الهندية (ماري ابراهيم) رئاسة الطبيبات الهنديات.^(٥٢)

وعلى الرغم من تحسن الوضع الصحي نوعاً ما، إذ اختفى مرض الجدري في البلاد لكن الغريب في الأمر انتشار الأمراض الجنسية بشكل كبير في ذلك العام، إذ ذكرت الاحصائيات الخاصة بعام ١٩٤٨ أنه تم ادخال ٢٠٠ مريض للمستشفى بينما كان يعالج في العيادة الخارجية ١٢٠٠ مريض آخرون، وقد اتخذت حكومة البحرين إزاء ذلك بعض الإجراءات المشددة منها طرد بائعات الهوى الاجنبيات ووضع من بقي منهن تحت المراقبة الشديدة.^(٥٣) فضلاً عن الأمراض الجنسية فقد شهد ذلك العام زيادة لمرض التيفوئيد، كما لوحظ أن السفن التي تصل إلى ميناء البحرين تسهم بدرجة ما في انتشار مرض المalaria نظراً لتوالد البعوض في خزانات المياه التي تحملها السفن وقد ذكر إحصاء لذلك العام أن جملة المبالغ التي انفق على مكافحة المalaria بلغت ٧٩ ألف و ٩٠٠ روبية، كما شهدت البحرين في العام ذاته أول

- مكافحة مرض التراخوما من خلال قيام اللجنة بتنظيم حملات دورية لفحص طلاب المدارس، فضلاً عن توعية المدرسين وأولياء الأمور بالمرض وطرائق الوقاية منه وعلاجه مبكراً لتجنب المضاعفات.
- رعاية الطفولة والأمومة، إذ كانت اللجنة منوطه بتدريب الدايات (القابلات) على اتباع الطرق السليمة والعلمية للتوليد والاهتمام بجوانب النظافة والتعقيم، وتشجيعهم على الانضمام للعمل تحت مظلة الحكومة وكان الهدف الرئيس هو خفض معدل الوفيات بين المواليد والذي كان مرتفعاً خلال تلك المدة، وتعزيز صحة الأطفال، كذلك أوصت اللجنة بزيادة عدد العيادات النسائية في الأماكن البعيدة عن مستشفي النعيم والمحرق إلى جانب رعاية الايتام والفقراء.
- رعاية المرضى النفسيين ومرضى الجذام (مرض معد يصيب الجلد وتلف في الأعصاب الطرفية والحبل الشوكي).
- عمل إحصائيات للمواليد والوفيات.
- الرقابة على الأغذية في الأسواق وتتمثل في إجراءات الفحص الطبي الأسبوعي للعاملين في المخازن الشعبية والتفتيش الدوري عليها لضمان صحة وسلامة العملية وتطبيق معايير النظافة.
- رعاية وعلاج مرضى السل (الدرن) من خلال انشاء مستشفى خاص لمرضى السل والأمراض الصدرية.

ومن الإجراءات التي اتخذتها الحكومة البحرينية في سبيل مقاومة انتشار البعوض عام ١٩٤٦ قيامها برش جميع المركبات والسيارات التي تسير بشكل دوري ما بين عوالي والمنامة بالمبيدات الحشرية، وذلك بالتعاون مع شركة نفط البحرين (بابكو)، كما تم إقامة نقاط تفتيش دورية للتأكد من رش جميع السيارات الخاصة والأجرة والشاحنات وباصات نقل عمال الشركة فضلاً عن ذلك تقرر رش شوارع وأحياء القرى المحيطة بمصفاة النفط كالعكر والمعامر والنويدات وسند.^(٥٤)

وفي السياق ذاته قامت الحكومة البحرينية في عام ١٩٤٧ باستيراد مكائن غاز لرش الشوارع والأحياء السكنية بالمبيدات الحشرية (سيارة الفليت) للحد من انتشار الذباب والبعوض وأصبح منظر عربات الرش

وبعدها يقوم المكتب بإصدار اذونات صحية والسماح لهم بالدخول إلى البحرين أو تطبيق إجراءات الحجر الصحي في حال الاشتباه بالإصابة لاحد الافراد.^(٥٦)

وفي العام ذاته أدخلت بعض التحسينات على مستشفى النعيم، كما أنشأت مغسلة في ساحة مستشفى الأمراض النفسية والعقلية وبنى بالقرب من المستشفى نفسه جناح لمرضى السل للرجال يشتمل على ستة غرف وبنى جناح لمرضى السل من النساء يسع إلى ١٨ سرير، كما بنى جناح من طابقين لسكن الممرضات الاجنبيات، وانشئ مخبر حديث على سطح غرفة العمليات وانشأت مطابخ في كل من مستشفى النعيم ومستشفى الأمراض النفسية، فضلاً عن ذلك افتتح أول مستشفى للولادة بمدينة الحد وضم ثلاثة اسرة وعيادة خارجية وافتتحت في العام ذاته إدارة اسالة المياه وزودت مدينة المنامة بشبكة لمياه الشرب مما ساعد في مكافحة الملاريا ووصلت إلى البحرين اول كمية من دواء (الكولرومايستين) للمرضى المصابين بالتيفوئيد^(٥٧).

ثانياً: تطور الخدمات الصحية في البحرين

(١٩٥٠ - ١٩٧٠)

استمرت الحكومة البحرينية باتخاذ الإجراءات الضرورية اللازمة لمعالجة الأوضاع الصحية وتحسين الخدمات التي تقدمها للمواطنين في اطار الحفاظ على الصحة العامة والحد من انتشار الأوبئة والأمراض في الإمارة ومن التطورات التي حصلت في مجال الخدمات الصحية في البحرين عام ١٩٥٠ أدخل تجربة الاستتفار الفوري لمواجهة الحالات الطارئة وكان ذلك نتيجة لتحطم طائرتين فرنسيتين بالقرب من جزيرة سترة ما أدى إلى استتفار القطاع الصحي لمواجهة مثل تلك الحالات وتم انقاذ ١٣ راكباً من ركاب الطائرتين وتقديم الإسعافات الأولية اللازمة لهم، ومن النتائج الأخرى التي تحققت نتيجة الإجراءات الحكومية الخاصة بالصحة أن تم القضاء في ذلك العام على مرض الجدري كما بدأت الإصابات بالأمراض التناسلية بالانخفاض.^(٥٨)

مؤتمر طبي انعقد في منطقة الخليج العربي وقد دعت اليه جمعية البحرين الطبية وحضره ١٨ طبيباً أجنبياً، ومن التطورات الأخرى التي حصلت في العام ذاته انتقال مسؤولية إدارة مستشفى الأمراض العصبية والنفسية من البلدية إلى الدائرة الطبية وقامت هذه الدائرة بترميم وتحسين مبنى المستشفى وأصبح يستوعب ١٤ سريراً كما عين له ممرض هندي متخصص وبدأت البحرين في تطبيق قوانين منظمة الصحة العالمية فيما يتعلق بإجراءات الحجر الصحي، إذ عين مفتش صحي في المطار واسندت إليه مسؤولية إدارة ومراقبة الحجر الصحي إلى المقدم (جودي) من سلك الخدمات الطبية الهندية، ومن التطورات الأخرى التي حصلت في ذلك العام افتتاح عيادة في ميناء سترة.^(٥٩) كما شهد عام ١٩٤٨ انتشار مرض الجدري الذي أحدث وباء محدوداً في منطقة الحورة بالمنامة ونتيجة لذلك انطلقت حملات تطعيم مكثفة، إذ بلغ عدد من تلقوا التطعيم ٢٢ ألف شخص مما ساهم في القضاء على الوباء خلال ثمانية أشهر فقط.^(٥٥)

وفي محاولة قامت بها حكومة البحرين للحد من انتقال الأمراض من البلدان المجاورة عن طريق الأشخاص المسافرين أو القادمين إليها، فقد تم افتتاح مكتب الصحة العامة في فرضة ميناء المنامة في ١٥ تشرين الأول ١٩٤٩ والذي كان المنفذ البحري الرئيس لدخول البحرين، وقد كان المكتب منوطاً بأجراء الفحوصات الطبية لجميع المسافرين القادمين إلى البحرين عن طريق البحر، إلى جانب الاطقم العاملة على متن كافة السفن الشراعية أو البخارية من بحارة وعمال وقد اشترط على السفن بلاغ المكتب برسالة لا سلكية قبل بلوغ الميناء بأربع وعشرين ساعة ويجب ان تتضمن الرسالة الموجهة إلى الحجر الصحي بالبحرين عدة معلومات منها: اسم السفينة، وآخر ميناء رست به الباخرة وعدد الركاب والابلاغ في حال وجود مريض على متن السفينة والوقت المتوقع للوصول إلى ميناء المنامة وعند وصول الركاب يتم فحصهم والتأكد من سلامة وصلاحيه الشهادات الصحية التي يحملونها قبل دخولهم إلى البحرين والتي تثبت حصولهم على التطعيمات الضرورية وخلوهم من الأمراض الوبائية

الواقع أن تطور المؤسسات الصحية في البحرين تأثر إيجاباً بالتنظيمات الإدارية التي شهدتها الإمارة آنذاك ولا سيما عام ١٩٥٢ عندما قسمت الصحة إلى قسمين أولهما القسم الطبي ومهمته العلاج والقسم الصحي ومهمته الوقاية واطلق عليه اسم الصحة العامة وتقرر أن يخضع القسمان لدائرة واحدة رئيسية، وقد عين الدكتور جرانت الذي كان مسؤولاً عن الحجر الصحي مسؤولاً عن الصحة العامة ويشمل اختصاصه تنفيذ الإجراءات الصحية ومكافحة البعوض والذباب والحجر الصحي ومراقبة الموائى والتفتيش الصحي والمراقبة الصحية على المدارس، وفي العام ذاته تأسست ثلاثة مكاتب صحية في الموائى كما توسعت خدمات مكافحة البعوض وازداد عدد الآلات المستخدمة في الرش بسبع آلات جديدة كانت تستخدم مرتين في الشهر في كل من المنامة والمحرق مما كان له أثر في انخفاض نسبة الإصابة بالملايا من (٦%) إلى (٨,٢%)، كذلك زار البحرين الدكتور هولم رئيس قسم الدرن في منظمة الصحة العالمية وقام بالإشراف على إجراء مسح شامل لمرضى الدرن واقترح إنشاء عيادة ومستشفى للأمراض الصدرية بسعة ٥٠ سريراً، فضلاً عن ذلك فقد توسعت الخدمات الصحية في القرى، إذ شملت الرفاع الشرقي والرفاع الغربي وسوق الخميس وعالي وسترة وكرزكان إضافة إلى المحرق والحد وعين طبيب هندي ليكون مسؤولاً عن تقديم الخدمات الطبية لكل من عالي وسترة وكرزكان وجعل مقر إقامته في الرفاع الغربي، فضلاً عن استقدام أطباء آخرين للعمل في مستشفيات البحرين آنذاك^(١١).

ولغرض الاهتمام بصحة النساء، أسست عيادة للعناية بالحوامل ومتابعة النساء أثناء الحمل في مدينة المنامة عام ١٩٥٣ وإلى جانب ذلك أجرت شركة بابكو حملة لرش البيوت في المدن والقرى بالمبيدات ضمن إطار مكافحة الملايا، فضلاً عن ذلك فقد شهد ذلك العام عدة تعيينات في القطاع الصحي، إذ عهد إلى المستر هافي القيام بإدارة أجهزة الصحة في الموائى وعين الدكتور ماثيو طبيباً مسؤولاً عن المكاتب الصحية في الموائى وعين الدكتور مصطفى للإشراف على

وشهد عام ١٩٥١ البدء في إنشاء المبنى الخاص بإدارة الصحة العامة وكذلك تطوير مستشفى الأمراض النفسية والعصبية الذي تم هدمه وإعادة بنائه مع توسعته بحيث أصبح يستوعب ٣٠ سريراً للرجال والنساء كما تمت توسعة مستشفى الأمراض الصدرية وأصبح يضم ١٣ سريراً وتقرر استخدام علاج الاستربتوماسين في علاج مرضى السل وإرسال المرضى الذين وصلوا إلى حالة سيئة للعلاج في مدينة ميرج بالهند على نفقة الحكومة والمؤسسات الخيرية، فضلاً عن ذلك تم شراء خمس آلات لرش المبيدات مما أدى إلى انخفاض الإصابة بمرض الدوسنتاريا أو ما يطلق عليه الزحار (وهو إلتهاب في الغشاء المخاطي للقولون يؤدي إلى ظهور الدم والمخاط في البزار مع وجود إسهال حاد) كما تم التوسع في خدمات مكافحة البعوض والذباب، وشهد هذا العام أيضاً انعقاد المؤتمر الطبي الثالث لإمارات الخليج والذي انعقد في منطقة باب البحرين بالمنامة وشارك فيه ٣٠ طبيباً أجنبياً.^(٥٩)

وخلال ذلك المؤتمر لخص حاكم البحرين الشيخ سلمان بن حمد آل خليفة أوجه النهضة الصحية التي شهدتها البحرين في تلك المدة قائلاً: "نحن وحكومتنا ننظر إلى صحة أبناء شعبنا على أنه أمر بالغ الحيوية وننفق جزء ضخماً من مواردنا في كل عام على العمل الطبي، ونأمل أن تزوروا مستشفياتنا وعياداتنا لكن معظم نتائج العمل المنجز هناك لا تتضح في المستشفيات بل لدى أبناء شعبنا في الشوارع والأسواق والمدارس ولعل أهم ما قمنا به هو القضاء على الملايا وقبل بضعة أعوام كان يستحيل النوم في المنامة دون شبكة تقي من البعوض، الآن تخلو المنامة ومعظم الأنحاء القريبة منها من البعوض وانخفضت نسب الإصابات بالملايا بمقدار كبير وقد اتخذنا منذ وقت قريب تدابير فعالة جداً لخفض كميات الذباب الذي يسبب الأمراض، لقد ساهم عمل أطبائنا في المستشفيات والعيادات وأعمال مكافحة الملايا والحجر الصحي وما نعلمه لأبنائنا في المدارس حول الصحة في تحسين صحة عرب البحرين وحيثما وجدت الصحة وجدت السعادة ونحن نأمل رعاية صحة شعبنا تحافظ على سعادته".^(٦٠)

خبرة وكفاءة، وأيضاً تم تعيين طبيب جراح في المستشفى.^(٦٦)

وفي عام ١٩٥٦ افتتح حاكم البحرين الشيخ سلمان بن حمد آل خليفة مستشفى الأمراض الصدرية الذي كان يتسع لخمسين سريراً، كما تمت توسعة مستشفى الحد ليستوعب (١٢) سريراً وتم تحويل جناح الدرن إلى مستشفى للأمراض المعدية، ولحاجة بعض المرضى إلى الدم بسبب إجراء العمليات الجراحية. فقد أنشأ الدكتور (يانجمان) بنكاً للدم وكان (٨٠%) من المتبرعين من الأوربيين و(٢٠%) من الآسيويين مقابل مكافأة نقدية قدرها ديناران^(٦٧)، وفي هذا العام أيضاً تم تشكيل مجلس الصحة الأول في البحرين وكان برئاسة الشيخ مبارك بن حمد وعضوية عبد الله بن خالد آل خليفة وخليل كانو وأحمد كانو وحسين يقيم ويوشع وعبد الله أمين. واختص المجلس بمراقبة الشؤون الصحية ووضع الخطط السنوية للقطاع الصحي بالتعاون مع الأطباء المسؤولين في الدائرة الطبية والإشراف على المستشفيات الحكومية ومراقبة أدائه والتفتيش على العيادات الخاصة ومراجعة طلبات الأطباء الراغبين في العمل بالبحرين وإصدار التراخيص لهم واعتماد الميزانيات اللازمة للمشاريع الصحية الجديدة والإشراف على استيراد الأدوية والمستلزمات الطبية ووضع التشريعات الصحية القانونية وكان يعقد جلساته كل خمسة عشر يوماً^(٦٨).

الواقع أن الاهتمام بالنظافة كان له الأثر الواضح في القضاء على العديد من الأمراض ومع التنظيمات الإدارية التي أخذت تتبعها الحكومة البحرينية ولاسيما عام ١٩٥٧ بإنشاء إدارة الشؤون القروية التي أصبح الشيخ عطية الله آل خليفة مديراً لها وأنيط بها القيام بالخدمات البلدية من نظافة وغيرها كما ساعدت الخدمات الصحية التي كانت تقدمها الصحة العامة والبلديات من خلال مد شبكة المجاري الرئيسية في مدينة المنامة على الحد من انتشار الأوبئة في البلاد عدا الانفلونزا الآسيوية التي انتشرت للمدة من تموز إلى آب من ذلك العام وأصاب ربع سكان البلاد وتوفي بسببها بعض المسنين^(٦٩).

الخدمات الصحية بالمدارس وعين المستر برجن مفتشا للصحة العامة بعد أن تم اعفاء المستر هاندي.^(٦٢)

ونتيجة الزيارة التي قام بها رئيس قسم الدرن في منظمة الصحة العالمي إلى البحرين عام ١٩٥٢ فقد تم التوسع في خدمات الأمراض الصدرية وذلك استجابة لتقرير منظمة الصحة العالمية حول الدرن، فتم إعادة بناء العيادة الواقعة غرب مستشفى الأمراض العقلية وزودت بجهاز للأشعة السينية طراز واتسون ومختبر حديث كما اضيف جناح جديد لمستشفى الأمراض المعدية بسعة ١٦ سرير وبدأ العمل لإنشاء مستشفى خاص للأمراض الصدرية بالقرب من العيادة، كما شهد عام ١٩٥٤ انعقاد المؤتمر الطبي الرابع في قصر القضيبيّة وافتتحه حاكم البلاد الشيخ سلمان بن حمد آل خليفة واشترك فيه ٦٠ طبيباً اخصائياً إلى جانب ممثل منظمة الصحة الدولية الذي كان مختصاً في أمراض الدرن^(٦٣) تقرر انشاء عيادة طبية متقلة وهي عبارة عن سيارة كانت تقوم بزيارة القرى لتوفير العلاج والخدمات الصحية السريعة، وكانت تلك السيارة أشبه بمستشفى صغير يحوي على جميع ما يحتاج إليه الطبيب خارج المستشفى ويعمل فيها طبيب وممرض وسائق. وفي ذلك العام قام حاكم البحرين بزيارة تلك المستشفى المتقلة لتفقدتها والتعرف على الخدمات التي تقدمها من أجل ضمان الصحة العامة في البلاد.^(٦٤)

وفي عام ١٩٥٥ عندما كانت دائرة الصحة ترسل فرق التطعيم ضد الملاريا والجذري إلى كل قرية ومدرسة مع فحص جميع المسافرين والقادمين والتأكد من حملهم شهادات التطعيم ضد الجذري، فضلاً عن ذلك كان مفتشو الصحة يقومون بمراقبة الأسواق والفنادق والمطاعم والمرافق العامة، كذلك يزور المدارس طبيب بانتظام لفحص الطلبة من مرضى التراخوما والملاريا ورش الأسواق والمستودعات بمادة كيماوية.^(٦٥) وفي العام ذاته أصبحت دائرة الصحة تحتل مبنى جديداً رائعاً يعمل فيه عدد كبير من الكتاب والممرضين تحت إشراف طبيب إنكليزي واثنين من المساعدين الهنود وزود المستشفى بأجهزة للأشعة السينية ومختبر يعمل فيه فنيون بلغ عددهم (١٢) فنياً يحملون مؤهلات علمية عالية وخبرة واسعة كذلك وجود ممرضات أجنبيات لهن

الحد وجد حفص وعالي وتوبلي والبديع وتكلفت شركة نفط البحرين ببناء عيادتي توبلي والبديع وبلغ عدد المستوصفات في القرى احد عشر مستوصفاً وفي السياق ذاته افتتح حاكم البحرين مستشفى الولادة في الرفاع الشرقي وكان يتسع إلى (١٢) سرير، ومن التطورات التي حصلت في عام ١٩٥٩ تشكيل مجلس الصحة الثاني الذي كان برئاسة الشيخ مبارك بن حمد آل خليفة وعضوية عبدالله بن خالد آل خليفة وخليل كانو وأحمد يوسف فخرو وعبدالله امين ومحمد رفيع المحمود وخليفة بن محمد وصادق البحارنة^(٧٣).

وفي السابع من تشرين الأول ١٩٥٩ تم افتتاح مدرسة التمريض في البحرين والتي تقبل فيها خريجات الثانوية أو ما يعادلها والدراسة فيها لمدة ثلاث سنوات للحصول على شهادة دبلوم في التمريض وكان عدد الطالبات في السنة الأولى لافتتاحها ست بحرينيات وترسل خريجاتها إلى المملكة المتحدة للتخصص والتدريب العالي^(٧٤). والجدير بالذكر أن المدرسة كانت توفر لطالباتها الملابس الخاصة بالتمريض فضلاً عن مواصلات مجانية كما خصصت لهن مكافآت شهرية بلغت (٢٠٠) روبية لطالبات السنة الأولى و(٣٠٠) روبية لطالبات السنة الثانية و(٤٠٠) روبية لطالبات السنة الثالثة وبعد تخرجهن كانت الممرضة تحصل على راتب شهري قدره (٥٩٠) روبية في بداية عملها بالمستشفيات الحكومية^(٧٥).

وفي عام ١٩٦٠ طلبت الحكومة البحرينية من الدكتور السير أريك بريدي الطبيب السابق بمكتب المستعمرات والمدير العام السابق للخدمات الصحية بالسودان والدكتور حمزة وكانت له خبرة واسعة بالخدمات الصحية في الشرق الأوسط طلب منهما اعداد دراسة عن الخدمات الطبية في البحرين ووضع تقرير شامل عن تصوراتهما المستقبلية لتنظيم الخدمات الطبية في البلاد ووضع كلاهما خطة عمل ومشروعاً مستقبلياً من أجل زيادة عدد العاملين في الخدمات الطبية وخاصة الإداريين ومسؤولات التمريض ورؤساء الدوائر والأخصائيين وتوزيع المهام وتقسيم الدوائر الطبية وإعطائها استقلالية^(٧٦).

ومن التطورات الأخرى التي شهدتها القطاع الصحي في البحرين عام ١٩٥٧ افتتاح قسم الولادة في مستشفى النساء من قبل حاكم البحرين الشيخ سلمان بن حمد والذي يتسع إلى (٦٨) سريراً كمرحلة أولى لمستشفى الولادة، كما زاد عدد الأطباء في المستشفى وذلك بتعيين عشرة أطباء وسبع ممرضات أوريبيات وعينت نائبة لرئيسة الممرضات ومهندس خاص بالمستشفى وقد بلغت ميزانية الخدمات الصحية (٦,١٠٠,٠٠٠) ستة ملايين ومائة الف روبية وتقرر زيادة عدد العاملين في الهيئة الطبية من (٥٥٠) موظفاً إلى (٩٥٠) موظف حتى يمكن تقديم الخدمات الطبية على مدار اليوم^(٧٧).

ومما تجدر الإشارة إليه وفي الثاني من كانون الأول من العام ذاته أطلق اسم السلمانية على المنطقة التي بني فيها مستشفى الولادة تكريماً لحاكم البحرين الشيخ سلمان بن حمد آل خليفة^(٧٨).

في بداية العام ١٩٥٨ افتتحت بلدية جد حفص وعين الشيخ راشد بن خليفة رئيساً لها، وتم بناء سوق السمك في المنامة بواسطة الشيخ دعيح بن حمد، ورغم وجود (٥٠) سريراً في مستشفى الأمراض الصدرية إلا أن المستشفى واجه طلبات كثيرة لتوسعته وزيادة خدماته، واستمرت عملية تطور الخدمات الطبية إذ التحق أول استشاري باطني - زمالة كلية الأمراض الباطنية من لندن -، الدكتور بيجان والتحق الدكتور هاري بليك رئيساً لدائرة التخدير بدل الدكتور يونج مان وإضافة إلى عمله في مستشفى الشرطة عمل الدكتور قريشي في قسم الأنف والحنجرة. فضلاً عن ذلك، حدث ازدياد على طلبات رعاية الطفولة لذا أحضرت دائرة الخدمات الطبية ممرضتين بريطانيتين في هذا القسم، واعتبرت الدائرة الطبية ضرورة تشريع القوانين التي من شأنها أن تمنع انتشار الأمراض ووضع حلول علاجية^(٧٩).

وفي عام ١٩٥٩ افتتح حاكم البحرين الشيخ سلمان بن حمد آل خليفة مستشفى النساء بالسلمانية الذي بلغت تكاليفه (١,٣٥٠,٠٠٠) مليون وثلاثمائة وخمسون ألف دينار أو ما يعادل ١٣ مليون و٥٠٠ الف روبية دون تكاليف الأجهزة الطبية وقد استغرقت عملية البناء اربع سنوات ونصف ويتسع المستشفى إلى (٢٢٠) سريراً، وخلال ذلك العام أيضاً بنيت عيادات للرجال في مدينة

هذا العام للأطفال الذين تحت رعاية دائرة الصحة، وفي هذا الشأن تم استعمال لقاح شلل الأطفال لأول مرة في البحرين، ومن النشاطات الأخرى التي حصلت خلال ذلك العام اجتماع جمعية أطباء الخليج في شركة أرامكو وكان المتحدثون الرئيسيون البروفيسور ويلي من ليفربول، الدكتور فوركرز من نيويورك، والدكتور ويلسون من بيروت^(٨١).

ومن التطورات الأخرى التي حصلت في المجال الصحي خلال ذلك العام تحويل أربعة بيوت في مدينة المحرق إلى مستشفى الولادة بسعة (٣٠) سريراً واجري ترميم مستشفى الولادة بمدينة الحد وتوسعته ليستوعب (١٢) سريراً^(٨٢). فضلاً عن ذلك، استمرت حكومة البحرين في العمل على توفير كافة التطعيمات واللقاحات، وكان من بين أهم التطعيمات التي حرصت الدولة على توفيرها التطعيم ضد مرض شلل الأطفال. وقد استخدم النوع الأول من اللقاح المسمى (سولك)، وتم تطعيم مجموعة من الأطفال به وأثبت فعاليته^(٨٣).

وخلال عام ١٩٦٢ التحق عدد أكبر من الإخصائيين والاستشاريين بالدائرة الطبية وأصبح لأبناء البحرين دور هام في تقديم العناية والرعاية للمرضى، ففي هذا العام تخرج الدكتور إبراهيم يعقوب من جامعة بيروت الأمريكية، وتخصص في أمراض الأطفال ومعه الدكتور راشد فليفل في تخصص أمراض الصدر والسل وعين مساعداً للدكتور هدى في مستشفى الأمراض الصدرية، وعاد الدكتور بليك بعد حصوله على زمالة التخدير ليأخذ مكان الدكتور ماكنثير، وتم تعيين الدكتور الديراوي مساعداً في قسم الأنف والحنجرة، وقد سبق هؤلاء الأطباء الدكتور علي فخرو وتقاعدت في نهاية العام الأنسة مورييس بعد عشرة أعوام من رئاستها قسم التمريض^(٨٤) واستطاع مجلس الصحة في هذا العام وضع القوانين الخاصة بالصيدليات وتحديد أسعار الدواء واستخدام اللواصق للتعريف بأسماء الأدوية وأعطيت التصاريح لأربع عشرة صيدلية مع شرط الزيارات التفقدية كل ستة أشهر من قبل الدائرة الطبية، بعد الانتهاء من قانون الصيدليات بدأ مجلس الصحة في دراسة إصدار سجل المواليد والوفيات وطرق قيد كل منها^(٨٥).

وخلال ذلك العام تم افتتاح مستشفى النساء وبالتالي أصبح مستشفى النعيم خاص بالرجال فقط، فضلاً عن ذلك تم إضافة (٣٤) سريراً إلى مستشفى الدرن ونقل مركز مكافحة الملاريا ومركز رعاية الأطفال إلى مقر دائرة الصحة العامة بالمنامة وانشأت عيادة للطوارئ بمستشفى النعيم كما تقرر انشاء أربع مستشفيات للولادة بالقرى اثنتان في سترة والمالكية واثنتان في البديع وسند، أما بخصوص الوضع الصحي في ذلك العام فقد لوحظ انتشار أمراض المعدة والأمعاء خاصة بين الأطفال نتيجة للحرارة الشديدة التي ميزت فصل الصيف وقد توفي بسبب هذه الأمراض ما يقارب (١٦٨) طفلاً طبّقاً لما سجلته تقارير المستشفيات كما سجلت زيادة في عدد الإصابات والجروح وصلت إلى ٩٠% وانخفضت الإصابة بالملاريا لتصل إلى نسبة ١%^(٧٧).

ومن القرارات المهمة التي صدرت عام ١٩٦٠ مجانية الخدمات الصحية لجميع المقيمين على أرض البحرين من مواطنين أو أجانب، ذلك القرار الذي أصدره حاكم البلاد الشيخ سلمان بن حمد آل خليفة والذي كان في غاية الأهمية وعد سابقة فريدة غير موجودة في معظم دول العالم، وانعكس إيجاباً على جميع من كان يعيش على أرض البحرين، ومن العوامل التي ساعدت على اتخاذ تلك الخطوة حسن استثمار عوائد النفط وزيادة الدخل المالي للإمارة^(٧٨).

وفي شهر تشرين الثاني عام ١٩٦١ توفي حاكم البحرين الشيخ سلمان بن حمد آل خليفة وابعه في حكمه البلاد ابنه الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة^(٧٩) الذي استمر في عهده الاهتمام بتحسين الخدمات الطبية في البلاد والتوسع في استقطاب الأطباء العرب والأجانب، إذ بلغ عدد الأطباء المصريين الذين تم استقطابهم ستة أطباء، كذلك تم تعيين طبيب ألماني مسؤولاً عن طب العيون والأنف والاذن والحنجرة، كما شهد ذلك العام التحاق الدكتور علي محمد فخرو بالخدمات الصحية كأول إخصائي بحريني^(٨٠).

ومن الإجراءات الأخرى التي تم اتخاذها لا سيما في المناطق القروية ان طلب من الأهالي بناء المراحيض داخل المنازل وإلغاء المراحيض العامة مع تجربة حرق النفايات ونجاحها في كركزان، كما تم وضع قانون التبني

الوفيات بين الأطفال بسبب زيادة الوعي وزيادة الرعاية وقد تم تطعيم (٢١٠٠٠) طفل ضد شلل الأطفال^(٨٩).

ومن الإنجازات التي تحققت في القطاع الصحي عام ١٩٦٤ افتتاح مستشفى الولادة في ستره الذي كان يتسع إلى (١٢) سرير كما تم الانتهاء من مستشفى الولادة في المالكية وضمت اليه العيادة التي كانت قائمة آنذاك، كما تم افتتاح قسم الولادة بمستشفى السلمانية بسعة (٢٨) سريراً وافتتحت عيادة جديدة في الرفاع الشرقي للرجال والنساء، وفي السياق ذاته بدأ العمل في إنشاء عيادات كبيرة وحديثة بالسلمانية لأمراض العيون والأطفال والانف والاذن والحنجرة كما أسست مغسلة جنوب مستشفى السلمانية، فضلاً عن انضمام مجموعة كبيرة من الأطباء الأجانب للعمل في القطاع الصحي^(٩٠).

ونتيجة لحرص حكومة البحرين في الاهتمام بالجانب الصحي فقد أمر حاكم البحرين الشيخ عيسى بن سلمان في عام ١٩٦٤ بتشكيل بعثة طبية لمصاحبة حجاج البحرين في موسم الحج لذلك العام وكانت تلك البعثة برئاسة الدكتور راشد فليفل وبلغ عدد أعضاء تلك البعثة عشرين شخصاً ما بين طبيب وممرضين وصيادلة وسائقين وطباخ بالإضافة إلى الفنيين والإداريين، وكان السيد يوسف الشيخ مشرفاً عاماً على البعثة وكانت مهام البعثة تتلخص في تقديم الرعاية الصحية لحجاج بيت الله الحرام وتوفير الأدوية الضرورية لهم ولأهمية تلك البعثة كان حاكم البحرين في متواجداً لتوديع الحملة أثناء ذهابها إلى السعودية وكان أو المستقبلين عند عودتها وذلك تقديراً لجهودهم ونجاحهم في مهمتهم^(٩١). والجدير بالذكر أن دائرة الصحة العامة كانت تعمل على توفير التطعيمات واللقاحات للحجاج قبل سفرهم إلى السعودية لأداء فريضة الحج، إذ يتم الإعلان عن الزامية توجه الحجاج إلى المستشفيات والمراكز الصحية الحكومية لأخذ تلك التطعيمات ومن أهمها (تطعيم الجدري، تطعيم الكوليرا، تطعيم الحمى الصفراء، التطعيم للالتهاب السحائي)^(٩٢).

علاوة على ذلك، أولت الحكومة البحرينية ومن خلال إدارة الصحة العامة بموضوع التطعيم للوقاية من الأمراض المعدية، إذ كانت تقوم بعمل حملات دورية وشبه سنوية للتطعيمات المختلفة وخاصة إذا ثبت ظهور

وخلال ذلك العام احتفلت البحرين بتخرج أول ممرضتين بحرينيتين، إذ قدمت الشيخة حصة حرم الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة الشهادة في حفل خاص بالتخرج. ومن جانب آخر، تفقد الشيخ عيسى بن سلمان جميع المستشفيات وأصدر تعليماته بتحسين الخدمة الطبية، ونتيجة لهذه التوصيات بدأت عيادات القلب وضغط الدم وعيادة أمراض السكري وكذلك تطوير قسم العلاج الطبيعي، إلى جانب تطوير المشرفة وثلاجات حفظ الموتى وتعيين فني خاص لإدارتها، وقد وصلت الباخرة «دمره» من باكستان وبها إصابة واحدة بالجدري «باكستاني»، مما اضطر السلطات الصحية بحجز كل الركاب البالغ عددهم (٢٥٤) راكباً في المحجر الصحي لحين جلاء الأمور ولم تظهر إصابات أخرى^(٨٦). ونتيجة الخدمات التي اخذت تقدمها مستشفيات البلاد فقد ذكر إحصاء عام ١٩٦٢ أن عدد المرضى الخارجيين الذين تلقوا علاجاً في المستشفيات بلغ (٨٠٠) ألف مريض، وقد افتتح امير البحرين الشيخ عيسى بن سلمان ال خليفة ميناء سلمان والحق بالميناء مركز صحي ومكتب للحجر الصحي، وبنفس الوقت تم تعيين طبيبان للخدمات الصحية المدرسية والقاء محاضرات التوعية الصحية بالمدارس كما تم تطعيم ثلاثة الاف طفل ضد مرض شلل الأطفال ممن تقل أعمارهم عن عشر سنوات^(٨٧).

ومن التطورات الأخرى التي حصلت في المجال الصحي في عام ١٩٦٢ صدور قانون الصيدالة وأيضاً قانون مراقبة أسعار الادوية في البحرين وكان الهدف من ذلك وضع الأسس القانونية لتنظيم عمل الصيدالة والصيدليات ومنح الصلاحية للمعنيين بالتفتيش عليها كل ستة اشهر وتنظيم اصدار التراخيص السنوية لها، وكذلك حدد القانون الية الرقابة على الادوية وتحديد أسعارها ومواصفاتها والحد الأعلى للربح والزام كافة الصيدليات بوضع أسماء وأسعار الادوية عليها وغيرها من اللوائح التنظيمية التي تم شرحها في ١٢ مادة^(٨٨).

ونتيجة الحاجة إلى الكوادر الطبية فقد زاد عدد الأطباء بحيث أصبح عددهم في عام ١٩٦٣ عشرون طبيباً واطباءاً، وشهد ذلك العام انخفاض نسبة

ومن الإجراءات التي اتخذتها الحكومة البحرينية لتشجيع الاهتمام بالصحة فقد تم تشكيل لجنة أسبوع الصحة في نيسان ١٩٦٧ برئاسة الشيخ عبدالله بن خالد ال خليفة وكان عدد أعضائها ٢٤ عضواً ممثلين عن كافة أجهزة الدولة كالصحة والتربية والتعليم والبلديات والداخلية والاشغال العامة والاعلام، وجاء تشكيل تلك اللجنة لتنظيم فعاليات صحية تثقيفية متنوعة للجمهور خلال اليوم العالمي للصحة الذي يوافق السابع من نيسان من كل عام، وكان الاحتفال يشمل العديد من الفعاليات الصحية والترفيهية وإقامة كرنفال سيارات يجوب الشوارع الرئيسة وتخصيص جوائز متنوعة في مجال النظافة العامة كجائزة انظف فندق وانظف قرية وانظف مدرسة وافضل بلدية وكان الهدف من ذلك نشر الوعي الصحي بين الناس بشكل مبسط ومبهيج^(٩٦).

وفي العام ذاته كانت الدائرة الطبية لحكومة البحرين حريصة على تسهيل وصول المواطنين إلى المستشفيات الرئيسة والعيادات الطبية، لذلك قامت بتوفير مواصلات مجانية لنقل المرضى والمراجعين من القرى البعيدة والعودة بهم مرة أخرى إلى أماكن سكنهم، إذ تم تخصيص باصين أحدهما لساكني مدينة المنامة والقرى المحيطة بها، والباص الآخر لساكني مدينة المحرق وضواحيها. وتم تحديد أوقات وأماكن انطلاق الباصان وعودتهما، كما تم الإعلان عن المحطات المختلفة التي سيتوقف بها كل باص، وكانت تشمل الشوارع العامة والمستشفيات الرئيسة والعيادات الطبية^(٩٧).

وفي العام ذاته أصدر حاكم البحرين قانون خاص لدائرة الشؤون القروية والذي تضمن عدة فقرات تؤكد على ضرورة الاهتمام بالجانب الصحي ومن تلك الفقرات^(٩٨):

١- الحفاظ على نظافة الطرق والشوارع والساحات وغيرها من الأماكن العامة المكشوفة.

٢- توفير وصيانة ومزاولة والارغام على استعمال الخدمات الصحية لإزالة وإتلاف أو التصرف بطريقة أخرى بالأوساخ والزباله والخمام والحيوانات الميتة وجميع أنواع النفايات والفضلات.

وباء أو ظهرت حالات في احدى الدول المجاورة، ففي آب ١٩٦٥ ظهر وباء الكوليرا في ايران وباكستان ونتيجة لذلك اتخذت الدائرة الطبية تدابير سريعة وخطوات حاسمة لمنع وصول ذلك الوباء إلى البحرين من خلال تشديد الرقابة الصحية على القادمين عبر الموانئ البحرية أو الجوية من المناطق الموبوءة، والزامهم بإبراز شهادة التطعيم الدولي التي تثبت حصولهم على التطعيم وفي حالة عدم وجود تلك الشهادة تقوم سلطات الحجر الصحي باحتجاز المسافر لحين فحصه والتأكد من خلوه من المرض وعلى صعيد التطعيمات فقد تم استيراد (١٠٩) آلاف جرعة من المصل الواقي من المملكة المتحدة والكويت ومنظمة الصحة العالمية ونشطت الحملات الاعلانية والتوعوية عبر الصحف ووسائل الاعلام لتشجيع المواطنين على اخذ التطعيم بالمجان في مختلف الهيئات الصحية للدائرة الطبية كمستشفى النعيم ومستشفى السلمانية ودائرة الصحة العامة فضلاً عن عدد من العيادات الخاصة^(٩٩).

ومن الإنجازات التي تحققت عام ١٩٦٦ افتتاح ثلاث عيادات تخصصية هي عيادة للأطفال وعيادة للعيون وعيادة الانف والاذن والحنجرة وقد بلغت تكلفة انشائها (٦٠٠٠) ستون الف دينار بحريني وشيدت تلك العيادات في محيط مستشفى السلمانية النسائي، وجهزت عيادة الأطفال بغرفة خاصة للعمليات الجراحية وكان الكادر الطبي بها مكوناً من طبيبين اخصائيين للأطفال هما الدكتور إبراهيم يعقوب والدكتور راشد عبدالله ومعهم طاقم مساعد مكون من خمسة أطباء وعدد من الممرضات^(٩٤)، أما بالنسبة إلى عيادة العيون فكانت تضم قسمين أحدهما للرجال والآخر للنساء وكان أول رئيس للقسم هو الدكتور الألماني (شوماخر) ومعه خمسة أطباء من بينهم أول طبيب بحريني في ذلك التخصص وهو الدكتور نبيل محمد الشيراوي الذي تولى المسؤولية بعد الدكتور شوماخر وساهم في تطوير القسم وتدريب العديد من الأطباء البحرينيين وكانت العيادة تستقبل يومياً ما بين ٢٠٠ إلى ٣٠٠ مريض وتقدم خدمات متنوعة، فضلاً عن إجراء العمليات الجراحية لأمراض العين المختلفة^(٩٥).

وكانت الخطوة الأهم في القطاع الصحي البحريني هو انضمامها إلى منظمة الصحة العالمية في أيار ١٩٦٧، إذ كانت من أوائل الدول العربية التي انضمت إليها نظراً لمكانتها الريادية في المجال الصحي وخاصة في مجال مقاومة الأمراض والصحة العامة وفي اب من عام ١٩٦٨ كان التواجد الأول لوفد البحرين في مؤتمر الصحة العالمي الذي انعقد في قبرص وكان وفدها برئاسة الدكتور إبراهيم يعقوب.^(٩٩)

ومن التطورات التي حصلت في القطاع الصحي تحول بعض العيادات إلى مراكز صحية حديثة، وقد بدأ ذلك الامر مع افتتاح مركز سترة الصحي في ٢ تموز ١٩٦٩ حيث تم تحويل العيادة القديمة الموجودة منذ عام ١٩٥٩ إلى مركز حديث يقدم خدمات أكثر تنوعاً مثل خدمات التطعيم والتثقيف الصحي ورعاية الامومة والطفولة فضلاً عن علاج جميع الحالات المرضية البسيطة وقد تم تعيين طبيب مقيم للمركز وصيدلي وممرضتين مؤهلتين ولأول مرة تم استحداث نظام الملف الصحي لكل عائلة، إذ يتم الاحتفاظ بالبيانات العامة والصحية الخاصة بكل عائلة في ملف واحد ليسهل استرجاعها ومتابعة الجوانب العلاجية.^(١٠٠)

وبعد أن أدركت لجنة الصحة العامة أن أساس الصحة وقوامها هو الاهتمام بالنظافة، لذا فأنها اخذت تتخذ الخطوات والإجراءات الرامية لهذا الجانب، إذ قامت في عام ١٩٧٠ بتوزيع حاويات النظافة على بيوت القرى والمدن وبدأت الحملة بتوزيع الحاويات في منطقة الفاضل بالمنامة بالتعاون مع البلدية وشملت ٥٠٠ منزل وكانت تلك الحاويات توزع مجاناً وساهمت تلك الحملة في رفع مستوى النظافة بالشوارع الجانبية والأزقة مما ساعد في خفض نسبة انتقال الأمراض.^(١٠١)

٣- غرس أو تقليم أو ازالة الأشجار في أي مكان عام أو عليه.

٤- صيانة ومراقبة المتنزهات.

٥- إقامة وصيانة المراحيض العامة اما فوق الأرض أو تحتها في أي مكان عام.

٦- إقامة وبناء وصيانة ومراقبة حظائر الحيوانات وبيوت الذبح داخل حدود أية قرية أو خارجها.

٧- حظر وإزالة واخماد ومنع وقوع المكاه الضارة بالصحة أو التي تعيق أو تضايق أو تضر الجمهور في ممارسته لحقوقه العامة.

٨- بعد مراعاة أي قانون آخر نافذ المفعول في حينه، منع وتنظيم ومراقبة خزن اية مادة أو أدوات قابلة للاشتعال أو خطره.

٩- تفتيش وفحص مواد الأكل والشرب المعدة للبيع، وتنظيم ومراقبة صناعة وتحضير وخزن وارسال ونقل اية مواد للأكل أو الشرب المعدة للبيع، ومنع دخول الحيوانات المريضة واللحم الفاسد والسّمك الفاسد وغيرها من مواد الاكل أو الشرب غير الصالحة للاستهلاك البشري ومنع حيازتها أو بيعها أو عرضها للبيع للاستهلاك البشري أو تداولها بقصد اتلافها وحجز هذه المواد حتى يتخذ مدير الصحة بشأنها ما يلزم من الإجراءات.

١٠- ارغام السكان على صيانة مبانيهم من المواد الكريهة أو الضارة بالصحة.

١١- تنظيم وتفتيش ومراقبة وترخيص البيوتات أو المقاهي والمطاعم والفنادق والمقاصف والمنازل وصالونات الحلاقة والأفران ومحلات القصابين والبقالة وجميع المصانع والمحلات التي تصنع فيها أو تحضر للبيع أو الاستعمال مواد الاكل والشرب أو التي تخزن أو تُباع فيها.

١٢- تنظيم ومراقبة وترخيص الباعة المتجولين والحمالين وعربات النقل التي تجرها الحمير وملاحظي السيارات.

١٣- تنظيم ومراقبة استعمال الحمامات العامة وبرك السباحة العامة والمغاسل.

خاتمة

أظهرت الدراسة أن البحرين كانت تعتمد قبل دخول الإرسالية الأمريكية إليها على الطب الشعبي في معالجة الأوبئة والأمراض التي تنتشر فيها وعدم وجود العلاجات الطبية الحديثة، وعانت البلاد من مجموعة من الأوبئة والأمراض التي كانت تحصد أرواح العديد من السكان.

تبين من خلال البحث أنه رغم الظروف الصحية الصعبة والانتشار المتكرر للأوبئة والأمراض في البحرين وقلة الكوادر الطبية والمستشفيات، لكن ذلك لم يمنع الحكومة من القيام ببعض الإجراءات التي حاولت من خلالها الحد من انتشار تلك الأمراض مستخدمة كل الوسائل المتاحة ولم تألوا جهداً في توفير بعض المستلزمات أو الكوادر الطبية من الخارج لإجراء الدراسات الخاصة في البحث والتقصي عن أسباب انتشار تلك الأمراض ووضع الحلول الناجعة لها متبعة في ذلك الوسيلة العلمية الأهم وهي اجتثاث الأمراض بالتخلص من مسبباتها، وهذا لا يعني أن البحرين قد وصلت إلى مراحل متقدمة في المجال الصحي آنذاك، ولكن على أقل تقدير أنها اتخذت خطوات ساهمت كثيراً في تحسين الواقع الصحي في البلاد وأسست للمراحل اللاحقة ببناء المستشفيات الحديثة واتباع النظم الصحية المتطورة.

امتازت الأوضاع الصحية في البحرين خلال مدة الدراسة بتناقص عدد الأمراض والأوبئة التي كانت تنتشر في البحرين سابقاً، وذلك بفعل الإجراءات الحكومية وتوفير العلاجات الطبية الحديثة وأيضاً التطعيم فضلاً عن الاهتمام بالرعاية الأولية للطفولة والامهات، وأيضاً الاهتمام بإقامة الفعاليات الصحية التي تسير وفقها بعض الدول لغرض توعية المجتمع بأهمية الحفاظ على الصحة العامة في البلاد.

الإحالات المرجعية:

- (١) زينب عباس عيسى، "الطب الشعبي في مملكة البحرين"، مجلة الثقافة الشعبية، العدد ١٢، مج ٤، البحرين، ٢٠١١، ص ٨٥.
- (٢) عماد جاسم حسن، الأوضاع الصحية في البحرين ١٨٩٢-١٩٣٩ واقعها والإجراءات الحكومية لمعالجتها، مجلة الساحل، المملكة العربية السعودية، العدد ٥٦، ٢٠٢٢، ص ٣٩.
- (٣) المصدر نفسه.
- (٤) مسلم هادي عبد الله، النشاطات الصحية الأجنبية البريطانية والأمريكية في الكويت ١٩٠٤-١٩٥١، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية للعلوم الإنسانية، جامعة البصرة، ٢٠١٤، ص ١٧.
- (٥) سي.ام.كرستجي، أرض النخيل -رحلة من بومباي إلى البصرة والعودة إليها ١٩١٦-١٩١٧، ترجمة منذر الخور، مطبوعات بانوراما الخليج، البحرين، ١٩٩٦، ص ٤٤.
- (٦) عماد جاسم حسن، المصدر السابق، ص ٤.
- (٧) لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، ج ٦، مكتب أمير دولة قطر، د.ت، ص ٣٦٤٧.
- (٨) عماد جاسم حسن، المصدر السابق، ص ٤١.
- (٩) عماد جاسم حسن، نشاط الإرسالية الأمريكية العربية في البحرين ١٨٩٢-١٩٣٩، مركز ابن ميثم البحراني للدراسات والتراث، بيروت، ٢٠١٨، ص ١٨.
- (١٠) ت.أ.أنتوني، "وثائق التاريخ الحديث للبحرين في المصادر الأمريكية ١٩٠٠-١٩٣٨: سجلات تاريخية للبعثة العربية نيويورك-سفك - نيوجيرسي"، مجلة الوثيقة، مركز الوثائق التاريخية، البحرين، العدد ٦، السنة ٢٠١٨، ص ٨٩.
- (١١) جون فان ايس، أقدم أصدقائي العرب، ترجمة خليل عمو، مطبعة بغداد، ١٩٤٩، ص ٣٤١.
- (١٢) عماد جاسم حسن، نشاط الإرسالية الأمريكية العربية في البحرين، ص ٤٢.
- (١٣) عبد المالك خلف التميمي، التبشير في منطقة الخليج العربي- دراسة في التاريخ الاجتماعي والسياسي، الكويت، ١٩٨٨، ص ٤٨.
- (١٤) محمد الخزاغي، "مئة عام على الإرسالية الأمريكية في مملكة البحرين"، مجلة البحرين الثقافية، العدد ٢٤، البحرين، ٢٠٠٠، ص ٢٣.
- (15) C.stanley Mylrea, Kuwait before oil, unpublshed Manuscript, p.23
- (١٦) عماد جاسم حسن، نشاط الإرسالية الأمريكية العربية في البحرين، ص ٥٨.
- (١٧) جريدة الوسط، البحرين، العدد ٤٤٣٦، في ٢٩ تشرين الأول ٢٠١٤.
- (١٨) علي أبا حسين، "مقتطفات من تاريخ الشيخ حمد بن عيسى بن علي آل خليفة"، مجلة الوثيقة، مركز الوثائق التاريخية، البحرين، العدد ٤٣، ٢٠٠٣، ص ١٣.
- (١٩) عبد الله بن خالد آل خليفة، أضواء على نشأة وتطور الخدمات الصحية بالبحرين، البحرين أحد أهم المراكز الصحية في المنطقة منذ أوائل القرن، الكتاب السنوي الثالث، مركز الوثائق التاريخية، البحرين، ١٩٨٤، ص ٨٤.

(20) I.O.R/R/15/2/1227. Copyright for this page, 'File 6/17 I Bahrain Government Proclamations, Notices (Public), etc.'

[33r]

(65/326http://www.qdl.qa/en/archive/81055/vdc_100038755

(٣٦) India Office Records and Private Papers, OR/R/15/2/1064, 4 May 1935-17 Jan 1949, http://www.qdl.qa/en/archive/81055/vdc_100026187401.0x0000ad

(٣٧) علي أبا حسين، المصدر السابق، ص١٣٩.

(٣٨) ولد الشيخ سلمان عام ١٨٩٤ في البحرين، تلقى تعليمه على يد مدرسين خصوصيين، وفي بداية حياته وأثناء حكم والده تولى مسؤولية بعض الدوائر، إلى وفاة والده في عام ١٩٤٢ حيث تسلم مقاليد الحكم في البلاد وشهد عصره نهضة كبيرة في البحرين في المجالات كافة واستمر حكمة حتى عام ١٩٦١. للمزيد يُنظر: عبد الله بن خالد آل خليفة وعلي أبا حسين، "التطور الإداري في عهد الشيخ سلمان بن حمد آل خليفة"، مجلة الوثيقة، مركز الوثائق التاريخية، البحرين، العدد ٢٧، ١٩٩٥.

(٣٩) المصدر نفسه، ص٢٤.

(٤٠) عبد الله بن خالد آل خليفة، المصدر السابق، ص٩٢.

(٤١) India Office Records and Private Papers, OR/R/15/2/1062, 23 Jan 1939-20 Oct 1947, http://www.qdl.qa/en/archive/81055/vdc_100026187245.0x000036

(٤٢) محمد أحمد جوهر، **البحرين تاريخ من الريادة الصحية**، ابن النديم للنشر والتوزيع، ٢٠٢٢، ص١١٥.

(٤٣) وتسمى في البحرين باسم العفطي أو الحرسون وهي سمكة صغيرة من أسماك المياه المالحة، يُنظر:

<https://web.archive.org/web/20181111/https://www.enature.qa/ar/specie/arabian-pupfish/8>

(٤٤) محمد أحمد جوهر، المصدر السابق، ص١٥٥.

(٤٥) India Office Records and Private Papers, OR/R/15/2/1230, 28 May 1940-22 Nov 1950, http://www.qdl.qa/en/archive/81055/vdc_100033155956.0x000011

(٤٦) India Office Records and Private Papers, OR/R/15/2/1076, 8 Apr 1944-12 Apr 1944, http://www.qdl.qa/en/archive/81055/vdc_100026466165.0x000006

(٤٧) India Office Records and Private Papers, IOR/R/15/2/1073, 29 Sep 1928-2 May 1949, http://www.qdl.qa/en/archive/81055/vdc_100026020821.0x000014

(٤٨) عبد الله بن خالد آل خليفة، المصدر السابق، ص٩٤.

(٤٩) محمد أحمد جوهر، المصدر السابق، ص١٥٩-١٦٠.

(٥٠) المصدر نفسه، ص١٤٨.

(٥١) عبد العزيز عبد الرحيم الخدي، **تطور مكافحة الملاريا في مملكة البحرين ١٩٣٩-٢٠١٧**، البحرين، ٢٠١٨، ص٥٠.

(٥٢) المصدر نفسه، ص٩٥.

(٥٣) India Office Records and Private Papers, OR/R/15/2/1230, 28 May 1940-22 Nov 1950, http://www.qdl.qa/en/archive/81055/vdc_100033155956.0x000011

974.0x000042) مكتبة قطر الرقمية، **إعلانات وبيانات حكومة البحرين** ١٩٢٦-١٩٢٩، ص٦٦.

(21) Ibid, 254.

(٢٢) سجلات حكومة الهند، IRO/R/15/2/1060, 2/7, 83, مكتبة قطر الرقمية:

http://www.qdl.qa/en/archive/81055/vdc_100025792579.0x000048

(٢٣) سجلات حكومة الهند، IRO/R/15/2/1060, 2/7, 136, مكتبة قطر الرقمية:

http://www.qdl.qa/en/archive/81055/vdc_100025792579.0x000048

(٢٤) سجلات حكومة الهند، IRO/R/15/2/1060, 2/7, 142, مكتبة قطر الرقمية:

http://www.qdl.qa/en/archive/81055/vdc_100025792579.0x000055

(٢٥) سجلات حكومة الهند مكتبة قطر الرقمية:

http://www.qdl.qa/en/archive/81055/vdc_100025792579.0x000060

(٢٦) مكتبة قطر الرقمية، سجلات حكومة الهند، **احتياطات مكافحة الملاريا**، ص٤، على الرابط

http://www.qdl.qa/en/archive/81055/vdc_100029400207.0x00000e

(٢٧) علي أبا حسين، المصدر السابق، ص١٣٦.

(٢٨) المصدر نفسه، ص١٣٧.

(٢٩) مكتبة قطر الرقمية، سجلات حكومة الهند، **إجراءات حكومة البحرين لمكافحة الملاريا**، ص٢٢.

(٣٠) India Office Records and Private Papers, OR/R/15/2/1062, 23 Jan 1939-20 Oct 1947, http://www.qdl.qa/en/archive/81055/vdc_100026187244.0x000082

(٣١) علي أبا حسين، المصدر السابق، ص١٣٨.

(٣٢) India Office Records and Private Papers, OR/R/15/2/1062, 23 Jan 1939-20 Oct 1947, http://www.qdl.qa/en/archive/81055/vdc_100026187244.0x000082

(٣٣) India Office Records and Private Papers, OR/R/15/2/1062, 23 Jan 1939-20 Oct 1947, http://www.qdl.qa/en/archive/81055/vdc_100026187244.0x000092

(٣٤) India Office Records and Private Papers, OR/R/15/2/1250, 14 Dec 1929-7 Sep 1950, http://www.qdl.qa/en/archive/81055/vdc_100032821612.0x000080

(٣٥) India Office Records and Private Papers, OR/R/15/2/1064, 14 May 1935-17 Jan 1949, http://www.qdl.qa/en/archive/81055/vdc_100026187400.0x0000bb

الله، علي) وقد تولّى مقاليد الحكم في البحرين عام ١٩٦١ حتى وفاته في عام ١٩٩٩ وفي عهده شهدت البحرين حصولها على الاستقلال عام ١٩٧١ وكان له دوراً كبيراً في تطوير مؤسسات الدولة بجميع المجالات. للمزيد من التفاصيل يُنظر: علي أبا حسين، **مسيرة الخير والعطاء في البحرين**، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، البحرين، ١٩٩٣.

(٨٠) عبد الله بن خالد آل خليفة، المصدر السابق، ص ١٠١.

(٨١) عيسى أمين، "خليفة بن سلمان أقر مجانية العلاج لأول مرة قبل ٥٥ عام"، صحيفة الوطن، على الرابط <https://alwatannews.net/ampArticle/١١٣٨٥>

(٨٢) عبد الله بن خالد آل خليفة، المصدر السابق، ص ١٠١.

(٨٣) إسماعيل إبراهيم الكبري، "الصحة في البحرين. طموحات كبيرة وإنجازات متميزة"، مجلة صحة الخليج، مجلس وزراء الصحة لدول مجلس التعاون، العدد ٤٣، ص ١٧.

(٨٤) عيسى أمين، "خليفة بن سلمان أقر مجانية العلاج لأول مرة قبل ٥٥ عام"، صحيفة الوطن، على الرابط <https://alwatannews.net/ampArticle/١١٣٨٥>

(٨٥) عبد الله بن خالد آل خليفة، المصدر السابق، ص ١٠٢.

(٨٦) عيسى أمين، المصدر السابق.

(٨٧) عبد الله بن خالد آل خليفة، المصدر السابق، ص ١٠٢.

(٨٨) جريدة النجمة الأسبوعية، العدد ١٣ في ٤ نيسان ١٩٦٤.

(٨٩) المصدر نفسه، ص ١٠٣.

(٩٠) المصدر نفسه، ص ١٠٤-١٠٣.

(٩١) خليل المريخي، المصدر السابق، ص ٩٨.

(٩٢) جريدة النجمة الأسبوعية، العدد ٩، في ١١ آذار ١٩٦٤.

(٩٣) جريدة النجمة الأسبوعية، العدد ٣٠ في ١١ آب ١٩٦٥.

(٩٤) جريدة النجمة الأسبوعية، العدد ٤٥ في ٩ تشرين الأول ١٩٦٦.

(٩٥) جريدة النجمة الأسبوعية، العدد ٣١ في ٧ آب ١٩٦٨.

(٩٦) خليل المريخي، المصدر السابق، ص ٣٠.

(٩٧) جريدة النجمة الأسبوعية، العدد ٣٠ في ٢ آب ١٩٦٧.

(٩٨) حكومة البحرين، دائرة الشؤون القروية، **التطور والتقدم لقرى البحرين ١٩٥٨-١٩٦٩**، د.ت، البحرين، ص ٦-٧.

(٩٩) خليل المريخي، المصدر السابق، ص ٨٩.

(١٠٠) جريدة النجمة الأسبوعية، العدد ٢٧ في ٩ تموز ١٩٦٩.

(١٠١) جريدة النجمة الأسبوعية، العدد ٣١ في ١٩ آب ١٩٧٠.

(٥٤) عبد الله بن خالد آل خليفة، المصدر السابق، ص ٩٥.

(٥٥) خليل المريخي، "تطور الخدمات الصحية في ثلاثين عاماً"، البحرين، ١٩٩٤، ص ١٥.

(٥٦) India Office Records and Private Papers, OR/R/15/2/305, 28 May 1940-22 Nov 1950,

http://www.qdl.qa/en/archive/81055/vdc_100033155956.0x000011____

(٥٧) المصدر نفسه، ص ٩٦.

(٥٨) India Office Records and Private Papers, IOR/R/15/2/1073, op.cit

(٥٩) عبد الله بن خالد آل خليفة، المصدر السابق، ص ٩٧.

(٦٠) أندرو ويتكروفت، **حياة وعصر صاحب السمو الشيخ سلمان بن حمد آل خليفة أمير البحرين ١٩٤٢-١٩٦١**، ترجمة خالد القشطيني، المملكة المتحدة، كيغ بول انترنشنال، ١٩٩٥، ص ١٥٢-١٥٣.

(٦١) عبد الله بن خالد آل خليفة، المصدر السابق، ص ٩٧.

(٦٢) India Office Records and Private Papers, IOR/R/15/2/1073, op.cit

(٦٣) عبد الله بن خالد آل خليفة، المصدر السابق، ص ٩٨.

(٦٤) المصدر نفسه، ص ٩٩.

(٦٥) مجلة هنا البحرين، البحرين، العدد ١١٩، في كانون الأول ١٩٦١، ص ٤٣.

(٦٦) بندر كار، "دكتور بندر كار و ٣٠ عاماً في البحرين"، مجلة الوثيقة، مركز الوثائق التاريخية، البحرين، العدد ١٢، ١٩٨٨، ص ١٦٤.

(٦٧) عبد الله بن خالد آل خليفة، المصدر السابق، ص ٩٨.

(٦٨) عيسى أمين، "خليفة بن سلمان أقر مجانية العلاج لأول مرة قبل ٥٥ عام"، صحيفة الوطن، على الرابط <https://alwatannews.net/ampArticle/١١٣٨٥>

(٦٩) عبد الله بن خالد آل خليفة، المصدر السابق، ص ٩٩.

(٧٠) عيسى أمين، "خليفة بن سلمان أقر مجانية العلاج لأول مرة قبل ٥٥ عام"، صحيفة الوطن، على الرابط <https://alwatannews.net/ampArticle/١١٣٨٥>

(٧١) عبد العزيز يوسف أحمد السيد، **مسيرة وطن**، البحرين، ٢٠١٠، ص ٨٢.

(٧٢) عيسى أمين، المصدر السابق.

(٧٣) عبد الله بن خالد آل خليفة، المصدر السابق، ص ١٠٠.

(٧٤) المصدر نفسه.

(٧٥) جريدة النجمة الأسبوعية، البحرين، العدد ٢٤ في ٢٤ حزيران ١٩٦٤.

(٧٦) عيسى أمين، "خليفة بن سلمان أقر مجانية العلاج لأول مرة قبل ٥٥ عام"، صحيفة الوطن، على الرابط <https://alwatannews.net/ampArticle/١١٣٨٥>

(٧٧) عبد الله بن خالد آل خليفة، المصدر السابق، ص ١٠١.

(٧٨) أندرو ويتكروفت، المصدر السابق، ص ١٦٨.

(٧٩) ولد الشيخ عيسى في قرية الجسرة بالبحرين في ٣ حزيران ١٩٣٣ وتلقى تعليمه الأولي على يد معلمين خصوصيين في منزل والده، ثم التحق بمدارس البحرين الرسمية، وبعد ذلك سافر إلى أوروبا لتلقي المزيد من العلم والمعرفة، حيث تعلم اللغة الإنكليزية وفي عام ١٩٥٣ عين في مجلس الوصاية أثناء غياب والده لحضور احتفالات تتويج الملكة إليزابيث ملكة بريطانيا، ثم ترأس المجلس البلدي لمدينة المنامة عام ١٩٥٦ وفي عام ١٩٥٧ أصبح ولياً للعهد وله خمسة أبناء هم (الشيخ حمد - ملك البحرين حالياً - راشد، محمد، عبد

ملاحظات حول المجموع الإباضي الوهبي سير المَشَايخ: عودة إلى نسبته

مامي محمد



باحث ماجستير بقسم التاريخ
كلية العلوم الإنسانية - جامعة البليدة (٢)
لونيسى علي - الجمهورية الجزائرية

المقال

Allaoua AMARA, Université Émir Abdelkader – Constantine.

Allaoua Amara, «Remarques sur le recueil ibādite-wahbite Siyar al-mašā'ih: retour sur son attribution», Andalus-Magreb, XV (2008), p. 31-40

تركز هذه المقالة على أحد الجوانب المختلفة للحياة الفكرية للإباضية خلال العصور الوسطى في المغرب الإسلامي، وهي تبحث في إنتاج ونقل النصوص الإباضية في الوسيطة التي تتميز بظهور أدب التراجم، من خلال دراسة المخطوطات التي نسبت منذ فترة طويلة إلى الوسياني. بعنوان سير المشايخ. هذا المخطوط هو نتيجة تجميع ثلاثة نصوص من السير نقترح لها نسبة تأليفية جديدة. يُعد مخطوط "سير المشايخ" وثيقة تراثية مهمة تنتمي إلى الأدب السيري في التراث الإسلامي الإباضي، ويتميز بكونه نتاجاً مركباً من ثلاثة نصوص مختلفة تم جمعها في متن واحد. يتيح هذا المخطوط نافذة تاريخية فريدة لفهم تطور الفكر الديني والسلوكي عند المشايخ الإباضية، خصوصاً في شمال إفريقيا. استطاع أن يجمع فيه سير أبي زكرياء، والمزاتي، والوسياني، والبيغطوري، وطبقات الدرجيني، وجواهر البرادي، فكان كتابه هذا جامعاً شاملاً، بدأه من البعثة المحمدية إلى أيامه التي عاشها، ولم يقتصر على المصادر الإباضية فقط، وإنما اعتمد على مؤلفين غير إباضية مثل: الرقيق، وابن الصغير وغيرهما.

كلمات مفتاحية:

تاريخ النص العربي: الحركة الإباضية: الإباضية: نصوص العصور الوسطى؛
الوسياني: تاريخ العصور الوسطى

بيانات المقال:

تاريخ استلام الترجمة: ٢٣ يوليو ٢٠٢٥
تاريخ قبول النشر: ٢٧ أغسطس ٢٠٢٥



10.21608/kan.2025.406986.1251

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالترجمة:

علاوة عمارة. "ملاحظات حول المجموع الإباضي الوهبي: سير المَشَايخ: عودة إلى نسبته"، ترجمة: مامي محمد. - دورية كان التاريخية. - السنة الثامنة عشرة - العدد الثالث والسبعون: نوفمبر ٢٠٢٥. ص ٢٠٩ - ٢١٤.



Twitter: <http://twitter.com/kanhistorique>

Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>

Facebook Group: <https://www.facebook.com/groups/kanhistorique>

Corresponding author: mami05moh@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في دورية كان ٤.٠ Creative Commons Attribution 4.0 International License (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

حقوق الملكية الفكرية والنشر: حقوق الملكية الفكرية محفوظة للمؤلف. حقوق الترجمة العربية محفوظة © للباحث مامي محمد. المترجم والدورية غير مسئولان عن الآراء الواردة في النص الأصلي. النقل والاستشهاد وفق الأصول العلمية والقانونية المتعارف عليها. غير مسموح بإعادة نشر كامل نص الترجمة العربية إلا بموافقة المترجم.

مقدمة

الاهتمام بالمخطوطات الإباضية-الوهبية قديم. بعد التغلغل الاستعماري للمجالات الإباضية التي كانت تحكمها النخب المحلية، المسماة بالعزائبيين^(١)، تمكن أوائل المستعربين الذين أرادوا معرفة التنظيم الاجتماعي-الديني للمجتمعات الإباضية من إعداد قوائم للمخطوطات.

كان إميل ماسكراي^(٢) أول من اهتم بهذه المخطوطات وترجم بشكل خاص في عام ١٨٧٨م جزءاً من كتاب سير الأئمة للوارجلاني الذي كان يشبه كتاباً تاريخياً تحت عنوان "تاريخ أبي زكريا"، في نفس الفترة عمق دو كلاسنتي موتلانسكي البحث عن المخطوطات الإباضية وأنشأ أول فهرس لبعض المكتبات العلمائية في عام ١٨٨٥م^(٣).

في عام ١٩٢٧م، نشر بولندي آخر، زيفمونتس موغورزيفسكي^(٤)، محاولة بيبليوغرافية إباضية-وهبية. أخيراً، كانت البيبليوغرافيا الثالثة للمخطوطات الإباضية-الوهبية في مزاب من عمل المستشرق الألماني جوزيف شاخت، الذي أقام في مزاب من ديسمبر ١٩٥٢ إلى يناير ١٩٥٣م، ونشر قائمة بالمكتبات العلمائية في مزاب بالإضافة إلى جرد لمخطوطات مكتبة محمد بن يوسف أطفيش^(٥).

في عام ١٩٧٠، نشر عمرو خليفة النامي، وهو باحث إباضي من جبل نفوسة، وصفاً لبعض المخطوطات الإباضية الجديدة^(٦)، وفي السنوات العشر الأخيرة من القرن العشرين، قامت الجمعيات المحلية في مزاب وخاصة تلك المعنية بالتراث، بتحديد وتصنيف وفهرسة آلاف المخطوطات. تعد مجموعات دار التلاميذ في العطف، ومحمد بن يوسف أطفيش في بني يزقن، وبابانو الحاج محمد بن يوسف في غرداية، الأهم بين مجموعات الجماعات الإباضية في الجزائر^(٧).

هذا الاهتمام بالنصوص الإباضية لم يتبعه دراسات جادة حول طرق نقل النصوص^(٨). ومن بين النصوص الأكثر انتشاراً واستخداماً من قبل الباحثين، مجموعة السير، التي نسبت منذ حوالي أربعين عاماً إلى أبي الربيع الوسياني (توفي بعد ٥٥٧/١١٦١)، وهي موضوع حديثي.

١- من الوسياني إلى الوارجلاني

كان المستشرق ليفيتشكي بلا شك أول باحث استغل على نطاق واسع مجموع السير الذي نسبته بالتناوب إلى مؤلف مجهول أو، أحياناً، إلى أبي الربيع الوسياني، وهو

راوية ومؤرخ إباضي-وهبي من منطقة الجريد في جنوب إفريقيا في القرن السادس/ الثاني عشر ميلادي^(٩)، في جميع أعماله عن الإباضية-الوهبية في المغرب الإسلامي^(١٠)، المنشورين عامي ١٩٣٤ و ١٩٩٠، اعتمد ليفيتشكي على مخطوط كراكوف^(١١).

تتأكد مشكلة تحديد المخطوطة هذه بالنسبة لسعد زغلول عبد الحميد^(١٢) الذي قدم مخطوطة لنفس المجموع في المؤتمر الأول لتاريخ وحضارة المغرب (تونس عام ١٩٧٤) ونسبها إلى الوسياني. من جانبه، ميز المستعرب الألماني أولريخر بيشتوك^(١٣)، مؤلف دراسة عن الإباضية في المغرب نُشرت عام ١٩٨٣، ثلاثة نصوص في المجموع التي نسب تأليفها إلى الوسياني. بعد ذلك بعامين، نشر إسماعيل العربي الجزء الثالث من المجموعة تحت عنوان "سير المشايخ" وحدد الوسياني كمؤلف له^(١٤).

نُشر نفس النص لاحقاً في تونس بواسطة عبد الرحمن أيوب^(١٥)، لكنه نسب هذه المرة إلى أبي زكريا الوارجلاني. هاتان الطبعتان الأخيرتان تم تداولهما بدورهما من قبل الباحثين، دون الأخذ في الاعتبار أن المخطوطة قد تم تحديد هويتها بشكل خاطئ من قبل ناشريهما. أخيراً، في مقال "الوسياني" في الموسوعة الإسلامية، ينسب ك. س. فيكور، هو أيضاً، نسخ المجموع (مزاب، جربة، القاهرة، كراكوف) إلى الوسياني^(١٦).

ومؤخراً، ناقش لقمان بوعصبانة، وهو مزابي متخصص في المخطوطات الإباضية، أطروحة دكتوراه عن تحقيق هذا المجموع في جامعة الأمير عبد القادر في ٣ جوان ٢٠٠٦^(١٧). وقد عمل، لتحقيق ذلك، على إحدى عشرة نسخة من هذه المجموع^(١٨)، ولكن للأسف بعض نتائجه بحاجة إلى مراجعة.

باحثناؤه بعنوان "مجموع سير الوسياني"، خلص إلى أن المخطوطة هي مجموع يتكون من ثلاثة أجزاء، لكنها ليست كلها من عمل الوسياني. الجزء الأول يكون ربما من عمل الوسياني، والثاني يُنسب إلى الوسياني، وقد يكون تدوينه من قبل أحد تلاميذه. أما الجزء الثالث، فيكون ربما من عمل مؤلف إباضي من قنطرة، وهي بلدة في منطقة قسطينيلية^(١٩).

الفكرة التي انطلق منها بوعصبانة هي بسيطة: استخدام أقدم نسخة كأساس لتحقيقه. لكن هذا الاختيار محفوف بالمخاطر بقدر ما لم يأخذ هذا الباحث في

وهو راوية إباضي-وهبي كبير، عاش في واحة سوف في القرن السادس هجري/ الثاني عشر^(٢٥).

كما ذكر بعض الرواة المقرين من مؤلف النص، مثل أبو نوح، وأبو سهل، وأخيراً أبو الربيع الوسياني. تمتع هؤلاء الرواة بسلطة أخلاقية معينة في المجتمعات الإباضية-الوهبية في القرن السادس/ الثاني عشر. تشير عدة مقاطع إلى أن محرر هذا النص قد يكون أحد تلاميذ أبي عمرو الصوفي، وأبي نوح صالح بن إبراهيم الزميري (ت. حوالي ٥٥٧هـ/ ١١٦١م)، وأبي الربيع الوسياني.

ذكر أساتذتي الثلاثة أبو عمرو وأبو نوح وأبو الربيع -رحمهم الله-...^(٢٦)، لم يذكر أبو الربيع الوسياني في هذا النص الثاني إلا كناقيل لبعض الروايات^(٢٧). لذلك لا يمكن أن يُنسب النص إلى الوسياني، ولا يمكن أن يكون إلا تلميذاً لأبي عمرو الصوفي، وأبي نوح، وأخيراً الوسياني. لسوء الحظ، لا تسمح حالتنا المعرفية الحالية بتحديد هذه الشخصية.

النص الثالث والأخير في المجموع هو الأقدم من بين الثلاثة. مؤلفه أقدم من الوسياني ويستمد شرعيته في مجال المرويات من السلطة المعنوية لشيخه الكبير، الراوية المراتي. في جميع أنحاء النص، تسمح مؤشرات مختلفة بتتبع مسار المؤلف. في البداية، يذكر شيخها المراتي^(٢٨)، ثم رحلته الخاصة للتعلم منه^(٢٩).

في عام (٤٦٢هـ/ ١٠٦٩م)، نجد آثار إقامته في ورقلة (وارجلان) وتامولست، وهي منطقة في جنوب إفريقية^(٣٠) حيث جمع التقاليد والروايات (أخبار الأولين وأحاديثهم وسيرهم ومناقبهم) من أستاذه^(٣١). ثم يذكر المؤلف رحلاته في طلب العلم في طرابلس، وفي بلاد أريغ، وفي الزاب^(٣٢). كان في تين وال عام (٤٧١هـ/ ١٠٧٨م)، عندما علم بوفاة المراتي^(٣٣).

يتضح من نصوص إباضية أخرى أن هذه الشخصية، التي قامت برحلات للتعلم من المراتي، هي العالم أبو العباس أحمد بن محمد بن بكر الفرستائي النفوسي (ت. ٥٠٤/ ١١١٠)، ابن مؤسس العزابة، الهيكل القيادي الأعلى للإباضية-الوهبية. ولد في نفوسة كما تشير نسبه، ويُعتقد أنه ولد عام (٤٢٠هـ/ ١٠٣٠م).

يذكر وجوده في عدة مدن ومناطق، مثل تامولست، وجبل نفوسة، والحامة، وتوزر، ووادي ريغ، وورقلة. إذا قضى بعض الوقت في تامولست، فقد عاش معظم حياته

الاعتبار حقيقة أن نسخ المجموع قد تم نقلها إما شفهاً أو كتابياً، مما يثير الشكوك حول النسخة الأصلية التي اختارها بوعصبانة. إحدى أحدث النسخ توضح تجميع ثلاثة نصوص مختلفة.

٢- مقترحات لإسنادات جديدة

تشير قراءة النصوص الثلاثة للمجموع إلى أنه لا يمكن أن يكون قد تأليف مؤلف واحد. تختلف طبيعة كل نص عن الآخر. وهكذا، تسود تقاليد التراجم الإقليمية في الجزء الأول، مما يعكس التطور الفكري وتأكيد الهويات المحلية داخل الجماعات الإباضية، كما تشهد على ذلك صيغ روايات أهل نفوسة، وروايات أهل القصور، وروايات أهل أسوف وأريغ، وروايات أهل وارجلان^(٣٠).

في الجزء الثاني، يركز المؤلف نصه على الروايات المناقبية التي تشير إلى التقاليد المتعلقة بالنخب الإباضية في القرنين الخامس هجري/ الحادي عشر؛ والسادس هجري/ الثاني عشر^(٣١). أخيراً، تهيمن فضائل العلماء والأولياء في النص الثالث، ولكن بشكل عام، رواياته أقرب إلى السيرة بالمعنى الدقيق للكلمة من تلك الموجودة في النصين الأولين. يتقاطع عدد من الروايات التاريخية والأسطورية في النصوص الثلاثة^(٣٢).

يبدأ النص الأول من المجموعة بعبارة: "قال الفقيه أبو الربيع سليمان بن عبد السلام بن عبد الله، رحمه الله"^(٣٣). هذه الصيغة تنسب النص إلى الوسياني، لكن متن النص يشير إلى أن الأخير قد أملاه على أحد تلاميذه. تحمل سلاسل الرواة المختلفة كلمات مثل "قال"، "حدثني"... التي تشهد على انتقال الروايات شفهاً قبل تدوينها. مما يشير إلى أن جزءاً من النص الأول من المجموعة يعود إلى الوسياني، ومن المحتمل أنه يحتوي على إضافات، أدخلها أحد تلاميذه.

النص الثاني لا علاقة له بالوسياني. يبدأ بمقدمة مختلفة عن مقدمة النص السابق: "قال أبو عمرو: قال أبو الربيع، عن أبي محمد عبد الله..."^(٣٤). وهكذا، "أبو الربيع المذكور في مقطعه ليس سوى المحدث الإباضي الشهير من منطقة قسطنطينية وأريغ، أبو الربيع سليمان بن خلف المراتي (ت. ٤٧١هـ/ ١٠٧٨م).

في هذا النص الثاني، الشخصية الرئيسية في نقل المرويات هو أبو عمرو عثمان بن خليفة المرغني السوفي،

يتفق هذا الجزء من سلسلة الإسناد مع سلسلة إسناد الإباضية في طرابلس حتى أبي الربيع المزاتي. وقد قام هذا الأخير في النهاية بصياغة تقليد تاريخي إباضي وهبي، سمح للعزابين ببناء رؤيتهم للماضي. سمحت سلطته المعنوية لقبائل مزاتة البربرية بالاستمرار في لعب دور أساسي في الإباضية، إلى جانب نفوسة، حيث أسس أحد ممثليهم وهو أبو عبد الله محمد بن بكر، الحلقة، وهي البنية الدينية والاجتماعية للإباضية الوهبية.

إن تأليف هذه النصوص الثلاثة ثم جمعها في مجموع يظهر تدوين الذاكرة الجماعية للإباضية الوهبية ابتداءً من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي. ويوضح موضعان من المجموع يشيران إلى النكارية، وهي فرع منشق عن الإباضية، الأهمية المعطاة للكتابة ونقل فضائل العلماء "لقد غلبنا أتباع أبي الربيع بفضل روايات السير". تتجلى هذه الرؤية البناءة للماضي في المقدمات الثلاث لنصوص المجموع التي تركز خطابها على الزوال الوشيك للمرويات (ضياح الآثار والسير)^(٣٦).

لقد سمح هذا التطور للمعرفة التاريخية في النهاية للوهبية بالسيطرة على تمثيل الإباضية على حساب النكارية. ومع ذلك، ابتداءً من القرن الخامس/ الحادي عشر، ينتقل مركز ثقل الإباضية من التحالف التقليدي بين مزاتة ونفوسة إلى زناتة في ورقلة، وبلاد ريغ ومزاب، وخاصةً إلى فرع بني وسيان. ستميل هذه الهيمنة لورقلة ومنطقتها على مر القرون أكثر فأكثر لصالح أهل مزاب، بعد تراجع واضح للإباضية في المغرب.

في ورقلة وأجلو، على إيقاع رحلات والده وأنشطته الدينية. بعد وفاة والده، التحق بحلقة تدريس المزاتي^(٣٤). يُعرف أبو العباس بفضل والده، ولكن أيضاً بمشاركته مع علماء إباضيين آخرين في تحرير ديوان غار أمجاج الذي أصبح مرجع الإباضية في المغرب. كما ألف كتاب القسمة وأصول الأرضين^(٣٥)، وهو كتاب يتناول عدة قطاعات من الحياة الاقتصادية والاجتماعية للجماعات الإباضية، مثل استغلال المياه والتخطيط العمراني. وُضع أقدم نص في المجموع اذن بعد الكتابات اللاحقة في هذا المجموع من نصوص السير والتراجم. دعونا نرى الآن ما يمكن قوله بشكل أكثر دقة عن هذا المجموع.

٣- مجموع متجانس

إنه مجموع متجانس يحتوي على ثلاثة نصوص حول نفس الموضوع، السير، وهي نوع من الأدب التعليمي والعجائبي الذي ينتمي إلى أدب التراجم والسير. أقدم نسخة، التي تعود إلى عام ٩٥٦هـ/ ١٥٤٩م، تعطي عنوانها للمجموع، سير المشايخ. ولكن للأسف، لا نعرف شيئاً عن ظروف جمع النصوص، لأن هذه النسخة لا تحدد شيئاً عن هوية مؤلفها وسياق تأليفها. لا يظهر فيه إلا اسم الناسخ، الحاج محمد بن سعيد بن محمد بن سليمان الإباضي المصعبي. وقد ذكر هذا الأخير أنه نسخ هذا المجموع من نسخة كثيرة الأخطاء (تصحيف).

٤- حضور غير بارز للوسيانى؟

مؤرخو الإباضية ومحدثوها ومترجموها في العصور الوسطى كثيرون، لكن مكانة الوسيانى متناقضة في النصوص. يكتب الدرجيني (ت ٦٧٠هـ/ ١٢٧١م) عن هذا الأخير أنه كان خبيراً جيداً بالمرويات والسير والآثار، وأنه كان يتمتع بسلطة كبيرة في نقل الروايات (التواريخ والأخبار) ومع ذلك، فإن حضوره قليل في سلاسل الإسناد (السند) للروايات التاريخية والسير الإباضية في طرابلس وإفريقية.

يضع المحدثون الإباضية الوهبية الأئمة الرستميين على رأس سلسلة إسناد تمتد حتى نهاية القرن السادس هجري/ الثاني عشر ميلادي: عبد الرحمن بن رستم؛ عبد الوهاب بن عبد الرحمن؛ أفلح بن عبد الوهاب؛ سعيد بن أبي يونس؛ سحنون بن أبي أيوب؛ أبو خزر؛ أبو نوح بن زنغيل؛ أبو عبد الله محمد بن بكر؛ أبو الربيع المزاتي؛ أبو العباس أحمد؛ أبو عمرو خليفة السوفي.

الإحالات المرجعية:

- (1) تشير كلمة "عزابة" إلى الابتعاد عن النساء والأطفال والمال اللازم للتفرغ لخدمة الإباضية. وبالتوسع، قد تشير كلمة "عزابي" أيضاً إلى مفهوم العزوبية. انظر: الدرجيني، كتاب طبقات المشايخ بالمغرب، تحرير إبراهيم طلال، مطبعة البعث، فسنطينة، ١٩٧٤، مجلدان، المجلد الأول، ص. ٣٧٤.
- Brahim Fakhar, Les communautés ibadites en Afrique du nord (Lybie, Tunisie et Algérie) depuis les Fatimides, Thèse de Doctorat d'État, Université Paris- Sorbonne, 1971, p. 132, Claude Grossmann, Aperçu sur l'histoire religieuse des Ibâdites du Mزاب en Algérie (la Sîrat al-Ḥalqa d'Abū 'Abd Allāh Muḥammad ben Bakr), Thèse de Doctorat 3e cycle, Université Paris- Sorbonne, 1976, p. 38.
- (2) est notamment l'auteur de Formation des cités chez les populations sédentaires de l'Algérie (Kabyles de Djurjura, Chaouïa de l'Aurās, Beni Mezâb), Paris, Ernest Leroux, 1886.
- (3) De Calassanti Motylinski, « Bibliographie du Mزاب », Bulletin de correspondance africaine, 3 (1885), p. 15-72
- (4) « Essai de bio-bibliographie ibadite-wahbite, avant propos », Rocznik Orientalistyczny, V (1927), p. 45-47.
- (5) J. Schacht, « Bibliothèques et manuscrits abadites », Revue africaine, 100 (1956), p. 375-398
- (6) Amar Khalifa Ennami, « A Description of new Ibadi Manuscripts from North Africa », Journal of Semitic Studies, 15 (1970), p. 63- 87.
- (V) حول مجموعات المخطوطات الجزائرية، انظر: cf. Mokhtār Hassānī, « Algeria », World Survey of Islamic Manuscripts, London, al-Furqān Islamic Heritage Foundation, 1994, vol. IV, p. 3-35 ; Djamil Aïssani, « Les manuscrits du Maghreb », Les trésors manuscrits de la Méditerranée, Paris, Fatou, 2005, p. 210-242.
- (8) l'exception peut-être du travail qui a été fait par T. Lewicki, « Les historiens, biographes et traditionnistes ibâdites-wahbites de l'Afrique du Nord du VIIIe au XVIe siècle », Folia Orientalia, III (1961), p. 1-134.
- (٩) الوسياني: أبو الربيع سليمان بن عبد السلام الوسياني ينتمي، كما تشير نسبته، إلى فرع من الزناتة، بني وسيان أو بني واسين. كان هذا الفرع يسكن منطقة قسطنطينية. تاريخ ميلاده غير معروف، لكن المؤرخ الدرجيني يصنفه ضمن أعضاء الطبقة الرابعة من الإباضية التي عاشت بين ١١٥٥/٥٥٥ م و ١٢٠٣/٦٠٠. كان واحداً من الشخصيات البارزة في الحلقة الإباضية في القرن السادس / الثاني عشر. حول حياة الوسياني، يمكن الرجوع إلى الدرجيني، المصدر السابق، مج ٢، ص ٥١٣.
- (10) Lewicki, «Le rôle du Sahara et des Sahariens dans les relations entre le Nord et le Sud », Histoire générale de

خاتمة

يوفر تحليل كتاب السير والمشايخ مثلاً مهماً للعمل الذي يجب القيام به على النصوص الإباضية، لا سيما من وجهة نظر النقد النصي وتبسيط الضوء على طرق النقل. على الرغم من أن الظروف الدقيقة لجمع هذه النصوص غير معروفة، فقد سعى مؤلف هذا التجميع للنصوص إلى تجميع عدة مرويات تعود إلى فترات مختلفة من أجل الحفاظ على الذاكرة الجماعية للنخب العلمية والحاكمة الإباضية الوهبية ونقلها كتابةً. النص الثالث في المجموع هو الأقدم ويعود إلى النصف الثاني من القرن الخامس/ الحادي عشر، وهي الفترة التي جمع فيها أبو العباس الفرستائي المرويات التي نقلها والده أبو عبد الله محمد وخاصةً شيخه المراتي.

النص الأول -وهو الثاني حسب الترتيب الزمني- هو عمل أبي الربيع الوسياني ويجب أن يؤرخ بالنصف الأول من القرن السادس/ الثاني عشر، بينما النص الثاني لاحق للنصين الآخرين، لأنه ألف خلال النصف الثاني من القرن السادس/ الثاني عشر من قبل مؤلف مجهول أو لم يتم التعرف عليه بعد على الأقل.

أخيراً، يشهد "سير المشايخ" على تطور فكري للإباضية الوهبية في العصور الوسطى، تميز بالانتقال من المجموعة غير المتجانسة إلى المجموعة المتجانسة وذات المعنى، وهو تطور كان الهدف الرئيسي منه هو الحفاظ على أدب السير والتراجم المناقبي ونشره.

- (١٨) أعدّ بوعصانة نصه من النسخ التي أتت من مكاتب مزاب، وجربة، وعمان، ومصر، وبولندا.
- (١٩) المرجع نفسه، المجلد الأول، ص. ١١٨-١١٩.
- (٢٠) سير المشايخ، تحرير: بوعصانة، ص. ١٩١-١٧٠.
- (٢١) المرجع نفسه، ص. ٦٠-٦٠٠.
- (٢٢) المرجع نفسه، ص. ٧٢٩-٦٠٨.
- (٢٣) سير المشايخ، تحرير: بوعصانة، ص. ١٩١.
- (٢٤) المرجع نفسه، ص. ٤٢٠.
- (٢٥) الدرجيني، مرجع سابق، المجلد الثاني، ص. ٤٨٣-٤٨٥، ت. ليفيسكي، "المؤرخون"، مرجع سابق، ص. ٣٨، ريشستوك، مرجع سابق، ص. ١٢-١٣.
- (٢٦) سير المشايخ، تحرير: بوعصانة، ص. ٤٢٤.
- (٢٧) المرجع نفسه، ص. ٥٢٨، ٥٥٤، ٥٧٦.
- (٢٨) المرجع نفسه، ص. ٦١.
- (٢٩) المرجع نفسه، ص. ٦٤٥.
- (٣٠) كانت تامولست منطقة تقع بين الحامة ومطماطة في جنوب تونس.
- (٣١) سير المشايخ، تحرير: بوعصانة، ص. ٤٢٠.
- (٣٢) المرجع نفسه، ص. ٧٠٢.
- (٣٣) المرجع نفسه، ص. ٧٠٦.
- (٣٤) المرجع نفسه، ص. ٧٠٨.
- (٣٥) أبو زكريا الورجلاني، **كتاب سير الأئمة وأخبارهم**، تحرير: إسماعيل العربي، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، ١٩٨٤، المجلد الأول، ص. ٢٧٠-٢٧٥؛ الدرجيني، مرجع سابق، المجلد الأول، ص. ١٩١-١٩٥؛ الشماخي، كتاب السير، قسنطينة، ١٣٠١ هـ/١٨٨٣ م، ص. ٤١٢.
- (٣٦) طبعة مصحوبة بدراسة للقسم المتعلق بالري بقلم الهادي بن وزود وآخرون، **قانون المياه والتهئية المائية بجنوب إفريقية في العصر الوسيط**، تونس، مركز النشر الجامعي، ١٩٩٩. طبعة الجزء الثالث بقلم بكير بن محمد الشيخ بلحاج ومحمد ناصر، غرداية، المطبعة العربية، أعيد طبعها ١٩٩٧.

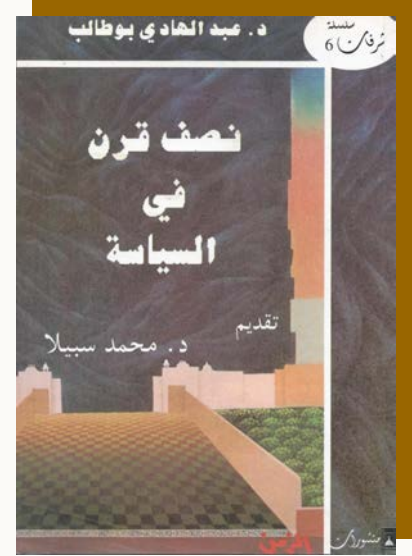
- l'Afrique, Paris, Unesco/Nea, 1990, vol. III, p. 304-339 ; Id., Études maghrébines et soudanaises, Varsovie, Éditions scientifiques de Pologne, 1978- 1983, 2 vol. ; Id., « Le monde berbère vu par les écrivains arabes du Moyen Âge », Actes du premier congrès d'études des cultures méditerranéennes d'influence arabo-berbère (Malte, 3-6 avril 1972), éd. Alger, SNED, 1973, p. 31-42 ; Id., « Une croyance des Ibāites nord-africains sur la fin du monde : le pays de Ġuġrāf », Correspondance d'Orient, 11 (1970), p. 317-327 ; Id., « Quelques extraits inédits relatifs aux voyages des commerçants et des missionnaires ibādites nord-africains au pays du Soudan occidental au Moyen Âge », Folia Orientalia, II (1960), p. 1-27 ; Id., Les Ibaḍites en Tunisie au Moyen Âge, Rome, Bibliothèque de l'Académie Polonaise de Rome, 1958, 16 p. (conférence, fasc. 6) ; Id., « Les subdivisions de l'Ibādīyya », Studia Islamica, IX (1958), p. 71-82 ; Id., « La répartition géographique des groupements ibadites dans l'Afrique du Nord au Moyen Âge », Rocznik Orientalistyczny, XXI (1957), p. 301-343 ; Id., Études ibādites nord-africaines, I : Tasmīyyat šuyūḥ Ġabal Vafūsa wa qurāhum, liste des šuyūḥs ibādites et des localités de Ġabal Vafūsa, Varsovie, Paristwowe wydawnictwo naukowe, 1955, 164 p ; Id., « Une langue romane oubliée de l'Afrique du Nord. Observations d'un arabisant », Rocznik Orientalistyczny, XVII (1951-1952), p. 415-480 ; Id., « De quelques textes inédits en vieux berbère provenant d'une chronique ibāite anonyme », Revue d'études islamiques, III (1934), p. 275-296.
- (11) Il s'agit en fait de l'ancienne collection de Z. Smogorzewski.
- (12) Hāmīš 'alā maṣādir tāriḥ al-ibādīyya fī l-Maġrib, dirāsa li-kitāb al-siyar », Actes du premier congrès d'histoire et de la civilisation du Maghreb, Tunis, éd. 1979, p. 53-91.
- (13) Die Ibāditen im Maġrib (2./8. – 4./10. Jh.). Die Geschichte einer Berberbewegung im Gewand des Islam, Klaus Schwarz Verlag, Berlin, 1983, p. XI-XII.
- (١٤) الوسياني، **سير المشايخ**، تح: إسماعيل العربي، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، ١٩٨٥.
- (١٥) تونس، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٥.
- (16) K. S. Vikor, «al-Wisyanī», Encyclopaedia of Islam, Leiden, E. J. Brill, 2002, vol. XI, p. 212.
- (١٧) **مجموعة سير الوسياني**. دراسة وتحقيق للجزء الأول، ضبط ومقارنة الجزأين الثاني والثالث، أطروحة دكتوراه، ٢٠٠٦، ٥ مجلدات، ٩٦ صفحة.

نصف قرن في السياسة

قراءة في مذكرة عبد الهادي بوطالب

شرف أزيك

طالب باحث بسلك الدكتوراه
كلية الآداب والعلوم الإنسانية - مراكش
جامعة القاضي عياض - المملكة المغربية



بيانات الكتاب

عدد الصفحات: ٣٥٩ صفحة.
الطبعة: الأولى. سنة النشر: ٢٠٠١
مكان النشر: الدار البيضاء - المغرب.

المؤلف: بوطالب عبد الهادي
الناشر: منشورات الزمن
بالتعاون مع: مطبعة النجاح الجديدة

doi 10.21608/kan.2025.381908.1223 معرف الوثيقة الرقمي:

كلمات مفتاحية:

عبد الهادي بوطالب؛ نصف قرن من السياسة؛ الحسن الثاني؛ التاريخ الحديث والمعاصر؛ التاريخ الراهن للمغرب

مقدمة

شهدت سوق النشر بالمغرب إصدار كثير من المذكرات، وكتابات تاريخية، وسياسية، وصحافية تحمل نفس السمات، وعلى رأسها الاعتماد على الذاكرة كمصدر أساسي للكتابة، وذلك في سياق الحضور الكبير للذاكرة في المشهد المجتمعي والطلب المتزايد على التاريخ اللذين واكبا أحداث وتحولات كبرى عرفها هذا البلد، من بينها الظاهرة الاستعمارية، والمقاومة المسلحة والسياسية التي واجهتها، والصراعات السياسية التي أعقبت الاستقلال، والعدالة الانتقالية، التي جسدت أعمال "هيئة الإنصاف والمصالحة"، التي سعت لطي

ملفات انتهاكات حقوق الإنسان التي وقعت خلال الفترة المعروفة بسنوات الجمر والرصاص^(١).

ومن هذا المنطلق بالذات سنركز بحثنا على إحدى أهم المذكرات التي تناولت الفترة المذكورة، ويتعلق الأمر بمذكرة عبد الهادي بوطالب، "نصف قرن في السياسة"، حيث سنعمل على إبراز أهم الجوانب والقضايا التي جاءت بها، خاصة وأن صاحبها عاصر ثلاثة ملوك "محمد الخامس، والحسن الثاني، محمد السادس".

أولاً: المذكرات: التعريف وسياق انتشار كتابتها

ظهرت المذكرات منذ القدم، وذاعت في الآداب العالمية، خاصة في أوروبا، خلال القرون الوسطى

والحديث، وعرفت انتشاراً كبيراً في الفترة المعاصرة، حيث كتبت من طرف عدد من المشاهير من ملوك ورؤساء وسياسيين وعسكريين وموظفين وأدباء وفنانين... ولم يكن هذا الجنس من الكتابة منتشرًا بكثرة في الثقافة العربية، ذلك أن الذي اشتهر بين العرب هو السيرة الذاتية^(٢).

وتكتب المذكرات في الواقع من قبل أشخاص شاركوا في الأحداث التاريخية التي يروونها. وبهذا فإن ارتباط المؤلف بالتاريخ هو ما يصح له أهمية وليس حكاية الفرد ذاته^(٣).

وقد كتب قليل منها منذ فترة الحماية، حيث انطبعت بالصراع ضد الاستعمار، (الحركات الاستقلالية لعلال الفاسي، والمقاومة المسلحة والحركة الوطنية للتهامي الوزاني..). وألف بعضها الآخر خلال السنوات الموالية للاستقلال، وعكست الصراع حول السلطة وبناء الدولة، ونزاع المشروعات السياسية والوطنية (الاختيار الثوري للمهدي بن بركة)، لكن أغلبها كتب في نهاية القرن الماضي ومطلع الحالي، وذلك في سياق الانفراج الذي عرفه المشهد السياسي وتوسع هامش الحريات، خاصة بعد تأسيس المجلس الاستشاري لحقوق الإنسان، وإصدار الملك الحسن الثاني عفوا عن معارضيته السياسيين، وتعيينه حكومة التناوب التوافقي بزعامة بعض أحزاب المعارضة. وإعمال هيئة الإنصاف والمصالحة.

كما تعززت هذه المذكرات بالتطور الكبير الذي عرفته وسائل الإعلام حيث نشر عدد منها على صفحات الجرائد، وعرض كثير من الشهادات في برامج الإذاعات والتلفزيون، وانتشرت على شبكة الانترنت^(٤).

وفيما يلي نماذج من المذكرات:

- عبد الرحمان الصنهاجي: مذكرات في تاريخ حركة المقاومة وجيش التحرير المغربي من ١٩٤٧ إلى ١٩٨٦، مطبعة فضالة - المحمدية ١٩٨٧.
- عبد الكريم الخطيب: مسار حياة، منشورات إفريقيا الحرة، الطبعة الثانية ٢٠٠١.
- الحسين برادة: مسيرة التحرير، منشورات إفريقيا-الرباط، الطبعة الأولى ٢٠٠٠^(٥).

- الغالي العراقي: ذاكرة جهاد ونضال، حديث عن سنوات التحرير والجمر والغبار، (دون ناشر)، الدار البيضاء، ٢٠٠٢^(٦).
- الغالي العراقي: البيان والبرهان، مطبعة النجاح الجديدة- الدار البيضاء، الطبعة الأولى ٢٠٠٦.
- محمد الفقيه البصري: كتاب العبرة والوفاء، إعداد حسن نجمي، منشورات مؤسسة محمد الزرقطوني، للثقافة والأبحاث- الدار البيضاء، الطبعة الأولى ٢٠٠٦.
- محمد بنسعيد آيت يدر: صفحات من ملحمة جيش التحرير بالجنوب المغربي، منشورات المواطنة- الدار البيضاء، الطبعة الأولى، يونيو ٢٠٠١^(٧).
- محمد عمر بلقاضي: أسد الريف محمد بن عبد الكريم الخطابي. مذكرات عن أسد الريف، مطبعة سلمى- الرباط، الطبعة الثانية، ٢٠٠٦.
- أبو بكر القادري: مذكراتي في الحركة الوطنية، ج ١، الطبعة الأولى سنة ١٩٩٣، ج ٢، مطبعة النجاح الجديدة- الدار البيضاء، الطبعة الأولى ١٩٩٧.
- عبد الرحيم بوعبيد: مذكرات عبد الرحيم بوعبيد، نحو استقلال المغرب، مؤسسة عبد الرحيم بوعبيد، مارس ٢٠٠٦.
- الحسن بوعبيد: الحركة الوطنية والظهير البربري، الدار البيضاء، ١٩٧٩.
- محمد اليازغي: سيرة وطن مسيرة حزب، مطبعة دار النشر المغربية- الدار البيضاء، الطبعة الأولى ٢٠١٢.
- محمد اليازغي: ذاكرة مناضل، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة- الدار البيضاء، ٢٠٠١.
- محمد حسن الوزاني: مذكرات حياة وجهاد، التاريخ السياسي للحركة الوطنية التحريرية المغربية، منشورات مؤسسة محمد بلحسن الوزاني، ج ١، سنة ١٩٨٢، ج ٢، سنة ١٩٨٢، ج ٣ سنة ١٩٨٤، ج ٤، سنة ١٩٨٥، ج ٥ سنة ١٩٨٦، ج ٦، سنة ١٩٨٧^(٨).
- عبد الهادي بوطالب: ذكريات...شهادات...ووجوه، ج ١ و ٢، نشر الشركة السعودية للأبحاث والتسويق- الرباط، الطبعة الأولى ١٩٩٢.
- عبد الهادي بوطالب: نصف قرن في السياسة، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة- الدار البيضاء، الطبعة الأولى ٢٠٠١.

- أحمد معنينو: **ذكريات ومذكرات**، ج ١ و ٢، مطبعة سبارطيل- طنجة، (دون تاريخ النشر).
- المهدي بنونة: **المغرب... السنوات الحرجة**، الشركة السعودية للأبحاث والتسويق - الرباط، الطبعة الأولى ١٩٨٩.
- المهدي بنونة: **أبطال بلا مجد. فشل ثورة ١٩٦٣-١٩٧٣**، ترجمة علي أيت حماد، منشورات طارق، مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء، يونيو ٢٠٠٥.
- الطيب بنونة: **نضالنا القومي**، مطبعة دار أمل - طنجة، الطبعة الأولى ١٩٨٠.
- الحسن الثاني: **التحدي**، المطبعة الملكية - الرباط، الطبعة الثانية ١٩٨٣.
- Hassan II, **Mémoire d'un roi**, Plon, Paris 1993.
- عبد الصادق المزوارى الكلاوي: **أبي الحاج التهامي الكلاوي، الأوبة**، ترجمة فريد الزاهي، منشورات مرسم، طباعة النجاح الجديدة- الدار البيضاء، ٢٠٠٤.
- جيلبير كرنفال، **أسرار مهمتي في المغرب**، تعريب محمد بن الشيخ، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة- الدار البيضاء، الطبعة الأولى ٢٠٠١.
- إدغار فور: **الخبايا السرية لإكس ليان**، ترجمة محمد العفراني، دفاتر وجهة نظر، مطبعة النجاح الجديدة- الدار البيضاء، ٢٠٠٢.^(٩)

ثانيًا: المذكرات وأهم المواضيع التي استعادتھا، "نصف قرن في السياسة" لعبد الهادي بوطالب: نموذجًا:

١/٢-قراءة في الجانب الوصفي

يقدم الدكتور عبد الهادي بوطالب، في هذا الكتاب شهادة تاريخية عن تجربته السياسية التي امتدت نصف قرن من الزمن، وهي شهادة تسلط الضوء على مساره السياسي. بتسلسل مشوق وبأسلوب تلطفي، من خلال منهج وصفي يؤثر سرد الوقائع والأحداث كما هي في عين السارد وكما احتفظت به ذاكرته القوية، مع حذر تأويلي واضح.

حقيقة إن مذكرة بوطالب تغري بالقراءة، ومصدر هذا الإغراء هو أنه ليس كتابًا بالمعنى التقليدي، إذ لم يضعه مؤلفه في أبواب وفصول تدور حول موضوع واحد، بل هو عبارة عن حوار مطول وشيق سبق نشره على حلقات في جريدة "الشرق الأوسط"، أجراه صحفي مقتدر هو: "حاتم البطيوي"، مع الأستاذ عبد الهادي بوطالب، كأحد القادة البارزين والفاعلين السياسيين بالمغرب.

لقد توفق البطيوي في النبش في ذاكرة قائد كبير، ذا ذاكرة خصة وقوية، تختزن في تلا فيفيها أسرار وتفاصيل ووقائع ومعارك وأحداث جسام منذ نصف قرن من الزمن، إضافة إلى ذكريات حميمة برفقة قادة تاريخين: كالمهدي بن بركة والحسن الوزاني.

هذا النبش الذكي، توصل به البطيوي، الوصول إلى ما يستطيعه من أغوار ذاكرة بوطالب، وإن بالاستفزاز المهني أحيانًا. خاصة وأن ضيفه الذي سبق وأن شغل أكثر من أربع وزارات وترأس مجلس النواب، وعين أكثر من مرة سفيرًا للمغرب، وفوق هذا وذاك عمل كأستاذ للملك الحسن الثاني وهو ولي للعهد منذ أن كان شابًا يافعًا، ثم مستشاره الخاص وهو في أوج قوته معتليا عرش المغرب ومحكما في مصيره، مرورًا بمرحلة مرضه وانتهاء بوفاته.

لكن عندما يتعلق الأمر بشخصية سياسية فذة، وقائد ميداني محنك ومجرب، يتجنب التشخيص، ويركز على ما يليق بالاهتمام، يكون الفضول الصحفي أمام امتحان صعب، ومع ذلك ظفر "حاتم البطيوي"، بمادة ثرية، لا اعتقد أن غيره قد ظفر بها من عبد الهادي بوطالب، تعد مرجعا لا غنى عنه لفهم ما جرى طيلة العقود الخمس التي شغلها بوطالب والتي تحدث عنها.

وخلال كل ذلك يستعرض سنوات القمع والاضطهاد والانفجارات الاجتماعية المختلفة، وعرقلة الآلة الأمنية، إضافة إلى لحظات الانفراج والفرص الضائعة لانقراض البلاد، متبعا مختلف أطوار التجارب الدستورية والانتخابية، وقضية الصحراء، إلى غير ذلك من المواضيع المهمة، محلا بنظر ثاقب كل مسألة على حدا.

وقد تضمن الكتاب في مجمله ٣٥٩ صفحة، في صيغة سؤال وجواب، اشتملت الصفحات الأولى من هذا الكتاب على تمهيد، كتب من طرف حاتم البطيوي، وعلى تقديم لمحمد سبيلا، أبرز فيه أهمية المؤلف في كتابة تاريخ المرحلة.

- من قضايا الإسلام المعاصرة في جزأين باللغة العربية
- ومن أجل فهم أفضل للإسلام باللغة الفرنسية
- العالم الإسلامي والنظام العالمي الجديد باللغتين معا
- وبين الشريعة والفقه والقانون
- وبين الشورى والديمقراطية
- حقيقة الإسلام
- ولا لأمركة العالم

وفي الأدب واللغة ألف رواية "الهروب" و "وزير غرناطة" و "معجم تصحيح لغة الإعلام" و "حق اللغة في الوجود والبقاء".

حاز على جائزة المغرب الكبرى للثقافة، ووسام الاستحقاق من المملكة الأردنية الهاشمية، ووسام الاستحقاق من الإيسيسكو.

٣/٢- قراءة في فصول الكتاب^(١٣)

لكوننا أمام مذكرة صادرة عن هرم وفاعل سياسي في المغرب من ثلاثينيات القرن الماضي، سنحاول الوقوف على أبرز مراحل حياته السياسية، انطلاقاً من لسانه وشهادته التي من خلالها سنتعرف على حقيقة المشهد السياسي في المغرب لمدة نصف قرن من الزمن، وكشف الأنوار على العديد من الجوانب العتمة في تاريخ المغرب المعاصر.

صحيح لا يمكننا الوقوف على جميع الحوارات المتضمنة في المذكرة، والتي تحمل في طياتها قضايا كثيرة، ولكن سنقف على أبرز القضايا الشائكة، والتي اعتبرت من التاريخ الغامض والخفي.

الأستاذ والأمير..... ووثيقة الاستقلال

سنحاول أن نسرد شهادات الدكتور عبد الهادي بوطالب مرة بلسانه ومرة بتلخيصنا لما قاله:

التحقت بخلايا العمل الوطني وأنا في سن مبكرة، كان يطلق علينا براعم كتلة العمل الوطني^(١٤)، وكان يشرف علينا كل من إبراهيم الوزاني رحمه الله، والذي اغتيل بعد الاستقلال من طرف عصاة كانت تصفي الوطنيين، المنتمين لحزب المعارضة المسمى حزب

وقد جاء الكتاب مرصعاً بعدد من الصور (١٦)^(١٥)، تستحضر شخصيات وأماكن تاريخية، وبموازاة ذلك جاء الكتاب، في مجمله على شكل (٤٥٧) سؤالاً، موزعاً ما بين الفترات التاريخية التالية:

- فترة الحماية: (٥١) سؤالاً، في (٥٠) صفحة، استأثر المعهد المولوي منها بالنصيب الأكبر منها (٢٠) صفحة.
- فترة الاستقلال، إلى حدود ١٩٩٩: (٤٠٦) سؤال.
- فترة محمد السادس: (١٨) سؤال.

ودائماً على مستوى الشكل، كان أقل جواب، هو كلمة واحدة، (بالفعل)^(١٦)، في الوقت الذي اتخذ أطول جواب مساحة (٧) صفحات بكاملها^(١٧)، ورغم هذا التباين الذي يظهر على مستوى المتن، فإن هذا لا يعني أي إخلال بالتوازن داخل الكتاب، بقدر ما يعكس أهمية الأسئلة والجدال الذي وقع بين الطرفين. سعيًا من طرف بوطالب إلى إقناع القارئ، بمصادقية وجهة نظره.

٢/٢- التعريف بصاحب المذكرة

كاتب وسياسي ودبلوماسي مغربي، تخرج من جامعة القرويين، حصل على الإجازة والدكتوراه في الشريعة وأصول الفقه، ودكتوراه في الحقوق، عمل أستاذاً بالمدرسة المولوية، كما اشتغل بمجلس الاستئناف الشرعي، وعمل أستاذاً للقانون بجامعة محمد الخامس بالرباط، والحسن الثاني بالدار البيضاء، ازداد سنة ١٩٢٣، ورحل إلى دار البقاء سنة ٢٠٠٩.

نقل في هذه المذكرة، خبرته السياسية الطويلة، متحزباً ومتقلداً لمناصب سياسية عديدة، فقد شغل منصب وزير الشغل والشؤون الاجتماعية في أول حكومة بعد الاستقلال، ووزير الإعلام والرياضة، ووزير مكلف بالبرلمان، وناطق رسمي باسم الحكومة، ووزير العدل، ووزير التربية الوطنية، ووزير الدولة ووزير الخارجية، وأيضاً رئيس لمجلس النواب ما بين سنة ١٩٧٠ و١٩٧١، وسفير للمغرب ببلدان سورية، وأيضاً بالولايات المتحدة والمكسيك.

كان له اهتمام بالقانون والتشريع المغربي فوضع مؤلفات عديدة باللغة العربية والفرنسية حول الديانة الإسلامية من منظور عصري ومن مؤلفاته:

الشورى والاستقلال، والهاشمي الفيلالي أحد أقطاب حزب الاستقلال، وفي حديثه عن القصر، يحكي أنه بدأت القصة مع السلطان محمد بن يوسف سنة ١٩٤٣، عندما كان الطالب مجبر أن يلقي درس جامعي في سنته الأخيرة، إذ نجح فيه يحصل على لقب علامة الذي يوازي اليوم الدكتوراه، ولأنني كنت المتفوق الأول حضر السلطان بنفسه للدرس الجامعي وهو من وقع شهادة التخرج، بدل وزير العدل ورئيس الجامعة، وهو أمر لا نظير له وفخر بالنسبة لي^(١٥).

وبعد أن كان همي إكمال دراستي في فرنسا، طلب مني السلطان محمد بن يوسف أن أصبح ضمن أساتذة مولاي الحسن، لكنني اعتذرت في البداية، لكن إلحاح الوزير الأول بركاش بأن لا أرفض الكرامة، وسبب اختياره له بالذات السبب الأول هو الإعجاب الذي ناله من محمد الخامس بعد أدائه أمام لجنة التحكيم والسبب الثاني والخفي والذي أخبره به الحسن الثاني، وأنه كان مقرراً أن يعتقل من قبل سلطات الحماية بسبب دروسه الثورية بالقرويين، فقرر السلطان تجنيبه ذلك^(١٦).

وبعد أن التحق مدرسا بالمعهد الملكي تحدث بإسهاب عن طريقة تعامله مع الأمير كتلميذ وليس كأمر مما جعل يلقي احترام منه، كما تحدث عن نباهة وذاكرة مولاي الحسن القوية، وحرصه على أن يكون في المرتبة الأولى، بصره وتفانيه^(١٧).

وبالرجوع للحقل السياسي^(١٨) وحديثه عن ظروف فترة تقديم عريضة الاستقلال، يقول أنه اقترح عليه أن يشارك في تأسيس حزب الاستقلال بكونه ينتمي لحزب الحركة القومية أو الحزب الوطني، إلى جانب عناصر أخرى من قدماء تلاميذ المدارس الثانوية في المغرب، كمحمد الزغاردي وامحمد باحيني الأستاذ في المعهد المولوي، هذين الشخصين هما من طلب منه الانضمام لحزب وطني جديد، يخرج بالمغرب من مرحلة المطالبة بالإصلاحات إلى الاستقلال، وكان ممن أرادوه أن يكون سندا لهم في حزبهم محمد الحسن الوزاني زعيم الحركة القومية والذي كان في منفاه في الصحراء المغربية، فحبذ الفكرة عبد الهادي بوطالب طالبا منهم إعطاءه مهلة للاستشارة، فاستشار صديقه بن سودة أحمد، وأحمد العراقي ونجلا الحاج بن شقرون هذا الأخير الذي كان يتمتع بالحماية الانجليزية، وله علاقة مع القنصل، هذه

العلاقة التي تم استثمارها من قبل الحاج بن شقرون، من خلال القنصل تم التعرف على الوضعية الدولية الغير المناسبة لحركة المطالبة بالاستقلال، لأن الحلفاء متضامنون مع فرنسا، وأن أمريكا أيضًا تعتبر نفس ما تعتبره إنجلترا، وفي هذه الفترة كان أيضا انتظار موقف الوزاني من منفاه.

وفي ١ يناير ١٩٤٤ بدأ الحديث أن الوثيقة وقعت وستقدم للسلطان فبادر عبد الهادي بوطالب الاتصال بي بن بركة، ليخبره بأنه سيوقع رفقة محمد الجناتي المحامي إضافة إلى المحامي محمد الجناتي، وإضافة اسم الحركة الوطنية، فرد بن بركة سأعرض الأمر على الإخوان، لكن هناك نية مبيتة برفض كل من بلافريج وأعضاء الحزب الوطني أن يضم اسم الحركة القومية إلى العريضة، إذ لم توجه إلى بيت بلافريج ومكث معهم حتى الواحدة صباحًا وأخبروه أن العريضة لم تصل بعد وهي في ذلك الوقت معهم^(١٩).

وفي صباح اليوم التالي كنت في المعهد حتى سمعت حشود الوطنيين أتت للقصر بالوثيقة للسلطان، بعدما وزعت نسخ لسلطات الحماية، هذه الوثيقة التي اعتبرها السلطان لا تمثل إلا فصيلة من فصيلة الرأي العام، فقررت تقديم وثيقة ثانية وهو ما أرادها السلطان، فتم ذلك وتم تقديم وثيقة تمثل الحركة القومية في ١٣ يناير واعتبرها السلطان أهم من الثانية بالنسبة إليه، وبعد تقديم الوثيقتين شهد الجو السياسي تشاحن وأزمة حادة بين الإقامة العامة والقصر، ويحكي عبد الهادي بوطالب الذي كان يقيم بالمعهد المولوي زيارات السلطان له ليدارسه حيثيات أزماته، والأزمة الكبرى التي ورطها فيه المولى الحسن، حينما قفز من فوق سور المعهد وانظم إلى المتظاهرين من أجل إطلاق سراح الوطنيين، هذا التصرف جعل الفرنسيين وعمال المعهد ومسؤوليه يظهرون الحقد والكراهة لمولاي الحسن، حتى تجرباً المقيم العام أن طلب من السلطان تغيير ولي العهد الشيء الذي حز في نفسية السلطان محمد بن يوسف^(٢٠).

وبعد الضغوط التي شهدتها محمد الخامس من أجل توقيع الظهائر هذا الأخير أضرب عن الإمضاء ففي الخمسينات جاءه الفرنسيين مخبرونه بين الإمضاء على

ظواهر تهدف إلى إحداث حكم مزدوج فرنسي-مغربي أم التنحية عن العرش أم المنفى فاختار المنفى^(٢١).

تأسيس حزب الشورى والاستقلال والجهة الوطنية في طنجة

تأسس حزب الشورى والاستقلال بعد رجوع محمد حسن الوزاني من منفاه الذي قضى به ٩ سنوات، وساهم في تأسيس الحزب الدكتور عبد الهادي بوطالب إلى جانب شخصيات وطنية عديدة من بينها عبد القادر بن جلون وعبد القادر التازي، كان من بين أهم أهداف الحزب هو تحقيق الاستقلال وإقامة نظام ملكي دستوري برلماني عصري^(٢٢).

وفي سنة ١٩٥١ تم إعلان الجهة الوطنية بطنجة، هدفها الوحدة السياسية لتشكيل قوة تهزم الاستعمار، هذا الائتلاف ضم كل من حزب الاستقلال بزعامة علل الفاسي وحزب الشورى والاستقلال بقيادة الوزاني وحزب الإصلاح الوطني بتطوان بقيادة عبد الخالق الطريس، وحزب الوحدة الوطنية بطنجة بزعامة المكي الناصري^(٢٣).

بعد توحيد الصفوف أصبح لكل حزب جريدة تنطق باسمه، وتم تجنيد خطباء الجمعة للإشادة باستقلال ليبيا، الأمر الذي عرضهم للاعتقال، وأشاد عبد الهادي بوطالب بدور الجهة في تنوير الرأي العام الفرنسي والأمريكي... بضرورة خروج الحماية، وأن المغرب مستقل لا محالة، ويتحدث بوطالب عن قضية مهمة فحواها أن الإقامة العامة تروج للحكومة الفرنسية أن الصراع في المغرب ليس ضد فرنسا، ولكنه صراع بين المغاربة على العرش بين النمط التقليدي المتمثل في القياد موالين لبن عرفة، وقسم ثاني موالي للسلطان السابق وهو ما تم التصدي له من قبل الجهة، وتم فضحه في إيكس لبيان بعد الزيارة التي قام بها عبد الهادي بوطالب والمهدي بن بركة وعبد الرحيم بوعبيد وعمر بن عبد الجليل وبن جلون إلى مدغشقر للقاء السلطان في منفاه^(٢٤)، حكى بوطالب سرية الرحلة وحفاوة استقبال السلطان الذي ضحى بعرشه مقابل استقلال بلاده، بقوله لا تربطن تشكيل الحكومة بي واستقلال البلد، تم انتقل للحديث عن وضعية الأمير مولاي الحسن المتحمس والقوي، الذي كان إلى جانب والده ويتكفل بتحرير المراسلات السياسية بين والده وفرنسا، تم انتقل في حديثه عن حدث

نوفمبر ١٩٥٥، وهو عودة السلطان للمغرب من منفاه، وكيف تكفل كل من حزب الشورى والاستقلال وحزب الاستقلال بتنظيم الاستقبال في مطار الرباط إلى القصر^(٢٥).

تأسيس أول حكومة بعد الاستقلال

اعتبر بوطالب أن من يقول بأن الحكومة تشكلت نتاج لأكس لبيان كلام عار من الصحة^(٢٦)، فخدعة إكس لبيان تم القطيعة معها وأصبحت في حيز كان وانطلق من مبدأ وجود جهة وطنية بين الأحزاب قادت نحو عودة السلطان من منفاه، وبعده عودته تم تشكيل الحكومة على أساس القطيعة مع عهد الحماية وبداية عهد جديد مع الاستقلال، فأشرك في الحكومة ٩ وزراء من حزب الاستقلال و٦ من حزب الشورى والاستقلال و٦ لا منتهمين، واختير امبارك البكاي رئيس الحكومة، وحسن اليوسي أسندت له وزارة الداخلية^(٢٧).

وفي جوابه عن أن مفاوضات الاستقلال لم تتناول استقلال المغرب بشكل كلي، فالصحراء ضلت محتلة، وسبته ومليبية وقضية موريتانيا التي لم تحسم رد بوطالب أن الرابطة الوحيدة التي تربطنا مع الاستعمار هي معاهدة الحماية معاهدة الحماية الفرنسية وفسخها تنهى بموجبها الحماية على الشمال والجنوب المغربي^(٢٨).

قضية الصراع بين الأحزاب إبان الحكومات المغربية الأولى

بعد ثلاثينيات القرن الماضي شهد المغرب تعددا حزبيا، وعند وصول وقت تشكيل الحكومة أراد حزب الاستقلال أخذ أغلبية المقاعد، إذ كان يعتبر نفسه يمثل أغلبية الشعب المغربي، قبل إجراء أي اقتراع، فتدخل الملك محمد الخامس لفظ النزاع فاعتمد حلا وسطا فأعطى له ٩ مقاعد وحزبنا حزب الشورى ٦ و٦ للمستقلين، وشكلت حكومة ما يسمى بالاتحاد الوطني أو الوحدة الوطنية^(٢٩).

ويتحدث^(٣٠) عن قبولهم بست مقاعد هو تنازل في عدم إثارة الصراع حول حسابات المقاعد، خاصة في ظل الظرفية التاريخية التي تشهدها البلاد، مما فسر في تشكيل حكومة في ظرف أسبوع من عودة محمد الخامس من المنفى في ١٦ نوفمبر ١٩٥٥.

كما شهد حزب الاستقلال تردد في المشاركة في حكومة البكاي لظروف تتعلق بعلال الفاسي وحزبه، وفي حديثه عن البكاي ووطنيته اعتبره وطنيا، رغم أنه تعاون مع فرنسا عندما كان باشا صفرو، ولكن في حدود الكرامة وعزة النفس وداخل الشرعية التي كان يمثلها السلطان المغربي وعندما اشتدت الأزمة بين السلطان والإقامة العامة، أعلن رفضه الانضمام للجبهة المعادية للسلطان، فعزل من طرف الإقامة العامة، وفي هذا الصدد عزلت الإقامة العامة مجموعة من القياد والباشوات الذين نهجوا مسار البكاي^(٣١).

وفي شهادته^(٣٢) عن الصراع الحزبي بين حزب الشورى والاستقلال وحزب الاستقلال فكان طبيعي لأن حزبه يمثل المعارضة، فكان لابد أن يذكر اسمه، عكس حزب الاستقلال يتعامل مع كل الأحزاب الأخرى كأنها غير موجودة، ونعلم أن بوطالب كان منتمي لحزب الشورى والاستقلال ومن الطبيعي أن يدافع عنه، فيقول فضلت أن أكون أميناً على تاريخ المغرب وانتقدت عدد من أعضاء حزبي بموضوعية، و يعترف بأنه أمر بشري أن أميل في تحليلي لمجموعة من الأحداث السياسية، لكن أعمل جهدي وأن أكتب عن تاريخ الحركة، ولا أبخص عمل الآخرين أي كان انتمائهم، وفي حديثه^(٣٣) عن الصراع الأزلي بين علال الفاسي والوزاني، الذي اعتبره صراع فوت على المغرب فرص ذهبية، وعن سبب الصراع فيقول بأنه لا يعلم حقيقته، إلا أن بعض المحللين السياسيين اعتبروه خلاف بين أسرتين، أسرة الشرفاء "الوزاني" وأسرة العلماء "الفاسي" ومنهم اعتبره صراع الحداثة مع الوزاني و الأصاله مع الفاسي، والبعض اعتبره صراع شخصي، فالوزاني لم يقبل نتيجة الاقتراع الذي أجرته كتلة العمل الوطني وأظهرت النتيجة علال الفاسي رئيسها، والوزاني لم يظفر إلا بصوته مما اعتبره مؤامرة من رفاقه في الكفاح الوطني.

قضية الريف المغربي

إن الثورة التي اندلعت بعد استقلال المغرب، لم تقم للإطاحة بالملكية^(٣٤) أو التمرد عليها واعتبر سببها هو التهميش بعد الاستقلال للمنطقة، وفرض اللغة الفرنسية على منطقة الشمال، وتنحية الإسبانية دون مراعاة هاته المنطقة الخليفية، فكان الرد عنيفا من سكان الريف لإسماع صوتها وحالها المهمش المنسي، وعبد

الكريم الخطابي لم يكن وراء هذه الثورة، إذ بنفسه كذب التهمة الموجهة إليه بأنه ثار على النظام الملكي، وهو اعتراف تلقاه بوطالب حينما زار الخطابي في القاهرة، مما يدل على العلاقة الطيبة التي كانت معه، وعبر له أن الثورة في عشرينيات القرن الماضي كان الهدف منها طرد العدو وليس السلطة، وجاء على لسان عبد الهادي بوطالب: فأنا ابرأ الخطابي من يكون ضليعا في حركة التمرد التي وقعت في الريف أو محرزا عليها، تم إن الخطابي وأسرتهم زاروا محمد الخامس عندما زار مصر قبل اندلاع الثورة وجددوا له البيعة^(٣٥).

واعتبر ثورة الريف مخلة بالأمن والاستقرار ومرفوضة من الحكم كأسلوب للتعامل بين الحاكم والمحكوم، فكان التعامل معها من هذا المنظور.

وفاة جلالة الملك محمد الخامس

التاريخ الذي أعلن عن وفاته هو ٢٧ فيراير ١٩٦١^(٣٦)، يحكي عبد الهادي بوطالب آخر مرة رأيت فيها الملك كان عندما عرض علي المشاركة في حكومته واعتذرت^(٣٧)، وكنت استقرت بالبيضاء، أدير مشروعني الخاص وهو عبارة عن مكتبة التي حولتها لمطبعة تم لشركة للطباعة^(٣٨)، تم بعد الاستقلال ساهمت في شركات صناعية، وهذا ما يفسر مواقفي الجريئة لأنني لم أكن أحتاج للوظيفة ولا كنت أتحدث لغة الموظف، وبالرجوع إلى ظروف الوفاة، فقد كان كما يبدو قبل يومين بصحة جيدة، والمحيطين به لم يصرحوا بمرضه، يقال كان يشكوا من مرض لم يعلن عنه، وأجريت له العملية بمصحة القصر التي لم تكن مجهزة بالتجهيزات الطبية، ويظهر أن الطبيب أثناء العملية واجه فقر في الدم، وكان اليوم يوم السبت، ولم تكن مصحة القصر ولا مستشفيات الرباط متوفرة على دم من فصيلة دم محمد الخامس، ويقول^(٣٩) بأن الدكتور عبد الكريم الخطيب ذهب مع طبيبين باستعجال على متن طائرة مروحية إلى الدار البيضاء للبحث في مستشفياتها عن دم ينقذ حياة الملك، لكنهم عندما عادوا إلى الرباط حتى كان محمد الخامس قد انتقل رحمة الله.

وأكد بالفعل بأنه كان هناك تقصير في أخذ الحيطة، إذ كان الواجب أن يكون للملك أكثر من طبيب وهو الأمر الذي تفطن إليه الحسن الثاني في حياته، لا يمكن إثارة شكوك أو اتهامات حول وفاته^(٤٠).

الاعتراف بموريتانيا والصراع الجزائري المغربي

إن قضية الصحراء اعتبرها بوطالب^(٤١) أمر ليس من السهل الحسم فيه، فمطالبنا أن تكون الحدود التاريخية التي كانت قبل الحماية، سواء تعلق الأمر بسيدي إفني أو طرفاية أو الصحراء المغربية أو الحدود الشرقية المتاخمة للجزائر والتي اقتطعتها فرنسا وأضافتها للجزائر، وإضافة إلى سبتة ومليلية التي لم نفتأ أن طالبنا بتحريرهما بعد الانضمام للأمم المتحدة، وبالنسبة لموريتانيا واعتراف المغرب بها، فبعد الانشقاق بين دول المغرب العربي تسرعت تونس في الاعتراف باستقلال موريتانيا، وأعتبر أنه صدق في حدسه وفراسته بأن المغرب سيعترف بها لأنه ليس قادر على توسيع حكمه على رقعة جغرافية أكبر^(٤٢)، وفي حديثه عن حرب الرمال بين المغرب والجزائر، وعن أسبابها وخلفياتها يذكر^(٤٣) بالإمدادات التي قدمها المغرب للثورة الجزائرية منذ اندلاعها سنة ١٩٥٤ لم تتوقف إيماننا من المغرب بأنها إلى جانب الجزائر يسيرون في خندق واحد، ومن أشكاله تعاونه أنه دعم الثورة ماديا ووفر السلاح لها وحماية ظهرها على طول الحدود المغربية التي أصبحت مفتوحة في وجه المكافحين الجزائريين، وقاعدة مكناس التي أصبحت تستقبل السلاح المقتنى من قبل الثوار الجزائريين من روسيا ويمر عن طريق المغرب، وفي هذه المرحلة المغرب رفض التفاوض مع فرنسا على الحدود المتقطعة مع الجزائر، فضل محمد الخامس فضل ترك المشكلة لحين استقلال الجزائر، ومع الحسن الثاني في اجتماع مع الرئيس بن بلا بعد استقلال الجزائر طلب منه هذا الأخير تأخير الموضوع لحين استكمال الجزائر إقامة المؤسسات الدستورية هذا الرد الذي كان من وراءه سوء نية، فبعد عودة الملك من الجزائر تلاحقت أنباء تشهيرية وقذف على المغرب متهمة إياه بإسناده ثورة القبائل الجزائرية بغية زعزعة استقرار الجزائر، هذه الحملة الإعلامية التي دعمها الإعلام المصري، هذا الأخير الذي كان يهدف من خلاله جمال عبد الناصر في علاقته بي بن بلا بأن، يحمل فكره القومي العربي الناصري^(٤٤).

وفي سياق الأحداث^(٤٥) تعرض مركز "حسي بيضا" و"تيجوب" على الحدود المغربية الجزائرية لهجوم من طرف الجيش الجزائري والسيطرة عليهما، تم الهجوم على مركز "إيش" شمال فكيك ومركز "تندارة" إقليم وجدة

وجميع هاته المناطق لم تكن محل نزاع بين الدولتين، لأنها تدخل ضمن التراب المغربي، فكان رد الحسن الثاني الاتزان لأنه يعلم أن بن بلا ليس من صالحه الصدام مع المغرب ولكن هناك قوى أخرى تسعى لهذا النزاع^(٤٦)، فيحكي بوطالب أنه أرسل مرتين للجزائر مع بلافريج ومرة مع الكومندان المدبوح لشجب الأفعال المرتكبة على الحدود المغربية^(٤٧)، لكن كل الردود كانت سلبية من بن بلا، وبعد انسداد كل الطرق في وجه الحسن الثاني فكان الحل هو الحرب، فنشبت حرب الرمال سنة ١٩٦٣ والتي امتدت ٣ أيام، استرجع فيها المغرب بالقوة ما أخذته الجزائر بالقوة، وتوغل الجيش المغربي حتى أصبح على بعد ٢٦ كلم من تندوف المغربية التي احتلتها الجزائر، تم توقفت الحرب وتراجع المغرب إلى حدوده المفروضة^(٤٨)، وذكر بوطالب كيف أن قبل على مفض الجيش المغربي التوقف عن القتال طبقا لأمر الملك، فالكولونيل إدريس بن عمر الذي كان يرأس الجيش حينما عاد من الجبهة، وفي استقباله بمراكش بحضور اكديرة وبلافريج نزع "جاكيته" التي كانت تحمل أوسمة عسكرية ووضعها جنب الحسن الثاني، إشارة إلى استقالته قائلا: مولاي لا يقبل في المنطق العسكري الحربي أن يعود جيش منتصر لمناطقه الأولى كجيش منهزم، لكن الحسن الثاني رده عن استقالته، فالحسن الثاني كان لا يريد أن يضع حلم إقامة المغرب العربي^(٤٩).

وبالرجوع لقضية اعتراف المغرب بموريتانيا^(٥٠)، فتم ذلك في أول قمة لدول منظمة المؤتمر الإسلامي سنة ١٩٦٩ من قبل الحسن الثاني الذي قبل باستضافة موريتانيا وجاء قوله للرئيس الموريتاني السيد المختار ولد داداه: الأزمة انتهت سنفتح إن شاء الله صفحة أخوية جديدة مع الشقيقة موريتانيا موحيا بالاعتراف الضمني^(٥١).

اختطاف المهدي بن بركة

اختطف المهدي بن بركة في ٢٨ أكتوبر ١٩٦٥، وكنت آنذاك وزيرا للعدل، وملفه لم يتدخل فيه القضاء المغربي، ولم يعرض علي^(٥٢) بل كان يشتغل عليه رجال الأمن المغاربة والفرنسيين ويذكر أن وزير العدل لا يتدخل في أحكام المحاكم، ومحاكمة قضية بن بركة تمت بباريس، وعن نفسه يتحدث بأن طوال منصبه وزيرا لم يتدخل في قضية أو اتصل بقاضي ليصدر حكما في قضية ما^(٥٣).

وفي معرض جوابه عن إحساسه بعد علمه خبر الاختطاف يقول: تم اختطافه بباريس من قبل المخابرات الفرنسية واقتيد لوجهة مجهولة، واعتبره حادث إجرامي تألمت عندما علمت الخبر،^(٥٤) فالمهدي بن بركة تعرفت عليه في المعهد الملكي بالرباط، وتعاوننا في نطاق جبهة الأحزاب الوطنية، وكان ضمن الوفد الذي عرفنا به قضيتنا بفرنسا، إنه زعيم سياسي ومناضل وطني، معتر بشخصيته لا يعطي ثقته لأحد.

ومن تداعيات هذا الحادث، وقوع أزمة دبلوماسية مع سورية، إذ اجتمع البرلمان السوري وندد بالنظام المغربي، ونسب إليه إنه وراء الاختطاف ونعته بأسوأ النعوت، وبصفتي وزيراً للعدل والإعلام وأنوب عن وزير الخارجية، طلب مني الحسن الثاني أن أستدعي السفير السوري هيثم كيلاني وأبلغه أنه أصبح سفيراً غير مرغوب فيه وعليه أن يغادر البلاد وهذا ما وقع^(٥٥).

انقلاب الصخيرات وأفقير سنة ١٩٧١

مند أن بدأ أفقير في استمالة البرلمانين واستقطابهم، أثار في نفسي شكوك حول مساعيه ومخططاته^(٥٦)، كان يعمل على تأليف تجمع سياسي مضاد لحزب الاستقلال والإتحاد الوطني للقوات الشعبية، ومن جهة ثانية زادت الشكوك بعد أن اتصل بي المحجوبي أحرسان، الذي كان عضو في مجلس البرلمان، وأراد أن يحدثني في موضوع استعجالي على حد تعبيره فقال لي وأنا أستعد للسفر لتلبية طلب مجلس البرلمان الإيراني في عهد الشاه رفقة وفد مغربي قائلاً: لقد فتح معي الجنرال أفقير موضوعاً يدين النظام^(٥٧)، هذا الأمر حدث قبل شهرين من محاولة الانقلاب، وأثناء زيارتي لإيران سألتني سفير المغرب بها المهدي بن عبد الجليل: هل تتقون في الجنرال أفقير، فقلت لماذا هذا السؤال فرد قائلاً: لأنه عندما جاء ضيفاً على الشاه مكث ٢٠ يوماً، وحمل معه ١٠٠ حقيبة مملوءة بالهدايا الثمينة، وقضى معظم أوقاته مع السفاك أي المخابرات الإيرانية، ومع الشاه في خلوته، وكنت لا أبوح بوجهة نظري كما فعلت مع أحرسان، وفي الطريق إلى المغرب كنت أقول في نفسي حان الوقت لأفاتيح جلالة الملك بالموضوع، لكنني تنبّهت أن الملك قد يواجه أفقير بما قلت و سأكون بذلك قد عجلت بنحري فقد كان أفقير قادر على أي شيء.

كان منتظر أن تقام ليلة ٩ يوليوز ١٩٧١، حفلة موسيقية ساهرة بمناسبة عيد الشباب أي ليلة عيد ميلاد وجاءتنا دعوات الحضور من التشريفات بقصر الصخيرات ودعوة أخرى لحضور حفل الغداء بنفس القصر^(٥٨)، وتميزت له ٩ يوليوز بحفل موسيقي جمع لأول مرة أقطاب الفن والغناء في العالم العربي من بينهم محمد بن عبد الوهاب وعبد الحليم حافظ وصباح وفريد الأطرش وآخرون... وكان للملك ميولات لا يعرفها الناس، إدكان يعزف على أكثر من آلة موسيقية.

في صباح اليوم التالي توجهت للقصر، وما إن وصلت إليه ذهبت للسباحة في المسبح، وجدت محمد الفاسي وأحمد بن سودة وآخرين من رجال الدولة والمدعويين يسبحون^(٥٩)، وعندما جاءني الطيب بنونة رئيس التشريفات الملكية ويقول لي بأن مكاني محجوز في جلالة الملك مع الوزير الأول، وبما أنني كنت أردي لباساً خفيفاً قلت له من الأحسن تفادي البرتوكول في هذه الليلة، فرد علي هناك سبب آخر وهو وجود صديقكم الحبيب بورقيبة، مما يلزم جلوسكم في مائدة الملك، وفي مأدبة الغداء تناولت صحن ووضعت فيه بعض الطعام وتوجهت أبحت عن مائدة فوجدت بإحدى الموائد صديقين هما امحمد باحيني الوزير الأول السابق، والحبيب الشطي وكان أُنذاك سفير لتونس في الرباط وبينما جالسون لاحظت شخصية في البرلمان فذهبت للسلام عليهما^(٦٠)، وما أن تخطيت المائدة التي كنت أجلس عليها حتى دخل عدد وفير من الجنود وبدأوا في إطلاق الرصاص وطرح القنابل اليدوية، رأيت باحيني يسقط جثة هامدة، بينما نجا الشطي بأعجوبة، وفي تلك اللحظة أصابتنني شظية خلف ساقي مخلقة جرحاً مؤلماً، كان عدد الضحايا حسب عدد الطلقات، ففررت إلى الشاطئ والأغلبية كانوا محاصرين في القصر، وبعدها أعادونا إلى القصر والرشاشات مصوبة إلينا، ويصف عبد الهادي بوطالب المشهد بالمنظر الوحشي، ساحة القصر مغطاة بالجثث اضطر بعضنا إلى المشي فوقها، وبعد ذلك بدأ النداء على بعض الشخصيات المقربة للملك، ومن بينهم الجنرال بولحمص عامل الدار البيضاء وكل من نادوا عليه أردوه قتيلاً، وبحكم وجودي في أعلى طبقة رمقت عيني الجنرال محمد المدبوح وظننته هو من يدبر الانقلاب، لكن قل لي البعض ممن كانوا أقرب مني أن

الشخص الذي كان يتخاطب مع المدبوح هو الكولونيل محمد اعبابوا الذي أرسل محمد المدبوح ليتفاوض مع الملك والذي أخبره بأن الانقلابيين لا يطالبونه بالتنازل عن العرش وإنما يرغبون في التفاوض معه وعاد إلى الكولونيل اعبابوا ليخبره بأنه نجح في المهمة، فاعتبره هذا الأخير خائناً فأطلق عليه النار فأرداه قتيلاً^(١١).

الحسن الثاني لم أراه في هذه اللحظة، فقد كان في آخر ركن من ساحة القصر، كان برفقته أفقير^(١٢)، وبعدما يقرب من ساعة سمعنا مجموعة من الناس يقرؤون الفاتحة وآخرون يهتفون عاش الملك، متسائلين كيف لانقلابيين يبايعون الملك، وبعد ذلك عرفنا أن الملك كانت له الجرأة ليخرج لساحة القصر برفقة أفقير، ولما رأوه الجنود كأنما استفاقوا من كابوس مخيف، فقال لهم الملك كلمة مهدئة وطلب منهم أن يقرؤوا الفاتحة وبعد أن انتهوا من قراءتها أصبحوا يصيحون "يحيا الملك"، والمفسر لهذا التحول حسب الروايات فإن الجنود جاءوا للقصر من معسكر "هرمومو"، قيل لهم بأن الملك في خطر وجاءوا ليخلصوه من المتمردين الذين احتلوا القصر، كما أنهم أعطوا مخدرا قبل أن يتوجهوا للقصر وفعلنا كنت أرى احمرارا غير عادي في عيون بعض الضباط والجنود، وإذ ذلك أعطى الملك السلطات كاملة لأفقير الذي انصرف إلى الرباط ليسهر على سلامتها^(١٣).

قام أفقير بمحاكمة الضباط المتآمرين وأعدمهم بنفسه وكان من بينهم جنرال سمع صوته في التسجيل الإذاعي يقول جلالة الملك، فأراد الحسن الثاني أن يعرف تفاصيل الحادث فعقد اجتماع مغلق حضرته مع أحمد العراقي الوزير الأول ويوسف بن عباس وزير الخارجية والجنرال أفقير وأحمد العلوي وزير التجارة والصناعة ومولاي عبد الحفيظ وزير التشريفات والأوسمة والقصور الملكية، وفي الاجتماع قال أفقير بقيت مع جلالتيكم ليلة اليوم السابق للمؤامرة في الحفل حتى تناولت العشاء في ساعة متأخرة من الليل، فتذكرت بأنه فلا كان حاضرا في بداية الحفل لكنه تسلل ولم يعد فاكتشفت من كذبه بأنه كانت له يد في الانقلاب.

وبعد أسبوع هدأت الأمور فأردت أن أتخلص بمن هواجسي، فقلت للملك أريد أن أتحدث إليكم في أمور خطيرة، وفي لقاء سري بقصر الصخيرات فأخبرته بأني سأنسحب من رئاسة البرلمان وقبل أن أفسح عن قضية

أفقير قلت له أريد أن أبقى حياً ولي ثلاثة أبناء، فسألته عن ثقته بأفقير فعبر عن رضاه وثقته به وعبرت له عن شكوكي به، فرد عليّ هذه عائلة مخلصه ادفع عنك هذه الأوهام ولا تفض بهاجسك لأحد^(١٤).

ورغم غضبه علي بسبب انسحابي، لكن كنت متشبثا بقراري، وفي ١٦ غشت ١٩٧٢ بالدار البيضاء فتحت التلفزيون فإذا بي أشاهد الدكتور محمد بن هيمة وزير الداخلية، يقول إنه وقعت محاولة فاشلة لإسقاط الطائرة الملكية وهي قادمة من فرنسا، وأن الجنرال أفقير قد انتحر، وأن جلالة الملك متمسك بزمam الأمن وكل شيء على ما يرام، وبعد مرور ٢٤ ساعة نادى علي مولاي حفيظ وزير التشريفات والقصور الملكية، وقال لي سيشفرف الرئيس الحبيب بورقيبة الرباط مهنتا سيدنا نصره الله على سلامته وجلالته يريدك أن تكون جالسا في مائدته في الغداء مع صديقك الكبير، ففهمت أنه يدعوني تكريما لي وليتركني أفهم أنني كنت على حق دون أن يقول لي هذا، ولم يثير موضوع أفقير طول حياته معي^(١٥).

الإبداع السياسي...المسيرة الخضراء

يقول عبد الهادي بوطالب عن هذا الإبداع السياسي والمسيرة الخضراء، من أجلها قبلت أن أرجع للسياسة كسفير بواشنطن، لأنني اقتنعت بمشروع الحسن الثاني، الذي كان يراهن على أن يمثل المغرب بالخارج سفراء أكفاء، ليعبروا عن دفاعهم عن المشروع الذي سأعلنه^(١٦).

علمت بقضية المسيرة ١٥ يوما من الملك قبل خطابه الذي أعلن فيه عن تنظيم مسيرة سلمية شعبية كبرى نشارك فيها كل الفصائل من كل أنحاء المغرب ومن مختلف شرائحه، وفي هذه الفترة كان يركز رحمه الله على السرية عدم إفشاء الخبر، تم عدت إلى واشنطن لأقوم بدوري عندما تعلن المسيرة، طلب مني أن أطرق كل الأبواب والسبل لتقبلها الرأي العام^(١٧) الأمريكي والكونغرس ووزارة الخارجية والإعلام الأمريكي لكي لا ينحازوا للجانب الإسباني، وبعد انطلاق المسيرة الأمريكيون اتخذوا موقف الحياد و الحذر مما يبرز أنني نجحت في مهمتي^(١٨)، لم يبينوا تعاطفهم معنا أخذين بالاهتمام تحالفهم الاستراتيجي مع إسبانيا، لكن تلقت أمريكا بارتياح خبر قبول فراشيسكو فرانكو بارتياح بعد أن أرسل إلى الحسن الثاني يريد التفاوض، فأبرمت معاهدة

مسألة تنظيم المسيرة الخضراء

حاول الدكتور عبد الهادي بوطالب أن يكشف أنباء ربما تكون ظلت طي الكتمان تتعلق بتنظيم المسيرة وبدايتها يقول في الصدد أريد أن أضيف أمور أكثر دقة، لأنني اشتغلت عن مجريات المسيرة الخضراء واطلعت على وثائق لم يكشف عنها أعدتها القيادة العامة للقوات المسلحة الملكية، لقد قيل عنها مسيرة ٣٥٠ ألف شخص، وعرفت أن الذين شاركوا فيها بلغ ٥٢٤ ألف، في البداية عندما فتح باب التطوع وصل العدد ما يناهز ٣ ملايين، تم التفكير في اختصارها إلى مليون وأخيراً حصرها في ٥٢٤ ألفاً^(٧١).

شارك فيها متطوعين من السعودية والعراق والكويت وقطر والأردن ولبنان والسودان وعمان والغابون ومتطوعين من أمريكا وكلهم يحملون أعلام بلدانهم، ساهم الجيش في التنظيم تحت قيادة الكومندان عبد العزيز بناني والكومندان محمد الزباني والمقدم أشهار وسهر على تأطير المشاركين أعوان وزارة الداخلية من قواد وباشوات^(٧٢).

١. وضع على رأس كل قبيلة رئيس فيها يعرف أعضاء قبيلته
٢. وضع قائد ومعه ٥ شيوخ للإشراف على تأطير ٢٥٠٠ مشارك
٣. عهد ١٥٠ ضابط وه نواب ضباط يتولوا الإشراف على وحدة من وحدات الجيش.

قبل المسيرة في وقت وجيز خضع المؤطرين لتكوين سريع تلقوا فيه دروس التوعية التربوية والسياسية وكيفية المخاطبة، وتقنية استعمال الكثير من الأدوات كما تلقى حفظة القرآن تكويناً روحياً من الأئمة، طبعت ٥٠٠ ألف نسخة من المصاحف، ويذكر أن مدة الاستعداد دامت ١٨ يوماً عبت في هذه الفترة ١٠٠ كلم من طنطان إلى طرفاية ومن طرفاية إلى آخر نقطة لحدود الصحراء تسمى "الطاح".

ومن حيث اللوازم اللوجستية، كانت هناك ١٢ ألف شاحنة و١١٣ قطار لنقل المتطوعين لمراكش، تم ينقلون لطرفاية عبر الشاحنات.

مدريد سنة ١٩٧٥ والتي وقعت عليها موريتانيا والمغرب وإسبانيا، وتم الاتفاق بن المغرب وموريتانيا بأن تكون منطقة الداخلة لموريتانيا لكن هذه ترجح لها في الأخير أن تنفض يدها على قضية الصحراء وأنها لا تريد البقاء في الداخلة، فألحقها الملك بالأقاليم المغربية المحررة، وللإجابة عن سؤال لماذا تخلت موريتانيا عن الداخلة لأن فصائل جبهة البوليساريو أصبحت تهاجم التراب الموريتاني، كما أن الجزائر أخذت تمارس عليها ضغوطات شديدة وفي هذا الصدد يذكر عبد الهادي بوطالب^(٧٩) قوله الهواري بومدين في اجتماع مع الرئيس الموريتاني المختار ولد داداه قائلاً: ارفع يدك عن الصحراء، انسحب وانفض يدك من التعاون مع المغرب وإلا فنحن لك بالمرصاد، لتسحب موريتانيا بعد أن كانت دخلت قواتها للداخلة، وبسطة عليها إدارتها وكان من المرتقب أن يرسل ولد داداه والحسن الثاني بعثة مشتركة إلى رؤساء الدول الصديقة للتعريف بما أل إليه اتفاق مدريد، وبعد انتهاء المسيرة الخضراء أصبحت قضية الصحراء متنازع عنها في الأمم المتحدة إزاء توجيه الموقف الجزائري المفاجئ والمخيب للآمال، حيث أصبحت الجزائر تؤيد البوليساريو، وتعتبر اتفاقية مدريد الثلاثية لم تحل المشكل، وقدم عبد العزيز بوتفليقة وزير خارجية الجزائر إلى نيويورك ليتصل بالسلك الدبلوماسي العربي المعتمد لدى الأمم المتحدة ويطلعه على موقف الجزائر، ولما علم الحسن الثاني بقرب انعقاد الاجتماع طلب أن يكون المغرب حاضراً ليذاع عن وجهة نظره، كان أنا ذاك الدكتور أحمد العراقي وزيراً للخارجية موجوداً في نيويورك هو إدريس السلاوي مندوب المغرب لدى الأمم المتحدة، وكان الحسن الثاني يقول لا يمكن أن يقابل بوتفليقة في هذه المناظرة إلا عبد الهادي بوطالب، ويقول عبد الهادي بوطالب^(٧٠): حضرت اللقاء وكانت مع بوتفليقة مساجلة من أكبر المساجلات السياسية التي خضتها في حياتي، إذ بعد أخدي الكلمة رداً على بوتفليقة وشرحت تأصل مغربية الصحراء في جذور التاريخ، ومراحل تحريرها من الاستعمار الإسباني بدأ من قرار محكمة العدل الدولية بلاهاي المعترف بحق المغرب في الصحراء وتقديم الصحراويين البيعة للملك، وتنظيم المسيرة واتفاقية مدريد.

الحكمة ورأس الحكمة مخافة الله، وكان رصينا متعلّقا على اتخاذ القرارات قبل نضجها وإنضاجها، وهذه الخصلة الأخيرة أخذها محمد السادس عن جده^(٧٦)

أما الحسن الثاني فكان رجل الوسط، كان لينا حينما يريد وحازماً قوياً حينما يقرر، كان لا يتساهل من مواطنيه إخلالهم بواجبات التوقير والاحترام لشخصه لكنه كان سموحاً.

خاتمة

يتضح لنا من خلال هذا العرض، أن للذاكرة حضور كبير ومؤثر على المستوى السياسي والاجتماعي خلال الزمن القريب والراهن، وباتت تقوم بدور أكبر على مستوى تحديد علاقة الناس بماضيهم ورسم تمثلاتهم التاريخية وذلك في سياق ما شهده العالم خلال القرن الماضي ومطلع القرن الحالي من أحداث جسام كان لها بالغ الأثر على البشرية من بينها الاستعمار والحركات التحررية، والحرب العالميتان، والأنظمة الشمولية وانتهاكات حقوق الإنسان من طرف هذه الأنظمة، ومرحلة الانتقال الديمقراطي.

وقد تزايد هذا الطلب الاجتماعي على التاريخ واثم البحث في حفريات الذاكرة بكثافة أمام رغبة في فهم الماضي أو بغية التصالح معه ومسح بصمات العار التي لحقت بالعض منه. أو قصد تجاوز حالات الحزن والحداد، أو بهدف استدامته وتحويل بعض من محطاته إلى أحداث مؤسسية للهويات الفردية والجماعية بالنسبة لكثير من الفاعلين في ميدان إنتاج المعرفة التاريخية وبات الشاهد فاعلاً مهماً فيه.

ومن مظاهر هذا الحضور الكثيف للذاكرة، إصدار كتابات ذات طبيعة تاريخية وسياسية وصحافية ومذكرات وسير ذاتية تناولت تاريخ الفترة، أغلبها صدر في نهاية القرن الماضي ومطلع القرن الحالي، كما تعزز هذا الحضور الذاكري بالتطور التقني والإعلامي الهائل، حيث يمكن الحديث اليوم عن طغيان الذاكرة وسطوتها واتجاهها نحو الهيمنة على تمثل الماضي القريب والراهن.

وحددت ثلاث وجبات في اليوم ٣٢٠٠ وجبة حرارية في كل الوجبات، وأعطى كل فر ١٠ لترات من الماء في اليوم، كما زودت المسيرة ب ٤٠٠ بطانية، و ٤٠٠ ألف من أدوات الأكل و ٢٠ ألف براد، وأتي لكل جهة طبّاخين يتقنون طبخ النواحي الذي يسكن فيها المشاركين حتى لا يحسون أنهم خرجوا من بيوتهم وتغير عليهم الطعام، وبالنسبة للمؤن: ١٥ طن من الشموع ومثلها من الصابون و ٤٥ طن من الفارين، و ٩٠ ملايين من علب الحليب و ٢٥ طن من السكر ومثلها من الزيت، ٩٠ طن من التمر، ٥٠ طن من السجائر، ١٧ مليون من المحروقات، وزودت المسيرة بوحدات طبية و ٢٠٠ سيارة إسعاف.^(٧٧)

لقد حقق الحسن الثاني في مسيرته جميع مقاصده، وكان يريد أن يضغط بها ضغطاً معنوياً شعبياً على إسبانيا، لتدخل معه في مفاوضات، وبعد أن تلقى الوعد طلب من المسيرة أن ترجع وتم التوقيع على معاهدة مدريد، فازدادت قيمة الحسن الثاني وحببه لدى الشعب وأصبح يذكر بمحرر الصحراء وأيضاً أصبح ذو مكانة وقيمة في خارج المغرب.

جلالة الملك محمد السادس (حركة إصلاح شاملة)

بعد وفاة الحسن الثاني كان وقعه مؤلماً علي، إذ ارتبطت به طيلة ما يناهز من نصف قرن، لكن كنت مطمئناً إلى انتقال السلطة إلى ابنه محمد السادس، وعلمت بأنه سيكون في مستوى المسؤولية ولم يخامرني أي شك حول مستقبل المغرب^(٧٨)، وبعد توليه الحكم أرسل إليّ لكي أعود لأشتغل في مناصبي السابق كمستشار لجلالته، لكنني لم أوافق على شغل نفس المنصب ومستعد لخدمة لجلالته في منصب آخر يختاره أو حتى بدون منصب وبدون راتب.

ووصف عبد الهادي بوطالب^(٧٩) حكم الملك محمد السادس وهو في سنته الأولى، أنه يمضي بحركة إصلاح شاملة، وتميز حكمه بتنظيرات تحررية عن المفهوم الجديد للسلطة، ويرد الاعتبار لكل ما كانوا محرومين من الحرية أو منفيين من المغرب، يواسي المعوقين ويحذب على الفقراء، وألاحظ أن محمد السادس يخطوا على طريق الحداثة والتطور والديمقراطية.

ويتحدث عن نقاط التقارب والتباعد بين شخصيات الملوك الثلاثة الذي عاصروهم، فالملك محمد الخامس كان هينا لينا لا يمكن أن يخل بكرامة إنسان، إنه يملك رأس

الإحالات المرجعية:

- (١) الطاهري عبد العزيز: **المذكرات وكتابة تاريخ الزمن القريب والراهن**، مجلة وجهة نظر، العدد ٦٢، السنة العشرون، خريف ٢٠١٤، ص ٧.
- (٢) الطاهري عبد العزيز: **الذاكرة والتاريخ، المغرب خلال الفترة الاستعمارية (١٩٥٦-١٩١٢)**، دار أبي رقراق للطباعة والنشر- الرباط، ط/ الأولى ٢٠١٦، ص ٣٣.
- (٣) **نفسه**: ص ٣٣.
- (٤) الطاهري عبد العزيز: **المذكرات وكتابة تاريخ الزمن القريب والراهن**، مجلة وجهة نظر، مر/س، ص ٧.
- (٥) احساين عبد الحميد: **قراءة في كتاب، مسيرة التحرير لصاحبه الحاج الحسين برادة**، مجلة الجمعية المغربية للبحث التاريخي، عدد ٣ السنة ٢٠٠٥، ص ١٠٣-١١١.
- (٦) مهديها أحمد: **قراءة في كتاب، ذاكرة نضال وجهاد، لصاحبه الغالي العراقي**، مجلة الجمعية المغربية للبحث التاريخي، عدد ٣، مر/س، ص ١١٢-١١٣.
- (٧) برباب عكاشة: **قراءة في كتاب، صفحات من ملحمة جيش التحرير بالجنوب المغربي، لمؤلفه محمد بنسعيد آيت يدر**، مجلة الجمعية المغربية للبحث التاريخي، عدد ٣، مر/س، ص ٨٧-١٠١.
- (٨) الدفالي محمد معروف: **مذكرات محمد بن الحسن الوزاني، بين المذكرات والتاريخ**، مجلة الجمعية المغربية للبحث التاريخي، عدد ٣، مر/س، ص ٧٣-٨٥.
- (٩) اعتمدنا في وضع هذه اللائحة من المذكرات على:
- الطاهري عبد العزيز: **الذاكرة والتاريخ، المغرب خلال الفترة الاستعمارية (١٩٥٦-١٩١٢)**، مر/س، ص ٣٤-٣٥.
- (١٠) بوطالب عبد الهادي: **نصف قرن في السياسة**، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء، الطبعة الأولى ٢٠٠١، ص ٧٥-١٤٥-١٩٣-٢١٧-٢٦٩-٢٧٩-٣٣١-٣٥١.
- (١١) **نفسه**: ص ٢١٦.
- (١٢) **نفسه**: ص ٣١٢-٣١٨.
- (١٣) للأمانة فقط، فقد توقعنا على دراسة لهذه المذكرة، تقدم بها الباحث ياسين إبراهيم، لكن تبقى في نظرنا دراسة تقنية ومحدودة، في سبع صفحات، وهي على الشكل الآتي:
- تقديم الكتاب وصاحب المذكرة: في ورقة ونصف.
- محاذير وتنبيهات لابد منها في ورقتين
- بعض الجوانب المفيدة للباحث في الكتاب في ثلاث ورقات.
- انظر: ياسين إبراهيم، **قراءة في مذكرة نصف قرن في السياسة، لعبد الهادي بوطالب**، مجلة الجمعية المغربية للبحث التاريخي، عدد ٣، مر/س، ص ١٢٣-١٣٠.
- (١٤) بوطالب عبد الهادي: **نصف قرن في السياسة**، مص/س، ص ١٣.
- (١٥) **نفسه**: ص ١٤-١٥.
- (١٦) **نفسه**: ص ١٦.
- (١٧) بوطالب عبد الهادي: **نصف قرن في السياسة**، مص/س، ص ١٨.
- (١٨) **نفسه**: ص ٢٥.
- (١٩) **نفسه**: ص ٢٩.
- (٢٠) بوطالب عبد الهادي: **نصف قرن في السياسة**، مص/س، ص ٣٢.
- (٢١) **نفسه**: ص ٣٦.
- (٢٢) **نفسه**: ص ٣٧-٣٨.

وقد لاحظنا انطلاقاً من مذكرة "نصف قرن في السياسة"، أن الشاهد انطلاقاً من رواياته الشفوية وحواره مع حاتم البطيوي، قد تمكن من استدامة ذاكرته وحفظها من النسيان إلا أن شهادته تميزت بالكثير من الاختزالية والانتقائية، بمعنى أن الشاهد يركز على أحداث وبعض أخرى وفقاً لرهانات الذاكرة وحسب الأهمية التي يعطيها لكل حدث.

وإلى جانب هذا تتسم هذه الشهادة بمستوى عال من الذاتية وتفتقر إلى الموضوعية، والسبب أنها داخلية تنبعث من ذات الشاهد ولا تنظر إلى التاريخ إلا من زاوية واحدة: زاوية ذاتية داخلية، وهي زاوية تموقعه، وهذا ما يحرم المؤرخ والباحث من توسيع النظر إلى الأحداث التاريخية سواء ممن حيث المجال، أو الزمن، أو الفاعلين، أو الأبعاد الإنسانية المختلفة سياسياً، أو اقتصادياً، أو اجتماعياً، أو ثقافياً، أو ذهنياً.

- (٢٣) نفسه: ص ٣٨.
- (٢٤) نفسه: ص ٤٦-٤٧.
- (٢٥) بوطالب عبد الهادي: نصف قرن في السياسة، مص/س، ص ٤٧.
- (٢٦) نفسه: ص ٥٢.
- (٢٧) نفسه: ص 52.
- (٢٨) نفسه: ص ٥٣.
- (٢٩) نفسه: ص ٦٤-٦٥.
- (٣٠) نفسه: ص ٦٥-٦٦.
- (٣١) بوطالب عبد الهادي: نصف قرن في السياسة، مص/س، ص ٦٨-٦٩.
- (٣٢) نفسه: ص ٧٤.
- (٣٣) نفسه: ص ٨١.
- (٣٤) نفسه: ص ٩٤.
- (٣٥) نفسه: ص ٩٥.
- (٣٦) بوطالب عبد الهادي: نصف قرن في السياسة، مص/س، ص ١١٨.
- (٣٧) نفسه: ص 116.
- (٣٨) نفسه: ص ١١٧.
- (٣٩) نفسه: ص ١١٧.
- (٤٠) نفسه: ص 118.
- (٤١) نفسه: ص ١٣٠.
- (٤٢) نفسه: ص 131.
- (٤٣) نفسه: ص ١٣٤-١٣٥.
- (٤٤) بوطالب عبد الهادي: نصف قرن في السياسة، مص/س، ص ١٤٠.
- (٤٥) نفسه: ص ١٤١.
- (٤٦) نفسه: ص 142.
- (٤٧) نفسه: ص ١٤٢.
- (٤٨) نفسه: ص ١٤٤.
- (٤٩) نفسه: ص 146.
- (٥٠) نفسه: ص ٢٠٠.
- (٥١) نفسه: ص ٢٠٢.
- (٥٢) بوطالب عبد الهادي: نصف قرن في السياسة، مص/س، ص ١٧٦.
- (٥٣) نفسه: ص ١٧٦.
- (٥٤) نفسه: ص 177.
- (٥٥) نفسه: ص ١٧٨.
- (٥٦) نفسه: ص 224.
- (٥٧) نفسه: ص 225.
- (٥٨) بوطالب عبد الهادي: نصف قرن في السياسة، مص/س، ص 227.
- (٥٩) نفسه: ص 228.
- (٦٠) نفسه: ص ٢٢٩.
- (٦١) نفسه: ص ٢٣٠.
- (٦٢) نفسه: ص ٢٣١.
- (٦٣) بوطالب عبد الهادي: نصف قرن في السياسة، مص/س، ص ٢٣٣.
- (٦٤) نفسه: ص ٢٣٧.
- (٦٥) نفسه: ص ٢٤١.
- (٦٦) بوطالب عبد الهادي: نصف قرن في السياسة، مص/س، ص ٢٦١-٢٦٢.
- (٦٧) نفسه: ص ٢٦٣.
- (٦٨) نفسه: ص ٢٧٠.
- (٦٩) نفسه: ص ٢٧٠.
- (٧٠) نفسه: ص ٢٧٢-٢٧٣.
- (٧١) بوطالب عبد الهادي: نصف قرن في السياسة، مص/س، ص ٢٧٣.
- (٧٢) نفسه: ص 274.
- (٧٣) بوطالب عبد الهادي: نصف قرن في السياسة، مص/س، ص 275.
- (٧٤) نفسه: ص ٣٤٦.
- (٧٥) نفسه: ص ٣٤٧.
- (٧٦) نفسه: ص ٣٤٨.



2008 - 2025



<https://kan.journals.ekb.eg>

Historical Kan Periodical

ISSN: 2090 – 0449 (Online).

Peer-reviewed, open-access journal,
indexed and abstracted in several
international databases.

<https://portal.issn.org/resource/ISSN/2090-0449>
<https://www.facebook.com/historicalkan>